سلمى الحفار الكزبري

مي زيادة

أو

مأساة النبوغ

المجلد الثاني

مؤسسة نوفل

سلمى الحفار الكزبري

ميّ زيادة

أو

مأساة النبوغ

الجزء الثاني

مؤسسة نوفل
بيروت . لبنان

مَيّ زِيَادَة

أو

مأساة النبوغ

٢

الطبعة الأولى

١٩٨٧

بناية نوفل . شارع المعماري
تلفون ٣٥٤٨٩٨ - ٣٥٤٣٩٤ . تلكس ٢٢٢١٠ نوفلتن
ص.ب ١١/٢١٦١ . بيروت . لبنان

حياتها العاطفية وحبها لجبران

(كلٌّ يرحم من قضى جوعاً ولكن من ذا يرحم قلباً جائعاً إلى الحب العظيم؟ وفكراً ليس له من يفهمه ويقدره، ونفساً طويت على الحنـان، وبذل الـذات، تتـرقب مجيء من تسعد بالتضحية لأجله فلا يجيء، كأن نهر الأعمار جرفه في تيارٍ قديم؟

ميّ)[1]

Mlle May Ziadé الآنسة ميّ زيادة

« الحب العظيم» الذي حملته ميّ لجبران خليل جبران طول حياتها، وتوقها الكبير لتسعد بقربه و «بالتضحية لأجله» كان حباً عقيماً، وتوقاً اكتوت بناره دون أن تنعم بنوره لأن «نهر الأعمار جرف جبران في تيارٍ قديم» كما قالت، فحرمها من رؤيته، والتنعّم بقربه، والتضحية بالمجد من أجله!

---

(١) المساواة ـ مي زيادة ـ ص: ١٩٢.

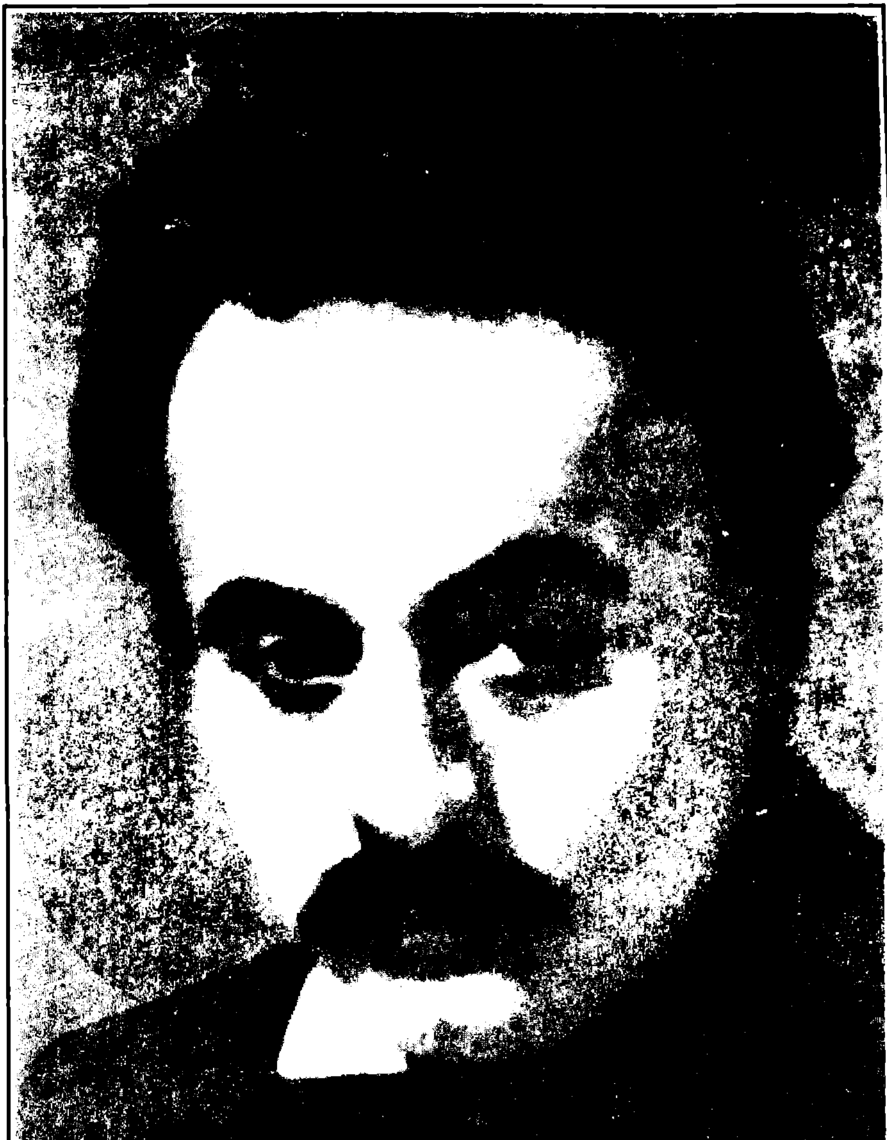

جبران خليل جبران

وقبل أن نخوض في الحديث عن حب ميّ لجبران، وحب جبران لميّ ينبغي أن نشير إلى أن قلب ميّ خفق بالحب أول مرة يوم كانت طالبة في مدرسة عينطورة بكسروان لنسيبها جوزيف زيادة الذي كان يدرس الطب في بيروت، لوسامته، وطموحه العلمي وحبه الأدب، وحديثه اللبق، ولكنه كان على أهبة السفر إلى فرنسا للتخصص بالطب، فاتفق والدها ووالده على خطبتها لأخيه الأكبر نعوم. وقد تمّت الخطبة ثم ألغتها ميّ بعد اكتشاف خداع نعوم الذي توسّمت فيه الشهامة والصدق، كما رأينا في فصل «خطبتها» ولا ريب في انها ظلّت تحفظ لجوزيف منزلةً رفيعةً في قلبها، وصورةً جميلةً لشخصيته بدليل استنجادها به وحده، دون سائر أقربائها، وهي في غمرة أحزانها سنة ١٩٣٥، كما سنرى في فصل: «احزانها وبداية مرضها». ولكن أهم ما ينبغي أن نشير إليه أن اخفاق ميّ في حياتها العاطفية وهي في الثامنة عشرة من العمر، والمرارة التي تولّدت في نفسها عقب خطبتها لنعوم أصاباها بصدمةٍ نفسية ظلّت رواسبها ظاهرةً في سلوكها العاطفي، ولا سيما في ارتيابها بالناس عامةً، وبالرجال خاصةً. وقد نوه الأستاذ العقاد بهذه الصدمة في حديثه عن ندوتها فقال:

(وقد كنت أشعر بحنان هؤلاء الأفاضل الأبويّ نحوها كلما ازددت معرفةً بمي وحياتها وندوتها، فإنهم ولا ريب كانوا يقصدون التسرية عنها، ويدركون من بواكير صباها أن فرط التزمّت في طويتها يجاوز حدّ المأمول، وأنها توشك أن تعاني كثيراً من عادة العزلة النفسية التي جنت عليها في أخريات أيامها، وأنها تغالب شجناً كميناً لانطوائها الشديد على ذاتها، نميل إلى أنه مزيج من الصدمة العاطفية، وشعورٍ بالتبتل العميق في سليقتها الدينية)(١).

إن في هذه الشهادة من صديق لميّ عرف طبيعتها دليل على مغالاتها في

---

(١) مي اديبة الشرق والعروبة ـ محمد عبد الغني حسن ـ ص: ١٨٧ ـ ١٨٨.

الاحتراس الناجمة عن أمرين: الأول هو سطوة التربية الرهبانية التي تلقتها، والثاني هو خيبة أملها في أول تجربة عاطفية يوم خطبها ابن عمها نعوم زيادة بعد أن كتمت ميلها لأخيه جوزيف، واكتشفت أثناء الخطبة أنه كان يغشها في رسائله الجميلة التي كان يكلّف أخاه جوزيف، وصديقه الفنان يوسف الحويك بكتابتها. . . وميّ، كما نعلم، نشأت في بيئة محافظة، وتعلّمت في ديرٍ غرس فيها فكرة ارتباط الحب بالإثم، ودرّبها على ضبط العواطف الجامحة، إن لم نقل على خنقها في النفس. وهذا ما جعلها امرأة منطوية، متكتمة في عواطفها حين غزا الحب قلبها أول مرة، وهي فتاة صغيرة، وحتى حين أحبت جبران، بعد ذلك ببضع سنوات، ناهيك عن أنها برزت صحفية وشاعرة، وخطيبة وكاتبة في عصرٍ لم يكن يألف الناس فيه مخالطة المرأة للرجال في حياتهم العامة، وندواتهم الخاصة، فغالت في التزمت والاحتراس بسلوكها حرصاً على نقاوة سمعتها.

هنالك من قال إنها كانت ناقمة على الرجل وإنها «سادية» تجد لذة في تعذيبه، وهنالك من قال إنها كانت الأنوثة الطبيعية، وهنالك من قال إنها كانت معقدة نفسياً، عاجزة عن تجاوز عقدها المزمنة، والحق أنها كانت امرأة صعبة المراس، شديدة الخفر والحياء، كثيرة الارتياب، تؤثر الاحتفاظ بعواطفها على البوح بها بدافع المؤثرات الوراثية، والتربوية والنفسية والاجتماعية التي ذكرناها آنفاً، ولا تجيز الحب إلا إذا كان مرتبطاً بالزواج! الكاتب الوحيد الذي تفهّم موقفها من الحب، وصوّره ببلاغة وإيجاز هو الأستاذ مارون عبود حيث كتب يقول:

(أشارت إليها المحبة فاتبعتها، فدرستها على بيدرها، وغربلتها لتحرّرها من قشورها، وطحنتها لتجعلها نقيةً كالثلج، وعجنتها بدموعها حتى تلين، وأعدّتها لنارها المقدسة فكانت خبزاً طاهراً، ومحرقةً نقية!)[1].

---

(١) جدد وقدماء ـ مارون عبود ـ ص: ١٤٧.

كان حبها لجبران الذي استمر تسعة عشر عاماً؛ ونما عبر المراسلة حباً عارماً عاشته عشقاً روحياً وقدسياً فريداً من نوعه. والحديث عن هذين النابغين، وولوج عالمهما، وسبر أغوار حبهما وشخصيتيهما مما يفرض التهيّب والتحرّز، فما زال العلماء يبحثون، منذ أقدم العصور، عن أسرار النفس الإنسانية بغية فكّ طلاسمها، وما زالوا يصطدمون بعقبات كبيرة حتى اليوم. ومع ذلك لا بدّ لنا من خوض المغامرة لأن قصة حب ميّ لجبران من أغرب قصص الحب في التاريخ، وأكثرها إثارةً، وغموضاً، ولأن ما يجلو بعض الغموض عنها هو الوثائق المخطوطة بقلم جبران وقلم ميّ التي ستكون أهمّ مستند في هذا الفصل.

كان الفارق في السن بين جبران وميّ ثلاث سنوات فقط إذ وُلد جبران في ٦ ـ ١ ـ ١٨٨٣، وولدت ميّ في ١١ ـ ٢ ـ ١٨٨٦. وكلاهما انحدر من أسرة لبنانية مارونية، فكما أن جبران ابن خليل جبران من بلدة بشري في شمالي لبنان فإن ميّ بنت الياس زيادة سليلة أسرة أصلها من بلدة إهدن في شمالي لبنان أيضاً، مما حدا بجبران إلى أن يقول لها في رسالته المؤرخة في ١ ـ ١٢ ـ ١٩٢٣: (لنتخاصم ما شئنا وشاء الخصام، فأنت من إهدن، وأنا من بشري، ويبدو أن المسألة إرثية)[١].

وكلاهما كان فخوراً بأصله، شغوفاً بحب وطنه، وقضى عمره مغترباً عنه: جبران في الولايات المتحدة الأميركية، وميّ في أرض الفراعنة، وكلاهما أضاء للأجيال العربية شعلة التجديد في الفكر والأسلوب، وتغنى بالقيم الروحية، والأصالة الشرقية. كما أن كلاهما عاش عزباً ونذر نفسه للأدب والفن، وأثرى المكتبة العربية الحديثة بنفحاتٍ وجدانية، وآثارٍ قيمة، طغت

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ رسائل جبران خليل جبران المخطوطة الى مي زيادة ـ تقديم وتحقيق سلمى الحفار الكزبري والدكتور سهيل بديع بشروئي ـ الصفحة ١٤٦ من الطبعة الأولى.

عليها سمات الرومنطيقية، والرمزية، والمثالية، ولامست الصوفية أحياناً بوحي حبهما الذي سما بنفسيهما إلى رحاب الله!

وكلاهما كان أديباً لامعاً في عصره، مطلعاً على ثقافة الغرب، متأثراً بها، بدأ جبران مسيرته الأدبية بالكتابة بالعربية، ثم تحول إلى الكتابة باللغة الانكليزية فنشر فيها: «المجنون»، و«السابق»، و«النبيّ»، و«يسوع ابن الإنسان» و«آلهة الأرض» إذ أحب أن ينقل للغرب فلسفة الشرق وصوفيته، فنبغ، وقيّم أدبه شيخ النقاد مارون عبود قائلاً: (فزعيم أدب المهجر شخصية لها مميزاتها القوية، وعناصرها المتمردة. فهو شرقي عربي، لم يكتب ليمغرب الشرق، بل كتب ليمشرق الغرب، ويكون له رسولا... والشخص الفذّ هو الذي يحتفظ بلونه لأنه في غنىً عن الألوان التي يكتسبها من محيطٍ غريب)[1].

أما ميّ فقد تحولت من الكتاب باللغة الفرنسية (بعد أن نشرت ديوان شعرها الوحيد فيها بعنوان: «أزهار حلم»)، إلى التعبير باللغة العربية فنشرت كتباً متعددة وتبوأت أرفع مكانة بين أعلام عصرها، مما حدا بالأستاذ أحمد حسن الزيات إلى أن يقول عنها: (كانت ميّ في حياة القاهرة ظاهرةً من الظواهر العجيبة! والعجب فيها أنها كانت كممدوح المتنبي: واحدةً من ناس دنياها وليست منهم. كانت جنساً من الخلق الجميل تميّز بخصائص الجنسين، فكان فيها أفضل ما في الرجل، وخير ما في المرأة. ونحن نقول في ميّ ما قال بشار في الخنساء: إنها فوق الرجال)[2].

وكلاهما مات في الغربة إذ مات جبران في نيويورك في ١٠ - ٤ - ١٩٣١، وماتت ميّ في القاهرة في ١٩ - ١٠ - ١٩٤١، ولكن آثارهما الأدبية ظلّت خالدة وذكراهما ظلّت حيةً في الضمائر، جيلاً بعد جيل، لما قدما للنهضة والفكر من كتابات كانت عصارة فكرين، وتوقّد روحين، وذوب قلبين.

---

(١) مجددون ومجترون - مارون عبود - الطبعة الرابعة - ص: ٢٤٦.

(٢) وحي الرسالة - أحمد حسن الزيات - الطبعة السادسة - ص: ٣١٣ - ٣١٤.

ميّ وجبران إمرأة ورجل تعارفا عبر الرسائل وتحابا، سعدا بحبهما وشقيا، وأثريا المكتبة العربية بصفحات رائعة في فن المراسلة، فالقليل الذي لدينا من رسائل ميّ يعتبر نموذجاً متميزاً من هذا الفن لأن أكثر رسائلها لجبران مازال مفقوداً. ويعود الفضل في اطلاعنا على بعض رسائلها إلى مجهود الدكتور جميل جبر في جمعها بكتابٍ نشره سنة ١٩٥١ بعنوان: «رسائل ميّ» بعد أن ظهر بعضها في جريدتيّ: «المكشوف»[١] و«العمل»[٢]، ومجلة «العصبة»[٣] البرازيلية، في تواريخ سابقة. وأغلب الظن أن رسائل ميّ إلى جبران التي اكتشفت كانت مما وصل إلى متحف بشرّي بعد نقل رفاته إليها. فأين رسائلها الكاملة؟ أول ما يخطر في البال أنها بقيت في الولايات المتحدة الأميركية، وقد أكّد ذلك الأستاذ ميخائيل نعيمه فقال:

(كنت أتردّد كثيراً على جبران في صومعته، وأذكر أنه كان يحدثني أحياناً عن إعجابه بأدب ميّ، واتصاله بها عبر المراسلة. وقد أخبرني بأنه يتلقى منها رسائل «علويّة» على حدّ تعبيره، وذات يوم فتح درجاً من دروج مكتبه وأخرج منه رزمة رسائلها إليه ثم أقفله بالمفتاح خشية تسرّبها، ولم يطلعني على شيء منها. وبعد وفاته تولّيت مع شقيقته ترتيب أوراقه فلم أجد بينها أثراً لرسائل ميّ، ما عدا مسودة رسالة من رسائله إليها كان يخبرها فيها عن حلم مزعج رآه[٤]. وأغلب الظن أن جبران وضع تلك الرسائل أمانةً عند أحد أصدقائه)[٥].

---

(١) المكشوف ـ العدد (١١٠) ـ سنة ١٩٣٧ ـ والعدد (١٦٤) سنة ١٩٣٨.

(٢) العمل ـ العدد (٨١٠) ـ تاريخ ٧ ـ ١١ ـ ١٩٤٨.

(٣) العصبة ـ سان باولو ـ ج (٤) ـ العدد العاشر ـ تشرين الأول ١٩٣٨.

(٤) الرسالة المنوّه بها وجدناها ضمن رسائل جبران عند الدكتور جوزيف زيادة التي حققناها ونشرناها في كتابنا: الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٢٣ ـ١٢٤ من الطبعة الأولى استشهدنا بها في هذا الفصل.

(٥) من حديث الأستاذ ميخائيل نعيمه الينا الذي أجريناه في بيته في ضاحية عوكر بالقرب من بيروت بتاريخ ٢٣ ـ ٦ ـ ١٩٧٥.

واتفق أن حدثنا الأديب عيسى فتوح عن وجود تلك الرسائل في نيويورك أمانةً عند السيدةِ ماري عزيز خوري التي كان يجتمع في دارها أعضاء الرابطة القلمية إذ علم بذلك من سيادة المطران انطونيوس بشير يوم قابله في دمشق سنة ١٩٦٧، وقال له إن جبران كان صديقاً لماري خوري، وإنه إئتمنها على رسائل ميّ إليه! فبادرنا إلى السؤال عن هذه السيدة، وكتبنا إلى سيادة المطران فيليب صليبا، متروبوليت اميركا الشمالية المقيم في «نيوجرسي» نستوضح عن هذا الموضوع ونرجو منه المساعدة فيه فأجابنا بما يلي:

(تحيةً ودعاء،

اعتذر عن تأخيري بالردّ على رسالتك تاريخ ١٠ ـ ٤ ـ ١٩٧٩، ومردّ التأخير يعود إلى تغيّب السيدة ليلى طرابلسي عن نيويورك في أوروبا لمدة شهرٍ ونيّف، باعتبار أن ليلى هي أرملة السيد نسيب طرابلسي، أحد منفذي وصية السيدة ماري خوري المذكورة في رسالتك، والتي كانت، على حدّ قول الكثيرين، تحتفظ بقسمٍ كبير من مراسلات جبران لأصدقائه من الأدباء وغيرهم، ومن جملتهم رسائل ميّ زيادة له. وعقيب الاتصال بليلى بهذا الصدد نقلت لنا بالحرف الواحد: «إن ماري خوري قد أتلفت قبل وفاتها بقليل كل ما له علاقة بمراسلات جبران مع أصدقائه الأدباء في المهجر وعبر البحار». وقد علمت ليلى بأمر الإتلاف المنوّه به من سكرتيرة ماري خوري التي تجهل ليلى طرابلسي إسمها ومكان اقامتها حالياً. وبنتيجة الحوار مع ليلى بهذا الشأن أكّدت هذه عدم وجود أي أثر لرسائل ميّ زيادة لجبران في مخلفات ماري خوري.

هذا بشأنه، وأشكر لك طول الأنات على تأخيرنا بالردّ سائلاً المولى لك ملء العافية والنشاط لمتابعة رسالتك الشاقة في خدمة العلم والأدب، مع أصدق تمنياتي وأدعيتي.

الداعي بتوفيقك ـ فيليب صليبا

متروبوليت أميركا الشمالية).

MOST REVEREND
METROPOLITAN PHILIP
PRIMATE

MOST REVEREND
ARCHBISHOP MICHAEL AUXILIARY
2979 PEMBERTON DRIVE
TOLEDO, OHIO 43606
(419) 536-1500

Antiochian Orthodox Christian Archdiocese

OF NORTH AMERICA
358 MOUNTAIN ROAD
ENGLEWOOD, NEW JERSEY 07631
201 871-1355

حضرة الاديبة الفاضلة سلمى حفار الكزبري المكرمة .

تحية ودعاء

اعتذر عن تاخيري بالرد على رسالتك تاريخ ١٠/٤/١٩٧٦ ، ومرد التاخير يعود الى تغيب السيدة ليلى طرابلسي عن نيويورك في اوروبا لمدة شهر ونيف باعتبار ان ليلى هي ارملة السيد نجيب طرابلسي احد منفذي وصية السيدة ماري خوري المذكورة في رسالتك والتي كانت ، على حد قول الكثيرين ، تحتفظ بقسم كبير من مراسلات جبران لاصدقائه من الادباء وغيرهم ومن جملتها رسائل مي زيادة له . وعقيب الاتصال بليلى بهذا الصدد نقلت لنا بالحرف الواحد " بان ماري خوري قد اتلفت قبل وفاتها بقليل كل ما له علاقة بمراسلات جبران مع اصدقائه الادباء في المهجر وعبر البحار" . وقد علمت ليلى بامر الاتلاف المنوه به من سكرتيرة ماري خوري التي تجهل ليلى طرابلسي اسمها ومكان اقامتها حاليا . وبنتيجة الحوار مع ليلى بهذا الشان اكدت هذه عدم وجود اي اثر لرسائل مي زيادة لجبران في مخلفات ماري خوري .

هذا بشانه واشكر لك طول الاناة على تاخيرنا بالرد سائلا لك مثل العافية والنشاط لمتابعة رسالتك الشاقة في خدمة العلم والادب ، مع اصدق تمنياتي وادعيتي .

عن انكلوود - نيوجرزي في ١١/٦/١٩٧٦ الداعي بتوفيقك

فيليب

متروبوليت اميركا الشمالية

"... the Disciples were called Christians first in Antioch" ACTS 11:26

قضت هذه الرسالة على أملٍ كبير عقدناه للظفر برسائل ميّ، ولا شك في أن إتلافها خسارة كبيرة، وجرم لا يغتفر، فمن هي ماري خوري؟ علمنا مما جاء في كتاب فيليكس فارس: «رسالة المنبر إلى الشرق العربي»[1] أنها كانت تقطن في الشارع الرابع والأربعين في نيويورك، وأنه لقي جبران لأول مرة سنة ١٩٢٢ يوم أقامت وليمةً في بيتها ودعته إليها مع رفيقيه في رحلته الخطابية: «جان والياس دبس». وتحدث عنها الأستاذ رياض حنين في كتابه «رسائل جبران التائهة» فقال إنها أرملة المغترب الثريّ عيسى الخوري، وصديقة جبران وأعضاء الرابطة القلمية الذين كانوا يجتمعون في بيتها في العشرينات. وذكر أنها لبنانية الأصل من بيت عزيز، وأن جبران كان يراسلها أيضاً.

(... وعن رسائل جبران إلى ماري عزيز فلا نعرف عن محتوياتها شيئاً، لكن ماريانا فاخوري صاحبة مجلة «المراحل» الصادرة في البرازيل، ورئيسة تحريرها تقول، في كلمة ألقتها في مدينة «ريو دي جانيرو» في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٩٨١، لمناسبة مرور خمسين سنة على وفاة جبران: «كثيرات هن النساء اللواتي يدّعين أن لهن تأثيراً وفضلاً على مواهب الفنان. ولا فضل لامرأة تبذل فضلات ثروتها لتقدّم للإنسانية عبقرياً خلاقاً كجبران الذي كان، لشدة إحساسه، ورقة شعوره، يبادل هؤلاء النسوة برسائل تطفح بعبارات الشكر، وعرفان الجميل. ومما أوجعني ذلك الإدعاء الشخصي، والسيطرة الفردية، والاستئثار النفعي الذي واجهتني به السيدة ماري عزيز، صاحبة مخزن المجوهرات في نيويورك، التي جعلت من بيتها منتدى لأدباء الرابطة القلمية، وفي طليعتهم جبران، وقد قالت لي: «كل امرأةٍ تدعي حب جبران لها فهي كاذبة لأن جبران كان لي وحدي!» وكانت تتبجح لأن أدباء الرابطة القلمية كانوا يعقدون جلساتهم في بيتها مما ساعدها على توسيع ثقافتها. غير أنها استغلت جبران الفنان بعد موته، وتاجرت برسائله الخصوصية لها فباعتها

---

(١) رسالة المنبر الى الشرق العربي - فيليكس فارس - ص: ١١٣.

بأسعارٍ باهظة! ثروة ترابية أضافتها إلى ثروتها المادية فجاء نسيب لها، وعرّاها من الكنز الذهبي الذي خبأته وحرصت عليه، بعد أن عرّت نفسها من الكنز الروحي الخالد الذي هو رسائل جبران، تبيعها لشركات النشر بالمزاد العلني!»
إني أنقل إليكم هذه الحقائق التي حدثتني بها ماري عزيز سنة ١٩٥٥ عندما التقيتها في نيويورك، وأطلعتني على آخر رسالة كانت بيدها من جبران، فسألتها أن تسمح لي بنسخها فقالت انها لا تقدر لأن الشاري لا يدفع لها الثمن المتفق عليه إذا هي أخلّت بوعدها، وسمحت بنسخ الرسالة لأيٍّ كان)[١].

إن في حديث الصحفية الكبيرة السيدة ماريانا فاخوري ما يدخل الشك إلى النفس في مصير رسائل ميّ إلى جبران التي إئتمنها عليها، وليس مستغرباً أن تكون قد باعتها، أو باعت قسماً منها إلى أحد هواة المخطوطات قبل وفاتها، وأن تظهر هذه الروائع ذات يوم فيعكف الباحثون على نشرها وتحقيقها، ويلقون الضوء على جوانب هامة من تطوّر حب ميّ وجبران، خفيت علينا اليوم، إذ لا بد من الاعتراف بأن الحديث عن هذا الحب لا يستوفي شروطه بدون العثور على رسائل ميّ الكاملة إلى جبران، وأما قولنا إنها من الروائع فاستناداً إلى بعض ما وصلنا منها، وإلى رأي جبران نفسه فيها حيث كتب إليها يقول:

(ما أجمل رسائلك يا ميّ وما أشهاها، فهي كنهرٍ من الرحيق يتدفق من الأعالي، ويسير مترنماً في وادي أحلامي، بل هي كقيثارة أورفيوس تقرب البعيد، وتبعد القريب، وتحوّل بارتعاشاتها السحرية الحجارة إلى شعلاتٍ متقدة، والأغصان اليابسة إلى اجنحةٍ مضطربة)[٢].

ومع ذلك فإننا سنقوم بجولة استطلاعية عبر رسائل جبران المخطوطة

---

(١) رسائل جبران التائهة ـ رياض حنين ـ ص: ١٥ ـ ١٦.
(٢) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٤٨ و ٤٩ من الطبعة الأولى.

التي جمعناها وحققناها ونُشرت أول طبعة منها بالعربية سنة ١٩٧٩ بدمشق تحت عنوان «الشعلة الزرقاء»[1]، والتي أورد جبران فيها مقاطع من رسائل ميّ إليه للتعليق أو للرد عليها، كما سنستند في هذه الجولة إلى ما نُشر من رسائل ميّ إليه التي وصلت إلى لبنان ضمن وثائقه الخاصة، وإلى وثائق أخرى عثرنا عليها بغية كشف اللثام عن الغموض الذي أحاق بقصة حبهما الفريد. وقبل أن نشرع بهذه الجولة ينبغي أن نذكر أن جبران كان يتأنق في تدبيج رسائله إلى ميّ، فقد ذكر لنا الأستاذ ميخائيل نعيمه، في حديثه الذي أوردناه آنفاً، أنه وجد بين أوراق جبران مسودة لإحدى رسائله إليها، وكتب الأستاذ رياض حنين فقال عن رسائل جبران المنشورة في «الشعلة الزرقاء»:

(ومما لا شك فيه أن رسائل جبران إلى ميّ هي أفضل من رسائله إلى ماري هاسكل وإلى سواها لأنها مكتوبة بإمعانٍ ودقة ونضج، ومغلفة بأسلوب أدبي مشرق، وفيها تلميحات عن هيامه، وبعضها مزيّن برسومٍ لجبران. ومعروف أن جبران كان يكتب مسودات لرسائله إلى ميّ تهيباً واحتراماً لئلا تشوب رسائله إليها أية شائبة. وقيل إنه قد وُجد بين أوراقه خمس مسودات لإحدى رسائله إلى ميّ!)[2].

كما ينبغي أن نشير إلى شيئين آخرين متصلين بموضوع جبران وميّ، الأول هو أن الأستاذ «ألبير أديب» قد زار متحف بشري سنة ١٩٣٤ فأخذ يقلّب بعض مخلفات جبران ومنها الكتب المهداة إليه فاستوقفته عبارة إهداء كتبتها ميّ بخطها الفارسي الجميل على أحد مؤلفاتها، هذا نصها: «إلى «النبيّ» مع الرعب!» والثاني هو أن الأستاذ «حليم كنعان» كان أول من

---

(١) لقد ترجمت هذه المجموعة من رسائل جبران الى ميّ الى اللغات الاسبانية (١٩٧٨) والإيطالية (١٩٨١) والفرنسية (١٩٨٢) بعنوان: الصوت المجنّح ـ «La Voix Ailée» والانكليزية سنة ١٩٨٣ حيث صدرت عن دار لونجمان للنشر بعنوان: «الشعلة الزرقاء «Blue Flame».

(٢) رسائل جبران التائهة ـ رياض حنين ـ ص: ١٤.

اكتشف رسائل ميّ إلى جبران التي وصلت إلى متحفه في بشرّي، وأول من كتب عن حبهما في لبنان، وذلك استناداً إلى ما جاء في رسالة بعثت بها الأديبة جهان غزاوي عوني إلى الأديبة سميرة عزام سنة ١٩٥٥ حيث كتبت تقول:

(. . .أما رسائلها لجبران، وقد كان بعضها في متحف بشري، فلم يسبقني إليها إلا أديب واحد أجهله حتى الآن هو الأستاذ حليم كنعان، هذا الأديب الذي ما كاد ينشر دراسته عن الصلة التي بين جبران وميّ في كتيّبٍ هزيل الحلة، جزيل الفائدة، حتى تلقفته يدا (. . . . . . .) فحوّرتا فيه دون أية اشارة إلى المصدر الحقيقي.

أما بقية رسائل ميّ وجبران فهي محفوظة عندي مع صورة جميلة لميّ في طفولتها، وكذلك بضع بطاقات أرسلتها ميّ إلى جبران في بعض الأعياد تتجلى فيها نفسها الكبيرة، وفلسفتها في الحياة، ورأيها في فن جبران.

أجل يا عزيزتي سميرة إن ما قاله الأدباء اللبنانيون عن ميّ كثير، لا يمتّ إلى حقيقتها بصلة إذ قال فريق بشذوذها، واتهمها بأنها لم تحب أحداً حتى ولا جبران، وهناك من اتهمها بجفاف العاطفة وجمودها، والتواء الناحية الجنسية عندها، وهناك من ادعى أنها مائعة، متطيّرة لدرجة أنها جُنّت عندما سُرقت منها رسائل جبران. كل هذا ولم يكلّف أحدهم نفسه عناء درسها من خلال أدبها)[1].

لقد دافعت الأديبة جهان غزاوي عوني عن ميّ وهاجمت الذين أساءوا إليها، وكانت تعدّ كتاباً عنها ممهوراً بوثائق مخطوطة، ومعلومات صحيحة أخذتها من ميّ بالذات في أثناء وجودهما معاً بمستشفى الجامعة الأميركية ببيروت سنة ١٩٣٨، ولكن المنية لم تمهلها لاتمامه ونشره. وقد تكرمت ابنتها السيدة نسيمة عوني زوجة العقيد السيّد سامي الخطيب بالبحث عن أوراقها

---

(١) أدبيات لبنانيات ـ املي فارس ابراهيم ـ ص: ٢٢٢.

المشردة بين طرابلس وبيروت والبقاع، فاطلعتنا على ما عثرت عليه، واعتذرت عن استحالة الوصول إلى أماكن ربما تكون أوراقها الشخصية الأخرى موجودة فيها، بسبب اضطراب الحالة الأمنية في تلك الأماكن إبان حرب لبنان. وبعد دراسة الأوراق التي قدمتها لنا وجدنا فيها مغلفاً كبيراً فارغاً إلا من بعض قصاصات صحف، كتبت عليه السيدة جهان: «رسائل ميّ...» وعثرنا ضمن ملفّ صحف ومجلات على رسالة من جبران إلى ميّ، غير كاملة، منقولة بخط الأديبة جهان، فنشرناها في كتابنا: «ميّ زيادة وأعلام عصرها» لأهميتها، كما نشرناها في الطبعة الثانية من «الشعلة الزرقاء» التي صدرت عن مؤسسة نوفل ببيروت سنة ١٩٨٣.

وأما قول الأديبة جهان غزاوي عوني في رسالتها للكاتبة سميرة عزام: (أما بقية رسائل ميّ وجبران فهي محفوظة عندي مع صورة لميّ في طفولتها، وبطاقات أرسلتها إلى جبران في الأعياد تتجلى فيها نفسها الكبيرة، وفلسفتها في الحياة ورأيها في الفن) فإننا نلفت انتباه الباحثين إليه علّ حظهم يكون أوفر من حظنا بالعثور على تلك الوثائق في مكانٍ ما بلبنان.

ملحوظة أخيرة تجدر الإشارة إليها في هذا الصدد هي أن بعض ما نشر من رسائل جبران قبل صدور «الشعلة الزرقاء» الموثقة بمخطوطة رسائله، وبعض ما نشر من رسائل ميّ إليه جاء محرّفاً، وأحياناً مختلقاً، حتى أن الأديبة وداد سكاكيني كتبت تقول:

(...بل كان من الأقلام ما لم يتورّع أصحابها عن اصطناع بعض الرسائل في حكايات غرامية أشبه بالروايات والمغامرات، بغية الترويج للمجلات المتجددة والكاسدة، دون رعاية كرامة هذين الأديبين اللذين ظلمهما بعض الأصدقاء بعد الوفاة، كما ظلم كل منهما نفسه في الحياة)[1].

لقد سمعت ميّ بجبران قبل أن يسمع عنها شيئاً، وذلك عندما قرأت

---

(١) مي زيادة في حياتها وآثارها ـ وداد سكاكيني ـ ص: ١٦٨.

له مقالة عنوانها: «يوم مولدي». فأعجبت بالمقالة وأخذت تتابع ما ينشر إلى أن قرأت روايته «الأجنحة المتكسرة» فبادرته بالمراسلة سنة ١٩١٢، تعرّفه بنفسها، وتثني على أسلوبه، وتناقش آراءه في الحب واطواره، والزواج وقيوده بهذه العبارات:

(... إننا لا نتفق في موضوع الزواج يا جبران. أنا أحترم أفكارك، وأجلّ مبادئك لأنني أعرفك صادقاً في تعزيزها، مخلصاً في الدفاع عنها، وكلها ترمي إلى مقاصد شريفة. وأشاركك في المبدأ الأساسي القائل بحرية المرأة، فالمرأة يجب أن تكون كالرجل مطلقة الحرية بانتخاب زوجها من بين الشباب، تابعة بذلك أميالها والهاماتها الشخصية، لا مكيفة حياتها في القالب الذي اختاره لها الجيران والمعارف، حتى إذا ما انتخبت شريكاً لها تقيّدت بواجبات تلك الشركة العمرانية تقيداً تاماً. أنت تسمّي هذه «سلاسل ثقيلة حبكتها الأجيال»، وأنا أقول إنها سلاسل ثقيلة، نعم، ولكن حبكتها الطبيعة التي جعلت المرأة ما هي. فإن توصل الفكر إلى كسر قيود الاصطلاح والتقاليد فلن يتوصل إلى كسر قيود الطبيعة لأن أحكامها فوق كل شيء)[١].

ثم حدثته عن الأمانة الزوجية، وقيود المرأة المتزوجة تمهيداً لنقدها الشديد لجنوح بطلة روايته: «سلمى كرامة» إلى الاجتماع بصديق لها، غير زوجها، الذي لم تجد له مبرّراً حتى: (وإن كان القصد من اجتماعها الصلاة عند فتى الأجيال المصلوب!)[٢].

وقد أجاب جبران على رسالتها مبتهجاً، وردّت عليه كما يتخاطب كاتبان معجبان الواحد بالآخر، يعالجان قضايا الفكر والفن بأسلوب أدبيّ يسوده الاحترام المتبادل.

واتفق ان كُلّفت ميّ بإلقاء كلمة جبران في حفل تكريم خليل مطران

---

(١) و (٢) رسائل ميّ - تقديم جميل جبر - ص: ١٦ و ١٧.

الذي أقيم في القاهرة في ٢٤ ـ ٣ ـ ١٩١٣، فوقفت في الجامعة المصرية خطيبةً لأول مرةٍ، وألقت كلمة ذلك العبقري الذي كان قبلها يحوم حوله، ثم عقّبت عليها بكلمةٍ من عندها، ببيانها الجميل، وصوتها الرخيم الساحر. ولكن جبران لم يسمع ذلك الصوت في حياته، ولم ير صاحبته إلا في أحلامه حيث تخيلها صبية فاتنة لا كالصبايا، ورسولة الهام من بنات الآلهة:

(أنت يا ميّ صوت رباني، والأصوات الربانية تبقى متموجة في الأثير حتى نهاية الزمن!)[١].

يبدو من رسالته إليها المؤرخة في ٢ ـ ١ ـ ١٩١٤ أنها حدثته عن «روحها الشريرة» على سبيل المداعبة، وعن ولعها بركوب الخيل، وبالعزف على البيانو والعود، وعن استحسانها لمجلة «الفنون» المهجرية، وإعجابها بالدكتور شبلي الشميّل، إذ جاء فيها قوله:

(... غير أنني للآن لم أفهم الأسباب الحقيقية التي دعتك إلى استخدام الشرّ ضدي، فهلا تكرمتِ بإفهامي؟ قد أجبت على كل رسالة تكرّمت بها عليّ، واسترسلت متعمقاً بمعاني كل لفظة تعطّفت بهمسها في أذني، فهل هناك أمر آخر كان يجب عليّ أن أفعله؟ أولـم تُبدعي لي من «لا شيء» ذنباً لتبيني لي مقدرتك على الاقتصاص؟ لقد فلحتِ وأحسنت البيان، أما أنا فقد آمنت باقنومك الجديد الكلي المطلق، الجامع بين أسياف «كالي» ربة الهند، وسهام «ديانا» معبودة الإغريق.

والآن وقد فهم كل منا ما في روح الآخر من الشرّ والميل إلى الاقتصاص فلنعد إلى متابعة الحديث الذي ابتدأنا به منذ عامين)[٢]. وقد شاطرها جبران في هذه الرسالة الإعجاب بالدكتور شميل، ومجلة «الفنون» وصاحبها نسيب عريضة، وغبطها على تمكنها من العزف على الآلات الموسيقية

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٩٨ من الطبعة الأولى.
(٢) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٣٠ من الطبعة الأولى.

وحدثها عن حبه الكبير للموسيقى الذي يعادل حبه للحياة، ورجاها في الختام أن تتكرم بذكره أمام هيبة أبي الهول:

(عندما كنت في مصر كنت أذهب مرتين في الأسبوع وأصرف الساعات الطوال جالساً على الرمال الذهبية، محدقاً بالأهرام وبأبي الهول، فكان يبتسم لي، ويملأ قلبي بحزنٍ عذبٍ، وندبات مستحبّة)[1].

إننا نستدل من مضمون هذه الرسالة مدى ارتياح ميّ لجبران وانجذابها إليه اللذين دفعاها إلى الكتابة عن نفسها، وميولها، وخصوصياتها، والمزاح والمداعبة، مما لم تفعله مع أحدٍ غيره من الأدباء والأصدقاء الذين راسلتهم في حياتها، وما أكثرهم! ونستدل كذلك من رسالته أنه كان سعيداً بالتعرف إليها، مهتماً بكل كلمة تقولها له، وحريصاً على «متابعة الحديث» الذي ابتدأ به منذ عامين. ولكن اندلاع الحرب العالمية الأولى أدى إلى انقطاع الحديث، بانقطاع البريد بين الشرق والغرب، وظلّ قلب ميّ يهفو إلى جبران، خلال السنوات الأربع التي توقفت فيها المراسلة بينهما. الدليل على ما نقول هو عزوفها عن الزواج في تلك الحقبة من الزمن، ورفضها كل الخاطبين الذين رغبوا بالتقرب إليها، ومقطع معبّر عن استحواذ جبران على قلبها ومشاعرها ورد في مقالةٍ نشرتها في جريدة أبيها «المحروسة» سنة ١٩١٦ ، عن «أمنيات الفتيات» هذا نصه:

(. . . فسألت نفسي: وما هي أمنيتك الآن؟ واغمضت عينيّ منتظرة الجواب، وما أغمضتها إلا وتلاشت الأصوات حولي، ونسيت محيطي، ورأيتني سابحة فوق الأزرق الوسيع، ورائحةُ المرارة البحرية وطعمها يخترقان كياني، بينما النسائم تتناقلني. يا لهذا البحر الجميل! كم من أرضٍ محبوبةٍ يحول دونها، وكم وجهٍ عزيزٍ يحجب عن المشوق معناه! . . وما لبثتُ أن وجدتني مستلقيةً على الشاطىء البعيد. . .)[2].

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٣٢ ـ من الطبعة الأولى.

(٢) سوانح فتاة ـ ميّ زيادة ـ ص: ٧٢.

لم تكن الأرض المحبوبة التي كان البحر يحجبها عن أنظار ميّ، الفتاة العاشقة، الحالمة، بنت الثلاثين من العمر، سوى أرض العالم الجديد، البعيد عن مصر كل البعد، والقريب من قلبها كل القرب. ولم يكن الوجه العزيز المقيم فيها سوى وجه حبيبها جبران، الذي تحول البحار دون رؤيته، فتحجبه عن قلبها المشتاق.

حبّ ميّ لجبران نشأ منذ بداية تعارفهما بالمراسلة إذ وجدت فيه فارس أحلامها، وكان حباً رومنطيقياً تواكبه الأحلام، وتلهبه الأشواق. وقد أخفته عن والديها وعن الناس قاطبة مجاراةً لطبيعتها المتكتمة ولكن بصماته بدأت تظهر في كتاباتها، ولكنها خشيت أن تفسّر مقالاتها الوجدانية تفسيراً، خاطئاً، مشوّهاً لحبها السامي، النقيّ لجبران، فأبدت رأيها في الحب بما يلي:

(الحبّ الذي يجعل العالم هيكلاً حيث تتسع النفوس فتجثو للعبادة والصلاة، والاتحاد الروحي مع جميع قوى الكون، هو الحبّ الذي نعنيه عندما نتكلم عن الحب، ونعظّم عواطف الحب!)[1].

وعندما انتهت الحرب الكبرى سارعت ميّ إلى الكتابة لجبران، وارسلت إليه أعداداً من مجلة «المقتطف» كانت قد نشرت فيها بضع مقالات، فتلقت منه رسالةً مؤرخة في ٢٤ - ١ - ١٩١٩ استهلها بقوله:

(حضرة الأديبة الفاضلة الآنسة ماري زيادة المحترمة:

سلام على روحك الطيبة الجميلة وبعد فقد استلمت اليوم أعداد «المقتطف» التي تفضلت بإرسالها اليّ فقرأت مقالاتك، الواحدة إثر الأخرى وأنا بين السرور العميق والإعجاب الشديد. وقد وجدت في مقالاتك سرباً من الميول والمنازع التي طالما حامت حول فكرتي، وتتبعت أحلامي، ولكن هناك مبادىء ونظريات أخرى وددت لو كان بإمكاننا البحث فيها شفاهاً. فلو كنت الساعة في القاهرة لاستعطفتك لتسمحي لي بزيارتك فنتحدث ملياً في «أرواح

---

(١) مذكرات ميّ زيادة - جميل جبر - ص: ٦٢.

الأمكنة»[1] وفي «العقل والقلب»[2] وفي بعض مظاهر «هنري برغسن» غير أن القاهرة في مشارق الأرض، ونيويورك في مغاربها، وليس من سبيل إلى الحديث الذي أودّه وأتمناه)[3].

وبعد أن أثنى على ذوقها الأدبي وثقافتها الكبيرة وموهبتها رجاها باسم الفن أن تطرح الأبحاث التاريخية والإجتماعية جانباً لتنصرف إلى التعبير عن خلجات نفسها، واختباراتها الذاتية لأن (الابتداع أبقى من البحث في المبدعين) حسب تعبيره، ولأنه يؤثر أن يقرأ لها قصيدة في ابتسامة أبي الهول من أن يقرأ لها رسالة في تاريخ الفنون المصرية لأنها «تهبه شيئاً نفسياً ذاتياً» في كتابة قصيدة أو قطعة وجدانية، وقد ختم الرسالة بقوله:

(ليس ما تقدم سوى شكل من الاستعطاف باسم الفن، فأنا استعطفك لأني أريد أن استميلك إلى تلك الحقول السحرية حيث «سافو» و«اليزابيت براوننغ» و«أليس شراينر» وغيرهن من أخواتك اللواتي بنيْنَ سُلّماً من الذهب والعاج بين الأرض والسماء)[4].

ليس عسيراً أن نتصوّر فرح ميّ بمضمون هذه الرسالة، وهي التي كانت تعيش بين رهطٍ من الأدباء والشعراء جلّهم في عمر أبيها، يجلونها في ندوتها الأسبوعية وتجلهم، ولكنها ما انْ تنفرد بنفسها حتى تشعر بألم الوحدة والغربة بين الأقرباء اللائذين بها. لم يسبق أن خاطبها أحد بتلك اللغة الجميلة، وذلك التعبير الصادق اللهجة بغية دفعها في كتابتها إلى الأفضل والأخلد، وبغية التعرف إلى مكنون نفسها وأسرارها. لقد وجدت إذن شقيق الروح، وصديق العمر والفكر، فما أعذب رسائله، وما أروع اهتمامه بمقالاتها، وما ألذّ تشجيعه لها لكي ترقى إلى مصاف شاعرات خالدات،

---

(١) و (٢) وردت هذه العبارات في مقالة لمي عنوانها: غرفة في مكتبة وهي منشورة في كتابها: سوانح فتاة ص: ٧٣ ـ ٨٤.

(٣) و(٤) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٣٥ ـ ٣٦ ـ ٣٧.

وكاتبات متفوقات هي أختهن التي تقدر مثلهن على بناء سلم من الذهب والعاج بين الأرض والسماء! وليس غريباً أن يكون اهتمامه بكتاباتها قد زادها تعلقاً به، إذ كانت ترى فيه العبقري الوحيد الذي يليق بها، وتعقد على صلتها الفكرية معه آمالاً كبيرة. وعلى الرغم من ضياع رسالتها الجوابية اليه فإننا ندرك من رسالته اللاحقة إليها المؤرخة في ٧ ـ ٢ ـ ١٩١٩ أنه اهتز طرباً عندما قرأها. في هذه الرسالة خاطبها بقوله: «عزيزتي الآنسة ميّ» لأول مرة، بعد أن كان يخاطبها بحضرة الأديبة الفاضلة، ثم كتب يقول:

(لقد أعادت رسالتك إلى نفسي ذكرى ألف ربيع وألف خريف، وأوقفتني ثانية أمام تلك الأشباح التي كنا نبتدعها ونسيّرها موكباً إثر موكب تلك الأشباح التي ما ثار البركان في أوروبا[1] حتى انزوت محتجبةً بالسكوت ـ وما أعمق ذلك السكوت وما أطوله. هل تعلمين يا صديقتي بأنني كنت أجد في حديثنا المتقطع التعزية والأنس والطمأنينة؟ وهل تعلمين بأنني كنت أقول لذاتي: هناك في مشارق الأرض صبيّة ليست كالصبايا قد دخلت الهيكل قبل ولادتها، ووقفت في قدس الأقداس، فعرَفَت السرَّ العلوي الذي تخفره جبابرة الصباح، ثم اتخذت بلادي بلاداً لها، وقومي قوماً لها؟ هل تعلمين بأنني كنت أهمس هذه الأنشودة في أذن خيالي كلما وردت عليّ رسالة منك؟)[2].

وندرك أيضاً من هذه الرسالة أنه أهدى إليها كتابه: «المجنون» الذي صدر باللغة الانكليزية سنة ١٩١٨، وأنها نقدته في مقالٍ جريء نشرته في «المحروسة» اطلع عليه، إذ عاتبها قائلاً:

(أنا للآن لم أسمع مثل هذا الانتقاد مع أنني قرأت الكثير مما نشرته جرائد ومجلات أميركا وانكلترا في هذا الكتاب الصغير، والغريب أن أكثر

---

(١) ويعني جبران بذلك الحرب التي قامت في أوروبا.

(٢) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١.

الأدباء الغربيين قد استحسنوا القطعتين: «My «The Sleep Walkers», «Mind» واستشهدوا بهما، أما أنت يا صديقتي فقد وجدت فيهما القسوة ـ وماذا ينفع الإنسان إذا ربح استحسان العالم وخسر استحسان ميّ؟)[1].

ومن ثم أعرب لها عن فرحه برضاها عن رسوم كتابه «المجنون» وأطرى نظرتها الثاقبة للفن التي دلّته على وجود عين ثالثة بين عينيها، وآذان خفية وراء أذنيها (تسمع تلك الأصوات الشبيهة بالسكوت، التي لا تُحدثها الشفاه والألسنة، بل ما وراء الألسنة والشفاه من الوحدة العذبة، والألم المفرح، والشوق إلى ذلك العالم البعيد، الغير معروف) حسب تعبيره.

إن في هذه الرسالة أمرين يسترعيان الانتباه: الأول هو ردّ جبران على سؤالها الوارد في رسالتها السابقة إليه عما إذا كان يريد أن يفهمه أحد، بأنه لا يريد أن يفهمه أحد إذا كان فهمه له ضرباً من العبودية المعنوية، وأكد لها بأن الاستقلال هو محجة الأرواح لأن أشجار السنديان والصفصاف لا تنمو في ظلال بعضها بعضاً. وأما الأمر الثاني فهو قوله:

(ها قد بلغت هذا الحد من رسالتي ولم أقل كلمة واحدة مما قصدت أن أقول عندما ابتدأت. ولكن من يا تُرى يقدر أن يحوّل الضباب اللطيف إلى تماثيل وأنصاب؟ ولكن الصبية اللبنانية التي تسمع ما وراء الأصوات سترى في الضباب الصور والأشباح. والسلام على روحك الجميلة، ووجدانك النبيل، وقلبك الكبير والله يحرسك للمخلص.

جبران خليل جبران)[2]

من الأمر الأول نتبيّن حرص جبران على استقلاله الذاتيّ ككاتب وإنسان، ونتبين من الأمر الثاني تلميحاً جبرانياً، ضبابياً، بودّه لها، واهتمامه

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١.

(٢) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٤٣ ـ ٤٤.

بها لا كأديبة فحسب إنما كإمرأة! ومما يثبت ذلك جملة كتبها في الرسالة ذاتها هذا نصها: (انني سأسبقك في كتابة مقالة في ابتسامة أبي الهول! وبعد ذلك سأنظم قصيدة في ابتسامة ميّ، ولو كان لديّ صورتها مبتسمةً لفعلت اليوم، لكن عليّ أن أزور مصر لأرى ميّ وابتسامتها)[1].

وفي يقيننا أن هذه العبارات والتمنيات كفيلة بالاستحواذ على فكر امرأة مرهفة الشعور مثل ميّ، متعطشة للحب وللرفيق المثالي الذي يخاطبها بمثل هذه الصور الشفافة. ولا ريب في أن حديثه عن الضباب والأشباح، وعما وراء الأصوات، قد شغل بالها، ودعاها إلى التأمل والتفكير، وإلى ترويض نفسها في حلبة غيبيات جبران ورموزه...

توالت الرسائل الودية، والمساجلات الأدبية بين ميّ وجبران سنة ١٩١٩ وأهدى إليها كتابه «المواكب» فكتبت عنه دراسة نقدية نشرتها في «المحروسة» وأرسلت إليه نسخة من الجريدة وثلاث رسائل تسلّمها دفعةً واحدة، فكتب إليها في ١١ ـ ٦ ـ ١٩١٩ خطاباً طويلاً من أجمل خطاباته اعتبر فيه رسائلها: «ثروةً جليلة» وشبهها بالنهر الرحيق، وأجاب على ملاحظات أبدتها، وأسئلة طرحتها عليه بأسلوبه الأخاذ، وصوره الرمزية. ويبدو أنها عنّفته في إحدى رسائلها بسبب كلمة كتبها لم ترق لها، وملاحظة أوردها إذ كتب يقول:

(لقد انصرفت عن كل ما وجدته بانتظاري في هذا المكتب لأصرف نهاري مصغياً إلى حديثك الذي يتمايل بين العذوبة والتعنيف ـ أقول التعنيف لأني وجدت في رسالتك الثانية بعض الملاحظات التي لو سمحت لنفسي الفرحة أن تتألم لتألّمت منها. ولكن كيف أسمح لنفسي النظر إلى شبه سحابة في سماءٍ صافية مرصّعة بالنجوم؟ وكيف أحوّل عيني عن شجرة مزهرة إلى ظلٍّ من أغصانها؟ وكيف لا أقبل وخزة صغيرة من يدٍ عطرة مفعمة بالجواهر؟ إن حديثنا الذي أنقذناه من سكوت خمسة أعوام لا، ولن يتحوّل إلى عتابٍ أو

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٤٣ ـ ٤٤.

مناظرة، فأنا أقبل بكل ما تقولينه لاعتقادي بأنه يجمل بنا، وسبعة آلاف ميل تفصلنا؛ الا نضيف متراً واحداً إلى هذه المسافة الشاسعة، بل أن نحاول تقصيرها بما وضعه الله فينا من الميل إلى الجميل، والشوق إلى المنبع، والعطش إلى الخالد، يكفينا يا صديقتي ما في هذه الأيام والليالي من الأوجاع، والتشويش، والمتاعب والمصاعب، وعندي أن فكرة تستطيع الوقوف أمام المجرد المطلق لا تزعجها كلمة جاءت في كتاب، أو ملاحظة أتت في رسالة. إذن فلنضع خلافاتنا، وأكثرها لفظية، في صندوق من ذهب ولنرمي بها إلى بحر من الإبتسامات)[1].

يتضح من كلام جبران أن ميّ كانت تدقّق بكل ما يقول فتعاتب، وتعنّف، كما يتضح لنا منه الفارق بين تطلعاتها في تلك الصلة الفكرية الروحية، وبين تطلعاته فيها الهادفة إلى **المجرد المطلق**! تُرى هل تمكنت ميّ من وضع تلك الخلافات في صندوق من ذهب كما قال، والقذف بها إلى بحر من الابتسامات؟؟ الواقع الذي نستجليه من رسائله اللاحقة هو أنها حاولت تجاوز العقبات التي كانت تعترض سبيلها في فهم مراميه، واكتناه أثيرياته، ولكن محاولاتها باءت بالفشل، مرةً في إثر مرة. كانت ميّ التي حسبها جبران كاتبةً متحررةً في افكارها وسلوكها امرأة تفتقد الخبرة في مخالطة الرجال كلياً، تحمل قلباً ظامئاً للحب العظيم، قلب فتاةٍ غريرة تغضب بسرعة، وترضى بسرعة، لمجرد عبارة يقولها جبران، أو جملة يوجهها إليها في رسائله الضبابية... فقد أجاب في تلك الرسالة عن سائر اسئلتها عن قناعته بفنه، وجوّه المعنوي، بما يبهج النفس، ويدغدغ الكبرياء إذ وصفها بقوله: (ولست بمبالغ إذا قلت بأنك أول صبية مشت في غابة «الأخوات التسع»[2] بقدمٍ ثابتة، ورأسٍ مرفوع، وملامح منفرجة كأنها في بيت أبيها. ألا فاخبريني

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٤٨.

(٢) اشارة إلى «الآلهات التسع ـ Les Muses» في الميثولوجيا الاغريقية، المشرفات على العلوم والفنون والآداب.

كيف عرفت كل ما تعرفين، وفي أيِّ عالمٍ جمعتِ خزائن نفسك، وفي أيِّ عصرٍ عاشت روحك قبل مجيئها إلى لبنان؟ إن في النبوغ سراً أعمق من سرّ الحياة)[1]. وكان أكثر ما أثّر فيها ردّه على سؤال طرحته عليه بصيغة الجمع: «هل يوجد لنا من صديق في ربوعكم؟». حيث كتب يقول: (أي والحياة، وما في الحياة من حلاوةٍ جارحة، ومرارةٍ مقدسة، إن لكم في ربوعنا صديقاً إرادته تدافع عنكم، ونفسه ترغب في الخير لكم، وإبعاد السوء عنكم، وتحميكم من كل أذى. وقد يكون الصديق الغائب أدنى وأقرب من الصديق الحاضر. أفليس الجبل أكثر هيبةً، وأشدَّ وضوحاً وظهوراً لسائرٍ في السهل منه لساكنيه؟)[2].

فاطمئن قلبها إلى صديقها، البعيد القريب، وأضحت رسائله إليها الملاذ الوحيد في حياتها الجافة بين الكتب والمحابر، بل المحراب الذي كانت تلجأ إليه في وحشتها، وتأنس فيه بمساجلات ذلك الحبيب الذي لم تجد غيره نداً لها، وأهلاً لحبها.

كتبت إليه في صيف سنة ١٩١٩ تقول: (ألا إن بين العقول مساجلةً، وبين الأفكار تبادلاً قد لا يتناوله الإدراك الحسّي، ولكن من ذا الذي يستطيع نفيه بتاتاً بين أبناء الوطن الواحد؟)[3] لقد أورد هذه الفقرة جبران في رسالته المؤرخة في ٢٥ ـ ٧ ـ ١٩١٩ وعلّق عليها بهذه العبارات:

(إن في هذه الفقرة الجميلة حقيقة أولية كنت فيما مضى أعرفها بالقياس العقلي، أما الآن فإني أعرفها بالاختبار النفسي. ففي الآونة الأخيرة قد تحقّق لي وجود رابطة معنوية، دقيقة، غريبة، قوية، تختلف بطبيعتها ومزاياها وتأثيرها عن كل رابطةٍ أخرى، فهي أشدّ وأصلب وأبقى من كل الروابط الدموية والجنينية حتى والأخلاقية)[4].

---

(١) و (٢) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٥٣ و ٥٥ من الطبعة الأولى.

(٣) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٦٠ من الطبعة الأولى.

(٤) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٦٠ و ٦١ من الطبعة الأولى.

وبعد أن شرح لها رأيه في طبيعة الرابطة المعنوية التي تشدّهما الواحد إلى الآخر قائلاً (فقد تكون موجودة بين اثنين لم يجمعهما الماضي، ولا يجمعهما الحاضر ـ وقد لا يجمعهما المستقبل) أضاف يقول: (وفي هذه الرابطة يا ميّ، في هذه العاطفة النفسية، في هذا التفاهم الخفيّ أحلام أغرب وأعجب من كل ما يتمايل في القلب البشري ـ أحلام طيّ أحلام، طيّ أحلام. وفي هذا التفاهم يا ميّ أغنية عميقة هادئة نسمعها في سكينة الليل، فتنتقل بنا إلى ما وراء الليل، إلى ما وراء النهار، إلى ما وراء الزمن، إلى ما وراء الأبدية. وفي هذه العاطفة يا ميّ غصاتٌ أليمة لا تزول ولكنها عزيزة لدينا، ولو استطعنا لما أبدلناها بكل ما نعرفه من الملذات والأمجاد. ولقد حاولت في ما تقدم ابلاغك ما لا ولن يبلغك إياه إلا ما يشابهه في نفسك. فإن كنتُ قد أبنت سراً معروفاً لديك كنت من أولئك الذين قد حبتهم الحياة، وأوقفتهم أمام العرش الأبيض. وإن كنت قد أبنت أمراً خاصاً بي وحدي فلكِ أن تطعمي النار هذه الرسالة)(١).

ورجاها في ختام الرسالة أن تكتب إليه بالروح المطلقة، المجردة، المجنحة التي تعلو فوق سبل البشر!

إن في هذه العبارات الواضحة، والأفكار والصور الجبرانية ما يحدّد معالم «العاطفة النفسية» التي كان يحملها جبران لميّ، وما يوضح دعوته إليها لكي تبادله بعاطفة مثلها، دون إرغام لها، أي عاطفة روحية مطلقة، ومجردة ومجنحة. ونحن ندرك من رسائله المنمقة الطويلة إليها أنه كان سعيداً بصداقتها، وأكثر سعادة بإعجابها به كاتباً وإنساناً نابغاً، وهو الفنان المعتد بنفسه، المزهوّ بمواهبه. ولو لم يكن سعيداً باهتمام ميّ البالغ به، وبميلها الكبير له الواضح من رسائلها إليه، لما ظلّ مثابراً على كتابة الخطابات الطويلة إليها، ومعالجة شؤون الفكر والروح معها، وإطناب مساجلاتها في تلك

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٦٠ و٦١ من الطبعة الأولى.

الرسائل التي أضحت ينبوع الهام له. لقد وجد في ميّ شقيقة الروح التي كان ينشدها في حياته وفي غربته، وباح لها بالرابطة المعنوية التي تشده إليها، ملمحاً تارةً، ومصرحاً تارةً أخرى بأسلوبه الرمزي بأنها «تعلو فوق سبل البشر». فماذا كان موقف ميّ في إثر تلك الرسالة؟ لقد كان غريباً كل الغرابة إذ تبيّنا من رسالته اللاحقة إليها المؤرخة في ٩ ـ ١١ ـ ١٩١٩ أنها غضبت، وأنّبت، بل نقمت عليه وحقدت! فقد استهل خطابه بقوله:

(أنتِ حاقدة عليّ، ناقمة عليّ، ولكِ الحق، ومعكِ الحق، وما عليّ سوى الامتثال، فهلا نسيتِ إثماً اقترفته، وأنا بعيد عن عالم المقاييس والموازين؟ هلا وضعت في «صندوق الذهب» ما لا يستحق الحفظ في الصندوق الأثيري؟)[1].

ثم أخذ يعاتبها على استخفافها ببوحه بعاطفته الذي اعتبرته «نشيداً غنائياً»، وصوّر لها نفسه المستوحشة التي لا تستأنس إلا بما أسماه: «العنصر الشفاف» فقال:

(وأنتِ، أنت التي تعيشين كثيراً في عالم المعنى تعلمين أن العنصر الشفاف فينا يتنحّى عن جميع أعمالنا، ويبتعد حتى عن أجمل ميولنا البيانية، وأنبل رغائبنا الفنية، فهو وإن جاور الشاعرية فينا لا ينظم ذاته نشيداً غنائياً، ولا يضع خفاياه في الخطوط والألوان)[2].

ثم تبسّط في الحديث يشرح لها مشاعره الصادقة نحوها، ويعاتبها بمرارة على ارتيابها بمشاعره بإسلوبه الرمزي المعهود، وقد طاب له أن يسمّي الرابطة الروحية والفكرية التي نشأت بينه وبينها: «الشعلة الزرقاء التي تنير ولا تتغيّر، وتأمر ولا تأتمر، وتحوّل ولا تتحوّل»[3]. وهذا ما يقودنا إلى القول إن كل

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٦٥ من الطبعة الأولى.
(٢) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٦٦ من الطبعة الأولى.
(٣) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٦٦ من الطبعة الأولى.

واحدٍ منهما كان ينظر إلى الحياة والحب والحرية من زاوية مختلفة، وعالمٍ مختلف، لأننا لم نستشف من رسالته السابقة التي أغضبتها ما يجرح مشاعر أديبة اتخذها صديقةً أثيرة، واختارها رفيقة الفكر وحبيبة الروح. . . والأغرب من كل هذا في موقف ميّ هو أنها لم تطعم رسالته تلك النار، إنما ردّت عليها مؤنبةً، ومعنفة، مما يدلّ على أنها كانت تتمنى أن تدوم الصلة بينها وبينه، في الوقت ذاته الذي كانت فيه خائفة من التورط في مجاراته بالمساجلات الفلسفية، والعاطفة الخيالية. وقد ختم رسالته معرجاً على ذكر الضباب، وتوقه إلى انفتاح الأبواب الدهرية، بعد أن أعلمها بمشاريعه الجديدة في الرسم، وفي كتابه «النبيّ» الذي كان «يختمر في وجدانه منذ ألف سنة»، على حدّ تعبيره.

كانت ميّ حتى ذلك التاريخ مشككة بعواطف جبران نحوها، وربما تجاهلت بَوْحَهُ عن عمدٍ طمعاً بالمزيد من الوضوح والواقعية في رسائله إليها، أو ربما آثرت وضع حدٍّ لتلك الصلة المرهقة خوفاً من الغرق في وادي هواجسه وأثيرياته وتخيلاته. . . والمرجح لدينا أنها وقعت في حيرةٍ كبيرة حيال هذا التطور الذي طرأ على علاقته بها، وأنها لم تكن قادرة آنذاك على التجرّد من كل ما هو مألوف في الحب بين المرأة والرجل، لافتقارها إلى أجنحة متكافئة مع أجنحة ذلك النسر الهائم أبداً في عالمٍ سحري من صنع خياله وأشواقه، محفوف بالضباب. !

في الأسبوع الذي تلا تلك الرسالة بعث جبران إلى ميّ ببطاقة دعوة لحضور معرض فني اشترك فيه بعرض بعض رسومه، وكتب عليها بخطه العبارة التالية:

(هذه دعوة إلى وليمة فنية فهلا تكرمتِ وشرفتينا!!)

ثم أرسل إليها بطاقة دعوة أخرى في ٣٠ ـ ١١ ـ ١٩١٩ لحضور أمسية أدبية في أحد نوادي نيويورك، وكتب عليها بخطه، وباللغة الانكليزية العبارات التالية:

(حبذا لو كنت هنا لتعيري إلى صوتي أجنحةً، وتحيلي همهماتي إلى تراتيل، ومع ذلك سوف أقرأ وأنا واثق أن لي بين «الغرباء» صديقاً لا يُرى يسمعني، ويبتسم لي بعذوبةٍ وحنان)(١).

ورداً على تأسفها لاستحالة تمكنها من حضور ما أسماه «الوليمة الفنية» كتب إليها رسالة رائعة مطولة في ٢٨ ـ ١ ـ ١٩٢٠ جاء فيها قوله:

(أنت تتأسفين لأنك لم تستطيعي الحضور إلى الوليمة الفنية، وأنا استغرب أسفك هذا، استغربه جداً: أفلا تذكرين ذهابنا سوية إلى المعرض؟ هل نسيت انتقالنا من صورة إلى صورة؟ هل نسيت كيف سرنا ببطء في تلك القاعة الواسعة نبحث وننتقد، ونستقصي ما وراء الخطوط والألوان من الرموز والمعاني والمقاصد؟ هل نسيتِ كل ذلك؟ الظاهر أن «العنصر الشفاف» فينا يقوم بكثيرٍ من الأعمال والمآتي على غير معرفةٍ منا، فهو يسبح مرفرفاً إلى الجهة الثانية من الأرض، ونحن في غرفةٍ صغيرة نقرأ جرائد المساء، ويزور الأصدقاء البعيدين ونحن نجالس ونحدث الأصدقاء القريبين، ويسير في حقولٍ وغابات بعيدة سحرية، لم ترها عين بشريّ، ونحن نسكب الشاي في فنجان سيدة تخبرنا عن الاحتفال بعرس ابنتها!

ما أغرب العنصر الشفاف فينا يا ميّ، وما أكثر أعماله المجهولة لدينا. ولكن عرفناه، أو لم نعرفه، فهو أملنا، ومحجتنا. وهو مصيرنا وكمالنا. وهو نحن في الحالة الربانية. هذا وأنا اعتقد بأنك، إذا أجهدتِ حافظتك قليلاً، تتذكرين زيارتنا إلى المعرض، فهلا فعلتِ؟

لقد طالت رسالتي ـ ومن يجد لذةً في شيءٍ أطاله. لقد ابتدأت بهذا الحديث قبل منتصف الليل، وها قد صرت بين نصف الليل والفجر ولكنني للآن لم أقل كلمة واحدة مما أردت أن أقوله عندما ابتدأت. إن الحقيقة

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٧٦ من الطبعة الأولى.

الوضعية فينا، ذلك الجوهر المجرّد، ذلك الحلم الملتفّ باليقظة، لا يتخذ غير السكوت مظهراً وبياناً. نعم، كان بقصدي أن أسألك ألف سؤالٍ وسؤال، وها قد صاح الديك ولم أسألك شيئاً)[1].

ثم عاتبها على مخاطبته له بكلمة: «سيدي» بقوله: (كان بقصدي أن أسألك مثلاً ما اذا كانت لفظة: «سيدي» موجودة حقيقة في قاموس الصداقة؟ لقد فتشت عنها في النسخة الموجودة لديّ من هذا القاموس فلم أجدها، فاحترت بأمري غير أنني أشعر أن نسختي هي النسخة المصححة ـ ولكن قد أكون غير مصيب!)

وتمنى لها أن يملأ العام الجديد راحتيها بـالنجوم، وأن يحفـظها الله ويحرسها!

وسكت جبران، بعد هذه الرسالة، زهاء عشرة أشهر، لهبوب عاصفةٍ مفاجئة عكّرت جوّ صلته بميّ التي أرادت قطع تلك الصلة، إذ كانا على طرفيّ نقيض في الأفكار والنزعات، وحتى في العاطفة التي شدّت كل واحدٍ منهما إلى الآخر. ولم يستأنف المراسلة إلا بعد أن تلقى منها «رسالة عذبة» حسبما قال في ردّه عليها المؤرخ في ٣ ـ ١١ ـ ١٩٢٠ الذي استهله بهذه العبارات:

(يا صديقتي، يا ميّ

لم يكن سكوتي في الآونة الأخيرة سوى سكوت الحيرة والالتباس، ولقد جلست مرات بين حيرتي والتباسي في هذا «الوادي» لأحدثك وأعاتبك ولكني لم أجد ما أقوله لك لأني كنت أشعر بأنك لم تتركي سبيلاً للكلام، ولأني أحسست بأنك تريدين قطع تلك الأسلاك الخفية التي تغزلها يد الغيب، وتمدّها بين فكرةٍ وفكرةٍ، وروح وروح. جلست مرات في هذه الغرفـة، ونظرت طويلاً إلى وجهك ولكني لم أتلفظ بكلمة. أما أنت فكنت تحدقين بي،

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٨٧ ـ ٨٨ من الطبعة الأولى.

وتهزّين رأسك، وتبتسمين ابتسامة من يجد لذةً في تلبّك وتشويش جليسه. وماذا أقول الآن ورسالتك العذبة أمامي؟ إن هذه الرسالة العلوية قد حوّلت حيرتي إلى الخجل. أنا مخجول من سكوتي، ومخجول من ألمي، ومخجول من الكبرياء التي جعلتني أضع أصابعي على شفتيّ وأصمت. كنت بالأمس أحسبك «المذنبة» أما اليوم، وقد رأيت حلمكِ وعطفك يتعانقان كملاكين فقد صرت أحسب نفسي المذنب) [١].

إن ضياع رسالة ميّ العذبة التي أشار إليها جبران خسارة كبيرة، ولكننا نستطيع تلمّس معانيها، ونفحتها «العلوية» إذا تبصّرنا برسالة جبران إليها الرائعة في سبكها، والمؤثرة في لهجتها. لقد فرح برجوع صديقته الحبيبة إليه بعد أن رقّ قلبها من جديد، فعبر عن فرحه بعزوفها عن قطع «تلك الأسلاك الخفية التي تغزلها يد الغيب بين فكرةٍ وفكرة، وروحٍ وروح»، كما وصف لها تألمه من صمتها في الشهور الماضية. وبعد أن أكد لها شعوره بوجودها إلى جانبه، رغم القطيعة، نفى عن نفسه صفة «الخياليين» التي ينعته بها الناس قائلاً: (ولكني أعرف أني لست بخيالي إلى درجة الكذب على نفسي)[٢]. ومؤكداً أن تعلقه بها أمر واقعيٌّ اختبره بنفسه وعقله وحواسه في العام الماضي، وشعر بحاجةٍ ماسة لإظهاره إليها، فقالت له بما يشبه التهكم: (هذا نشيد غنائي!)[٣] لذا أضاف يقول:

(ومرت الشهور وهذه الكلمة «نشيد غنائي» تحفر في قلبي. ولم تكتفِ صديقتي! لم تكتفِ بل ظلت واقفة لي في المرصاد، فلم أقل كلمةً إلا وذيّلتها بالتعنيف، ولم أحدّق بشيء إلا وأخفته وراء القناع، ولم أمدّ يداً إلا وثقبتها بمسمار! بعد ذلك قنطتُ، وليس بين عناصر النفس أمرّ من القنوط. ليس في الحياة شيء أصعب من أن يقول المرء لنفسه: «قد غُلبت»)[٤].

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٩٢ من الطبعة الأولى.

(٢) و (٣) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٩٢ و ٩٣ ـ من الطبعة الأولى.

(٤) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٩٣ من الطبعة الأولى.

وعندما أجاب على عباراتٍ وأسئلة وردت في رسالتها أعطانا صورة واضحة عن خطوط تلك الرسالة العريضة، ولا سيما عندما كتب:

(تقولين لي: «أنت فنيّ وشاعر، ويجب أن تكون سعيداً مقتنعاً لأنك فنيّ وشاعر» ولكن يا ميّ أنا لست بفنيّ ولا بشاعر. قد صرفتُ أيامي ولياليّ مصوّراً وكاتباً ولكن «أنا» لست في أيامي ولياليّ. أنا ضباب يا ميّ. أنا ضباب يغمر الأشياء ولا يتحد واياها. أنا ضباب لم ينعقد قطراً. أنا ضباب وفي الضباب وحدتي، وفيه وحشتي وانفرادي، وفيه جوعي وعطشي. ومصيبتي، إن هذا الضباب، وهو حقيقتي، يشوق إلى لقاء ضبابٍ آخر في الفضاء. يشوق إلى استماع قائل يقول: «لست وحدك، نحن اثنان. أنا أعرف من أنت»)[1].

وهنا لا بد من الاعتراف لجبران بأنه كان صريحاً في مناجاة ميّ، صادقاً معها ومع نفسه، وبعيداً كل البعد عن التغرير بها، أو اللعب بعواطفها. وإذا ما جنح بها ودفعها إلى سوء الظن به، أو إلى تفسير كلامه بما لا يتفق مع مغزاه فالذنب في ذلك ليس ذنبه هو الذي وجد فيها شقيقة روح تشاطره آلامه، وتؤنسه في وحدته وغربته وتكون ضباباً مثله! من هذا الاختلاف في الرؤيا نشأ سوء التفاهم الذي عكّر صلتهما، أكثر من مرة، قبل أن يبلغا مرحلة التجاوب الروحيّ التام التي جاورت الصوفية كما سنرى لاحقاً.

قالت له ميّ: «أريد أن تبتسم وأن تعفو» فأجاب قائلاً:

(وأنت تريدين أن ابتسم و«أعفو». لقد ابتسمت كثيراً منذ هذا الصباح. وها أنا ابتسم في أعماقي، وابتسم في كليتي، وأبتسم طويلاً، وابتسم كأنني لم أخلق إلا للإبتسام. أما «العفو» فكلمة هائلة، فتاكة جارحة، أوقفتني مخجولاً، متهيباً أمام الروح النبيلة التي تتواضع إلى هذا الحدّ، وجعلتني أحني رأسي طالباً منها العفو. أنا وحدي المسيء. قد أسأت في

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٩٥ و ٩٦ من الطبعة الأولى.

سكوتي وفي قنوطي، لذلك استعطفك أن تغتفري ما فرط مني وتسامحيني)[١].

ثم علّق على كتابها «باحثة البادية» الذي بعثت به إليه بعبارات تنضح بالإعجاب والتقدير[٢]، وعكف بعد ذلك على الأسئلة التي طرحتها عليه يجيب عليها بإسهاب وسرور كقولها: «كيف حاله؟ وماذا يكتب؟ وهل يعمل كثيراً؟ وما لون البذلة التي يرتديها اليوم؟ وكم سيجارة دخن منذ الصباح؟»[٣] ثم ختم رسالته بهذه العبارات:

(قد أجبت على جميع سؤالاتك، ولم أنس شيئاً. وقد بلغت الحدّ من هذه الصفحة قبل أن أقول كلمةً مما أردت قوله عندما ابتدأت في رأس الصفحة الأولى. لم ينعقد ضبابي قطراً يا ميّ، وتلك السكينة المجنحة المضطربة لم تتحوّل الى ألفاظ. ولكن هلا ملأتِ يدكِ من هذا الضباب؟ هلا أغمضت عينيك وسمعت السكينة متكلمة؟ وهلا مررت ثانيةً بهذا الوادي حيث الوحشة تسير كالقطعان، وترفرف كأسراب الطيور، وتتراكض كالسواقي، وتتعالى كأشجار السنديان؟ هلا مررت ثانية يا ميّ؟ والله يحفظك ويحرسك.

جبران)[٤]

كانت هذه الرسالة أول رسالة خاطب فيها ميّ بقوله: «يا صديقتي يا ميّ» بعد أن درج على مخاطبتها في السابق بقوله: «عزيزتي الآنسة ميّ»، كما أنه وقعها باسم «جبران» فقط في حين كان يوقع سابقاتها باسمه الكامل، ترى كيف كان ردّ فعل ميّ بعد تسلّم هذه الرسالة؟؟ لقد ارتاعت من تطوّر العلاقة التي أرادتها «أدبية فكرية» حين كاشفها جبران بأنه اختبر أمراً في العام

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٩٦ من الطبعة الأولى.
(٢) لقد أوردنا رأي جبران في كتاب ميّ باحثة البادية في فصل الكاتبة من هذا الكتاب..
(٣) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٩٨ ـ ٩٩ من الطبعة الأولى.
(٤) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٠١ من الطبعة الأولى.

الماضي بنفسه وعقله وحواسه، لا بخياله، ليس سوى عاطفة قوية شدته إليها، هي الغريبة مثله في محيطها، نعم لقد ارتاعت من التورّط في علاقةٍ غير شريفة لأن الحب في اعتقادها لا يكون شريفاً بلا زواج، والدليل القاطع على ما نقول هو ما جاء في رسالةٍ كتبتها إليه في ٦ ـ ١٢ ـ ١٩٢٠ هذا نصّها: ـ

(لما كنت أجلس للكتابة كنت أنسى من أنت، وأين أنت، فأكلمك غالباً كما أكلم نفسي، وأحياناً كأنك رفيقة لي في المدرسة. إنما كان يطفو على تلك الحالة المعنوية عاطفة احترام خاص، لا توجد عادةً بين فتاة وفتاة. أَهَلِ المسافة، وعدم التعارف الشخصي، والبحار المنبسطة بيننا، هي التي كانت مصدر هذه الثقة التي ظهرت منذ نشأتها كأنها فطرية بديهية، لم تنتظر الوقت لتقوى، ولا التجربة لتثبت؟ فوصلت الرسالة التي سبقت النشيد، فاحجمتُ إزاء بعض الكلمات خوفاً مما قد تجرّ إليه. ومرّت أسابيع ستة أو سبعة دون أن أكتب لأني كنت أقول لنفسي: «يجب أن نقف هنا». ولكننا لم نقف، بل خطونا خطوة، بل قمزنا قمزةً تذكر بالنشيد الغنائي. وكنت في الإسكندرية إزاء البحر الذي يجلب التأمل، وينمي حب الاختلاء، ولم أشأ أن أجعل لمعنى النشيد أهمية خطيرة، فكتبت أقول إنما أردت أن تُحصر مراسلتنا في مواضيع فكرية، وقلت لك صريحاً إني التمس في رسائلك الفائدة التي أطلبها في كل مكان.

قيدتني «مذنبة» في دفترك، وقمت تشكو لأني كنتُ «كلما حدّقتَ إلى شيء أخفيه وراء القناع، وكلما مددتَ يداً ثقبتُها بمسمار». نعم فعلتُ ذلك، وفعلته متعمدةً، تعمدت قطع تلك الأسلاك الخفية التي تغزلها يد الغيب، وتمدّها بين فكرةٍ وفكرة، وروحٍ وروح، وصرت أحرّف المعاني، وأمسخ الأسئلة، وأضحك عند الكلمات التي تملأ العينين دموعاً. وهل كان لديّ وسيلة أخرى لأحوّلك عن هذا الموضوع، وأذكّرك أني وحيدة أبويّ؟ قد لا يكون في العائلة الغربية إلا ولد واحد فيقذفون به من انكلترا إلى الهند، أو فتاة واحدة فترحل من فرنسا إلى الصين بلا جلبة ولا ضوضاء. ولكن أين

نحن من هؤلاء، ونحن شرقيون؟ تعمّدت ذلك خصوصاً لأوفّر على نفسي عذاباً أنا في غنىً عنه، ولا تحايد كلمة تقربني من ذلك الموضوع الذي ملأ روحي شوكاً وعلقماً في هذه السنوات الماضية. ففهمتَ ما أريد وإنما على غير معناه الحقيقي، وفهمته على وجهٍ لم أقصده. ثم سطت عليك الكبرياء - كبرياء الرجل - فنسيت أن الموضوع الآخر جاء عرضاً، وما دام أنه لم يكن في الأصل، فقد كان له أن يتلاشى دون أن يؤثر في علاقتنا الأدبية الفكرية، أم صدق القائلون: إن صداقة الرجل والمرأة رابع المستحيلات؟

آلمني سكوتك من هذا القبيل، وأرهف انتباهي إلى نقاطٍ منها أنك لم تشاركني ارتياحي إلى تلك الصداقة الفكرية، لأنك لو كنت سعيداً بها، مثلي، لما كنتَ رميتَ إلى أبعد منها. علمتُ أنني كنت وحدي حيث كنت أظننا اثنين، وقدّرتُ أنك لم تحسب تلك سوى «مقدمة»، وأنا كنت أقدّرها لذاتها. وصار سكوتك عندي: «إما ذاك وإما لا شيء!» وأنت أدرى بأثر هذا في نفسي)[1].

لقد علّق الدكتور جميل جبر على ما ورد في هذه الرسالة فقال في كتابه: «ميّ في حياتها المضطربة» بأن جبران طلب الزواج بميّ فاعتذرت بقولها: (وهل كان لديّ من وسيلة أخرى لأحوّلك عن هذا الموضوع، وأذكّرك بأني وحيدة أبويّ...) والمرجح لدينا أن جبران لم يطرح موضوع الزواج في رسائله مطلقاً، إذ لم نعثر فيها على ما يشير إلى ذلك، ولم يلمح برغبته في الاقتران بميّ، إنما نجد فيها دعوةً ملحّة منه إليها لكي تنطلق معه «بالروح المجنحة المجرّدة التي تعلو سبل البشر» ليكتشفا معاً: «ما وراء الليل، وما وراء النهار، وما وراء الزمن، وما وراء الأبدية!».

---

(١) مجلة «العصبة البرازيلية» - ج (٤) - العدد العاشر - تشرين الأول سنة ١٩٣٨ - ومما يجدر بالذكر هو ان هذه الرسالة قد نشرت في حياة ميّ، قبل أن ينشرها الدكتور جميل جبر في كتابه: «رسائل ميّ» الذي صدر سنة ١٩٥١، بعد موتها بعشر سنوات.

كما أننا نجد في رسالة ميّ إليه، إذا أنعمنا النظر فيها، أنها خافت مما قد تجرّ إليه المراسلة بينهما حين تطورت من تبادل الأفكار، إلى تبادل المشاعر، فقالت له صراحةً: «يجب أن نقف هنا»، وتعمدّت قطع الصلة به «لتتحايد كل كلمة تقربها من ذلك الموضوع». فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن: «ذلك الموضوع» الذي ذكرته ثلاث مراتٍ في رسالتها هو «الحبّ الروحي» أو «العاطفة النفسية القوية» التي اختبرها جبران، ودعاها لمشاركته فيها، وليس طلب الزواج!!! فلو كان « الموضوع الآخر» الذي أشارت إليه ميّ هو موضوع زواجها منه لما قالت لجبران إنه: «ملأ روحها شوكاً وعلقماً» وإنه «سبب لها الشقاء»، بل لكانت رحّبت به لأنها كانت تحبّه فعلاً، وتتمنى الاقتران به إذ لم تجد غيره من الرجال نداً لها وكفواً!! ولأن «الزواج»، وحده، في عقيدتها، هو ما يبرّر الحب، في حين أن «الحبّ»، وحده، هو إثمٌ، إذا لم يكن مرتبطاً بالزواج، حسب مفهومها له، الناجم عن تربيتها البيتية، والدينية، وحسب التقاليد الموروثة والمكتسبة التي تشرّبتها في حياتها، واحترمتها. وقد اطلعنا على تقديسها للزواج واحترامها للحياة العائلية في رسالتها إلى الدكتور يعقوب صروف في سنة ١٩١٨[١] التي نشرناها في الفصل السابق. أما جبران فقد كان، في تلك المرحلة من حياته، حريصاً على حريته، يضعها فوق كل اعتبار، وكان ثائراً على العبودية، حتى في الحب! فقد عرض رأيه في هذا الموضوع في قصته: «الجنيّة الساحرة» حيث كتب يقول:

(. . .ولكن قفي قليلاً أيتها الساحرة، فها قد استرجعت قواي، وكسرت القيود التي برت قدمي، وسحقت الكأس التي شربت منها السمّ الذي استطبته. فماذا تريدين أن نفعل، وعلى أي طريق تريدين أن نسير؟ قد استرددت حريتي فهل ترضين بي رفيقاً حراً يحدّق إلى وجه الشمس بأجفانٍ

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٤.

جامدة، ويقبض على النار بأصابع غير مرتعشة؟ لقد فتحت جناحيّ ثانية فهل تقبلين فتىً يصرف الأيام متنقلاً كالنسر بين الجبال، رابضاً كالأسد في الصحراء؟ هل تكتفين بحب رجلٍ يتخذ الحب نديماً، ويأباه سيداً؟ هل ترضين بي صاحباً لا يستعبد ولا يُستعبد؟)[1].

كما أعرب عن رأيه في الزواج في مقالته: «حفار القبور» فقال:

(. . .إنما الزواج عبودية الإنسان لقوة الاستمرار. فإذا شئت أن تتحرّر فطلق امرتك، وعش خالياً!)[2].

عاش جبران عزباً ولم يفكر بالزواج إلا مرةً واحدةً حين عرضه على وليّة نعمته، صديقته الأميركية «ماري هاسكل»[3] سنة ١٩١٢ بعد رجوعه من أوروبا حيث أرسلته للإطلاع على الفنون، على نفقتها. ولكن ماري هاسكل التي كانت أكبر منه بعشر سنوات رفضت الاقتران به ليقينها بأنه رغب به للتعبير عن وفائه لها هي التي اكتشفت نبوغه، قبل سائر الناس، وأمدته بالعون المادي والمعنوي فكانت ملاك الرحمة في سائر أدوار حياته. ولا بدّ من إعطاء لمحة عن حياته العاطفية لادراك التطور الذي طرأ عليها في السنوات العشر الأخيرة من حياته. لقد أحبّ فتاةً لبنانية في مستهل شبابه حباً رومنطيقياً عارماً وصفه في روايته «الأجنحة المتكسرة»، ثم اتصل بنساءٍ غربيات في الولايات المتحدة الأميركية، وفي باريس، وعاشرهن حتى أضحى الحب والمحبة قوام الأدب الجبراني، والفن الجبراني المتجلي في رسومه الرمزية. ويقول أصدقاؤه ونقاده، ومنهم الاستاذ الكبير ميخائيل نعيمه إنه كان غارقاً في حضن المادة، نهماً لملذات الحياة ومباهجها، غير أنه تنزّه عن كل ما هو مادي وحسّي في العشرينات، وكان «حب اللحم والعظم» في شبابه

---

(١) العواصف ـ جبران خليل جبران ـ الأعمال الكاملة ـ الجزء الثالث ـ ص: ٣٦.

(٢) العواصف ـ جبران خليل جبران ـ الأعمال الكاملة ـ الجزء الثالث ـ ص: ١٢.

(٣) ولدت ماري هاسكل سنة ١٨٧٣ وتوفيت سنة ١٩٦٤ وتزوجت «فلورانس مينيس» سنة ١٩٢٦.

الحافز لإغراقه في الضباب والصوفية. وقد ظهر هذا التطور الجذري في أدبه وفلسفته، وفي اتجاهه إلى الروحانيات، ولا سيما في كتبه: «النبي» و«السابق» و«يسوع ابن الإنسان» و«آلهة الأرض».

وهنالك عامل آخر جعل جبران بعيداً عن التفكير بالزواج عندما تطورت علاقته بميّ من الإعجاب إلى الصداقة الأدبية، ومن ثم إلى عاطفة مشبوبة يمكن أن نسميها حباً روحياً، أو ضبابياً، أو سماوياً! هذا العامل الهام هو اعتلال صحته الذي نتبينه من رسائله إلى ميّ، والذي تحدث عنه الذين عرفوه، وذكروا أن عوارض المرض ظهرت عليه سنة ١٩٢١[١]. ولكن جبران ظلّ يحب المرأة ويقدسها، وظلّ حتى آخر حياته مولعاً بكتابة الرسائل، وتبادل الأفكار مع أصدقائه وأعلام عصره، فعندما بلغت الرابطة الروحية بينه وبين ميّ ذُروتها كان الحب عند جبران قد تحوّل إلى شوقٍ للمرأة التي تمتزج روحها بروحه، وتغدق عليه عاطفةً نورانية، فتكون الرفيق الذي به يستأنس، والنديم الذي إليه يتوق، ومعه يحلّق! ولعل أفضل تعليل لشوق جبران هو ما كتبه الأستاذ مارون عبود:

(الشوق عند جبران غذاء روحي تحيا به الحياة نفسها، ولولاه لم يكن شيء مما كان. فكأنه قد استمد هذا الشوق من أساطير الفينيقيين الأولين، فهو يتصوّر الضباب كما تصوروه، ويعتقد بتكتله العتيد، وصيرورته في الغد كياناً سوياً... كما يعتقد الفلكيون بتطوّر النجوم السديمية)[٢].

هذا هو موقف جبران من الزواج والحب المغاير لموقف ميّ منهما إذ كانت تحترم الزواج، وتتوق إلى لقاء الرجل «الرجل» لتسعده، وتسعد بالحياة معه في بيت تتقد فيه شعلة الفكر، كما عرضنا في الفصل السابق. وعندما أحبّت كانت نظرتها إلى الحب نظرة مثالية، غير أثيرية ولا ضبابية، أعربت عنها حين كتبت ما يلي:

---

(١) رسالة المنبر الى الشرق العربي ـ فيليكس فارس ـ ص: ١١٨.

(٢) مجددون ومجترون ـ مارون عبود ـ ص: ٢٤٣ من الطبعة الرابعة.

(كن عظيماً ليختارك الحب العظيم وإلا فنصيبك حبٌّ يسفّ التراب، ويتمرّغ في الأوحال، فتظل على ما أنت أو تهبط به بدلاً من أن تسمو إلى ابراجٍ لم ترها عين، ولم تخطر عجائبها على قلب بشر لأن هياكل مطالبنا إنما تقام على خرائط وهمية وضعتها منا الأشواق)[١].

لقد ورد هذا المقطع في مقالةٍ نشرتها ميّ بعنوان «كن سعيداً» بعد أن تأجج في قلبها حبّ جبران الذي أسعدها بقدر ما أشقاها، وقد قالت فيها أيضاً:

(إذا كنت محباً ومحبوباً كن سعيداً! فقد دلّلتك الحياة، وضمتك إلى أبنائها المختارين، وأرتك الألوهية عطفها بتبادل القلوب، واجتمع النصفان التائهان في المجاهل المدلهمّة فتجلت لهما بدائعُ الفجر، وهنأتهما الشموس بما لم تهتدِ بعدُ إليه في دورتها بين الأفلاك. تهيأ للحب مهما أثقلتك المشاعر لأن للحب هبات وسكنات، وأنت لا تعرف ساعة مروره)[٢].

لهذا نرى أن ميّ المتحررة في فكرها وثقافتها، غير ميّ المحافظة في سلوكها، المتكتمة في عاطفتها، التي كتبت تقول، في مقالتها: «موعظة شهر الورود»، مخاطبةً النساء: (ألا فاعلمن أن حب الرجل لا يُكتسب بالتهتّك بل بالتكتم. الرجل محارب في طبعه، يهوي الفتوحات، ويستميت في الاخضاع، بينما هو يُعرض عن كل ما لا يكلفه ألماً وكدّا. على المرأة أن تكون وردة تحيط بها الأشواك، وما «أشواك» الوردة النسائية غير التكتم، والحشمة والطهارة، كما قال ذلك القس)[٣].

فما أبعد الفارق بين تأثرها بإرشادات القساوسة ومواعظهم، وبين تمرّد جبران وثورته عليهم، وحتى على الكنيسة! فنحن نستنتج أن الفكرة الثابتة عند ميّ بأن الرجل يُعرض عن كلّ ما لا يكلفه ألماً وكدّاً، كانت مسيطرة

---

(١) و (٢) ظلمات وأشعة ـ مي زيادة ـ ص: ٨٢.

(٣) سوانح فتاة ـ مي زيادة ـ ص: ٥٨.

عليها، وسبباً رئيسياً في تمنّعها في الإفصاح عن عواطفها لجبران، وفي تراجعها إثر إقبالها، ومشاكسته إثر مسايرته، وقطع الصلة به أحياناً بضعة شهور. . .

فلنعد إلى متابعة الرسائل لنقف على ما جدّ بين الحبيبين، بعد أن نقلنا رسالة ميّ إليه التي دافعت فيها عن نفسها، وحاولت توضيح موقفها الشريف الموافق على الصداقة الفكرية والأدبية، والرافض للعاطفة المشبوبة. لقد ردّ جبران عليها برسالة طويلة تبدّى فيها، كما عرفناه، روحاً مجنحة، ونفساً ظامئة إلى المحبة والوجد، وإنساناً عنيداً في سعيه المستديم لكشف الأسرار، وتسلّق القمم، بصحبة صديقته الحبيبة التي أضحت شقيقة روحه، وكاتمة أسراره، والأم التي فقدها، والرمز للوطن الذي يهيم به. كتب إليها في ١١ ـ ١ ـ ١٩٢١ ما يلي:

(يا ميّ

ها قد بلغنا قمةً عالية فظهرت أمامنا سهول وغابات وأودية فلنجلس ساعة، ولنتحدث قليلاً. نحن لا نستطيع البقاء هنا طويلاً لأني أرى عن بعد قمةً أعلى من هذه، وعلينا أن نصل إليها قبل الغروب، ولكننا لن نترك هذا المكان إلا وأنت فرحة، ولن نخطو خطوة إلا وأنت مطمئنة. قد قطعنا عقبةً صعبةً، قطعناها بشيءٍ من التلبّك، وإني اعترف لك بأنني كنت ملحاً، لجوجاً، غير أن إلحاحي كان نتيجةً مقررةً لشيء أقوى مما ندعوه إرادة)[1].

واعترف أيضاً بأنه «لم يكن حكيماً في بعض الأمور»، وحمّل المراسلة تبعة ما حصل بينهما من سوء تفاهم لأن المراسلة «تلبس أبسط الأمور ثوباً من المركبات، وتُسدل على وجه المجرّدات نقاباً كثيفاً من الكلفة». ثم كان أكثر وضوحاً بغية جذبها إلى أشواقه وهي مطمئنة فقال:

(ونحن يا ميّ إذا أحببنا شيئاً نحسب المحبة نفسها محجةً، لا واسطةً للحصول على شيءٍ آخر. وإذا خضعنا خاشعين أمام شيءٍ علويّ نحسب

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٠٣ من الطبعة الأولى.

الخضوع رفعةً، والخشوع ثواباً. وإذا تشوّقنا إلى شيء نحسب الشوق بحدّ ذاته موهبةً ونعمة. ونحن نعلم أن أبعد الأمور هو أخلقها وأحقها بميلنا وحنيننا. ونحن ـ أنت وأنا ـ لا نستطيع حقيقةً أن نقف في نور الشمس قائلين: «يجب أن نوفّر على أنفسنا عذاباً نحن بغنىً عنه». لا يا ميّ، نحن لسنا بغنىً عما يضع في النفس خميرةً قدسية، ولسنا بغنىً عن القافلة التي تسير بنا إلى مدينة الله، ولسنا بغنىً عما يقربنا من ذاتنا الكبرى، ويرينا ما في أرواحنا من القوى والأسرار والعجائب)[١].

وتدفق جبران في حديثه المتجرد عن كل ما هو ماديّ وسطحي وأرضيّ، معرباً لمي بأن العاطفة التي تشدّ كلًّا منهما إلى الآخر تتخطى حدود الزمان والمكان والحواس إلى عالم قدسي تتّحد فيه قوة الوجود، وتسمو به الأرواح فتنهل من الخميرة القدسية. ثم حدثها عن نفسه وقلقه لوجوده في حالة ترقّب حدوث ما لم يحدث بعد، وإذا به يتلقى منها رسالةً علّق عليها فقال إنها: (حلّت ألف عقدة في حبل روحي، وحوّلت الانتظار إلى حدائق وبساتين)[٢].

وهذا يعني بوضوح أنه انتصر في جذبها إلى عالمه العلويّ، لتحلق فيه إلى جانبه، وانها كتبت إليه رسالة أخرى، أعلمته فيها بأن نفحاته الروحية المجردة، وتوقه إلى كل ما هو جميل ونبيل وسام لقي صداه في قلبها، وإن لم تجد هي، الغريبة والمستوحشة والمستوحدة مثله، الشجاعة للبوح بذلك من قبل، وهذا ما دعاه لأن يقول لها، في نهاية الرسالة:

(أنا أعلم الآن أن الحياة بدون هذا الانجذاب النفسي ليست سوى قشور بغير لباب. وأحقّق أن كل ما نقوله ونفعله، ونفكّر به، لا يساوي دقيقةً واحدة نصرفها في ضبابنا)[٣].

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: (١٠٥ ـ ١٠٦) من الطبعة الأولى.
(٢) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٠٧ من الطبعة الأولى.
(٣) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٠٩ من الطبعة الأولى.

وكان ختامها رائعاً، مؤثراً حيث كتب يقول:

(أنتِ يا ميّ شعب عظيم من الجبابرة الفاتحين، وفي الوقت ذاته أنت ابنة صغيرة في السابعة تضحك في نور الشمس، وتركض وراء الفراشة، وتجني الأزهار، وتقمز فوق السواقي. وليس في الحياة شيء ألذّ وأطيب لديّ من الركض خلف هذه الصغيرة الحلوة، والقبض عليها، ثم حملها على منكبيّ، ثم على كتفيّ، ثم الرجوع بها إلى البيت لأقصَّ عليها الحكايات العجيبة الغريبة، حتى تكتحل أجفانها بالنعاس، وتنام نوماً هادئاً سماوياً.

جبران)[1].

لا ريب في أن جبران كان واثقاً من سيطرته على فكر ميّ وعقلها وقلبها، وأنه أدرك أخيراً ما كان يختلج في قرارة نفسها من عواطف متأججة، يحول الخفر والارتياع دون الإفصاح عنها. ومما يشير إلى أنها ارتاحت لتشبيهه لها بالطفلة الحلوة الوادعة، الساذجة، هو ما جاء في رسالته اللاحقة المؤرخة في ٦ - ٤ - ١٩٢١ حيث نصّبها أميرةً في رسمٍ أبدعه على هامش الرسالة، يمثّل وجه طفلةٍ جميلة، وضع على رأسها تاجاً وكتب ما يلي:

(أقول يا سيدتي إن حياة الرجل تظل كصحراء خالية إلا من الرمال حتى يمنّ الله عليه بابنة مثل أميرتي الصغيرة! وأقول يا سيدتي إن من ليس له ابنة فليتبنّى ابنة لأن أسرار الأيام، ومعانيها، تختبىء في قلوب الصغيرات. وأنا أدعو ابنتي «الأميرة» لأن حركاتها وسكناتها، ونغمة صوتها، وابتساماتها، وألعابها، واختراعاتها، بل وكل شيء فيها يدل على «الأمارة». وهي مستبدة ولها آراء خصوصية لا يستطيع أحد من البشر تغييرها، أو تحويرها. ولكن ما أعذب وأطيب استبدادها، وحكمها المطلق)[2].

وكان قد رسم في الصفحة السابقة وجه فتاةٍ شابة تقابله وجوُه عدة

(١) الشعلة الزرقاء - ص: ١٠٩ من الطبعة الأولى.

(٢) الشعلة الزرقاء - ص: ١١٣ من الطبعة الأولى.

رجالٍ، في أعمارٍ مختلفة، وكتب إلى جانب الرسم ما يلي:

(والآن وقد «انتهينا» من المعركة الدموية يتقدّم إليك الأب والأخ والرفيق والصديق - مع أفراد الأسرة كافة - ويطلبون منك أن تنظمي، أو تنثري روحك وقلبك قصائد وموشحات، وأن تقفي وقوف كاهنةٍ أمام المذبح، ولو مرةً كل شهرين، وتتكلمي عن ذلك العالم السحريّ الكائن وراء عالم الفكر والعلم، والبحث والمنطق)[1].

عندئذ أطلّت ميّ على جبران برسالةٍ سكبت فيها الحنان الذي يفيض به قلبها، ولمحت له برسالة بوحٍ أخرى كتبتها ولم تجرؤ على ارسالها!! تبيّنا من ردّه المؤرخ في ٢١ - ٥ - ١٩٢١ أنها كتبت إليه عبارة: «كثيراً وبحنوّ»، وهي ترجمة لقولٍ شائع، يردّده العشاق الفرنسيون، بغية الوقوف على عمق حبهم فيقولون، وهم ينزعون وريقات النسرين، الواحدة تلو الأخرى: «أحبك، قليلاً، كثيراً، بحنوّ، بهيام، بجنون، لا أحبك أبداً!» وهذا ما جعله يعدّ اليوم الذي تسلّم فيه تلك الرسالة: «فجراً ليوم جديد»، ثم يضيف قائلاً: (كثيراً وبحنوّ، كثيراً وبحنوّ، ومن هذا الكثير، وهذا الحنوّ تعلمت الصلاة بفرح، والحنين بطمأنينة، والإمتثال بدون انكسار. لقد عرفت أن المستوحد يستطيع أن يغمر وحدته بنور «الكثير»، ويزيل الاجهاد في عمله بحلاوة «الحنوّ». وعرفت أن الغريب المستوحش يستطيع أن يكون أباً وأخاً ورفيقاً وصديقاً، وفوق كل ذلك أن يكون طفلاً فرحاً بالحياة. إن في هذا الكثير، وهذا الحنوّ، أجنحة تخيّم، وأيادٍ تبارك)[2].

ثم أخذ يطمئنها عن صحته إذ أخبرها في رسالته السابقة بأنه كان، لأسابيع خمسة خلت، طريح الفراش، فقلقت عليه، وسألته عما أصابه فقال:

(صحتي اليوم أحسن مما كانت عليه منذ شهر، لكنني لم أزل مريضاً،

---

(١) الشعلة الزرقاء - ص: ١١١ من الطبعة الأولى.

(٢) الشعلة الزرقاء - ص: ١١٥ - ١١٦ من الطبعة الأولى.

وهذا الجسم الضعيف ما برح بدون نظام، وبدون وزن، وبدون قافية. وأنت تريدين أن أقول لك مِمَّ أشكو، فإليك خلاصة ما قاله الأطباء)[١].

ونقل إليها تقرير الأطباء باللغة الانكليزية، ومفاده أنه أصيب باضطراب في القلب نتيجة الاجهاد والنقص في التغذية. وبعد أن اعترف لها بإفراطه في الكتابة والرسم، ليل نهار، وإهماله لصحته، شكرها على تلهّفها عليه، وتمنيها له بالشفاء العاجل، وطالبها بالرسالة الطويلة «المقطعة المكتوبة بقلم رصاص، على ورق بلدي مربع التسطير»، فكتب يقول: (أين رسالتي يا ميّ؟ لماذا لم تبعثي بها إليّ؟ أريد الحصول عليها، أريدها بكلّياتها وجزئياتها. أتعلمين مقدار رغبتي في الحصول عليها بعد أن قرأت نتفةً منها ـ تلك النتفة القدسية التي جاءت فجراً ليوم جديد. أتعلمين أنه لولا خوفي من كلمة «وبجنون» لكنت بعثت إليك ليلة أمس ببرقية أرجوك فيها تسليم الرسالة إلى البريد؟)[٢].

وأخذ يعرب لها عن تمنيه الوجود بقربها في مصر، ويتخيّلها بقربه تعتني به وتحنو عليه، وتنهاه عن الكتابة والرسم، والا «فتكون عليه من الساخطين». ثم وصف لها ابتهاجه وافتخاره بما ظهر لها من مقالات في الشهور الأخيرة قائلاً:

ما قرأت لك قطعةً إلا وشعرت بنموٍّ وتمدّد في قلبي، وما قرأتها ثانيةً إلا وتحولت عمومياتها إلى شيءٍ شخصي، فأرى في الأفكار والقوالب ما لم يره سواي، وأقرأ بين السطور سطوراً لم تكتب إلا لي. أنت يا ميّ كنز من كنوز الحياة، بل وأكثر من ذلك، أنتِ أنتِ، وإني أحمد الله لأنك من أمةٍ أنا من أبنائها، ولأنك عائشة في زمنٍ أعيش فيه)[٣].

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١١٥ ـ ١١٦ من الطبعة الأولى.

(٢) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١١٧ من الطبعة الأولى.

(٣) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١١٩ من الطبعة الأولى.

وتمنى في آخر رسالته أن يتخلّص من الغربة عن وطنه، ليعود إليه، وأن يكون صحفياً ليطالبها بصورةٍ من صورها، ثم أضاف هذه الجملة التي ختم بها رسالته: (كنت ولم أزل أقول هذا في قلبي، فهل سمع الذين اتخذوا قلبي وطناً لهم؟)[1]

لكم كان جبران مصيباً بقوله إن ميّ أمست تكتب إليه وحده، وبوحيٍ من حبها له، وبأنها اتخذت قلبه وطناً لها!! فقد نشرت في تلك الآونة مقالات وجدانية متمثلةً فيها الحبيب البعيد القريب، مخاطبةً إياه، دون سائر الناس، بدفقات هواها المشبوب، وحنينها إليه، وبهمساتٍ عذاب لا تعدو عن كونها تهاليل مسكوبة في قصائد منثورة رائعة. لقد قرأ حتماً جبران تلك المقالات الوجدانية، ومنها المقالة التي نشرتها في عدد الهلال سنة ١٩٢٠ بعنوان: «العيون»، حيث خاطبته بقولها:

(. . . وأنت ما لون عينيك؟ وما معناهما؟ وإلى أي نقطة من المرئيات، أو وراءهما ترميان؟ قم إلى مرآتك! وانظر إلى طلسميك السحريين، هل درستهما من قبل؟ تفرّس في عمق أعماقهما تتبيّن الذات العليمة التي ترصد حركات الأنام، وتساير دورة الأفلاك والأزمنة في عمق أعماقهما، ترى كل مشهد، وكل وجه، وكل شيء. . .

وإذا شئت أن تعرفني، أنا المجهولة، تفرّس في حدقتيك يجدني نظرك في نظرك، على رغمٍ منك)[2].

ولا ريب في أن جبران قرأ مقالتها «قرب منعطف السبيل» وادرك أنها رسالة موجهة اليه، مع أنها أرادتها موجهة إلى «الحبّ» العظيم الذي سعدت باكتشافه، وسما بها إلى السماك الأعلى وهذّبها، وهذا بعض ما جاء فيها:

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٢٠ من الطبعة الأولى.

(٢) ظلمات واشعة ـ مي زيادة ـ ص: ٥٢ ـ ٥٣.

(. . . أنت لم تكن تنظر إليّ، وأنا لم أكن أنظر إليك، ولكن لماذا كانت تتبلبل خواطري، وأهرب عند قدومك؟ وأنت إن لم تستطع السكوت، لماذا يخرج صوتك متقطعاً، متهدّجاً كأنك تجاهد لتقهر تأثراً ما؟

. . . أنت لم تكن تفكّر فيّ، وأنا لم أكن أفكّر فيك، ولكن لماذا كنت أحيد عن طريقك لئلا التقي بك، أنا التي أودّ أن أبحث عنك في كل مكان؟

. . . أنت لم تكن لي شيئاً، وأنا لم أكن لك شيئاً، ولكن أليس أن إرادتك حلّقت فوق خواطري، كَيَدٍ آمِرَةٍ، فَتُقْتُ لأجلها إلى الطاعة والخضوع؟

. . . من أنت؟ وماذا كنت؟ أكنت وحياً من فيض شاعريتي المكتظة، وطيفاً من أطياف شوقي وعذابي؟ أم أنت حقيقة محسوسة مرّت في أفق حياتي، مرور السفن في البحر إلى الشواطىء النائية؟ لقد كنتَ وحياً من فيض شاعريتي، وكنتَ طيفاً من أطياف شوقي وعذابي، وأنت حقيقة محسوسة مرت في أفق حياتي، مرور السفن في البحر إلى الشواطىء النائية، يا مهذّبي!)[1].

كما أن جبران قرأ أيضاً رائعتها: «أنت أيها الغريب!» وفهم أنه المعنيّ بها، فطرب واهتزّ فرحاً وزهوّاً، وفيها أنشدت ما يلي:

(أنا وأنت سجينان من سجناء الحياة. وكما يُعرف السجناء بأرقامهم يُعرف كل حيٍّ باسمه.

. . . بنظرك النافذ الهادىء تذوّقت غبطة من له عينٌ ترقبه، وتهتمّ به، فصرت ما ذكرتك إلا ارتدت نفسي ثوباً فضفاضاً من الصلاح والنبل والكرم، متمنيةً أن تنثر الخير والسعادة على جميع الخلائق.

لي بِكَ ثقة موثوقة، وقلبي العتيّ يفيض دموعاً. سأفزع إلى رحمتك عند إخفاق الأماني، وأبثك شكوى أحزاني، أنا التي تراني طروبة، طيارة.

---

(١) ظلمات واشعة ـ مي زيادة ـ ١٠٢ ـ ١٠٥.

وأحصي لك الاثقال التي قوست كتفيّ، وحَنَتْ رأسي منذ فجر أيامي، أنا التي أسير محفوفةً بجناحين، متوّجةً بإكليل. وسأدعوك أبي وأمي متهيبةً فيك سطوة الكبير، وتأثير الآمر! وسأدعوك قومي وعشيـرتي، أنا التي أعلم أن هؤلاء ليسوا دواماً بالمحبين! وسأدعوك أخي وصديقي، أنا التي لا أخ لها ولا صديق. وسأطلعك على ضعفي واحتياجي إلى المعونة، أنا التي تتخيل فيَّ قوة الأبطال، ومناعة الصناديد.

وسأطلب منك الرأي والنصيحة عند ارتباك فكري، واشتباك السبل. . . .وقد أتعمّد الخطأ لأفوز بسخطك عليّ فأتوب على يدك، وأمتثل لأمرك.

. . .كل ذلك، وأنت لا تعلم!

وسأتسمع إلى جميع الأصوات عَلّي أعثر على لهجة صوتك.

في حضورك سأتحول عنك إلى نفسي لأفكر فيك، وفي غيابك سأتحول عن الآخرين لأفكر فيك، سأتصوّرك عليلاً لأشفيك، مصاباً لأعزيك، مرذولاً لأكون لك وطناً وأهل وطن، سجيناً لأثبت لك بأي تهوّر يجاذف الإخلاص، ثم أبصرك مزيداً لأفاخر بك، وأركن إليك.

. . .وفي أعماق نفسي يتصاعد الشكر لك بخوراً لأنك أوحيت إليّ ما عجز دونه الآخرون.

أتعلم ذلك، أنت الذي لا تعلم؟ أتعلم ذلك، أنت الذي لا أريد أن تعلم؟)[١].

وبعدُ، هل من داعٍ لكي نقول إن تأثر جبران بمضمون هذه المقالة لميّ هو ما دفعه إلى رسم وجوهٍ متعددة على هامش رسالته تمثل: الأب والأخ والرفيق والصديق، يناشدونها أن تنثر روحها وقلبها قصائد وموشحات؟ أوليس قولها، في هذه المقالة الوجدانية، بأنها تود أن تكون له وطناً وأهلاً هو

---

(١) ظلمات وأشعة ـ ميّ زيادة ـ ص: ٩٨ ـ١٠١.

ما جعله يستعير الفكرة والعبارة، ويختم رسالته إليها بقوله: «فهل سمع الذين اتخذوا قلبي وطناً لهم؟».

يكفي أن ننقل ما قالته ميّ للأديبة: سلمى صائغ حتى نقف على هوية المعنيّ بهذه المقالة، إذ ذهب بعض الكتاب[١] إلى نسبتها لعباس محمود العقاد... فقد نشرت سلمى صائغ مقالة في جريدة العمل البيروتية بعنوان «ميّ المرأة» جاء فيها ما يلي:

(... سألتها يوماً: أي آثارك الأدبية تفضلين؟ فنظرت إليّ بعينها ذات الزئبق الرجراج، وافترّ ثغرها الشبيه بقوس «كوبيدون» عن ابتسامة حزينة، وهمست: «إن أعلق ما كتبت بروحي هو: أنت أيها الغريب»)[٢].

وإذا فتّشنا عن أثر حب ميّ لجبران في مقالاتها وكتبها فإننا نجد الكثير من هذه النفحات الحرّى حيناً، والرطاب حيناً آخر، ونستجلي وجدها وعطشها للحب المثالي ينسابان على قلمها المبدع، ولا سيما في مقالتها: «إحرصي على قلبك» التي خاطبت فيها نفسها بلغة العاشق الملتاع كقولها فيها:

(أخبريني ما بك أيتها الفتاة! لماذا أراك عند نافذتي ترقبين ما ليس بالموجود، وتشتاقين إلى ما ليس بالبادي؟

وإذا تحولتُ عنكِ إلى مرآتي رأيتُ هناك وجهك مفجعاً حزيناً؟ أهو أملٌ غزا نفسك فثقل على فؤادٍ منك اعتاد القنوط؟

أم أن قرب تهليل الأمل يأسٌ ينتحبُ، وشعورٌ بالفشل طالما خالط الرجاء؟ جميع الأشياء انتعشت انتعاش من خرج من أزمةٍ وانفرج، وأنتِ أيّ علةٍ تضفيكِ فتلوبين وتتأوهين؟ ألا أحرصي على قلبك أيتها الفتاة! احرصي على جرح قلبك أيتها الفتاة!)[٣].

---

(١) غراميات العقاد ـ عامر العقّاد ـ ص: ٥٣ ـ ٥٤.

(٢) «العمل» عدد ٧ تشرين الثاني ١٩٤٨.

(٣) سوانح فتاة ـ مي زيادة ـ ص: ١٤ ـ ١٦.

ولا بد من القول إن ميّ رفعت لواء جبران في الصحافة العربية تعرّف بآثاره، وتدافع عنه، فقد خصّت بعض مؤلفاته ومنها «المواكب»، و«المجنون»، و«يسوع ابن الانسان» بمقالات نشرتها في «الهلال»، سبق أن تحدثنا عنها في فصل: «ميّ الكاتبة»، كما أنها عتبت على الأستاذ عباس محمود العقاد يوم تناول «المواكب» بنقد لاذع قال فيه: (لو طرق جبران باب الشعر المنثور لكان ذلك أفسح مجالاً لآرائه، وأقرب إلى سليقته وقدرته اللغوية من معالجة الشعر الموزون. وحبذا لو أقلّ من المعاني الرمزية فإنها بقية من بقايا إيهام الكهان الأقدمين، لا يقبلها في العصور الحديثة إلا أشباه أتباع الكهّان فيما تصرّم من العصور[1]). أما عتبها على العقاد فقد سجلته في إحدى رسائلها إليه بهذه العبارات:

(. . .وقد لاحظت قسوتك على جبران خليل جبران، وإن كنت أوافقك على بعض ما قلت، وأعارضك في البعض الآخر، وأترك ذلك لفرصةٍ أخرى)[2]. لقد حفظت ميّ بعض قصائد «المواكب» فكانت تستشهد بأبياتٍ منها في كتاباتها من غير أن تذكر اسمه علانية، وتكثر من ذكره بينها وبين نفسها لشدة تكتمها. . . وها هي تقول، في سياق محاضرة لها بعنوان «الدموع» عندما تحدثت عن الظلم والعدل:

(ألا لله درّ الشاعر القائل:

والعدل في الأرض يبكي الجنَّ لو سمعوا
به، ويستضحكُ الأمواتَ لو نظروا
فالسجنُ والموتُ للجانينَ إن صغروا،
والمجدُ والفخرُ والإثراءُ إن كَبُرُوا

---

(١) الفصول ـ عباس محمود العقّاد ـ الصفحة ٦٧ من الطبعة الثالثة.
(٢) غراميات العقّاد ـ عامر العقّاد ـ ص: ٤٨ ـ ٤٩.

فـــــارقُ الـــزهـــرِ مـــذمـــومٌ ومحـــتـــقـــرٌ،
وســـارقُ الحـــقـــلِ لَهْـــوَ الـــبـــاسِـــلُ الخَـــطِرُ،
وقـــاتـــلُ الجـــســـم مـــقـــتـــولٌ بـــفـــعـــلتِـــهِ،
وقـــاتِـــلُ الـــروح لا تـــدري بـــه الـــبَـــشَـــرُ!)[1]

نعود الآن إلى استجلاء تطوّر العاطفة بين ميّ وجبران، والكشف عن تأججها، عبر رسائلهما، فنرى أن جبران ألحق رسالته الأخيرة، التي تحدثنا عنها، والمؤرخة في ٣٠ ـ ٥ ـ ١٩٢١، برسالةٍ مقتضبة بعث بها إليها بعد أسبوعٍ واحد، يعرب عن اضطرابه من حلم مزعج رآها فيه مصابةً بجرحٍ في جبهتها:

(يا مي، يا ماري، يا صديقتي

استيقظت الساعة من حلم غريب. ولقد سمعتُك تقولين لي في الحلم كلمات حلوة، ولكن بلهجةٍ موجعة، والأمر الذي يزعجني في هذا الحلم، ويزعجني جداً، هو أنني رأيت في جبهتك جرحاً صغيراً يقطر دماً. ليس في حياتنا شيء أدعى إلى التفكير والتأمّل من الأحلام. وأنا من الذين يحلمون كثيراً، بيد انني أنسى أحلامي، إلا إذا كانت ذات علاقة بمن أحبهم. لا أذكر انني حلمت في ماضيَّ حلماً أوضح من هذا الحلم، لذلك أراني مضطرباً، مشغول البال في هذا الصباح. ماذا تعني رنّة التوجّع في كلماتك الجميلة؟ وما معنى الجرح في جبهتك. وأي بشري يستطيع أن يخبرني مفاد انقباضي وكآبتي؟ سوف أصرف النهار مصلياً في قلبي. سوف أصلّي لأجلك في سكينة قلبي. وسوف أصلي لأجلنا. والله يباركك يا ميّ ويحرسك

جبران[2]).

لو كان جبران علياً بتفسير الأحلام لأدرك بأن الجرح الذي رآه في

---

(١) كلمات واشارات ـ الجزء الأول ـ مي زيادة ـ ص: ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٢) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٢٣ ـ ١٢٤ من الطبعة الأولى.

جبهة الحبيبة هو رمز للجرح الذي يقطر دماً في قلبها... ذلك الجرح الذي خاطبت نفسها تقول: (ألا احرصي على جرح قلبك أيتها الفتاة!) وقد حرصت ميّ على جرحها بكبرياء، ودارته بالجلد والدموع، فكان حاكماً عليها مستبداً، لا يهادن ولا يرحم، وحباً يعلّل نفسها الظامئة للانتشاء بما هو خيّر، ورائع، وسامٍ، حباً غذى روحها وخيالها فخلقت لنفسها دنيا وآفاقاً متموجة بالسحر، تتردّد في أرجائها أغاريد سماوية لا تبلى على مرور الزمن! ولو علم جبران بكل ذلك، لو علم بأن المرأة التي فجّر عواطفها المخزونة في رسائله إليها، امرأة لم تكتشف وجع الحب قبل هيامها به، امرأة خيالية، مثالية شاعرة، تسافر بعيداً على أجنحة الأحلام والآمال، الأحلام العذبة حيناً، والأحلام المضطربة الحائرة أكثر الأحيان، التي تتبخر رويداً رويداً في لجة الانتظار، فتطويها الظلمات كما تطوي الجوانح نفساً متألمة، أبيةً ضنينة بالاعراب عن وجعها... لو علم جبران بكل ما كانت تعانيه الصديقة الحبيبة بسببه، ومن أجله، لكان له معها موقف آخر! موقف جدّي، إنساني، رؤوف، بعيدٌ عن إذكاء النار بالعبارات الشاعرية والرسائل العاطفية الخيالية...

كان أثر جبران في أدب ميّ واضحاً، لم يخف على الباحثين، وقد شحذ موهبتها الشعرية، وطعّم كتاباتها بنكهةٍ وجدانية ذكية، وأسلوبٍ في التعبير أضاف إلى أسلوبها الرشيق جمالاً وأناقة. وقد أشار إلى ذلك الدكتور منصور فهمي في إحدى محاضراته عنها التي ألقاها في معهد الدراسات الأدبية العليا في القاهرة سنة ١٩٥٤ فقال:

(ومهما يكن من أثر لمختلف الآداب في أسلوب ميّ، أو مهما يكن من استقلال في أسلوبها، طوعاً لذوقها الفني الخاص، ونبوغها المميّز، فلقد كان لأدب جبران الرمزيّ أثره في بعض روائعها وفصولها بعد أن توثقت الروابط بين الكاتبين الكبيرين. وكذلك قد وجهت الأديبة الكبيرة هذا الأديب الكبير بما أوحى إليه ذكاؤها، وبما أثارته في نفسه رسائلها، ومناجياتها، وملاطفاتها،

ونقدها، وعتبها، ودلّها، من عواطف، ومن انفعالات أدبية دافقة ومستعرة)[1].

ثم أشار الدكتور منصور فهمي إلى الفائدة التي جناها الأدب من حبّ هذين الأديبين الذي حرّك الأقلام واستنبط من سحرها كل جميل ورائع وسامٍ.

لمحّ جبران لميّ برغبته في الحصول على صورةٍ لها، ويبدو أنها لبّت طلبه وارسلت إليه صورتها وهي بعد فتاة يافعة، إذ كتب إليها في شهر حزيران سنة ١٩٢١ يعبّر عن فرحه بها ويصفها بهذه العبارات:

(يا ميّ، يا صديقتي، ما أجمل هذه الصورة. ما أجمل هذه «البنيّة»، وما أوضح دلائل الذكاء في عينيها، وأمارات الاختبار النفسي في معانيها. لا! لم أر في حياتي وجه صغيرة مثل هذا الوجه، فلو تفرسته سنة ١٨٤٤ لقلت: «إن وراء هذه الجبهة قوةً غريبة ستظهرها الأيام، ووراء هذا الثغر أغنيةً سترسلها الليالي». ما أجمل هذه الصورة يا ميّ، وما أسعدني بها. اني أحب هذه الصورة حباً عظيماً، وسوف أحصل على صورة أخرى أحدث عهداً إن شاء الله، إن شاء الله[2]).

ونستشف من تتمة الرسالة أن ميّ أرفقت صورتها برسالة من نوعٍ جديد، وبلهجة استنكرها فعاتبها على تلك الصيغة «الرسمية» قائلاً: (الله الله يا دنيا!. لقد انحدرت بنا صروف الدهر حتى صرنا أهلاً لتحريرٍ نُنْعَتُ فيه «بكريم الشيم، الأجلّ، الأمجد»! أما الجريمة الدولية التي جعلتنا حريّين بهذا الالتفات الخاص فهي طلبنا الرسالة المكتوبة على ورق بلدي مربّع التسطير. لا بأس، فنحن وإن دُمغنا «بغبّ» و«بنعرض»، ورُجمنا «بالصحة»

---

(١) محاضرات عن مي - الدكتور منصور فهمي - ص: ١٩٦.

(٢) ميّ زيادة واعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص: ١٥٧ وقد نشرنا هذه الرسالة التي عثرنا عليها بعد نشر الشعلة الزرقاء في الطبعة الثانية منه.

و«بالانشراح» نبقى صابرين، مفاخرين بميزتنا على أيوب... ولكن لتعلم سيدتي أنه لو كانت تلك الرسالة في قبضتنا، وكانت سيدتي الراغبة في الحصول عليها لبعثنا بها إليها «حالاً وسريعاً»)[1].

وأعلمها على سبيل المداعبة بأنه سيذهب إلى الغابة فيكتب إليها رسالة طويلة بقلم الرصاص، على ورقٍ مربع التسطير، خالية من كل ما في الاجتماع من الكلفة، ويظل محتفظاً بها ليختبر ما اختبرته هي من اللذة النفسية باحتفاظها برسالتها...

ترى هل كانت ميّ راغبةً في تعذيبه بمثل هذا التصرف، أو أنها فعلت ذلك تيهاً ودلالاً لإثارة المزيد من اهتمامه، أو أنها ندمت على استرسالها مع عواطفها فتراجعت بسرعة؟ إنه موقف محيّر، ولكنه يفصح عن طباعٍ متأصلةٍ فيها: الخوف من الحب، والاحتراز حتى في مصارحة النجيّ الوحيد لها في الوجود. ومما يؤكد ذلك تكرار هذا الموقف في صلتها بجبران، إذ كانت تتأرجح فيها بين المدّ والجزر، والإقدام والإحجام! وبعد هذه الرسالة صمتت زهاء سنة، ثم كتبت إليه من جديد تسأله عما إذا كان وحيد الفكر والقلب والروح، وعن مغزى مقالته «نفسي مثقلة بأثمارها» التي وصفتها بأنها «أنّة شاعرٍ في ساعة غمٍّ عابرة»، وتعاتبه على لفظة «أحاول» التي وردت في آخر رسالة وجهها إليها في أواخر الصيف الغابر حيث كتب يقول: (منذ ستة أسابيع وأنا أحاول الكتابة إليكِ)، ثم أخبرته بأنها عازمة على السفر إلى أوروبا! هذا ما نتبيّنه من رسالته إليها المؤرخة في ٩ ـ ٥ ـ ١٩٢٢ التي استهلها بقوله: «سيدتي الفاضلة» وأجاب فيها على أسئلتها، وعلّق على آرائها بإسلوب فيه من المرارة والجفاف الشيء الكثير، هذا نموذج منه:

(قد أسأتُ التعبير ـ وبشيءٍ من القصد ـ عندما قلت لك في أواخر

---

(١) ميّ زياة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ١٥٧ وقد نشرنا هذه الرسالة التي عثرنا عليها بعد نشر الشعلة الزرقاء في الطبعة الثانية منه.

الصيف الغابر: «منذ ستة أسابيع وأنا أحاول الكتابة إليكِ». كان يجب أن أقول «منذ ستة أسابيع وأنا استأجر بعض الناس للاهتمام برسائلي لأن أعصاب يميني لم تكن صالحة للكتابة». ولم أحلم قط بأن لفظة «أحاول» ستتحول إلى مبضع في يد صديقتي. كنت أتوهم أن الروح المجنّحة لا تُسجن في قفص من الألفاظ. وكنت أتوهم أن الضباب لا يتحجّر. وكنت أتوهم وأتوهم وأجد الطمأنينة في أوهامي، حتى إذا ما طلع الفجر، واستيقظت، وجدتني جالساً على رابية من رماد، وفي يدي قصبة مرضوضة، وعلى رأسي إكليل من الشوك... لا بأس فأنا المخطىء، أنا، أنا المخطىء يا ميّ)[1].

وبعد أن تمنى لها التوفيق في رحلتها إلى أوروبا حيث تتوافر المتاحف الفنية ختم رسالته بهذه العبارات:

(كان بقصدي الرجوع إلى الشرق في الخريف الآتي. ولكن بعد قليل من التفكير وجدت أن الغربة بين الغرباء أهون من الغربة بين أبناء وبنات أمّي. وأنا لست ممن يميلون إلى الهينّ، ولكن القنوط فنون كالجنون.

تفضلي بقبول تحيتي مشفوعة بأحسن تمنياتي، والله يحفظك

المخلص

جبران خليل جبران)[2].

لم يكن جبران يتوقع من ميّ هذا التقلّب المتناهي في طبيعتها، ولا سيما بعد أن اعتقد بزوال السحب التي رانت على صلتهما فيما سبق، فقنط من جديد، وآثر العزوف عن الرجوع إلى الشرق، والبقاء غريباً بين الغرباء. إنها المرة الثانية التي يعدل فيها عن العودة إلى الوطن لاستيائه من موقفها المستغرب منه، وهذا قرار خطير، حمّلها مسؤوليته، وفوّت عليها فرصة لقائه، فلو كانت الأمور بينهما سائرة على الوفاق لكان في وسعه السعي لمقابلتها في أوروبا، إن لم يكن في مصر.

وإذا تابعنا دراسة هذه الرسائل التي تنقلنا من مفاجأة إلى مفاجأة نرى

---

(١) و (٢) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٢٦ ـ ١٢٧.

أن الصلة بينهما انقطعت من جديد أكثر من سنة للأسباب ذاتها: تشبّث ميّ في الخصام، ومغالاتها في التدقيق بكلمات الحبيب، وتأويلها بما لا يتفق مع معانيها. لذا استهل رسالته المؤرخة في ٥ ـ ١٠ ـ ١٩٢٣ بقوله:

(لا يا ميّ، ليس التوتر في اجتماعاتنا الضبابية، بل في اجتماعاتنا الكلامية. ما لقيتك مرةً في ذلك الحقل البعيد الهادىء إلا وجدتك الصبية العذبة، العطوفة، التي تشعر بكل الأشياء، وتعرف كل الأشياء، وتنظر إلى الحياة بنور الله، وتغمر الحياة بنور روحها. لكن ما اجتمعنا بين سواد الحبر وبياض الورق إلا ورأيتك ورأيتني أرغب الناس في الخصام والمبارزة، المبارزة العقلية المفعمة بالقياسات المحدودة، والنتائج المحدودة. الله يسامحك! لقد سلبتني راحة قلبي، ولولا تصلّبي وعنادي لسلبتني إيماني. من الغريب أن يكون أحب الناس إلينا أقدرهم على تشويش حياتنا)(١).

ثم رجاها بحرارةٍ أن تكفّ عن المعاتبة والخصومة، وأن تتحوّل من «الإنشاء» إلى الكلام البسيط قال:

(«أنت تحيين فيّ وأنا أحيا فيكِ، أنت تعلمين ذلك وأنا أعلم ذلك» أليست هذه الكلمات القليلة أفضل من كل ما قلناه في الماضي؟ ماذا يا ترى كان يمنعنا عن التلفّظ بهذه الكلمات في العام الغابر؟ أهو الخجل، أم الكبرياء، أم الاصطلاحات الاجتماعية، أم ماذا؟ منذ البدء عرفنا هذه الحقيقة الأوّلية فلماذا لم نظهرها بصراحة المؤمنين المخلصين المتجردين؟ لو فعلنا لكنا أنقذنا نفسينا من الشك والألم والندم والسخط والمعاكسات، المعاكسات التي تحوّل عسل القلب إلى مرارة، وخبز القلب إلى تراب. الله يسامحك ويسامحني)(٢).

تتجلى في هذه الرسالة قدرة جبران في الفراسة، وطول أناته في إقناع

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٢٩ من الطبعة الأولى.

(٢) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٣٠ من الطبعة الأولى.

الصديقة الحبيبة وترويضهـا إذ لم يفته شيء ممـا انطوت عليـه نفسها من تناقض، وحيرة، وارتياب، فتذرّع بالصبر وشرح لها بصراحة غايته من حبها المجرد من كل غاية حيث قال: (وأنا لا أميل إلى البهلوانيات الجنسية المعروفة عند الناس بأسماء حسنة، ونعوتٍ أحسن، وأنا يا ميّ مثل جارك وجاري، أحب الله والحياة والناس، ولحد الآن لم تطلب مني الأيام أن ألعب دوراً لا يليق بجارك وجاري)(١).

ولم يتوان عن لومها على تعذيبه في ردها الفاتر على رسائله:

(فكتبت إليك مرات عديدة، وكنت أحصل، بعد كـل مرة، عـلى الجواب اللطيف، ولكن من غير ميّ التي أعرفها. ثم ناديت وناجيت، وكنت أحصل على الجواب، ولكن ليس من تلك التي «أحيا فيها وتحيا فيّ»، بل من امرأة متحذرة، متشائمة تأخذ وتعطي معي كأنها المدعي العمومي، وكأنني المدعى عليه)(٢).

ثم تجلّت نزعته الصوفية بقوله رداً على سؤالها عمّا يفعله في هذا المساء:

(ليس الوقت مساءً. نحن في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، فإلى أي مكان تريدين أن نذهب في هذه الساعة المتأخرة؟ الأفضل أن نبقى هنا في هذه السكينة العذبة. هنا نستطيع أن نتشوّق حتى يدنينا الشوق من قلب الله. وهنا نستطيع أن نحبّ البشرية حتى تفتح لنا البشرية أبوابها)(٣).

ودعاها في نهاية الرسالة إلى الخلود إلى النوم لأن النعاس قبّل عينيها:

(ها قد قبّل النعاس عينيكِ. لا تنكري أن النعاس قبّل عينيك، لقد رأيته يقبّلهما هكذا، هكذا كما يقبّلون، فألقي رأسك هنا، إلى هذه الجهة ونامي، نامي يا صغيرتي، نامي فأنتِ في وطنك. أما أنا فسوف أسهر، سوف أسهر وحدي. عليّ أن أبقى خافراً حتى الصباح. قد وُلدت لأبقى خافراً حتى الصباح. الله يحرسكِ، الله يبارك سهري. الله يحرسك دائماً.

جبران)(٤).

---

(١) و (٢) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٣١ ـ ١٣٢ من الطبعة الأولى.

(٣) و (٤) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٣٤ من الطبعة الأولى.

كان أثر هذه الرسالة بالغاً في ميّ المحبة، ميّ المشوقة، ميّ الوحيدة، وتحققت من أن حبه يرتعش في دمائها، وأنه يحيا فيها وتحيا فيه. ومنذ ذلك التاريخ تجلى سحر الحب في مقالاتٍ كتبتها وعالجت فيها موضوعات الحب والشوق والسعادة، كمقالتها «الصيحة الأخيرة» التي نشرتها في شهر حزيران سنة ١٩٢٣ وختمتها بهذه العبارات:

(إن الثروة والجاه والصولجان هباء حيال ذلك الينبوع السريّ المترنّم في خلوة القلب. وان من سعد باكتشافه نال أعذب وأخصب ما في وسع الحياة أن تقدم لأبنائها المعذبين)[١].

لقد سعدت ميّ بحب جبران وهل من سعادة اكبر من أن يشعر الإنسان أنه عاشق ومعشوق؟ وشقيت بهذا الحب لبعد الحبيب عنها، ولعلمها باعتلال صحته وأضحت كالأم الحنون تتسقط أخباره بتلهف، وتسأل عن أحواله، فيبادلها حناناً بحنان، وكأنه أب مأخوذ بصغيرته يمسك بيدها على درب الحياة، ويفكر بها في كل حين وكل مكان. أقام في بوسطن حوالى أسبوعين في خريف تلك السنة فارسل إليها بطاقات بريدية تمثل لوحات في المتحف، وخطّ على ظهرها رسائل قصيرة علّق فيها على فن ميجيلانجلو والنحاتين اليونان، وختم كل بطاقة بعبارة: «وأسعد الله مساء الوجه الحلو!»[٢].

وأخيراً حسرت ميّ القناع عن نفسها وكتبت إليه رسالة «قربتهما من عرش الله»[٣] كما قال في جوابه عليها، الذي استهله معبراً عن فرحه ونشوته:

(ما أعذب رسالتك في قلبي. ما أحلاها في قلبي يا مي). ويبدو أنه

---

(١) الصحائف ـ مي زيادة ـ ص: ١٨٦ ـ نقلا عن مجلة المرأة الجديدة ـ عدد حزيران ١٩٢٣.
(٢) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٣٥ و ١٣٩ من الطبعة الأولى.
(٣) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٤٦ من الطبعة الأولى.

كان غائباً عن نيويورك فوجد رسالتها فوق رابية من الرسائل بعد عودته من السفر، فحدثها عن سعادته بها، وقد طاب له أن يدعوها باسمها الأصلي: مريم:

(وأنت تعلمين أن جميع الرسائل تضمحلّ من أمام عيني عندما أتناول رسالة من صغيرتي المحبوبة، فجلست وقرأتها مستدفئاً بها. ثم أبدلت أثوابي، ثم قرأتها ثانيةً، ثم ثالثةً، ثم قرأتها ولم أقرأ شيئاً سواها، وأنا يا مريم لا أمزج الشراب القدسيّ بعصير آخر)[1].

كما عبّر للحبيبة عن خشيته من حدوث خصامٍ جديد يعكر سعادتهما فقال لها مازحاً: (اسمعي يا صغيرتي الحلوة: إذا تخاصمنا في المستقبل، هذا اذا كان لا بد من الخصام، يجب ألا نفترق مثلما كنا نفعل في الماضي بعد كل معركة. يجب أن نبقى، برغم الخصام، تحت سقف بيتٍ واحد، حتى نملّ الخصام فنضحك، أو يملّنا الخصام فيذهب هازاً برأسه)[2].

وناجاها بأعذب الكلام، وقال لها إنها أقرب الناس إلى روحه، وأقربهم إلى قلبه، ثم أضاف يقول:

(أحب صغيرتي غير أنني لا أدري بعقلي لماذا أحبها، ولا أريد أن أدري بعقلي. يكفي أنني أحبها. يكفي أنني أحبها بروحي وقلبي، يكفي أنني أسند رأسي إلى كتفها كئيباً، غريباً، مستوحداً، فرحاً، مدهوشاً، مجذوباً، يكفي أن أسير إلى جانبها نحو قمة الجبل، وأن أقول لها بين الآونة والأخرى: أنتِ رفيقتي، أنت رفيقتي)[3].

وهكذا نرى أن جبران أحب ميّ بروحه وقلبه، واختارها رفيقة أحلامه

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٤٥ من الطبعة الأولى.

(٢) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٤٦ من الطبعة الأولى.

(٣) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٤٧ من الطبعة الأولى.

ووحدته وأمنياته، فكانت حقاً الرفيقة الوحيدة التي تواسيه وتشاطره أفراحه وهمومه! كما حدثها، في رسالته اللاحقة المؤرخة في ٢ - ١٢ - ١٩٢٣، عن تحسّن صحته فقال:

(وأنت تسألين عن صحتي، وعندما تسألين عن صحتي تتحول بنيّتي إلى أم كلها حنان. صحتي جيدة جداً، فقد ذهبت تلك العلة، وتركتني قوياً، متحمساً رغم البياض الذي تركته في شعر صدغيّ)(١).

ومن تتمة الرسالة نفهم أنها حدثته عن «سرٍّ هائل» وعن شروطٍ وضعتها للبوح بذلك السرّ:

(وتذكرين أنك لم تظهري «السرّ» إلا بعد أن أقبل «شروطك»، والغريب أنني قبلتها قبل أن أعرفها، فما هي تلك الشروط؟ تفضلي يا ستي مريم وقولي لي ما هي شروطك فأنا مستعد لتنفيذها. لقد ترددتِ كثيراً في إماطة النقاب عن «السرّ»، فأصبحت بدون شك مشتاقةً إلى تمزيق النقاب عن الشروط. قولي ماذا تريدين؟ وما هي الضمانات أو التعويضات التي ترغبين فيها. إنما الشروط شروط، وعلى المغلوب قبولها وتنفيذها، ولكن لا يخفى عنك أنني، بعد تحقيق تلك الشروط، سأنظر في أمر هذه النقرة التي تضحك من ذقني! أتظنين أنني أصبر على شيءٍ منخفض في ذقني يضحك مما برز منها؟ كلا!)(٢)

ومن ثم أخبرها بأنه سيستر النقرة الظاهرة في ذقنه بلحيةٍ كثيفة...

ما أروع الحبّ عندما يحوّل العاشقين إلى أطفالٍ سُذّجٍ، وما أقوى سلطانه على العقول والقلوب! لقد أشعلت رسائل جبران النار في قلب ميّ التي كانت في الثمانية والثلاثين من العمر، ولم يعد من سبيل لاطفائها، ولا

---

(١) الشعلة الزرقاء - ص: ١٥٠ من الطبعة الأولى.
(٢) الشعلة الزرقاء - ص: ١٥١ من الطبعة الأولى.

من وسيلة لإخفائها، فباحت إليه بحبها الكبير في رسالةٍ مطولة، بلغ عدد صفحاتها إحدى عشرة صفحة، من أجمل رسائل الحب في تاريخ العشاق، وأكثرها صدقاً، وحرارةً وتأثيراً! لقد نشر الدكتور جميل جبر جزءاً منها في كتابه: «رسائل ميّ»، وكذلك فعل الأستاذ مارون عبود في كتابه «جدد وقدماء»، وها نحن ننشر صورة عنها بكاملها، تفضّل بتزويدنا بها الكاتب الأستاذ رياض حنين. وما دامت هذه الرائعة مكتوبة بخط ميّ الجميل فإننا نكتفي بنشر صورةٍ عنها لوضوح خطها:

(١)

١٥ أيار/١٩٢٤

مصطفى. ماذا جرى للبريد؟ لقد كان يصل سابقاً في ثلاثة أسابيع أو أقل أحياناً. وها مكتوبك يصل الآن بعد أربعين يوماً، ومعه تذكرتا بريد، في غلاف خاص تمثلان الوجهين اليونانيين البديعين تناسقاً ومعنى. ما أبطأ الرسائل في انتقالها أتراها تجيء من أقاصي الدنيا، من أمريكا، لتصرف كل هذه الأيام في الطريق؟

عيد ميلاد يسوع، يوم رأس السنة، عيد معمودية يسوع وميلاد جبران في يوم واحد. أتتصور كم في هذه المواسم من فراغ ووحشة؟ لا سيما عندما تمرّ أمامنا وجوه

ثم وجوه، ثم وجوه إلا ذاك الوجه الذي نشوق إليه..
ونسمع أصواتاً ثم أصواتاً ثم أصواتاً إلا ذلك الصوت
الذي نطلبه ونناديه فيلبي منه الصدى "المفترض".
حتى نسيت ان تعايدني يا كثير النسيان! في حين
بعض أصحابنا يغتنمون هذه "الفرصة" ليهنئوني
كثيراً". أو على الأقل ليتحفوني ببركة كهذه:

يا ميّ، عيدك يوم وأنتِ عيد الزمان الخ.

لقد كنت يوم ٦ يناير بطلة موضوع تفكري. وكنت
متأملاً أمامي بصورة طفل نونو نونو تتحرك يداه
الصغيرتان في الهواء بإشارة الباحث عن أدوات قُدِّر
له ان يحملها ويعالجها. وتيسّر لي ان أتفرغ للتفكر
والتأمل في المولود النونو لأني كنت مصابة بنزلة خفيفة
علمت من رسالتك انها جاءتني منك. كيف ذلك؟

فستفهم أنت . ذلك أنك اجتزت كما تقول
مسافة طويلة ليلاً وفي سيارة مكشوفة فكنت معرضاً
نفسك للبرد فظهرت نتيجة ذلك البرد فيك . مفهوم ؟
فلتتوق عليك في المستقبل جميع صنوف النزلات
والوافدات وما إلى ذلك كلها لا تعرض نفسك للبرد وانتبه
كل ما يؤذيك . مفهوم ؟ وهل يوافق مصطفى
على هذا الاقتراح ؟
كأنك تلومني لأني أسأل لك عن صحتك ! وهل يمكن
ان لا أسأل ؟ انك مدين لي بأن تقول عنك ما قلته
في هذه الرسالة فتسعدني بعد ان كنت تقطعني في الرسائل
الت بقية كلما قلت انك مريضا . وبدلاً من ان أشكرك
على هذه البشرى أراني مسوقة إلى العتاب لأن في نفسي لك
قلقاً وفزعاً من العتاب على ما يلوح
لماذا لم تخبرني بشفائك قبل اليوم ، قبل ان أسألك ،
قبل ان تعود إلى الراشل ؟ لماذا لم تقل لي انك شفيت
منذ ان شفيت ؟ لست مغرمة بحكاية ابريق الزيت إلا

إلى حدّ محدود . ولكن كيف استطعت ان تهمل
تطميني وأنت تعلم ان ليس من يطمئني غيرك ؟ كيف
استطعت ان لا تفكر في كل هذه الشهور ولا مرّة واحدة ؟
« علامة الاستقلال هذه » ، قد تقول أنت . « الثبات
بعض اشكال الحرية » . قد يكون . وقد يدل كذلك
على شيء آخر في بعض الظروف
إذا تخاصمنا في المستقبل فيجب ان لا نفترق .
مثلما كنا نفعل في الماضي بل ان نبقى تحت سقف بيت
واحد حتى نملّ الخصام الخ . »
أجل احدث . ولكن
شمعًا وطاقة ، يجب
الرجاء إلى سيدي الأستاذ ان يذكر انه لا بدّ من
اثنين للخصومة ، فيجعل لأهل بشرّي نصيبًا من
الفضيحة المكتبة التي نفخ في جيرانهم ومنافسيهم .
وان يذكرهم (هم يعني أهل بشرّي) بأن فضائحه
وشوراته أثمن من ان يفرّط فيها كما فعلوا (هم
أهل بشرّي الذين فعلوا) يوم ان نسوا (هم أهل

بشري الذين نشأوا) صندوق الذهب الحلو المليح

الذي كان يصلح الامور ويحل المشاكل . أفدني - أجارك الله من غضبات أهل بشري - أيجوز لجيراننا هؤلاء ان ينشأوا ذلك الصندوق الواجب الوجود ؟

أما من جهتي فلدي من خطير المشاغل ما يبعدني حيناً عن كل تنازع وضوضاء . اني عاكفة على تفهم هذه الاعجوبة : اعجوبة ابيضاض الشعر بفودي تلك الجبهة التي أعرف . يا للتفصيل الحلو الحلو الفتان ! انه يستحق لفرط لطافته ان يدمج في صف واحد هو والذقن المطبوق .

ومع ذكر نقرة الذقن لا تحسب اني سأخاصمك لأجل اللحية التي تهددني بها . بل بكل صفاقة وهدوء أتشرف بأن أحيط مولانا علماً بأن من الشؤون ما لا شأن فيه لمولانا . وان ذقن مولانا من الشؤون

التي لا شك فيها لمولانا . فليتفضل بإذن - بلا
مؤاخذة - فيقف عند حده .

انتهيت من الكلام الرسمي الحصيف ، وإذا شئت ان
أترجمه لك بلغتي العادية قلت اني لا أريدك بلحية .
وإذا أبيت إلا ان يكون لك لحية توليت انا أمر
حرقها . ها !

" هذه الابنة - يحتد مولانا - هذه الابنة تصل
من الجرأة بل الوقاحة إلى إخطاري بأنها ستحرق لحيتي
المنوي إرسالها ! "

الأمر كما تفضلت يا مولانا . سأحرق لحيتك
ضاحكة كما أضحك الآن . ولا احتاج للقيام بذلك
غير قيام إلا أكثر من سيجارة اتدخنها لك ، وعود
كبريت ، "أتلطف" بإشعاله . وهناك يكون

ما أريد . فتطلق الذهن على ما أرادت الطبيعة

تحمل بين هضاب «الجمود والنغمة» صورة مصغرة

للوادي المشحون بشتى المعاني ، وصورة من عطف

الزهرة التي وضعت عليها علامتي ...

أما «الشروط» التي تتعهد بتتميمها بعد الاطلاع

عليها فحسبي ان أقول ان هذا كلاماً يليق بقائله .

فاعلم إذن ان البند الأول من هذه الشروط جهوات

يهتدي إليها «المغلوب» من تلقاء نفسه . أما البنود

الأخرى فتأتي بالتبع . فهات أرنا مثالاً جديداً

من ذكائك المزيد ! واحذر خصوصاً ان تخطئ في معرفة

ذلك البند لئلا تزعج حسن ظني بفراستك وصدق

نظرك !

ما أحلى رنتك في قلبي يا مصطفى . ما أحلى

كلامك بين تافه الكلام وركيكه ! أين ألفاظك

وشطورك جدول نور وندى وتشعع حرارة ولطافة

وان د . ومع ذلك فعلت ما اخبرتني به عنك .
لم تقل شيئاً من كتاب « نحو الله » ومن تلك الرسوم
الرمزية ، وعما يشغلك الآن من كتابة او تصوير
أو مجلس ؛ ولا تصف خبر من الوادي ! أتصدق اني
اشعر بأسف كلما فكرت في الرسوم التي تنتظرك ولا
أراها ؟ فأستعيض عنك بالنظر الى الرسوم
المنشورة في كتبك واكتشف فيها كل مرة شيئاً جديداً .
هي خاصة فنك الأولى ان يكون زاخراً بالاسرار والمعاني
متفلتاً من كل تعريف جائزاً بكل حد وتقييد .
جبران . كتبت كل هذه الصفحات فاصلة
لأتحايد قولي انك محبوبي . لأتحايد كلمة الحب .
ان الذين لا يتاجرون بمظاهر الحب ودعواه في السهرات
والمراقص والاجتماعات ينمو الحب في أعماقهم قوة ديناميكية
رهيبة . قد يغبطون الذين يوزعون عواطفهم في اللألاء
السطحي لأنهم لا يقاسون ضغط العواطف التي
لم تنفجر . ولكنهم يغبطون الآخرين على راحتهم

دون ان يتمثوها لنفوسهم . ويغفلون
وحدتهم ويغفلون السكوت ، ويغفلون تضليل
قلوبهم عن ودائعها والتلهي بما لا علاقة له بالقلب
والعاطفة . يزيلون أية غربة وأي شقاء (وهل من
شقاء وغربة في غير وحدة القلب ؟) على الاكتفاء بالنظرات
الشهية . ما معنى هذا الذي أكتبه ؟ إني لا أعرف ماذا
أعني به . ولكني أعرف انك محبوبي واني أخاف الحب .
اني انتظر من الحب كثيراً فأخاف ان لا يأتيني بكل
ما انتظر . أقول هذا مع علمي بأن القليل
من الحب كثير . ولكن القليل في الحب لا يرضيني .
الجفاف والقحط واللاشيء خير من النذر اليسير .

كيف أجسر على الإفضاء إليك بهذا وكيف أفرط
فيه؟ لا أدري. الحمد لله أني أكتبه على الورق ولا أتلفظ
به. لأنك لو كنت الآن حاضراً بالجسد لهربت خجلاً
بعد هذا الكلام ولاختفيت زمناً طويلاً فما أدعك
تراني إلا بعد أن تنسى. حتى الكتابة ألوم نفسي
عليها أحياناً لأني بها حرة كل هذه الحرية. أتذكر قول
القدماء من الشرقيين إنه خير للبنت أن لا تقرأ ولا تكتب؟
ها قد صح عليّ ارتيابهم وصدق فيّ سوء ظنهم. لا تقل
إن القديس توما يظهر هنا وليس ما أبدي هنا أثر
الوراثة فحسب بل هو شيء أبعد من الوراثة. ما هو؟
قل لي أنت ما هو هذا، وقل لي ما إذا
كنت على ضلال أو على هدى. فإني أثق بك
وأصدق بالبداهة كل ما تقول. وسواء أكنت مخطئة

أم غير ذلك؟ فإن قلبي يسير إليك، وخير ما في يظل حائماً حواليك يحرسك ويحنو عليك.

غابت الشمس وراء الأفق. ومن خلال السحب العجيبة الأشكال والألوان حصحصت نجمة لامعة. نجمة واحدة هي الزهرة الاهة الحب. أترى يسكنها كأرضنا بشر يحبون ويتشوقون؟ وربما وجد فيها من هي مثلي لها واحد جبران حلو بعيد بعيد هو القريب القريب. تكتب إليه الآن والشفق يملأ الفضاء، وتعلم ان الظلام يخلف الشفق. وان النور يتبع الظلام، وان الليل سيخلف النهار والنهار سيتبع الليل مرات كثيرة قبل ان ترى الذي تحبه. فتتسرب إليها كل وحشة الشفق وكل وحشة الليل فتلقي بالقلم جانباً لتحتمي من الوحشة في اسم واحد: جبران!

ماري

ونحن إذ نمعن النظر بمضمون هذه الرسالة نكاد نرى ميّ ماثلةً أمامنا في صورة امرأة تذوب رقة، وعاشقة متيّمة برّح بها الجوى، وفتاةٍ غلبها الهوى على تكتمها واحتراسها فباحت به بكل ما تكدّس في جوارحها من عواطف مكبوتة، وما تميزت به شخصيتها من صدقٍ وخَفَر ومثالية. وهل أجمل من قولها لجبران في وصف شوقها إليه في موسم الأعياد: عيد الميلاد وعيد رأس السنة، وعيد مولده هو: (أتتصوّر كم في هذه المواسم من فراغٍ ووحشة؟ ولا سيما عندما تمرّ أمامنا وجوه، ثم وجوه، ثم وجوه، إلاّ ذاك الوجه الذي نشوق إليه؟.. ونسمع أصواتاً، ثم أصواتاً إلاّ ذلك الصوت الذي نطلبه ونناديه، فيلبي منه الصدى «المُفترض»... حتى نسيتَ أن تعايدني يا كثير النسيان!)

لقد نسي أن يعايدها، ولكنها لم تنسى يوم عيد مولده في السادس من كانون الثاني، فتمثلته طفلاً صغيراً وقالت له:

(لقد كنت يوم ٦ يناير موضوع تفكري. وكنت ماثلاً أمامي بصورة طفل نونو نونو تتحرك يداه الصغيرتان في الهواء بإشارة الباحث عن أدواتٍ قُدّر له أن يحملها ويعالجها. وتيسّر لي أن أتفرّغ للتفكّر والتأمل في المولود النونو لأني كنت مصابةً بنزلة طفيفة علمت من رسالتك أنها جاءتني منك. «كيف ذلك؟» تستفهم أنت، ذلك أنك اجتزت، كما تقول، مسافة طويلة ليلاً، وفي سيارة مكشوفة، فكنت معرِّضاً نفسك للبرد، فظهرت نتيجة ذلك البرد فِيَّ. مفهوم؟ فلتوفِّر عليّ في المستقبل جميع صنوف النزلات والوافدات، وما شاكلهن. لا تعرّض نفسك للبرد، واتّقِ كلّ ما يؤذيك. مفهوم؟ وهل يوافق مصطفى على هذا الاقتراح؟).

لقد طاب لميّ أن تخاطبه باسم «مصطفى» ومعناه «المختار»، علماً بأنه اسم النبيّ الذي ابتدعه في كتابه «النبيّ»، وطاب لها أن تتمثّله طفلاً وليداً لفيض مشاعر الأمومة في قلبها، فتدعوه «النونـو»، لذا علّق شيـخ النقاد الأستاذ مارون عبود على عبارة « النونو» في رسالتها فقال: (إن الطفل يشغل

حيّزاً كبيراً في دماغ ميّ. إقرأ لميّ في «ظلمات وأشعة» مقالتها: «أنا والطفل» تعرف حب ميّ للأطفال)[1].

وما أجمل عتبها عليه لإهماله تطمينها عن صحته فيما سبق:

(كأنك تلومني لأني أسألك عن صحتك! وهل يمكن أن لا أسأل؟ إنك مدينٌ لي بأن تقول عنها ما قلته في هذه الرسالة فتسعدني بعد أن كنت تطعنني في الرسائل السابقة كلما قلت إنك مريض).

ليس بمستغرب أن يكون اعتلال صحته قد زاد من تلهّفها عليه، فمنذ أن علمت بترويها قلقت عليه وأي قلق، وأضحت أرأف به من أمه وعشيرته، خبر شفائه «يسعدها»، وخبر مرضه «يطعنها» كما قالت! وأما تعليقها على ابيضاض شعره، وتهديده بإرسال لحيته، فإنه حقاً آية في العذوبة والظرف:

(إني عاكفة على تفهّم الإعجوبة: أعجوبة ابيضاض الشعر بفوديّ تلك الجبهة التي أعرفها. يا للتفصيل الحلو، الحلو الفتان! إنه يستحق لفرط لطافته أن يُدمج في صفٍّ واحد هو والذقن المطبوعة. وعلى ذكر نقرة الذقن لا تحسب أني سأخاصمك لأجل اللحية التي تهدّدني بها. بل بكل حصافة وهدوء أتشرّف بأن أحيط مولانا علماً بأن من الشؤون ما لا شأن فيه لمولانا. وأن ذقن مولانا من الشؤون التي لا شأن فيها لمولانا. فليتفضل إذن ـ بلا مؤاخذة ـ فيقف عند حده. انتهيت من الكلام الرسمي الحصيف. وإذا شئت أن أترجمه لك بلغتي العادية قلت إني لا أريدك بلحية. وإذا أبيت إلا أن يكون لك لحية تولّيت أنا أمر حرقها. ها!).

إن هذه المداعبة الطريفة قد أسعدت جبران بكل تأكيد ودغدغت غروره لأنها تدلّ على شغفها بذقنه المطبوعة التي رأت فيها: (صورة مصغرة

---

(١) جدد وقدماء ـ مارون عبود ـ ص: ١٥٨.

للوادي المشحون بشتى المعاني، وصورة من عطف «الزُّهرة» التي وضعت عليها علامتها. . .) كما ورد في رسالتها. ومن نافلة القول أن نشير إلى الدور الكبير الذي لعبه الخيال في تصوّرها وجه الحبيب البعيد بدافع الحب الكبير الذي تحمله له في شغاف قلبها. وكما تغنّى جبران في السابق برسائلها العذبة، وشبهها بالنهر الرحيق، تغنت ميّ بخطاباته:

(ما أحلى رسالتك في قلبي يا مصطفى. ما أحلى كلامك بين تافه الكلام وركيكه! إن ألفاظك وسطورك جدول نور وندى، وتشعّعٍ وحرارة، ولطافةٍ وانشاد). وهكذا عندما يستولي الحب على فكر المحب وقلبه يجعله زاهداً في كل شيء لا يمت بصلة إلى الحبيب، فلا يستعذب إلا صورته، ولا يطرب إلا لحديثه، وكل ما عداهما يصبح تافهاً وركيكاً.

وبعد أن سألته عن كتابه «نحو الله» الذي أعلمها بعزمه على تأليفه، وعن رسومه الزيتية، وأبدت أسفها لحرمانها من رؤيتها حين ينجزها قالت له بأنها تستعيض عنها بالنظر إلى الرسوم المنشورة في كتبه، التي تكتشف فيها كل مرةٍ شيئاً جديداً. وليس بمستغرب أن تسبر أغوار فنه حين كتبت عنه هذه الجملةُ البليغة: (هي خاصة فنّك الأولى أن يكون زاخراً بالأسرار والمعاني، متفلّتاً من كل تعريف، هازئاً بكل حصرٍ وتقييد).

وبعد هذا التحليل لرسومه الذي ينطبق على شخصيته وأدبه انتقلت ميّ فجأةً إلى البوح بحبها، غير مكتفيةٍ بالطواف حوله، والتلميح به:

(جبران: كتبت كلَّ هذه الصفحات ضاحكة لأتحايد قول أنك محبوبي. لأتحايد كلمة الحب. إن الذين لا يتاجرون بمظاهر الحب ودعواه في السهرات والمراقص والإجتماعات ينمو الحب في أعماقهم قوةً ديناميتية رهيبة. قد يغبطون الذين يوزعون عواطفهم في اللألاء السطحي لأنهم لا يقاسون ضغط العواطف التي لم تتفجّر. ولكنهم يغبطون الآخرين على راحتهم دون أن يتمنوها لنفوسهم، ويفضلون وحدتهم، ويفضلون السكوت، ويفضلون تضليل قلوبهم عن ودائعها، والتلهي بما لا علاقة له بالقلب والعاطفة.

يفضلون أي غربة وأي شقاء (وهل من شقاء وغربة في غير وحدة القلب؟) على الاكتفاء بالقطرات الشحيحة؟).

وهكذا نرى أن عواطفها تفجّرت دفعةً واحدة بعد أن قاست من ضغطها أعواماً طويلة، وآثرت السكوت عنها، وحاولت تضليل قلبها فتلهّت بالعلم والمطالعة والندوات الأدبية وكل ما ليس له علاقة بالعاطفة. ونرى أنها استسلمت لسلطان ذلك الحب الكبير الذي فاض في قلبها فافصحت للحبيب عنه، وأعلمته أنها تؤثر الغربة والشقاء على القطرات الشحيحة في الحب!

ولكن ميّ كما نعرفها، ميّ المتكتمة، الخجول المتمسكة بما ترسّخ في نفسها وطبعها من آثار الوراثة والتربية الناهية عن البوح بالمشاعر، الآمرة بالكبت، ذُهلت مما سال على قلمها ولكنها لم تمزقه، إنما أضافت تعقّب عليه بهذه العبارات التي تملأ العينين دموعاً:

(ما معنى هذا الذي اكتبه؟ إني لا أعرف ماذا أعني به ولكني أعرف أنك محبوبي، وإني أخاف الحب. إني انتظر من الحب كثيراً فأخاف أن لا يأتيني بكل ما انتظر. أقول هذا مع علمي بأن القليل من الحب كثير. ولكن القليل في الحب لا يرضيني. الجفاف والقحط واللاشيء خير من النذر اليسير. كيف أجسر على الإفضاء إليك بهذا، وكيف أفرّط فيه لا أدري. الحمد لله إني أكتبه على الورق، ولا أتلفّظ به لأنك لو كنت الآن حاضراً بالجسد لهربت خجلاً بعد هذا الكلام، ولاختفيت زمناً طويلاً، فما أدعك تراني إلا بعد أن ننسى. حتى الكتابة ألوم نفسي عليها أحياناً لأني بها حرة كل هذه الحرية. أتذكر قول القدماء الشرقيين: إن خيرٌ للبنت أن لا تقرأ ولا تكتب؟ ها قد صحّ عليّ ارتيابهم، وصَدَقَ فِيَّ سوء ظنهم. وليس ما أبدي هنا أثر الوراثة فحسب، بل هو شيء أبعد من الوراثة. ما هو؟ قل لي أنت ما هو هذا، وقل لي ما إذا كنت على ضلال أو على هدىً، فإني أثق بك وأصدق بالبداهة كل ما تقول. وسواء أكنت مخطئةً أم غير مخطئة فإن قلبي يسير إليك، وخير ما فِيَّ يظلّ حائماً حواليك يحرسك ويحنو عليك.

غابت الشمس وراء الأفق. ومن خلال السحب العجيبة الأشكال والألوان حصحصت نجمة لامعة. نجمة واحدة هي الزهرة آلهة الحب. أترى يسكنها كأرضنا بشر يحبون ويشوقون؟ ربما وُجد فيها من هي مثلي لها واحدٌ جبران، حلوٌ بعيد بعيد، هو القريب القريب، تكتب إليه الآن والشفق يملأ الفضاء، وتعلم أن الظلام يخلف الشفق، وأن النور يتبع الظلام، وأن الليل سيخلف النهار، والنهار سيتبع الليل مراتٍ كثيرة قبل أن ترى الذي تحبه. فتتسرب إليها كل وحشة الشفق، وكل وحشة الليل، فتلقي بالقلم جانباً لتحتمي من الوحشة في اسمٍ واحدٍ: جبران!

ماري)

إننا لا نغالي إذ نعتبر هذه الرسالة الرائعة في سبكها، وصورها، وفي زخم العاطفة التي أملت سطورها وصفحاتها، من أجمل رسائل الحب التي تبادلها العشاق الكتاب في ملفّ الأدب العالمي. لقد حررتها ميّ في ١٥ - ١ - ١٩٢٤، ووقعتها باسمها الأصلي «ماري» الذي كان يحلو لجبران مخاطبتها به، فكيف كان ردّ جبران عليها؟ لقد كتب إليها في ٢٦ - ٢ - ١٩٢٤ رسالة مشوشةً، غريبةً، توحي بأنه فوجىء بصرخة الحب التي انبجست من صوت «الصديقة المحبوبة» بعد طول انحباس... وتوحي بأنه ارتاع من ذلك البوح الذي يشابه تفجّر البركان! فقد بدأ رسالته بالحديث عن العواصف الثلجية، وحبه للثلج، والسؤال عن عيد ميلادها، وَرَسَم وجهه وقد أرسل فيه لحيةً طويلة، ثم طاف بالكلام حول الخلاف القديم بين أهل «بشري» وأهل «إهدن»، وأكد لها بأنها «رفيقته» التي يرتعش قلبه لذكرها... ثم كان لا بد له من الردّ على أسئلة عن الحب طرحتها في رسالتها، فقال في آخر رسالته، لا في أوّلها:

(تقولين لي إنك تخافين الحب. لماذا تخافينه يا صغيرتي؟ أتخافين نور الشمس؟ أتخافين مدّ البحر؟ أتخافين طلوع الفجر؟ أتخافين مجيء الربيع؟ لماذا يا ترى تخافين الحب؟ أنا أعلم أن القليل في الحب لا يرضيكِ، كما أعلم أن

القليل في الحب لا يرضيني. أنت وأنا لا ولن نرضى بالقليل، نحن نريد الكثير. نحن نريد كل شيء. نحن نريد الكمال. أقول يا ماري إن في الارادة الحصول، فإذا كانت ارادتنا ظلاً من أظلال الله فسوف نحصل بدون شك على نور من أنوار الله.

لا تخافي الحب يا ماري، لا تخافي الحب يا رفيقة قلبي، علينا أن نستسلم إليه رغم ما فيه من الألم والحنين والوحشة، ورغم ما فيه من الالتباس والحيرة)[1].

يا لخيبة أمل ميّ في جبران وحبه بعد أن تسلمت هذه الرسالة!! أين حبها العميق الشامل المطلق له ولفكره وفنه وحتى لذقنه المطبوعة، من حبه لها الضبابي، الخيالي، الفلسفي و«الإنشائي» إذا صحّ التعبير؟ أين اندفاعها العفوي، وحرارة كلماتها، وصدق لهجتها في التعبير عن عواطفها الملتهبة نحوه، من تروّيه في وزن كلماته، ومن برودة ألفاظه في الردّ على بوحها وكأنه يخاف التورّط بكلمةٍ أو جملة يقولها؟ أين جوابه على سؤالها عما إذا كانت على ضلالٍ أو على هدى الذي طرحته عليه لأنها تثق به وحده، دون سائر المخلوقات، وتصدّق كل ما يقول؟ لقد تزاحمت هذه الخواطر في فكرها بعد أن قرأت رسالته الباردة التي وقعت في نفسها وقع الصاعقة، فأحسّت بالندم على بوحها، وبالمرارة في قلبها... ثم أعادت تلاوة الرسالة مراتٍ متعددة فكانت في كل مرةٍ تجد جوابه، الذي انتظرته بفارغ الصبر، طوافاً حول الموضوع، وتمويهاً، وتعزيةً، ونصحاً قيّماً: قالت له إنها تخاف الحب لأنها تنتظر منه الكثير، ولأن القليل منه لا يرضيها، فأجاب بأنه يعلم ذلك، وأنه مثلها يريد الكمال، وانهما سيحصلان بدون شك على نور من أنوار الله إذا أرادا الحصول عليه لأن في الإرادة الحصول. ثم نصحها بأن تستسلم للحب، رغم ما فيه من ألمٍ وحنينٍ ووحشةٍ والتباسٍ وحيرة، وكأن موضوع حبها له وشوقها

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٧٠ من الطبعة الأولى.

إليه لا يعنيه من قريبٍ أو بعيد... لقد أدركت بما فُطرت عليه من ذكاءٍ وفطنة أنها لم تكن أهمَّ شيءٍ في حياته في حين أنه كان كل شيء، بل أثمن شيءٍ في حياتها، وأنها لم تكن سوى رفيقةٍ وهميّةٍ اختارها لمصاحبته في وادي أحلامه، فأصيبت بصدمةٍ عاطفية كبيرة! تيقنت بأن جبران لم يحب ماري زيادة «المرأة» في يومٍ من الأيام، إنما أحب «الأديبة ميّ» التي أُخذت به، ومجّدت نبوغه في الشرق، فاغتبط بحبّها له، وتباهى به، وأخذ يراسلها، عبر تلك السنين، ويساجلها في موضوعات الفكر والروح والعواطف النورانية التي كان بها مهووساً!!! لهذا كله صمتت ميّ صمت أبي الهول وانقطعت عن مراسلته دون أن تتمكن من الانقطاع عن التفكير به، وعن لوم نفسها على غباوتها وسذاجتها اللذين أضاعت عمرها بسببهما، تائهةً في بحر الأوهام! وكيف لا تفكّر بجبران الذي احتلّ قلبها، وتربّع فيه منذ اثنتي عشرة سنة؟ وكيف لا تجترّ ذكراه، ومقاطع رسائله، ولا سيما آخر مقطعٍ ورد في رسالته الأخيرة إليها، حيث حدثها عن وجوده في سجنٍ من الرغائب وُلدت مع ولادته، وأعلمها بأنه مقيّد بقيود فكرةٍ قديمة قِدَمَ فصول السنة، ودعاها إلى الوقوف معه في سجنه إلى أن يخرجا إلى النور معاً، ويسيرا «حرّين طليقين نحو قمة الجبل»...[1]

الأرجح أن صدرها كان يضيق بتلك الذكريات المضحكة المبكية، وأنه قد ضاق أكثر بدعوة جبران إليها لمساعدته على فكّ قيده لأنها كانت هي في حاجة ماسّةٍ إلى من يفكّ قيودها. كان حبّ جبران عقدة حياتها، فأضحى سبب شقائها، في تلك السنة خاصةً، وقد صوّرت ذلك الشقاء ورغبتها في التحرّر منه في جملةٍ وردت ضمن حكمٍ وأقوال كانت تنشرها في مجلة «المقتطف» تحت عنوان: «شررٌ وحَبَبْ»، هذا نصّها:

(هل من سبيلٍ إلى حلّ عقدةٍ تستوجب القطع، وكلما لمستها علمتَ أن خيوطها من نياط القلب؟)[2] وكانت ميّ قد مرضت في الصيف، وسافرت

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٧١ من الطبعة الأولى.

(٢) المقتطف ـ ج ٦٤ ـ عدد مايو ١٩٢٤ ـ ص: ٥١٥.

إلى فلسطين كسيرة القلب مع رهط من الحجاج وحدها، كما تبيّنا من رسالة أمها إليها المنشورة في فصل، حياتها العائلية.

انتظر جبران كلمةً منها أشهراً طويلة دون جدوى، فأخذ يحاسب نفسه، وعندما اشتد اضطرابه وجّه إليها الكلمة التالية في ٢ - ١١ - ١٩٢٤ أي بعد انقضاء تسعة أشهر على رسالته الأخيرة إليها:

(يا ماري - أنت تعرفين سبب سكوتكِ أما أنا فأجهله. وليس من العدالة أن يكون جهل المرء مصدراً لتشويش أيامه ولياليه.

الأعمال والأقوال بالنيات، ولقد كانت نيّتي، ولم تزل، في راحة الله. أخبريني يا صغيرتي المحبوبة عما حدث لك في العام الغابر. أخبريني واكسبي أجري. والله يحرسك ويملأ قلبك بأنواره

جبران)[(١)].

فكرت ميّ طويلاً ثم أرسلت إليه كلمة مقتضبة، تجاوزت فيها الجرح الذي ينزف في قلبها، وتجاهلت سؤاله: «عما حدث لها في العام الغابر». كان لا بد لها من أن تجيب على رسالته لأن قواعد اللياقة تقتضي ذلك، فأعلمته بأنها تذكره في صلاتها كل يوم، وسألته عن «حاله» وعن «خاطره» وعما «إذا كان سعيداً في نيويورك». هذا ما استنتجناه من جوابه على رسالتها المؤرخ في ٩ - ١١ - ١٩٢٤، الذي استهله بما يلي:

(ما أعذب صغيرتي المحبوبة تذكرني في صلاتها كل يوم. ما أعذبها وما أكبر قلبها، وما أجمل روحها. ولكن ما أغرب سكوت صغيرتي المحبوبة، ما أغرب سكوتها. ذلك السكوت الطويل كالأبدية، العميق كأحلام الآلهة ذلك السكوت الذي لا يترجم إلى أية لغةٍ بشرية. ألا تذكرين أنه لما جاء دورك في

---

(١) الشعلة الزرقاء - ص: ١٧٣ من الطبعة الأولى.

الكتابة لم تكتبي؟ أولا تذكرين أننا تعاهدنا على معانقة الصلح والسلام قبل أن يعانق الليل الأرض؟)[1].

وراح يجيب على أسئلتها عن حاله وخاطره، والأمور التي تشغله فقال لها إن حاله مثل حالها، وإن خاطره لم يزل في الضباب الذي جمعهما، هي وهو، قبل ألف سنة الخ... وسألها عما إذا كانت سعيدة في القاهرة مثلما هو سعيد في نيويورك، وقد أحسّ بمرارة سؤالها، ونبرة التهكم فيه، ولكنه آثر التغاضي عن العتاب، وطرح عليها أسئلةً تدعو إلى التأمل والتفكير كقوله:

(وهل تمشين ذهاباً وإياباً في غرفتك بعد منتصف الليل؟ وهل تقفين بجانب نافذتك بين الآونة والأخرى وتنظرين إلى النجوم؟ وهل تلتجئين بعد ذلك إلى فراشك، وهل تجففين ابتسامات ذائبة في عينيكِ بطرف لحافكِ ـ هل أنت سعيدة في القاهرة مثلما أنا سعيد في نيويورك؟

أفكر فيك يا ماري كل يومٍ وكل ليلة، أفكر فيك دائماً وفي كل فكر شيء من اللذة وشيء من الألم. والغريب أنني ما فكرت فيك يا مريم إلا وقلت في سرّي: «تعالي واسكبي جميع همومك هنا، هنا على صدري». وفي بعض الأحيان أناديك بأسماء لا يعرف معناها غير الآباء المحبين، والأمهات الحنونات. وها أني أضع قبلةً في راحة يمينك، وقبلةً ثانيةً في راحة شمالك، طالباً من الله أن يحرسكِ ويباركك، ويملأ قلبكِ بأنواره، وأن يبقيك أحب الناس إليَّ

جبران)[2]

وارسل إليها مع هذه الرسالة صورة له تمثله واقفاً في البرية أمام أرزة كبيرة، ولكن كل ما جاء في الرسالة من عبارات استعطاف، وحنان لم يؤثّر في استمالتها إليه، كما حدث في السابق، غير أنها ارسلت إليه بطاقة تهنئة يوم

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٧٥ من الطبعة الأولى.

(٢) الشعلة الزرقاء ص: ١٧٧ من الطبعة الأولى.

عيد مولده في السادس من كانون الثاني فكتب إليها، في الثاني عشر منه، يؤكد لها أنها كانت معه، وإلى جانبه في ذلك اليوم، ويشكرها على تهنئتها:

(وفي السادس من هذا الشهر يعلم الله أن الكلمة الحلوة التي جاءتني منكِ كانت أحب لديّ، وأثمن عندي من كل ما يستطيع الناس جميعهم أن يفعلوا أمامي. الله يعلم ذلك، وقلبك يعلم. وبعد التعييد جلسنا، أنت وأنا، بعيدين إلا عما بنا، وتحدثنا طويلاً، وقلنا ما لا يقوله سوى الحنين، وقلنا ما لا يقوله سوى الأمل. ثم حدَقنا طويلاً، بنجمٍ بعيد وسكتنا، ثم عدنا إلى الكلام فتحدثنا حتى الفجر، وكانت يدك المحبوبة فوق هذا المكان الدقاق حتى الفجر. والله يرعاك ويحرسك يا مريم. والله يسكب أنواره عليك، والله يحفظك لمحبك

جبران)[1].

ورسم في أسفل الصفحة الثانية والأخيرة من هذه الرسالة شعلةً في راحة اليد، اتخذها شعاراً لحبه النورانيّ المجرد... ثم أرسل إليها بطاقة بريدية من نيويورك في ٦ - ٢ - ١٩٢٥ تمثل القديسة «آن» بريشة «ليوناردو دافنشي»، وحدثها عن عظمة فنّه، وتأثره بقوة سحره، وأضاف يقول: (وجدت هذه البطاقة اليوم بين أوراقي فرأيت أن أبعث بها إليك لتخبركِ عن بعض تلك العوامل التي كانت تسيّر شبابي في أودية الكآبة والوحدة والشوق إلى ما لا أعرفه، والله يحرسك)[2].

وقد أدركنا من رسالةٍ لاحقة بعث بها إليها في ٢٣ - ٣ - ١٩٢٥ أنه أهدى إليها محفظةً وقعت عليها عين «الرقيب»، وسببت لها ازعاجاً... وما عين الرقيب سوى عين أمها السيدة نزهة التي كانت تعلم أن حب ابنتها لجبران فوّت عليها فرصة الزواج في حياتها، وسبّب شقاءها، ونكّد عيشها!

---

(١) الشعلة الزرقاء ص: ١٨٠ من الطبعة الأولى.
(٢) الشعلة الزرقاء ص: ١٨٤ من الطبعة الأولى.

ولا بد من الاشارة إلى أن تعلق ميّ بجبران أدى إلى اصطدامها مع أمها اكثر من مرة منذ سنة ١٩١٨، وان السيدة نزهة كانت تتضرّع إلى الله أن يأتي جبران إلى مصر ويتزوج ابنتها، كما حدثتنا بذلك امرأة خال ميّ بولص معمر...[١]

نعود إلى قصة المحفظة التي أهداها جبران إلى ميّ مع قلمٍ جميلٍ ومرآة فنجد رسالة شكر منها إليه جاء فيها ما يلي:

(جبران، يا صديقي الكريم الرقيق، كن مباركاً لأجل عطفك... كن مباركاً لأنك ترغب في ادخال السرور على نفسي. محفظتي لي في نهاية الأمر، وهي الشيء النفيس الوسيم الآتي منك، وقد انقشعت عنه لمسات الأيدي الغريبة فلم يعلق به غير لمسات أناملك)[٢].

ثم علّقت على رسم الشعلة في راحة اليد الذي أرسله إليها بقولها: (أما اليد فسأحيطها بإطار خفيف بسيط، وستكون أبداً على منضدتي هذه لتحدثني عن الاخلاص، وتدفىء روحي بصورة لهيبها)[٣].

لقد نشر طاهر الطناحي هذه الرسالة التي اقتطفنا منها العبارات الآنفة الذكر، ولكننا وجدنا فيها تحريفاً، وجملاً ومقاطع نستغرب أن تكون من نفحات قلم ميّ لبعدها عن أسلوبها، ومغايرتها للهجتها التي تعودناها... وهنالك رسالة أخرى من ميّ إليه نشرها الدكتور جميل جبر، مؤرخة في ١١ ـ ٣ ـ ١٩٢٥، ونشرها الطناحي أيضاً نقلاً عنه، تدل على انشغال فكرها على صحته، وقلقها البالغ إذا ما تأخرت رسائله، حيث قالت:

(صديقي جبران

لقد توزّع في هذا المساء بريد أوروبا وأمريكا، وهو الثاني من نوعه هذا

---

(١) من حديث السيدة راضية صهيون، حرم بولص معمّر الينا في بيروت بتاريخ ٩ ـ ٣ ـ ١٩٦٩.

(٢) و (٣) اطياف من حياة مي ـ طاهر الطناحي ـ ص: ١٤٨.

الأسبوع، وقد فشل أملي بأن تصلني فيه كلمة منك. نعم اني تلقيت منك في الأسبوع الماضي بطاقة عليها وجه القديسة حنّة الجميل، ولكن هل تقوم الكلمة الواحدة على صورة مقام سكوت شهرٍ بكامله؟

لا أريد أن تكتب إليّ إلا عندما تشعر بحاجة إلى ذلك، أو عندما تنيلك الكتابة سروراً، ولكن أليس من الطبيعي أن أشرئب إلى أخبارك كلما دار موزع البريد على الصناديق يفرغ فيها جعبته؟ أيمكن أن أرى الطوابع البريدية من مختلف البلدان على الرسائل، حتى طوابع الولايات المتحدة، وعلى بعضها اسم نيويورك، فلا أذكر صديقي، ولا أصبو إلى مشاهدة خط يده، ولمس قرطاسه؟

. . . ولتحمل إليك رقعتي هذه عواطفي فتخفف من كآبتك إذا كنت مكتئباً، وتواسيك إذا كنت في حاجةٍ إلى المواساة، ولتقوّك إن كنت عاكفاً على عمل، ولتزد في رغدك وانشراحك إذا كنت منشرحاً، سعيداً.

ميّ)[1].

إن تاريخ هذه الرسالة صحيح لأن ميّ تلقت البطاقة البريدية التي تمثل صورة القديسة حنّة بريشة ليوناردو دافنشي في ٦ ـ ٢ ـ ١٩٢٥ ولكننا لا نعلم متى أخبرت ميّ جبران بأنها قصّت شعرها؟ فقد نشر الدكتور جميل جبر مقطعاً من تلك الرسالة وجعل تاريخها ٩ ـ ١ ـ ١٩٢٥[2] ونشر طاهر الطناحي المقطع ذاته وجعل تاريخه في ٢٠ ـ ١٢ ـ ١٩٢٤[3] والمرجح لدينا أن رسالتها إليه التي أعلمته فيها بأنها قصت شعرها كُتبت في أوائل شهر آذار سنة ١٩٢٥ إذ علّق جبران على ذلك في رسالته المؤرخة في ٢٣ ـ ٣ ـ ١٩٢٥. وهذا ما قالته ميّ في رسالتها إليه:

(. . . لقد قصصت شعري، وعندما ترى من صديقاتك بعد اليوم يا

---

(١) رسائل مي ـ جميل جبر ـ ص: ٧٠ ـ ٧١.

(٢) رسائل مي ـ جميل جبر ـ ص: ٦٨ ـ ٦٩.

(٣) اطياف من حياة مي ـ طاهر الطناحي ـ ص: ١٤٥ ـ ١٤٧.

جبران من هن في هذا الزيّ يمكنك أن تذكرني، وتقول لهن، في سرّك، إنك تعرف من تشبههنّ! كنت إلى شهور راغبة في التخلص من هذه الذوائب التي يقولون أن لطولها يداً في قصر عقل المرأة... وهو محض افتراء! ولكن عندما رأيت شعري بحلكته، وتموّجه الجميل، وعقاربه الجريئة مطروحاً أمامي، تداعبه يد المزيّن، شعرت بأسفٍ على هذه الخسارة، غير أن المزيّن الروماني طيّب خاطري بعبارات تكسّرت فيها الكلمات الإيطالية والألمانية، فهل كان في وسعي ألا أن أضحك؟! فمضى يصف لي جمال الشعر القصير، ومنافعه، ومميزاته، ولا سيما أنه يليق لي كثيراً، على ما زعم... وسألته الى كم امرأة يقول هذه الكلمات فأجاب: «أني فيلسوفة...» أرأيت هذه الفيلسوفة التي تسعى إلى قصّ شعرها، ثم تحزن عليه، ثم تضحك لأن المزيّن يعزيها عن فقده بكلمات مسرحية. وأنّي لتلك الفيلسوفة والفتاة المذكورة تحدث عن شعر قاتم هو شعر البداوة والسمرة، تحدث فناناً شاعراً شُغف بشعر الحضارة والشقرة، وهو لا يروقه إلا الشعر الذهبي، ولا يترنّم إلا بجمال الشعر الذهبيْ، ولا يحتمل في الوجود إلا الرؤوس ذات الشعر الذهبي...

ميّ)[1]

استهل جبران ردّه على هذه الرسالة، غير الكاملة، بهذه العبارات:

(يا ماري: قد سببت لك تلك المحفظة الصغيرة القلق والانزعاج فاغفري لي. ولقد توهّمت أنني أرسلتها على أحسن السبل وأسهلها، فجاءت النتيجة بالعكس، فسامحيني يا صديقتي الحلوة، واكسبي أجري.

إذاً قد قصصت شعرك؟ قد قصصت تلك الذوائب الحالكة ذات التموّجات الجميلة؟ ماذا يا ترى أقول لك؟ ماذا أقول وقد سبق المقصّ الملام؟ لا بأس، لا بأس، عليّ أن أصدّق ما قاله لك ذلك المزيّن الروماني... رحم الله آباء جميع الرومانيين...

---

(١) رسائل مي - جميل جبر - ص: ٦٨ - ٦٩.

ولم تكتفِ صديقتي المحبوبة بأنها أخبرتني عن تلك الخسارة الفادحة، بل شاءت أن تزيد «على الطين بلّة» فأخذت تحدث: «فناناً، شاعراً شُغف بشعر الحضارة والشقرة، فهو لا يروقه إلا الشعر الذهبي، ولا يترنّم إلا بجمال الشعر الذهبي، ولا يحتمل في الوجود إلا الرؤوس ذات الشعر الذهبي».

ربي وإلهي، أغفر لماري كل كلماتها، وسامحها، واغفر هفواتها بأنوارك القدسية. أرها بالحلم أو باليقظة كثلوكية عبدك جبران في كل ما يتعلق بالجمال. إبعث رباه ملكاً من ملائكتك ليقول لها إن عبدك جبران يسكن صومعة ذات نوافذ عديدة، وإنه يرى مظاهر حسنك وجمالك في كل مكان، وفي كل شيء. وإنه يترنّم بجمال الشعر الحالك مثلما يترنم بالشعر الذهبي. وإنه يتهيب أمام العيون السوداء مثلما يتهيب أمام العيون الزرقاء. وأطلب اليك ربي وإلهي أن توعز إلى ماري ألا تهين وتحتقر الشعراء والفنانين بشخص عبدك جبران... آمين!)[1].

ويبدو من تتمة رسالة جبران أنها أعلمته بالتهاب أصاب عينيها[2]، حيث قال لها، بعد هذا العتاب الرشيق:

(لنعد الآن إلى حال عينيكِ. كيف حال عينيكِ يا ماري؟ أنت تعلمين، أنت تعلمين بقلبك أن حال عينيك يهمني إلى درجةٍ قصوى. وكيف تسألين هذا السؤال، وأنت تشاهدين بعينيك ما وراء الحجاب؟ أنت تعلمين أن القلب البشري لا يخضع إلى نواميس القياسات والمسافات، وأن أعمق وأقوى عاطفة في القلب البشري تلك التي نستسلم إليها، ونجد في الإستسلام لذةً وراحة وطمأنينة، مع أننا، مهما حاولنا لا نستطيع تفسيرها او تحليلها. يكفي انها عاطفة عميقة، قوية، قدسية. فَلِمَ السؤال، ولِمَ الشك؟

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٨٧ ـ ١٨٩ من الطبعة الأولى.

(٢) وهذا ما جعلنا نجزم بأن ما نشر من رسالتها هذه هو جزء منها فقط.

من منا يستطيع أن يقول: «في روحي شعلة بيضاء، أما أسبابها فكذا وكذا، وأما معناها فكذا وكذا، وأما نتائجها فكذا وكذا؟» كفى المـرء أن يقول لنفسه: «في روحي شعلة بيضاء».

قد سألت عن عينيك يا ماري لأنني كثير الاهتمام بهما، لأنني أحب نورهما، وأحب النظرات البعيدة فيهما، وأحب خيالات الأحلام المتموجـة حولهما. ولكن اهتمامي بعينيك لا يدلّ على أنني قليل الاهتمام بجبهتك وأصابعك.

الله يباركك، يا ماري المحبوبة، ويبارك عينيكِ وجبهتك وأصابعك، والله يحفظك دائماً

جبران)[1].

ما من شك في أن جبران أحب ميّ على طريقته، وحمل لها في قلبه عاطفة عميقة، «قوية وقدسية»، في حين أن حبها له كان أقوى من حبه لها وأعمق وأشمل. وما من شك في أن ميّ كانت، ككل امرأة عاشقة، لا تنفك عن سؤال الحبيب، بشكل مباشر أو غير مباشر، عن مدى حبه لها، فهي بذلك كالطفل الذي لا ينفك يطرح على أمه بدلٍّ هذا السؤال، للإطمئنان: أتحبينني يا أماه؟ وما من شك في أن ميّ كانت أكثر من غيرها ارتياباً بعاطفة المعشوق نحوها، وأنها كانت امرأة كاملة الأنوثة، لا مقتولة الأنوثة، كما زعم الكاتب أنور المعداوي حيث قال: (المـرأة الطبيعيـة هي التي يستيقظ في أعماقها الشعور بالرجل، أما المرأة الشاذة فهي تلك التي تنام في أعماقها مثل هذه اليقظة، هي ميّ في حقيقتها العميقة التي لم تتذوّق طعم الحب لأنها فقدت شهية الأنوثة)[2] ويزيد على ذلك بقوله:

(فتور عجيب يزلزل في نفسك قوائم الإيمان بأنها كانت امرأة، امرأة

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٨٩ ـ ١٩٠ من الطبعة الأولى.

(٢) كلمات في الأدب ـ أنور المعداوي ـ ص: ٢٦ و ٢٨.

يضطرب بين جنبيها الإحساس الخالد بالانوثة، وينطلق من وجودها الداخلي نداء الأعماق).

هكذا، وبكلمات قليلة نسف أنور المعداوي أنوثة ميّ، لأنها بزعمه لم تلتفت إلى أحد من الرجال الذين عشقوها في عصرها، وكتبوا إليها الرسائل الملتهبة بالشوق والحب... متجاهلاً أو جاهلاً أنها أوصدت قلبها دونهم جميعاً لتعلقها بجبران. والأغرب من ذلك أنه أصدر حكمه الخطير بانعدام أنوثتها لأنها أصرّت في رسائلها إلى جبران على أن تبقى علاقته بها «صداقة فكرية» في حين أن جبران أرادها علاقةً وجدانية! [1] فقد قلب الأمر بشحطة قلم إذ تبينا من رسائلها إليه ورسائله إليها أنها كانت امرأة عاشقة، كاملة الأنوثة، أحبت في جبران الكاتب والشاعر العبقري، والرجل أيضاً بدليل مضامين رسائلها التي اطلعنا عليها وهي تتغنى بالنقرة التي في ذقنه، وتخبره عن شعرها ذي الذوائب الجميلة الذي قصته، وتغار لمجرد ظنها أنه يفضل الشقراوات ذوات الشعر الذهبي!!! أما كونها لم تتذوق الحب في حياتها فإنه لا ينفي أنها اكتوت بنار الحب والشوق إلى الرجل الذي هامت به، ولكن سوء طالعها شاء أن يكون الحرمان هو نصيبها في الحب. ولا يسعنا في هذا الصدد إلا أن نستغرب تعليق الأديب الأستاذ عيسى الناعوري على كلام المعداوي، وتأييده لنظريته حيث كتب يقول: (في رأيي أن جبران كان «مقتول الرجولة» مثلما يقول المعداوي إن مياً كانت «مقتولة الأنوثة»، وهكذا كانت العلاقة بينهما علاقة فكر، لا علاقة حب. ولو لم تكن حقيقتهما كذلك لكان من المؤكد أن يسعى أي منهما للقاء الآخر، لتحويل الحب من مجرّد كلام على الورق إلى لقاءٍ فزواج، كما هي خاتمة كل حب طبيعي!) [2].

---

(١) كلمات في الأدب ـ أنور المعداوي ـ ص: ٢٦ و٢٨.

(٢) الدوحة ـ عدد آذار سنة ١٩٨٢ ـ ص: ١٤٩ ـ من مقالة للأستاذ الناعوري عنوانها: مع المعداوي في كتابه: كلمات في الأدب.

ونحن لا ندري حقاً كيف أطلق الأستاذ الناعوري مثل هذه الأحكام المبرمة على ميّ وجبران، وعلى حتمية انتهاء كل حب بالزواج، وهو الكاتب والبحاثة المتروي، ولا سيما أنه (في مقالته التي نشرها في جريدة «الدستور» الأردنية بعد صدور «الشعلة الزرقاء») لم يتطرق إلى اتهام ميّ وجبران بالانحراف والشذوذ، ولم يأت على ذكر مطالعة أنور المعداوي المشار إليها، والمدونة في كتابه «كلمات في الأدب» الذي نُشر في بيروت سنة ١٩٦٦.

ولا بد من الردّ أيضاً على الأديبة روز غريب حيث كتبت تقول في كتابها عن ميّ «التوهج والأفول»: (...وتدلّ إحدى رسائل ميّ على أنها أحبته عن بعد لكنها لم تلق منه تجاوباً يُذكر، وانطوت صفحة تلك العلاقة الحبيبة الغريبة منذ عام ١٩٢٥)[١].

فعلى أية وثيقة استندت الآنسة غريّب حين أطلقت الحكم باتاً بأن ميّ لم تلق من جبران تجاوباً يُذكر، وأن الصلة بينها وبينه انطوت منذ سنة ١٩٢٥؟ ان الوثائق الخطية التي بين أيدينا تشير بوضوح إلى أن تجاوب جبران مع حب ميّ شيء يذكر، وأمر واقعي، وإن كان مغايراً لما كانت تتوقع الحبيبة، كما أنها تشير إلى أن الصلة بينهما استمرت حتى نهاية حياة جبران في أوائل سنة ١٩٣١. لقد تجلى لنا ابتهاج جبران برسائل ميّ، ومناجاتها له، وإعلامه بما كانت تفعل، وما كان يحدث لها في عدة رسائل كتبها إليها سنة ١٩٢٥ بالذات، وأعرب فيها عن اهتمامه البالغ بها، وعن حبوره بعودة المياه إلى مجاريها فيما بينهما. فعدا الرسالة المؤرخة في ٢٣ ـ ٣ ـ ١٩٢٥ التي نقلنا أكثر مقاطعها، هنالك بطاقة بريدية مؤرخة في ٢٨ ـ ٣ ـ ١٩٢٥ كتب على ظهرها عبارات ودّية عن الرسام «مانتيجنا ـ Mantegna» وعن فنه العظيم الذي كان به معجباً، متمنياً أن تشاهد ميّ أعماله في متاحف أوروبا،

(١) مي زيادة: التوهج والأفول ـ روز غريب ـ ص: ٦٤.

وتشاطره إعجابه به، ثم ختم كلمته بقوله: «وأسعد الله مساء الوجه الحلو» - وهنالك رسالة هامة مؤرخة في الثلاثين من الشهر ذاته استهلها بقوله:

(يا ماري، نعم كنت صامتاً أثناء أربعة أسابيع، أما السبب فهو الحمى الاسبانية - لا أقل ولا أكثر. أنا أستصعب، أستصعب جداً الشكوى من علة تلمّ بي، فإذا مرضت رغبت في أمر واحد وهو الاختفاء عن عيون الناس، حتى عن عيون الذين أحبهم ويحبونني. وفي شرعي أن أحسن دواء للداء هو الانفراد التام.

أما صحتي الآن فهي حسنة، بل أكثر من حسنة، ولا اكتمك أنها صارت بهموطية! «هكذا كان جبار بشراوي يصف صحته عندما يسأله الناس عنها...»)[1].

وبعد أن حدثها عن جريدة «السائح» المهجرية وعن صاحبها الشاعر عبد المسيح حداد، وعتبه عليها لأنها لم ترسل إليه مقالة لعدد الجريدة الممتاز ختم رسالته بهذه العبارات:

(نحن هنا في أوائل الربيع، ففي الهواء سحر ويقظة. وفي الروح فجر وشباب. أما الذهاب إلى البرية فشبيه بزيارة كهان وكاهنات عشتروت وتموز مغارة أفقا.

ستكونين معي كل يوم من أيام نيسان. وستكونين معي بعد أن ينقضي نيسان - كل يومٍ وليلة. والله يحرسك ويحفظك يا مريم المحبوبة

جبران)[2].

وتحدث جبران إلى ميّ عن مرضه في رسالةٍ كان أول من نشرها جريدة «العصبة» البرازيلية سنة ١٩٣٨ فقال:

---

(١) الشعلة الزرقاء - ص: ١٩٧ من الطبعة الأولى.

(٢) الشعلة الزرقاء - ص: ١٩٧ من الطبعة الأولى.

(لقد وجدت في المرض لذةً نفسية تختلف بتأثيرها عن كل لذةٍ أخرى، بل وجدت نوعاً من الطمأنينة يكاد يحبّب إليّ الاعتلال. إن المريض لفي مأمن من منازع وأغراض الناس، والوعود، والمواعيد، والمخالطة والمنازعة، والكلام الكثير، ورنين جرس التلفون. . .

وقد اكتشفت شيئاً آخر أهمّ بما لا يقاس من اللذة والطمأنينة وهو هذا: أني في اعتلالي أدنى إلى الكليات المجردات مني إليها في صحتي. فإذا ما أسندت رأسي إلى هذه المساند، وأغمضت عينيّ عن هذا المحيط، وجدتني سابحاً كالطير فوق أوديةٍ وغابات هادئة متشحة بنقاب لطيف، ووجدتني قريباً ممن أحبهم، أناجيهم وأحدثهم ولكن بدون غضب، وأشعر شعورهم، وافتكر أفكارهم، يلومونني ولا يسخطون عليّ، بل يلقون أصابعهم على جبهتي بين الآونة والأخرى، ويباركونني.

حبذا لو كنت مريضاً في مصر، حبذا لو كنت مريضاً بدون نظام في بلادي، قريباً من الذين أحبهم!)[1].

كان مرض جبران من أهم الأسباب التي جعلت ميّ تشقى بحبه، وتزداد اهتماماً به، وخوفاً عليه، وتلهفاً على أخباره، كيف لا وهي الوحيدة مثله، الغريبة في عالمها، والمرأة ذات العواطف المتأججة التي اختلطت في قلبها عاطفة الحب للرجل، وعاطفة الأمومة المختزنة في قلبها؟ وهذا ما يثبت النظرية القائلة بأن في عطف المرأة على الرجل الذي تحبه فيضاً من مشاعر الأمومة التي فطرت عليها، وتميّزت بها عليه. وقد ظهر قلقها على جبران في تلك الآونة، وتلهفها عليه في مقالاتها الوجدانية، ومنها مقالة رائعة عنوانها: «نشيد إلى ينابيع روما». قامت ميّ برحلة الى ايطاليا في نهاية صيف ١٩٢٥،

---

(١) مجلة العصبة - سان باولو - ج (٤) - العدد (١٠) - تشرين الأول ١٩٣٨ - ص: ٧٨٩.

وكتبت تلك المقالة فيها، ثم نشرتها في «الهلال» بعد رجوعها إلى القاهرة، وهذا بعض ما جاء فيها:

(كم طلب عطشي الارتواء من المثول لديك، يا عيون روما، وكم سألت خريرك ان ينسيني نفسي الجريحة!

تأملتك في الصباح والأصيل، وعند انتصاف الليل، يا ينابيع روما، وسمعتك قرب الصروح الشامخة، وبين الأخربة الدارسة، تسوقين في النفس معاني الضحك والبكاء، والعبث والتفجع، والتهليل والنحيب، والمجون والحكمة، ففهمت منك أن نسيج الزمان كنسيج المياه متماسك متناثر، وان ركبه يمرّ ويبقى، وأن كل بداية تتلوها نهاية، وكل نهاية تعقبها بداية. وفهمت أنك أنت أصدق الصور للأزمنة المتدافعة في المسافة، أبداً في ابتداء وانقضاء، أبداً في انقضاء وابتداء.

نسيت نفسي، يا للرغد ويا للهناء! لكني أعود فأذكرها ويشتدّ عطشي الملهب العميق. لحظة ليس غير! رجعت بعدها إلى حالي فما ارتويت بقطرةٍ إلا كانت لهيباً في الأوام الذي لا يرتوي، وما فزت بفهم جديد إلا كانت الخاطرة المستحدثة وقوداً لعذاب فكري، وما نعمت بنفحة عطف إلا كانت زكوة لعاطفة الحنان التي لا تشبع فيّ، ولا تكتفي! لحظة هناء ليس غير، فعادت نفسي الجبارة أشدُّ شكيمة، وأمنع جبروتاً فإذا بها وروما سواء. فيها مثل روما خلود وجمال، ومجد وتاريخ وأقواس نصر، ومتاحف وآثار ونضارة وأطلال. . .)[1]

كما أننا نرى بصمات حب ميّ الكبير لجبران الذي كان في حياتها السمير، والنجيّ، والمشجّع والمعين، والرفيق والأنيس، إلى جانب كونه الحبيب الأوحد، في خطبةٍ ألقتها في نادي الشبيبة السورية بالقاهرة في ٢٥ ـ

---

(١) الهلال ـ ج (٣٤) ـ عدد يناير ١٩٢٦ ـ ص: ٣٤٣ ـ ٣٤٦، وقد نشرنا هذه المقالة مع مقالات أخرى لمي وخطب في الجزء الثاني من «كلمات وإشارات» ص: ٤١ ـ ٤٥.

٢ ـ ١٩٢٦ كانت بعنوان: «الغرائز السيكولوجية الثلاث». شرحت فيها غريزة، «الأنا» و«الغريزة الوجدانية» و«الغريزة الإجتماعية»، فاستشهدت بقول الفرد دوموسيه: «ألا ألمس قلبك في صدرك، فهناك محراب العبقرية»، وتحدثت عن جلال العاطفة في القلب البشري ثم قالت: (ومن ذا الذي يستطيع أن يعيش بلا حبّ وحنان؟ وأيّ شخصية تعظم وتعلو إن لم يكن لها عين الحبّ تَرقبها، وبسمة الحب تغذيها، وتلك العناية الرقيقة، وذلك الوحي الفياض الذي لا يصدر إلا عن القلب الدافق بالحب والحنان)[١].

وفي مقطع آخر من خطبتها، ناشدت ميّ «الغرباء» ولا ريب في أنها كانت تناشد جبران، فقالت:

(أيها الغرباء! كم من مرةٍ أنالتني أصواتكم التعزية، وكم من مرة استقيت الشجاعة، وحب الحياة من ابتساماتكم، ونبرات أصواتكم! وكم من مرةٍ باركتكم لذلك وأنتم لا تعلمون!)[٢].

بين أيدينا رسالة طريفة، مخطوطة، من جبران، مما عثرنا عليه ونشرناه في الشعلة الزرقاء، مؤرخة في أواخر شهر أيار (مايس) سنة ١٩٢٥ تشير إلى أن ميّ بعثت اليه بقصيدة لأمير الشعراء، دون أن تخط إليه كلمة واحدة، والأرجح أنها أرادت استفزازه على سبيل المداعبة، إذ استهل رسالته إليها بهذه العبارات، ورسم في صفحتها الأولى سيفاً يقطر دماً!

(ما قولك في رجلٍ يستيقظ من غفلته صباحاً فيجد إلى جانب فراشه رسالة من صديقة يحبها، فيقول بصوت عالٍ: «صباح الخير أهلاً وسهلاً» ثم يفتح الرسالة بلجاجة العطشان، فماذا يجد؟ لا أكثر ولا أقل من قصيدة لشوقي بك!!!)[٣].

---

(١) و (٢) كلمات واشارات ـ الجزء الثاني ـ مي زيادة ـ جمع وتحقيق وتقديم سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٦٤ ـ ٦٥.

(٣) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٩٩ ـ ٢٠٠.

ويعلمها بعد ذلك بأنه سيأخذ بثأره منها فيرسل إليها قصيدة للشاعر حليم دموس، مع شرحٍ لها، ليس غير! وقد أعرب في نهاية رسالته عن غضبه، وقال لها إنه أخذ يعضّ شفته، ويتساءل كيف يمكن أن يصرف نهاره ذاك قبل أن يغفر لها ويسامحها!! وفي الختام كتب إليها الجملة التالية:

(وبالرغم من كل شيء، افتحي كفّك... كذا... كذا كما يفعلون..)[1] وهنالك رسالة هامة منه عثرنا عليها في مجلة «العصبة» البرازيلية، في عددها العاشر لسنة ١٩٣٨، يقول الأستاذ بلند الحيدري إن جبران بعث بها إلى ميّ سنة ١٩٢٨، وهذا أهم ما جاء فيها:

(أنا مديون بكل ما هو «أنا» إلى المرأة منذ كنت طفلاً حتى الساعة. والمرأة تفتح النوافذ في بصري، والأبواب في روحي، ولولا المرأة الأم، والمرأة الشقيقة، والمرأة الصديقة لبقيت هاجعاً مع هؤلاء النائمين الذين يشوشون سكينة العالم بغطيطهم!)[2].

ولا ريب في أن جبران كان يقدس المرأة، وأنه كان مديناً لها في تألق نبوغه عبر سائر أدوار حياته، ابتداءً بأمه العظيمة وشقيقته المحبة ماريانا، وانتهاءً بماري هاسكل ذات الدور الكبير في حياته التي انفقت من مالها لتوفير سبل التعليم له في فرنسا، والدعاية لفنه في الولايات المتحدة، وتصحيح لغة كتبه باللغة الانكليزية كالنبي والمجنون وغيرهما. ولم تكن ميّ في مسيرة حياته أقل شأناً من ماري هاسكل في شحذ موهبته، وتغذية روحه بحبها له، ودفاعها عن انتاجه، وحدبها عليه. كانت ميّ الصديقة الحبيبة في حياة جبران، وقد أيّد هذا الرأي الكاتب بلند الحيدري فقال إن جبران اكتفى بنماذج النساء الثلاثة: الأم والشقيقة والصديقة (حافزاً لفتح نوافذ بصره،

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ١٩٩ ـ ٢٠٠.

(٢) العصبة ـ سان باولو ـ ج (٤) ـ العدد (١٠) ـ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٣٨ ص: ٧٨٩.

وأبواب الرحمة. أما المرأة الحبيبة، والمرأة العاشقة، والمرأة المتوزعة في غير ذلك من الصفات الأخرى، فهي التي لم يلتق بها إلا لماماً لأنها لا تقف مع الأم والشقيقة والصديقة في الصفة، صفة العطاء بلا أخذ، والاخلاص المتناهي، والتعالي عن مطالب الجسد. إنها المرأة التي تقوم في أعماقها الأم في أبرز وأهم صفاتها في التضحية، والتي كان جبران بحاجةٍ إليها دائماً. إنها المرأة التي رضيت أن تمتزج بروحها فيه فلا تقيده بكل ما هو زائل، ولا تسأله أن يكون لها معيناً لمتعةٍ عابرة، فهو كما قال في رسالة إلى ماري هاسكل: «يقولب طاقته الغريزية إلى نتاجٍ فني»، وإن أصدقاءه يخطئون بظنهم أنه يعيش علاقات عاطفية متعددة)[1].

إن ما قاله الأستاذ الحيدري ينطبق على ما ذكرناه في بداية هذا الفصل عن دور المرأة في حياة جبران، وتضاؤل علاقاته العاطفية بالنساء منذ ظهور العلّة في جسمه الذي وافق تطوّر الصلة بينه وبين ميّ من إعجاب متبادل، إلى حبٍّ روحيّ، في سنة ١٩١٩، وقد رأينا كيف رضخت للأمر الواقع، وكيف عجزت عن قطع الصلة معه بعد بوحها إليه بحبها العارم في مستهل سنة ١٩٢٤، إذ لم تستطع قطع ما أسمته «العقدة» المشبوكة بنياط قلبها. ولعل أكثر ما يدلّ على سيطرة حبه على فكرها وقلبها هو المقال الذي نشرته في مجلة الهلال، في عدد أول مارس سنة ١٩٢٦ بعنوان: «أتعرف الشوق والحنين» إذ صورت فيه لواعج نفسها بإسلوب شاعريّ مؤثر فقالت، بعد أن وصفت ولادة الربيع، ومعجزة اخضرار الأرض، وفوح الأزهار:

(أعرِفْتَ الشوقَ وقد ثار وفار؟ أعرفته تنبّهُهُ المحسوسات، وتؤجّجه الذكريات، وتزكيه المدركات؟ أعرفته يرعى في كيانك فأنت روح تلوب، وصوت يلهج، ويد تلتمس، وجوانح تضطرم، وجنان يتسعّر، وضلوع تتفجّر؟

---

(١) مجلة «الدوحة» ـ قطر ـ عدد مايو سنة ١٩٨٠ ـ ص: ١٢٦.

إن أنتَ عَرَفْتَ مرةً الشوق والحنين، وشعرتَ بالإنكماش الأليم يملأ صدرك غماً وكرباً. وإن أنتَ كنتَ ضحية الكلاّبة التي تعضّ على القلب بنابها القاسي، وفريسة المطارق التي تطرق فيه بلا رحمة فتدغدغه، دون أن تقوى على تحطيمه، إذن فاعلم أنك في تلك الساعة متمتع باستعداد الخالق القادر، تضطرم في فؤادك الشرارة التي سرقها الإنسان القديم من نادي الأرباب الأقدمين، لأن هذا العالم هو ابن الصبابة والجوى، وما برأ الباري هذه الأكوان إلا عندما شاء عطفه أن يعرف الشوق والحنين)[١].

فما أروع ميّ في صبابتها وتساميها، وما أشقاها في حبها وحرمانها! وكم تذكرنا بها قصيدة فدوى طوقان «سموّ» المنشورة في ديوانها: «وحدي مع الأيام» حيث أنشدت تقول:

(ومن عجبٍ أنني لا أراك، ولكن أحسك روحاً هنا
يحنُّ إليّ، ويحنو عليّ، وينسابُ حولي هنا أو هنا
إذا ما صحوت، إذا ما غفوت، إذا ضجّ يومي وليلي سجا
رقيقاً، شفيفاً كنور الصباح، زكياً نقياً كقطر الندى!)

إن من يقرأ ديوان شاعرة الألم والحرمان، فدوى طوقان، يتخيّل «ميّ» في أكثر من قصيدة، ولا سيما في قصيدة «حياة» حيث تقول الشاعرة:

(حياتي دموع، وقلب ولوع،
وشوق وديوان شعر وعود
حياتي حياتي أسىً كلها،
إذا ما تلاشى غدا ظلّها
سيبقى منه على الأرض صدى،
يردّد صوتي هنا منشدا:

---

(١) كلمات واشارات ـ الجزء الثاني ـ مي زيادة ـ ص: ٧٢.

حـيـاتـي دمـوع، وقـلـب ولـوع،
وشـوق، وديـوان شـعـرٍ، وعـود).

كان عذاب ميّ، وشوق ميّ، وحنين ميّ نعيماً في حياتها، على ما فيه من مرارة، مادام الذين تحبهم على قيد الحياة، ولكن الحياة لا تهادن، وأنى لها أن تهادن وقد بُنيت على كدرٍ، كما قال الشاعر؟ فقد مات أبوها سنة ١٩٢٩، فتلقت من الحبيب البعيد رسالة التعزية التالية:

(يا ماري، يا صديقتي العزيزة

عرفت اليوم أن والدك قد ذهب إلى ما وراء الأفق الذهبي، وأنه قد بلغ المحجة التي يقصدها الناس كلهم، فماذا يا ترى أقول لك؟ أنت يا ماري أبعد فكراً وسمعاً من تلك الألفاظ التي يقولها الناس معزّين، مواسين. ولكن في قلبي الرغبة والشوق إلى الوقوف أمامك، وفي قلبي الحنين إلى ضمّ يدك بيدي صامتاً، شاعراً بكل ما يغمر روحكِ الحلوة، على قدر ما يستطيع القريب الغريب أن يشعر بما تشعرين. والله يباركك يا ماري والله يحرسك كل يومٍ وليلة. والله يحفظك لصديقك

نيويورك في ١٠ ـ ١٢ ـ ١٩٢٩ جبران)[١].

واشتدّ المرض على جبران سنة ١٩٣٠، فاستبد الحزن بقلب ميّ، وتلقت منه برقية في ٢٦ ـ ١٢ ـ ١٩٣٠، بدلاً من رسالة، لعجزه عن الكتابة «بيد مريضة»، أرسلها باللغة الانكليزية، وشكرها فيها على رسالتها «الكريمة العذبة» على حدّ تعبيره[٢]. وقد كان ممتناً للجهد الذي بذلته، سنة ١٩٢٩، من أجل الدعاية في الشرق إلى احتفال الرابطة القلمية في نيويورك بمناسبة انقضاء ربع قرنٍ على شروعه في الكتابة. لذا كتب الدكتور منصور فهمي ما يلي:

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٢٠١ من الطبعة الأولى.
(٢) الشعلة الزرقاء ـ ص: ٢٠٢ من الطبعة الأولى.

(وتمعن حالة جبران في السوء، وجبران يدأب في اخراج كتابه «يسوع ابن الإنسان»، وتجيء سنة ١٩٢٩، وتشرع الرابطة القلمية في نيويورك في تهيئة عيد فضّي لجبران الكاتب، الذي كان يبلغ حينئذٍ نحو الخامسة والأربعين عاماً. وتعمل ميّ وتجدّ في الدعاية لذلك العيد لكي تشترك البلاد العربية بتحية ذلك الكاتب المحبوب)[١].

كان آخر ما تلقته ميّ من جبران رسماً ليدٍ مفتوحة، تلتهب في راحتها شعلة زرقاء، كتب إلى جانبه بخطه: «إلى ماري من جبران» وذلك في ٢٦ - ٣ - ١٩٣١، قبل موته باسبوعين فقط. لقد حسبت ميّ أن الرجل الذي قدم إليها قلبه وطناً، وامتزجت روحها بروحه خالد، لا يمكن أن يموت، ولكن جبران ذهب هو أيضاً إلى ما وراء الأفق الذهبي في العاشر من نيسان سنة ١٩٣١، وهو في الثامنة والأربعين من العمر، فنعته الصحف في الغرب وفي الشرق، وكانت فجيعة ميّ بفقده كالزلزال الذي يصدّع أصلب الصروح في أعشارٍ من الثانية! إن ما حدث لميّ ساعة فارق جبران الحياة شيء غريب حقاً، روته للأديب الأستاذ شبل الخوري في لبنان سنة ١٩٣٨ فقالت:

(لقد تملكني شعور غريب ساعة لفظ جبران أنفاسه الأخيرة، فانقبض صدري، وانهمرت الدموع من عيني، وصرخت صرخة عجيبة ارتاعت أمي لدى سماعها!) هذا ما حدثنا به الأستاذ شبل الخوري الذي كانت تربطه بميّ رابطة صداقة قديمة وقوية، مؤكداً أنها أفاضت بالحديث معه عن جبران ذات مساء، في بيتها برأس بيروت الذي أقامت فيه بضعة أشهر إبان محنتها في لبنان. وأضاف قائلاً بأن ميّ أكدت له بأنها كانت تفضل البقاء بعيدةً عن جبران لتبقى عاشقة الصورة التي تشتهيها له!!)[٢].

(١) محاضرات عن مي - الدكتور منصور فهمي - ص: ٢٠٢.

(٢) من حديث الأستاذ شبل الخوري الذي اجريناه في بيته بجونية، في ٢٥ - ٤ - ١٩٧٢ وكان قد نشر أحاديثا عن ميّ في مجلة «شهرزاد» لصاحبها رئيف الخوري سنة ١٩٤٣.

صمتت ميّ على الجرح البليغ، والحزن الكبير على جبران بضعة أسابيع فقط، ثم رثته بمقالةٍ نشرتها في مجلة «الحديث» التي كان يصدرها في حلب الأستاذ سامي الكيالي، وكانت بعنوان: «جبران خليل جبران يصف نفسه في رسائله»، ومما تجدر الإشارة إليه أنها نشرت فيها، ولأول مرة، مقاطع من بعض رسائله إليها، نقلها عنها بعد ذلك كثيرون من الكتاب الذين تناولوا موضوع حبها لجبران في مقالاتهم ودراساتهم[١]. استهلت في مقالتها بهذه العبارات:

(من الناس من يعيش للمال، ومنهم من يعيش للمجد أو لخدمة الوطن، أو العلم، أو لخدمة نفسه والسعي وراء مسرّته. ومنهم من يعيش لقلبه نائحاً على حب مضى، منتظراً حباً مقبلاً. ومنهم من يعيش يومه ليومه، وساعته لساعته، ومنهم من يعيش لأسرته أو لبعض أفرادها، ولو على حساب الأفراد الآخرين. غايات لا عداد لها تتنوع باختلاف الناس، وباختلاف استعداداتهم ومداركهم، فلأي شيءٍ كان يعيش جبران خليل جبران؟ إن الذين تتبعوا كتاباته كانوا يظنون أنه يعيش لفنّه الثلاثي من أدبٍ باللغة العربية، وأدب باللغة الانكليزية، ورسم، ولكنه في الواقع لم يكن يعيش لشيء من هذا. وها هو ذا يصف نفسه ـ وبأية بلاغةٍ نادرة فريدة ـ في رسائل لم يفكر يوماً في أنها ستنشر بعد وفاته، ولا أنا، تخيلت مرةً أني سأنشر شيئاً منها، وبخاصةٍ في مثل هذا الظرف: «... صحتي اليوم أردأ نوعاً مما كانت عليه في بدء الصيف. فالشهور الطويلة التي صرفتها بين البحر والغاب قد وسعت المجال بين روحي وجسدي. أما هذا الطائر الغريب (يعني قلبه وقد كان مصاباً فيه) الذي كان يختلج أكثر من مئة مرة في الدقيقة فقد أبطأ قليلاً، بل كاد يعود إلى نظامه الاعتيادي. غير أنه لم يتماهل إلا بعد أن هدّ أركاني،

---

(١) ان ما أوردته ميّ من رسائل جبران اليها أضحى معروفاً ومنشوراً في كتاب الدكتور جميل جبر «ميّ وجبران» و«رسائل جبران»، ولم ننشر في كتابنا «الشعلة الزرقاء» سوى رسائله المخطوطة التي كانت بحوزة الدكتور جوزيف زيادة وأولاده.

وقطّع أوصالي. أما الأطباء فمن علتي بمقام الزيت من السراج، لا لست بحاجة إلى الراحة والسكون، أنا بحاجةٍ موجعة إلى من يأخذ مني، ويخفّف عني. أنا بحاجةٍ إلى فصادة معنوية، إلى يدٍ تتناول مما ازدحم في نفسي، إلى ريح شديدة تسقط أثماري وأوراقي. أنا يا ميّ بركان صغير سُدّت فوهته فلو تمكنت اليوم من كتابة شيء كبير أو جميل لشفيت تماماً.

لقد ولدت وعشت لأضع كتاباً واحداً صغيراً، لا أكثر ولا أقل. قد ولدت وعشت، وتألمت وأحببت لأقول كلمةً واحدةً حيَّةً مجنحةً، لكني لم أصبر، لم أبق صامتاً حتى تلفظ الحياة تلك الكلمة بشفتي، لم أفعل ذلك بل كنت ثرثاراً فيا للأسف ويا للخجل! وبقيت ثرثاراً حتى أنهكت الثرثرة قواي. وعندما صرت قادراً على لفظ أول حرفٍ من كلمتي وجدتني ملقى على ظهري، وفي فمي حجر صلد.

لا بأس، إن كلمتي لم تزل في قلبي، وهي كلمة حيّة مجنّحة لا بدّ من قولها لتزيل بوقعها كل ما أوجدته ثرثرتي من الذنوب! لا بد من اخراج الشعلة...».

هذا ما يقوله ذاك الذي لم يكتب يوماً إلا الكلمة المجنحة الحيّة المحيية. هذا ما يقوله ذاك الذي لم تكن كل كلمة كتبها إلا شعلة منفصلة عن شعلة روحه. أي عبقري لا يخجل بكتاباته السابقة نظراً لسرعة التطور المكتسح كيانه؟ إن العبقرية الحقة كثيراً ما تقاس بهذا الخجل الذي ينتاب صاحبها، ولو حاز بكتاباته إعجاب العالم. لقد كتب جبران رسالته تلك بعد اصدار كتابه «النبي» الذي تناولته بالترجمة إلى لغاتها عشرة شعوب مختلفة. على أن جبراننا لم يكن ليسير وحده، بل كان شبح الموت يماشيه أنى ذهب. كان يعرف نفسه مقبلاً على الرحيل، بينما هو يصدّر كتبه الانكليزية: «المجنون»، و«السابق» و«النبي» و«رمل وزبد»، و«يسوع ابن الانسان» تحفةً تلو اخرى، فضلاً عن كتبه، ومجموعات رسومه التي كانت مفخرة العبقرية الشرقية بين أقوام تعرف معنى العبقرية، ولا يفوتها من خصائصها

شيء. وكان آخر كتبه الانكليزية كتاب: «آلهة الأرض» الذي نعكف اليوم على مطالعته ـ وبأي حزن! ـ وقد تلقيناه يوم اذاعة نعيه في مصر، وفيه اثنتا عشرة صورة من رسم يده. تلك كانت شيمة جبران في مؤلفاته، وحتى في بعض رسائله الخاصة إذ كان يلخّص الجملة والمعنى رسماً على هامش القرطاس، في الغالب، أو هو يشرحه في صورةٍ عجيبة تشغل الصفحة بحذافيرها ليعود، مرةً بعد مرة، إلى رسم شعاره التصويري الذي يمثل يداً تقدّم كل حياتها وقوداً، وتظلّ اللهب خارجة من تلك اليد الكريمة، وصاحبها يفكر في الحياة كما يفكر في الموت، فيقول في خطابٍ آخر، كتبه بعد شهور طويلة: «أتعلمين يا ميّ أني ما فكرت بالانصراف الذي يسميه الناس موتاً إلا وجدت في التفكير لذةً غريبة، وشعرت بشوقٍ هائل إلى الرحيل؟»)[1].

وختمت مقالتها بهذه العبارات:

(إننا ننحني أمام ضريح جديد، بعيد، نام فيه هذا القائل: «إن حنيني إلى الشرق يكاد يذيبني، فمتى أعود إلى بلادي؟» ننحني أمام القبر الذي ينام فيه رجل هو بروحه للإنسانية كلها، ولكنه بجسده غريب بين الغرباء. أننحني لقول كلمة الوداع؟ لقد جزنا هذا الطور من الغفلة، فصرنا نعلم أن الناس إلى الدار الأخرى متتابعون... فهنيئاً لك برحيلك يا أخي. لقد أعطيت كثيراً وان أغاظتك هذه الكلمة. لقد أعطيت كثيراً، وقال فيك الشرق للغرب: «ها آنذا»، كما قال فيك الشرق الناهض: «هاأنذا!».

حسناً فعلت بأن رحلت! فإن كان لديك كلمة أخرى فخيرٌ لك أن تصقلها، وتثقّفها، وتصهرها، وتستوفيها في عالم يفضل عالمنا في أمورٍ شتى... حسناً فعلت بأن رحلت يا أخي! ففي ذمّةِ الله، وفي رحمته التي تسعنا جميعاً أحياء

ميّ)[2]

---

(١) مجلة الحديث ـ حلب ـ ج (٥) ـ العدد الخامس ـ شهر مايس ١٩٣١ ـ ص: ٣٦٣ ـ ٣٦٥.

(٢) مجلة الحديث ـ حلب ـ ج (٥) ـ العدد الخامس ـ شهر مايس ١٩٣١ ـ ص: ٣٦٦.

وهكذا نرى أن ميّ غبطت جبران على رحيله، وساقها التفجع على فقده إلى البوح بصلتها الحميمة به، وهي المتكتمة الضنينة بقصة هواها. كان طبيعياً أن تتمنى اللحاق به «إلى ذلك العالم الذي يفضل عالمنا في أمور شتى»، ولكن القدر شاء أن تعيش بعده عشر سنوات ذاقت خلالها أشدّ صنوف العذاب. . . وكان طبيعياً أن تنهار أعصابها، وتتردى صحتها، ولا سيما بعد أن ماتت أمها، بعد موت جبران بحوالى سنة، فحاولت مغالبة الحزن بالقيام برحلة إلى أوروبا، ولكنها رجعت منها أشدّ حزناً واكتئاباً عما كانت عليه قبل سفرها.

كان الصديق الوحيد الذي عزاها بموت جبران الكاتب فيليكس فارس الذي عرف جبران في نيويورك وأحبه وقدره، وعرف ميّ وأحبها وقدرها. لقد وجه إليها رسالة طويلة أتى فيها على ذكر لقائه بجبران في الولايات المتحدة الأميركية سنة ١٩٢٢ بهذه العبارات:

(. . .وهنالك عرفت جبران الذي عرفك أنت كثيراً يا ميّ، إن جبران، يا ميّ، كان فيه من البهاء المجهول الذي عرفته فيكِ، ثقي يا أختي بترفّع هذه الكلمة عن كل تزلّف ومحاباة، فإن من المفكرين من تتجلى القوة الخفية في مظهرٍ واحدٍ من مظاهرهم.

لقد كان جبران يحب لبنان كما تحبينه أنت يا ميّ ، لأن الأنفس الحساسة تهتك، في هيكل جماله، أستار المادة، فتعرف أن الإنسانية أخاء، وتعاينَ وجه الله. . .)[1].

ولما كانت ميّ قد نشرت مقالة أخرى عن جبران، بعد موته، في الأهرام، وضمنتها فقرات من رسائله اليها، أتى فيليكس فارس على ذكر تلك المقالة في رسالته إليها، فاستوقفته فيها «أقوال وعبارات حلّت الرمز الخفيّ الذي استعصى عليه حلّه في السابق»، ثم أضاف يقول:

---

(١) رسالة المنبر الى الشرق العربي - فيليكس فارس - ص: ١٢٦ - ١٢٧.

«مات جبران، فوا حنين الدنيا إلى شدوه وأنينه!»، فهل تُرى كان فيليكس فارس يعلم أن حنين ميّ إلى شدوه وأنينه كان يفوق حنين العالم إليهما؟ ليس بمستغرب أن يكون فيليكس فارس مشفقاً على ميّ من وطأة الحزن على جبران، وعواقب الحرمان والوحدة في حياتها، ولكننا لم نقرأ وصفاً لشقاء ميّ في حبها لجبران أصدق وأبلغ من وصف شيخ النقاد مارون عبود له حين كتب هذه العبارات:

(. . . فميّ بين المحبين كداود بين التائبين. توبة داود متقدة، صارمة، ومحبة ميّ مؤلمة، عارمة، وفي كلتيهما لذة كالقشعريرة التي تأخذنا عند فجر أيلول في الخيمة. وإذا صحّ ما زعم علماء النفس في تولّد الهوى، كان الجاني على ميّ خيالها القوي)[1].

وقد استعصى على مارون عبود حلّ عقدة مصير حبها لجبران فقال عن بوحها بحبها: (ويلوح من مكتوب مي أنها البادئة في إعلان حبها، وأن جبران كان كعادته يطوف حول الموضوع ولا يلجه. إن بين سطور «مكتوبها» مشاهد وآلاماً وشجوناً، فيه حب ميّ واطواره كلها. وفيه ارتياع من مستقبل هذا الحب. وفيه شروط وبنود لا يوضحها لنا إلا المفقود من رسائلهما، فرسائل مي لجبران، ورسائل جبران لمي ـ الموجودة مسودتها ـ لم تسعفني على البت في حلّ مصير هذا الحب)[2].

وكان الأستاذ عبود على حق فيما قال لأن رسائل جبران المخطوطة إلى ميّ التي حققناها ونشرناها في «الشعلة الزرقاء» لم تكن قد ظهرت حين نشر كتابه: «جدد وقدماء». وكان محقاً عندما تحدث عن شقاء ميّ بحبها لجبران، فقد أقرّت هي به إذ كتبت بخطها إلى جانب صورة جبران، المنشورة في الصفحة ٨٩ من كتابٍ صدر في نيويورك، وتضمّن نبذاً عن حياة بعض المفكرين المرموقين: (وهذه مصيبتي منذ أعوام). كما يبدو في الصورة المرفقة!

---

(١) جدد وقدماء ـ مارون عبود ـ ص: ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٢) جدد وقدماء ـ مارون عبود ـ ص: ١٥٩.

وهذه مصيبتي منذ أعوام

THE BORZOI 1920

Being a sort of record
of five years' publishing

New York
ALFRED · A · KNOPF
1920

كما صورت ميّ شقاءها في حبها بمقالة عثرنا عليها بين أوراق الأديبة جهان غزاوي عوني نقلتها بخطها بعنوان: «موعد مع الأقدار» يجدها القارىء في «صفحات مطوية من أدب ميّ» الملحقة بهذه السيرة. ولا بد من الاعتراف بأن ميّ وجبران كانا على طرفي نقيض، في كثير من الأفكار والنزعات، وأن عواصف هوجاء اجتاحت صلتهما الفريدة من نوعها، وولّدت في نفس جبران مرارة ظهرت في بعض رسائله إليها، وجلبت لميّ الحيرة والالتباس، والقلق والشقاء، ولكن الأدب العربي الحديث جنى من حبهما الغـريب صفحات مكتوبة «بندى الحب السماوي» كما قال الأستاذ توفيق الحكيم بعد اطلاعه على كتاب: «الشعلة الزرقاء»، في رسالة نشرها حول هذا الموضوع في مجلة اكتوبر القاهرية سنة ١٩٨٠:

(. . .وهكذا رأيت أن أضع إلى جانب رسائل جبران المكتوبة بندى الحبّ السماوي رسالتي هذه التي تذكرني بأني عشت أجمل أعوام حياتي ولم أعرف وجوداً للحب الحقيقي، ولا لقلبين كقلب جبران وقلب ميّ. ولقد مات هو وفي قلبه الصامت حبها، وماتت هي بعده بعشر سنوات وقلبها غير ممتلىء بأحدٍ غيره. طوبى لكما في دار الخلد يا من قدمتما من قلبيكما للبشر قبساً من نور السماء!)[١].

* * *

(١) مجلة «أكتوبر» ـ القاهرة ـ العدد ٢١٤ ـ تاريخ ٣٠ ـ ١١ ـ ١٩٨٠.

رسائل ميّ وصلاتها بالمستشرقين

(لم يزعجني قولك إن رسائلي أفضل من مقالاتي لأن ذلك أعظم مدح لي، كأنك تضع شخصيتي الحقيقية فوق شخصيتي المكتسبة التي أعرضها أمام الجمهور في مقالاتي
ميّ)[1]

هذا ما جاء في إحدى رسائل ميّ إلى الدكتور يعقوب صروف سنة ١٩١٨، وهو يدلّ على أنها كانت تكتب الرسائل إلى أصدقائها وزملائها بعفوية، وكأنها تتحدث معهم ببساطة، ناسيةً شخصية «الكاتبة»، و«الباحثة» المتأنقة التي تعرض أفكارها للقراء. ولا يختلف اثنان في أن رسائل الأديب أصدق صورة لشخصيته إذ تتجرد فيها نفسه من آثار الكلفة، وتنزع عنها الحجب كافةً، لذا كانت لرسائله أهمية كبرى لعدة أسباب: منها أن تلك الرسائل تكشف مزاجه الطبيعي، وأفكاره ومشاعره، ومنها أيضاً أنها تعتبر لوناً من الأدب الخاص نستطيع أن نسميه «مسامرةً كتابية» حسبما جاء في مقالة ميّ عن الكاتبة «مدام دي سيفينييه وعصرها»[2]. ومن يدرس ميّ في رسائلها يرى أنها كانت تولي فن المراسلة عناية كبيرة منذ بداية عهدها بالكتابة وتعتبره لوناً من الأدب الخاص، له قواعده وأصوله، فقد قالت في مقالةٍ نشرتها عام ١٩١٥

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٥٣.
(٢) الصحائف ـ ميّ زيادة ـ ص: ٤٩ ـ ٦٤.

بعنوان: «رسائلنا اليوم وبالأمس»: (... أما الآن فأخذنا نكتب لنعبّر عن شيءٍ نريد أن يفهمه من نخاطب، فإذا اطلعت على رسالة تيسّر لك الحكم على ذوق كاتبها، ومعارفه، ودرجة تربيته، ومكانته الاجتماعية)[1].

وقد تميّز عصر نهضتنا الأدبية الحديثة باهتمام الكتاب في تبادل الرسائل فيما بينهم، سواء أكانوا مقيمين في بلدٍ واحد، أم متباعدين بعضاً عن بعض، للتباحث في قضايا الفكر والمجتمع، وبثّ همومهم الشخصية، وما يعتري نفوسهم من حالات السخط والرضا، ولا سيما إذا ما اتسمت روابط الأدب بروابط الصداقة فيما بينهم. وهذا ما أثرى المكتبة العربية الحديثة برسائل أعلام النهضة أمثال الرافعي والريحاني والعقاد والكرملي والأمير شكيب أرسلان وجبران وميّ وغيرهم. وينبغي ألا ننسى أن لهذا الفن الكتابي فرساناً في تراثنا الأدبي قديماً، وأن له فرساناً في الآداب الغربية في مختلف العصور مازالت دور النشر تعيد طباعة رسائلهم لاهتمام القراء بها، والباحثين على حدٍ سواء. وقد نُشر لميّ بعد وفاتها عدد كبير من رسائلها الخاصة إلى كبار معاصريها ورسائلهم إليها أحدثت ضجةً في الأوساط الأدبية في مصر، مما حدا بالأستاذ عباس محمود العقاد إلى أن يقول، في الفصل الذي خصّها به من كتابه: رجال عرفتهم: (ولو جُمعت الرسائل التي كتبتها ميّ، أو كُتبت إليها من نوع هذا الأدب الخاص لتمّت بها ذخيرة لا نظير لها في آدابنا العربية. وعند ميّ، على ما نعلم، أنماط عديدة من الرسائل التي تسلّلت في عداد هذا الأدب الخاص، لا ندري أين موضعها الآن، وإن كنا نخشى أن تكون قد أحرقتها، أو ردّتها إلى كتابها لتستردّ منهم خطاباتها إليهم، كما فعلت في غمرةٍ من غمرات الحزن غلبتها على صبرها بعد وفاة والديها)[2].

وقد قال الأستاذ انطون الجميّل الذي أشرف على فرز ما وُجد من

---

(١) سوانح فتاة ـ ميّ زيادة ـ ص: ٣٢.

(٢) رجال عرفتهم ـ عباس محمود العقاد ـ ص: ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

رسائل بين أوراقها الخاصة، عقب وفاتها، بمساعدة الشاعر خليل مطران: (إن في تلك المخطوطات ثروةً أدبيةً، وتراثاً نفيساً). وقد تباحث الجميّل ومطران يومئذٍ في موضوع نشر الرسائل المتبادلة بينها وبين الأستاذ أحمد لطفي السيّد، ولكن لطفي السيد اعترض على نشر تلك الرسائل وغيرها، فبقيت في عهدة الأصدقاء، وذمة الأقرباء. أما الدكتور طه حسين فقد كان يحبّذ نشرها للحقيقة والتاريخ لأنها في رأيه، ثروة فكرية لا يجوز إهمالها أو طمسها، ولكن المكلفين في البتّ بهذا الأمر لم يأخذوا برأيه. ومن ثم وقعت الخطابات المتبادلة بين ميّ وأحمد لطفي السيّد في يد الصحفي طاهر الطناحي فنشرها في مجلة الهلال سنة ١٩٦٢، وإن من واجبنا أن نقول عن هذه الوثائق، وعن رسائل ميّ لأمين الريحاني التي نشرها الأستاذ البرت الريحاني في كتاب «الريحاني ومعاصروه»، وعما نشره الدكتور جميل جبر من رسائلها إلى معاصريها في كتابه «رسائل مي»، وعن الرسائل المتبادلة بينها وبين عباس محمود العقاد التي نشرها ابن أخيه عامر العقاد في كتابه «غراميات العقاد»، وعما حظينا بالعثور عليه من رسائل مخطوطة يفوق عددها مئتي رسالة تبادلتها ميّ مع أدباء عرب ومستشرقين غربيين، وعما ظهر في مختلف الصحف العربية والمجلات من رسائل ميّ، من واجبنا أن نقول: هذه الوثائق هي شهادات بعلوّ شأن ميّ، وصلابة إيمانها، ورفعة شمائلها، تشرّفها أخلاقياً وأدبياً وإنسانياً لخلوّ مضامينها مما يمسّها بسوء أو يشينها!

وما دمنا نتحدث عن رسائل ميّ ينبغي أن نسترعي انتباه القراء والباحثين إلى خطأٍ كبير ورد في أبحاث وكتب الذين تناولوا حياة ميّ ورسائلها عندما ذكروا كتاباً لمادلين أرقش[1] نُشر في لبنان سنة ١٩٤٠ بعنوان: «رسائل ميّ» ونسبوه إلى ميّ زيادة... إن هذا الكتاب هو مجموعة رسائل اجتماعية

(١) مادلين أرقش كاتبة لبنانية لها عدةمؤلفات منها: «أختكم فانصفوها»، و«الأب واللغة» و«رسائل ميّ» وهي رسائل من أم لابنتها، ورواية عنوانها «منى» و«في رحاب الهيكل». وغيرها مما لم نطلع عليه.

وجهتها المؤلفة إلى ابنتها «ميّ» لا تمتّ بأية صلة إلى النابغة ميّ، ولو لم تكن الأديبة وداد سكاكيني من الذين عزوا رسائل مادلين أرقش إلى ميّ في كتابها عنها: «ميّ زيادة في حياتها وآثارها» ـ ص: ١٦٨، لما أتينا بهذا التنبيه. وقد أشارت السيدة إملي فارس إبراهيم إلى هذا الخطأ الكبير في كتابها «الحركة النسائية اللبنانية» فقالت: (إن «رسائل ميّ» لمادلين أرقش هو أثر أدبي يحمل اسم ميّ، من غير أن تكون له أية علاقة بالكاتبة: «ميّ زيادة»)(١). ومع أن مجموعة رسائل ميّ إلى جبران خليل جبران مازالت بكاملها مطوية في ضمير الغيب فإن ما تناهى إلينا منها آية في رقة الشعور، وجمال البيان، وخير من وصفها هو جبران نفسه عندما قال لها، في إحدى رسائله المخطوطة المؤرخة في ١١ ـ ٦ ـ ١٩١٩.

(ما أجمل رسائلك يا ميّ وما أشهاها فهي كنهرٍ من الرحيق يتدفّق من الأعالي، ويسير مترنماً في وادي أحلامي، بل هي كقيثارة أرفيوس تقـرّب البعيد، وتُبعد القريب، وتحوّل بارتعاشاتها السحرية الحجـارة إلى شعلاتٍ متقدة، والأغصان اليابسة إلى أجنحةٍ مضطربة!)(٢).

وهنالك رسائل أخرى لميّ ضاعت بين مصر والعراق كانت الأديبـة السيدة جميلة العلايلي قد تلقتها منها وعمدت إلى نشرها ضمن دراسة أعدتها بعنوان «كاتبة الشرق الكبيرة ميّ». فقد قرأنا رسالةً مفتوحة من السيـدة العلايلي نشرتها مجلة «الأديب»، في أحد أعدادهـا الصادرة سنـة ١٩٧٤، مفادها أنها أرسلت دراستها وخطابات ميّ إلى الأديب الشاعر هلال ناجي لكي ينشرها في بغداد، بواسطة الأديب وحيد الدين بهاء الدين، فلم تتلق علماً بوصولها، بعد طول انتظار. إننا ندرك من هذه الرسالة المفتوحة قلق الأديبة العلايلي على تلك المخطوطات الثمينة إذ ختمت رسالتها مخاطبةً السيد

---

(١) الحركة النسائية اللبنانية ـ املي فارس ابراهيم ـ ص ١١٥.

(٢) الشعلة الزرقاء ـ سلمى الحفار الكزبري وسهيل بديع بشروئي ـ ص: ٤٢ من الطبعة الثانية.

بهاءالدين بهذه العبارات: (وحتى الآن لم تصلني الدراسة ورسائلها التي أعتزّ بها لأنها تتصل بصباي الباكر، وعلاقتي الخاصة بميّ. فرجائي التفضل بإرسالها مسجلةً إلى عنواني في جامعة عين شمس بالقاهرة، وهو معروف لديك).

أما ما نوّه به الأستاذ العقاد عن خشيته من أن تكون ميّ أحرقت رسائلها فإن لدينا أدلّة على أنها لم تحرق شيئاً منها، وذلك لعثورنا على عددٍ كبير منها لدى أقربائها في مصر وفي لبنان، وعدد آخر عند معاصريها الذين كانت تراسلهم، أو عند ذويهم الذين تكرموا بإعطائنا ما حفظوه منها، وهم الأستاذين إميل زيدان، وسمير خليل الخوري، وآل الأستاذ جبر ضومط، وآل الجزائري، والأيوبي، وخليل سكر. ولا ريب في أن ميّ ردّت رسائل بعض أصدقائها إليهم، في أواخر حياتها، لتسترد منهم خطاباتها إليهم، كما قال الأستاذ عباس محمود العقاد، وذلك بدليل وجود جزءٍ كبير من رسائلها إليهم بين أوراقها الشخصية بعد وفاتها. أما ما تبقى من رسائلها المخطوطة، وهو كثير فعسى أن يظهر في يومٍ من الأيام لأهميته في دراسة أدبها وعصرها. أولم تقل للأستاذ إميل زيدان: «إن لمخطوطات الموتى ثمناً لا يُقدّر؟» يكفي إذن أن نحكم على تقديرها الكبير لأية رسالة كتبتها أو تلقتها من هذه العبارة التي وردت في إحدى رسائلها إلى صاحب الهلال في سنة ١٩٢٢[١]، وما من شك في أن شعور الباحث أمام مخطوطة يعثر عليها بقلم كاتبٍ معروف هو مزيج من التهيّب والخشوع، وأن أية وثيقة من هذا النوع تعتبر أمانة في عنقه، يحتّم عليه الواجب أن يسلّمها (لأصحاب الحق الأخير فيها، وهم قراء الآداب ومحبو الفنون)[٢] كما قال الأستاذ عباس محمود العقاد. ومن هذا الرأي السديد للعقاد ننطلق إلى القول بأن تزوير رسائل الأدباء بعد موتهم جرم لا

---

(١) مي زيادة واعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: (١٩١).

(٢) رجال عرفتهم ـ عباس محمود العقاد ـ ص: ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

يغتفر وعمل يمجّه الضمير، واستهتار بالتراث بل جرم بحقهم وحق التاريخ. نقول هذا لأن مما يؤسف له حقاً ظهور رسائل مزورة، وأخرى محرّفة نُشرت لمي وجبران، في بعض الجرائد والمجلات، وحتى في بعض الكتب التي صدرت بعد وفاة هذين الأديبين الكبيرين. ومن غريب الاتفاق أن يَرِدَ في رسالة الزعيم فارس الخوري إلى ميّ المؤرخة في ٧ ـ ٧ ـ ١٩٣٩ تحذير من الاستهانة برسائل ميّ حيث قال: (وإنما رسائلك جوهرة غالية، وعلق ثمين، ندرت الأيدي التي تؤتمن على مثلها!)[١].

واليوم، وقد أضحى عدد كبير من رسائل ميّ إلى معاصريها ورسائلهم إليها في متناول أيدينا، نستطيع أن نكتشف فيها فنّها في الكتابة، وأن نقف على علوّ مكانتها في نفوس سائر الذين اتصلت بهم واتصلوا بها عبر المراسلة من عرب وأجانب. ومع أن تلك المكانة الرفيعة ليست خافية على أحد فإننا نكتشف إعجاب معاصريها بشخصيتها ونبوغها، من مختلف الأعمار والطبقات والبلاد، وإطلاقهم ألقاباً عظيمة عليها: كان وليّ الدين يكن يدعوها في رسائله الرائعة: «ملكة دولة الإلهام»، وخليل مطران «فريدة العصر»، وأنطون الجميّل: «النابغة ميّ» وشبلي ملاط: «إيزيس الساحرة»، ويعقوب صروف: «أميرة الكتاب» و «آية البيان»، وجبر ضومط: «ملكة البلاغة»، والشيخ مصطفى عبد الرازق: «أميرة النهضة النسوية في الشرق»، ومصطفى صادق الرافعي: «سيدة القلم العربي في التاريخ كله»، والأب أنسطاس الكرملي: «حلية الزمان»، والأمير شكيب أرسلان: «نادرة الدهر». وما أجمل وصف العالم الشيخ مصطفى عبد الرازق لرسالة جاءته من ميّ، إذ كتب إليها ما يلي:

(...وقد كنت هيوباً إذ أسعى لإلقاء أول درسٍ من دروسي في الجامعة المصرية فيرسل الله إليّ كتابك مدداً روحياً من تلك الفيوضات

(١) ميّ زيادة واعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٩٥.

القدسية التي تتنزّل بها ملائكة الرحمة، فتملأ النفس إيماناً ونوراً!)[1]

كما اعترف الأستاذ أحمد حسن الزيات بفضلها الكبير على النهضة الأدبية، وقال لها، في أولى رسائله إليها المؤرخة في ١٦ ـ ١ ـ ١٩٣٥:

(أستاذتي الجليلة، اغفري لي هذا الفضول فإني حريص كل الحرص على توثيق العلاقة بينك وبين «الرسالة». وفي اعتقادي أن الكاتبة الوحيدة التي أسفرت عنها النهضة الحديثة يريد لها النبوغ الموهوب أن تؤدي رسالتها إلى أخواتها وإخوتها، وإن كانت في الواقع قد أدّت منها جزءاً كبيراً، له في بنائنا الأدبي أثر ظاهر)[2]. أما الأديب الأستاذ مصطفى صادق الرافعي فإن رسائله إليها تنمّ عن إعجابه الشديد بها، وحتى عن عشقه الروحي العفّ لها، ولا ريب في أنها كانت ملهمته في روائعه: «أوراق الورد»، و«رسائل الأحزان»، و«السحاب الأحمر» و«حديث القمر»، وأن حبه لها كان من طرفٍ واحد، كما يستشفّ من رسائله اليها التي نشرناها في كتابنا: «ميّ زيادة وأعلام عصرها».

لهذا كله ينبغي أن نشير إلى أن إجماع هؤلاء على الإشادة بعلمها وأدبها، وخلقها الرفيع، وتضحياتها المستديمة لإعلاء كلمة الحق، وفضلها في الحركة الفكرية والقومية، لا يمكن أن يكون على سبيل الإطراء والمديح، إنما هو اعتراف منهم جميعاً بنبوغها وإسهامها في النهضة العربية الحديثة. وبقدر ما كانت ميّ مخلصة لرسالتها الأدبية والإجتماعية، ووفية لأصدقائها، وبارةً بأساتذتها وأمتها ووطنها ولغتها، كان جزاؤها من الإخلاص والوفاء والبرّ عظيماً في حياتها، إذا استثنينا مدة غيابها عن مصر ما بين ١٩٣٦ و ١٩٣٩ عندما ألّمت بها المحنة المروّعة في لبنان.

أشارت ميّ في رسالة وجهتها إلى الدكتور فؤاد صروف في ٢٤ ـ ١٠ ـ

---

(١) ميّ زيادة واعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣٤٢.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص ٤٤٢.

١٩٣٤ إلى أمر يسترعي الانتباه حقاً، ويدلّ على حصافة رأيها في موضوعات الأدب والسياسة، فقد أرسل إليها محاضرةً أعدّها عن فلسطين طالباً رأيها فيها، وهذا ما ورد في خطابها إليه:

(... أما موضوع محاضرتك لفلسطين فهو عسير، ولكن ما أجمله! ولست أرى من هو أولى بمعالجته من «صروف الصغير»! ولطيف منك أن ترضى بي جمهوراً «تمهيدياً» قبل الجمهور بحقٍ وحقيق! ولك أن تعيّن يوم المحاضرة في دورها التمهيدي، على أن نتفق على ذلك الموعد بالتلفون، في الأسبوع القادم)[١].

ويوم قدّم الدكتور يعقوب صروف كتابها عن باحثة البادية وضعها في تلك المقدمة في صفّ الجاحظ، والصابي، وهوجو ولامارتين، وأوصاها بنشر آثاره بعد موته، كما أوصى أولاده بإطاعة حكمها، في رسالة من رسائله إليها سنة ١٩١٨. وفي سنة ١٩٢٢ طلب إليها أن تنشر كل ما كتبت إليه من رسائل قائلاً: (... وإذا تيسّر لكِ أن تنشري رسائلك إليّ بعد موتي فسأكبر في عيون الناس، فوق قدري. والذي يثلج صدري في رسائلك هو بلاغتها، وما فيها من دلائل الحب والاخلاص)[٢]. وفي سنة ١٩٢٥، قبل موته بعامين، كتب إليها صاحب المقتطف ما يلي:

(جلست أتصفح مكاتيبك، ولا سيما ما كتبته منها سنة ١٩١٨ فرأيت فيها روحك وعقلك، ولعلها أبلغ ما قرأته من قلمك أو قلم غيرك. والمكاتيب كلها محفوظة عندي، وسأضعها في درج وأكتب عليها أنها لك لتنشريها بعد موتي، إذا أردت)[٣].

ومعروف أن ميّ لم تنشر شيئاً منها في حياتها، واننا وُفقنا بالعثور عليها

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص ٤٣٦.
(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص ١٩٩.
(٣) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص ٢٧٩.

ونشرها سنة ١٩٨٢ في كتابنا «ميّ زيادة واعلام عصرها». ومعروف أيضاً أنها تولّت تنظيم الاحتفال باليوبيل الذهبي للمقتطف مع لجنة من خيرة الأدباء، وقد أصدرت المقتطف كتاباً ذهبياً ضمّ سائر ما ألقي في الحفلة من خطب وقصائد، فأرسل إليها الدكتور يعقوب صروف نسخةً ممتازةً، اعترافاً بالجميل، سنة ١٩٢٦ وكلمةً هذا نصها:

(عزيزتي الامبراطورة: حضر أعضاء اللجنة إلى بيتي ووزّعنا عليهم الكتاب الذهبي مجلداً تجليداً حسناً، وسنوزّعه على الباقين منهم. كما جلّدنا ثلاث نسخٍ تجليداً مذهباً: واحدةً لكِ، وواحدة لرفعت باشا، وواحدة لتقدم إلى جلالة الملك، وعليها الشعار الملكي)[1].

وكان من شعائر التقدير لنبوغها خطاب تلقته من مؤرخ مصر الأستاذ عبد الرحمن الرافعي سنة ١٩٣١، جاء فيه ما يلي:

(تلقيت بيد الشكر دعوتك الكريمة لحضور اجتماع اخوان الثقافة الفرنسية الذي سيزداد بمحاضرتك النفيسة عن الأديبة الشاعرة عائشة عصمت تيمور. بودّي أن أحضر الإجتماع لأشهد نور ذكائك الساطع، وسحر بيانك الرائع، ولكن حال دون أمنيتي أعذار طارئة منعتني عن الحضور، فأرجو قبول معذرتي، مع جزيل الشكر، وخالص الإعجاب)[2].

هذا عن صلات ميّ بالكتاب العرب، أما صلاتها بالمستشرقين في عصرها، عبر المراسلة في أكثر الأحيان، فلا بدّ من وضع النقاط على الحروف لتوضيحها، وتفسير بواعثها ومراميها، وذلك ردّاً على اتهامات خطيرة صدرت في كتابٍ طبع في دمشق سنة ١٩٨٣ بعنوان: «أحاديث عن ميّ زيادة وأسرار غير متداولة من حياتها»، للكاتب حسين عمر حمادة. ومما يدعو للعجب في

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص: ٣٣٥.
(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص: ٣٨٦.

هذا الكتاب ارتياب الكاتب (بصلات ميّ مع كبار المستشرقين أمثال جوزيف شاخت، ومجاهرته باتصالاتها مع «المحافل الماسونية» عبر علاقتها وأبيها مع أدريس راغب الذي كان يملك «المحروسة»، واتهامها أيضاً (بالتعاون مع الهيئات القنصلية والعلميـة الأجنبية المتـواجدة عـلى أرض مصر العـربية، والمرتبطة بمراكز مشبوهة للقيادة والتوجيه والتمويل)[1]. هكذا قال حسين عمر حماده، بكل بساطة، لغـرس بذور التشكيـك في عروبـة ميّ، ووطنيتها، وخدماتها للنهضة الأدبية والقومية طوال حياتها الناصعة والمشرّفة!!! وفـوق ذلك طاب له أن يعزو (مكانتها الرفيعة في دنيا الأدب، وتقدير المحافـل الثقافية لها في أنحاء الوطن العربي إلى مساندة الهياكل المـاسونيـة لها!)[2] والأعجب من كل ما تقدم أنه طرح أسئلةً خطيرة عن خيانة ميّ، علماً بأن الاتصالات بالغرب المشبوهة خيانة عظمى، حيث قال في تعليقه على رسائلها إلى المستشرقين ورسائلهم إليها التي نشرناها في كتابنا «ميّ زيادة واعـلام عصرها»: (هذه الرسائل تكشف حقيقة بعض الاتصالات واللقاءات والقضايا الخاصة والعامة التي شُغلت بها ميّ زيادة. إضافة لاهتمامات المعجبين بها، وتهافت المحبين عليها. وميّ في شغلٍ عنهم للقضية التي جَنّدت لها كل حياتها المستقرة الواعية!)[3] ونحمد الله أن هذه الرسائل أضحت موفورة في المكتبات العربية، يستطيع القراء أن يطالعوها ويحكموا بأنفسهم، إذ ليس فيها ما يشير إطلاقاً إلى تورّط ميّ بصلاتٍ مشبوهة، ومؤامرات كانت تحاك ضدّ الأمة العربية... إن هذه الرسائل التي اعتبرها الكاتب: (دليلاً علمياً وإثباتاً مادياً)[4] وحاول بواسطته أن يسلّط شعاعاً على الجوانب الغامضة من حياتها «لعلّه»، على حدّ تعبيره: (يؤكد نهجاً انتهجناه في شكنا وريبتنا بالضجيج

---

(١) و(٢) أحاديث عن ميّ زيادة وأسرار غير متداولة من حياتها ـ حسين عمر حمادة ـ ص: ٩ ـ ١٠ ـ ١١.

(٣) أحاديث عن ميّ زيادة وأسرار غير متداولة من حياتها ـ حسين عمر حمادة ـ ص: ١٤.

(٤) أحاديث عن ميّ زيادة وأسرار غير متداولة من حياتها ـ حسين عمر حمادة ـ ص: ١٩.

الـذي يحيط أحيانـاً ببعض الشخصيـات والأسـماء لتصـديـرهـا وابـرازهـا واشهارها)[1] هي الدليل القاطع على براءة ميّ مما نسبه إليها، تجنياً عليها، واستهانةً بشخصيتها! لقد أتحفنا بكتابٍ من الحجم الكبير، يقع في ٣٥٥ صفحة، لم يكتب منها سوى ثلاث عشرة صفحةٍ فقط خصّها للمقدمة المليئة بالتساؤلات والاتهامات، والحطّ من قدر النابغة ميّ... أما ما تبقى من صفحات هذا الكتاب فنقل مبوّب لما قرأناه في مؤلفات الذين كتبوا عن ميّ أمثـال الشناوي، وعبـد الغني حسن، ووداد سكـاكيني، وفـاروق سعـد، وطاهر الطناحي، وروز غريب، وأمين الريحاني، ونشر مكرّر لبعض مقالات ميّ وخطبها في حوالى مئة صفحة!!! ثم أضاف إلى هذه النماذج التي اختارها حديثاً للأديبة روز غريّب أجراه معها الأستاذ جهاد فاضل، ونشره في مجلة «الحوادث» سنة ١٩٧٩. وبعد أن نشر في آخر الكتاب ما سماه: «كشاف مؤلفات ميّ»، وأورد فيه خطأً كتاب مادلين أرقش: «رسائل ميّ» الذي هو رسائل خاصة من أمٍ لابنتها، ليس لمي زيادة فيها أية صلة إلا الإسم، تكرّم، ولا ندري لماذا، ونشر فهرس كتابنا: «ميّ زيادة وأعلام عصرهـا» بكامله، في تسع صفحات كاملة!! وأضاف إليه صوراً عن بعض رسائل معاصريها إليها، من مستشرقين وعرب، نقلاً عن مخطوطاتها الواردة في كتابنا أيضاً!!

أما المغالطات الواردة في مقدمة هذا الكتـاب الفريد من نوعه، فإنها كثيرة نكتفي بالإشارة إلى بعضها، ومنها قوله متسائلاً: (لماذا غطّى الاهتمام الخاص الذي أبرز ميّ في اطارٍ عريض وكبير على نشاط رائدات كعائشة التيمورية، ووردة اليازجي، وباحثة البادية، وزينب فواز، ومريانا مراش، وماري عجمي وعفيفة صعب، ولبيبة هاشم، وجوليا طعمة، وسلمى صائغ،

---

(١) أحاديث عن ميّ وأسرار غير متداولة من حياتها ـ حسين عمر حمادة ـ ص: ١٩ و (٢٠).

والشيخة فاطمة الأزهرية، ونبوية موسى؟)[1] فنردّ عليه بأن ميّ فاقتهن جميعاً بعلمها وثقافتها وأدبها ونبوغها، واستمرارها في تنشيط الحركة الأدبية والقومية والفنية في دنيا العرب، وبأنها اعترفت لهن بفضل الريادة، وخلّدت آثار عائشة التيمورية، ووردة اليازجية، وباحثة البادية، بالكتب القيّمة التي نشرتها عنهن. ومن تلك المغالطات قوله، في معرض حديثه عن المناقشة التي دارت بين خليل مطران وانطون الجميل ولطفي السيّد في موضوع نشر رسائل ميّ للطفي السيد وغيرها، بعد وفاتها: (وعلى أثر هذه المناقشة استقر رأي الجميّل ومطران على ارجاء نشر الرسائل إلى وقتٍ آخر، وأسلما الرسائل لسيدةٍ مجهولة من مربيات ميّ. ومن يدري لعل السيدة قد وضعت الرسائل مع جثمان ميّ أو لعلها أحرقتها). فمتى كان لميّ مربية أو مربيات؟ وكيف يجوز لكاتب أو باحثٍ ينشر: «أسراراً غير متداولة» عن كاتب آخر أن يجهل عنه أشياءً واقعية في حياته، وان ينقل ما ورد خطأً مما سبق ونُشر عنه؟ فإذا كان كامل الشناوي قد كتب هذه العبارة، التي لا أساس لها من الصحة، في كتابه: «الذين أحبوا ميّ»، فهل يجوز لنا أن ننقلها عنه، بعد سنواتٍ عديدة أثبتت خطأها، وأن نثبتها، ونحن ندّعي الكشف عن حقائق مجهولة، والقيام ببحثٍ رصين جديد؟ ناهيك عن التناقض في أقواله عن (مشاعر لطفي السيد المشبوبة بالهوى والهيام والغرام المدوّن بيده ورسائله إلى ميّ)[2] ذلك التناقض الظاهر في قول الشناوي نفسه، الذي نقله الكاتب في ص ٢٧ من كتابه، والذي ينفي، في الوقت ذاته غرام لطفي السيد وهيامه بميّ حيث قال: (ولكنه لم يعشق ميّ، ولم تعشقه ميّ، إنما كان يحب جوّها المشبع بالذكاء والثقافة وحدهما!).

ومن حسن الحظ أنه يوجد كتّاب وصحفيون واعون في يومنا هذا،

---

(١) أحاديث عن ميّ وأسرار غير متداولة من حياتها ـ حسين عمر حمادة ـ ص: ٩.

(٢) أحاديث عن ميّ زيادة وأسرار غير متداولة من حياتها ـ حسين عمر حمادة ـ ص: (٩).

أمثال الآنسة «عفراء ميهوب» والسيد «علي القيم» اللذين تناولا بالنقد كتاب حسين عمر حمادة في مقالتين نُشرتا في جريدة تشرين بدمشق، فقد جاء في مقالة الآنسة عفراء ميهوب ما يلي: (إن ميّ لم تنجُ من النيل من شخصيتها، وهذا هو شأن كل من يسبق عصره. لقد ظلمت نفسها، وظلمها الناس، وطاردتها الأقاويل والإشاعات، حتى اتهمها البعض بالجنون والخلاعة بعد مماتها. إن ميّ امرأة عظيمة الذكاء، بالغة الصدق والحساسية والوعي، كما أنها أضحت، حتى بعد موتها، قادرة على جرف الأحقاد لأن البقاء للأصلح أولاً وآخراً!)[1] هذا بعض ما جاء في مقالة الكاتبة عفراء بعد أن أعربت عن استنكارها هتك أسرارٍ لا تمتّ للواقع والمنطق بصلة. أما الكاتب السيد علي القيّم فقد دافع عن ميّ البارة بلغتها ووطنها وقومها في مقالة قيمة عنوانها: «وقفة مع جديد حسين عمر حمادة»، ودحض افتراءاته لها بسبب الرسائل التي كانت بينها وبين كبار المستشرقين ثم قال: (...رغم أن هذه الدلائل لا ترقى إلى الحجة القاطعة، خاصة وأن ميّ كما هو معروف، كانت على علاقات متشعّبة وكثيرة مع رواد الأدب والفن والفكر في مصر وفي غيرها...)[2] ورداً على تأكيد المؤلف لحبّ ميّ للعقاد فقد استشهد الأستاذ القيم بقول العقاد نفسه عن ميّ وهو (أن جمالها كالحصن الذي يحيط به الخندق).

وكان أغرب ما ورد في مقدمة حسين عمر حمادة لكتابه قوله إن ما أصاب ميّ من اضطراب نفسي في أواخر حياتها ينبىء بشيءٍ مما كان بينها وبين ادريس راغب... وإن الهياكل الماسونية التي كانت وراءها هي التي جعلت من ماري زيادة «ميّاً»! وإن «الرسائل بينها وبين بعض المؤسسات والهيئات الأميركية تواصلت حول الحجاب وحول وضع المرأة العربية بشكل عام»![3].

---

(١) جريدة تشرين ـ عدد ٢ ـ ٥ ـ ١٩٨٣ ـ دمشق.

(٢) جريدة تشرين ـ عدد ٤ ـ ٦ ـ ١٩٨٣ ـ دمشق.

(٣) أحاديث عن ميّ وأسرار غير متداولة عن حياتها ـ حسين عمر حمادة ـ ص: ٩ و١١ و١٢.

ربما نكون قد أطلنا الحديث في الردّ على اتهامات حسين عمر حمادة الخطيرة لميّ، ولكن الموضوع خطير جداً، لا يمكن السكوت عنه، لا دفاعاً عن ميّ التي منعها الموت من الدفاع عن نفسها فحسب، وإنما دفاعاً عن كرامة الشخصيات الكبيرة في أدبنا وتاريخنا، وعن الحقيقة نفسها بما يمليه الضمير والواجب.

فلننظر الآن بمضمون رسائل المستشرقين إليها من أسبان وإيطاليين، وفرنسيين وانكليز وألمان ما بين ١٩١٨ و ١٩٣٤، الذين عرفت بعضهم في القاهرة حينما أموها للتدريس في جامعتها أو للقيام بأبحاث بدعوة من مؤسساتها العلمية، وتعرّفت ببعضهم الآخر عبر المراسلة. كان منهم المستشرق الاسباني الذي درّس الفلسفة الإغريقية والرومانية في الجامعة المصرية إبان الحرب العالمية الأولى وتتلمذت ميّ عليه وهو: الكونت دي غلارزا ـ «Conde de Galarza» ـ صاحب كتاب «محاورات في الحكمة»، والأستاذ «كارلو الفونسو نللينو Carlo Alfonso Nallino»[1]، صاحب المؤلفات الشهيرة عن شعر ابن الفارض، و«التصوف الإسلامي»، و«الفلسفة الشرقية»، والأستاذ «ميجلانجلو غويدي ـ Migelangelo Guidi»[2] صاحب: «الإستشراق» و«تاريخ الثقافة»، وكتاب «الزيدية وشرح المعتزلة للقرآن»، والأستاذ «جوزيف شاخت ـ Joseph Schacht»[3]، الذي وضع «أصول الشريعة الإسلامية» و«المدخل إلى الشرع الإسلامي» و«الطحاوي أبو جعفر

---

(١) كارلو الفونسو نللينو ـ ١٨٧٢ ـ ١٩٣٨ ـ وقد كان رئيساً لمعهد الدراسات الشرقية في روما.

(٢) ميجلانجلو غويدي ـ ١٨٦٦ ـ ١٩٤٦ ـ وقد درس آداب اللغة العربية في جامعة روما.

(٣) جوزيف شاخت ـ ١٩٠٢ ـ ١٩٤٦ ـ مستشرق، بحاثة، القى محاضرات في الجامعة المصرية.

أحمد بن محمد»، فأعجبوا بها وراسلوها في موضوعات علمية بحتة إن دلّت على شيء فهي تدل على تقديرهم لثقافتها وأدبها. وهنا ينبغي أن نشير إلى أن «جوزيف شاخت» لم يعرفها قبل سنة ١٩٢٩، وأنه احتكم إليها في خلافه مع المستشرق الألماني «فيشر» الذي عُرف بعدائه لزملائه، وقال لها بوضوح: (وإذا كان له بعض التأثير في مصر، بعد هذا الذي حدث في أوروبا، وإذا كانت صداقته شرطاً لعودتي إلى مصر فلن أعود إليها ولن أندم. أما إذا صح أن الحق هو المنتصر، وأن الحقد باطل إزاء الإخلاص في خدمة العلم بكل نزاهة فإني متأكد من النجاح ومن أن جميع مخططات خصمي ستكون في صالحي في مصر، كما كانت في أوروبا)[١].

ولا بد من الاشارة إلى أن بعض هؤلاء العلماء في الاستشراق كانوا أعضاء مراسلين في المجمع العلمي الملكي المصري منذ تأسيسه في سنة ١٩٣٢ وأنهم كانوا يقصدون التعرف إلى ميّ عندما يؤمون القاهرة، ويُدعون أحياناً لحضور ندوتها الأسبوعية، ويراسلونها بلغاتهم فتردّ عليهم بغية تعريف الغرب بالشرق وتراثه ونهضته، أما المستشرقون المرموقون أمثال «ماسينيون»، و«جيب» و«فولز» فقد عرفوها وعرفتهم عبر المراسلة إذ كانوا يقرأون كتبها، ويهدون إليها مؤلفاتهم، ويعتزون بصداقتها لأنها كانت فريدة عصرها، ونابغة بلادها، وصلة الوصل بين الشرق والغرب عن طريق مقالاتها باللغات الأجنبية التي كانت تُنشر في الغرب، ولا سيما مقالاتها باللغة الإيطالية في مجلة: «الشرق الحديث Oriente Medio» ـ ولما كانت ميّ تتابع أعمال كبار المستشرقين الأوروبيين، فقد كتب إليها سكرتير لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية في ٢٢ ـ ٧ ـ ١٩٣٣ ما يلي: (حضرة النابغة الآنسة ميّ: بعد الاحترام تعلمون حضرتكم أن هيئة من كبار المستشرقين تقوم منذ ربع قرن بتأليف دائرة معارف اسلامية كبرى تجمع خلاصة أبحاثهم في مختلف الشؤون

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٢٢ ـ ٤٢٥.

الإسلامية من تأريخ وأدب وفلسفة وتشريع ودين الخ... وقد كتبت هذه الدائرة بأمهات اللغات الأوروبية الانجليزية والفرنسية والألمانية: فتكونت لجنة الآن من خريجي الجامعة المصرية لترجمة هذه الدائرة الكبرى واخراجها في أجزاء دورية. بدأت هذه اللجنة أعمالها منذ شهر يناير الماضي، وسيظهر العدد الأول منها في شهر اكتوبر القادم، لذلك يسرّ اللجنة كثيراً أن تعلم رأي حضرتكم في أهمية نقل هذه الدائرة إلى اللغة العربية. فنرجو أن تتكرموا بموافاتنا برأيكم السديد في هذا الموضوع، وتفضلوا بقبول وافر التحية والاحترام

سكرتير اللجنة ـ أحمد الشنتناوي)[1].

أما رسائل ميّ إلى هؤلاء المستشرقين فلم نوفق بالحظوة بها، ولكننا نأمل بالحصول على رسائلها إلى الأستاذ كارلو الفونسو نللينو، ورسائلها إلى شقيقته آنا ماريا نللينو، بفضل مسعى المستشرق الإيطالي المعاصر الدكتور «فرنشيسكو غابرييللي ـ Francesco Gabrieli» وهو تلميذ نللينو، ومدير معهد الدراسات الشرقية في روما حالياً. فقد زرناه في روما، وعلمنا منه أن أوراق نللينو ومكتبته، وكذلك أوراق ومكتبة شقيقته آنا ماريا قد أُهديت، بعد موتها، إلى المعهد الشرقي في روما، ولكنها لم تُفرز بعد.

إن ما عثرنا عليه بين أوراق ميّ في مصر ثلاثين رسالة مخطوطة وجّهها إليها هؤلاء المستشرقون، قليلٌ منها باللغة العربية، وأكثرها باللغات الإيطالية والفرنسية والإنكليزية، كما عثرنا على ثلاث رسائل كتبها إليها باللغة الإيطالية كاتب وصحفي معروف يدعى: فالنتينو بيكولي ـ Valentino Piccoli، فاطّلعنا بفضلها على ناحيةٍ هامة من نواحي نشاطها الأدبي، لم تكن معروفة من قبل. أما المستشرق الإيطالي «ايتوري روسّي ـ Ettore Rossi»[2] فقد كان يراسلها

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤١٦.

(٢) إيتوري روسي ـ ١٨٩٤ ـ ١٩٥٥.

أحياناً باللغة العربية، وقد اشتهر باتقانها، واتقان اللغتين الفارسية والتركية، وبمؤلفات قيمة وضعها كانت منها الكتب التالية: («اللغة العربية ولهجاتها وقواعدها»، و«قواعد اللغة الفارسية»، و«الدليل الى اللغة التركية»، و«فهرس المخطوطات الفارسية في مكتبة الفاتيكان» و«طرابلس تحت حكم الإسلام وفرسان مالطة» الذي نشرته مؤسسة الطباعة الليبية سنة ١٩٦٩. كان ايتوري روسّي، كسائر المستشرقين الذين اتصلوا بها، يقرأون مؤلفاتها، ويعرّفون بها قراء بلادهم. ولا بد من الاشارة إلى أن أستاذها في الجامعة المصرية، الكونت دي غلاررزا كان معجباً بقدرتها على الخوض في الأبحاث الفلسفية معه مما حدا به إلى أن يوقع رسائله إليها على هذا النحو: «أخوك في الفلسفة ـ غلاررزا»، وهذه إحدى رسائله إليها الطريفة المؤرخة في ١٣ ـ ٧ ـ ١٩١٩:

(عزيزتي الآنسة إيزيس
أرى بارتياح، إن لم أقل بسرور، أن فكرك لا يفارق أجواء الفلسفة، وآمل أن تتألّقي باستمرار تألق الآلهة «ايزيس» سمّيتك. انها لفكرة طيبة تلك التي جعلتك تقومين، أنت والدكتور صروف، بالاحتفال بالالهة «مينرفا» إحياءً لذكراها، فهي لا تبارح ذاكرتي أبداً)[1].

ومن رسالة منه سابقة علمنا أن ميّ كانت تتعلم اللغة الروسية... ثم علمنا من رسالة أخرى لاحقة كتبها إليها في ٣٠ ـ ٦ ـ ١٩٢٠ أنها حدثته عن مبادىء الرسل، ومجّدت رسالاتهم السامية، وأتت على ذكر خطورة دور الأمهات في تلقين القيم للأطفال، لذا حدثها عن تضحيات أمه وموتها ويقينه بخلود روحها فقال: (إن نظراتها تتبعني لأني لا أستطيع السير في فلك الحكمة دون أن أجد فيه التفاني الذي كان متمثلاً بهيئتها الإنسانية وملامحها الشخصية. كما أن الحكمة لا تسمح لي بأن أحزن لأن الاتحاد العميق مع ذاتي يمنع ذلك.

(١) ميّ زيادة واعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٨٤.

كنت أتألم كثيراً من كل شيء، قبل بضع سنوات، ولكن الأفكار المولدة للألم زالت نهائياً منذ أن توارى جسدها ليجلو لي روحها، وأسباب وجودها. ومع ذلك أرى أن «هوغو» العظيم كان محقاً في حبه للألم لأن الألم هو الطريق إلى الصليب، والطريق إلى السماء. وإلى اللقاء يا أختي في الفلسفة.

غلارزا)[1]

كما علمنا من رسائله التي كتبها باللغة الفرنسية أنه أقام في القاهرة منذ سنة ١٩١٣، وتولى التدريس في معهد المعلمين العالي فيها، بعد التدريس في الجامعة، وأن وزارة المعارف كلفته بالإشراف على تصنيف ستين ألف مجلّد أهداها أحد الأمراء للوزارة سنة ١٩٢٨. كما حدثها عن كتابين كان يعدهما للنشر الأول عن «افلاطون» والثاني عن «سبينوزا».

هذا عن صلة ميّ بالكونت دي غلارزا، أما صلتها بالمستشرق الإيطالي «ايتوري روسي» فقد بدأت في سنة ١٩٢٤ حيث راسلها بتوصية من صديق له مستشرق يدعى «غريفيني»، وقد طلب إليها في رسالته الأولى أن تتفضل وترسل إليه بعض كتبها، ثم كتب إليها رسالته الثانية من روما باللغة العربية في ٢٨ ـ ٨ ـ ١٩٢٤ يخبرها بوصول الكتب التي تكرّمت بارسالها إليه، ويشكرها ويشكر الأستاذ غريفيني الذي كان واسطة الاتصال بينه وبينها. كما أنه أظهر اهتمامه بما قرأ لها من منشوراتها «الثمينة المعنى، الظريفة البيان» ووعد بتعريف الآداب العربية الجديدة في بلاده[2].

وقد وفى الدكتور «روسّي» بوعده إذ كتب عن ميّ مقالةً مطولة عام ١٩٢٥ عرض فيها نشاطها الأدبي الكبير ومؤلفاتها ونشرها في مجلة: «الشرق الحديث ـ Oriente Moderno» التي تصدر في روما، وكان عنوان مقالته «ميّ،

---

(١) ميّ زيادة واعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٩٤ ـ ٩٥.
(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢٦١.

كاتبة عربية مسيحية شابة»، ثم رجاها أن تعلمه إذا ما جاءت إلى إيطاليا، فتعرّفا شخصياً في صيف تلك السنة إبان زيارتها لها، وصحبها لزيارات معالم روما الأثرية. من رسائله اللاحقة إليها باللغة الإيطالية ندرك أن صداقة متينة تولّدت بينهما، فقد كان يوافيها بأعداد مجلة «الشرق الحديث»، ويطلعها على أعماله ومشاريعه ومتاعبه، ورغبته الكبيرة في المجيء إلى مصر، كما كانت تزوّده ببعض الصحف المصرية، وكانت واسطة التعارف بينه وبين أمين الريحاني. ومما يجدر بالذكر أن إعجابه كان كبيراً بكتابها «باحثة البادية» وبمقالتيها: «نشيد ينابيع روما» و«أين وطني».

أما المستشرق الألماني «ايولد فولز ـ Ewald Falls» فقد كتب إليها من المانيا رسالة في ٣١ ـ ١٢ ـ ١٩٢٥[1] يعرّفها بنفسه، ويُعلمها بأنه كان منقّباً عن الآثار في مدينة «سانت منيا» المصرية القديمة ما بين عام ١٩٠٥ و١٩٠٨، ويستأذن منها في ترجمة كتابها «ظلمات وأشعة» إلى اللغة الألمانية. وفي رسالة ثانية بعث إليها بها في ٢٩ ـ ١ ـ ١٩٢٦ كتب ما يلي:

(وصلت كتبك الرائعة، ورسالتك الرقيقة وكأنها شعاع شمسٍ ذهبي في شتائي القاتم. أقدّم لك الشكر الجزيل القلبي على الاثنين معاً، وآمل أن يصلك الآن كتابي «سحر الصحراء» الذي سألحقه بكتبٍ أخرى. أما مؤلفاتك! وكتابك «ظلمات وأشعة» فقد جعلني مأخوذاً بعقلكِ المحلّق، بارك الله بعقلك دائماً، فأنت حقاً شاعرة حديثة، جديرة بتاجٍ ملكي. اسلكي هذا الطريق إلى الأبد، وسيري إلى الأمام! ولسوف تكون أعمالك قبساً من شمس النيل الذهبية التي لا تضاهى، والتي تُسعد الكثيرين)[2].

وأطرى ترجمتها لرواية «فريدريك ماكس مولر» عن الألمانية إلى العربية، ثم طرح عليها بعض الأسئلة عن نشأتها، وأعمالها، وطلب منها كلمة مأثورة

---

(١) ميّ زيادة واعلام عصرها ـ سليم الحفار الكزبري ـ ص: ٣١٧.
(٢) ميّ زيادة واعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

«تعبر عن نظرتها إلى الحياة والأرض، والعالم والله» ليكتب مقالاً طويلاً عنها، وينشره في إحدى المجلات الألمانية الكبرى.

لقد كرمت ميّ المستشرق الإيطالي كارلو الفونسو نللينو في بيتها بالقاهرة عندما زارها مع أخته المستشرقة آنا ماريا، كما كرّماها في روما أثناء زيارتها الثانية إليها عام ١٩٢٩، وطلب منها أن تكتب مقالاً باللغة الإيطالية لمجلة «الشرق الحديث» فأرسلت بحثاً عن نهضة المرأة المصرية نُشر في عام ١٩٢٩، فاطلع عليه المستشرق الألماني «جوزيف شاخت» وكتب إليها بالعربية من جامعة فريبورغ في ٢٢ ـ ٨ ـ ١٩٢٩ ما يلي:

(أيتها السيدة العزيزة، الشاعرة الشهيرة، الأديبة العليمة، الخطيبة الفصيحة، بعدما رجعت من مصر إلى بلادنا مازلت أذكر تعرّفي بك بكثير من السرور، ومازلت أشكر فضلك فيما أتحتِ لي من أنس المسامرة في بيتك وفي خارجه. وقد تجدّدت تلك الذكرى الطيبة حين اطلعت على مقالتك عن نهضة المرأة المصرية في مجلة «الشرق الحديث ـ Oriente Moderno»، فاهنئك بها، وأرجو أن استمتع بقراءة غيرها قريباً. سوف أسافر في الأيام المقبلة إلى الآستانة وبلاد الشام وفلسطين، ومن المحتمل أن أعرّج على مصر قبل رجوعي إلى أوروبا، فلكِ مني أخلص الاحترام والتحية)[1].

لقد استمرّت المراسلة بين المستشرق جوزيف شاخت وبين ميّ حتى عام ١٩٣٤، وكان كثير التردّد على القاهرة، يلتقي بالدكتور طه حسين، وبأساتذة الجامعة، ويسعى للحصول على كرسيّ للتدريس فيها، بقسم اللغات الشرقية. وقد حصل عليه في ربيع عام ١٩٣٤، فكتب إليها رسالة طويلة في ١٠ ـ ٥ ـ ١٩٣٤، من جامعة «كوزيجز بيرغ، جاء فيها ما يلي: (صديقتي العزيزة، لقد انقطعت أخبارك عني منذ مدة طويلة ولكني أتصوّر أنك في حالة جيدة، مستغرقة في الحياة والنشاط

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣٦٠.

بفضل ما لحظت في الصحف والمجلات المصرية، ووقفت عليه من اسهامك الفعال فيها. أما أنا فقد أمضيت عطلة عيد الفصح في الغابة السوداء، في «باديوايلر»، وتمكنت من تحقيق مخطوط عن الشرع الإسلامي كان البروفسور «بيرغستراسّر» قد تركه بعد وفاته، وآمل أن يصدر هذا الخريف. وعندما رجعت إلى هنا أول أمس لإلقاء الدروس الصيفية مع زملائي دُهشت كثيراً إذ قيل لي: «لقد وصلتنا برقية من وزارة خارجيتنا مفادها أن عميد كلية الآداب في القاهرة طلب من المفوضية الألمانية إبلاغكَ بأن الجامعة المصرية ترغب في كسبك استاذاً فيها لمدة عامين أو ثلاثة أعوام، إذا رغبت بذلك». لقد وافقت مبدئياً، وتريّثت بإعطاء قراري النهائي الذي يتصل بموضوعين: الأول إمكان متابعة نشاطي العلمي جنباً إلى جنب مع المحاضرات، والثاني مسألة التعويض الذي ينبغي ألا يقلّ عما يتقاضاه الأساتذة المطلوبون الآخرون. ولعلّكِ تذكرين أن حديثي مع الدكتور طه حسين عام ١٩٢٩ في هذا الموضوع لم يصل إلى نتيجة)[١].

وعندما توفي والدها، الياس زيادة، تلقت رسالة تعزية من المستشرق المشهور «ميجلا نجلو غويدي» معزّياً في ٢٠ - ١١ - ١٩٢٩ هذا نصّها: (تلقينا، زوجتي وأنا، بألمٍ شديد نبأ وفاة والدك، وإننا لنقدم أصدق التعازي إليك وللسيدة والدتك. لم يحصل لي شرف التعرّف به شخصياً ولكنني سمعت الكثير عن اسهامه في الحركة الصحفية والأدبية العربية. كما قرأت كلمة أسرة تحرير «الاهرام» التي كتبها أصدقاء لك يجلونه ويقدرونه، فليكن في ذلك عزاء لك في هذه الساعة الحزينة، ونرجو أن تضمّي صوتنا إلى أصوات محبيك الكثيرين فإنه لا يقلّ عنها صدقاً، ولا ودّاً.

إني مازلت ممتناً جداً لمودّتك وحفاوتك إذ أقمتِ عليهما الدليل لدى زيارتي الأخيرة للقاهرة)[٢].

---

(١) ميّ زيادة واعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري ص: ٤٢٨.
(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص: ٣٦٨.

وبعد وفاة أمها تلقت رسائل متعددة من أولئك المستشرقين تدلّ على حبهم لها، وخشيتهم عليها من وطأة الحزن، ننقل منها رسالة المستشرق البريطاني الكبير الأستاذ «السيرهاميلتون ألكسندر روسكين جيب»[1] المؤرخة في ٧ - ٥ - ١٩٣٢:

(عزيزتي الآنسة ميّ
أحزنني جداً أن أعلم من رسالتك التي وصلتني للتوّ بفقدان والدتك. فالكلمات والجمل العادية هي كل ما نستطيع قوله، ولكن كلنا يعلم المقدار اليسير من العزاء الذي يكمن فيها في مثل هذه الحالات.

سأغادر البلد لبضعة أيام، وعليه فالجواب الكامل عن سؤالك سيتأخّر، وإنني استميحك العذر، ولكني أستطيع القول فوراً إنه يوجد مواد تُدرّس في لندن في الصيف، في المواضيع التي أشرتِ إليها.

هل من حاجةٍ إلى القول إنه يسعدنا كثيراً أن نراك في انكلترا؟)[2].
وهنالك رسالة فريدة من المستشرق الكبير الأستاذ لويس ماسينيون مما عثرنا عليه، تدلّ على أن صلتها به كانت قديمة، فهي مؤرخة في ٦ - ٤ - ١٩٣٣، وهذا نصها:

(الآنسة العزيزة ميّ
أنا الآن منهك من هذه الوافدة اللعينة ولكن الاضطراب الذي أحدثته في صحتي وعملي مازالت آثاره باقية حتى اليوم.
لقد أثرت بي كلمتك المفرطة بالودّ والعذوبة الأخوية تأثيراً عميقاً.

---

(١) السير هاميلتون الكساندر روسكين جيب - «Sir Hamilton Alexander Rosskeen Gibb» مستشرق انكليزي وُلد في «الاسكندرية» عام ١٨٩٥ ودرس العربية في جامعة اكسفورد عام ١٩٣٧ وفي جامعة «هارفارد» عام ١٩٥٥ من مؤلفاته: «الفتح العربي في آسيا الوسطى»، و«المجتمع الإسلامي والغرب».

(٢) ميّ زيادة واعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص: ٣٩٧.

ودعائي لك سيظل مخلصاً. ان بين يديك عملاً جميلاً للانجاز، فلا ترددي بالقيام به بثقةٍ وصبر. «الله وكيل». مع احترامي وأطيب الأماني

لويس ماسينيون[١]

والأستاذ «لويس ماسينيون ـ Louis Massignon» أشهر من أن يعرف لأنه بحاثة مرموق، زار المغرب العربي والعواصم العربية في المشرق، وعُيِّنَ مستشاراً للفلسفة في الجامعة المصرية، كما كان عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق. من مؤلفاته القيمة نذكر: «كتاب الطواسين للحلاج» و«اخبار الحلاج الصوفية»، و«الامثال البغدادية للطالقاني» و«البعثة الأثرية بين النهرين»، و«مراكش في القرن السادس عشر»، وقد أصدر في باريس مجلة: «علماء الإسلام» باللغة الفرنسية، ونشر الاصطلاحات الفلسفية في أربع رسائل.

كان اهتمام المستشرقين في ايطاليا بميّ الكاتبة كبيراً، وكان من آخر ما نشرت في مجلة الشرق الحديث التي تصدر في روما باللغة الإيطالية، مقالة عنوانها: «اللغة العربية» في سنة ١٩٣٥. وبعد وفاتها سنة ١٩٤١ نعتها تلك المجلة، وعكف الدكتور فرنشيسكو غبرييللي ـ «Francesco Gabrieli»[٢] الأستاذ في جامعة روما، وتلميذ الأستاذ نللينو على ترجمة كتابها «ظلمات وأشعة» إلى الايطالية، وقد نشره في روما سنة ١٩٤٥ بعنوان «Luci Edombre». يقع هذا الكتاب في مئتين وخمسين صفحة من الحجم المتوسط، وقد ألحق به الأستاذ غبرييللي مقالة ميّ: «نشيد إلى ينابيع روما»، وكلمة الدكتور طه حسين في حفلة تأبينها التي أجريت في دار الإتحاد النسائي بالقاهرة بعد انقضاء أربعين يوماً على وفاتها. وما زال الأستاذ فرنشيسكو

---

(١) ميّ زيادة واعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤١١.

(٢) الأستاذ الدكتور فرنشيسكو غبرييلي من مواليد روما سنة ١٩٠٤، وقد درّس الحضارة الإسلامية في معهد الدراسات الشرقية في نابولي، واللغة العربية في جامعة روما منذ عام ١٩٣٨، من مؤلفاته: «جميل العذري» و«ابن حمديس» و«الأدب الفارسي» و«تاريخ الحضارة الإسلامية».

غبرييللي، مدير معهد الدراسات الشرقية في روما، يتحدث عن تقديره لأعمال ميّ الأدبية لأن كتابتها، في رأيه، قريبة إلى الفكر الأوروبي في إشراق ديباجتها، وتنظيم أفكارها وأبحاثها، وأسلوب معالجتها للموضوعات التي تختارها. وعندما زار بيروت سنة ١٩٧٥ وألقى محاضرة فيها، سأله الصحفيون «مَنْ من الكتاب اللبنانيين معروف في إيطاليا؟» فأجاب: (ميّ زيادة أولاً، فقد عرفناها عن طريق مقالاتها باللغة الإيطالية، والتراجم المتعددة لآثارها، ومنها كتابها «ظلمات وأشعة» الذي قمت أنا بترجمته وقدمته بدراسة مستفيضة لشخصيتها ودورها الفعال في النهضة الأدبية الحديثة في العالم العربي. وعرفناها أيضاً عن طريق مقالات كتبها عنها في مجلة الشرق الحديث زميلي المستشرق «ايتوري روسي» في سنة ١٩٢٥. كما أننا نعرف الكثير عن جبران خليل جبران، وأمين الريحاني، وجوزيف غصوب).

ومما يجدر بالذكر أن للأستاذ فرنشيسكو غبرييللي ترجمات عن الأدب العربي نذكر منها: «القصاصون المصريون» و«طوق الحمامة» و«رحلات السندباد».

كما ينبغي أن نذكر كتاباً عن «فن المراسلة عند ميّ زيادة» بقلم السيدة أمل داعوق سعد، صدر في بيروت في أوائل سنة ١٩٨٢ وهو كتاب جيد، تحدثت فيه الكاتبة عن قواعد فن المراسلة، وعن البناء الفني في رسائل ميّ تحت ضوء الأدب المقارن، وكان مما قالت في تقييم تلك الرسائل: (ورسائل ميّ هي عبارة عن سجلّ صريح لمواقفها من العديد من المسائل الشخصية والأدبية والإجتماعية)[١] ولم يفت الكاتبة التنبيه إلى ما في رسائل ميّ من ظرف ودعابة مستحبة عندما كانت تكتب إلى أصدقائها الأثيرين. وقد ذكرت في الصفحة ١٨٩ من كتابها (ان ما وصلنا من رسائل ميّ قليل) فكانت محقة لأن مجموعة رسائلها التي حققناها ونشرناها في كتابنا: «ميّ زيادة وأعلام عصرها» لم تكن قد نشرت بعد.

---

(١) فن المراسلة عند ميّ زيادة ـ أمل داعوق سعد ـ ص: ١٤٤.

ولما كانت ميّ في عصرها سفيرة النهضة الحديثة الى الغرب بلا منازع كتب إليها القائم بأعمال المفوضية المصرية في واشنطن رسالة في ٣ـ ٦ـ ١٩٢٥ الرسالة التالية:

(حضرة الآنسة المحترمة ماري زيادة

أتشرف بإحاطة حضرتك علماً بأنه قد ورد إلينا كتاب من جميعة: «نساء اليوم ـ Women Of The Day» بأمريكا، وهي من أكبر الجمعيات النسائية في العالم، تسألنا فيه أن نمدّها بالمعلومات فيما يختص بالمدى الذي وصلت إليه الحركة النسائية في مصر، لنشرها في المجلة النسائية التي تحمل اسمها. وأهم ما تريد معرفته هو الإصلاح الذي اقترح ادخاله في التشريع لصالح المرأة المصرية، وأسماء النساء اللواتي يشغلن وظائف عمومية، واللواتي نلن شهرة في مختلف العلوم والفنون، والحرف والسياسة، وكذلك أسماء اشهر الجمعيات النسائية في مصر، وأسماء زعيماتها، والمهتمات بأمرها.

ولما كنا قد ذكرنا لها اسم حضرتك من بين هذه الأسماء رأينا من الواجب، في نفس الوقت، ان نكتب هذا إلى حضرتك، راجين أن تزودي الجمعية المذكورة بالمعلومات التي ترينها ذات أهمية، زيادةً على ما أعطيناه إليها منها. أما عنوان الجمعية فهو كالآتي:

Women Of The Day - 250 Park Avenue New York

وتفضلي حضرتك بقبول فائق الاحترام

القائم بأعمال المفوضية بواشنطن

اسماعيل كامل)[1].

وأخيراً نحب أن نشير إلى بعض الرسائل الهامة التي تلقتها ميّ من كاتب لبناني كان يعيش في باريس، هو: خير الله خير الله، وقد تولى تحرير الشؤون الشرقية في جريدة «الزمن ـ Le Temps» ونشر فيها مقالات

---

(١) ميّ زيادة واعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢٨٦.

وأبحاثاً قيمة. لقد عرف ميّ عبر كتبها فراسلها، وأعجب بنبوغها منذ نشأتها فذكرها في كتابه الذي نُشر باللغة الفرنسية سنة ١٩١٤ بعنوان: سورية ـ La Syrie. ولعل أجمل مدحٍ لمقالٍ كتبته ميّ هو الذي جاءها في رسالة الأستاذ خير الله خير الله إليها المؤرخة في ٢٩ ـ ١ ـ ١٩٢٩، حول مقالة نشرتها في الأهرام عن التعليم، وهذا نصها:

(الزميلة العزيزة

فـاجأني «الأهـرام» غداة اليـوم مصـدراً بمقـالـك: «اجعلوا التعليم الاجباري دواءً ولا تجعلوه للأمة داءً...» لو أتيح لي أن أكون على مقربةٍ منكِ لأحنيت الرأس «وما تلك شيمتي» وقبلت أنامل رخصاتٍ يجري بها شمم المروءة.

لقد أرهفَتْ منكِ حُمَيّا الوطيس حَدَّ القلم فأصبح بين وميضٍ وصرير، لا يبطىء ولا يخطىء، ولا يذر لا القليل ولا الكثير.

رجعت بي فكرتك في التعليم إلى سنين خلت، وأعادت إليّ ذكرى رسالة حبّرتها في عهد الشباب الذي ذوي، ولا أظنها بيدك. وقد عثرت عليها في زاوية، وقد غشتها غبرة النسيان والقدم، فإليكها يحتد بها ما يحتد بالبواكر من نزقٍ واعتداد. ولئن تلاعبت في ثناياها قسوة الشباب فلقد تشفع بها براءة النيّة. ومهما كان من أمرها فإني لأرى فيها بين نفسينـا شيئاً من النسب القديم، ولما يزل. ولقد أشفعها عن قريب برسالة حديثة وضعتها للتاريخ العام الذي أصدرته مكتبة «Quillet» في تسعة مجلدات ضخمة، من عدة أيام، وهذه الرسالة هي وداعي الأخير لهذا الصنف من الكتابة إذ إني على وشك أن ألقي بنفسي في العاديات، فاضع بيني وبين من عاصرني الألوف من السنين.

عسى أن تكوني بخير، وإليك مني خالص التحية والسلام

خير الله)[1]

---

(١) ميّ زيادة واعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣٥٥.

كان خيرالله خيرالله من مواليد ١٨٨٢، وقد توفي في عام ١٩٣٠، بعد أن وجه هذه الرسالة إلى ميّ بعام واحد! ولا بد من القول إنه كان كاتباً مرموقاً في اللغتين العربية والفرنسية، وإن إعجابه بقلم ميّ وشخصيتها كان كبيراً، مما دفعه، في إحدى رسائله اللاحقة إلى تأنيبها على إفراطها في الحزن على أبيها خوفاً من وطأته على صحتها.

كان أغلب حديثنا في هذا الفصل عما تلقت ميّ من رسائل في حياتها، كما أننا أدرجنا في الفصول الأخرى الكثير من الرسائل التي كتبتها في مختلف مراحل حياتها لِما كشفت من أضواءٍ عليها مكنتنا في بناء هذه السيرة. ولا ريب في أن رسائل المفكرين والفنانين هي جزء هام من سيرهم ومن تاريخ عصرهم.

* * *

أثرها في النهضة النسوية والأدبية

(ما أكثر الإناث في العالم وما أقلّ النساء!
ما أكثر المتزوجات وما أقلّ الحقيقات باسم الزوجات! ما أكثر الوالدات وما أقلّ الأمهات!
ميّ)[1]

لم تكن ميّ زعيمةً من زعيمات النهضة النسوية التي شهدتها البلاد العربية في أوائل القرن العشرين، ولا سيما مصر وسورية ولبنان، وإنما كانت أديبة رائدة اهتمت بالحركة النسوية منذ عام ١٩١١، وشاركت في تغذيتها وتوجيهها عن طريق خطبها ومحاضراتها ومؤلفاتها، واتصالاتها الشخصية مع زعيمات تلك النهضة ورائداتها. ولم تكن مصلحةً اجتماعية من طبقة المصلحين الاجتماعيين والدينيين الذين مهّدوا السبل للنهضة الحديثة من أمثال الشيخ محمد عبده، واتباعه، والطهطاوي وقاسم أمين، ولكنها تمثّلت رسالتهم، وآزرت دعوتهم لتعليم المرأة، واخراجها من عزلتها، وفسح المجال أمامها للإسهام في الحياة الإجتماعية والثقافية والحركة الوطنية. ولا ينكر أن للعصر الذي نشأت فيه ميّ، وللبيئة المصرية التي تفتحت فيها مواهبها أثراً في دفعها إلى تبنّي قضية المرأة، والتحمّس لنصرتها، وأنها وجدت في ذلك المجال

---

(١) «المرأة الجديدة» ـ ج (٢) ـ عام ١٩٢٢ ـ ص: ١٩.

كل تشجيع وتأييد، سواء في الأوساط المصرية الراقية أو اللبنانية والسورية. كما أنه لم يكن خافياً عليها أن «قضية» المرأة في العالم الغربي قد طِرحت في مطلع القرن العشرين على أنها قضية «تمدّن» قبل كل شيء، وان الولايات المتحدة الأميركية وبعض بلدان أوروبا الغربية عمدت إلى تعديل قوانينها في الأحوال الشخصية، والحقوق الإنسانية لانصاف المرأة في حياتها الاجتماعية والعائلية، وفي الوظائف التي كانت تشغلها معلمةً وعاملةً وموظفةً وصاحبة حرفة حرّة. كما لم يكن يخفى عليها أن المرأة العربية كانت تنوء تحت أعباء ظلمٍ فادح، وأن يقظة المرأة تعني يقظة الرجل، بل يقظة الأمة بأسرها، وقد كان وراء اندفاع ميّ لتبنّي قضية يقظة المرأة العربية عامل هامّ أشارت إليه في أحاديثها الصحفية، غير مرةٍ، وهو أنها ذهبت إلى الجامعة المصرية في ربيع عام ١٩١١ لتستمع إلى محاضرة الأديبة والصحفية الرائدة لبيبة هاشم عن «حرية المرأة» فأعجبت بالمحاضرة وبموضوعها، ولكنها لحظت عند عددٍ كبير من الفتيات والنساء المستمعات شيئاً من الاستخفاف بموضوع المحاضـرة، وساءها تلهّيهن بالأحاديث المألوفة عن الأزياء وقصص فلان وفلانـة وهنّ خارجات من قاعة المحاضرة، فتنبّهت إلى شيئين ركزّت جهودها عليهما بعد ذلك: واقع المرأة آنذاك، وحتى في الأوساط التي ندعوها متطوّرة، وموقفها السلبي من قضيتها الشخصية بل ومن قضايا الحياة الكبرى! وإذا استعرضنا خدماتها للنهضة النسوية نلحظ اهتمامها بتوعية الفتيات والنساء، وبمخاطبة الرجال ليقينها بأنهم المسؤولون عن اقصاء المرأة المتوثبة للنهوض، وحرمانها من حقها بالتعلّم والعمل، والمشاركة في مختلف النشاطات، ففي عام ١٩١٤ أجرت معها جريدة «المستقبل» القاهرية حديثاً، فأجابت عندما سألها الأستاذ سلامة موسى: «كيف يجب أن تُربّى الفتاة العصرية؟»:

(يجب أن نربّيها على أن تفكّر. المناقشة تعلّم المرأة التفكير، وتعلمها كيف تحادث الرجل في المواضيع الجدية. المرأة السورية أرقى نساء العالم العربي الآن ومع ذلك لا يستطيع الرجل الجلوس معها للتحدث في شأنٍ من

الشؤون المهمة، سياسيةً كانت أو إجتماعية. ثم أن تعوّد المرأة على التفكير والمناقشة يؤدي إلى تربية الرجل، فرجالنا لا يجتمعون إلا بالرجال للحديث، وهذا نقص في مجتمعنا لأن وجود الرجل مع المرأة في مجتمعاته يهذّب لغته وآدابه وأحاديثه).

وفي العام ذاته أرسلت إلى الأستاذ لطفي السيّد رسالة مفتوحة نشرتها «الهلال» وصدّرتها بكلمة للمحرّر جاء فيها:

(هذا خطاب أرسلته الآنسة ميّ إلى مدير «الجريدة» في سنة ١٩١٤، الكاتب الإجتماعي الكبير الأستاذ لطفي بك السيّد، بعد وفاة العلامة فتحي زغلول باشا صاحب الآثار الأدبية والقانونية المعروفة، وشقيق صاحب المعالي سعد زغلول باشا. ولهذا الخطاب، كما للردّ الذي يتلوه، أهمية كبرى لأنه من السجلات التي تراجع عند مماشاة الحركة النسائية والإجتماعية في هذه الديار، ولعله الوحيد من نوعه)[1].

عتبت ميّ في خطابها المفتوح إلى صاحب «الجريدة» الأستاذ لطفي السيّد لإهماله دعوة النساء لحضور حفلة تأبين فتحي زغلول باشا، بأسلوب لبقٍ ظريفٍ جاء في بعض مقاطعه ما يلي:

(... حفلة جليلة أقامتها مصر لتأبين فتاها، ومصر كسائر بلاد الله ـ على ما أظن ـ تتألف من نساءٍ ورجال. ولم تكن الحفلة قاصرة على هيئة الحكومة، أو على طائفة المحامين والعلماء، بل كانت عمومية جامعة بين المحمدي والعيسوي، والشرقي والأجنبي على السواء. غير أنكم نبذتم منها جنساً واحداً، وهو الجنس الذي منه رفيقة مهد فتحي، ورفيقة نعشه: والدته وزوجه!

غريب أن تبخلوا على المرأة بحضور اجتماع يرفع نفسها إلى أسمى

---

(١) الهلال ج ٣٢ ـ ص: ٣٦٠ ـ ٣٦٣.

درجات التأثّر المفيد، ويلفت عقلها إلى هيبة العلم وعظمة الفضل، ويعلّمها إجلال الوطن ورجال الوطن، مع أنكم تسمحون لها بالذهاب إلى هذه الأوبرا نفسها لحضور الروايات التمثيلية...

ستقولون إن المرأة لا تفهم معاني التأبين كما يفهمها الرجل فأجيب أننا اهتممنا بالخطب والقصائد اهتماماً عظيماً، واستعملنا عند قراءتها ملكتيّ النقد والاستسحان، وهذا ينمّ عن استعدادٍ فينا غير قليل تتجاهلونه عمداً، أو تجهلونه سهواً واهمالاً.

وإذا قلتم إن فتحي باشا كان عالماً مفكراً، وإن العلم والتفكير من خصائص الرجال، أجبت أن العالم الحقيقي، والمفكر المخلص هو ذاك الذي يكتب للرجال والنساء على السواء، ويودّ أن تكون كتاباته هدىً روحياً لجميع أفراد الأمة بلا استثناء، بل أن تكون لشعوب العالم أجمعين. ولا شك في أن فتحي باشا ذلك الرجل، إذ لا أنا رأيت، ولا أحد رأى على غلاف كتبه كلمة كهذه: «محظور على النساء!»، أو «حقوق المطالعة محفوظة للرجال!»)[1].

وجاء ردّ الأستاذ لطفي السيّد تقريراً واقعياً للاضطراب السائد في مصر إبان مرحلة الانتقال التي كان يمرّ بها المجتمع المصري آنذاك، وأقرّ بأن التناقض واضح بين السماح للنساء بحضور حفلات التمثيل في الأوبرا، والغضاضة في دعوتهن للمشاركة في حفلات التأبين وغيرها.

ومنذ ذلك التأريخ جعلت ميّ نهضة المرأة في طليعة اهتماماتها، فاختارت موضوع «المرأة والتمدن»[2] للمحاضرة التي دعاها إليها النادي الشرقي في شهر نيسان عام ١٩١٤، وقد عزت فيها السبب في تخلّف الانسانية إلى جهل المرأة، وكما كانت تناشد الرجل لمساندة المرأة في تطلعاتها

---

(١) الصحائف ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٤٨ ـ ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٢) كلمات واشارات ـ الجزء الأول ـ ميّ زيادة ـ ص: ٣٠.

الجديدة كانت تناشد النساء لإدراك مسؤولياتهن سواء أكن زوجات أو أمهات أو فتيات. أرادت أن تكون النهضة النسوية عربية أصيلة، لا تقليداً سطحياً للغرب، ونقدت في مقالها، «تكلموا لغتكم» المنشور في كتابها: «بين الجزر والمدّ» «المتفرنجين» الذين يتباهون باتقان الفرنسية، وسواها من اللغات الأجنبية، ويجهلون لغة بلادهم. كان نقدها عنيفاً، لا حقداً على الذين يعرفون اللغات الأجنبية إذ كانت أبرع منهم في اتقانها، ولكن استياءً من تخليهم عن هويتهم الأصلية، وكان مما كتبته في هذا المقال الطريف: (أتعجّب كيف أن أناساً وُلدوا في جرود لبنان، أو في أنجاد سورية، أو في سهول مصر يجدون لغتنا خشنة، «خشنة يا إلَهي»! تمزّق الحلق»؟)[1].

ولما أجرت «الهلال» استفتاءً عن «نهضة الشرق العربي» أبدت رأيها في مناهج التربية والتعليم، وأرادت لشباب الأمة العربية وشاباتها تعليماً عالياً يعرّفهم ببلادهم، ورسالتها الحضارية، وموقفها الصحيح من الأمم لبناء شخصيتهم «الذكية» بناءً عصرياً يدعوهم إلى الاعتزاز بها، واكتساب ما يقدمه الغرب من علم وفنٍ، ونظام وابتكار: (لقد أعطى الشرق للغرب أدياناً واخلاقاً، وفلسفة وأنبياء فتلقاها الغرب شاكراً، وارتقى بها، أفيخجلنا الانتفاع باختباراته الدنيوية، وعلمه، والحياة تبادل في الأخذ والعطاء؟)[2]

كانت لمي مآخذ على أفلاطون وفولتير وبوسويه Bossuet، الذين جاهروا بضعف عقل المرأة، فهاجمتهم بأسلوبها الرقيق، كما كانت تهاجم كل مثبّط لعزائم النساء، ومستهتر بإمكاناتهن، ومتسلّط على حقوقهن. كان «بوسويه» يحتقر النساء فناشدته في خطبتها: «المرأة والتمدن» قائلةً: (رحمة الله عليك يا بوسويه! انك لم تكن نبيهاً! أما كون المرأة مخلوقة من ضلع الرجل، فهذا أمر لا رأي لي فيه، غير أني أفضل أن تكون مخلوقة من عصير قلبه وعواطفه بدلاً

---

(١) بين الجزر والمدّ ـ ميّ زيادة ـ ص: ٩٥.

(٢) بين الجزر والمد ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٨١ ـ ١٨٢.

من أن تكون ـ كوتليتا ـ مدوّرة...)[1] إن عباراتها الموزونة هي التي حدت ببعض الباحثين إلى القول بأنها لم تكن ثائرةً في مواقفها الداعية إلى التحرر والإصلاح ... وكأن الثورة على الجمود والتخلّف والجهل لا تأتي ثمارها إلا بالطعن المقذع، والعبارات العنيفة! ولقدحدثنا الأستاذ فتحي رضوان في كتابه «عصر ورجال» عن ميّ «الرقيقة» في ثورتها، وما من شك في أن دعوتها الإصلاحية بأسلوبها الحصيف الرقيق كانت أوقع في نفوس معاصريها من أية دعوة متسمة بالتهوّر والثورة العارمة. سلاح ميّ كان المنطق السليم، والدراية بنفسية العصر، وعقلية المجتمع حيث لم يكن مألوفاً أن تقف فتاة عربية موقف القائد المصلح الذي يحمل الناس على الاهتمام بآرائه! كانت التقاليد في عصرها تلجم كل نشاط نسويّ يؤول إلى سفور المرأة، وخروجها من عزلتها الطويلة، ومع ذلك نرى أنها أحرزت بعض النجاح في تنوير الأذهان، وتليين العقليات الجامدة، وتمهيد الطريق أمام النساء لاستعادة ثقتهن بأنفسهن، واقدامهن على المشاركة في الحياة الإجتماعية والقومية.

خدمات ميّ للحركة النسوية في مصر ولبنان وسورية تعود إلى عام ١٩١٤ كما ذكرنا، حيث تعرّفت بزعيمة النهضة السيدة هدى شعراوي، وانضمت الى جمعيتها. وقد جاء في حديث السيدة شعراوي عن ميّ ما يلي: (لما عرضت عليّ ميّ خدمتها لحركتنا سنة ١٩١٤ رحّبت بها لما لمحته فيها من الصدق، وتبيّنته في كلامها من الإخلاص، وقد طابق فعلها قولها بعدئذٍ، وصدّق عملها حديثها. انضمت إلى صفوفنا متواضعةً، قوية الروح، عميقة التفكير، وكانت تدهشنا جميعاً بالذكاء الحادّ المتفجّر في كل إشارة من اشاراتها، أو خلجةٍ من خلجاتها. وكان أكثر ما يدهشنا فيها سموّ روحها، ورقة احساسها. لقد انضمت إلينا عاملةً مجاهدة، تسبق الصفوف وفي يدها قلمها، ولكن أفقنا المحدود في الجهاد ضاق أمام عينيها البعيدتين في مراميها

---

(١) كلمات واشارات ـ ميّ زيادة ـ الجزء الأول ـ ص: ٣٦.

ومداهما، وعجز عالمنا المحدود في حركتنا النسوية عن أن يتسع لإصلاحها، وآمالها، وأدبها وشاعريتها فاتجهت إلى ميادين الأدب والإجتماع يدفعها نبوغ خاص، وعبقرية نادرة[1].

إن من يعرف حقيقة المسؤولية في الانتساب إلى الجمعيات النسوية، وما تتطلب من جهدٍ ووقت وتضحية يدرك صحة قول زعيمة النهضة السيدة هدى شعراوي، إذ لا يمكن الجمع بين العمل الصحفي والانتاج الأدبي، وبين العمل الدائم في تلك الجمعيات. لذا كانت ميّ عاجزة عن التوفيق بينه وبين دراستها الجامعية آنذاك، وحرفتها في حقل الصحافة والأدب، فأضحت عضو شرف في تلك الجمعيات، والناطقة بإسمها في رسالتها الأدبية، وكان اتصالها بها وبرئيساتها وأعضائها في كل مكان وثيقاً، ومستمراً، ومثمراً في مختلف مراحل حياتها. ولما أسست السيدة شعراوي «جمعية الرقي الأدبي للسيدات» في القاهرة، ودعت للاشتراك فيها الكاتبة الفرنسية «مارجريت كليمان» انتسبت إليها ميّ، وكتبت السيدة شعراوي في مذكراتها ما يلي: (. . .وقد حضرت الآنسة «مارجريت كليمان» إلى مصر من فرنسا ملبيةً دعوتنا، وبدأت بإلقاء سلسلة محاضرات في منزلي وفي الجامعة المصرية عام ١٩١٤. كذلك اشتركت الكاتبة المبدعة «الآنسة ميّ» في عضوية هذه اللجنة، أما السيدة لبيبة هاشم صاحبة مجلة «فتاة الشرق» فقد عُيِّنت سكرتيرة عربية لهذه اللجنة[2]).

وفي عام ١٩١٩ وقفت ميّ في الجامعة المصرية تأبّن رائدة عظيمة سبقتها في الكفاح من أجل نهضة المرأة والمجتمع العربي هي «باحثة البادية» بمناسبة انقضاء عامٍ على وفاتها، فخاطبت السيدات الحاضرات بهذه العبارات:

---

(١) ميّ أديبة الشرق والعروبة ـ محمد عبد الغني حسن ـ ص: ١٧٠ ـ ١٧١.

(٢) مجلة حواء ـ عدد أول مارس ١٩٨٠ ـ القاهرة ـ مذكرات رائدة المرأة العربية السيدة هدى شعراوي ـ ص: ٢٥.

(اذكرن أن الباحثة كانت تكتب في سنة ١٩٠٧، ١٩٠٨، ١٩٠٩، وتصوّرن حال الوسط الاجتماعي منذ اثني عشر عاماً، يوم كان القوم يرمون قاسم أمين بالكفر والإلحاد لأنه جنى ذلك الإثم الفظيع الذي يُدعى: إصلاح المرأة! إن إعجاب الناس بامرىءٍ لا يسلم من لازمٍ متعدٍّ هو انتقادهم له، فإذا كان الجمهور قاسياً على الرجل، يحسب نَقْضتهُ للعادات البالية عدواناً على بني الإنسان، فما قولكن في ظهور امرأةٍ ذات رأيٍ شخصيٍّ، وذاتيةٍ حرّةٍ في ذلك الوسط الإجتماعي؟)[1].

هذا دفاع جميل عن المرأة، وتقدير ووفاء لرائدة عرفتها ميّ، وأحبتها، وتأثرت برسالتها، ولكن الأديبة الجريئة ميّ لم تكن غافلةً عن تقصير المرأة العربية، بل على العكس تماماً، كانت تحمّلها المسؤولية في تخلفها، وتحثّها لنبذ الخمول والتقاعس، وادراك قدسية الأمومة، وأهمية تـربية الأطفـال، ومصاحبة الأزواج. كتبت إلى الأديبة الرائدة السيدة جوليا طعمة، صاحبة «المرأة الجديدة» رسالة من أجمل رسائلها، جاء فيها ما يلي:

(ما أكثر الإناث في العالم وما أقل النساء! ما أكثر المتزوجات وما أقل الحقيقات باسم الزوجات! ما أكثر الوالدات وما أقلّ الأمهات! ربي، ما أعظم المرأة المثلى وما أحلاها ولكني على مقربة منها أرى عشرات النساء المغرورات والدعيات، والسخيفات والطائشات، وعلى مقربـة من عشرات النساء الحصينات المعمّرات أرى مئات القاصرات المدمّرات.)[2]

وتلفّتت ميّ إلى الرجل لتشدّ انتباهه إلى خطأٍ كبير في تعامله مع المرأة فقالت: (الرجل عبدٌ مرةً، والمرأة عبدةٌ مرات. قيمة الرجل في استقلاله النفسي، وطموحه إلى بعيد الغايات، والمرأة إن هي أبدت ميلاً إلى الانعتاق من الأوهام القديمة، والتحرّر من العادات المتحجرة، نُظر إليها كفردٍ شاذٍ، أو

---

(١) كلمات واشارات ـ الجزء الأول ـ ميّ زيادة ـ ص: ١١٤.

(٢) المرأة الجديدة ـ ج (٢) ـ عام ١٩٢٢ ـ ص: ١٩.

كخيال في دوائر الرؤيا، ذلك لأنهم اعتادوا استعبادها، ليس بالجور والضغط والتعذيب فقط، بل بالعطفِ والتدليل والتحبّب!)[1].

وعن تصور ميّ للمرأة الجديدة كما تحب لها أن تكون، كتبت إلى جوليا طعمة، رئيسة «جامعة السيدات» في بيروت ما يلي:

(...وليست المدرسة ولا الحكومة على قوة تأثيرهما بمصلحتين الخلل، وبمعيدتين التوازن في مجتمعنا، بل اعتقد أن ذلك من أعمال المرأة. المرأة ذات العقل الكبير والقلب الرقيق. المرأة ذات الدراية الحسنة الماهرة في وضع الأشياء حيث يجب أن تكون هي المرأة الجديدة التي تضيف إلى لطف الأنثى ودُعتها قوة المرأة وفضلها، وتحمل مع اسم الزوجة ولقبها أهلية السيدة وكرامتها، وتضمّ إلى رعاية «الوالدية» الجسدية وانفعالها، الأمومة المعنوية وسموّها). كما قالت في إحدى خطبها: (لا منفعة بحسن النيّة إذا هي قُرنت بالجهل، فمرض الولد، وسوء أخلاقه كثيراً ما ينتج عن حبّ الوالدة الجاهلة). فلقد ركّزت اهتمامها على رسالة الأم في تربية أولادها بصورة خاصة وحرصت على تحرر المرأة من أصناف العبودية كافةً لكي تربي أحراراً (لأن في الأمومة معنىً رفيعاً يسمو بالمرأة إلى الإشراف على النفوس والأفكار، ولأن العبدة لا تربي إلا عبيداً)[2]. ولكنها لم تكن تحبّذ نزول المرأة إلى معترك السياسة قبل أن تصبح مهيأةً له، ويصبح المجتمع العربي في تطوّره الحديث محتاجاً إلى إسهامها فيه.

عايشت ميّ في مصر الحركة الوطنية الكبرى التي قادها المناضلون الأحرار أمثال سعد زغلول ورفاقه ضدّ الاستعمار البريطاني، وشبّت على تقديس الحرية. كانت أول من تجرأ من الكاتبات العربيات على نقد قرارٍ أصدره البلاط الملكي والحكومة المصرية باطلاق اسم ملك أوروبي على

---

(١) المساواة ـ ميّ زيادة ـ ص: ٥٣.

(٢) سوانح فتاة ـ ميّ زيادة ـ ص: ٢٩.

رصيف مدينة بورسعيد، فكتبت مقالة في هذا الموضوع جاء فيها ما يلي:

(... معقول وواجب أن نطلق على شوارعنا وأرصفتنا أسماء المحسنين إليها إحساناً مادياً ومعنوياً. تُؤخذ أسماء الشوارع من أسماء عظماء البلاد وأبطالها وكتابها، أو تُقتبس من حادثٍ طرأ عليها وترك فيها أثراً، فهذا هو الاصطلاح الذي يتمشون عليه في سائر البلدان، فما لإمبراطور النمسا والمجر ولشوارعنا؟؟ كان ومازال الخديوي السابق صديقاً لهذا الامبراطور فلم نسمع أن حكومة النمسا دعت أحد شوارع فيينا باسم عباس حلمي! وكان، ومازال، البرنس فؤاد، شقيق الحضرة السلطانية، صديقاً حميماً لايطاليا وأبنائها، وحتى الآن لم نعلم أن رصيفاً في روما، أو شارعاً في نابولي يُعرف باسم هذا الأمير المصري. فلماذا نعطيهم ما لا يعطوننا؟ ولماذا نجرّد أبناء الوطن من نصيبهم الطبيعي؟)[1].

واعترفت ميّ في حديث لمجلة الهلال سبق ذكره في فصل «ميّ الكاتبة» أن الحركة الوطنية كانت من أهم ما أثّر في مجرى حياتها، وأنها لم تكن لتبلغ هذه السرعة في التطوّر الفكري لولاها. فقد تابعت في مطالعاتها تطور الأحداث الوطنية في مصر، منذ اندلاع الثورة العرابية في عام ١٨٨٢، وناشدت في مقالاتها الأقباط والمسلمين للتضامن والوقوف صفاً واحداً وراء الزعماء المناضلين في أيام الثورة القومية، بعد انتهاء الحرب العالمية الكبرى، فكان لها تأثير كبير في إذكاء همّة الطلبة والنسوة للخروج في المظاهرات عام ١٩١٩، ثورةً على الانكليز، وثورةً على ألف سنة من عزل نصف الأمة عن الحياة الوطنية! ولما تألّفت من المصريات لجان في حزب الوفد كان من أبرز أعضائها السيدات هدى شعراوي، وصفية زغلول، ونبوية موسى، فاقتدت بهن نساء كثيرات نزعن الحجاب، وخرجن سافرات الوجوه، مقنّعات بالبراقع البيض، في مظاهرة كبرى كان أثرها كبيراً في نهضة المرأة واسهامها في الحركة الوطنية. وقد حاول الانكليز تفريق المتظاهرات، وهجم الجنود عليهن

---

(١) بين الجزر والمدّ ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٢٤ ـ ١٢٥.

بالعصيّ لضربهن، كما كانوا يفعلون بمظاهرات الطلاب، فصمدن، وسجّلن للتأريخ موقفاً وطنياً رائعاً، خلّده الشاعر حافظ إبراهيم في القصيدة المشهورة التالية:

خرج الغواني يحتججـ ـنَ، ورحتُ أرقب جَمْعَهُنَّه
فإذا بهن تّخذن من سودِ الثيابِ شعارَهُنَّه
فطلعنَ مثلَ كواكب يَسْطَعْنَ في وسطِ الدجنّه
وأخذنَ يجتزن الطريـ ـقَ ودار «سعد» قصدُهُنَّه
وإذا بجيشٍ مقبلٍ، والخيلُ مطلقةُ الأعنّه
وإذا الجنود سيوفها قد صُوّبت لنحورِهنَّه
فليهنأِ الجيشُ الفخو رُ بنصرِهِ وبكسرِهِنَّه

وصفت ميّ بقلمها أيام البطولة، واسهام المرأة لأول مرة في التاريخ الحديث بالحركة الوطنية التحررية، وهذا شيء مما كتبته عن أهمية الثورات في يقظة الشعوب:

(...إن الذين رأوا مصر في هذه الأسابيع يدركون ذلك، والذين شهدوا النساء المحجوبات، ذوات الخدر من أعظم البيوتات الإسلامية سائرات في مركباتٍ مكشوفة أمام الأجنبي والوطني، منضمّات إلى الرجال في المظاهرات، هاتفات معهم هتاف الحماسة والشجاعة «ليحيى الوطن!» محيّيات بالمناديل والبسمات، مشيرات بالأيدي، ملوّحاتٍ بالأعلام، ومنهن من ينبرين للخطابة في الجماهير المزدحمة، أولئك يدركون أن هذه الساعات المعدودات في تاريخ الوطنية المصرية قد دفعت بالفكر القومي عموماً، وبالفكر النسائي خصوصاً، دفعةً عظيمة، وأوصلت الرجل والمرأة معاً إلى حدٍّ بعيد لم يكن ليُدرك في غير هذه الحالة بعشرات الأعوام، ولو كان الحاثّ على السير عشراتٌ من أمثال قاسم أمين)[1].

(١) الهلال ـ ج ٢٧ ـ عدد نيسان ١٩١٩ ـ «هل من مذكّر» ـ ص: ٦٩١.

وكانت ميّ ترى «أن البشرية تكتشف ما عندها من مستودعات إقدامٍ ومجازفة في اللحظات العصيبة»، وتفهم الثورات البناءة على هذا النحو:

(يجب أن تكون الثورة فرديةً داخلية قبل أن تصير قوميةً عمومية، نريدها ثورة في الأفكار، ثورة في المبادىء، ثورة في المطالب، ثورة في كيفية المعيشة. يجب أن نغيّر طبائعنا قبل أن نغيّر حكامنا، يجب أن يعكف كل واحد منا على اصلاح نفسه قبل أن يتصدى لاصلاح الجمهور، يجب خصوصاً أن نفهم معنى التضامن، وأن نتكاتف ليس لغايات شخصية، بل للخير العام، والمصلحة العامة التي تشمل أبناء الوطن على الإطلاق. وما أقدر الذكاء والتضامن إذا هما مشيا جنباً إلى جنب)[1].

ولا شك في أن ذكاء ميّ كان يتجلى في قدرتها على اقناع الرجل بتغيير رأيه الخاطىء في المرأة **الكاتبة** لأنه كان يقيّم أدبها على أساس جنسها **«الضعيف»**، وفي المرأة **المواطنة** لأنه كان يقيّم شخصيتها على أساس أنها: **«قاصرة»**، ويتجلى كذلك في قدرتها على توعية الجماهير، نساءً ورجالاً، لتحقيق نهضة اجتماعية وثقافية ووطنية صحيحة. إننا نجد في مراسلاتها مع رائدات النهضة النسوية في سورية ولبنان، وفي مواقفها الخطابية، وأبحاثها ومقالاتها أكثر من دليل على رجاحة عقلها، وصواب تفكيرها في الخطوات التي ينبغي اتخاذها، وعلى موهبتها في تحريك المشاعر وإذكاء الهمم. يوم خطبت في حفلة التكريم التي أقامتها لها «جامعة السيدات» في بيروت عام ١٩٢٢ خاطبت النساء بلسان المرشد والمعلم المنبّه بأسلوب الأخت الكبيرة التي ترعى أشقاءها الصغار، وتحذرهم من الانحراف:

(تعلمن أيتها السيدات، أن الشعوب كالأفراد، تجتاز في أعمارها أطواراً مهمة، للأفكار فيها والأعمال شأن عظيم في تكييف الأحوال. فإذا أحسن الشعب، أو الفرد الإدارة والتصرّف تيسّر له التقدّم والنجاح، وإلا فليس له

---

(١) كلمات واشارات ـ الجزء الأول ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٢ ـ ١٣.

سوى الفشل والخذلان. وبلادنا تجتاز اليوم مثل هذا الطور الخطير: فحاجتها إلى حزم أبنائها ومساعدتهم كبيرة. بلادنا تسير اليوم بين الخطر والأمان، بين العلّة والصحة، بين الصعود والهبوط، ومن ذا أقدر من المرأة - إذا هي شاءت - في صيانة من تحبّ وما تحب؟ من ذا أقدر منها في إيجاد العواطف الطيبة، وشحذ العزائم؟ أليست هي ملكة المنزل؟ أليست هي المنحنية على نفوس الأطفال؟ أليست هي المؤثّرة في الرجال؟ أليست هي ناشرة الرأي في العائلة والاجتماع؟ وإن لم تكن هي المدافعة المباشرة عن الوطن، أليست هي التي تزرع حبّ الوطن في القلوب، وتزكي الحماسة الوطنية؟ لقد اعتدنا أن نعزو إلى الرجل علّة تقهقر المرأة، حسنٌ فلنفعل هذا أمام الرجال لنستثير منهم الهمة. أما الآن فنحن في خلوة نسائية لا يسمعنا فيها رجل، فيمكننا أن نصارح قائلات إن نصف المسؤولية تقع على الرجل، أما النصف الآخر فعلى المرأة)[1].

وكانت ميّ فخورة بالنساء العربيات اللواتي اقتحمن ميدان الصحافة في عصرها وأنشأن المجلات الأدبية، والصحف من أمثال ماري عجمي «العروس» ولبيبة هاشم «فتاة الشرق» وعفيفة صعب «الخدر» ونجلاء أبي اللمع «الفجر» وجوليا طعمة «المرأة الجديدة» وحبوبة حداد «الحياة الجديدة» وروز اليوسف التي أصدرت قبل مجلة «روز اليوسف»: «الرقيب» و«الصرخة» و«صدى الحق» و«ماري يني» صاحبة «مينرفا» التي استشارتها في شأنها قبل أن تصدرها عام ١٩٢٣، فكتبت إليها ميّ في ١٥ - ٥ - ١٩٢٢ خطاباً ردّاً على رسالتها، فيه من الرأي أصوبه، ومن الأسلوب أعذبه، كما نستشف منه معاناتها في الصحافة، وخبرتها الواسعة، وغيرتها على كل عمل مفيد تقوم به المرأة المثقفة. وقد كان مما جاء فيه هذا المقطع:

(أصارحك القول إني أرى موقف الصحافة موقفاً حرجاً للمرأة، لا سيما الفتاة في بلادنا. بل هو أحرج المواقف، فاللاتي ولجن هذا الباب يجب

---

(١) ميّ في سوريا ولبنان - المرأة الجديدة - ص: ٣٧ - ٣٨.

تشجيعهن وحثّهن على متابعة المسير جهد المستطاع. أما اللاتي ما زلن يفكرن في الولوج فعليهن أن يفكرن طويلاً قبل مباشرة العمل. عليهن أن يتفرّسن ملياً في ما ينتظرهن من عناءٍ ونَصَب، وفي ما قد يصادفهن من نجاحٍ أو فشل)[١].

لهذا كانت كلّ جمعية نسوية في مصر ودمشق وبيروت تستشيرها في نشاطاتها، وتطلب منها مساعدتها إعلامياً، وتسجّل في خطاباتها إليها أياديها البيضاء عليها. ولعل من أهم تلك الخطابات رسالة تلقتها ميّ من السيدة منيرة المحايري من دمشق باسم «المجمع النسائي الشرقي العربي» الـذي تأسس عام ١٩٢٧ تشكرها فيها على معاضدتها لمشروع المجمع، وتدعوها لاجتماع اللجنة التحضيرية للمؤتمر النسائي[٢]؛ ورسالةً من رئيسة جمعية السيدات القبطية الخيرية بمصر تطلب فيها مؤازرتها بنشر كلمـة عنها[٣]، ورسالة أخرى من سكرتيرة الاتحاد النسائي العربي في بيروت، الأديبة السيدة روز شحفة، تأريخها ٨ ـ ٥ ـ ١٩٣٤، استهلتها بهذه العبارات:

(فضلك علينا سابق ولاحق. وأياديك البيضاء لا تقدر السنون أن تنسينا إياها، وها هي مسجلة في كتابنا «المؤتمر الرابع» كما هي محفورة على صفحات قلوبنا بمداد الاخلاص الذي أوحاه لك قلبك الحساس النابض بالحياة والمعرفة. ولقد زادت تلك المقدمة الفريدة بقيمة الكتاب أضعافاً، وإن أشكر وأذكر وأعبّر عما في نفوسنا نحو الفتاة التي رفعت اسم المرأة عالياً، ومدّت يدها لمساعدتها وتنشيطها لا تكفي الصفحات العديدة لشرحه)[٤].

ودعتها بكثير من الإصرار والاحترام الى حضور مؤتمر الاتحاد الذي تقرر في أواخر شهر حزيران لتكون إحدى خطيباته، و«توقد جذوة الحماس

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ١٨٩ ـ ١٩٠.
(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣٨١.
(٣) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤١٩.
(٤) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ وثائق جديدة ـ ص: ٤٢٦.

في نفوس الحاضرات، وتدفعهن بِدُرَرِها الغاليات إلى السير في سبيل الخير العام، والإصلاح المنشود».

كما وجدنا بين أوراق ميّ التي عثرنا عليها مؤخراً رسالتين من رئيسة المجمع النسائي العربي السيدة نور حمادة موجهتين عام ١٩٢٩ وعام ١٩٣٠ إلى «ميّ حاملة لواء النهضة النسوية» لإعلامها عن مشاريع المجمع المقبلة، واستشارتها في عقد مؤتمر عام تدعى إليه زعيمة النهضة المصرية السيدة هدى شعراوي، والسيدات العاملات معها، والجمعيات المصرية الأخرى. فنشرت ميّ كلمة في الأهرام عن المجمع النسائي، ومؤتمره المزمع عقده، شكرتها عليها السيدة نور حمادة في رسالتها الثانية، وأعربت فيها عن عتبها على «الاتحاد النسائي المصري» الذي رفض تلبية دعوتها! والأطرف من ذلك أن ميّ تلقّت في ٢٦ - ١٠ - ١٩٢٩ رسالة مخطوطة من لجنة النشر في «الاتحاد النسائي السوري اللبناني» تشكو فيها من تجاوز السيدة حمادة و«مجمع النساء» نظام الاتحاد الذي يضم سائر الجمعيات النسائية العاملة، وتعلمها بأنها انسحبت من الاتحاد لسنةٍ خلت! ولا ريب في أن هموم ميّ الحياتية والأدبية كانت أولى باهتمامها من التوسّط بين الجمعيات النسوية المتنافسة، والانشغال بمشكلاتها ومنازعاتها الخاصة إذ كانت تعيش في عزلةٍ عن الحياة الإجتماعية في القاهرة، تستقبل الكتاب والعلماء والشعراء في بيتها مرةً في كل أسبوع، وتقضي ما تبقى لها من الوقت في بيتها بين الكتابة والمطالعة. كانت المثل الأعلى للأديب العامل المجدّ، تبحث وتدرس وتؤلف، وتتابع أحداث عصرها باهتمام ظاهر في آثارها، وشعورٍ وطني متدفق في مقالاتها ورسائلها. أما أثرها الكبير في نهضة المرأة العربية ويقظتها الوطنية فهو مشرق في مؤلفاتها التي نقرأها اليوم بإعجاب لما فيها من عمق في التفكير، ودقة في العرض والتحليل، ومعاصرة. لقد كانت ومازالت كتاباتها صوتاً مخلصاً مدوياً في وجه الظلم والتخلف، نسمعه بإعجاب في آثارها القيمة وفي نقدها لأدوائنا الإجتماعية والنفسية والقومية، التي لم نشف منها حتى غاية اليوم! لقد نقدت خصالاً متوارثة فينا في خطاب لها عنوانه: الغرائز السيكولوجية الثلاث، عام ١٩٢٦ فقالت:

لجنة الاتحاد النسائي السوري اللبناني

بيروت في ٢٦ ت ٢ سنة ١٩٢٩

حضرة الكاتبة الاديبة الآنسة مي المكرمة

تحية وسلاماً أما بعد فقد رأى الاتحاد النسائي في جلسته الأخيرة أن يطلعك على حقيقة بعد أن اطلع على مقالك الجميل في جريدة الأهرام الذي يتبين منه للقارئ أن جمعية المجمع النسائي هي التي أقامت الحفلة الوداعية للسيدة إحسان أحمد شاكر فاسمحي لنا أن نطلعك الحقيقة ببيان أعضاء الاتحاد النسائي الذي تأسس منذ عام ٩٢٤ وقد ضم إليه ٢٩ جمعية من بيروت ودمشق وطرابلس وحمص وحماه وزحلة وبعض قرى لبنان الكبير وقد عقد حتى الآن ثلاث مؤتمرات وهو يستعد من أواخر ٩٢٩ لعقد مؤتمر عام في الربيع المقبل ٩٣٠ تمثل فيه الأماني المطبوعة المنشورة في النشرة المرسلة لك طي هذا الكتاب. فالاتحاد الذي يقدر الجهود النسائية ويكرم المجاهدات في سبيل المرأة هو الذي أقام الحفلة الوداعية للسيدة المشار إليها وغيرها وقد كانت جمعية المجمع النسائي من ضمن أعضاء الاتحاد ولكن رئيسة هذه الجمعية السيدة نور حمادة التي هي كاتبته وأمينة صندوقه ونائبة رئيسته قد انسحبت هذه السنة من الاتحاد وهي تسعى لعقد مؤتمر سوري عام لغاية شخصية هي أعرف بها منا. وغاية ما نرجو إعلانك إياه أن الاتحاد النسائي هو غير المجمع النسائي لتكوني على بينة من الأمر. وتفضلي بقبول تحيات الاتحاد النسائي مع مزيد إعجابه بأدبك الجم وفخره بك أيدك الله وأبقاك

لجنة النشر للاتحاد النسائي

المجمع النسائي الشرقي العربي

بيروت

تأسس ١٣٤٦ — ١٩٢٧

ACADÉMIE FÉMINISTE
ORIENTALE ARABE

Beyrouth - Fondée en 1927

بيروت في ٧/٤/٣٠ — Beyrouth, le

الآنسة العزيزة النابغة «مي» المحترمة

تحية طيبة واحتراماً فائقاً: وبعد فقد كتبت اليك بشأن المؤتمر النسائي العام الذي اعتزمنا عقده في اوائل الربيع، وتشرفت بكلمتك الطيبة على صفحات الاهرام، وكنت اود ان اكتب اليك بعدئذٍ ولكني آثرت تأجيل الكتابة ريثما نقرر نهائياً يوم انعقاده ...

اما وان المؤتمر لقي نجاحاً عظيماً في دعوته وقد قررنا ان يكون في اول يوليو ان شاء الله وسيحضره اكثر جمعيات واندية المفكرات في الشرق العربي وبعض الجمعيات في الشرق الاقصى وغالباً فان عصبة الامم ستوفد رقيبة لتقف على الحركة النسوية في الشرق وتبلغ مطاليبهن لمجلس العصبة الموقر كما ان الاتحاد النسائي الدولي سيوفد وفداً لتنشيط هذا المؤتمر ..

ولي الثقة الكبرى بان آنستي المفكرة ستكون اكبر مشجعة لي على المضي في السبيل الذي نسير فيه وبفضل تنشيطها سنقتحم كل عقبة في طريق الاعمال التي نتقدم بها بتضحية واخلاص. ويحق لي ان اعتب على «الاتحاد النسائي المصري» الذي وجهت اليه الدعوة طالبة تلبيتي لامرٍ فيه فائدة عامة للمرأة ويسوءني ان يرفض دعوتي التي هي دعوة المجمع وفروعه المنتشرة في البلاد ويكون جواب السيدة احسان احمد وجعفر سكرتيرة الاتحاد بانهن قررن ان لا يقبلن دعوة جمعية منفردة !!!

ولو تتبعت يا عزيزتي ما جاء في مجموعة قرارات وخطابات المؤتمر السوري اللبناني الاخير، لعلمت بانه ليس فيها ما يمنع المجمع النسائي العربي من عقد مؤتمر عربي عام وبكلمة اوضح انه ليس فيها ما يؤيد ان الاتحاد كان ينوي عقد المؤتمر العربي العام. ولكن بعض النفوس تأبى الانضواء تحت لواء الحق، ومهما يكن من الامر فاني جادة واخواتي اعضاء المجمع في العمل ما فيه خير المرأة وصلاحها ولا يثنينا عن عقد المؤتمر شيء باذن الله، هذا وفي الختام اقبلي احتراماتي

عفيفة [illegible]

كتبت من خطي الشخصي متى [illegible] يدور بيننا في الكتابة

(نحن في ذكائنا من أسرع الشعوب اقتباساً، ومن أكثرهم اتقاناً للتقليد، ولكننا مع الأسف من أقلّها حرصاً على ذخيرة الماضي، وعلى ما يجب أن نحتفظ به لتكوين شخصيتنا الجديدة. نحن من أقلّ الشعوب غيرةً على ثروتنا النبيلة، ومن أقلّها اهتماماً بلغتنا العربية الجميلة. لنا على ذلك أعذار أعرفها وأفهمها، ولكني أجاهر بأنها لا تكفي)[1]. كما أن دعوتها إلى الحفاظ على اللغة العربية والطابع الشرقي الناتجين عن اعتزازها الكبير بهما، وغيرتها على الأمة العربية في نهضتها الجديدة، من أبرز صفات آثارها وخدماتها القيمة، وكثيراً ما أعربت عن خشيتها من أن نكون أبناء عاقين لخير الآباء والأجداد! ففي إحدى رسائلها إلى الأديب المجاهد أمين الريحاني المؤرخة في ٢٩ ـ ٢ ـ ١٩١٦ كتبت ما يلي:

(. . .قل لي إذا يئسنا من معنى الارتقاء، نحن المكرّسون له كل ما عندنا من الأفكار، وكل ما لدينا من القوى المعنوية، فأين نبحث عن قاعدة نشيد عليها صروح الرجاء؟)[2] وقد كانت يومئذ في الثلاثين من العمر! ومما ينبغي ألا نغفل ذكره أنها اعترفت بفضل العاملين من أجل النهضة، وبفضل المقتطف على الحركة النسائية بقولها للدكتور يعقوب صروف في إحدى رسائلها إليه بتاريخ ١٩ ـ ١٢ ـ ١٩٢٤: (. . .واليوم انتبه إلى وجوب تقديم الشكر لك لأن المساعدة التي قدمها «المقتطف» للحركة النسائية في كل الشرق أعظم من مجموع الخدمة التي تقوم بها جميع نسائنا، وقد بدأ يساعدني على التبشير والدعوة إلى الحركة الجديدة منذ وفاة باحثة البادية، يوم لم تكن تفكّر سيدة بما نحن اليوم فيه. فللمقتطف فضل لا أنساه وإن تأخرت عن شكره)[3].

ومن جهة ثانية فقد اعترف بفضلها على النهضة، ودورها البارز فيها

---

(١) كلمات واشارات ـ الجزء الثاني ـ ميّ زيادة ـ ص: ٦٧.

(٢) الريحاني ومعاصروه ـ جمع وتحقيق وتقديم ألبرت ريحاني ـ ص: ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٣) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ص: ٢٧١.

جميع الذين كتبوا عنها تقريباً، فذكره المؤرخ الأستاذ محمد جميل بيهم في كتابه: «فتاة الشرق في حضارة الغرب» الذي أصدره عام ١٩٥٢، وأورد فيه آراء كلٍّ من ميّ زيادة، وعفيفة كرم، وسلوى سلامي أطلس، والدكتور عبد الرحمن الشهبندر، وجميل صدقي الزهاوي وإميل زيدان وغيرهم. كما أشاد بدور ميّ في النهضة الأدبية والقومية والإجتماعية الأستاذ عبد اللطيف شرارة لكونها أضاءت بوميض فكرها وروحها الظلام الذي طغا على العصور الغابرة، وذكر أن خدماتها الفعلية لتلك النهضة تمثلت في أربعة أمور:

(١ ـ في أنها بنت نفسها بناءً صحيحاً ينسجم مع المهمة التي انتدبتها الظروف لأدائها، وحسبك من ذلك أنها درست أمهات اللغات، وأقامت من جهدها «قدوةً ومثلاً». فإذا طلبت إلى الناس أن يعلموا المرأة أعطتهم بنفسها الدليل على كفاءة المرأة للتعلم، ناهيك عن لباقتها، وحسن تصرّفها، وجرأتها، وطلاقة لسانها.

٢ ـ المقالات والخطابات والمحاضرات التي نشرتها في الصحف وألقتها من على المنابر.

٣ ـ الأسفار التي قامت بها لحضور الأندية الأدبية والنسائية في مختلف الأقطار.

٤ ـ المنتدى الأدبي الذي أنشأته في منزلها وكان ملتقى رجال الفكر والأدب في القاهرة.

وقد ظهر لها كتاب عام ١٩٢٠ عن «باحثة البادية» وفيه أبرز القضايا التي تهمّ المرأة الشرقية، كما عنيت بدراسة عددٍ من النساء الشهيرات: وردة اليازجي، عائشة التيمورية، ومدام دي سيفينييه وغيرهن)[١].

ولعل من أجمل كلمات الوفاء لميّ التي ألقيت بعد موتها عام ١٩٤١

---

(١) ميّ زيادة ـ عبد اللطيف شرارة ـ ص: ٤٦ ـ ٤٧.

خطاب الأستاذ محمد يوسف الذي ألقاه في حفلة تأبينها بدار الإتحاد النسائي المصري نقتطف منه هذه العبارات:

(سيداتي آنساتي، سادتي: اسمحوا لي أن أطأطىء الرأس إعجاباً بتلك الشجاعة الأدبية التي كانت تعمر صدر نابغتنا الفقيدة، فقد نادت، وهي الآنسة الفتية والمرأة الناعمة، بما كان يخشى أشجع الرجال الهمس به في زمنٍ كان الكلام فيه عن حرية المرأة خطيئة الدهر، وزلّة العمر، وخروجاً على التقاليد والعرف والأهل... نادت بجرأة حلوة وصلت إلى الآذان فأطربتها، وإلى الأحلام فأيقظتها، وإلى الأفهام فأرشدتها، وإلى القلوب فعمرتها)[1].

ومما ينبغي ذكره في هذا الموضوع أن الأستاذ رامز سركيس كان من أوائل الذين قدّروا جهود ميّ في خدمة النهضة، وجهروا بها عام ١٩٢٢ وذلك في رسالة مفتوحة بعث بها إلى صاحبة «المرأة الجديدة» السيد جوليا طعمة قال فيها:

(...أجل، إنَّ ميّ عامل كبير في النهضة النسائية فقد أظهرت أن المرأة لها من مواهبها الغزيرة ما تضارع به الرجل النابغ بعلمه وفلسفته. وإذا كانت أوروبا وأميركا قد عرفتا قيمة نبوغ المرأة فإننا نشعر بهذه الحقيقة من عهدٍ ليس ببعيد لأن ميّ عامل قوي في تحقيق هذا الشعور)[2].

أما المؤرخ الدكتور حسين فوزي النجار فقد سجّل تقدير الأجيال لميّ وأحمد لطفي السيد في كتابه عنه الذي صدر سنة ١٩٦٥ فقال بعد أن تحدث عن النهضة الثقافية والإجتماعية التي دعا إليها قاسم أمين: (أما الذين تلقفوها بالحماسة الإيجابية والمناصرة أمثال لطفي السيد، وباحثة البادية، وميّ زيادة وغيرهم فإن أثرهم في انتشارها، ومن ثم في تطبيقها كبير للغاية، وفضلهم أكبر إذ لولا نجاحهم في اقناع الجماهير بضرورة نهوض المرأة

---

(١) ذكرى فقيدة الأدب النابغة ميّ ـ منشورات الاتحاد النسائي المصري ـ ص: ٧٩.
(٢) ميّ في سوريا ولبنان ـ المرأة الجديدة ـ ص: ١٥.

وتعليمها، ومساهمتها في البناء القومي والنضال لما توصلنا، في القسم الثاني من القرن العشرين إلى ما نحن عليه من تطوّر نسبي)[1]

وختاماً نرى أن اعتراف المؤرخين المنصفين بدور ميّ في النهضة الحديثة المدوّن في مؤلفاتهم، حتى فيما يُدرّس منها في معاهد لبنان (ومنها كتاب الأستاذ حنا فاخوري: «تأريخ الأدب العربي») وفي المعاجم المتداولة عن الأعلام، ليس بكافٍ بالقياس إلى أهمية أثرها في النهضة، لأن العديد من نصوص أبحاثها جدير بأن يُدرّس في المعاهد والجامعات العربية، في سائر أنحاء الوطن العربي الكبير.

* * *

---

(١) أحمد لطفي السيد: أستاذ الجيل ـ الدكتور حسن فوزي النجار ـ ص: ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

أحزان ميّ وبداية مرضها

(عاملان اثنان يتجاذبان الجنان: عامل الحزن وعامل السرور، على أن قطرة حزنٍ في عمقها توازي بحر سرورٍ في اتساعه!
ميّ)[1]

توالت المصائب على ميّ في غضون ثلاثة أعوام: فقدت أباها في ٢٤/ ١٠/ ١٩٢٩ فجأةً، إثر نوبةٍ قلبيةٍ أودت بحياته، وفقدت جبران في ١٠/ ٤/ ١٩٣١ إثر مرضٍ عضالٍ أنهك قواه وهو في الثامنة والأربعين من العمر، ثم ماتت أمها في أواخر شهر شباط عام ١٩٣٢! ثلاث صدمات متتابعات سوّدت الدنيا في عينيها، وتركتها وحيدةً في معترك الحياة فجزعت وأي جزع، وحزنت حزناً غير مألوف، بل لجّت في الأحزان فاستبدّت بها الأحزان. . .

كان موت أبيها أول فاجعة في حياتها. نعته الصحافة المصرية فتوافد الكتاب والشعراء على بيته لتقديم التعازي إليها وإلى والدتها ومواساتها، وانهالت عليها رسائل أصدقائها من كل مكان للتخفيف من مصابها، ولكنها أغرقت نفسها في «وادي الدموع»[2]، وغالت في الحداد عليه مغالاةً أقلقت

---

(١) الهلال ـ ج ٢٩ ـ عدد أكتوبر ١٩٢٠ ـ ص: ٦٥٠.

(٢) من مقالة لمي عنوانها: «الشباب والموت» استهلتها بقولها: (نحن نسمي هذه الدنيا «وادي الدموع») ـ سوانح فتاة ـ ميّ زيادة ـ ص: ٩٩.

سائر الذين عرفوها وأحبوها. لقد خشوا عليها من عاقبة التشدّد بالحداد لعلمهم بنزوعها الفطري إلى الحزن والاكتئاب، فبذلوا قصارى الجهد لانقاذها من الغرق في لجة الحزن دون أن يفلحوا. كتب إليها صديقها خيرالله خيرالله من باريس رسالة في ٢٢/ ١١/ ١٩٢٩ من أرقّ رسائل التعزية، وأفضلها نصحاً، مع أنه لم يكن يعرفها شخصياً، إنما كان يعرف الكثير عن رهافة مشاعرها، وشدة تعلّقها بأبيها، فبعد أن أعرب لها عن تأثره بكلمة التفجع على أبيها التي نشرتها في جريدة الأهرام تجرأ وقال لها:

(. . .ومع ذلك أسمح لنفسي بملاحظةٍ صغيرة آمل أن تتقبلها أخت من أخٍ أكبر منها. لقد لاحظت عندكِ ميلاً لتنمية أحزانك الخفيّة على مثال الكتاب الرومنطيقيين الذين تنتمين إليهم ككاتبة. وأذهب إلى أبعد من هذا في التعبير عن فكرتي وأقول إنها عدوى أكثر مما هي تقليد. لقد كانت هذه الظاهرة عندهم أسلوباً أدبياً، أو امتداداً لبرهةٍ عابرة على أبعد تحديد، وتاريخ الأدب يشهد على ذلك، ولكن الأمر الخطير في حالتكِ يكمن في أنها استعداد صحيح، لا منهج أدبيّ، وهذا ما يقلقني. ما الغرض من تصلّبنا أمام المصير المعدّ للإنسانية جمعاء؟ لا بدّ من الرضا به، والإستسلام إليه، بعدم اكتراث، بعد وقوعه. إني أفكر بكِ يا صديقتي العزيزة، وبما ستؤولين إليه في وسط هذا الألم. الألم الأول الكبير، الحقيقي الذي يصيبك أنتِ التي طالما تسقين بالدمع والحب والمواساة أتراحنا الصغيرة.

كان «لامرتين» يقول عن «غرازيللا»: (لقد أغرقت قلبها بأول دمعةٍ ذرفتها) ألم تفعلي مثلها أنتِ؟ وماذا ستفعلين الآن وقد أقبل زمن السيول؟)[1].

وبعد أن حدثها عن تألمه لموت أبيه في غيابه عن لبنان ختم خطابه بهذه العبارات:

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣٧١ ـ ٣٧٢ والرسالة مترجمة عن الفرنسية.

(عزاؤك أنكِ قمت بكل ما بوسع بنتٍ بارّةٍ أن تفعل لانتزاع أعزّ الناس عليها من الموت، ولكي تقدّري هذه التعزية حق قدرها يجدر بك أن تتخيّلي الهزّة المميتة التي انتابتني خلال فترةٍ طويلة، والشعور بوخز الضمير الذي لم يخمد بعد. إنك ترين أنني لست عديم الحسّ، كما يحلو لي أن أبدو، ولكن لا بد من المقاومة. هذا كل ما تنصحكِ به صداقتي، كما أن مزاولة النشاط هي أفضل دواءٍ لمكافحة الأحزان، فآمل أن تتاح لي فرصة سماع أصداءِ نشاطك.

تفضلي بتقديم تعازيّ باحترام إلى السيدة والدتكِ، وثقي، عزيزتي الزميلة والصديقة، بأطيب مشاعر المخلص لك كل الاخلاص

خ. خير الله)[1].

وهذا نصّ الكلمة التي نشرتها ميّ في عدد الأهرام الصادر في ١٣ نوفمبر ١٩٢٩ تحت تأثير جرحها النازف بعد موت أبيها بثلاثة أسابيع:

(يا مصر، يا مصر

أردت أن أنهض اليوم مما أنا فيه لألقي بين أصواتك صوتاً يليق بك وبنهضتك وآمالك. ولكن ما حيلتي بهذه العبرات التي تضعضع فكري، وتعمي بصري؟ ما حيلتي بهذا الشهيق يقطّع صدري، ويكبو عنده قلمي؟

منذ ثلاثة أسابيع ملّكتِني يا مصر في أرضك أرضاً أودعتها دفيني. ولئن ظلّلتني سماؤك، أنا الحيّة، ونفخت أنتِ فيَّ روحكِ، وغمرتني بعطفكِ فإن أغلى من كل ذلك تلك البقعة التي ملّكتنيها هناك، بين مضاجع الراحلين.

لك الفضل، يا مصر، في الحياة، ولكِ الفضل في الممات. ولئن

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣٧١ ـ ٣٧٢ والرسالة مترجمة عن الفرنسية.

انكسر قلمي، وبكم صوتي، وخانتني أنوثتي، فإن قلبي يعرف أن يهمس، من خلال الشهيق والعبرات:

عيشي يا مصر مصريةً

ميّ)[١].

المغالاة في طقوس الحداد من التقاليد السائدة في البلاد العربية كافةً لدى مختلف الطوائف، منذ العصور القديمة، وأكثرها مأخوذ عن الفرس وشعوب الشرق، ويبدو من وصف الدكتور منصور فهمي لزيارة التعزية التي قام بها يوم وفاة الياس زيادة أن ميّ وأمها كانتا متمسكتين بتلك التقاليد في أعنف تفاصيلها حيث قال:

(ومات أبوها ورأيتها تتقبل فيه عزائي مع بعض الإخوان المعزين، وهو لم يزل في غرفة موته، وأمها الشيخة تجلس أمامها في بهو الدار مولولةً، ناحبةً، والأديبة تصطنع التجلّد، وهي في آلامها الغائصة، وفي لباسها الأسود تجلس في كبرياء وتجلّد وخشوع)[٢].

وفي العاشر من كانون الأول عام ١٩٢٩ تلقت ميّ رسالة تعزيةٍ من جبران هذا نصّها:

(يا ماري، يا صديقتي العزيزة

عرفت اليوم أن والدكِ قد ذهب إلى ما وراء الأفق الذهبيّ، وأنه قد بلغ المحجّة التي يقصدها الناس كلهم، فماذا يا ترى أقول لكِ؟ أنتِ يا ماري أبعد فكراً وسمعاً من تلك الألفاظ التي يقولها الناس معزّين، مواسين. ولكن في قلبي الرغبة والشوق إلى الوقوف أمامكِ، وفي قلبي الحنين إلى ضمّ يدك بيديَّ صامتاً، شاعراً بكل ما يغمر روحكِ الحلوة، على قدر ما يستطيع القريب الغريب أن يشعر بما تشعرين.

---

(١) الأهرام ـ العدد ـ ١٦١٤٢ ـ ١٣ نوفمبر ١٩٢٩ ـ ص: ١٠.

(٢) محاضرات عن ميّ ـ منصور فهمي ـ ص: ٢٠٢.

والله يباركك يا ماري، والله يحرسك كل يومٍ وليلةٍ.

والله يحفظك لصديقكِ

جبران)[1].

حزنت ميّ، قبل وفاة أبيها، على أصدقاء أثيرين، كباحثة البادية، والدكتور يعقوب صروف، ورثتهما في حفلات التأبين التي أقيمت لهما في القاهرة، ولكن حزنها على أبيها لا يقارن بما سبقه من أحزان في حياتها. (كان لوفاة هذا الوالد البار تأثير عظيم في نفس الآنسة ميّ فذاقت لأول مرة مرارة الحزن البنوي العميق، وجرعت أول كأس لمأساتها الأخيرة منذ هذا المصاب الأليم، وابتدأت بهذا الحادث الجسيم قصتها المؤثرة)[2]. هذا ما كتبه الأستاذ طاهر الطناحي في كتابه «الحان الغروب»، وهو تصوير صحيح لحالة ميّ النفسية بعد أن فقدت أباها. إن ما يُلاحظ في مقالاتها التي نشرتها في «المحروسة عام ١٩٣١» عن قضايا «الموت والانتحار» وعن «فلسفة التشاؤم» وعن «المآتم الغريبة عند الشعوب»[3]، تأثير الحزن على تفكيرها، وتفاقم تشاؤمها. وعندما أخذت بنصائح أصدقائها المخلصين وزاولت نشاطها الأدبي، جاء ما نشرته صورة صادقة عن مزاجها السوداويّ الذي حصر تفكيرها بالموت والمآتم! وكان هذا المزاج يتجلى في رسائلها إلى أصدقائها المستشرقين إذ كتب إليها الدكتور جوزيف شاخت من المانيا في ١٣ ـ ١٢ ـ ١٩٣١ يقول:

(صديقتي العزيزة

أشكرك كثيراً على رسالتك الودية المؤرخة في ٢٧ كانون الأول وأعبّر لك عن أطيب تمنياتي، وإن جاءت متأخرة. لم أكن أعلم أن الحزن يستمرّ

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ رسائل جبران خليل جبران إلى ميّ زيادة ـ ص: ٢٠١ من الطبعة الأولى.

(٢) ألحان الغروب ـ طاهر الطناحي ـ ص: ٨٩.

(٣) صدرت هذه المقالات في أعداد المحروسة المؤرخة في ٢٠ ـ ١١ ـ ١٩٣١ و١٠ ـ ١٢ ـ ١٩٣١ و٣١ ـ ١٢ ـ ١٩٣١.

كل هذه المدة الطويلة نزولاً عند الاعراف الشرقية، وقد علمت بأسفٍ واشفاق أن حزنك لما ينته بعد. أرجو أن يجد السلوان طريقه إلى قلبك قريباً، وأن تخفّ وطأة الحزن عليه لأن كل هذه الأمور بعيدة الصلة بحقيقة عواطفنا نحو الذين سبقونا، بل هي على العكس تماماً، غالباً ما تجعلنا نحيد عن جادة الصواب، وتجعلنا ننسى ما غنموه بمفارقة هذا الوجود البائس، في حين أنه ينبغي أن نفرح لمصيرهم. إني لأذكر الآن ما قاله الفيلسوف «سوفوكل»: «أفضل شيءٍ على الإطلاق ألا يولد الإنسان، أو أن يموت بسرعة». ومع أني لا أرغب في التدخّل بشؤونك العاطفية الخاصة أعتقد أنك ستجدين قليلاً من العزاء في تأمل مثل هذه الأفكار، ولا سيما انكِ كتبتِ إليّ عن حاجتك إليه)[1].

كانت ميّ إذن تبحث عن العزاء، وتشعر بحاجتها إليه، فيمنعها حزنها الشديد وميلها الفطريّ لتنميته من السلوان!

وجّه إليها كاتب مجهول رسالةً مفتوحة في مجلة «النهضة النسائية» كان ينبغي أن تبرّد من حرقتها على أبيها حيث قال:

(لقد قضى أبوك دينه، ووفّى حقه، وترك في الحياة أثره، وله في الدنيا ذكره. فدينه حق بلاده عليه. خدمها طالباً نجيباً، ومعلماً رشيداً، وصحفياً قديراً. ولقد كان زوجاً عطوفاً، وأباً رؤوفاً. وإن كانت الصحائف لا يبيّضها إلا حسن الأثر، وجميل الذكر، فسيتقدّم أبوك بين يدي من فجعك فيه، فأذرفت الدمع سخيناً عليه، بصحيفةٍ طاهرة نقيّة فاتحتها «ميّ» وخاتمتها «ميّ».

«ميّ» التي رباها فأتقن تربيتها، وأدّبها فأحسن تأديبها، وعلّمها فوفاها علمها. مات الياس زيادة ولكن عاشت «ميّ» ورفعت قدره بتربيتها، وأحيت ذكره بآدابها، وخلدت أثره بعلمها. والذكر للإنسان عمرٌ ثانٍ)[2].

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣٨٤.

(٢) مجلة «النهضة النسائية» ـ القاهرة ـ العدد (١٢) ـ كانون الأول ١٩٢٩.

ولكنها ظلت ملتاعةً، متشحةً بالسواد، تقابل الأصدقاء خجلاً منهم ولا تجفّ دموعها. والغريب في موقفها من الموت أنها كانت مؤمنة، ولكن يبدو أن طبيعة التفجع المتأصلة فيها، وعمق عاطفتها البنوية كانا أقوى من الإيمان وكأن خيرالله خيرالله كشف حجب الغيب عندما قال لها في رسالته: (وماذا ستفعلين الآن وقد أقبل زمن السيول؟) ذلك أن أمّها ماتت إثر إصابتها بنزلة صدرية حادّة. في أواخر شهر شباط عام ١٩٣٢، بعد موت جبران بأقل من سنة واحدة! فآثرت العزلة، ورفضت استقبال المعزين بأمّها وهذا أكبر خطأٍ ارتكبته بحق نفسها! ومما يؤكد ما نقول هو رسالة صديقها الكبير الأستاذ اميل زيدان التي أرسلها إليها، عقب وفاة والدتها بأيام، وهذا نصّها:

(دار الهلال - ٢٩ - ٢ - ١٩٣٢

سيدتي الصديقة الكريمة

أما وقد حالت رغبتكِ - بل فرط حزنكِ - دون حضور الأصدقاء إلى جانبك أمس فهذه كلمة أبعث بها إليكِ حاملة شعوري الصادق العميق، ومشاركتي لك في هذا المصاب الذي يكفي أن يقال عنه إنه «فقد الأم». وفي الحق أن الدهر جار عليكِ وطغى فلم يمهلك إلا فترةً قصيرة بين فقد أعزّ شخصين لديكِ. وليس لمثلي، أيتها الصديقة، أن يحثّكِ على الصبر والمجالدة، فالآنسة ميّ كبيرة في قلبها، كما هي كبيرة في عقلها وحكمتها. وفي مقدمة ما يعزيك ما تركته الراحلة الكريمة من الذكر الطيب القائم على طهارة النفس، وجمال الشمائل. رحمها الله بقدر حسناتها.

وإذا كان للصداقة شأن في تخفيف مصابٍ كمصابك فهذه صداقتي الأكيدة أضعها بين يديكِ، مصحوبة بالاعزاز والاحترام والاخلاص

اميل زيدان[1]).

• كان لا بدّ من أن تستولي الوساوس والأوهام على ميّ في عزلتها، وأن

---

(١) مي زيادة وأعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص: ٣٨٨.

تؤدّي إلى انهيار صحتها مما أقلق اصدقاءها جميعاً. حاول كلّ من العقاد والجميّل، والدكتور طه حسين وخليل مطران وغيرهم من رفاق العمر، ورواد الندوة الضغط عليها لاخراجها من تلك العزلة فكانوا ينجحون مرةً، ويخفقون مرات. وهذا ما كتبه الأستاذ العقاد في هذا الصدد:

(كان الجميّل يؤثر نصيحة ميّ برعاية صحتها وراحتها على النصيحة بالتحرر والانطلاق من قيود التحرّج والاحتجاز. وقد كانت له شدة بلغت منه غاية ما يستطيع بمزاجه «الديبلوماسي» المطبوع كلما لحظ عليها نوبات العناد والاصرار في أيام مرضها، فربما قال لها، وهو يظهر عدم المبالاة: (ماذا تظنين وأنت تهملين نفسك وصحتك هذا الإهمال؟ أتظنين أن العالم العربي يحفل من احتجاجك الصامت هذا، ويجلس للبكاء عليكِ، أو للضراعة بين يديكِ؟ التفتي إلى نفسك... التفتي لمصلحتكِ وإلا فأنت البالية وحدك لما يصيبك من هذا الإهمال، وهذا العناد)[1].

المرجح أن مثل هذا النصح من أصدقائها المخلصين قد أثّر فيها خلال فترةٍ وجيزة، ولكنها عادت إلى العزلة التي فرضتها على نفسها، دونما مبرّر منطقي! لقد تدرّجت في هذه العزلة تدرجاً بطيئاً ما بين عام **١٩٣٢** وعام **١٩٣٥** في رأي الدكتور طه حسين، الذي كتب يقول:

(آثرت ميّ الوحدة، وألحّت على نفسها في العزلة، أو قل إنها تدرّجت في هذا الطريق تدرجاً بطيئاً أول الأمر، ولكنه سريعٌ، ملحٌّ، آخر الأمر. أخذ ميلها إلى العزلة يظهر بعد أن فقدت أبويها، وبعد أن غمر الحزن نفسها المشرقة، ولكنها لم تقطع صلتها بالناس فجأةً، وإنما قلّلت لقاءهم، وتجنّبت ما يدعو إلى هذا اللقاء، وأخذت تلقى الناس بميعاد يطلبونه، وتستشير المذكرات لتحديده. وأخذت المذكرات تبخل بهذا التحديد شيئاً فشيئاً حتى أصبح لقاء ميّ مقتصراً على أصدقائها الأدنين، وكنت بين الذين شرّفتهم بهذه الصداقة.

---

(١) رجال عرفتهم ـ عباس محمود العقاد ـ ص: ٢١٧.

كنت ألقاها بين حينٍ وحين فنستخلص لأنفسنا من الدهر وأحداثه ساعة أو ساعات نتحدث فيها أدباً وفلسفةً، جادّين حيناً، ومازحين حيناً آخر، وكان سكرتيري ثالثنا في هذه الإجتماعات. وكان لنا رابع يحضرنا دائماً وهو ذلك الابريق الذي كان ممتلئاً دائماً من شراب الورد، نستسقيه غير مرة في هذه المجالس العذبة، المرّة، فقد كانت هذه المجالس مرّةً في كثير من الأوقات. ما ذلك إلا لأن مياً كانت في طور الحزن اللاذع، والألم المحضّ، والتشاؤم الذي كان يُسرع إليها كما كانت تسرع اليه. وطالما دفعت عنها هذا التشاؤم، وطالما حاولت أن أردّ عنها هذا الحزن المهلك، ولكن لم أكن أدنو إلى النجاح إلا ليردّني الاخفاق. وكنت أريد أن استنقذها من تشاؤم أبي العلاء، ومن الإسراف في التأثر برجال الدين، ولكن أبا العلاء ورجال الدين كانوا أقوى مني ومن غيري أيضاً. وربما كان أظهر شيء لزم حياة ميّ في هذا الطور، حبّها لحياة القدماء وآثارهم، وإلحاحها في قراءة التاريخ، وحرصها على زيارة الآثار، والوقوف أمامها. وقد الححت عليها غير مرةٍ في الخروج من دارها للرياضة فكانت تمتنع وتأبى، غير أنها قالت لي ذات يوم: «إن كنت تريد أن أخرج فاصحبني إلى الهرم فإني أحب أن أقف موقف عبرة واتعاظ أمام أبي الهول». وقد صحبتها إلى هذه الآثار، وكانت أحاديثها عن الروح المصري القديم من أروع الأحاديث وأعمقها تأثيراً في النفوس. ثم تتخفف ميّ من علاقاتها الاجتماعية شيئاً فشيئاً، ويصعب علينا حتى اقناعها بشهود الإجتماعات التي كان يعقدها نادي القلم)[1].

وإذا شئنا أن نقف على مغالاتها في الحزن، التي تذكرنا بمراثي الخنساء، فما علينا إلا أن نستشهد بقولها إلى صديقها الإيطالي «فالنتينو بيكولي» يوم كتبت إليه تعلمه بأن: «روحها أضحت أطلالاً» بعد موت أمّها، فقد كتب إليها معزّياً، مواسياً، فقال في رسالته المؤرخة في التاسع من نيسان عام ١٩٣٢:

---

(١) ميّ أديبة الشرق والعروبة ـ محمد عبد الغني حسن ـ ص ٤٣.

(جملتك: «روحي أضحت أطلالاً» كادت تحطمني لولا اعتقادي الجازم، الناجم عن مِحَنٍ مماثلة، بأن مثل هذا التهدّم لا يدوم، وكثيراً ما تعقبه تجارب حياتية خلّاقة. إن موت الأم، يا صديقتي هو أكثر ما يؤلم الإنسان في حياته، والذي يخاطبك اليوم فَقَدَ أمّهُ يوم كان في السادسة من العمر فحُرم من رَغَدِ الطفولة وهناءتها. لهذا أقول إنه ينبغي ألا نلجّ في تمنياتنا على الله، وأن نعترف بأنه مَنَّ علينا بالعطاءِ وفضّلَ إذا ما أُنعمَ علينا بوجود الأم وحنانها، في طفولتنا وشبابنا، كما حدث لكِ أنت، وإن استردها منك الآن!

وأرجو يا صديقتي أن تفكري بمدى ألم أمكِ لو تَسَنى لها أن تقرأ عباراتك المروعة. انني أدرك انك فقدت لذة العيش، بعد موتها، ولكني أُجْزَعُ عليك إذا فقدتِ إيمانك)[1].

أجل لقد فقدت ميّ لذة العيش بعد موت أمها ولكنها لم تفقد إيمانها، حتى بعد المأساة التي حلت بها سنة ١٩٣٦، وهذا الإيمان القوي المترسخ في قلبها هو ما منعها من الانتحار، لأن الانتحار إثم كبير لا يغتفر. وينبغي ألا ننسى أنها فقدت أمها بعد موت أبيها، وموت جبران، فظلت بعدهم وحيدةً، لا رفيق ولا زوج، ولا أخ ولا أخت ولا ولد، وهي تجتاز مرحلة دقيقة من مراحل حياة المرأة ما بين الخامسة والأربعين والخمسين من العمر. كما ينبغي أن نشير إلى أن ميّ الإنسانة كانت أضعف بكثير من ميّ الأديبة فبقدر ما كانت الكاتبة النابغة قوية العزيمة، وقوية الثقافة، وقوية الشخصية، كانت في الوقت ذاته المرأة الحنون، التائقة إلى وجود رجلٍ قوي إلى جانبها، تحبه ويحبها، وإلى أطفال تنجبهم وتغدق عليهم عاطفة الأُمومة المخزونة في نفسها. أولم تخاطب جبران في مقالتها: «أنت أيها الغريب» معربةً عن حقيقة مشاعرها وطبيعتها ونوازعها بقولها: (سأفزع إليكَ عند إخفاق الأماني، وأبثّك

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٠٠ ـ ٤٠١.

شكوى أحزاني، أنا التي تراني طروباً، وأحصي لك الأثقال التي قـوّست كتفي، وأحنت رأسي منذ فجر أيامي، أنا التي أسير محفوفةً بجناحين، متوجةً بإكليل! سأدعوك أبي وأمي متهيبةً منك سطوة الكبير، وتأثير الآمر! سأدعوك قومي وعشيرتي أنا التي تعلم أن هؤلاء ليسوا دواماً بالمحبين. وسأدعوك أخي وصديقي أنا التي لا أخ لها ولا صديق. وسأطلعك على ضعفي واحتياجي إلى المعونة أنا التي تتخيّل فيَّ قوة الصناديد، ومناعة الأبطال! وسأبينّ لك افتقاري إلى العطف والحنان، ثم أبكي أمامك وأنت لا تدري...)[1].

قليل من التبصّر بهذه العبارات يحملنا على الاعتقاد بأن موت جبران قضى على آمالها وكان الحزن الأكبر في حياتها، والسبب الرئيسي في الإسراف بالتفجع على أمها، وفي يأسها الذي جعلها تفرض العزلة على نفسها. فلو بقي جبران حياً، وإن كان بعيداً لا تراه، لما شدّت الأحزان الخناق على أنفاسها، ولما فقدت الأماني، وبقيت تدور في أرجاء بيتها، وتجتر ذكريات ماضيها، فلا تجد إلا الفراغ، والصمت والوحشة! فكيف لا تمرض وتنهار أعصابها، ولم يعد يلوح في أفقها أي رجاء، وكيف لا تشيخ روحها، وقد شاخت أحلامها، وبليت آمالها؟ ولو قُيض لها أقرباء محبون، أو أصدقاء أوفياء يلازمونها في أيامها السوداء، وينشلونها من الغرق في لجّة التشاؤم لما أصابها ذلك «العصاب النفسي» المضني الذي جعلها فريسة الارتياب بالحياة والناس، وفريسة الوساوس والأوهام. كانت وحدتها آنذاك «وبالاً عليها»، كما كتبت الأديبة وداد سكاكيني في وصف مرضها ومحنتها، وتحليل دوافعها: (فلو أن ميّ عاشت في بيتها مع صديقةٍ صادقة، أو قريبةٍ مخلصة لكانت سلواها وغيثها في شكـواها، لكنهـا حُرمت طمـأنينة القلب والبـال، وحنان القـربى، والمودة والجوار)[2].

---

(١) ظلمات وأشعة ـ ميّ زيادة ـ ص: ٩٩.

(٢) ميّ في حياتها وآثارها ـ وداد سكاكيني ـ ص ١٧٥.

افتقدت ميّ حنان القربى لأنها جافتهم وجافوها فيما سبق من السنين، وافتقدت المودة والجوار لأنها غالت في التبحر بالعلم وخالطت أدباء من صفوة معاصريها، تنتهي صداقتهم بانتهاء روابط الزمالة الأدبية، وافتقدت الأصدقاء الحقيقيين لأن وقتها لم يتسع فيما مضى لِغَرْسِ بذور الصداقة لكي تنعم بازهارها وظلالها وثمارها. كل هذا أدى إلى تبرّمها بالحياة عندما تجهمت الأيام في وجهها، وكأنها غفلت عن ذلك يوم كانت تملأ الدنيا وتشغل الناس، وهي في أوج صباحا ومجدها! لقد غفلت ميّ عن أمورٍ أساسية في حياة الإنسان، ولا سيما المرأة، منها أن العمر حلم سريع لا ندري كيف ينقضي، ولا أين؟.. ومنها أن أهم مرحلة في حياة الفرد هي آخر مرحلة في عمره، لأن الكهولة السعيدة هي التي تتوّج الحياة، وتتطلّب منها شروطاً لا تتم إلا بالاستعداد لها في سن الشباب، فعلى كل منا أن يفكر بها مسبقاً، ويغرس في دربه المودة والحنان. لقد نسيت ميّ أن الأبوين لا يدومان، وأن المجد هفهاف، وأن المال كالدهر خداع، وأن ما يمكث في الأرض ويزهر ويثمر في الختام هو الحب والصداقة بقدر ما هو الجد في العمل، والإخلاص له، .والبذل من أجل اتقانه... نسيت أن من واجب الإنسان تجاه نفسه أن يستعدّ لشيخوخته في صباه على الصعيد العائلي والإجتماعي والعاطفي، وأن الزواج بالقياس إلى المرأة والرجل، ولا سيما المرأة الشرقية، أمر كبير الأهمية، وضرورة وحاجة روحية وعاطفية بقدر ما هي جسدية! غفلت ميّ عن هذه الحقائق وغالت في مثاليتها، وورومنطيقيتها، واهتمامها بالعلم والأدب والصحافة والخطابة وعقد الندوات، والتمثّل بالرجال في عصرٍ ومجتمع لا يرحمان أديبة عالمة متصوّفة في الأدب والعلم! وغفلت كذلك عن أن الحياة ليست كلها أدباً وعلماً وفناً لأنها في الواقع أرض وسماء، غذاء للجسد وغذاء للروح، أخذ وعطاء، حتى إذا غفلنا عن هذا الواقع، وأهملنا أنفسنا ومتطلباتنا الغريزية، ومن أشرفها إشباع غريزة الأمومة المتأصلة في المرأة، عبست في وجهنا الحياة، وانتقمت منا أشدّ انتقام بالتخلي عنا في نهاية المطاف، ودفعنا إلى هوّة الوحدة والوحشة والحسرات!

لهذا كله أحسّت ميّ بأن مصر، على رحبها، ضاقت في عينيها يوم بلغت عتبة الكهولة، ففكرت بالسفر إلى أوروبا أملاً بالترفيه عن نفسها، واسترداد الطمأنينة والعافية، وكتبت إلى صديقها المستشرق الكبير «السير هاملتون جيب-Sir H. A. R.Gibb» تعلمه بعزمها على قضاء الصيف في لندن، وبرغبتها في متابعة المحاضرات التي تلقى في جامعتها خلال اشهر الصيف. وقد أجابها برسالة في ٧ ـ ٥ ـ ١٩٣٢ جاء فيها ما يلي:

(سأغادر البلد لبضعة أيام وعليه فالجواب الكامل عن سؤالك سيتأخر ـ واني استميحك العذر ـ ولكنني استطيع القول فوراً إنه يوجد موادّ تدرّس في لندن في الصيف، في المواضيع التي أشرتِ إليها. سأرسل لك، فور عودتي، كل التفاصيل عن هذه المواد، راجياً أن تكون هي نفسها المواد التي تريدينها.

هل من حاجة إلى القول إنه يسعدنا كثيراً أن نراك في انكلترا؟

مع أطيب تحياتي

هـ. ا. ر. جيب)[1]

وحملت ميّ همومها معها في طريقها إلى انكلترا حيث قضت أربعة أشهر في لندن، تتابع المحاضرات في جامعتها، وتزور متاحفها، وتتصل بأصدقاءٍ لها فيها. علمنا من مغلّف الرسالة «المصور لاحقاً» أنها أقامت في فندق «ليسستر كورت»، وأنها كتبت إلى صديقها الأستاذ حافظ عفيفي، وزير مصر المفوض في المملكة المتحدة آنذاك، تعلمه بوجودها في لندن إذ كتب إليها في ١٥ ـ ٨ ـ ١٩٣٢ الرسالة التالية:

(سيدتي

إني آسف شديد الأسف لتغيّبي عن لندن الذي حال دون التشرف بتسلّم خطابك الكريم، قبل صباح اليوم. أكون مسروراً جداً لو تفضلتِ

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣٩٧. والرسالة مترجمة عن اللغة الانكليزية.

بالحضور غداً، الساعة الثامنة مساءً لتناول العشاء معي، وبصحبة بعض أصدقائك من المصريين المقيمين بلندن الآن، وعنوان المفوضية هو:

75 South Audley Court

ولك زائد الشكر، وتفضلي بقبول فائق احترامي

المخلص: حافظ عفيفي)[١].

ومن لندن توجهت ميّ إلى باريس في شهر تشرين الثاني حيث أقامت في فندق «كي فولتير» استناداً إلى مغلّف رسالة بعث بها إليها صديقها الإيطالي «فالنتينو بيكولي» لذلك العنوان، ثم أقفلت عائدة إلى القاهرة.

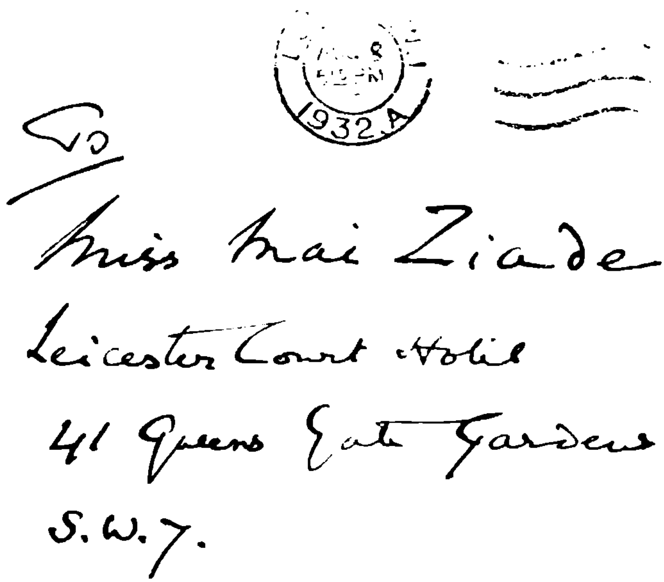

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٠٥.

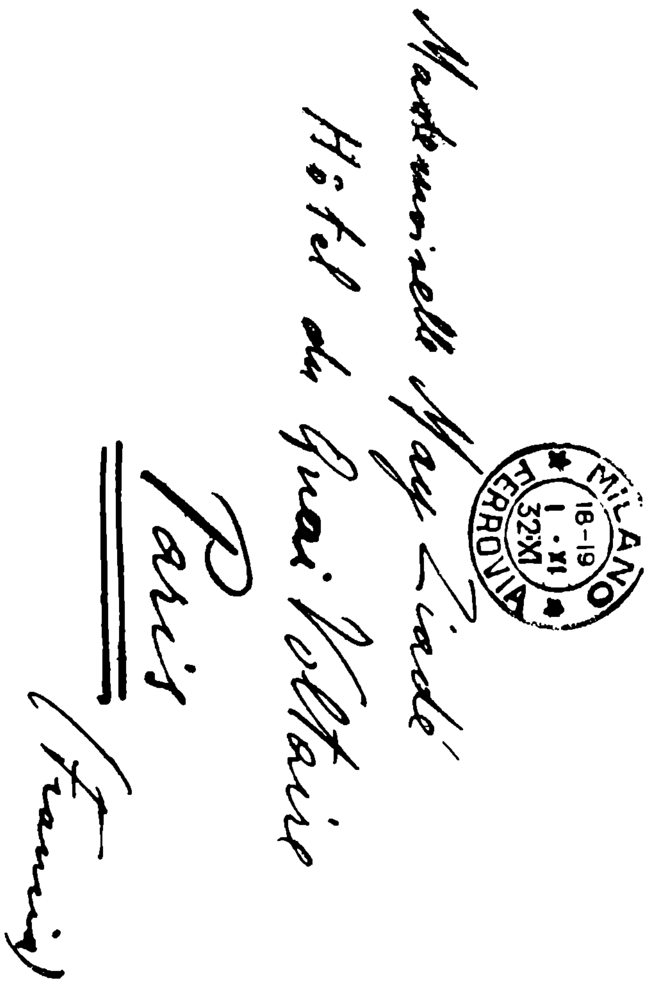

Mademoiselle May Ziadé
Hôtel du Quai Voltaire
Paris
(France)

بذلت ميّ قصارى جهدها في تلك الرحلة لتسرّي عن نفسها همومها وأحزانها، ولكن تلك الهموم والأحزان كانت ملتصقة في أعماقها بدليل ما قالت لفالنتينو بيكولي، في رسالة وجهتها إليه من باريس، وأجاب عليها بتاريخ ١ ـ ١١ ـ ١٩٣٢ فقال:

(. . .في هذه الأثناء أواصل الحديث عن نفسي في حين أنه بودّي أن أقول لكِ كم أنا قريب منكِ، وكم يحزنني أنك ما زلتِ ترزحين تحت وطأة حالتكِ النفسية المؤلمة تعالي. تعالي إلى إيطاليا! إن في أرضنا علاجات كبيرة، سحرية وغامضة لآلام النفس، أتعرفين؟ أتعرفين؟ عندما كنت على متن الباخرة فكرت في أخطاء عمري كلها، وتمنيت، أكثر من مرة، أن ارتمي في أحضان هذا المحيط العذب، ذي الجاذبية العظيمة، التي لا تقاوم، في الليل خاصةً. والآن اكتفي بتأمل شمس الخريف الباهتة التي تبتسم فأشعر بحب الحياة من جديد، على الرغم مما يحيط بنا من شرور. إنه التفوّق، التفوّق على الذات: هذا ما يجب أن نمارسه كل يوم، كل لحظة، بعزمٍ لا يلين. أتمنى لو أتمكن من التحدث إليكِ عن ذلك فإن في مثل هذا الحديث فائدة لكلينا. اعلميني بتاريخ عودتك، وبما إذا كنت ستتوقفين بأي مرفأ إيطالي، أو تأتين إلى ميلانو. وإلى أن يحين موعد العودة اكتبي إليّ باستمرار، وثقي بإخلاص مشاعري،

فالنتينو بيكولي)[1]

يتضح لنا مما ورد آنفاً أن ميّ أفاضت إلى صديقها الإيطالي بنوازعها، وأنها كانت ترتاح إليه، وتستأنس بمراسلته، ولكنها عادت من باريس إلى مصر حيث قضت شتاء عام ١٩٣٢ تحاول الكتابة دون جدوى، ففكّرت بالسفر إلى

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٠٨ ـ ٤٠٩. وهذه الرسالة مترجمة إلى اللغة العربية عن اللغة الإيطالية.

أوروبا من جديد، وطلبت منه معلومات عن منهج جامعة «بيـروجيا» في الصيف، فأرسل إليها خطاباً مطولاً في ٢٥ ـ ٥ ـ ١٩٣٣ وصف لها فيه مدينة «بيروجيا»، وزوّدها ببرامج محاضراتها الصيفية التي يتناول فيها كبار الأساتذة موضوعات الفن وعلم الآثار والتراث الإيطالي. ثم ختم رسالته بقوله:

(...لذا كله أحسب أن الإقامة في هذه المدينة ستكون محببة إليكِ، وتمنحك فرصة طيبة لتحسين لغتك الإيطالية، والإحاطة بـالحياة الفكـرية والفنية في بلدنا. وإذا ما وضعنا الإيجابيات والسلبيات في كفتيّ الميزان لا أرى داعياً لإيثار لندن على بيروجيا.

أما مدة إقامتي فيها فستكون قصيرة لأن عدد محاضراتي لا يتجاوز ثلاث محاضرات أو أربع، وقد ألقيها على مرحلتين. أرجو أن تأخذي ذلك بعين الاعتبار، وأكرّر قولي بأنني سأصلك بأناسٍ ممتعين سواء من سكان المدينة، أو من طلابها الأجانب الذين يؤمونها كل عام. وتقبلي أسمى تحياتي القلبية،

المخلص لك فالنتينو بيكولي)[١]

في أواخر شهر حزيران عام ١٩٣٣ أبحرت ميّ من الاسكندرية إلى إيطاليا ودخلت «نابولي» في الرابع من تموز حيث قضت أشهر الصيف في مدينة «بيروجيا»، وغادرت إيطاليا عائدة إلى مصر في اليوم العاشر من تشرين الأول. هذه التواريخ مسجلة في جواز سفرها المصري[٢] ذي الرقم ٣٧٧٥٠ الذي كانت تحمله يومذاك، وهذه صورة لأختام الأمن العام الإيطالي المشيرة إلى تاريخيّ دخولها نابولي وخروجها منها.

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤١٥. والرسالة مترجمة عن اللغة الايطالية.

(٢) عثرنا على ذلك الجواز بين أوراق شخصية ميّ ـ احتفظ المرحوم الدكتور جوزيف زيادة وتفضل بإعطائها لنا عام ١٩٧٢.

- 10

[illegible]

Visas.—إشارات الإلغاء

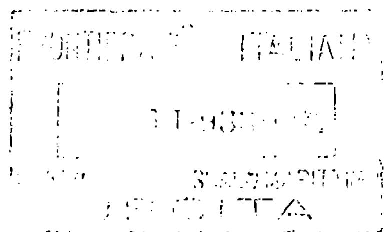

ليس بوسعنا أن نلمّ بكل ما فعلت إبان تلك الرحلة، ولكننا نستطيع أن نؤكد شيئين: الأول أنها أقامت في بيروجيا مدة طويلة، وطبّقت البرنامج الذي رسمه لها صديقها «بيكولي»، والثاني أن حالتها النفسية كانت متردّية، وأنها أصيبت بوعكة صحية في إيطاليا. وقد عثرنا على مخطوطةٍ هامة بقلمها وتوقيعها، بين أوراقها المتشردة في مصر، عنوانها: «من ذكريات الصيف ـ صلاة يوم الأحد» يجدها القارىء ملحقةً بهذه السيرة، إلى جانب مقالات أخرى، وحديث إذاعي من أعمالها المخطوطة التي لم تُنشر قبل اليوم. ومع أن هذه المخطوطة لا تحمل تاريخاً فإن مضمونها يوضح أنها كُتبت في ذلك الصيف في مدينة «بيروجيا» لِما تضمنت من وصف لها، ولكنائسها وحرّها وشوارعها. يكفي أن نقرأ تلك الصفحات الرائعة السبك لنقف على شدة حزن ميّ، ونتأكد من أنها كانت في أشدّ حالات التشاؤم بالحياة والزهد فيها. يبدو أنها قصدت كاتدرائية «سان بيترو» للصلاة فيها يوم الأحد فوجدتها مغلقة مما حدا بها إلى القول:

(. . . فيُخيّل إليّ أن سلام الكنيسة مضطرب، يناصبني العداء لأنه يأبى أن يكون لي ملجأً أنا التي جئته من بعيد. أدارَ العبادة أَوَ تُخيِّبينَ آمالَ المستجير في رحماكِ؟) ومن المقطوعة ذاتها نعلم أنها عادت أدراجها تبحث عن كنيسة أخرى تصلي فيها، فاشتدت حرارة الشمس في المدينة، وتملكها التعب، إذ جاء فيها ما يلي:

(عليّ الآن أن أتسلّق في تضجّرٍ وعناءٍ عديد الدرجات العصيّة صعوداً إلى الأزقّة الضيقة، المتعرجة، لأتمكن من الوصول إلى «الدومو» قبل فوات الأوان!).

وبعد أن ولجت الكنيسة جلست بين المصلين ترقب ما حولها من تماثيل، ونقوش، ووافدين، فاستوقفت نظرها امرأتان في ثياب الحداد، واقفتان وراء نصبٍ تذكاري قائمٍ في ردهة المعبد، يخلّد ذكرى الجنود الذين قتلوا في الحرب. فسال قلمها وأبدع في وصف جنديٍّ صريعٍ هو أبرز ما في

النصب، وفي تصوير مشاعر البطولة والشجاعة والتضحيـة التي تملكته في اللحظات الأخيرة من حياته. ثم ختمت ذكرياتها بالعبارات التالية، الدالّة على تردّي حالتها النفسية يومذاك.

(قلّ ما اشتركت في صلاة ذلك الأحد، وقلّ أن اتصلت روحي بروح المصلين حولي، ولكني، بعاطفةٍ متعددة متناثرة شعرت بأني على اتصالٍ وثيق بروح الجنديّ الصريع)[1].

أما الدليل على أنها أصيبت بوعكة صحية في تلك الرحلة فهو ما جاء في رسالة وجّهها إليها المستشرق الدكتور «جوزيف شاخت» في ٣١ - ١ - ١٩٣٤، استهلها بما يلي:

(صديقتي العزيزة

شكراً جزيلاً على رسالتك اللطيفة المؤرخة في ١٧ من الشهر الجاري التي تسلمتها البارحة. وبما أن البريد يسافر هذا اليوم أردت الإسراع في الكتابة إليك لأشيد بالمفاجأة السارة التي غمـرتني إذ علمت بتغلّبك عـلى الحزن، وتخلصك من وطأته الممضة التي جثمت طويلاً على نفسك. لم يبق أمامك الآن سوى نسيان المرض الذي ألمّ بك في الصيف الفائت، وأرى أنك اتجهت في سيرك نحو عهد جديد من النشاط المستمرّ، وأنت تنظرين إلى الأمام من غير التلفّت إلى الخلف)[2].

وهكذا نرى أنها زفّت بشرى شفائها من المرض، وتغلّبها على الحزن الشديد الذي أمضها إلى صديقها «جوزيف شاخت» بعد رجوعها إلى مصر من إيطاليا. كانت تلك الرحلة آخر رحلاتها إلى أوروبا، فخرجت من عزلتها السابقة في إثرها، واستأنفت نشاطها الأدبي في سنتي ١٩٣٤ و١٩٣٥ حتى

---

(١) يجد القارىء هذه المقطوعة منشورة بكاملها في الفصل الملحق لهذه السيرة بعنوان: «صفحات مطوية من أدب ميّ».

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص: ٤٢٢ والرسالة مترجمة عن اللغة الفرنسية.

منتصفها تقريباً. كانت تكتب وتحاضر، وتستقبل بعض الأصدقاء الكتاب أمثال الدكتور طه حسين، وانطون الجميّل، والدكتور فؤاد صروف وأحمد حسن الزيات مما أتينا على ذكره في فصليّ: «الخطيبة والمحاضرة» و«ندوة الثلاثاء». كما أنها استجابت لدعوة الاتحاد النسائي العربي فكتبت مقدمة كتابٍ أصدره بعنوان: «المؤتمر الرابع» التي (زادت بقيمة الكتاب أضعافاً) حسبما ورد في رسالة شكرٍ وجهتها إليها الأديبة: «روز شحفة»، سكرتيرة لجنة المؤتمر، بتاريخ ٨ ـ ٥ ـ ١٩٣٤[1].

كانت ميّ، في تلك الفترة من عمرها، دائبةً على العمل والانتاج، متألقة الفكر، لا تبخل على صحيفة أو صديق بأدبها ورعايتها وظرفها، كما أنها استجابت لطلب الإذاعة المصرية، التي كانت حديثة العهد يومئذٍ، فأسهمت في برامجها، وسجلت لها بضعة أحاديث عثرنا على واحدٍ منها بين أوراقها ونشرناه في ملحق هذه السيرة. كان هذا الحديث بعنوان: «مؤسس الإسكندرية» وقد تحدثت عن أعمالها الإذاعية إلى ابن عمها وصديقها فؤاد زيادة (سيادة المطران اغناطيوس زيادة حالياً) في رسالةٍ بعثت بها إليه في ٧ ـ ٧ ـ ١٩٣٥، جاء في آخرها ما يلي:

(... سأخبر محطة الراديو عن عيوب الإذاعة استناداً إلى ما أفضيت لي به في خطابك. وقد وعدت بالكلام مرتين خلال هذا الشهر: في ١٤، الساعة السابعة مساءً، والموضوع: «من الربيع إلى الصيف»، وفي ٢٩، الساعة الثامنة مساءً على ما أظن، والموضوع: «إسكندر المكدوني، مؤسس الإسكندرية» ولكني أظن أن برامج الإذاعة تُنشر دائماً في صحفكم، أليس كذلك؟

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٢٦.

واصل مع هذا الخطاب ثلاث مجلدات تحوي بعض ما كتبته مؤخراً، تلبيةً لطلبك، أو بالحريّ: طوعاً لأوامرك يا مولانا! وفي هذين اليومين سأكتب للأهرام إن شاء الله. تعبت من الورق والقلم والكتابة، ومع ذلك أنا أسيرتها جميعاً. أفٍّ من هذا: (Le Mal Necessaire)![1] مع العواطف الأخوية

ميّ[2]

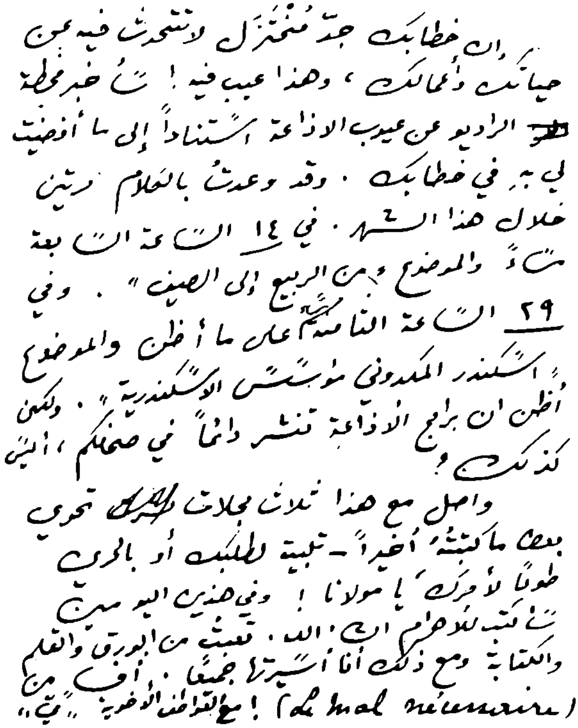

إن خطابك جدّ مختزل وتتحدث فيه عن حياتك وأعمالك، وهذا عيب فيه! سأخبر مجلة الراديو عن عيوب الاذاعة استناداً إلى ما أوضحت لي به في خطابك. وقد وعدت بالكلام مرتين خلال هذا الشهر. في ١٤ الساعة السابعة والموضوع «من الربيع إلى الصيف». وفي ٢٩ الساعة الثامنة على ما أظن والموضوع «الاسكندر المكدوني مؤسس الاسكندرية». ولكن أظن ان برامج الاذاعة تنشر دائماً في صحفكم، أليس كذلك؟

واصل مع هذا ثلاث مجلدات تحوي بعض ما كتبته أخيراً - تلبية لطلبك أو بالحري طوعاً لأوامرك يا مولانا! وفي هذين اليومين سأكتب للأهرام ان شاء الله. تعبت من الورق والقلم والكتابة ومع ذلك أنا أسيرتها جميعاً. أف من (Le Mal necessaire)! مع العواطف الأخوية «ميّ»

---

(١) أي: «الألم الذي لا بُدّ منه».

(٢) هذه الرسالة من ضمن الوثائق التي عثرنا عليها في منزل نسيبها السيد نجيب زيادة بالقاهرة، وتكرم بإعطائنا إياها.

أضحت الكتابة إذن «الألم الضروري» في حياتها، فما أبعد الفارق بين اقبالها على التأليف في شبابها وفي ذروة نضجها، وبين تذمّرها منه في سنوات الكرب والحزن والوحدة! إننا نلحظ في حديثها عن مؤسس الاسكندرية مناجاةً للبحر تعرب عن أساها العميق، وغمها وانقباضها، فقد خاطبته بهذه العبارات:

(سلاماً أيها البحر ـ ما أجملك بعيداً عن الأرض المكتظة بالأحزان والكلوم! سلاماً أيتها الحياة، ما أهنأك متملّصةً من كابوس الانقباض والغموم!) [1].

إن أقل ما يقال عن حالتها النفسية إذ ذاك أنها كانت رازحة تحت كابوس الانقباض والغمّ. ومهما حاول الكاتب أن يغالب معاناته فلا بد من أن تظهر بصماتها في فقرةٍ من مقالة يكتبها، أو فصل من دراسة ينشرها، أو رسالة يوجهها إلى صديق أو قريب.

ذكرنا سابقاً أن صلة ميّ بمجلة الرسالة وبصاحبها الأستاذ أحمد حسن الزيات قد توثقت في تلك السنة، فقد أعادت نشر مقالة قديمة لها بعنوان «هوذا الربيع» (كانت قد نشرتها في «الهلال» عدد شهر مايو ١٩٢٣) بعد إجراء تعديلات طفيفة عليها. والمقالة في الأصل حزينة، تنبىء عن تشاؤم ميّ، وتحسسّها بآلام المحرومين من الحب والسعادة والوفاء، وأغلب الظن أنها انتقتها لكونها تعبر عن تأسّيها وحزنها الدفين، ويأسها في تلك الآونة العصيبة من حياتها، وهذا بعض ما جاء فيها:

(أنا الينبوع الصافي، وهو ذا الربيع!
ظليلة تحنو الشجرة عليَّ، وأنا في فيئها الحنون جاثم.
بلورية الجلباب، بلورية الرنين تتلاحق مياهي،

---

(١) راجع الملحق بهذه السيرة تحت عنوان: «صفحات مطوية من أدب ميّ».

وقد أودعها الربيع لاعج الشوق، ووصب الحياة،
وتتوالى الساعات فلا يتفيّأ شجرتي شريد الهجير،
ومرآتي المتثنّية لا ترسم وجه المرتوي الشكور...
ليس من عابرٍ غير ذاك الذي أخذ مني ما أخذ
ليقذفني بالأحجار، ويترك منه تذكاراً اللعنة والأقذار!
وبت أحلم بالذين طوحت بهم السبل فهاموا في القفر عطاشاً،
بينما مدرار أجاجي يناديهم وينطق باسمهم جزافاً.
ولامستني مواسيةً، في الظلام، الأفنان، فاستحالت مياهي عبرات
وغدا نشيدي شهيقاً وانتحاباً:
الربيع الحزين، هو ذا الربيع!
ربيع الجحود والهجران، كيف أحتمل الربيع؟)(1).

كان يأس ميّ في صيف عام ١٩٣٥ أقوى من تجلدها فأجهز على ما تبقى من آمالها في التغلب على العقبات. أخذت تفرط في التشاؤم وفي التدخين، وتهتم بالروحانيات وحتى بتحضير الأرواح: (واندفعت وراء مطالعة كتب الفلسفة والتصوف والعلوم الروحانية فقرأت «فرويد» و«كانت» و«سبينوزا» ودرست علم مناجاة «الأرواح ـ Spirltisme»، وأخذت تمارسه في جلساتها الخاصة)(2). هذا ما كتبه الدكتور جميل جبر، ولكن اهتمام ميّ بمناجاة الأرواح يعود إلى سنواتٍ خلت، فقد نشر الأستاذ أنيس ناصيف، ابن أخت صديقها الدكتور يعقوب صروف الذي توفي في القاهرة سنة ١٩٢٧، مقالاً مطولاً عنها، نقل فيه حديثاً أجراه معها فقالت له: (...وكان الدكتور صروف لا يصدق شيئاً عن مناجاة الأرواح، ولا يتجرأ على تكذيبه فقال لي: «أعدكِ يا ميّ إذا كانت مناجاة الأرواح حقيقيةً، وسبقتُكِ إلى العالم الآخر،

---

(1) الرسالة ـ العدد ٩٨ ـ ١٠ مايو ١٩٣٥ ـ وقد نشرنا هذه المقالة في الجزء الثاني من كلمات وإشارات لميّ ـ ص: ١٤٣ ـ ١٤٦.

(2) ميّ في حياتها المضطربة ـ جميل جبر ـ ص: ١٣١.

وكنتِ في محنةٍ، فإن روحي تعاونك في محنتك!» وهل تُرى أنت روح يعقوب صروف؟)[1].

وكتب الدكتور فؤاد صروف الذي تولى رئاسة تحرير المقتطف بعد وفاة عمه الدكتور يعقوب صروف، فصلاً عن ميّ والمقتطف في كتابه «على الطريق» أتى فيه على ظاهرة نزوعها إلى الالهيات بعد وفاة والديها وجبران، جاء فيه ما يلي: (آخر عهد المقتطف بمقالاتها كان في النصف الأول من سنة ١٩٣٥، فأنشأت سلسلة من الفصول عن طائفة من أدباء الغرب أمثال: «أونامونو» و«بيرانديللو» و«دوديه»، وكان بيّناً في هذه المقالات أن ذهنها بدأ يتجه إلى العناية بالآلهيات. ولعل الاستغراق في ذلك الإتجاه كان طليعة ما أصابها بعد قليل)[2].

عنى الدكتور صروف بقوله «ما أصابها بعد قليل» ذلك المرض النفسي الذي أمضها وظهرت بوادره في غمرة أحزانها، ثم تفاقم في خريف سنة ١٩٣٥ في أثر مضايقة أبناء عمها لها بشأن مشاركتها بإرث أبيها وأمها لأن البنت عند اخواننا المسيحيين لم تكن تحجب العصبات آنذاك لا في لبنان ولا في مصر، فكان «الشعور بالاضطهاد»، وكان الاكتئاب، وكانت المأساة التي سنتحدث عنها لاحقاً. تجلى مرضها بالنقمة على ابنيّ عمها المقيمين في القاهرة، الياس واغناطيوس زيادة، والخشية من إلحاق الأذى بها. ولا بد من الإشارة إلى أن لنقمتها عليهما، وعلى أخيهما الخوري يوسف زيادة، المقيم في شحتول أسباباً قديمة تعود إلى سنة ١٩٢٥ يوم كانت تصطاف في لبنان مع والديها. لقد رغبت يومئذٍ في تشييد منزلٍ خاصٍ بها في شحتول، على أرضٍ يملكها أبوها وأبناء أخيه حنا، فرفض ابن عمها الخوري يوسف الموافقة على المشروع متذرعاً بأنها فتاة عزبة، قد تتزوج يوماً ما، فيقاسمهم زوجها الغريب التركة،

---

(١) صوت المرأة ـ عدد كانون الأول سنة ١٩٤٩ ـ ص: ٧.

(٢) على الطريق ـ فؤاد صروف ـ ص: ٢١٨.

في المستقبل، لأن البناء سيقوم على أرضٍ مشاعةٍ بينهم[١]... فتوترت الصلات بين أبيها وأبناء عمها الثلاثة، منذ ذلك الحين، واخفقت جميع المساعي لاقناعهم بتحقيق رغبتها ورغبة أبيها، فانقطعا عن زيارة شحتول وتردّت الصلات العائلية بين هؤلاء الأقرباء، إن لم نقل انقطعت تقريباً.

وعندما توفي الياس زيادة سنة ١٩٢٩ ورثت ميّ حصةً في بيتٍ قديم للأسرة في شحتول، وحصة من أرض زراعية فيها، وحصة أخرى من أرضٍ مجاورة لبيت المطران يوسف أبي نجم[٢]. كانت تلك الأملاك مشاعة بين أبيها وإخوته منذ وفاة جدها زخور زيادة، وكانت الفتيات المسيحيات في لبنان والبلاد العربية خاضعات آنذاك لأحكام الشريعة الإسلامية في قضايا الإرث منذ الفتح الإسلامي، والبنت عند المسلمين، كما نعلم، ترث نصف تركة أبيها إذا انفردت، وترث العصبات النصف الثاني. لذا طالب أبناء عمها الأدنون بحقهم في الميراث بعد وفاة أبيها، وألحوا في المطالبة على ما يبدو، (وهم أبناء عمها حنا زيادة الثلاثة: الخوري يوسف المقيم في شحتول، والياس وأغناطيوس المقيمان في القاهرة). ولما كانت الصلات بينهم وبين ميّ ووالديها متوترة منذ سنة ١٩٢٥، والانسجام فكرياً وروحياً واجتماعياً مفقوداً، فقد نجمت عن تلك المطالبة بالإرث أزمة عائلية هزت أعصابها، وسلبت راحة بالها لشعورها بأنهم طامعون بما تملك، بل راغبون في موتها للإستيلاء عليه. ولا يغرب عن بالنا أنها اضحت تملك، بعد وفاة أبيها، جريدة «المحروسة» ومطبعتها، وأسهماً، ومكتبة نفيسة، وأثاث البيت، وبعض المجوهرات والمال النقدي في مصر!

هنالك رواية تردّدت عن هذا الموضوع على أقلام بعض الذين كتبوا

---

(١) من حديث الأستاذ شبل الخوري لكاتبة السيرة الذي أجرته معه في بيته بجونية بتاريخ ٢٢ - ٤ - ١٩٧٢.

(٢) هذا ما أعلمنا به سيادة المطران أغناطيوس زيادة، نسيب ميّ.

عن مرض ميّ ومأساتها، ومنهم الصحفي المصري طاهر الطناحي، الذي جاء في كتابه عن مي: «ألحان الغروب» ما يلي:

(وكان صيف عام ١٩٣٥ فجاء إلى ميّ بعضهم يطالبها بمبلغٍ قدره ثلاثمائة جنيه لأن أرضها في «شحتول» مرهونة. طلبت أن يطلعوها على وثيقة الرهن ففعلوا، ثم ضيّقوا عليها هذا الطلب حتى ضاقت بحالها، واشتدت آلامها، وهي لا تصرّح لأحد بما يثير في نفسها هذه الآلام، فاصيبت بمرض: «الشعور بالاضطهاد»)[1] لقد وجدت ميّ نفسها وحيدة في معركةٍ مع أهليها، بلا نصير يشدّ أزرها، وكتمت الأمر عن أقرب الناس إليها أمثال خليل مطران، وانطون الجميل، وطه حسين، غير أنها لمحت به إلى عباس محمود العقاد فنصحها باستشارة محامٍ قدير، وتوكيله للتحقيق بمسألة الرهن، وأرسل إليها صديقاً له من كبار المحامين هو الأستاذ حافظ جلال، مع الرسالة التالية:

(صديقتي الآنسة الفضلى

صديقي وجاري الأستاذ حافظ جلال المحامي قادم إلى حضرتك للسؤال عن بعض البيانات القانونية التي لا بد منها قبل تبليغ النيابة، حسب مشيئتك، فأرجو أن تثقي به في ذلك، ولولا أنني أعالج تعباً جسدياً يلزمني البقاء في المنزل ساعات أخرى لحضرت معه، ولكني سأتشرف بزيارتك اليوم، وأرجو أن يتمّ كل شيء على ما تريدين، وتفضلي بقبول التحية والاحترام

المخلص عباس محمود العقاد)[2].

لقد نشر هذه الرسالة الكاتب عامر العقاد، ابن أخ عباس محمود العقاد في كتابه «غراميات العقاد» مع صورةٍ عنها ولكنها لا تحمل تاريخاً، ولا ريب في أنها أرسلت إلى ميّ في إبان اصطدامها مع أبناء عمها من أجل مطالبتهم

---

(١) ألحان الغروب ـ طاهر الطناحي ـ ص: ٨٩.

(٢) غراميات العقاد ـ عامر العقاد ـ ص: ٧٦.

لها بدفع ما يتوجب عليها من أجل فكّ الرهن عن أرضٍ، ملكُها مشاعٌ بينهم وبينها، لما ورثت من حصة أبيها وأمها فيها. ولا بدّ من الإشارة إلى أن قانون الإرث لغير المحمديين في لبنان الذي خوّل البنات حق وراثة ما يخلفه آباؤهم مثلما يرث الذكور لم يصدر في لبنان إلا بتاريخ ٢٣ ـ ٦ ـ ١٩٥٩ وقد نصت المادة الخامسة عشرة فيه على ما يلي: (أولاد المتوفي وفروعهم يرثون آباءهم وأصولهم دون تمييز بين الذكور والإناث).

ويبدو من الرسالة أن ميّ لم تكن واثقة بأبناء عمها، فشكت الأمر إلى صديقها العقاد وأعربت له عن رغبتها بتبليغ النيابة ومقاضاتهم لحلّ المشكلات المتعلقة بما ورثته، والمرجح أن المحامي الأستاذ جلال درس الموضوع، ولم ينصحها برفع قضية ضدهم في مصر، وذلك بدليل عزوفها عن الأمر نهائياً. وعندما حاول الأستاذ العقاد اقناعها بمعالجة الموضوع بالتراضي والحكمة تحوّل في نظرها إلى إنسانٍ غير مخلصٍ لها، فقطعت صلتها به، وردّت إليه رسائله السابقة إليها. حدث كل هذا في صيف عام ١٩٣٥ بعد أن أعلنت ميّ أنها تنوي وهب مكتبتها النفيسة للأمة المصرية، بعد موتها، وما فيها من كتب مزدوجة لوطنها الأم لبنان، فأسرع أبناء عمها بالمطالبة بحصصهم مما ورثته عن أبويها، قابلوها عدة مرات، وأبدوا استنكارهم لتصرفها بما تملك حسب هواها، فاسودت الدنيا في عينيها، لذا فكرت بالبعد عن مصر والهروب من المزعجات والحزازات العائلية فكتبت إلى نسيبها فؤاد زيادة[١] الرسالة التالية الذي تفضل وأعطانا صورة عنها: وهي مؤرخة في ٧ ـ ٧ ـ ١٩٣٥:

(عزيزي فؤاد: أشكر لك خطابك، وما ذكرته فيه من أمر المنزل المرجوّ. آسف أني لا استطيع الآن البتّ في شأن سفري إلى الخارج، ولو إلى عزيزنا لبنان المجاور. والمرجّح، نظراً لما أنا مرتبطة به من الأعمال، أني سأقضي هذا الصيف بمصر، بين القاهرة والاسكندرية أو غيرها، إلاّ «خطفة»

(١) هو سيادة المطران أغناطيوس زيادة، مطران الطائفة المارونية في بيروت حالياً، ولم يكن قد دخل سلك الكهنوت يومئذٍ.

سريعة إلى لبنان ليس في وسعي أن أحدّد تاريخها منذ الساعة، هذا إذا تحققت حقاً. وعلى كل حال سأعلمك عنها في الوقت المطلوب. بيد أن ذلك لا يحول دون التفكير في بعض الأماكن لتشييد المنزل. وقد سبق أني أعربت عما أطلبه وأرغب فيه من حيث قرب المكان إلى الناس دون أن اضطر إلى الامتزاج بهم اضطراراً يسلبني راحتي في الوحدة بين الكتب. ثم لا غنى عن قرب الماء في لبنان. ولا بدّ من المنظر الجميل، فهو عندي بعض الدراسة، وبعض الوحي. وتستطيع ـ إذا شئت أن تكون لطيفاً جداً، كما أنت في الواقع ـ أن تخبرني عن تلك الأمكنة ومواقعها ومزاياها. . . وعيوبها أيضاً، إذا كانت كلها أو بعضها ذات عيوب.

أشكر لك اهتمامك بهذا الأمر، رغم مشاغلك الكثيرة، وأنا في شديد الحاجة إلى الراحة في لبنان، خصوصاً بعد لوافح القاهرة التي تصلنا ناراً حامية طول النهار، وتكتم أنفاسنا، حتى إذا أقبل الظلام شعرنا بالبرد! وهذا الاختلاف الشديد في الطقس مريح من الناحية الواحدة، ومزعج من الناحية الأخرى «ككل شيء في الحياة»، وله الفضل في هذا الزكام الذي أعانيه في قلب الصيف!)[١].

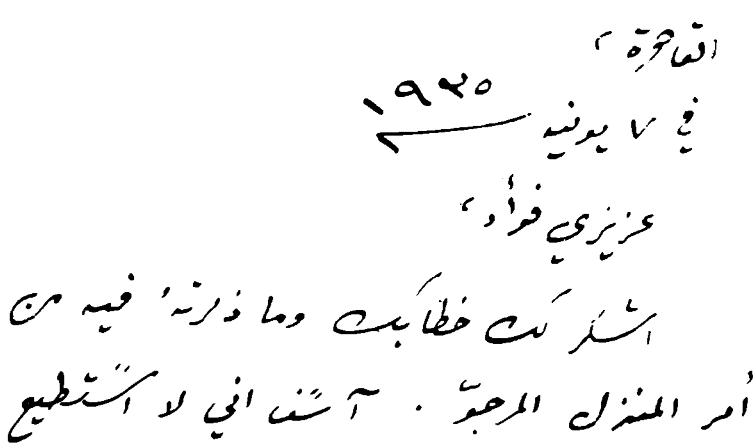
القاهرة، في ٧ يونيه ١٩٢٥

عزيزي فؤاد،

أشكر لك خطابك وما ذكرته فيه من أمر المنزل المرجو. آسف أني لا أستطيع

(١) الأسطر الثلاثة الأخيرة من هذه الرسالة موجودة على صفحتها الثالثة التي نشرنا صورة عنها في هذا الفصل، لدى الحديث عن أحاديث ميّ للإذاعة المصرية.

الآن البت في شأن سفري إلى الخارج ولو
إلى عزيزنا لبنان المجاور. والمرجح، نظراً لما
أنا مرتبطة به من الأعمال — أني سأقضي
هذا الصيف بمصر، بين القاهرة والاسكندرية
أو غيرها. إلا «خطفة» سريعة إلى لبنان
ليس في وسعي أن أحدد تاريخها منذ الساعة
هذا إذا تيسرت حقاً. وعلى كل سأعلمك
عنها في الوقت المطلوب. بيد أن ذلك
لا يحول دون التفكير في بعض الأماكن
لتشييد المنزل. وقد سبق أني أعربت
عما أطلبه ورغبته من حيث قرب
المكان إلى الناس دون أن أضطر إلى
مشوار برهة اضطراراً يسلبني راحتي في
الوحدة بين الكتب. ثم لا غنى عن قرب
الماء — لأني أعرف أن بعض الأمكنة خالية من
الماء في لبنان. ولا بد من المنظر الجميل
وعندي بعض الدراسة وبعض الوحي.
وأستطيع — إذا شئت أن تكون لطيفاً
جداً، كما أنت في الواقع — أن تخبرني عن

تلك الأمكنة ومواقعها ومزاياها ... وعيوبها
أيضاً إذا كانت هناك أو بعضها ذات عيوب
أشكر لك اهتمامك بهذا الأمر، نعم
من غير الكثرة، وأنا في شديد الحاجة إلى
الراحة في لبنان خصوصاً بعد الأيام القاهرة التي
قضيناها أياماً حامية طول النهار وتلتهم أنفاسنا —
حتى إذا أقبل الظلام شعرنا بالبرد. وهذا الاختلاف

كانت رغبتها في قضاء ما تبقى من عمرها في لبنان قويةً، وكان حلمها بتشييد منزلٍ لها فيه من جملة أحلامٍ عديدة عقدت عليها الآمال، ولكنها لم تتحقق. لقد حلمت طفلةً برغد العيش مع أخيها «الياس» الذي سيصبح الرفيق والصديق والسند، فمات في المهد، ثم حلمت بالزواج من ابن عمها جوزيف زيادة في يفاعتها، فرحل إلى فرنسا للتخصص بالطب، وخطبها أخوه نعوم الذي خيّب أملها باحتياله في تدبيج رسائل الحب المزوَّرة، وحلمت شابةً وكهلة بجبران الذي عقدت على حبها له وحبه لها آمالاً كبيرة، خلال عشرين عاماً من زهرة عمرها، جعلتها توصد قلبها دون غيره من الرجال، وترتقب قدومه إلى مصر عبثاً، ثم مرض جبران ومات وهو دون الخمسين من العمر واعتبرت نفسها «أرملته»... وأخيراً تبخّرت أحلام الإطمئنان والاستقرار في كهولتها حين وجدت نفسها وحيدة في معترك الحياة بلا أب ولا أم، ولا زوج ولا صديق يعينها على حلّ المشكلات العائلية التي نجمت عن مطالبة أبناء عمها بحصصهم من تركة أبيها. ومما حزّ في نفسها كثيراً، إبان تلك الأزمة، تجاهل خالها الوحيد بولص لها كلياً، مع أنه عاد إلى مصر من فلسطين سنة ١٩٣٠ وأقام فيها من جديد! لقد توانى عن تعزيتها بوفاة أمها سنة ١٩٣٢، وكأنه إنسان لا يعرفها، فكيف لا تتألم من تحوّل حبه القديم لها

إلى عداءٍ، ولا سيما أنه ناصر ابنيّ عمها في القاهرة ضدها، وأخذ يحثّهما على مقاسمتها ما ورثت، ويأمل بنيل نصيبه من تركة أمها. . .

إن من يتبصّر بمحنة ميّ آنذاك يرى أنها ارتكبت خطأين كبيرين في حقّ نفسها كان أولهما تقاعسها عن السفر إلى لبنان في صيف **١٩٣٥** للبحث عن بيتٍ تلجأ إليه وتستجم، والثاني لجوؤها، عن طيبة قلب، إلى نسيبها الدكتور جوزيف زيادة في رسالة خطيرة بعثت بها إليه في أيلول من تلك السنة، تصف له تردّي صحتها، وآلامها النفسية، والمضايقات التي تلاقيها من إبنيّ عمها في مصر «الياس واغناطيوس»، وتدعوه للمجيء إلى القاهرة بالسرعة الممكنة لانقاذها. لقد وضعت ثقتها الكاملة به لعلمها بأنه غير طامع، مثلهما، بمالها، وأنه غير ناقم عليها. وقد أخفت عنه، في تلك الرسالة، أمراً خطيراً مفاده أنهما خدعاها في نهاية الصيف خدعةً مستهجنة خجلت أن تبوح بها، وكانت بمثابة نقطة الماء التي تُطفح كأس الأسى، وهي تتلخص بأنهما كانا يكثران من زيارتها، ويظهران لها كل محبة وعطف، فاقنعاها بأن يبحثا لها عن خادمةٍ أمينة تحلّ في بيتها محل «السوداني بشير» الذي استغنت عن خدماته، لمساعدتها في ساعات النهار، رفقاً بصحتها المتعبة نتيجة الحر الشديد والأحزان المتواصلة، فقبلت اقتراحهما وأرسلا لها سيدةً عملت عندها بضعة أسابيع ثم اتضح لها بأنها زوجة أحدهما، وبأنها سرقت من مكتبتها وثائق وأوراق هامة في أثناء نومها. . . هذا ما قالته ميّ بنفسها للأستاذ أمين الريحاني[١] إبان مأساتها في لبنان، وهذا ما اضطرها إلى طرد ابنيّ عمها من بيتها، والخوف من أذاهما وأذى من يلوذ بهما في إثر ما سمعت من تهديدٍ ووعيد، وهذا ما أرداها فريسة الانهيار العصبي، ودفعها لكتابة الرسالة التالية المروّعة إلى الدكتور جوزيف زيادة في بيروت، الذي كان أول شاب أعجبها في يفاعتها، يوم كانت تلميذة في مدرسة عينطوره بلبنان، والذي حفظت له في قلبها صورة جميلة منذ ذلك التاريخ.

---

(١) قصتي مع ميّ - أمين الريحاني - ص: ٣٠.

الدكتور جوزيف زيادة

لقد نشر الدكتور جميل جبر مقطعاً قصيراً من هذه الرسالة في كتابه: «رسائل ميّ - ص: ٧٤»، نقله عنه بعض الذين كتبوا عن حياتها ومنهم طاهر الطناحي والدكتور منصور فهمي، ووداد سكاكيني، ولكننا ننشرها بكاملها لأول مرة، أو بالأحرى ننشر الترجمة الكاملة لها إلى العربية لأن ميّ كتبتها باللغة الفرنسية (كما يبدو من الصورة التي ننشرها عنها) وذلك بإذنٍ من سيادة المطران أغناطيوس زيادة الذي تكرّم وأعطانا الرسالة. إنها مخطوطة على جانب كبير من الأهمية لعدة أسباب منها لأنها تلقي أضواءً على آلام ميّ النفسية وعلى مسبباتها، ومنها لأنها تعطي الدليل القاطع على أنها كانت، يوم كتبتها، في كامل قواها العقلية: تصف مرضها دون أن تعرف له اسماً، وتنفي ما زعم بعض الذين تناولوا حياتها بالبحث بأنها فكرت بالانتحار. إن فكرة الانتحار لم تراود خاطر ميّ، في يومٍ من الأيام، بدافع إيمانها العميق، واعتقادها الجازم بأن الله وحده هو صاحب الحق بمنح الحياة، متى يشاء، واستردادها، حين يشاء!

(القاهرة ٢٨ سبتمبر ١٩٣٥

يا جوزيف، يا صديقي، يا أخي

لم أعد اكتب منذ وقتٍ طويل، وكلما حملتُ نفسي على ذلك يظهر شيء قاهر يقضي على وثبة تفكيري، وحركة يدي. تُرى هل ذكراك في هذا النهار، وعذابي، قادران على منحي بعض القوة لكي اكتب إليك كل ما أريد أن أقوله لك شفاهاً؟ إنني محزونة جداً يا جوزيف، وأنا لا أعرف لذلك سبباً، كما أنني أكثر من مريضة، وينبغي أن أخترع عباراتٍ جديدة لأشرح لك ما أشعر به في قرارة نفسي، ومن حولي.

لم يسبق لي أن تعذبت بهذا المقدار، ولم أفترض، من خلال قراءاتي ودراساتي، أن هنالك مخلوقاً بشرياً يقدر على تحمّل كل هذا العذاب. هيهات أن أعرف له سبباً! ولكن، كلا! فالذين أراهم منذ شهرين ونصف الشهر، وهم ليسوا كثيرين، ولا يتغيرون تقريباً، يقولون لي: «لا يوجد ما يسبب لي

هذا العذاب، إنما أنا التي ابتدعت لنفسي أوهاماً تحوّلت إلى أفكارٍ ثابتة، يوماً بعد يوم، لأني أديبة وشاعرة!»

هذا ليس صحيحاً يا جوزيف لأن هنالك شعوراً قوياً حاداً يتملكني، يفوق سائر حواس الجسم قوةً. كنت صادقة الحدس دائماً، ولكن حدسي لم يكن فيما مضى أكثر وضوحاً وحسماً مما هو عليه الآن. إن هنالك شيئاً على حدٍ كبير من الخطورة جعلني أتمنى الموت السريع لأنني أموت منه في كل يومٍ، وكل دقيقة، منذ شهرين وبضعة أيام. لقد انصبّت عليّ الأحزان خلال هذه السنوات الأخيرة، ومنيت بخسائر، وحلّت بي فواجع قاسية في وحدتي - وحدتي المروّعة التي هي روحية أكثر مما هي جسدية - حتى صرت أتساءل يوماً كيف يستطيع العقل البشري مقاومة كل هذا العذاب. ولكن مكتبتي وكتبي المحببة، والعزلة الشعرية التي تذوقتها في حياتي كانت الوسيلة الوحيدة لعزائي، بل لشفائي إن أمكن، فأغرقت نفسي بالعمل، وكأني محكومة بالأشغال الشاقة، لأنسى الفراغ الطاغي على بيتي، والحسرة المهيمنة على نفسي، وكل ذاتي. كنت لا أرغب في شيء سوى أن أكون شعلةً بلا إسم تحترق وتتطهّر ببسالةٍ لتضفي أَلَقَها على مصر التي تحبها كثيراً، وعلى الشرق كله الذي تهيم به. إن ما أستطيع قوله لك يا جوزيف في رسالةٍ قد تكون الأخيرة التي اكتبها إليك هو أنه لم توجد شعلة أشدّ إخلاصاً ونقاوةً من شعلتي، ولا قلب أكثر صدقاً في حبه لكل شيء، ولكل الناس، الأصدقاء والأعداء على حدٍ سواء مثل قلبي. وإذا كنتُ قد تجنّبت هؤلاء الأعداء، وصددتهم عني فلكي أجنّب نفسي مزيداً من الألم الذي لم أعد قادرةً على احتماله، ولكي أتهرّب، قدر المستطاع، من المكائد الكبيرة التي يحيكونها لي، والتي تحقّقتُ منها بأدلةٍ كثيرة. حتى أصدقائي الذين يريدون لي كل الخير، أو الذين كنت أحسبهم أصدقاء فلم أعد ميالةً للتجاوب معهم، وإن كنت أبادلهم المودة القلبية، وأشكر لهم عنايتهم بي، وإحسانهم إليّ. إن ما كنت في أمسّ الحاجة إليه هو السلوان والتلهي بأمورٍ مفيدة، ونسيان نفسي عن طريق الجهد والعمل.

أستطيع أن أضيف إلى كل ما سبق، أمامك أنت يا أخي العزيز، وأمام الله الذي يعلم كل شيء، أنني صادقة ومرتاحة الضمير، ومن أشرف النساء، على الرغم من ضعفي كمخلوق بشري، وحاجتي الهائلة إلى الحنان والعطف. ومع ذلك يعلم الله كم كنت مدلّلةً ومكرمةً لأسابيع خلت... أما الآن فقد انقلب كل شيء، وتغيّر العالم من حولي، وأصبح الناس الذين يُفترض أن يكونوا في غاية التهذيب يسيئون الأدب أمامي، ويسمعونني عبارات قاسية، ولا يتورّعون عن جرح مشاعري في الصميم. فهل تصدق أن بضعة أشخاص لمسوا يدي وذراعي وهم يخاطبونني، أنا التي يعرفون أنها لا تُمسّ، وأن من واجبهم التقرّب منها باحترام؟ تصوّر أن راهباً مارونياً دنا مني، قبل بضعة أسابيع، وقبّل خدّي أنا!! تصوّر أنني لم أقل شيئاً لشدة ذهولي! ولكم يؤلمني صمتي، وتدهشني حركته النابية!

لقد حان الآن وقت إعلامك بما سبّب لي أشدّ الألم، أعني رسالتك التي تسلمتها مؤخراً. لم يسبق يا جوزيف أن خاطبتني بكلمةٍ قاسيةٍ، أو تلميحٍ عنيف، لأنك كنت رفيقاً بي، متسامحاً، ترعاني بمودتك الطيبة، حتى في الظروف الصعبة التي واجهتها أسرتنا. فكيف ترسل إليّ كتاباً جافاً، بل أكاد أقول متحاملاً، وأنت تعلم ما أنا فيه من الكدر؟ كان ينبغي أن تطلع على ما أصابني من الأشخاص الذين غادروا مصر إلى لبنان. لقد أبكتني رسالتك طويلاً، وأنا أعيد قراءتها يوم أمس، فتبلّلت كل مناديلي، ثم تذكرت عبارةً وردت في إحدى رسائلك السابقة إليّ - ربما أكون قد أتلفتها مع ما أتلفت من أوراقٍ كثيرة خلال هذه الآونة - ورحت أردّدها بتأثر بالغ: «أنا طبيب يا ابنة العم الصغيرة، فإذا تألمتِ ذات يومٍ، وإذا ما شعرتِ بحاجةٍ إليّ فاخبريني لأهرع إليكِ فأداويكِ وأشفيك». هذا ما كنت تقوله لي، وهذا ما يجعلني أبكي بحسرةٍ عميقة للمرة الأولى في حياتي على هذا النحو، فيما أحسب. ألم تعد راغباً في أن تكون شقيق روحي، شقيقي المصطفى على الرغم من البعد، ومن ندرة المراسلة بيننا؟ ألم تعد تريد أن تكون المداوي العطوف والمحبوب؟

لقد سبّبتُ ازعاجاً لعائلتك الطيبة النبيلة ذات مرةٍ، عن غير قصدٍ، وذلك أثناء خطبتي مع أخيك «نعوم»، وكان موقفك آنذاك، كما هو دائماً، موقف الرجل الكريم الذي لا غبار عليه. وكثيراً ما جعلتني هذه الذكرى أحمل لكم جميعاً مشاعر التقدير والاحترام، وأنحني أمامكم طالبةً الصفح عني، كما أني كنت أشعر بالهوان أمام طيبتكَ وسماحة نفسك، وبالسعادة في الوقت ذاته أمام نبلكم جميعاً. . . ما الذي حدث اليوم فجعلك تتغيّر على هذا النحو؟ وما الذي حدث فجعلني أنا أتغيّر بهذا القدر؟ أنا يا جوزيف وحيدة فأتوسّل إليك أن تأتي إليّ! لا تخف على زوجتك فإن الله سيشفيها، ولا على أطفالك فإن الله سيحميهم. تعال إليّ لأني محتاجة إليك أكثر منهم، أنا التي ليس لها أحد. تعال لتشفيني لا من أجل الحياة، بل من أجل الموت. تعال لتقتلني، يا صغيري، من غير أن تعذبني كثيراً، فلطالما، طالما قاسيت العذاب بكل طاقاتي المعلومة والمجهولة. تعال لتجهز عليّ برحمةٍ إذا كنتَ تعتقد بأنني لا أستحق عطفك.

لم أعد أطيق هذا الشعور بالغربة خارج الحدود والزمان دون أن أدرك الباعث إليه. تعال وانقذني بقتلي رويداً! إني أجيزك وأباركك بكل روحي الممزّقة المنتحبة.

اغفر لي هذه الرسالة، إني مندهشة كيف احتملت الجهد في تحريرها. قد يعود بعض الفضل في ذلك للسجاير لأني بتّ أدخّن ليل نهار لأضعف قلبي، هذا القلب السليم القويّ الذي يعرف المقاومة جيداً، مع أنني لم أكن أدخّن يوم قابلتني آخر مرة.

تعال سريعاً يا جوزيف لتعلمني بذنبي، وتقتلني، وتصفح عني صفحاً أخوياً،

ماري)

Le Caire 28 Sept. 1935

Joseph, mon ami, mon frère,

Il y a si longtemps que je n'écris plus & chaque fois que je m'efforce de le faire, quelque chose de fatal brise l'élan de ma pensée & le mouvement de ma main. Ton souvenir & ma peine me donneront-ils aujourd'hui assez de force pour t'écrire tout ce que j'aurais voulu

9

te dire de vive voix?

J'ai tant de peine, Joseph!
et je n'en sais pas la cause.
Je suis plus que malade, il faut
créer une nouvelle expression pour
expliquer ce que je sens en moi
& autour de moi. Jamais je
n'ai tant souffert, jamais dans
mes lectures & mes études je n'ai
pu supposer qu'un être humain fut
capable de supporter tant de
souffrance. Si au moins j'en
connaissais la cause! Mais non,
ceux que je vois depuis deux
mois & demi (ils ne sont pas

bien nombreux & c'est toujours
les mêmes personnes, à quelques
exceptions près) me disent qu'il
n'y a rien, rien, rien & que
je ne suis, en littérateur &
poète, créé des chimères devenues
de jour en jour ~~en jour~~
des idées fixes.

Ce n'est pas vrai, Joseph.
Je sens avec un sens plus
vivant & plus aigu que tous
les sens du corps. J'ai toujours
eu de l'intuition, mais jamais
mon intuition n'a été aussi

nette et décisive. Il y
a quelque chose de si grave —
que j'ai désiré en mourir d'un
coup & que j'en meurs tous
les jours & toutes les minutes
depuis près de deux mois &
quelques jours. Les chagrins
~~pendant~~ se sont acharnés sur
moi pendant ces dernières années,
des pertes & des deuils cruels se
sont abattus sur ma solitude
— mon effrayante solitude encore
plus morale que physique —
~~que~~ et je me demandais chaque
jour comment une pauvre
raison humaine peut résister

à tant de torture. Mais il y avait ma bibliothèque & mes livres aimés & la solitude poétique que j'ai toujours goûtée : c'était là le seul moyen de me consoler &, si possible, de me guérir. Et je travaillais comme une forcenée pour oublier le vide de ma demeure, l'angoisse de mon âme & tout moi-même. Je ne désirais être qu'une flamme sans nom, brûlant purement & vaillamment pour

communiquer, dans la mesure de ses moyens, ses étincelles à l'Égypte qu'elle aime tant, à tout l'Orient qu'elle chérit tant. Joseph, je peux bien te le dire à toi, dans une lettre qui est peut-être la dernière que je t'écris — jamais flamme n'a été plus sincère & plus pure, jamais cœur n'a été plus vrai dans son amour pour tout & pour tous, amis & ennemis également. Si j'évitais ces derniers & les repoussais c'était pour m'éviter un surplus de

souffrance que je ne pouvais
plus supporter & pour me
dérober si possible à de vastes
intrigues dont j'avais trop
de preuves de leur part. Mes
amis mêmes, ou ceux que je
croyais être tels, tout en
répondant aussi cordialement
que possible à leurs attentions
& leurs désirs de me faire du bien, je ne
faisais presque jamais empressée
à leur égard. Ce dont j'avais
besoin c'était la distraction bonne
et intelligente, l'oubli de moi-

8

même dans l'effort &
le travail.

Je peux bien ajouter à tout cela devant toi, mon frère chéri, et devant Dieu qui connaît tout que, somme toute & toute concession faite à la faiblesse humaine & à mon indicible besoin de tendresse & d'affection — je peux dire honnêtement & consciencieusement que je suis une des femmes les plus honnêtes. Pourtant Dieu sait si j'ai été choyée & encensée jusqu'à il y a quelques semaines seulement. Maintenant tout est renversé, le monde est changé autour de

3

moi, des personnes supposées
de la meilleure éducation
commettent devant moi des
impolitesses, ont me dit des
choses dures, on ne craint pas
de me blesser jusqu'au fond
de l'âme et, le croirais-tu?
deux ou trois personnes en me
parlant m'ont touché la
main, le bras, moi qu'ils
savent n'être pas une femme
à toucher, moi qu'ils savent
devoir approcher avec respect.
Figure-toi qu'un père maronite

m'a abordée, voilà quelques semaines, en me plaquant un baiser sur la joue, à moi! et je n'ai rien dit! Je n'en reviens pas de son geste & de mon silence!

J'en arrive à ce qui me cause le plus de peine : ta lettre reçue il y a quelque temps. Toi, Joseph, tu n'as jamais eu pour moi un mot dur, une allusion amère. Même à la suite de circonstances pénibles dans la famille, tu t'es toujours montré indulgent et accommodant, ayant toujours

à mon égard des attentions délicates & des bontés. Comment se fait-il que tu m'envoies une lettre si froide, j'allais dire aussi haineuse d'intention quand tu me sais être aussi désolée ? Car cela tu dois le savoir, des personnes parties d'ici au Liban ont dû te le dire.

La lettre que j'ai reçue hier m'a fait pleurer durant des heures, j'en ai mouillé tous les mouchoirs à ma portée. Et je me répétais une phrase que tu m'as écrite dans une lettre probablement

19

détruite — J'ai détruit tant de choses ces temps-ci! —
tu disais: "Je suis médecin. Si jamais tu souffres, petite cousine, si jamais ton cœur ralentit son affection envers moi fais-moi signe & je serai vite près de toi pour te guérir & te rendre la santé!"

Voilà ce que tu disais, et voilà que maintenant dans mon infinie désolation tu me fais pleurer, probablement pour la première fois de ma vie. Ne veux-tu plus être mon frère de l'âme, mon frère élu, malgré l'éloignement et la

13

rareté de nos relations épistolaires ? Ne veux-tu plus être mon guérisseur compatissant et aimé ?

Une fois déjà j'ai pu involontairement mettre de la tristesse dans votre famille si bonne et si noble, lors de mes fiançailles avec ton frère ; et votre attitude a toujours été digne et impeccable. Le souvenir de cette attitude m'a tant de fois fait m'agenouiller devant vous tous par la pensée & demander

17

pardon, et plus tu te
montrais aimable plus je me
sentais humiliée en moi-même
& en même temps heureuse de
votre noblesse à tous.

Qu'arrive-t-il aujourd'hui
pour que tu sois tellement
changé? Qu'arrive t il pour
que moi aussi je suis tellement
changée?

Joseph, je suis seule & je
t'implore, viens à moi! Ne crains
pour ta femme, Dieu la guérira;
ne crains pas pour tes bébés,
Dieu les protégera. Viens à moi!

15

J'ai plus besoin de Toi, moi qui n'ai personne. Viens me guérir, non pas pour la vie, mais pour la mort.

Viens me tuer, mon petit, sans trop me faire souffrir — j'ai tant tant souffert de toutes mes forces connues & inconnues. Viens me donner le coup de grâce avec compassion si tu ne crois pas que je mérite ton affection.

Je n'en peux plus de me sentir étrangement en dehors de l'espace & du temps sans savoir pourquoi. Viens me sauver en me tuant doucement! Je

t'en donne le droit & te bénirai de toute mon âme en lambeaux & en pleurs..

Pardonne cette lettre. Je suis étonnée comment j'ai pu me soutenir dans l'effort de l'écrire. Le mérite en revient peut-être en partie aux cigarettes, car, moi qui ne fumais pas quand tu m'as vue la dernière fois, maintenant je fume jour et nuit pour m'affaiblir le cœur, ce cœur si sain & si robuste qui sait si bien résister.

Viens vite, Joseph, me dire de quoi je suis fautive, me tuer & me pardonner fraternellement.

Marie.

مازالت الأمراض العصبية والنفسية لغزاً من الألغاز المتصلة بتركيب معجزة الدماغ على الرغم مما قطع علماء النفس من أشواط هامة لحل بعض جوانبها، في يومنا هذا الذي يشهد تطوراً عظيماً في علم الطب، وإن من عرف في حياته الانهيار العصبي أو ما يسمونه «العصاب النفسي» عن طريق المكابدة، أو الدراسة، يتضح له من رسالة ميّ إلى نسيبها الدكتور زيادة أنها كانت مصابة به، وواعية لما أصابها، وعاجزة عن إنقاذ نفسها من عواقبه. ومن منا يأمن ويلات هذا المرض الدقيق، ومن منا لا يهبّ للتخفيف عن المصاب به بالوسائل الانسانية إذا ما استُنجد به، وكان ذا ضمير حيّ؟.. أما شكواها من معاملة أولئك الأقرباء لها معاملةً مستهجنة، وتطاولهم عليها بدافع سوء أدبهم فهي شكوى مريرة لشدة ما تأذّت من سلوكهم معها، وهي المرأة المحتشمة، المتحرزة التي يأبى طبعها أن ترفع الكلفة مع أحد، وترفض أن يعاملها أحد، قريباً كان أو غريباً، إلا باحترام، ومراعاة لمشاعرها، وسنّها، ومركزها. ففي مساء اليوم الذي خطت فيه تلك الرسالة للدكتور زيادة أي في ٢٨ ـ ٩ ـ ١٩٣٥ أحسّت بتعبٍ شديد، ووهن في قواها الجسمية أردياها طريحة الفراش، وأطبقت الدنيا على صدرها إذ تذكرت ما مرّ عليها من أهوال كمشاركة ابنيّ عمها لها في تحضير الأرواح ذات ليلة، والتجربة التي أجراها أحدهم بتنويمها تنويماً مغناطيسياً، وتهديدهم لها، بعد أن اكتشفت خدعهم، وتأكدت من أنهم دسّوا لها في طعامها أدويةً مؤذية للصحة! تذكّرت ميّ ما جرى لها، وما يمكن أن يجري فتمنّت الموت، بل شعرت بأنها مشرفة عليه لذا كتبت ما سمته «ارادتي» بخطها، وبقلم رصاص: وقد عثرنا على هذه الأوراق بين ما وجدناه من مخطوطاتها في القاهرة، وهي بمثابة وصية مؤثرة للغاية، تكشف للقارىء أموراً رهيبة أصابتها في تلك المرحلة، وتخفي عنه أموراً أخرى نوّهت بها، وهذا نصها:

«إقرأ

أكتب إذ أنا مازلت قادرة على الكتابة لأعلن إرادتي التي لن تتغيّر لو

حدث ما يحرمني من الكلام. وأحظّر تمزيق هذه الصحيفة. إني أُحظّر نقل أي شيء من غرفتي وبيتي قبل وفاتي. وأحظّر دسّ أي شيءٍ ليس موجوداً عندي. وأحظّر إبقاء ما دُسّ لي، على غير معرفةٍ مني، كما أحظر أن تُلصق بي تهم كاذبة.

لا أريد أن أموت خارج بيتي هذا، وخارج سريري هذا الذي أكتب جالسةً عليه. وبعد وفاتي بأربع وعشرين ساعة - على شريطة أن تكون وفاتي حقيقية لا مصطنعة بفعل ما يوضع لي في السجاير والطعام والماء وغير ذلك - على شريطة أن تكون وفاتي حقيقية، اسمح بإخراجي من هنا بعد أربعٍ وعشرين ساعة.

أحرّم على أيّ أحد من أقارب والدي ومن أقارب والدتي أن يدخل هذا البيت ما بقيت جثتي فيه خلال الساعات الأربع والعشرين. أحرّم على أي أحد من أقارب والدي ومن أقارب والدتي أن يمثل أمام جثتي في هذه الغرفة، أو في أي مكانٍ غيرها. لا أسمح لأقارب والدي وأقارب والدتي أن يروا جثتي أو يلمحوها.

أُحظّر على أي أحد أن يهين جثتي بأية طريقة من الطرق، أكلاماً كانت، أم نظراً، أم لمساً، أم خاطراً، أم غير ذلك. فليحترمني جثةً أولئك الذين مزّقوني في حياتي. وليذكروا أنهم مثلي معرّضون للنكبات والرزايا.

هذه ارادتي. أريد أن تُحترم. وأبارك من يحترمها هو وجميع أهل بيته. فليكن الله معهم وليحمهم بعنايته.

إني أؤمن بالله، وأحب الإنسانية، وأشكر للذين عطفوا عليّ في حياتي، وللذين سيعطفون عليّ في مماتي.

فليباركهم الله!

القاهرة في ٢٨ سبتمبر ١٩٣٥

ميّ)

تابع ارادتي

أكتب اليوم الخميس ٣ أكتوبر فقد تفقدت أوراقي المطبوعة ووجدت أن الكثير منها قد سُرق وتُركت لي عدة صحائف كانت ملتصقة بأعداد الصحف الحاوية للخطب والمقالات، ولا معنى لهذه الصحائف منفصلة عن صحفها.

وكنت قد راجعتُ هذه الصحف منذ شهور قلائل لأني كنت أعدّ ما فيها لطبع الجزء الثاني من كتابي «كلمات واشارات»[1] لذلك أؤكد أنها اختفت في المدة الأخيرة. والصحائف المذكورة موجودة في هذه الغرفة حيث تفقدت الخطب فلم أجدها.

لديّ في هذا المنزل عدة أشياء تلقيتها كهدايا من عدة أشخاص بعد مقالةٍ، أو خطبة، أو كتاب، ولو كان عندي ما يكفي من القوة اليوم لدوّنت كل ذلك في قائمة، كما أنه يجب اخراج بعض ما في صندوقة الجواهر ببنك مصر ووضع ما لديّ هنا مكانها. فإذا عشت فعلتُ ذلك.

أحبكِ يا مصر، أحبكَ أيها الشرق، روحي فداكما! وأحب الغرب كذلك، وأحب الإنسانية في معانيها الصالحة، وأرحمها في عيوبها وآلامها، وأؤمن بالله

«ميّ»

أحرّم نقلي من بيتي ومن سريري إبان نومي الطبيعي أو المغناطيسي. وأحرّم لمس جسدي أو إجراء أية تجربة فيه إبان نومي الطبيعي أو المغناطيسي.

---

(١) تنفيذاً لوصية ميّ جمعتُ في كتابٍ عنوانه «كلمات وإشارات ـ الجزء الثاني» مقالاتها وخطبها التي نُشرت في مختلف الصحف والمجلات العربية ما بين عام ١٩٢٢ وعام ١٩٤٠. ولقد صدر هذا الكتاب عن مؤسسة نوفل في بيروت عام ١٩٨٤ وأضافته المؤسسة إلى مجموعة أعمال ميّ الكاملة التي وضعتُ مقدمتها. وهنالك مقالات أخرى وأحاديث إذاعية وُفقتُ بالعثور عليها بعد صدور الكتاب، ولسوف أضمها إليه في طبعاته اللاحقة.

وأُحرّم أخذ أي شيء مما لديّ من رسائل وغيرها، إبان نومي الطبيعي أو المغناطيسي.

يجب ألا يصنع أي شيءٍ من هذه الأشياء إلا بموافقتي، وبعد استئذاني، على أن تتمّ موافقتي في غير حالة النوم الطبيعي أو المغناطيسي.

«ميّ»

القاهرة ٤ أكتوبر مساءً

أجدّد هذا التحريم مساء ١٦ أكتوبر ١٩٣٥ وما يليه من الأيام ما دمت على قيد الحياة. «مي».

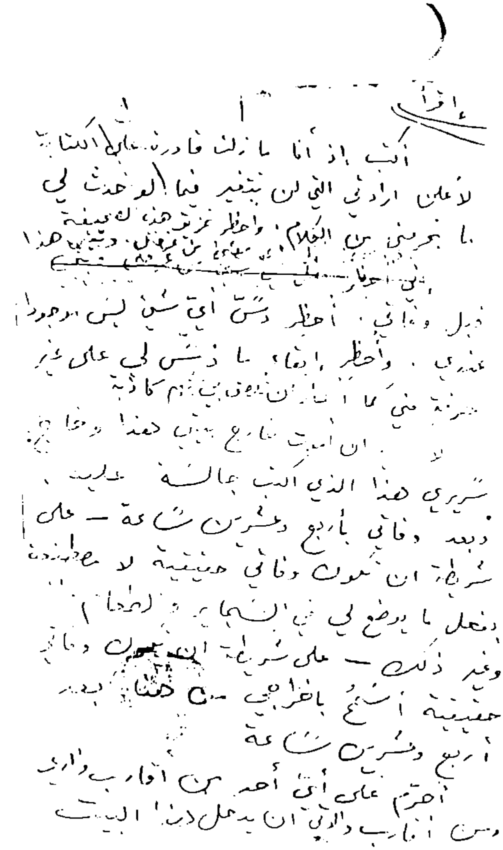
أكتب إذ أنا ما زلت قادرة على الكتابة
لأعلن إرادتي التي لن تتغير فيما لو حدث لي
ما يحرمني من الكلام
وبعد وفاتي بأربع وعشرين ساعة — على
أربع وعشرين ساعة

ما بقيت جثتي فيه خلال الساعات الاربع

والعشرين ، أحرّم على أي أحد من أقارب

والدي ومن أقارب والدتي ان يمثل أمام جثتي

في هذه الفترة أو في أي مكان غيره .

لا أسمح لأقارب والدي وأقارب والدتي ان

يروا جثتي أو يلمسوها ،

أحظر على أي أحد ان يلمس جثتي

بطريقة من الطرق ، أهلاً كانت أم غرباء

لمن ، أم خاطراً ، أم غير ذلك ، فليحذر من

جثتي أولئك الذين مزقوني في حياتي ،

ليتذكروا انهم مثلي معرضون للانتقام

هذه ارادتي

أريد أن تحترم ، وأبارك من يحترمها

هو وجميع أهل بيته ، فليكن الله معهم وليحفظهم

إني أؤمن بالله وأحب الانسان

وأشكر للذين عطفوا علي في حياتي والذين

سيعطفون علي بعد مماتي ، فليباركهم الله !

القاهرة في ٢٨ سبتمبر ١٩٣٥

٣

تابع الأرق

أكتب اليوم الخميس ٣ الشهر [illegible]

تفقدت أوراقي المطبوعة ووجدت

أن بعضها [illegible] قد سرق وتركت

لي عدة صحائف كانت ملحقة بأعداد

الصحف الحاوية للخطب والمقالات

ولم يبق إلا الصحائف (منفصلة) عن [illegible]

ولست قد راجعت هذه الصحف

منذ شهور فلا أسأل لأني لست أعد

بما فيها لطبع الجزء الثاني من كتابي

[illegible] لذلك أولي [illegible]

في المدة الأخيرة [illegible] لم أعدها

[illegible] الأمر [illegible] لدي في هذا [illegible]

[illegible] كثيرا من عدة أشياء [illegible] بعد

[illegible] أو [illegible] ولو كان

٤

عندي ما يكفي من القوت اليوم لأن

أظل ذلك في قائمة، كما أنه يجب إخراج

بعض ما في صندوق الجواهر [illegible]

ووضع بعض الذي [illegible] فإذا

عشت فعلت ذلك

أحبك يا [illegible] أحبك إلى

الرمق، روحي فداك! وأحبك

الحرب كذلك وحب الأرض

[illegible] وأعز ما في عمري

والادك

وأوصيك بالله

حسن

أحرم نفسي من بيتي ومن سريري

أمان نومي الطبيعي أو التنفس

[illegible]

أمان نومي الطبيعي أو التنفس

أحرم نفسي [illegible] مما لدي من بسالة

وحيدة أمان نومي الطبيعي أو [illegible]

[illegible]

[illegible] وبعد [illegible] على أن

[illegible]

[illegible]

[illegible] ١٩٣٥ — [illegible]

أجدد هذا التحريم مساء ١٦ ~~سبتمبر~~ اكتوبر ١٩٣٥

وما يليه من الأيام ما دمت على قيد الحياة

مي

إن من يمعن النظر في عبارات هذه الوثيقة التي تستدرّ الدموع وتفطّر القلوب حزناً على ما أصاب ميّ يلحظ أنها كتبتها ما بين ٢٨/٩/١٩٣٥ و١٦/١٠/١٩٣٥، على ثلاث مراحل، وهي في أشدّ حالات اليأس والعذاب. ولا ريب في أن وحدتها في بيتها آنئذٍ، وخوفها من أن يقتحم بابه أقارب أبيها وأقارب أمها الذين هددوها، وأساؤوا إليها **ومزّقوها**، حسب قولها، جعلتها فريسة للمخاوف والوساوس وهي في غمرة تلك الحالة الصحيـة والنفسية المتردّية. وكان عليها ان تنتظر طويلاً قبل أن تتلقى الجواب من الدكتور جوزيف زيادة على رسالتها إليه، فقد كتب إليها في شهر تشرين الثاني يعتذر عن تأخّره في الردّ على رسالتها بسبب اشتداد المـرض على زوجتـه: «انطوانيت دي طرازي» التي أصيبت بداءٍ خبيث، لا يمكن شفاؤه، وهي شابة، وأم لطفلين هما اسكندر وفريد. فظلّت ميّ حبيسة البيت، وضحية المرض الذي تعارف الأطباء الذين عالجوها على تسميته «مرض الاضطهاد» أو «الشعور بالاضطهاد»، لا تخرج إلا نادراً لشراء أغراضها، ولا تفتح الباب لأحد، ولا تردّ على مخابرة تلفونية. ولكن الصديق الوحيد الـذي اقتحم عزلتها، في تلك الآونة، هو الدكتور منصور فهمي، وها هـو يصف ما شاهده، وما سمعه منها:

(. . .تنقضّ المصائب على هذه النفس الحزينة الرقيقة، وتطوّق هذا الضمير الحساس اليقظ فتمعن ميّ في العزلة، وتركن إلى الوحدة الموحشة، وتسلمها هذه الوحدة إلى إهمال ذاتها، واذكاء غضبها على الوجود، وتشاؤمها من الحياة والناس والأيام. وتثير من علمها وعقلها نزعات للنظر والارتياب، بجانب ما كان يدفع به المحصول العلمي الواسع في تلك النفس من نزعات الثقة والتفاؤل، بل تشعل تلك الوحدة ذلك التشاؤم القـاتل بمـا خلفته السنون من ذكريات لماضيها الذاوي، وشبـابها الـذابل، ونجمهـا الآفل! فـأصبحت نفسهـا مختبـراً لتـلاقي النقيض بجـوار النقيض من النـزعـات والذكريات، وأصبح خيالها مرتعاً لمختلف الرؤى والأطياف من مفزعٍ ومحزنٍ

ومؤلم، ومطمئنٍ ومسالمٍ ومخاصم، وكأن الأديبة في مختبرها تبدو لتشاهد فصلاً من فصول فلسفتها حين قالت، في كتابها «المساواة»: «من عجائب الطبيعة وضعها النقيض بجوار النقيض، تجعل الأكمة الجرداء قرب البحر الزاخر، وخضرة الخمائل، وخصب الواحات وراء رمال الصحاري وقحط القفار، ما أقامت ارتفاعاً إلا أوسعت تخومه تجويفاً...»

ويشيع النبأ الأليم عن عزلةٍ مريرةٍ لميّ، تصرّ أن لا تتحوّل عنها، ولا تريد أن يقتحمها عليها مقتحم. ودفعتني جرأة الشباب حينذاك، وبتأثير هزّة الأريحيّة التي لا تخلو منها النفوس، طرقت على الأديبة بابها في أصيل يومٍ من الأيام، ولعلّ ذلك كان في سنة ١٩٣٦، وثابرت في دقّ الجرس. وفتح الباب في مواربة فهرولت إلى الداخل، فإذا بالسيدة التي فتحت لي الباب إنسانة نفشاء الشعر، مشعثة الرأس، شاحبة الوجه، مقرّحة العين، يلفّ جسمها المترهّل جلباب أبيض فضفاض، وتلابسه أشعة صفراء من ضوءٍ خافتٍ يرسله مصباح صغير يتدلى من سقف الدهليز. إنها «ميّ» الآفلة، ولم أتبيّن منها ومن بقايا شروقها إلا ابتسامة باهتة تتأرجح على شفتين تحاول أن تغزوهما طلائع النحيب، ووساوس الهموم.

ووقفت السيدة في مدخل الدهليز دون أن تتكلم، والإبتسامة الذابلة تتردّد على ثغرٍ عهدته حافلاً بالسناء، ومليئاً بأزهر البسمات فيما مضى، ولكنه اليوم كاد أن يكون متقلصاً من ألم. وكانت الأديبة تغمرني بكل نظراتها، وتصوّبها إلى هيكلي وكأنها كانت ترفقها بتيارٍ من عذوبةٍ وحنان. ولكنها لم تُشر إليّ بالدخول إلى غرفة الاستقبال، حتى ولا إلى الجلوس على مقعدٍ من المقاعد المبعثرة في المدخل، بل ظلت واقفةً أمامي، ناظرةً إليّ وهي شبه باسمة وباكية ومتوسّلة! على أنني لم أفقد رباطة الجأش، فحرصت على أن تصل كلماتي المحدّدة القصار إلى نفسها، وتنفذ إليها في الأعماق وقلت: «سيدتي إني اتكلم باسم المعجبين والأصدقاء، وأرفع لك صوت كل الذين يقدّرونك راجياً ألا تترددي في تكليفهم وتكليفي بجميع ما ترومين أن يُؤَدّي لك من خدمات،

فلا تستسلمي للعزلة، ولا تضعفي للهموم، وافسحي لك في الرياضة مجالاً.
سيدتي: إننا جميعاً في خدمتك عن رضا فلا تضنّي علينا بها لتدخلي على أنفسنا الفرح والسرور».

ولكن السيدة التي أوجّه إليها كلماتي القاطعة الصادقة لا تجيب، وتظلّ تغمرني بنظراتٍ فيها العطف وفيها الحنان، وتطفر الدموع إلى عينيها الجميلتين الذابلتين، وتنطق في همسٍ بنحو تلك الكلمات المبهمات، المتقطعات، البعيدات عن صوغ العبارة المتصلة، والخاليات من المعنى المتسلسل الصريح:
«شكراً، شكراً، لا شيء، لا شيء، أريد أن أنام. ربِّ لِمَ كانت الخطيئة؟»

وأدركت أن الأديبة لا تريد أن يقتحم عزلتها أحد فخرجتُ، ورُدّ الباب ورائي في رفق، وأخذتُ أضرب الشارع، وفي خيالي صورة للكاتبة الآفلة، وفي نفسي تأثر عميق إلى أن استقر بي المقام في مقهى مأهول، وأخذت أقولُ لنفسي: ألا إن الحسنات قد تؤذي أربابها، وإن الفضائل قد تضيّع أصحابها!)[1].

خرج الدكتور منصور فهمي من بيت ميّ وقلبه يعتصر حزناً على حالتها، متمنياً لو كانت تقبل مساعدته للخروج من تلك العزلة المروّعة، وما كان قولها: «ربِّ لِمَ كانت الخطيئة؟» إلاّ تَحَسُّراً على شقاء الإنسان على الأرض، بعد أن أمر الله بطرد آدم وحواء من الجنة لارتكابهما الخطيئة الأولى! وقد صوّرت ميّ آلامها النفسية، في شبابها، حين كتبت تقول: (يتعذب المرء أحياناً فيقاسي صُنوف التفطّر، وألوان الاستشهاد حتى إذا ما عبّر عن هذا النكال الممض لخصّه في كلمة: «إني أتألم!» فتثور ثائرته وهو يفضي بهذا التعبير الواهن لِيمْثُلَ مقابض النار التي تتنازع كيانه، ومطارق الحديد التي تدقّ في جنانه. ولذلك نرى السكوت أكبر تعبير يعمد إليه عندما يشتد الألم،

---

(١) محاضرات عن ميّ - الدكتور منصور فهمي - ص ٢٠٤ - ٢٠٦.

أو الجور، أو تطمي أية عاطفة من العواطف على القلب الصادق الذي لا يفتعل إحساسه من جهة، ولا يقوى على الكـذب والمداجـاة، من جهةٍ أخرى) [1].

وإننا نكتشف في هذا الوصف لِما كان ينتابها من ألمٍ وعذاب طبعها الذي يؤثر السكوت على الافصاح، وبديهي أن من يفصح عن كربه وعذابه وغمّه يفرّج عن نفسه بالافصاح، ومن يكتم عن الناس ألمه، ويسكت عنه على مضضٍ يكوي قلبه الكتمان. لهذا كله انزوت ميّ في بيتها، وأخفت أسباب عذابها عن أصدقائها في مصر وزملائها الكتاب، ولا سيما أنها وجدت في إفشاء سرّها فضيحة لأهليها تأبى كرامتها نشرها... أما نسيبها الدكتور جوزيف زيادة الذي أفضت إليه بما حلّ بها، وببعض مسبباته، فإنه قريب من لحمها ودمها، وقريب من روحها، كما كانت تظن، فانتظرت منه النجدة وهي تكابر وتتجلّد، وتهدهد آلامها بالتدخين المفرط، وتناول الحبوب المهدئة، والأمل بالنجاة!

كان الدكتور زيادة على اتصالٍ بابنيّ عمها في مصر، وبنسيب آخر له يدعى طنوس فاعور، هـو شقيق زوجة أخيـه «نعوم» مقيم في القـاهرة، يراسلهم ويراسلونه ويزودونه بأخبار مرضها، وأوهامها، وموقفها النابي، الشاذ منهم، على حدّ قولهـم واتفق أن توفيت زوجته الشابة في أواخر سنة ١٩٣٥، تاركة له طفلين صغيرين، وجرحاً كبيراً ومسؤولية كبيرة، فنظم أموره في بيروت وأتى إلى القاهرة، في منتصف شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٦ حيث استقبله نسيبه طنوس فاعور، وتحدث معه مطولاً عن حالتها، وقاده إلى بيتها لتفقدها. استقبلته ميّ في غرفة نومها، وبعد أن عزته بوفاة زوجته شرحت له وضعها بالتفصيل فطمأنها وأقسم لها بأنه سيبذل كل جهد ممكن في سبيل

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢٦٧، من رسالتها إلى الأستاذ جبر ضومط المؤرخة في ٢٢ ـ ١٠ ـ ١٩٢٤.

راحتها وصحتها، وأنه أتى من لبنان من أجلها وحدها، ولن يعود إليه إلا بصحبتها لأنها في حاجةٍ ماسة لتبديل الهواء، والعناية الفائقة، والمحبة الصادقة. ولكن سوء طالعها شاء أن تسافر مع الدكتور زيادة الى لبنان لتواجه فيه مأساة مروّعة ساقتها، في نهاية المطاف، إلى مستشفى الأمراض العصبية والعقلية في بيروت، المعروف باسم «العصفورية»، وهي في كامل قواها العقلية!

* * *

المأســاة

(وجاؤوني في مصر، وأنا بعـد في حزني يقولون: سافري يا ميّ الى لبنان، في لبنان أهلك، حرام أن تبقي هنـا وحدك. وحملت نفسي الى لبنان، على أن أجـد فيه سنـداً لرأسي التعب، وقلبي الممزّق، وعزاءً لأحزاني. وفي لبنـان لقيت غصصاً مُـرّة، وفي لبنـان حُملت الى العصفورية عـلى أني مجنونـة، وبكلوني بالجاكيت... وفي العصفورية ذقت الموت مرات. وبقيت أحد عشر شهراً الى أن نُقلت، ولا أدري كيف، الى هنا.

ميّ)[1]

مما لا ريب فيه أن ميّ لم تكن مجنونة، ولم تُجنّ في يوم من الأيام، وأن ما أصابها من اضطراب نفسي هو حالة طارئة ظهرت بوادرها بعد وفاة والديها وجبران في سنة ١٩٣٢، فكافحتها بشجاعة: تكتب، وتسافر، ولكنها تفاقمت في أواخر صيف سنة ١٩٣٥ لِشَدّ ما كابدت من آلام الوحدة، والاحزان، وما واجهت من مشكـلات عائليـة لأسباب مـادية، ومـا اضطرت لحمله من مسؤوليات وهموم لم تكن مستعدة لحملها، ولم تخطر على بالها من قبل.

وليست ميّ النابغة الوحيدة التي أصيبت بانهيار عصبي، أو اضطراب نفسي مُمِضّ، فلقد عانى منه مشاهير مثلها نذكر منهم ادغار ألن بو، وبودلير،

(١) رسائل ميّ - جميل جبر - ص: ٩١.

ورامبو، وبايرن، (وغيرهم)، وجلّ هؤلاء يتسمون برهافة الشعور، وسرعة التأثر، ويعجزون عن مجابهة الأزمات الطارئة التي لا تخلو منها حياة انسان. المرض واحد ولكن عوارضه مختلفة، وكذلك الأسباب التي تؤول الى ظهوره، ولعلّ أصحّ ما نُشر في تحليل مرضها النفسي، وذكر الدوافع التي أدت الى استفحاله هو ما كتبه الناقد الأديب مارون عبود حيث قال:

(من نكد الدنيا أن تبتدىء حياة ميّ بالمقلوب، فبعدما أمست الكاتبة الأولى أحبت الكاتب الأول، فمضى لسبيله، وكان الكبت، وكان الانفجار، ولم تفز ميّ بالتصعيد «الفرويدي» لتتسامى بنفسها، وتستولي على الأسد. فلو أحبت في فجر طلعتها الأدبية لظلت أمامها رقعة الأمل واسعةً، ولكنها ابتدأت حيث ينتهي الناس فلم تتحوّل غريزتها الجنسية الى أسمى من الهوى، الى حب الموسيقى والجمال، فذهبت ضحية الفكرة الثابتة. والفكرة الثابتة شرٌّ من التنين الذي رآه يوحنا، فإذا احتلت ساحة الشعور سيطرت عليها واستعمرتها، فكيف لا تفترس حملاً وديعاً لا حاجب على حظيرته ولا بواب؟ مات الأب، ولحقت به الأم، وأمست البنت وحدها، وجهها والحيط، كما يقولون...)[1].

أما الأديبة الآنسة روز غريب فقد ذكرت أسباباً متعددةً لاضطراب ميّ النفسيّ في كتابها عنها (ميّ: التوهج والأفول) منها عامل السن، أي اجتياز ما يسمونه «اليأس الدموي» عند المرأة، ونهج تربيتها الصارمة، وروومنطيقيتها المفرطة، ونزوعها الى الاكتئاب بالفطرة. كما استندت في تحليل ذلك الاضطراب الى ما جاء في موسوعة «كولييرز ـ COLLIERS» عن حالة الهبوط النفسي، الذي يُسمى طبياً: «الانهيار العصابي ـ Depressive Neurosis» ـ وكتبت ما يلي:

(يجب التمييز بين «العصاب» والاختلال العقلي، أو الجنون، ففي

---

(١) جدد وقدماء ـ مارون عبود ـ ص: ١٤٤.

الأول تبقى شخصية المريض وادراكه سليمين، لكنه يشكو من حالةٍ مزمنة تعود جذورها، كلياً أو جزئياً، الى بيئة ضغطٍ وحرمان في الطفولة تجعله أشدّ توتراً من الانسان العادي، عاجزاً عن الاستمرار في العمل، وعن الخروج من دائرة الذات، ومواجهة المصاعب التي تعترضه، في حين أن الاختلال العقلي يتصل بتغيّراتٍ بنيوية، غدديّة، يصاحبها خلل في الوظائف الحيوية اجمالاً، وتبدّل ظاهر في الشخصية ينفصل فيه المريض عن الواقع انفصالاً يكاد يكون تاماً، وتتزعزع عنده قوى الادراك، والملاحظة، والوعي)[1].

لقد شهد جميع الذين شاهدوا ميّ إبان مرضها، وجميع الذين كتبوا عنه في حينه، ومن ثم بعد خروجها من المحنة بأنها كانت مصابة بالعصاب النفسي، وفي حاجة ماسةٍ لعناية فائقة، ومعالجةٍ دقيقة، لا الى زجّها مع المجانين في مستشفى العصفورية، كما حدث لها في مأساتها المروّعة! لهذا كتب فيليكس فارس الى أمين الريحاني يقول: (إن ميّ كانت، ولا ريب، في حالةٍ تستدعي الاعتناء بها، فكان من سوء حظها أنها وقعت من محبةِ أقاربها على صخورٍ وأشواك!)[2].

كما شهد بذلك الكتاب المنصفون الذين درسوا حياتها، وأحاطوا بملابسات مرضها ومنهم مارون عبود وروز غريّب، ووداد سكاكيني، والدكتور منصور فهمي، ووديع فلسطين، وأسعد حسني، وطاهر الطناحي، وعباس محمود العقاد، والدكتور جميل جبر، ولكن الدكتور جبر ناقض نفسه في كتابه «ميّ في حياتها المضطربة» حيث قال ان مرضها هو «جنون الاضطهاد» (ص: ١٤٣)، ومن ثم أضاف يقول: (والواقع أن ميّ لم تكن مجنونة بالمعنى الصحيح لأن المجنون لا يعلّل تعليلاً صحيحاً، ولا يكتب كتابة منسجمة اللحمة حتى في أسمى درجات صحوه)[3].

---

(١) ميّ زيادة ـ التوهج والأفول ـ روز غريّب ـ ص: ٧٤ ـ ٧٥.
(٢) الريحاني ومعاصروه ـ البرت الريحاني ـ ص: ٣٤٠.
(٣) ميّ في حياتها المضطربة ـ جميل جبر ـ ص: ١٤٩.

فماذا حدث في القاهرة أولاً بعد أن وصل إليها الدكتور جوزيف زيادة، ثم في بيروت بعد أن رجع الى لبنان بصحبة ميّ؟ إن رواية الدكتور زيادة لما جرى تختلف عن رواية ميّ لقصتها، فلا بد من نقل الروايتين حرصاً على الأمانة التاريخية، ولنبدأ بما قاله الدكتور زيادة حرفياً[1]:

(قبل أن أغادر بيروت الى القاهرة تلقيت رسالة من نسيبي طنوس أي أنطوان فاعور، وهو أخو زوجة أخي نعوم، يحثني فيها على الاسراع بالسفر لاسعاف ميّ لأنها كانت يائسة، تتمنى الموت وتخشى معصية الانتحار. وصلت الى القاهرة في منتصف شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٦ فقابلته فور وصولي ثم ذهبت الى بيتها. استقبلتني في غرفة نومها حيث كانت واهنة القوى، تدخن كثيراً، فتحدثنا طويلاً وأكدت لها بأنني جئت من أجلها، لخدمتها ولبذل كل جهد ممكن من أجل شفائها. بقيت شهراً ونصف الشهر تقريباً أزورها في كل يوم، فارتاحت أعصابها، وأفاضت بما يقلقها، ولما كنت غير مطمئن على صحتها اتصلت ببعض أصدقائها من الشخصيات الكبيرة للتداول معهم في أمرها، فنصحني الأستاذ لطفي السيد بإحضار طبيب ماهر، مختص بالأمراض العصبية لكي يعالجها. وكما كنت واثقاً من أنها ترفض مراجعة الأطباء اصطحبت معي ذات يوم الدكتور ادوار شقير، وعرفتها عليه قائلاً إنه زميل لي وصديق مقيم في مصر، فارتاحت إليه، وحدثته عن أسباب اضطرابها، وحرمانها من النوم منذ بضعة أشهر، أي إزعاج ابنيّ عمها لها المقيمين في القاهرة (الياس وأغناطيوس زيادة) وطمعهما بما تملك من أسهم وكتب وأثاث ومجوهرات ومال. وفي زيارة أخرى كرّرت الحديث أمامه وقالت لنا إنهما ترددا على بيتها كثيراً، في الصيف الفائت، وإنها طردتهما في نهايته لما بدر منهما من وقاحةٍ وقلةِ احترام الخ... ولكنها لم تَنْجُ من المكائد، والتهديد بالتلفون، إذ كثيراً ما حاولا مع اللائذين بهما القضاء على حياتها.

---

(١) لقد سرد الدكتور جوزيف زيادة هذا الحديث لكاتبة السيرة في بيته ببيروت بتاريخ ٨ - ٣ - ١٩٧١.

لقد هدأنا من روعها في ذلك اليوم، وقال لي الدكتور شقير بعد أن خرجنا من بيتها: «يجب أن تغادر هذه السيدة مصر بالسرعة الممكنة لتبعد عما سبب لها هذا المرض المعروف بمرض الشعور بالاضطهاد!».

وعندما قابلت السيدة هدى شعراوي، صديقتها ورئيسة الاتحاد النسائي المصري للتداول معها في الأمر نصحتني باصطحابها الى سويسرا لكي تتعالج في أحد مصحاتها لأن بقاءها وحدها في مصر، بدون خادمٍ يهتم بها، أو ممرضة تلازمها وتعتني بها شيء خطير، وعواقبه وخيمة. وأذكر أني قلت للسيدة شعراوي إن ما لدى ميّ من مالٍ نقدي، وهو مبلغ ثلاثة آلاف جنيه مصري حسبما علمت، لا يكفي لسدّ نفقات المصح في سويسرا، وأنا غير قادرٍ على مرافقتها إليها. وبعد أن فكرت جيداً بالأمر أقنعت ميّ بالسفر معي الى لبنان لتبدّل الهواء فيه، وتُبعد عن بيتها في القاهرة، وعن ذكرياتها الأليمة، والذين يزعجونها. ثم أخذت منها وكالة عامة لتهيئة السفر، وتنظيم أمورها وحساباتها لأنها كانت واهنة القوى. وبعد ذلك شرعت في إعداد العدة لسفرنا معاً وذلك بالحصول على سمات الخروج، وترتيب البيت الذي تقيم فيه، كما أنني عرضت عليها فكرة تسليم البيت لمالكيه، واستئجار شقة صغيرة عوضاً عنه، ولكنها ثارت ورفضت أن تغيّر أي شيء فيه، مبديةً الرغبة في الرجوع إليه عندما تشاء.

في أوائل شهر آذار توجّهت معها الى لبنان بالقطار، مروراً بفلسطين، وهي منشرحة الصدر، فرحّب بها موظفو الأمن العام والجمارك في مركز «الناقورة» لما لها من شهرةٍ في كل مكان. استضفتها في بيتي حيث أعددت لها غرفة خاصة، فأخذت تستقبل الزوار في الأسبوع الأول، ولكنها ما لبثت أن قبعت في غرفتها ترفض أن تقابل أحداً، حتى طفليّ الصغيرين اللذين كانت ترعاهما مربية ممتازة. طرأ عليها هذا التغيّر فجأةً، وأخذت تتصوّر أني عدوّ لها، فخشيت على أولادي من نقمتها، وأوصيت المربية بإبعادهما عنها.. ثم أحضرت الدكتور «جورج ميللر ـ Georges Miller»، وهو صديقي ومدير

مصح الأمراض العصبية والعقلية «العصفورية»، لكي يطلع على حالتها، غير أني قدمته لها على أنه مستشرق انكليزي، معجب بها، لكي تستقبله. أخذ الدكتور ميللر يزورها يومياً، ويكلفني بإعطائها ما يلزم من علاجات لتهدئتها، ولكن اضرابها عن الطعام، وتردّي حالتها الصحية والنفسية اقتضيا نقلها الى مستشفى العصفورية حيث تتوفّر لها المعالجة الضرورية، ولا سيما أن بقاءها في البيت، على تلك الحالة، لم يعد ممكناً. كانت تصرّ على الرجوع الى بيتها في القاهرة، أو على استئجار بيت خاص بها في لبنان، ولكن ذلك لم يكن في مصلحتها، حسب رأي الأطباء. وبعد أن انقضت على وجودها في المستشفى عشرة أشهر، وتحسنت حالتها نقلناها الى مستشفى الدكتور نقولا ربيز حيث كانت ترفض تناول الطعام أمام الممرضات فيضعن الأكل لها في صينية بالقرب من غرفتها لتنهض في الليل وتتناوله. وهنالك تدخّل الأستاذ أمين الريحاني في الأمر، وطلب مني الموافقة على نقلها الى بيتٍ مفروش تقيم فيه، ودفع قيمة الايجار بوصفي وكيلاً عنها، فلم أوافق ليقيني بأنها ما زالت مريضة. ولهذا طلبتُ أن تقوم لجنة من الأطباء بفحصها مؤلفة من الدكتور جورج ميللر، والدكتور «كالميت ـ Calmette » «والدكتور مارتان ـ Martin »، واصطدمت مع الأستاذ الريحاني، واضطررنا للوصول الى المحاكم! ولو كنت فتحت خزانة مجوهراتها في مصر، المودعة في البنك الأهلي، وعلمت أن قيمتها تبلغ ثمانية عشر ألف جنيه لما تردّدت لحظة في إرسالها الى سويسرا للمعالجة، ولكني لم أعلم بقيمة تلك المجوهرات إلا بعد أن سلمت مفتاح الخزانة الى ابن عمها الخوري يوسف زيادة بعد وفاتها عام ١٩٤١. ليتني فعلت ذلك وتجنّبت حمل مسؤوليتها، والمتاعب التي واجهتها خلال ثلاث سنوات!)[١].

استناداً الى خاتم الأمن العام في الناقورة المسجل على جواز سفر ميّ

(١) هذا هو النص الحرفي لحديث المرحوم الدكتور جوزيف زيادة الينا لدى مقابلة أجريناها معه في بيته ببيروت بتاريخ ٨ ـ ٦ ـ ١٩٧١.

المصري الذي دخلت فيه الى لبنان نتبيّن أنها وصلت الى بيروت في الرابع من شهر آذار عام ١٩٣٦، وأنها حصلت على سمة دخول الى سوريا ولبنان من القنصلية الفرنسية بالقاهرة في ١٩٣٦/١/٢٠، وسمة دخول الى فلسطين من القنصلية البريطانية في ١٩٣٦/٢/٦، فقد احتفظ الدكتور زيادة بذلك الجواز، وهذه صورة عنه:

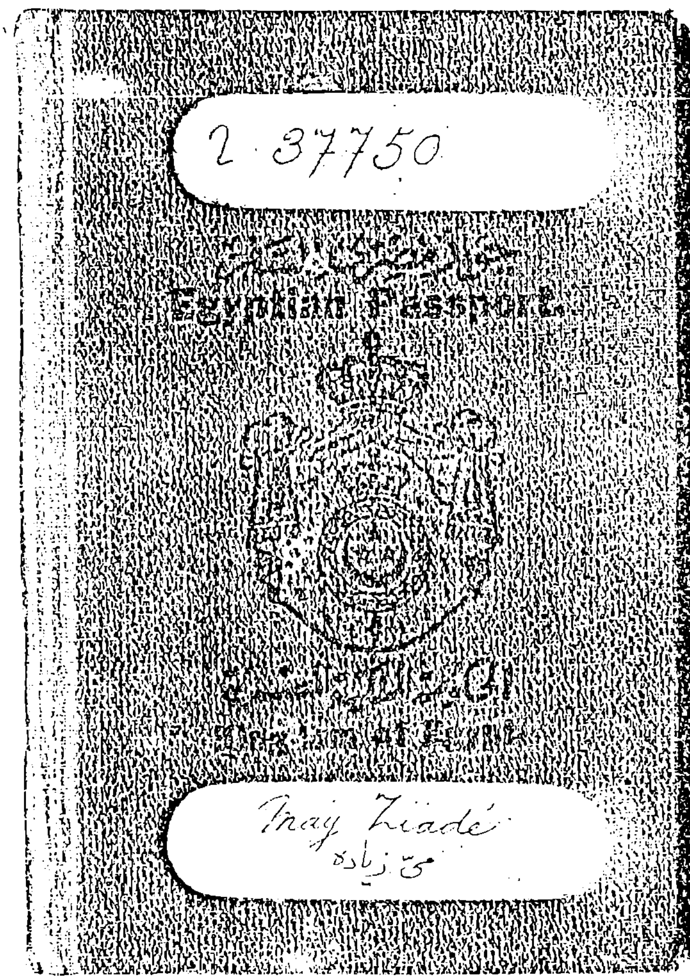

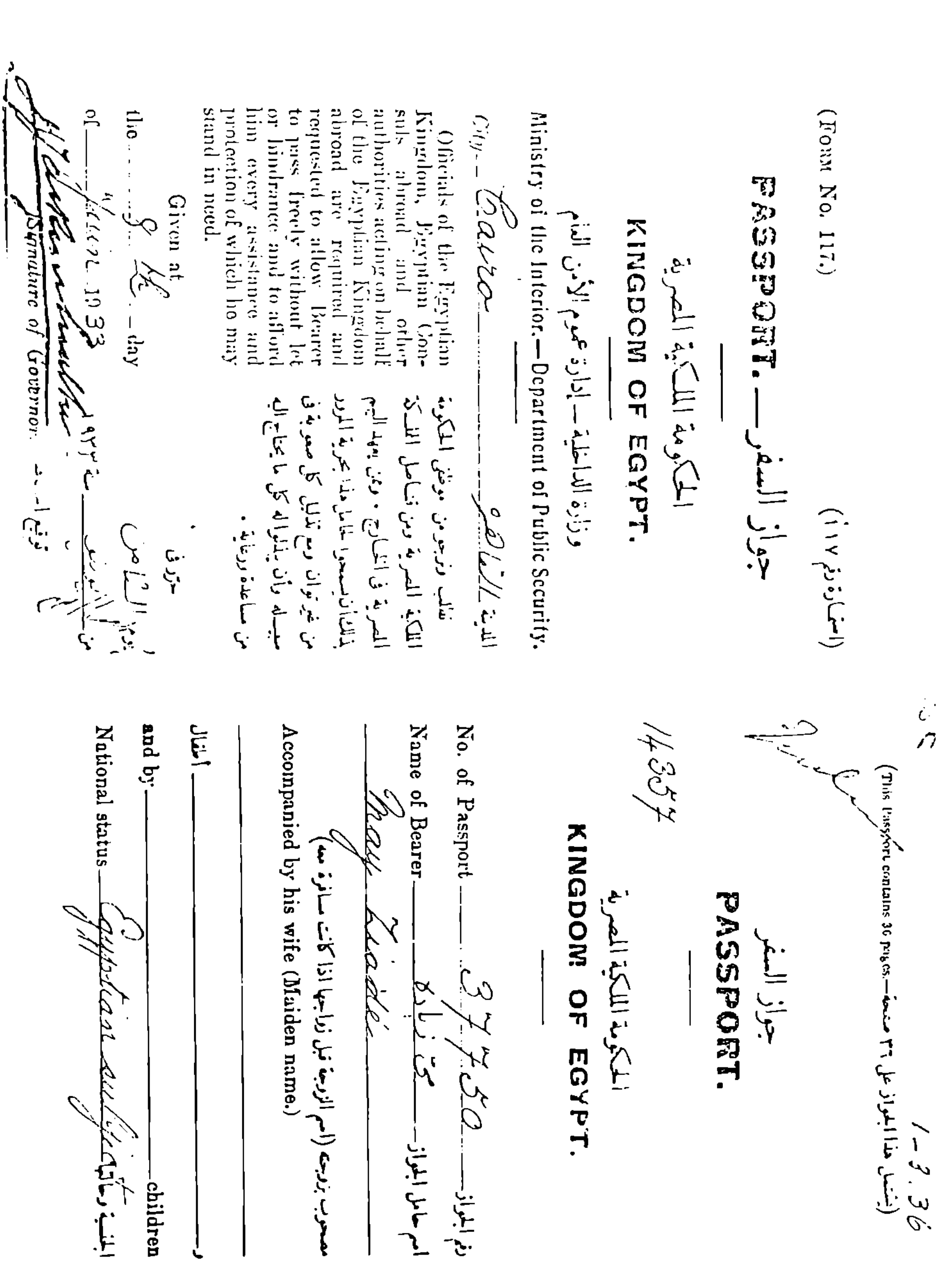

1-3.36

(This Passport contains 36 pages.—يشتمل هذا الجواز على ٣٦ صفحة)

جواز السفر
PASSPORT.

14357

الحكومة الملكية المصرية
KINGDOM OF EGYPT.

No. of Passport ——— 37750 ——— رقم الجواز

Name of Bearer ——— مي زيادة ——— اسم حامل الجواز

May Ziadé

مصحوب بزوجته (اسم الزوجة قبل زواجها اذا كانت مسافرة معه)

Accompanied by his wife (Maiden name.)

و ——— أطفال

and by ——— children

National status ——— Egyptian subject ——— الجنسية وحالتها

(Form No. 117.) (استمارة رقم ١١٧)

PASSPORT.—جواز السفر

الحكومة الملكية المصرية
KINGDOM OF EGYPT.

وزارة الداخلية — إدارة عموم الأمن العام

Ministry of the Interior.—Department of Public Security.

City — Cairo ——— القاهرة المدينة

Officials of the Egyptian Kingdom, Egyptian Consuls abroad and other authorities acting on behalf of the Egyptian Kingdom abroad are required and requested to allow Bearer to pass freely without let or hindrance and to afford him every assistance and protection of which he may stand in need.

تطلب ونرجو من موظفي الحكومة الملكية المصرية ومن قناصل المملكة المصرية في الخارج • ومن يعهد اليهم بذلك أن يسمحوا لحامل هذا بحرية المرور من غير توان ومع تذليل كل صعوبة في سبيله وأن يبذلوا له كل ما يحتاج اليه من مساعدة ورعاية •

Given at حرر في

the 8th day يوم الثامن

of June 1933 من يونيو سنة ١٩٣٣

Signature of Governor. توقيع المحافظ

— 4 —

صورة حامل الجواز الشمسية

Photograph of Bearer.

توقيع حامل الجواز

Signature of Bearer,

محل لصق الصورة الشمسية

PHOTO.

توقيع الزوجة

Signature of Wife,

* الترخيص

* AUTHORITY. (1) { تاريخ / Date } ________ { رقم / No. } ________

(2) Office of Origin: الجهة التى صدر منها أمر الترخيص

____

* Or particulars of previous passport. * البيانات المأخوذة من الجواز السابق .

— 5 —

الممالك التى يعمل فيها بهذا الجواز :

Countries for which this Passport is valid :

Syria, Palestine, France

Italy, Switzerland, Greece

Turkey

ينتهى العمل بهذا الجواز فى :

The validity of this Passport expires :

7th Juin, 1938 .... ٧ يونيو سنة ١٩٣٨

الا اذا جدد

unless renewed.

Issued at *Caire* ________ صدر فى *القاهرة*

Date *8 6 1933* .... التاريخ ٨ـ٦ـ١٩٣٣

— 10 —

Visas. —إشارات الاعتماد

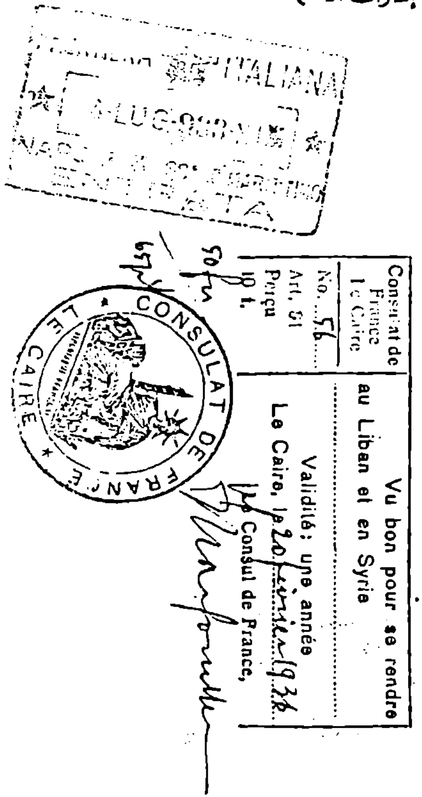

— 11 —

Visas.—إشارات الاعتماد

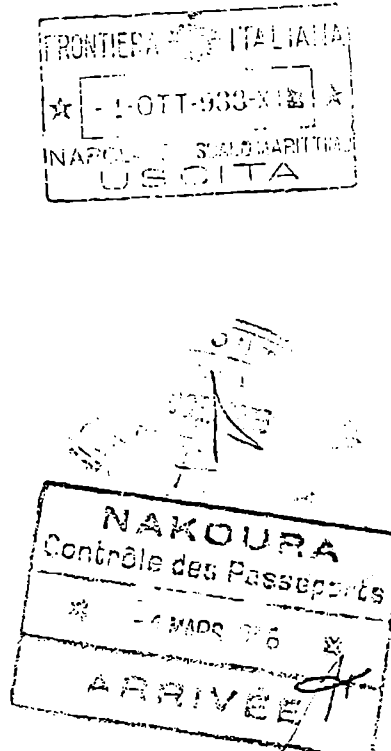

— 13 —

[illegible]

GENERAL,

[illegible]

وأما التقارير التي وضعها الأطباء الذين عالجوها في بيت الدكتور زيادة أولاً، ومن ثم في مستشفى العصفورية فقد وُفقنا بـأخذ صـورة عنها من العصفورية بفضل الإذن الخاص الذي أعطانا إياه سيادة المطران أغناطيوس زيادة للوقوف عليها، وذلك بارسال طلب رسميّ لمديرية المستشفى بتوقيعه وبوصفه عميد الأسرة، ولولا ذلك لظلّت قصة «جنون.. ميّ غامضة، بل أسطورة من الأساطير!».

5000 - 10 - 76

L.H.7

THE LEBANON HOSPITAL FOR MENTAL AND NERVOUS DISORDERS
ASFURIYEH, near BEIRUT, LEBANON P.O.B. 92
Phone: 451200 - 451401 - 451602
352909 (Beirut Clinic)

المستشفى اللبناني للأمراض العقلية والعصبية
العصفورية - قرب بيروت - لبنان صندوق البريد ٩٢
تلفون: ٤٥١٢٠٠ - ٤٥١٤٠١ - ٤٥١٦٠٢
٣٥٢٩٠٩ (عيادة بيروت)

30th July, 1979

MD/240/79

+ Ignace Ziadé
Archevêque de Beyrouth
Archevêché Maronite,
Beirut

Your Grace,

Reference your letter of 16th July, 1979 concerning Miss May Ziadé.

Enclosed please find photocopies of relevant documents.

I shall be happy to give further information orally to questions your Grace wishes to know more about.

Yours very respectfully,

Dr. A. S. Manugian, C.B.E.,
Medical Director.

ARCHEVÊCHÉ MARONITE
DE BEYROUTH

Le 16 juillet 1979

A Monsieur le Professeur, Docteur MANOUKIAN,
Directeur de l'Hôpital Hazmié - Beyrouth

Pour une affaire officielle nous vous demandons des renseignements sur notre cousine feu Mlle May ZIADE pendant la période qu'elle avait passée chez vous entre 1936 et 1937.

Veuillez croire, Monsieur le Professeur, à mes vifs remerciements.

+ Ignace Ziadé
+ Arch. de Beyrouth

+ Ignace ZIADE
Archevêque de Beyrouth

Reg. No. 5397 Name Mary Ziadé Age 50 Occ. [illegible]

Adm. [illegible] 36 Address of Cairo c/o Dr Ziadé, Beirut Rel. M.S.W.

Diag. [illegible] Class

Adm. 7-3-36 at home of Dr Ziadé

Celebrated writer & poetess. Only child. Father died about 8 yrs. ago. Mother died 5 yrs ago.

Lives alone in Cairo. Celebrated Arabic Scholar & [illegible]. Receives homage of celebrated [illegible]

[illegible]

تشير هذه التقارير المكتوبة باللغة الانكليزية، والموقعة من الأطباء الدكتور جورج ميللر، والدكتور انترانيك مانوكيان إلى أنها استدعيا لمعالجة ميّ في بيت نسيبها الدكتور جوزيف زيادة بتاريخ ١٩٣٦/٣/١٧ أي بعد وصولها إليه من القاهرة بثلاثة عشر يوماً، «حيث كانت فريسة كوابيس في نومها، وهواجس في صحوها تدلّ على ارتيابها بأقربائها كافة، وحيث أضربت عن الطعام، في بيته، احتجاجاً على أسرها فيه، ومنعها من الرجوع الى القاهرة. كما كانت تشكو تعاستها، وتتحدث عن سرقة قطع الحليّ التي حملتها معها الى لبنان، ولكنها تناولت الطعام من جديد خشية الاضطرار الى دخول المستشفى الذي هُددت به اذا ما استمرت في الاضراب». وتشير هذه التقارير أيضاً الى أنها عادت الى الاضراب عن الطعام مجدداً، وأن نوبات عصبية عنيفة أصيبت بها اقتضت حقنها بغرام ونصف الغرام من المورفين، ونقلها الى «العصفورية». وقد تبيّن أنها نُقلت إليها بتاريخ ١٩٣٦/٥/١٦، أي بعد انقضاء شهرين واثنتي عشر يوماً على وجودها في بيت الدكتور زيادة، ففي هذا التاريخ سجّل الأطباء ما يلي، كما يتبيّن من صورة الصفحة الأولى من التقارير:

(**الاسم**: ماري زيادة ـ العمر (٥٠) ـ **الحرفة**: كاتبة ـ رقم السجل: ٥٣٩٧ ـ **العنوان**: الدكتور زيادة بيروت ـ **تاريخ الدخول**: ١٩٣٦/٥/١٦ ـ **تشخيص المرض**: «سوداوية انتكاسية ـ Invol. Melancholia» ويمكن ترجمة التشخيص بأنه مرض الاكتئاب، حسب رأي بعض الأطباء: **الغرفة التي وُضعت فيها**: خاصة. **الوضع الاجتماعي**: عزبة ـ **الدين**: مسيحية مارونية ـ **الفحص الجسماني**: بنية جيدة، شديدة النحول ـ متقلصة القسمات ـ متوترة الأعصاب ـ عيناها سليمتان ولكنهما محتقنتان ـ **العنق**: لا أثر للغدد الناتئة منه ـ **الصدر**: شدة نحولها ظاهر في غياب خلاياه ـ **القلب**: ضرباته طبيعية، ولا تضخم فيه ـ **البطن**: غائر ـ **الأطراف**: مرتخية.

وإذا تابعنا دراسة هذه التقارير السرية المدونة بتواريخ مختلفة ما بين

١٩٣٦/٥/١٦ و١٩٣٧/٣/٢٣ نجد تكراراً لوصف مزاجها السوداوي، وتشاؤمها، ورفضها التحدث مع ابن عمها الدكتور عندما كان يأتي لزيارتها، ونجد أنها أضربت عن الطعام في «العصفورية» احتجاجاً على الطعن بقواها العقلية مما اقتضى تغذيتها بالأنابيب عن طريق الأنف والفم. وجاء في تلك التقارير أيضاً أنها كانت تتحدث أحياناً عن تآمر أهلها عليها، وتطلب السجائر بإلحاح، وتحتفظ بأعقابها للمقايضة عليها بسجائر أخرى بسبب التقنين في التدخين الذي فُرض عليها. كما اعترف الأطباء في هذه التقارير بقوة حافظتها، وصحة استيعابها لانقضاء الزمن، وأسماء الأشخاص، وأشاروا الى نوبات من البكاء كانت تنتابها من حين الى آخر، والى السلبية في سلوكها معهم. وهنالك تقارير لاحقة أشارت الى تحسن ملموس في صحتها في أواخر عام ١٩٣٦ بسبب تغذيتها بواسطة الأنابيب، واضافة حقنٍ مقوية على الطعام السائل من نوع: هيماتوغوفيرين ـ Hematogophirin ».

هذه خلاصة ما جاء في ملف مي السري الذي ما زال محفوظا في « العصفورية » ولا بد من نقل جزء من حديث مي الى أمين الريحاني عما حل بها في تلك الاشهر من عذاب حيث قالت:

(بحجة التغذية وباسم الحياة ألقاني اولئك الاقارب في دار المجانين احتضر على مهل، وأموت شيئا فشيئا. لست أدري اذا ما كان الموت السريع هينا، أما الموت البطيء طيلة عشرة شهور وأسبوع مع التغذية القهرية تارة من الفم بتقطيع لحمة الاسنان، وطورا من الانف بواسطة النبريج فذلك موت لا أظن ان انسانا يحتمل الإصغاء برباطة جأش الى وصفه. ومع ذلك كان أقاربي في زيارتهم النادرة يستمعون إليّ بسرور وانا أصف نكالي وشقائي راجية منهم عبثا ان يرحموني ويخرجوني من العصفورية)[١].

وهذا حديث الدكتور مانوكيان الذي تفضل بتزويدنا به سنة ١٩٧٩، مما يؤيد عذاب مي، وصحة عقلها، نورده بدون تعليق:

---

(١) قصتي مع ميّ ـ امين الريحاني ـ ص: ١٣.

(كنت طبيبا معاونا في مستشفى العصفورية سنة ١٩٣٦ فطلب إليّ الدكتور ميللر، المدير، أن أصحبه الى منزل الدكتور زيادة لنقل قريبته الأديبة مي الى مستشفانا. وجدتها في حالة إعياء شديد، قابعة في فراشها، مهملة نفسها، مضربة عن الطعام، ويائسة من الحياة تتمنى الموت. وقد حقناها بالمورفين للتمكن من نقلها، اذ كانت ترفض ان يقترب منها أحد، وأشرفت بنفسي على تغذيتها بالحليب والبيض والبروتينات عن طريق أنبوب من الفم، وآخر من الانف مدة أربعة أشهر، ثلاث مرات يوميا لأنها كانت ترفض تناول اي طعام، أو علاج من فمها، وفي حاجة ملحة للتغذية والتقوية. كلامها مع الاطباء كان قليلا، واذا ما اتفق وأفصحت عن رغبات لها كانت رغباتها تتلخص بان ندعها تموت، وباقناعنا بان مكانها ليس في هذا المستشفى... [(١)].

كما حدثنا الدكتور مانوكيان عن عنادها الشديد، وصحوها المذهل في أحيان كثيرة، ونوبات بكاء كانت تنتابها لدى تذكرها ماضيها المجيد، وموت أبويها، واضطهاد أهليها لها في مصر وفي لبنان. وأكد في ختام حديثه انها لم تكن مؤذية أبدا، وانه طرأ تحسن كبير على صحتها في آخر عام ١٩٣٦ فبدأت تخرج الى حديقة المستشفى للتنزه مع ممرضتها. فما هو سر ذلك التحسن المفاجىء الذي أدى الى خروجها من العصفورية، كما جاء في التقارير الطبية؟ وهل يمكن لمجنون ان تعود اليه ملكاته العقلية بفضل تغذية جسمه قسرا بعد أشهر من إدخاله الى مصح الأمراض العقلية والعصبية؟ ان السبب الرئيسي في تحسن صحة مي الجسدية (نقول الجسدية لأن صحتها العقلية كانت تامة، وظلت تامة حتى نهاية حياتها) هو بارقة أمل بالنجاة لوحت في أفقها المظلم، بعد انقضاء سبعة أشهر على وجودها في العصفورية، وذلك يوم فوجئت بدخول زائر عليها من أصدقائها القدامى، لم تكن تتوقع زيارته، أو زيارة غيره، ليقينها أن أقرباءها رموها في العصفورية، وأشاعوا نبأ

---

(١) من حديث الدكتور انترانيك مانوكيان الينا الذي جرى في مكتبه بمستشفى العصفورية بتاريخ ٢٢ ـ ٦ ـ ١٩٧٩ بالحازمية وقد كان يومئذ مديراً له.

جنونها... كان ذلك الزائر هو السيد «مارون غانم»[1] من أصدقاء أبويها الذين هاجروا إلى مدينة حيفا بفلسطين، ومن المعجبين بأدبها وبنبوغها، وقد اتفق ان أتى الى بيروت في شهر كانون الاول من تلك السنة لقضاء فرصة أعياد الميلاد ورأس السنة بين ذويه واصدقائه. كان مارون غانم يتابع نشاط مي الادبي، ويراسلها من حيفا أحيانا، فكتب اليها عدة مرات في تلك السنة دون ان يتلقى منها جوابا على رسائله، فسأل الدكتور جوزيف زيادة عن أخبارها، عقب وصوله الى بيروت، وذهل عندما علم منه بانها مختلة عقليا، تتعالج في « العصفورية » منذ سبعة أشهر! لم يصدق ذلك الصديق الشهم ان في عقل مي مساً فألح على زيارتها، ومع ان الدكتور زيادة نهاه عن ذلك فقد حصل على اذن خاص، بعد جهد كبير، وأطل عليها في غرفتها فدهشت لمرآه، وانفرجت أسارير وجهها وحدثته عما جرى معها، وما يجري... جلس معها ساعتين يستمع الى قصتها المفجعة، قصة جنونها المزعوم، وتجريدها من حريتها، والتغرير بها في إقناعها بإعطاء وكالة عامة للدكتور زيادة في مصر، ثم لمصاحبته الى بيروت حيث وعد باستئجار بيت لها تستجم فيه، واحاطتها بما تتطلب من عناية ورعاية... وقالت مي لمارون غانم ان الخطأ الكبير الذي ارتكبته في حق نفسها هو وضع ثقتها كلها في ذلك النسيب، وفتح قلبها له في رسالة مطولة بعثت بها اليه تستنجد به، لأن تلك الرسالة سببت شقاءها، وجنت عليها. وحدثته عما لقيته من أهلها في مصر من مضايقات لا يمكن وصفها، منذ وفاة أبيها وأمها، ومداخلات في حياتها الشخصية، وشؤونها المالية، ولا سيما في صيف عام ١٩٣٥، وخدع متلاحقة، مما تخجل ان تفصح عنه لانهم أقرب أقربائها، وأبناء عمها الكبير، وورثتها في نهاية المطاف... فلو تريثوا بمقاسمتها ما ورثت، وما ملكت بكد يمينها، وعرق جبينها، حتى تموت، ما دامت ظلت عزبة، لا زوج لها ولا اولاد يرثونها، لوفّروا عليها كل هذا الشقاء! وكان لا بد لها من

---

(١) مارون غانم - ١٨٩٥ - ١٩٤٩ - وجيه لبناني ولد في قرية «بكاسين» في قضاء جزين، وتعلم في بيروت ثم زاول أعمالاً تجارية في حيفا.

إطلاعه على نقمتهم عليها، وطمعهم بوضع أيديهم على متاعها، تلك النقمة الهائلة القديمة بسبب مقاطعة أبيها لهم سنة ١٩٢٥، يوم منعوه من تشييد بيت لها في «شحتول» على أرض مشاعة بينه وبينهم! وخرج مارون غانم من غرفة مي يكفكف دموعه لمأساة النبوغ في العصفورية، بعد ان اقسم لها بشرفه وأمه وزوجه واولاده بانه لن يغادر لبنان قبل اخراجها من هذا الجحيم! كما أخذ منها الوعد بأن تتفاءل، وتتناول الطعام بنفسها، ويهدأ بالها لأن ساعة الانقاذ اصبحت دانية. لهذا نقول ان املها الكبير في نجاح مسعى مارون غانم كان السبب الأول والأخير في التحسن الكبير الذي طرأ على صحتها!!

قابل مارون غانم الدكتور جورج ميللر في تلك الفترة، عدة مرات، يستوضح عن حالتها، ويوضح له حقيقة مأساتها، وقابل الدكتور زيادة، والخوري يوسف زيادة، وحذرهما من عواقب بقائها في العصفورية، كما ظل يتردد على زيارتها، ويحمل اليها ما يلزمها، الى ان حصل على موافقة الدكتور ميللر بنقلها من العصفورية الى مستشفى آخر عادي للعناية بصحتها، لأن محلها لم يعد فيه! وقد استغرقت تلك المساعي حوالى ثلاثة أشهر كان لا بد للوصي عليها، الدكتور زيادة من الرضوخ للأمر الواقع، والموافقة على نقلها من جحيم العصفورية الى مستشفى الدكتور نقولا ربيز حيث اقامت عشرة أشهر أخرى من ٢٣ - ٣ - ١٩٣٧ حتى غاية ٢٢ - ١٢ - ١٩٣٧. ومع أن حريتها فيه كانت محجوزة فقد ارتاحت نفسيا لوجودها بين مرضى عاديين، تحت إشراف أطباء صحة عامة، كالدكتور نقولا ربيز نفسه صاحب المستشفى، والدكتور نقولا غصن مساعده، وممرضات ممتازات.

تبين للاطباء في مستشفى ربيز ان النكسة النفسية التي أصيبت بها في بيت نسيبها الدكتور جوزيف زيادة، عقب وصولها اليه من مصر، كانت نتيجة شعور بالضيق، وخيبة أمل كبيرة بعد ان تأكدت من ان الدكتور زيادة قد غرر بها، ونكث بوعده لها في إيجاد بيت خاص بها في لبنان، وأسرها في بيته مدة طويلة، ومنعها من الرجوع الى القاهرة. لقد خاب أملها فيه، فشعرت بالضيق وبالطعن في كرامتها لانه أمسى وصيا عليها، وعلى أملاكها

وجميع تصرفاتها! أما إضرابها عن الطعام يوم كانت في بيته، وبعد أن أدخلوها «العصفورية»، وسلوكها السلبي في التعامل مع الناس والأطباء والممرضين فقد كان تعبيراً عن احتجاجها على الظلم، وعجزها عن الدفاع عن نفسها، وكرهها للحياة!.

كانت مي في العصفورية امرأة ضعيفة، مريضة، في وسط قمين بأن يسلب العاقل عقله، ولكنها صمدت، وكابدت شتى ألوان العذاب الى أن جاءها الفرج بمجيء المنقذ الشهم، صديقها القديم مارون غانم، هذا الرجل الوفي الذي أوصلها الى دار الامان في مستشفى ربيز، وأقفل عائدا الى مقر عمله في حيفا، بعد أن أوصى الممرضة الآنسة أليس سلامة ببذل غاية العناية بها، وبموافاته بتقارير متتابعة عن صحتها عبر المراسلة. وأكبر دليل على انفراجها من الغم الذي كانت فيه هو ازدياد وزنها في مستشفى ربيز بسرعة مذهلة حيث طاب نومها، وارتاحت أعصابها، وأخذت تستعيد عافيتها، بعد انقضاء عشرة أيام فقط على وجودها فيه! ربما يخطر للقارىء ان هذا الكلام مبالغ فيه، ولكن ما يثبته هو هذه الرسالة التي تلقتها مي من مارون غانم المؤرخة في ١١ ـ ٤ ـ ١٩٣٧:

(عزيزتي مي لا عدمتها: لا أقدر ان أعبر لك عن الفرح العظيم الذي ملأ قلبي اذ علمت ان وزنك قد زاد (٢) كيلو بعد عشرة أيام فقط من دخولك إلى مستشفى الدكتور ربيز. فالله يديم عليك هذه النعمة حتى لما أحضر الى بيروت، في الشهر القادم، يكون وزنك قد استعاد معدله الأصلي.

عزيزتي مي: وصية واحدة أريد أن أوصيك بها وهي ان تطلبي الله دائماً بتشوق واتضاع، فهو بهذه الحالة يحضر حالاً ويملأ قلبك غبطة عظيمة لا تحد ولا توصف. ثم إنه هو بذاته يعمل اللازم من الأعمال.

لقد أخذت اليوم تحريرا من الآنسة أليس سلامة وبه تطمني عنك،

وكذلك جاوبتها، وطلبت منها ان تداوم على تطميني عنك، في كل أسبوع. هذا ومع الدعاء الحار بحفظ صحتك الثمينة، ودمت.

يافا في ١١/٤/١٩٣٧ مارون (١)

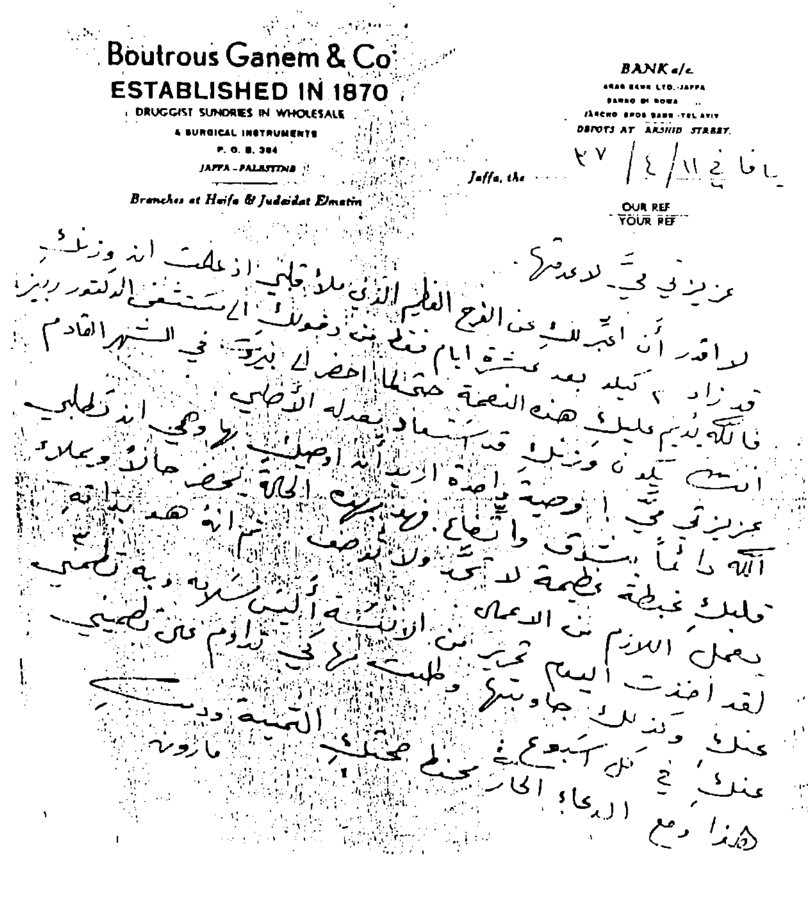
Boutrous Ganem & Co.
ESTABLISHED IN 1870
DRUGGIST SUNDRIES IN WHOLESALE
& SURGICAL INSTRUMENTS
P. O. B. 384
JAFFA - PALESTINE
Branches at Haifa & Judeidat Elmatin

BANK a/c
DEPOTS AT ARSHID STREET

Jaffa, the يافا في ١١/٤/٢٧
OUR REF
YOUR REF

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٤٩.

وقد حدثتنا السيدة أليس سلامة[1] عن أيام مي في تلك الفترة فقالت:

(عرفت مي عام ١٩٢٥ يوم زرتها مع السيدة حبوبة حداد في فندق بسول ببيروت، وهي في أوج مجدها، فأعجبت بشخصيتها وحديثها إعجاباً كبيراً. كنت شابة في مقتبل العمر يومئذ، ثم درست التمريض، وشرعت بالعمل مع الدكتور ربيز في مستشفاه. ناداني في ٢٢ آذار ١٩٣٧ وقال لي: «أرجو أن تشرفي بنفسك يا أليس على تهيئة الغرفة رقم (٥٠) لاستقبال الأديبة المشهورة مي زيادة التي ستتعالج عندنا». فأعددنا الغرفة، ووضعت فيها زهوراً، ولكني أصبت بالذهول عندما رأيتها قادمة لشد ما تغيرت! وجه شاحب، وجسم هزيل، شعر أبيض وعيون غائرة، مما يرعب ويدعو من يعرفها للقول: أهذه هي مي حقاً؟ كانت منهوكة القوى ساعة أقبلت، وبعد أن رحب بها الدكتور ربيز وخرج من الغرفة طلبت مني ومن زميلتي «إستر واكيم»[2] أن نتركها وحدها. وما هي إلا أيام قلائل حتى أحرزت ثقتها: رجوتها أن تستحم فقبلت، وأن تأكل فرفضت، ولما كنا حريصين على تغذيتها لشدة نحولها، نرى أن ما تشربه من اللبن وعصير الفاكهة لا يكفي، كنا نحضر لها وجبة شهية مرتين في اليوم، ونضعها في غرفتها، ونخرج منها، فتأكل وحدها، وفي الليل خاصة، قبل أن تنام. ولقد عمدنا إلى هذه الطريقة بعد أن لحظنا عجزها عن المضغ بشكل طبيعي، وأوجاعاً أليمة في حنكها ونيرتها وأضراسها، رحمها الله، نجمت عن تغذيتها قسراً بالأنابيب في العصفورية، مدة طويلة من الزمن، تقارب السنة! ومي، كما عرفتها، عزيزة النفس، حريصة على إخفاء ألمها عن الناس، وحريصة على أن تظهر أمامهم

---

(١) كانت الممرضة «أليس سلامة» عزبة سنة ١٩٣٧، ثم تزوجت وعاشت في لبنان وفيه توفيت سنة ١٩٧٣، رحمها الله. وقد قابلناها في بيت السيدة حرم الدكتور ربيز ببيروت، وأخذنا منها المعلومات المنشورة اعلاه في سنة ١٩٧١.

(٢) وكانت الممرضة «استر واكيم» عزبة أيضاً في ذلك التاريخ، ثم تزوجَت مغتربا لبنانياً بعد سنوات وهاجرت معه الى استراليا.

مظهراً لائقاً بكرامتها، فكيف تقبل إذن أن يشاهدونها تأكل بصعوبة؟ ومع ذلك كانت تقبل على الطعام بمفردها لاسترداد قوتها، وقد اقتنعت أنها لن تتغلب على الأحداث الأليمة إلا وهي في كامل عافيتها. كان حديثها متزناً، في سائر الأوقات، ليس فيه ما يدل على أي خلل في التفكير منذ بداية وجودها في المستشفى. وقد تعرفت فيه إلى آنسة من دمشق، هي بدرية الأيوبي، ابنة رئيس الوزراء السوري، التي كانت تتعالج فيه وتقيم في الغرفة رقم (٥١) المجاورة لغرفتها، فانعقدت بينهما صداقة كبيرة خففت عن مي الكثير من مشاعر الغربة، ووطأة الوحدة. ثم اتصلت هذه الصداقة بأهل الآنسة بدرية الذين كانوا يترددون على زيارتها، سواء والدها المقيم في دمشق وشقيقاتها أمينة وسنية وبشرى، أو خالاتها من آل الجزائري ومن يلوذ بهن من آل الشريف المقيمين في بيروت. وقد استأنست بهم مي كثيراً، وروت لهم قصتها فاهتموا بالأمر جدياً وبذلوا جهوداً كبيرة للعمل على انقاذها. وإني ما زلت أذكر أنها هنأتني بحرارة يوم أعلمتها بأنني مخطوبة، وعلى وشك الزواج، ثم أطرقت لحظة، وقالت لي وقد تجهمت قسمات وجهها:

ـ اسأل الله ان يسعدك يا أليس، فالزواج ضروري للفتاة، ولكني أعتذر عن عجزي عن تقديم هدية لائقة بك لأنني محرومة من التصرف بمالي...

ثم بكت وهي تقص عليّ حكايتها مع أبناء عمها الذين تآمروا عليها، واستولوا على أملاكها، ثم حجزوا حريتها وأدخلوها الى «العصفورية». فواسيتها بقدر ما استطعت، واذ بالآنسة بدرية الأيوبي تستأذن في الدخول عليها لزيارتها، فرحبت بها، وأفضت اليها بالمأساة التي حلت بها، وملابساتها. وبعد بضعة أشهر من اقامتها عندنا زارها الكاتب الكبير أمين الريحاني، وشرع في الحملة الصحفية والقضائية مع آل الجزائري وغيرهم التي شدت أزرها، وساعدتها على استرداد حريتها وحقوقها، بعد فترة طويلة على ما أذكر. اما أقرباؤها فلم أر أحدا منهم خلال تلك المدة، ما عدا الدكتور

جوزيف زيادة الذي حاول الدخول عليها لتفقدها، فمنعته من ذلك، وطلبت من الدكتور ربيز والقائمين على المستشفى الا يسمحوا له بزيارتها أبدا!! ولن أنسى ما حييت وصفها لما قاسته من عذاب وشقاء في العصفورية لا يحتملها إنسان لأن وعيها كان سليما، ولسانها مغلولا. وأضافت تقول انها آثرت الصمت على الكلام مع الاطباء، وأمعنت في الاضراب عن الطعام لشدة ما كانت تشتهي الموت!)[1].

ان ما قالته مي لأليس سلامة مطابق لما ورد في حديثها الى الممرضة الثانية الآنسة استر واكيم حيث قالت:

(وجاؤوني الى مصر، وأنا بعد في حزني يقولون: سافري يا مي الى لبنان، ففيه أهلك، وحرام ان تبقي هنا وحدك! وحملت نفسي الى لبنان على ان أجد فيه سندا لرأسي التعب، وبلسما لقلبي الممزق، وعزاء لأحزاني. وفي لبنان تجرعت الغصص مرات، وحملت الى العصفورية على أني مجنونة، وبكلوني بالجاكيت... وفي العصفورية ذقت الموت مرات)[2].

وهنالك مستند آخر يوضح صنوف العذاب التي عرفتها في «العصفورية» وهو مقالة نشرها الاستاذ راجي عشقوتي عام ١٩٨٠ بعنوان: «صفحة سوداء من أيام مي زيادة» كان مما جاء فيها قوله:

(أنا في الفياضية مع سيدة عجوز تجيد التحدث عن مي. لقد لازمتها المدة التي قضتها في العصفورية. نسيت كيف عرفتها بنفسي، كيف أطلعتها على قصدي، بل كيف جعلتها تتحدث عن مي بهذا السخاء، وهذا الانفعال. كما يتحدث المؤمن عن أعجوبة كانت تتحدث العجوز:

- «لم تكن مجنونة، بل فرضوا عليها الجنون! عندما وصلت الى

(١) هذا هو النص الحرفي للحديث الذي أفضت به الينا السيدة أليس سلامة في مقابلة معها جرت في منزل الدكتور نقولا ربيز ببيروت، في ٥ - ٦ - ١٩٧١، قبل وفاتها بعامين، رحمها الله.

(٢) نقلاً عن كتاب: «رسائل ميّ» - جميل جبر - ص: ٩١.

العصفورية كنت أنا حاضرة: سيارة سوداء تقف في الساحة، يفتح بابها الخلفي وتترجل مي! واذكر انها رفضت ان يعاونها أحد على النزول... قفلت الباب بعصبية، ووقفت متجهمة، صامتة، ثم هزت برأسها ومشت ترافق دليلها الى الغرفة التي أعدت لها، تتأخر عنه ثم تسبقه، وكأنها تتعمد التباطؤ تعبيرا عن عدم الرضا عن المشروع كله، بل عن رفضها له! ولم تكن وقتها أنيقة المظهر!

لحظات ويصدر إليّ أمر ملازمتها طوال دوام النهار. تأففت لفرط ما سبق وصولها من الاشاعات عن غرابة أطوارها، وسرعان ما اكتشفت العكس. لم تكن تكلمني أبدا، ولا عن أسئلتي تجيب، بل لم تكن تكلم أحدا، بل ترفض مقابلة أي كان. حتى الخبز كانت ترفضه وكذلك الطعام على جميع انواعه. يدخل عليها يوميا أكثر من طبيب، المرة تلو المرة، لا لمعالجتها بل لمفاوضتها، لرجائها التنازل عن عنادها، وما كان الالحاح المغلف بالتهديد الا ليزيدها عنادا! فلا بالناس تثق ولا بالحياة، وما همّ أغضبت الحياة، أم رضي الناس؟.

كنت سعيدة بالبسمة التي كانت تقابلني بها، بالنظرات التي كانت تلاحقني، وباحساسي أنني أنا المحتاجة اليها، الى عطفها ورضاها، لكأنها انسانة فوق الناس!

وينفذ التهديد «بالمتمردة» وتنقل الى غرفة في الطابق الأرضي من المستشفى، مظلمة، صعبة المراس».

الى هنا، وتشهق العجوز المسكينة. لم تعد تقوى على الكلام، وكان ان سقطت من عينيها دمعتان هما أبلغ ما سمعت وقرأت في تجريح الظلم والظالمين. وتابعت محدثتي:

- «في هذه الغرفة انحلت عقدة لسان مي، وهكذا تنجح الصراصير حيث أخفق الاطباء! لقد ناجت أمها بحرارة، تشكو اليها زحمة الصراصير في كل مكان من الغرفة، وبشاعة منظرها: يا أمي، ألا تشفقين على ابنتك ان تعيش في الظلام مع الصراصير؟ ألا تستحق ابنتك أن تعيش مع الينابيع

والزهور والعصافير؟ ألا يحق لها أن تملك في لبنان كوخاً صغيراً يطل على الأودية، تأوي إليه وحدها؟ ابنتك معذبة يا أماه!

ولا أنسى منها هذه «الأف» الطويلة عندما سألتها عن اشاعة حبها لجبران بعدما أخذت ترتاح إليّ، وتجيب على بعض اسئلتي: «أف... مات جبران، ليش بعد نحكي عنه! عرفنا بعضنا بالرسائل فقط». وجلست على حافة سريرها مدت إليّ يدها تطلب سيكارة، وكثيرا ما كانت تطلب السجائر، وهي ممنوعة عن مرضى العصفورية. كانت مدمنة على التدخين. أغادر الغرفة وأعود اليها فتسلمني ظرفا دفنت فيه رماد السيكارة قائلة: «اطمريه في التراب... انه إبن الرذيلة».

أيامي مع مي لن أنساها، خصوصا اللحظات الحميمة التي حدثتني فيها عن خصوصياتها، ولن انسى جرأتها وتهجمها على الذين حضروا مقتنعين بانها لم تعد بحاجة الى المعالجة: أنتم مقتنعون اليوم بشفائي، وأنا مقتنعة اني ما أزال كما كنت. إذن انتم المرضى، وانتم المحتاجون الى الاستشفاء!

وغادرت المستشفى ناقمة على الناس والحياة!)[1].

كان أول من زارها في مستشفى الدكتور ربيز من زملائها الكتاب الاستاذ بشر فارس، ثم زارها أدباء ووجهاء كثيرون منهم الاساتذة: أمين الريحاني، وخليل الخوري، وفارس الخوري، وفؤاد حبيش، والياس نوفل، وآل ناصيف، والدكتور كنعان الخطيب، وآل الأيوبي وآل الجزائري وآل الشريف، والسيدتين سلمى صائغ وجوليا طعمة دمشقية. تقول ممرضتها أليس سلامة انها كانت في أكثر الأحيان تؤثر الصمت على الكلام، كما كانت في ساعات الصفاء محدثة بارعة، سريعة الخاطر، حاضرة النكتة، تنثر الدر يمينا وشمالا، وتأسر القلوب جميعا. فقد حضرتها النكتة في تلك الفترة العصبية وهي تصغي إلى حديث الأديبة الرائدة السيدة جوليا طعمة دمشقية

---

(١) مجلة «المراحل» البرازيلية ـ العدد ٢٨٥ ـ أيار ١٩٨٠ ـ ص: ١٢ و ١٣.

عن زيارة المحامي: «دعيبس المر» لها في مكتب: «المرأة الجديدة» وتكليفها بابلاغ تقديره السامي وأجمل تحياته للنابغة مي، فضحكت مي وقالت لجوليا:

- (قولي بالله عليك كيف تحتملين استقبال: « دعيبس » « ومر » فوقها؟ كان الله في عونك!)[1].

وعندما قام بزيارتها الشاعر الاستاذ الياس نوفل، وهو من القلائل الذين وافقت على استقبالهم في مستشفى الدكتور ربيز، رحبت به، وبادرته تقول مازحة:

- (أترى يا نوفل كيف يهزل الدهر؟ فهل يصح أن أزج أنا في مستشفى المجانين، وأنت حر طليق في خارجه؟!)[2].

وقد علق الاستاذ اميل زيدان الذي روى هذه الحادثة بقوله:

- (ان من يقدر على الممازحة، والمداعبة الذكية لا يمكن ان يكون مجنونا! فلكم ظُلمت مي، رحمها الله!)[3].

لقد أشيع في مصر أن مي جنت، وأنها أدخلت «العصفورية» في بيروت للمعالجة... أما الأوساط الاجتماعية والادبية في لبنان فلم تعلم بمأساتها الا بعد انقضاء فترة طويلة على انتقالها الى مستشفى الدكتور ربيز، وذلك بفضل مقالة نشرها الاستاذ فؤاد حبيش في جريدته: « المكشوف » بتاريخ ١٧ ـ ١١ ـ ١٩٣٧، وبعنوان: « هل الاديبة مي مجنونة؟ » هذا نصها:

(اتفق لأحد الأدباء[4] الذين قضوا الصيف في لبنان هذه السنة ان زار

---

(١) من حديث السيدة أليس سلامة الى كاتبة السيرة في بيروت، بدار الدكتور نقولا ربيز في ٥ ـ ٦ ـ ١٩٧١.

(٢) من حديث الأستاذ الياس نوفل الى كاتبة السيرة في منزله بالحازمية في بيروت سنة ١٩٧٦.

(٣) من حديث الأستاذ اميل زيدان الى كاتبة السيرة في منزله بالقاهرة في شهر آذار سنة ١٩٧٨.

(٤) الأديب المنوه به هو الكاتب المصري بشر فارس، وقد حدث أمين الريحاني عن تلك الزيارة في رسالة بعث بها اليه منشورة في كتاب: «الريحاني ومعاصروه» ـ ص: (٣٤٠).

الكاتبة مي في مستشفى الدكتور ربيز، وكان قد ظن أنها أصيبت بمس في عقلها، فاذا هو أمام « مي » نفسها التي كثيرا ما جالسها في مصر، واستمتع باحاديثها الطلية المفيدة، وبمنطقها السليم. وقد راحت تقص عليه حكاية جنونها المزعوم، والاسباب التي حملت بعض أقاربها على ترويج الاشاعة الكاذبة عنها، الى آخر ما رافق قضيتها، منذ ان غادرت مصر الى يوم نزولها ضيفة على الدكتور زيادة في بيروت، الى الحبس الذي فرض عليها في العصفورية حيث قال « الدكتور ميللر » ان مكانها ليس فيه، الى انتقالها الى مستشفى الدكتور ربيز. وكانت في حديثها هذا مثالا مجسما للفكر الصحيح، والعقل السليم، والمنطق المدعوم، مما حمل الزائر على القول لنا: « ان قضية مي ليست قضية عادية ومن الضروري ان تهتم بها السلطات القضائية لأنه لا يجوز ان تحجز حرية كاتبة نابغة مثلها بمثل هذه السهولة! ».

ونحن نتساءل بدورنا: أليس من واجب النيابة العامة في بيروت ان تلاحق قضية مي بمادة الحجر على الحرية؟ أليس من واجب القنصلية المصرية، ومي من رعايا الملك فاروق، أن تسأل عن صحة جنونها، فاذا ثبت هذا الجنون كان لأقاربها ان يتصرفوا بها، والا أعادوها الى ميدان عملها في حقل الفكر؟)(١)

كانت هذه المقالة بمثابة شرارة انطلقت ونبهت الأذهان الى مأساة مي، الى تجريدها من حريتها، واشاعة خبر جنونها في سائر البلاد العربية. فقد علقت جريدة « الانذار » المصرية على مقالة المكشوف المثيرة بمقالة مطولة دافعت فيها عن حق «النابغة ميّ» بالحياة الحرة، وأشادت بمكانتها المرموقة، وخدماتها الثقافية في مصر ولبنان والعالم العربي، ثم قالت: (ولذلك نشارك زميلتنا « المكشوف » في مطالبة قنصل مصر في بيروت بتحقيق رواية جنونها. وحبذا لو تألفت لجنة، أو تطوع أحد الأدباء لتحريك القضية أمام النيابة العامة، والسير فيها بشكل جدي ليكون لقنصل مصر حق التدخل بمشاركة

---

(١) المكشوف ـ تاريخ ـ ١٧ ـ ١١ ـ ١٩٣٧ ـ العدد ١٢٢ ـ ص: (٣).

السلطات المختصة في حكومة لبنان لكشف الستار عن هذه الفاجعة)[1].

ونشرت جريدة « الكرمل » التي كانت تصدر في حيفا مقالا كتبه الاستاذ عبد الله مخلص بعنوان: « كارثة النابغة العربية مي » عبر فيه عن احتجاج الأدباء على حجز حريتها، وإهانتها باتهامها بالجنون[2].

كانت « المكشوف » أوسع الصحف اللبنانية انتشارا يومئذ، فنذر صاحبها الاستاذ فؤاد حبيش نفسه، وسخر جريدته للدفاع عن مي، وإخراجها من مأساتها، فأثارت حملته الصحفية ضجة كبيرة في الاوساط العربية. وقد حذا حذو المكشوف بعض الصحف الكبرى « كصوت الاحرار » و « الحديث » و « النهضة »، فأدت تلك الحملات المشرفة للصحافة الى تنبيه الرأي العام، والتفاف أهل القلم حول مي.

كان من حسن طالع مي التفاف الكتاب والأدباء والشخصيات العربية الكبيرة حولها، فقد أنقذوها في نهاية المطاف، وكان في طليعتهم فيلسوف الفريكة، الاستاذ أمين الريحاني الذي قام بدور كبير في اسعافها. والريحاني من أقدم أصدقائها، ومن الذين سمعوا نبأ جنونها فصدقوه على البعد، غير انه كتب قصته معها معترفاً بتقصيره واهماله، واستهلها مستغفراً فقال:

(قبل ان أبدأ بهذه الصفحة من قصة « مي » المفجعة عليّ أن اعترف بذنبي: فقد كنت مقصرا عن واجب الزمالة والحب، بل عن واجب الصداقة المقدس. صدقت ما صدقه جميع الناس. صدقت الاشاعات المحزنة عندما جيء بمي من القاهرة الى بيروت منذ سنة وعشرة أشهر، فأمسكت عن زيارتها واستطلاع حقيقة امرها.

أمسكت عن الزيارة وأنا أبرر عملي بما تطور من مزاجي فإني في

---

(١) السبب الذي حدا بجريدة «الانذار» مطالبة قنصل مصر في بيروت بالتحقيق في قضية جنون ميّ المزعوم هو انها كانت تحمل الجنسية المصرية. كما كانت مقالة «الانذار» موقعة باسم: «محدث».

(٢) الكرمل ـ تاريخ ١٢ ـ ٣ ـ ١٩٣٨ ـ ص: (٩).

مواصلة العاقلين قليل الرغبة، فكيف بي في مواصلة غير العاقلين؟ ان الروح مصدر الصداقة، وان العقل مختلط اختلاطا قاهرا بالروح، فمتى ذهب العقل ذهب خير ما في الروح كذلك، قلت هذا في نفسي، ورضيت بتفلسفي، وأنا مع ذلك أحمل وزر الصداقة وذكراها، وأقف في بعض الأحايين مفكراً في تقاعسي عن الواجب المألوف فيزعجني الفكر ويؤلمني. حملت وزر الصداقة في رحلتي الاميركية الاخيرة، وحملته في عودتي الى لبنان فأمسى التوبيخ أشد من الوزر والذكرى، واعتزمت القيام بشيء من الواجب المقدّس.

سألت عن ميّ فقيل لي انها في مستشفى الدكتور نقولا ربيز، وكنت قد قرأت في جريدة المكشوف كلمة عن مرضها فيها استفهام، وفيها اتهام، فازدادت رغبتي في زيارتها. وفي اليوم التالي لعيد الميلاد، أي يوم الاحد في ٢٦ كانون الاول سنة ١٩٣٧ نهضت من سريري واسم «مي» يتردد في قلبي، وذكريات «مي» تتزاحم في ذهني، وشخصية «مي» وعبقريتها وأدبها تملأ نفسي وتهيجها. ومن غرائب الصدف ان الصديق جرجي باز زارني في ذلك النهار فأخبرني انه قادم من مستشفى ربيز حيث ذهب ليزور مي وأعلم الممرضة بذلك فعادت تقول ان الآنسة مي لا تريد أن تقابله. فقلت: «كان ينبغي ان تدخل دون أن تبشر الممرضة بقدومك، ولقد عزمت أنا على ان أحرم الاديبة الكبيرة حق الرفض!»[1].

دخل الريحاني على مي في زيارته الاولى دون استئذان فأمسكت عن الكلام، وأشاحت بوجهها عنه وهو يعتذر عن تقصيره في تفقدها، ويعدها ببذل الجهد والنفس لاخراجها من محنتها. كان عتبها عليه شديدا فآثرت السكوت: (سكوت هائل تتخلله نظرات جامدة، قاسية، محزنة خلال نصف

---

(١) قصتي مع ميّ - أمين الريحاني - ص: ٧ و ٨ - المقدمة - ولا بد من الاشارة الى ان الأستاذ أمين ألبرت الريحاني جمع ما كتبه عمه فيلسوف الفريكة عن ميّ، مما نشر في جريدة المكشوف ومما لم ينشر من قصته مع ميّ في كتاب صدر في بيروت عام ١٩٨٠ بعنوان: «أمين الريحان: قصتي مع ميّ».

ساعة من المحاولات المخفقة. ثم جاءت الممرضة فاستنجدت بها، فهمست في أذن « مي » الرجاء الأخير، وخلتها تهمس في أذن أبي الهول! خرجت من الغرفة قائلا: « لا أرضى بهذا السكوت، سأعود! » لقيت في الرواق الدكتور غصن، معاون الدكتور ربيز، فاطلعته على ما كان فقال: « ها هنا من تستطيع ان تؤثر على مي فتكلمك »، وعرفني الى الآنسة بدرية، كريمة عطا بك الايوبي، وكانت قد جاءت من دمشق مستشفية، وتعرفت الى مي فأحبتها وأستأنست بها، وعدت الى غرفة الصديقة الصّادة تتقدمني الآنسة بدرية، ولبثت انتظر. دنت الآنسة بدرية من رأس السرير تلاطف مي، وترجوها ان تكلمني، فما كان حظها غير حظي لأنها لم تفلح في فض ذلك الختم، ختم السكوت الرهيب)[1].

خرج صاحب « ملوك العرب » من زيارته الأولى العقيمة حزينا، شاعرا بمأساة تلك الاديبة الكبيرة التي أمضها الالم، وأضناها الشوق الى العدل والحرية، وهي التي سخرت قلمها للدفاع عنهما، طول حياتها. قام بالزيارة الثانية بعد ثلاثة أيام اتصل خلالها بآل الأيوبي والجزائري والشيخ فؤاد حبيش يستطلع منهم، ويبحث معهم أفضل السبل لانقاذها، فخرجت مي عن صمتها وقالت:

- (قد كنت هنا عندما جيء بي من مصر. وكنت هنا عندما نقلت اكراها الى العصفورية. وكنت هنا أثناء وجودي في ذلك الجحيم. آه يا أستاذ! كم مرة فكرت فيك وانا ناقمة، حانقة: أيصدق الاستاذ الريحاني ما يصدقه الناس؟ والله لو صدقت أمة بأجمعها ما شيعه الناس بخصوص «ميّ» فيجب ألا يصدقه الأستاذ الريحاني، بل يجب عليه أن يجيء بنفسه، ويرى بعينيه. هذا ما كنت أقوله لنفسي، وهذا سبب نقمتي عليك)[2].

ان قصة الريحاني مع مي على جانب كبير من الاهمية لسببين: أولهما

---

(١) قصتي مع ميّ - أمين الريحاني - ص: ١٠.
(٢) قصتي مع ميّ - أمين الريحاني - ص: ١١ - ١٢.

لأنها ألقت أضواء على ما كان محجوبا عن واقع المأساة، وأسبابها، وذيولها، بقلم كاتب نزيه، لا يرقى الشك الى صحة حرف واحد مما كتبه، والثاني لأنها تضمنت شرحا وافيا للمأساة بلسان مي التي أتيح لها أن تفصح عما حل بها، وتنفس عن كربها بعد حوالى عامين من السكوت والكبت، والصبر على المأساة، قل ان يحتملها انسان في الوجود. وكما اوردنا حديث الدكتور جوزيف زيادة في مستهل هذا الفصل فانه يتحتم علينا ان ننقل حديث مي الى أمين الريحاني وهذا نصه:

(كانت مي تسرد عليّ قصتها المفجعة بلغة فصيحة بليغة، وهي تنتخب ألفاظها بأناقتها الادبية المعروفة، وتعتذر عن اللفظة الغليظة في بعض الاحايين). ويروي الاستاذ الريحاني انه سألها: (كيف أحضرك الدكتور زيادة الى هنا) فأجابت:

- (كان يراسلني من حين الى حين فأرد على رسائله بكل سرور. وكتب إليّ ابان شدتي تلك ينبئني بمرض زوجته، ويدعوني لتبديل الهواء في لبنان، فأقيم في بيته أو في بيت أحد أخويه، فكتبت اليه أصف له حالتي، وأعرب عن ألمي وعن أملي فيه، وأسأله الحضور الى مصر. فرد عليَّ بخطاب كله عطف واهتمام، ووعدني بالحضور عند تحسن صحة زوجته، على انها توفيت بعد قليل، ولم يطل حتى جاء مصر، فهل جاء حقا ليساعدني ويخفف من مصابي؟ هذا ما يزعمه، فهو من ناحية يظهر لي بمظهر الصديق الوفي، والأخ البار، ومن ناحية أخرى يحيك لي الدسائس. جاء مصر ليستكشف أعمالي وماليتي، ومصالحي وشؤوني، ويستولي على كل شيء في حياتي. هذه هي الحقيقة الكامنة وراء ستار الصداقة والإخاء. فقد خاطبني برقته المألوفة في أمر تعيينه وكيلا عني ليخدمني، ويطمئن بالي، فأجبت ان لا أملاك لي في مصر، وان اعمالي المالية منظمة تنظيما لا يحوجني الى مساعدة أحد، فألح وقال: « فكري في هذا إكراما لي». « فقلت: « سأفعل، وان لم يكن هناك ما يدعو الى التفكير ». وبعد هذا الكلام بيوم واحد جاءني مع رجلين من أنسبائه، كانا يلازمانه في بيتي وفي خارجه طول إقامته في مصر،

وكان يتبعهم باشكاتب محكمة عابدين ووكيله، كما قيل لي. فتح الباشكاتب دفترا كبيرا جدا على سريري، وأخرج النسيب من جيبه قلم حبر وقدمه لي طالبا ان أوقع في الدفتر. لا أدري أي تأثير سيطر عليّ في تلك الساعة، وكيف لم أعجب لمجيء الباشكاتب دون ان استدعيه! وكيف لم أرفض التوقيع؟ لست ادري... بحركة ميكانيكية تناولت القلم، ورفعت نظري الى الباشكاتب استفهم عن المكان في الدفتر الذي ينبغي ان أكتب اسمي فيه، فنظر إليّ نظرة طويلة، كأنما هو عالم بما سيجره عليّ هذا التوقيع من المصائب، ثم أشار الى مكانين اثنين فوضعت فيهما توقيعي مكررا: مي زيادة، وتحته: ماري زيادة. وأخذوا، بعد ذلك يعدون الحقائب للسفر وأنا أعلن بثبات اني لا أترك بيتي، ولا أغادر مصر. فقال نسيبي ان البيت يبقى على ما هو، وأقسم بأولاده وبشرفه ان يردني الى مصر، حتى بعد أسبوع واحد اذا أنا شئت ذلك. ومنذ الأسبوع الأول في بيروت ذكرته بوعده، وقلت اني أرغب في الرجوع الى بيتي، فطيب خاطري وسوَّف. أبقاني مدة شهرين ونيف، على مضض مني، حتى استكمل خطته في أمري، على ما أظن، فأرسلني قهرا الى العصفورية دون اذن أو علم من أولي الأمر في الحكومة اللبنانية. وأهملوني هناك في غم ويأس، لا سلوى ولا تعزية. وكان الدكتور يوسف يزعم اني سأموت جوعا اذا ما أخرجني من العصفورية، الا انه اضطر الى نقلي الى مستشفى ربيز فوصلت اليه شبحا! نقلوني الى هنا لأقيم أياما ريثما يعد لي منزلا أسكنه، لانه ليس معقولا ان يقطن الانسان المستشفى طوال حياته، ولأن قلبي يحترق على الاقامة في منزل لي، كسائر الناس، على ان البيت المزعوم لم يُعدّ في عشرة شهور. لقد جاؤوا بي لأصطاف في لبنان شهرين، ومازلت أصطاف، في قلب الشتاء، وبعد إثنين وعشرين شهراً!...)[1].

ولما سألها: «كيف رضيت بالذهاب الى العصفورية »قالت له:

ـ (أنا رضيت؟ انهم جاؤوا بي الى هنا لهذا الغرض، والدليل انهم

(١) قصتي مع ميّ ـ أمين الريحاني ـ ص: ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦.

أحضروا مدير العصفورية منذ الاسبوع الاول، زاعمين انه مستشرق انكليزي. وظل المستشرق المزعوم يعود، المرة تلو المرة، ويتكلم عن الشعر والادب الانكليزي طيلة الفترة التي استبقوني عندهم فيها، لا لتحيطني العائلة بمحبتها، كما يقولون، بل لغايات أخرى. ولما أضربت عن الطعام احتجاجا على تشريدي من بيتي، والحجز على مالي وحريتي جاء الطبيب المعالج في العصفورية تصحبه ممرضة ـ وكانت تلك أول مرة في تاريخ المستشفى يخرج فيها الطبيب إلى بيت المريض ليحمله إلى المارستان ـ فكتفني بمساعدة الممرضة وباشارة الدكتور. . . كتفني بـ « جاكيت » المجانين، ونفحني بإبرة مورفين بساقي وأنا أصيح من فرط الوجع وأستغيث: « يوسف، يوسف! » ويوسف لا يتأثر!

ـ واها يا بيروت! كيف احتملت ان أجتاز شوارعك في ذلك الموكب المشين الأليم؟ كيف احتملت الدموع التي سكبتها في السيارة وأنا بين ذلك الطبيب، وتلك الممرضة أشعر بوحدتي الرهيبة في هذه الدنيا، وأرى القدر المروع المعد لي دون أن أدري لماذا)[1].

ثم وصفت للريحاني كيف كانوا يغذونها تارة من الفم، وطورا من الأنف بواسطة « النبريج » وما قاست من آلام في سبيل تلك التغذية. وعندما سألها:

ـ (لِمَ انت هنا الآن؟ لِمَ لا تنهضين فترتدين ثيابك، وتخرجين من المستشفى)؟

أجابت:

ـ (الى اين أذهب ولا مال لديّ؟ وكيف أخرج من المستشفى وأنا محجور عليها؟ أنا مقيدة يا أستاذ، قيدوني، نهبوا بيتي ورشحوا أنفسهم لارثي)[2].

---

(١) قصتي مع ميّ ـ أمين الريحاني ـ ص: ١٣.

(٢) قصتي مع ميّ ـ أمين الريحاني ـ ص: ١٧.

توجه أمين الريحاني في اليوم التالي الى القنصلية المصرية في بيروت فقابل القنصل « صبري بك منصور » سأله اذا كان على علم بقصة مي، فأجابه: « نعم » وسأله: « هل من حجر عليها »؟ فأجاب: « لا حجر عليها لا مدنيا ولا دينيا». فسأله: « هل من قيد قانوني ما »؟ فأجابه: « لا قيد غير حالتها الصحية، فهي حرة، ولها ان تخرج من المستشفى ان كانت صحتها تمكنها من ذلك». فسأله: « وما هي علاقة الدكتور زيادة في أمرها»؟ فأجاب: « هو وكيلها الشرعي، يصرف عليها من مالها، وأحيانا من ماله». فقال له: « وأين هي مكتبتها وأثاث بيتها»؟ فأجابه القنصل: « أثاث بيتها محفوظ في بيت استأجره الدكتور زيادة على ما أظن في البطركية المارونية بالقاهرة »[1].

خرج الريحاني من مقابلة القنصل وتوجه الى مي لينقل اليها الخبر المسر الذي سمعه بانها حرة، لا حجر عليها ولا قيد، فقالت له:

ـ « اني شديدة الرغبة في الانتقال من هنا الى بيت خاص، ولكن أين المال؟ لا مال لديّ، الدكتور زيادة هو الذي ينفق عليّ من مالي، فاذا كان يعطيني من المال قدر ما ينفق عليّ في المستشفى، كل شهر، فاني أرغب في أن أُنقل حالا »[2].

أجابها الريحاني بانه سيزور الدكتور زيادة في الحال ويقترح عليه ذلك، فقاطعته مي قائلة: (لا تقترح يا أستاذ! انت الاستاذ الريحاني ويجب ان تأمر. قل للدكتور اني اريد ان أُنقل الى بيت خاص بي، وان عليه ان يستأجره لي عاجلاً)[3]. وحذرته من تسويف الدكتور زيادة.

كان تحذير مي ليقينها بأنه خدعها، وتآمر مع أبناء عمها الورثة للتصرف بمالها في غيابها عن مصر، وأما الريحاني فقد أخذ يرتاب بحسن نواياهم، ولا سيما عندما سمع من القنصل، صديق الدكتور الحميم، ان أثاث بيتها في مصر محفوظ في بيت آخر استأجره الدكتور زيادة في البطركية

---

(١) قصتي مع ميّ ـ أمين الريحاني ـ ص: ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) و (٣) قصتي مع ميّ ـ أمين الريحاني ـ ص: ٢٧ ـ ٢٨.

المارونية! وهذا ما يؤكد الاشاعة التي سمعها عن سفر الدكتور زيادة الى مصر، يوم كانت مي في العصفورية، وتسليم البيت الذي كانت تقيم فيه لمالكيه[1] بعد نقل أثاثه، وبيع جزء كبير من مكتبته، الى شقة صغيرة في القاهرة. . .

استغرقت زيارة الريحاني للدكتور زيادة وقتا طويلا في ذلك اليوم واستمع اليه بهدوء وهو يشرح له خطورة مرضها ويثبت انه قديم العهد، ظهرت عوارضه منذ ثمانية اعوام يوم كانت في ايطاليا، وتصورت ان الحكومة الفاشستية تراقبها. . . ثم نهض الى خزانة كتبه وأحضر منها كتابا طبيا فتحه وشرع بقراءته ليؤكد له « ان مرضها عضال، لا يشفى صاحبه » حسب تعبيره، فقال له الريحاني:

- « دع الكتب لأن الحياة ملأى بالمفاجآت، تدحض علومنا، خصوصا في المسائل الطبية، وعلى الاخص العصبية منها. والذي أعلمه ان صديقتنا صافية الذهن، وفي تحسن مستمر بشهادة الدكتور ربيز. وسيكون هذا التحسن أسرع وأثبت اذا استعادت حريتها وكان لها ما تشاء من الاقامة في بيت خاص بها، هي وممرضتها وخادمة لها[2].

فوعده الدكتور زيادة خيرا وقال انه سيبحث عن بيت مفروش لتقيم فيه، إكراما له، ثم أضاف يقول:

- (البيوت المفروشة صعب وجودها، ولكني سأبذل جهدي، وسأباشر بالتفتيش منذ اليوم)[3].

ازداد ارتياب أمين الريحاني باعمال الدكتور زيادة وأقواله ووعوده بعد تلك الزيارة لما سمع منه افتراءات على مي وسلوكها، ومن أخطرها اتهامها بالاضطراب العقلي، والتأكيد على أن شفاءها ميؤوس، ولأنه: (أمسك عن بعض ما جهرت به مي اليه، فما ذكر مثلا كاتب العدل وصك الوكالة،

---

(١) كانت جريدة الأهرام تملك بيت ميّ الواقع في الرقم (١) من شارع علوي بالقاهرة.

(٢) و (٣) قصتي مع ميّ - أمين الريحاني - ص: ٣٠ و ٣١.

ولا أشار الى تلك « الخادمة » التي جيء بها الى بيت مي، إبان مرضها في القاهرة، والتي ظهر بعد ذلك انها زوجة أحد ابني عمها، وهي لم تكن تعرف زوجتيهما. . .)[1].

لقد ذكرنا في الفصل السابق احتيالهما عليها في مصر بارسال زوجة أحدهما (ولا ندري اذا كانت زوجة الياس أو زوجة اغناطيوس) الى بيتها بوصفها خادمة أمينة ينبغي ان تساعدها في أعمالها المنزلية ابان مرضها، وان الغاية من تلك « المحبة والمساعدة » كانت الوقوف على أحوالها داخل بيتها، وأمتعتها فيه، وغير ذلك. . . كما ارتاب الريحاني في صحة ما سمعه من الدكتور زيادة عن ظهور اضطراب مي العقلي في روما، لدى زيارتها الأخيرة لها سنة ١٩٢٩، لعلمه بان مي كانت وقتئذ في أوج تألقها ومجدها، وانها لقيت في روما تكريما فائقا من الكتاب والمستشرقين، والمشرفين على مجلة « الشرق الحديث » التي كانت ترسل اليها مقالات عن النهضة في مصر.

وهنا يجب علينا ان نقول إن ما يثبت شكوك أمين الريحاني برواية الدكتور زيادة عن ظهور جنون مي في روما آنئذٍ هو الرسالة المخطوطة التي تلقتها مي من المستشرقة الدكتورة آنّا ماريا فاللينو، المؤرخة في ١٩٢٩/١١/٦ والتي قالت لها فيها (أشكرك على الساعات الممتعة التي خصصتينا بها خلال إقامتك في روما)[2]. ورسالة سابقة من المستشرق الدكتور جوزيف شاخت مؤرخة في ٢٢- ٨- ١٩٢٩ جاء فيها قوله:

(. . . رجعت من مصر الى بلادنا وأنا أذكر تعرفي بك بكثير من السرور، وما زلت أشكر فضلك فيما أتحت لي من أنس المسامرة في داخل بيتك وفي خارجه. وقد تجددت تلك الذكرى الطيبة حين اطلعت على مقالتك عن نهضة المرأة المصرية في مجلة« الشرق الحديث - Oriente Moderno» فأهنئك بها، وأرجو أن أستمتع بقراءة غيرها قريباً)[3].

---

(١) قصتي مع ميّ - أمين الريحاني - ص ٣٠ و٣١.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص: ٣٦٢.

(٣) ميّ زيادة وأعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص: ٣٦٠.

نقل أمين الريحاني الى مي الخبر بموافقة الدكتور زيادة على انتقالها من مستشفى الدكتور ربيز الى بيت ووعد بالبحث عنه لاستئجاره لها فقالت له: (لا أصدق ما يقوله ولا أثق به، فارجوك ان تتولى الامر انت: ليعطيك هو المال، وعندي انا من يبحث لي عن بيت مفروش! قالت مي هذا وضغطت على زر فوق سريرها فجاءت الممرضة الآنسة استر واكيم، فتشاورنا في الامر واتفقتا على ان يوكل بهذه المهمة السيد أنيس ناصيف. فسألت: «متى يحضر؟» فقالت الممرضة: «سأكلمه بالتلفون»، فقلت ملحقا: «وقولي له من فضلك أن يحضر الآن اذا امكن فاني في انتظاره». فعادت تقول: «بعد نصف ساعة يكون هنا».

وما أجملها فترة عدنا فيها الى الماضي، وبعدنا عن المحنة واسبابها. كان الحديث أدبيا جاءت فيه مي، بأسلوبها الباهر، على ذكر الدكتور شميل، فقالت انه كان يكره الادعاء والغرور كرهه للنفاق الفكري، وانه كان يدعو المتطفلين على موائد الأدب بـ «الأدباتية». وذكرت الدكتور يعقوب صروف ومناظرتها في المقتطف مع الشيخ كاظم الدجيلي في الشعر «الايبيك»[1] الذي أنكرت وجوده في الشعر العربي، فجاء الشيخ الدجيلي يطلعها على ما في خزائن الكتب القديمة منه، الا أن العرب لا يعرفون له اسما. وعندما سألت ميّ: «وما هذا الشعر الذي لا اسم له في اللغة العربية، وانتم تنتحلون له الاسم الفرعي؟» ضاق مجال المناقشة لدى الشيخ كاظم الذي كان يومئذ شريكاً للأب انسطاس الكلأملي في مجلة «لسان العرب» فبادر الأب انسطاس الى نجدة صديقه وقالت مي: «وراح يجلو الاسفار، وينفض عنها الغبار، فقارن بعد البحث والتدقيق بلفظة «غلواء» كناية عن الشعر «الايبيك»: غلواء هوميروس، وغلواء فرجيل، وغلواء ملتن، مرحبا بالمحترم، ومرحبا بغلوائه!» وكانت الضحكات رنانة، مواجة، سمعتها الممرضة في الغرفة المجاورة فجاءت تشاركنا في مرحنا، وتحمل الينا كذلك خبر قدوم أنيس ناصيف)[2].

(١) وهو ما تعارفنا على تسميته اليوم: شعر الملاحم.

(٢) قصتي مع ميّ ـ أمين الريحاني ـ ص: ٣٢.

وفي اليوم التالي عاد أمين الريحاني الى بيت الدكتور جوزيف زيادة ليقول له انه يريد ان يريحه، ويقوم مقامه في خدمة مي. كان أخوه نعوم موجودا عنده، (ونعوم هو الذي خطب مي في يفاعتها دون ان يتم الامر بالزواج، كما ذكرنا سابقا) فاشترك في الحديث، واعترض بشدة على ما شاع بين الناس عن تحامله، وتحامل أخويه الدكتور جوزيف والمحامي لويس على مي، وعن طمعهما بتحف بيتها ومالها وحليها، ثم قال: «لسنا نحن الوارثين لها، بل الورثة هم أبناء عمها في مصر». وذكر ثروتها فقال: «ان في أخبارها كثيرا من المبالغة، وان فائدة مالها لا تكاد تكفي مصروفها الشهري، وان هذه الفائدة في نقص دائم بسبب الأزمات المالية والاقتصادية»[1].

فرد عليه الريحاني قائلا:

-(لا دخل لي في ثروتها ولا في إرثها، ولا يهمني من القضية غير صحة مي وحريتها. ان مهمتنا، نحن وبعض أصدقائها، تنحصر في ما تتوجبه الصداقة، انها مهمة انسانية، محض انسانية! وهي تنتهي عندما تعاد الى مي حريتها)[2].

وعلم الاستاذ الريحاني من الدكتور زيادة يومئذ انه ينفق عليها مائة ليرة سورية في مستشفى الدكتور ربيز كل شهر، فطلب منه حوالة على البنك بهذا المبلغ ولكن الدكتور زيادة دخل إلى مكتبه وخرج منه ليقول ان دفتر «الشيكات» قد نفد، ثم طلب إليه أن يرافقه إلى عيادته ليرسل منها الآذِن إلى البنك فيحضر له دفتر شيكات جديد. وقد رافقه الريحاني وانتظر في عيادته عودة الرسول، وأخذ منه شكاً بمبلغ أربع وعشرين جنيها مصرياً، وهو ما كان يزيد قليلا عن المائة ليرة سورية. وعندما أعاد النظر «بالشك»، بعد رجوعه إلى بيته، وجد أنه مؤرخ في «دسمبر ٣١ - ١٩٣٨» عوضاً عن أن يكون مؤرخاً في ٣١ دسمبر ١٩٣٧... فكتب يقول:

---

(١) قصتي مع مي - أمين الريحاني - ص: ٣٣ - ٣٤.

(٢) قصتي مع مي - أمين الريحاني - ص: ٣٤.

ـ (وبما اني اعلم ان البنك لا يفترض الغلط، ولا يقتنع به فيرفض الشك المؤرخ بعد سنة كاملة، عدت الى مستوصف الدكتور ألفت نظره للأمر، فاعتذر ثم اعطاني شكا آخر بالقيمة، مؤرخا على الصواب)[١].

وفي فصل من فصول كتابه عن مي بعنوان « العقبة الاولى » روى أمين الريحاني كيف انفعلت مي عندما قدم لها الشك لكي توقعه، فقد رفضت التوقيع عليه لأنه صادر من وصي عليها ترفض الاعتراف بوصايته، وترفض التعامل معه على هذا الاساس. أما آن الأوان لالغاء هذه الوصاية بإلغاء الوكالة العامة التي أخذها الدكتور زيادة منها وهي مريضة، مستسلمة له بكل ثقة، مصدقة حسن نواياه، مضطرة لمسايرته بعد ان حمل نفسه الى القاهرة لاغاثتها، مستجيبا لدعوتها اليه؟؟ هذا ما كان يدور في خلدها، فأدرك الريحاني مقدار تألمها لوقوعها تحت رحمة ذلك النسيب، وهدأ من روعها، وأرسل الاستاذ أنيس ناصيف (وهو ابن أخت الدكتور يعقوب صروف) لمقابلة الدكتور زيادة، وتسلم المبلغ منه نقدا، ولكن الدكتور زيادة رفض بدوره ان يدفع المبلغ المطلوب متعللا بان حالة مي الصحية لا تسمح لها بالاقامة في بيت وحدها. كما بلّغ الرسول بأنه يطلب طبيبا آخر ليقوم بفحصها، ويعطي تقريرا عن حالتها فينظر على ضوئه، في أمر بقائها في مستشفى ربيز، أو نقلها منه الى بيت. وعلى هذا الاساس استدعى أصدقاؤها المنقذون الدكتور جورج خياط لفحصها، (وهو طبيب مختص بالامراض العصبية، ومشهور وموثوق) فزارها مرتين جلس خلالهما معها وقتا وافيا، وأعد تقريرا يجيز فيه نقلها الى بيت تلقى فيه العناية اللازمة من قبل ممرضة تستأنس بها.

حمل أمين الريحاني تقرير الدكتور خياط الى الدكتور زيادة بنفسه في ١٢ـ ١ ـ ١٩٣٨، فأبى ان تخرج مي من المستشفى قبل الحصول على موافقة قنصل

---

(١) قصتي مع ميّ ـ أمين الريحاني ـ ص: ٣٤.

مصر في بيروت! الأمر الذي أذهل الريحاني، وحدا به الى ان يضع لذلك الفصل من قصته مع مي عنوان: «العقبة الثانية»[1]. ومع ذلك تذرع بالصبر، وساير الدكتور زيادة بان رافقه لزيارة القنصل. دخلا معا الى مكتب القنصلية ثم خرج منه الدكتور زيادة ليختلي بالقنصل بضع دقائق، وعندما عادا الى المكتب للقاء الريحاني، والتحدث معه، أعلمه القنصل بأنه لا يستطيع السماح لمي بمغادرة المستشفى الا اذا وافقت وزارة الخارجية المصرية على ذلك، وانه كتب للوزارة يستشيرها في هذا الأمر الخطير، وهو بانتظار رأيها فيه...

وهكذا قضى الانقلاب المفاجىء في موقف القنصل على حسن ظن الريحاني به، وبحليفه الدكتور زيادة، فقال للدكتور، بعد مغادرة القنصلية، بكل صراحة:

- (ما كنت يا دكتور صريحا معي مطلقا. ماشيتك فيما شئت، ولبيت طلباتك، وصبرت على تعللك، فيجب عليّ الآن أن أقول لك كلمتي الأخيرة: سأنتظر عشرة أيام، فاذا جاء جواب الوزارة على كتاب القنصل محققا لرغبة مي، ورغبة أصدقائها المهتمين بأمرها، كنا مسرورين، شاكرين، وطوينا كشحا على الماضي، واذا كان الجواب خلاف ذلك فان بيننا وبينكم الرأي العام، وسأكتب ما أعرفه عن هذه القضية، وما خبرته بنفسي)[2].

وتوجه الريحاني في الحال الى مكتب الدكتور نقولا ربيز وأطلعه على ما حدث بالتفصيل، فتعجب الدكتور ربيز مما سمع، وتطوع لمقابلة الدكتور زيادة، واقناعه بكف يده، ويد القنصل المصري عن التدخل بشؤون مي إكراما للحق، وروابط الزمالة، وشخصية الريحاني، وسائر أصدقاء تلك الأديبة الكبيرة التي تستحق كل تقدير وخير.

---

(١) قصتي مع ميّ - أمين الريحاني - ص: ٣٧ - ٤٠.

(٢) قصتي مع ميّ - أمين الريحاني - ص: ٤٢.

علمت مي بما جرى ولكنها لم تعقد أي أمل على نجاح مساعي الدكتور ربيز، وكانت على حق في يقينها بأن انسباءها لن يوافقوا على تدخل أصدقائها بأمرها، اذ رجع الدكتور ربيز من مقابلة الدكتور زيادة مضطربا، مستاء، وقال:

ـ(قابلت الدكتور زيادة في مكتبه وكان هناك أخوه المحامي الاستاذ لويس المقيم في حلب، وأخ آخر. كلمته، وشددت عليه بأن يأذن بنقل مي، ويعطينا ما كان قد وعد به من المال، فرفض وقال ـ ودعمه في قوله أحد أخويه ـ ان المسألة بيد قنصل مصر، ولا يحق لأحد سواه ان يبت فيها. ثم قال المحامي الاستاذ لويس: وما دخل الناس في قضية مي؟ نحن أهلها، ونحن أدرى بحالها!)[1]. وعلى هذا طلب الدكتور ربيز من مي ان تنهض من سريرها وتلبس ثيابها، وتخرج مع إحدى صديقاتها من المستشفى للتنزه، وتقيم حيثما تشاء. ولا بد من الاشارة الى ان الدكتور ربيز كان مقتنعا بأنها استردت عافيتها فقد ازداد وزنها بمقدار عشرين كيلو، أما ما كان يلاحظ من بعض الشذوذ في سلوكها أحيانا فان مرده الى ما قاست من عذاب وارهاق في السنتين الماضيتين. هذا ما همس به الدكتور ربيز للريحاني يومئذ، اما مي فقد ابتهجت باقتراحه بمغادرة المستشفى.

حضر أصدقاؤها المنقذون الى غرفتها لمساعدتها في اعداد حقيبتها بعد ان اكدت لها الآنسة بدرية عطا الايوبي ان أهلها في بيروت مستعدون لاستضافتها، وان المال أمر ثانوي. ولكن مي التي استعدت لمغادرة المستشفى لم تخرج منه في ذلك اليوم! لقد أصيبت بصدمة كبيرة، هي واصدقاؤها عندما دخل عليها الدكتور نقولا غصن، وهي تهم بالخروج معهم، وقال:

ـ(لا يأذن القنصل بنقل مي من المستشفى، وهو يقول ان ليس لأحد

---

(١) قصتي مع ميّ ـ أمين الريحاني ـ ص: ٤٦.

ان يتدخل بأمرها غير أهلها في مصر، ووزارة الخارجية فيها. هذا كلامه إليّ بالحرف الواحد، وأنا قادم الآن من بيته الذي استدعاني إليه)[1].

وكان قنصل مصر قد بلّغ أمر المنع للمسؤولين في المستشفى والبواب تحت طائلة المسؤولية!

عندئذ وجد المنقذون ان القانون هو الملجأ الأخير لرفع الظلم عن صديقتهم فعقدوا اجتماعا في منزل الأمير مختار الجزائري، في صبيحة اليوم التالي، حضره أمين الريحاني، وآل الايوبي، والدكتور أحمد الشريف، والامير خالد الجزائري، وقرروا ان يشفعوا المساعي الانسانية بأخرى قانونية. وعلى الأثر استدعوا المحامي الاستاذ بهيج تقي الدين للاستشارة، ثم اوكلوه بتبني قضيتها هو والاستاذ حبيب أبي شهلا.

زار مي الاستاذ تقي الدين وأقنعها بتقديم استدعاء للمدعي العام في بيروت الاستاذ وجيه الخوري، مرفق بتقرير الدكتور الخياط عن صحتها، تطلب فيه اطلاق حريتها. وفي ٢١ـ ١ـ ١٩٣٨ طلب المدعي العام زيارتها، بعد ان زار الدكتور زيادة للتحقيق في القضية، « فعراه مما شاهد وسمع العجب والغم » حسبما ورد في كتاب الريحاني، وسمح في الحال بنقلها الى مستشفى الجامعة الاميركية مؤقتا.

خرجت مي من مصح الدكتور ربيز الى مصح الجامعة الاميركية في ٢٢ـ ١ـ ١٩٣٨ متأثرة أشد التأثر، وقد سئمت العيش في المصحات، ومقابلة الاطباء، وإجراء الفحوص عليها للتأكد من سلامة عقلها! ويوم زارها الاستاذ سعيد فريحة فيه أدلت اليه بحديث عنيف نشره في « الحوادث » ونقلته « المكشوف » وكان بعنوان: « مي تتهم، من هو المجرم؟. » في هذا الحديث

---

(١) قصتي مع ميّ ـ أمين الريحاني ـ ص: ٤٨.
(٢) قصتي مع ميّ ـ أمين الريحاني ـ ص: ٥٢.

صبت جام غضبها على الاطباء فقالت: (هؤلاء أكرههم لأني صرت مجنونة طبياً، ووقعت في شرك المؤامرة بفضل الطب والاطباء!) وتحدثت بحرقة عن رجال القانون فقالت: (أردتم ان أحدثكم بصراحة عن سبب كرهي لرجال القانون، نعم أنا أكرههم لأني لم أغادر مصر، ولم يؤت بي الى لبنان، ولم أدخل العصفورية الا بفضل القانون، ورجال القانون، بل أنا صرت مجنونة قانوناً!).

وقالت عاتبة على الصحفيين: (انهم نشروا خبر جنوني وأشاعوه في الشرق وفي الغرب، دون ان يتحروا الحقيقة، وأنا صحفية، وابنة صحفي. ولم يوجد بينهم من فكر بزيارة هذه الاديبة، الصحفية، التي تخنق الاطفال، وتكسر الحديد...) ثم أعربت عن عتبها الشديد على رجال الادب في لبنان، والجمعيات النسائية فيه، وعلى لبنان نفسه فقالت: (أين لبنان الذي طويت ضلوعي على حبه، لبنان الذي تغنيت في الجرائد والكتب والمجلات، ومن فوق المنابر بجماله، بجباله، ببنيه؟ لبنان الذي ما حلّت به محنة الا انهمر الدمع من عيني، لبنان الذي لم يوجد فيه واحد يبكي على محنتي التي انطوت على محن كثيرة). وبلغ الألم في حديثها مبلغا جعلها تقول للاستاذ فريحة، بعد ان بكت أمامه بكاءً مُراً: (نعم لقد كنت في العصفورية ألعن وطني، وعندما يلعن المرء من يحب يكون الألم واليأس قد برحا به. ولكن... هل يكفّر لبنان عن إساءته إليّ؟ وهل يعيد الى ضلوع مي أقدس ما كانت تنطوي عليه، وهو حبها للبنان؟)[1].

كان لهذا الحديث دوي كبير أيقظ ضمائر الصحفيين والأدباء فأخذوا يهتمون بقضيتها بعد ان (انقطعت أخبارها عن الناس إبان مأساتها التي لم يعرف التاريخ أوجع منها وأفظع) كما جاء في جريدة « صوت الأحرار»، وكتب عنها الاستاذ جرجي باز يقول:

---

(١) المكشوف - ٣١ - ١ - ١٩٣٨ - ص: (٣).

(... اذا كانت مي تكره اليوم ان تقابل الناس، وعلى الأخص الأطباء والمحامين والصحفيين فلأن أعصابها قد هدتها المظالم البشرية، ولأن القانون، حامي العدالة، يزج بها في محيط كاد يفقدها قواها العقلية والجسدية، ولأن الطب الذي كان من الواجب ان يؤاسي وحدتها وكآبتها قد افترس اعصابها، وهدم شبابها.

عفوك مي، لقد قصّرنا نحن حملة الأقلام بحقك لأننا نحن ايضا ضحية من ضحايا السياسة الماكرة الظالمة، ولأننا نحن ما نزال متهدمي الاعصاب من مؤامرة الكافرين بالحق والعدل: إن دار الظالمين خراب!)[1].

قضت مي ثلاثة اسابيع فقط في مستشفى الجامعة الاميركية حيث كان رقم إضبارتها فيه (٢٨٦٧٥). بدا عليها التفاؤل بعد ان اطمأنت الى ان قضيتها خرجت من دائرة التعتيم السابقة، الى الدوائر القضائية والرسمية، وشغلت المحافل الصحفية والأدبية. أحيطت آنذاك بعناية قصوى من قبل الأطباء والممرضات والأصدقاء المنقذين، والتقت بالأديبة جهان غزاوي عوني[2] التي كانت تستشفي في غرفة مجاورة لغرفتها فصادقتها، وباحت اليها بتفاصيل مأساتها، فوجدت منها العون والتشجيع اللذين كانت في حاجة اليهما. وفي ٢٨ كانون الثاني ١٩٣٨ صدر قرار من وزارة الصحة اللبنانية، يحمل الرقم ٥٣٣٦، بتعيين لجنة من الاطباء لمعاينتها، استجابة لطلب الدكتور جوزيف زيادة، بوصفه وكيلا رسميا عنها، لا يزال يشك بسلامة قواها العقلية، ولا يقبل بنقلها الى بيت تعيش فيه حرة الا اذا أتت المعاينة المطلوبة في صالحها! تألفت اللجنة من ثلاثة أطباء هم: الدكتور «كالميت»، الاستاذ في المعهد الطبي الفرنسي، والدكتور «ميللر» عميد كلية الطب في

---

(١) المكشوف - ج (٤) - العدد ١٣٥ - تاريخ ١٤ - ٢ - ١٩٣٨ - ص: (٣).

(٢) أديبة لبنانية - ١٩١٨ - ١٩٥٦ - لها مقالات قيمة، قدمت حديثاً في الاذاعة اللبنانية عن ميّ بعد وفاتها سنة ١٩٤١، وكانت تعدّ عنها كتاباً ولكن المنية وافتها قبل الفراغ منه.

الجامعة الاميركية، والدكتور« مارتان » مدير الصحة العام في الجيش الفرنسي، وكلفت بالمهمة من قبل الدكتور ابراهيم حيدر، وزير الصحة فعاينت مي في ثلاث جلسات كانت الأولى في ٣١ كانون الثاني، والثانية في الأول من شهر شباط، والثالثة في الخامس منه، كما تبينا من التقرير[١] الذي وضعته اللجنة باللغة الفرنسية، واحتل أربع صفحات مطبوعة على الآلة الكاتبة. استعرض هؤلاء الأطباء مراحل مرضها منذ دخولها مصح العصفورية، حتى خروجها من مصح الدكتور ربيز، وشهدوا بأنها تتمتع بصحة جيدة في مستشفى الجامعة الاميركية، تتناول الطعام بشكل طبيعي، وتتحدث مع الناس بطلاقة، ومع أعضاء اللجنة بلغة فرنسية غنية وصافية، ولا يفوتها شيء مما يقولونه، أو يفكرون بقوله لشدة ذكائها.

وقد جاء في نهاية التقرير انها ما زالت محتاجة الى العناية الصحية، والمراقبة الدائمة خشية أن تقدم على الانتحار، وان هذه العناية مع المراقبة من الممكن توفرها في بيت خاص تقيم فيه بصحبة ممرضة مدربة، تعنى بها تحت اشراف طبيب الى ان تسترد عافيتها كليا.

تسلم وزير الصحة تقرير اللجنة الطبية في الثامن من شهر شباط فوجه الى وكيلي مي الرسالة التالية:

(الجمهورية اللبنانية ـ عدد ٥٤٤٣

حضرة الاساتذة ابي شهلا وتقي الدين المحترمين. . .

أتشرف بإحاطتكم علما بصفتكم وكلاء عن الآنسة مي زيادة ان التقرير

---

(١) لقد نشرت الصحف اللبنانية الصادرة في ١٠ ـ ٢ ـ ١٩٣٨ هذا التقرير بتفاصيله، كما نشرت بعض بنوده في كتاب فيلسوف الفريكة، أمين الريحاني «قصتي مع ميّ» ص: ٥٥.

الطبي الذي وضعته اللجنة المخصوصة الموكول اليها فحص السيدة المومى اليها يقول بعدم وجوب وضعها في مستشفى العصفورية، أو في غيرها من المستشفيات. ولسوف تحال اليوم قضيتها الى النيابة العامة، بناء على طلبها، وعليه لم يعد لهذه الوزارة علاقة بها. وتفضلوا بقبول الاحترام

بيروت في ٨ شباط ١٩٣٨ ـ وزير الصحة والاسعاف العام
ابراهيم حيدر)[١]

على هذا الأساس، وبعد ذلك العناء غادرت ميّ مستشفى الجامعة الأميركية في الرابع عشر من شهر شباط لتقيم في بيت مستقل استأجره لها الأمير مختار الجزائري، وأثثه بما يلزم في غضون أسبوع. لقد غادرت المستشفى بصحبة المنقذين الأشاوس، في موكب عائلي مؤثر لأن آل الجزائري والأيوبي والشريف والريحاني كانوا أقرباءها الحقيقيين بتطوعهم لنصرتها، وسهرهم على راحتها، وغيرتهم على كرامتها. ولقد أرسل الأستاذ انطون سعادة في ذلك اليوم حراساً لمرافقتها، وأوصاهم بمراقبة البيت طول مدة اقامتها فيه إذ كان مطلعاً على ملابسات القضية، ومتحمساً للدفاع عن الأديبة فقد سبق أن زارها ونشر عدة مقالات عن مأساتها في جريدة النهضة[٢].
كان البيت الذي سكنت ميّ فيه مع ممرضتها الآنسة استر واكيم يقع في منطقة رأس بيروت في «نزلة أبو طالب» المتفرعة من شارع السادات، يملكه السيد حسين جبر، ولكنه قد هدم قبل بضع سنوات وشيدت في مكانة عمارة مؤلفة من عدة طبقات. وسرعان ما تحول ذلك البيت إلى دار للضيافة يؤمها الأصدقاء الخلص وعقيلاتهم، وشخصيات عربية مرموقة، تفد لتحية الكاتبة الكبيرة من البلدان المجاورة، ولتهنئتها من الخلاص من المحنة.

---

(١) قصتي مع ميّ ـ أمين الريحاني ـ ص: (٦٠).
(٢) لقد جمعت مقالات الأستاذ انطون سعادة في «النهضة» وصدرت في مجموعة أعماله الكاملة التي نشرت في بيروت عام ١٩٧٥، وكان ما جاء فيها مطابقا لما كتبه الأستاذ أمين الريحاني.

البيت الذي نزلت فيه في رأس بيروت
خاصة السيد حسين جبر

كانت مي تدرك ان أمامـها بعض العقبات التي لا بد من تخطيها لاسترداد حرية التصرف بمالها، فهنالك اجراءات قانونية تتطلب مواجهتها بكثير من الصبر. لقد حسبت لكل شيء حسابه، ولكنها لم تفكر، في يوم من الايام، بان أنسباءها سيلجأون الى القضاء للحجر عليها فبعد انقضاء ثلاثة أيام فقط على استقرارها في البيت الذي طالما حلمت باللجوء اليه بُلِّغت باقامة دعوى للحجر عليها أمام محكمة بداءة بيروت لاختلال قواها العقلية! أقام تلك الدعوى ابن عمها الخوري يوسف زيادة، المقيم في شحتول بتاريخ ١٧ـ ٢ـ ١٩٣٨، فشهد المقربون اليها الذين كانوا في بيتها عندما تسلمت التبليغ برباطة جأشها، وبرودة اعصابها، وذلك لأنها هزت برأسها، وقالت للأستاذ خليل الخوري:

ـ «لا عليك يا صديقي، لست اشعر بأي ألم، ان حالي مثل حال المتنبي عندما قال: [الوافر]

وكنت اذا أصابتني سهام   تكسرت النصال على النصال

بعد ان شاع خبر الدعوى هرع الى بيتها الاستاذ الريحاني مهتاجا،

وأخذ « المنقذون » يتداولون في الأمر، فهدّأت مي من روعهم وكأنها فرحت بما حدث! كانت حجتها قوية، ورأيها صائبا اذ تيقنت بان إقدام أهليها على اقامة تلك الدعوى إثبات لتحاملهم عليها، لو فكروا فيه برويّة لما أقدموا عليه ابدا. لقد خانهم الذكاء، ولسوف تظهر الحقيقة، وتنكشف المؤامرة على الصعيد الرسمي، وأمام الرأي العام، فلِمَ الوجوم، ولِمَ الاهتياج.. تقبّل المنقذون موقفها الرصين بالاعجاب، واستعدوا للمعركة واثقين بأن الحق سينتصر على الباطل، ومطمئنين لوكيليها: الاستاذين تقي الدين وابي شهلا اللذين لم يكونوا أقل منهم حماسة في الدفاع عنها.

كانت مي في تلك الأسابيع العصيبة ترفض أن يذكر أمامها اسم أحد من زملائها وأصدقائها ورواد ندوتها في مصر الذين اهملوها في مأساتها، وكأنها لم تكن، في خلال سنوات طويلة، قطب الرحى في حياتهم الفكرية، والنجمة الساطعة في سمائهم! لقد أحزنها عقوقهم، وأحزنها اكثر تصديقهم إشاعة جنونها، وعلى رأسهم العقاد ولطفي السيد وطه حسين والرافعي واميل زيدان، والجميّل ومطران. ويوم دخلت الى غرفتها في مستشفى الدكتور ربيز السيدة إلين ريحان لزيارتها، بصحبة رئيسة الاتحاد النسائي في لبنان الرائدة الآنسة ابتهاج قدورة، امتنعت مي عن مصافحتها، والرد على عبارات المواساة الرقيقة التي وجهتها اليها، وذلك لما وقر في نفسها من أن أصحابها في مصر، ولا سيما صاحب الهلال اميل زيدان، وهو ابن خالة الاديبة السيدة الين ريحان[1]، لم يؤدوا حقها عليهم في محنتها المروعة، انما تجاهلوها كليا ونسوها!...

ولما كان أمين الريحاني يعلم شدّة عتبها عليهم دفعته أريحيته إلى مراسلة بعضهم، دون علم منها، فوجّه اليهم رسائل صوّر لهم فيها التآمر على

---

(١) السيدة ايلين ريحان هي ابنة ميشل الريّس ومنتهى مطر، وابنة خالة الأستاذ اميل زيدان لأن والدته هي السيدة ماري مطر ـ وقد روت لنا هذه الحادثة في حديثها إلينا بيروت بتاريخ ٢٧ ـ ٢ ـ ١٩٨١.

حريتها من قبل أقرب أقربائها، ونشر بعضها في كتابه « قصتي مع مي »، كما نشر بعضها الآخر الاستاذ ألبرت الريحاني، والأجوبة عليها، في كتابه: « الريحاني ومعاصروه ». لقد أقسم أمين الريحاني للشيخ مصطفى عبد الرازق، وزير الاوقاف المصرية، ان مي بريئة من كل ما تُتّهم به من مرض أو خلل أو ضعف عقلي، واكد له، وللطفي السيد انها مضطهدة، محرومة من حقوقها بسبب ظلم ذوي الاغراض الشخصية والمطامع الاثيمة، فلقيت رسائله صداها الطيب في نفوسهم وتلقى منهم رسائل أعربوا فيها عن فرحهم بسلامة مي، واستعدادهم لخدمتها، وأسفهم الشديد لما نالها من ظلم واضطهاد... ولقد ندم الاستاذ أحمد لطفي السيد على توانيه عن الاهتمام بما أصابها في السابق، وأحسّ بالخجل من تقصيره معها، فكتب الى الريحاني في ١٧ـ ٢ـ ١٩٣٨ ما يلي:

(ورد في الساعة كتابكم وسرني ان مي استردت صحتها، فكتبت اليها اليوم كلمة تهنئة بهذه المناسبة. وانه ليسرني، لو استطعت، ان أقوم بأية خدمة لها فان خدمتها خدمة للأدب، كما تعلمون)[1].

وبديهي أن ميّ رفضت أن تقبل معاذيرهم ليقينها بأن مشاغلهم، مهما كانت كثيرة وهامة، لا تشفع لهم بهذا العقوق، وهذا الاهمال، ولكنهم لم يكونوا في عقوقهم لها سواء، من حسن الحظ، لأن الدكتور منصور فهمي، وبشر فارس، وفيليكس فارس، والدكتور فؤاد صروف أتوا إلى لبنان لتفقد أحوالها شخصياً عندما علموا بمأساتها. وهذا ما كتبه في شأنها الأستاذ فيليكس فارس للريحاني، ضمن رسالة وجهها إليه في ٢٥ ـ ٢ ـ ١٩٣٨:

(... وما رأيك في مسألة أختنا المظلومة ميّ؟ أنا قابلتها بعد أن زرتك مع الشيخ مصطفى الغلاييني، وخرجت من محادثتي معها موثقاً بأنها عوملت بقسوة، فكانت معالجتها أضر بها من مصيبتها!)[2].

---

(١) الريحاني ومعاصروه ـ ص: (٣٣٨).

(٢) الريحاني ومعاصروه ـ ص: ٣٣٩.

إن مواقف أصدقاء ميّ «المنقذين» من قضيتها، ومساعيهم الحثيثة لرفع الظلم عنها، وجلاء اللبس الذي أحاط بمرضها حريّة بأن تُسجل بأحرف من نور. وقد سبق وذكرنا في فصل «مي الكاتبة» أنها أعدت كتاباً، في آخر حياتها، اختارت له عنواناً بسيطاً بساطة المحبة، بليغاً بلاغة الاعتراف بالجميل هو «المنقذون». وما زالت مخطوطة هذا الكتاب مفقودة، أو ربما مصادرة عند أقربائها، ولكن الأمل بالعثور عليها ونشرها ما زال معقوداً... وبديهي انها قد أوفت الذين هبّوا لانقاذها حقهم من الشكر والوفاء، بأسلوبها الجميل، إذ يكفي ان نقرأ الرسائل التي وجهتها إلى كل واحد وواحدة منهم، بعد رجوعها الى القاهرة سنة ١٩٣٩[١]، لنقيّم هذا الأثر المشرّد، وذلك لما في تلك الرسائل من روعة واشراق، وسموّ في السبك والمضمون. لقد جعل الذين ناصروها في مأساتها بيتها في رأس بيروت منتداهم ومحجتهم حباً فيها، وفرحاً بحريتها، ووجدوا في صحبتها متعةً تغذي العقل والروح، وفي شخصيتها عبقريةً غبطوا أنفسهم على النهل من مواردها. أما هي فقد وجدت فيهم كل ما افتقدته من جُلّ أصدقائها القدامى: الوفاء حين غاض الوفاء، والغيرية حين تفشّت الأنانية! ففضلهم وحدهم رُدّت اليها الكرامة والروح، وهبت في قلبها المضني، نفحات المحبة والأمل.

(١) ان الرسائل المشار اليها منشورة في كتابنا: «ميّ زيادة وأعلام عصرها». وقد استشهدنا ببعض مقاطع منها في الفصول اللاحقة من هذه السيرة.

ميّ أمــام القضــاء

(ان الحجر على تلك النابغة هو حجر على الادب العـربي وعلى الأمة العربيـة، وعلى العبقرية العربية، فلا تعدموها بسطرين من قلمكم! هي عـاقلة فـلا تجعلوهـا بحكمكم مجنونة! ان على عنقها نيراً فاخلعوه عنها، ودعـوهـا تتنشّق الهـواء الطلق، فـوراءهـا الملايين من الخلق ينتظرونها!

راجي الراعي)[1].

لم تكن ميّ في هذا الفصل الجديد من فصول مأسـاتها وحيـدة في المعركة، معزولة عن العالم، مقصوصة الجناح، ومغلولة اللسان كما كان حالها فيما سبق، بل كانت محاطة بأهل النخوة الذين تطوّعوا للدفاع عن الحق والحرية بالدفاع عن حقها وحريتها، وهبّوا للذود عن كرامة الإنسان وكرامة الأديب بالذود عن كرامتها.

الأكثر غرابة في هذه القضية، التي لم يكن يتوقعها أحد، ان ابن عمها الخوري يوسف زيادة لم يكتف باقامة دعوى الحجر عليها في بيروت في ١٧-٢ـ ١٩٣٨ بل أقام دعوى مماثلة في القاهرة، أمام المجلس الحسبي فيها بتاريخ ١٩ـ ٤ـ ١٩٣٨ لأن مي، ابنة عمه « المجنونة »، من الرعايا المصريين!.. ولكن الحظ ابتسم لها في هذه المرة، وانتصر الحق عـلى البـاطـل في نهاية

(١) مقطع من مطالعة الأديب الأستاذ راجي الراعي الذي كان ممثلاً للنيابة العامة في قضية ميّ أمام محكمة البداية المدنية في بيروت، والتي ألقاها أمامها في ٢٣ ـ ٣ ـ ١٩٣٨.

المطاف، أما كيف تمّ ذلك، وكم استغرق من الوقت، وعلى حساب ماذا بُرّئت من وصمة الجنون، فهذا ما سنبسطه استناداً الى شهادات ومقالات وأحاديث ومحاضرات الذين عاصروا تلك الدعوى المستغربة، والى ملف الدعوى الذي بين يدينا.

كان المحامي الأديب الاستاذ جوزيف باسيلا شاهد عيان لما حدث، في مستهل تدربه على المحاماة، فأثارته تلك القضية الفريدة من نوعها في المحاكم اللبنانية، وتابع تطورها، وحضر جلسات المحكمة، ودوَّن وقائعها. وفي عام ١٩٧١ ألقى محاضرة قيمة عن مأساة مي، بدعوة من مجلس المتن الثقافي عنوانها: « جننوا مي وحبسوها وظلموها »، واستطاع بأسلوبه الشيق، وملحوظاته الدقيقة ان ينقلنا الى مناخ تلك الحقبة التاريخية، ويجلو حقائق هامة، فقال:

(. . .وعندما رأى انسباؤها ان الحجر على حريتها ومالها لا يستقيم لهم الا بالحجر عليها قانونيا تقدموا ضدها بدعوى الحجر هذه، وأقاموها أمام محكمة بداءة بيروت التي كان يرأسها المرحوم بشارة الطباع. وكان الطباع يومذاك في مقتبل العمر، مشهوراً بضيق صدره، واعتداده برأيه، وتبحّره في القانون، على قلة احتفال بالحركة الأدبية، وبأدباء العرب وآثارهم، ولا سيما أدباء النهضة. فكان طبيعياً ان يجهل كل شيء عن مي ومنزلتها، والدور الذي نهضت به على مسرح الحياة الفكرية والفنية والادبية زهاء ربع قرن، وكان طبيعياً ان ينعكس جهله بها على ادارة المحاكمات انعكاساً ظهر أثره في العصبية التي تحكّمت ببعض تصرفاته، وشابت بعض ملاحظاته، مما ادى الى إثارة وكيلي مي: الأستاذين حبيب أبو شهلا، وبهيج تقي الدين، واصطدامه بهما مراراً عديدة. وكان يحيط به القاضيان الأستاذ إحسان بيضون، والشيخ أكرم عازار اللذان كانا في مطلع عهدهما بالقضاء، لا تزيد معرفتهما بمي على معرفة رئيسهما بها، وتقديره لأدبها، وبريقها في سماء الضاد)[1].

---

(١) ملحق جريدة النهار - ٤ نيسان ١٩٧١ - من المحاضرة التي القاها الأستاذ جوزيف =

كان النائب العام في محكمة البداية آنذاك الأديب الاستاذ راجي الراعي ، أما محامي الادعاء، الاستاذ وديع كسيب فلقد طلب إحضار مي الى المحكمة لاستجوابها فاعترض على طلبه وكيلاها الاستاذان أبو شهلا وتقي الدين ليقينهما بان مي سترفض المثول أمام المحكمة، فلم تفصل المحكمة في ذلك الطلب بل ضمته الى الاساس. أما الملابسات الخطيرة التي واكبت الدعوى فقد شرحها الاستاذ باسيلا بقوله: (شعر الوكيلان أثناء المحاكمة بأن جوّ الدعوى ملبّد بالغيوم التي قد تحجب الحقيقة عن أبصار القضاة وبصائرهم وضمائرهم: جو تضافرت على ايجاده تقارير الاطباء الغامضة، والتخرصات التي نسجها أنسباؤها حولها، وأطلقوها في الأندية والمحافل السياسية، ولدى أولي الأمر من فرنسيين ولبنانيين. تخرصات لو صحت لقضت على مي، لا بالحجر فحسب، بل بالقيد الحديدي أيضا. فرأى هذان الوكيلان، بثاقب نظرهما ان لا سبيل الى تبديد تلك الغيوم الا بحمل المحكمة على امتحان مي شخصياً، ولن يكون هذا الامتحان الا بحملها على القاء محاضرة من معدن محاضراتها التي طبّق صيتها آفاق العرب: محاضرة من محاضراتها الرائعة، تدعى إليها هيئة المحكمة، وممثل النيابة العامة فيها)(١).

عرض فكرة المحاضرة على ميّ وكيلاها بحضور صديقها الكبير الشيخ فؤاد حبيش الذي كان قد اتفق مع رئيس وأعضاء جمعية «العروة الوثقى» في بيروت على توجيه الدعوى إليها بهذا الشأن، وعلى أن يكون موعد المحاضرة في الثاني والعشرين من شهر آذار، ومكانها في الجامعة الأميركية. فكّرت ميّ في الموضوع بعض الوقت، ثم قبلت الاقتراح مدفوعة بعزمها على دحض الإفتراء المروّع باختلال عقلها! ومن ثم عكفت على الكتابة، على الرغم من ارهاق أعصابها، وهي تشعر بقوة هائلة افتقدتها منذ زمن طويل. وأخذت تقرأ على الشيخ فؤاد حبيش فَقَراتٍ من الموضوع الذي اختارته لمحاضرتها وهو

= باسيلا عن مأساة ميّ بدعوة من مجلس المتن الشمالي للثقافة، والتي كانت بعنوان: «جنّنوا ميّ وحبسوها وظلموها».

(١) ملحق جريدة النهار - ١١ نيسان ١٩٣٨ ص: ١٢.

«رسالة الأديب إلى المجتمع» وتناقشه ببعض الآراء، فكان يخرج من تلك اللقاءات معجباً بأفكارها، وتنسيقها لها اعجاباً لا حد له. وفي غضون ثلاثة أسابيع فقط فرغت من اعداد محاضرتها، وصدرت «المكشوف» يوم الحادي والعشرين من شهر آذار، وقد تصدّر صفحتها الأولى هذا الاعلان: (يدعو المكشوف عشاق الأدب الرفيع، والتفكير السليم الى محاضرة ميّ عن رسالة الأديب التي ستلقيها يوم غد. ولا تفوتنا دعوة القضاة المحترمين الذين ينظرون الآن في قضية الحجر على نابغة العرب فلعل هذه الفرصة تفتح عيونهم على الفضيحة المخجلة، وتنير ضمائرهم بنور الحقيقة الكبرى. تطلب أوراق الدخول من محل A. B. C. بميدان باب ادريس أو من «وست هول» في الجامعة الأميركية)(١).

في تلك الآونة بالذات خرجت مي عن صمتها السابق، وأدلت بحديث الى صحيفة « الاوريان » البيروتية، في مقابلة أجراها معها الصحفي الفرنسي « ماكس فيلار »، (نقلته الى العربية: المكشوف) وَصَفَتْ فيه الأهوال التي عانتها منذ أن جاء بها أهلوها إلى لبنان. ولقد ذكرت أنهم تآمروا عليها منذ ان علموا بعزمها على إهداء مكتبتها الثمينة الى الحكومة المصرية بعد موتها، وبإهداء جزء منها الى الحكومة اللبنانية. وعلق الصحفي « ماكس فيلار » على تلك المقابلة فقال: (ويُقدّر الاستاذ حبيب ابي شهلا، وكيل مي الذي حضر حديثي معها، ان ثروتها تبلغ نحواً من عشرين ألف جنيه)(٢).

عاشت الاوساط الأدبية في لبنان فترةً مثيرةً ابان النظر في قضية مي واهتم بها الرأي العام اهتماما بالغا، فانقسم بين نصير لها، ومشكّك في صحة عقلها! لقد تبنت جريدة « المكشوف » الدفاع عنها. ولقي صاحبها الاستاذ فؤاد حبيش في سبيل ذلك مضايقات وضغوطا نوه بها فكتب ما يلي:

---

(١) المكشوف ـ عدد ٢١ آذار ١٩٣٨.

(٢) المكشوف ـ العدد ١٢٩ ـ ١٤ آذار ١٩٣٨ ـ ص: (٤) نقلا عن جريدة «الأوريان».

(. . . ولكن الوعيد والتهديد لم يثبطا عزيمتنا، فمضينا في طريق الحق!).

ونشرت المكشوف بعد ذلك مقالة لفيلسوف الفريكة أحدثت دوياً كبيراً كانت بعنوان: (الريحاني ينقل شكاوى مي الى العالم العربي!)[1] ثم كان من أطرف ما تلقته مي في تلك الآونة رسالة مفتوحة من الشاعر الكبير الصافي النجفي نشرها في المكشوف أيضاً، وقال لها فيها:

(إني متّهم مثلك بعين التهمة الموجهة اليك، واذا لم يقيموا الدعوى للحجر عليّ فذلك لأنهم يخشون، اذا أثبتوها، من ان أصبح عالةً عليهم! فالجناية الوحيدة التي ارتكبتها أنتِ في حياتك هي انك ادخرت مالاً، ولو عن طريق القلم، سلبك حريتك، فأرجو ان تعلني إفلاسك منذ الآن ليزول الحجر عنك، ونعيش في عالمنا الروحي المجرّد الذي هو في غنى عن المال!)[2].

وعندما حان يوم المحاضرة، يوم الامتحان العسير، كانت مي على أتم استعداد لالقائها، وليس من الصعب تصوّر المشاعر التي كانت تتنازعها في ذلك اليوم العصيب من أيام مأساتها، ولكن ما يغني عن التصور هو ما جاء على ألسنة وأقلام الذين شاهدوها يومذاك، واستمعوا اليها. لقد رافقها الى الجامعة الاميركية موكب مؤلف من حرس الحزب القومي السوري، وأعضاء العروة الوثقى، كان بينهم الاستاذ كنعان الخطيب الذي قال:

(كانت مي هادئة، منفرجة الاسارير، فدخلنا قاعة « وست » من البوابة الخلفية اذ كانت تغصّ بالجمهور، فسألتها:

-« أين المحاضرة يا مي؟ »

أجابتني على الفور:

- « وأنت أيضا يا بروتوس؟ »

ثم ابتسمت وأضافت: « لا تقلق، انها معاي! »

---

(١) المكشوف ـ العدد ١٤٠ ـ ص: (٢) و (٣).

(٢) المكشوف ـ العدد ١٤٨ ـ ١٦ ـ ٥ ـ ١٩٣٨ ـ ص: (٩).

وأذكر ان قنصل مصر دخل الى الغرفة التي جلسنا فيها معها قبل القائها المحاضرة، وقال لها، وهو يهم بمصافحتها:

- « الحمد لله على السلامة... انشاء الله أصبحت بخير؟ ».

فاضطربت مي وقالت له:

- « شكرا لاهتمامك يا سعادة القنصل... ولكن باب الغرفة من هنا!».

فامتعض وقال:

- « ولكني قنصل مصر... ».

فاجابته بكل برود:

- « أعرف ذلك، تفضل الى القاعة العامة أرجوك... ».

وأذكر أيضا ان الدكتور شارل مالك قال لي بعد ان اعتلت مي المنبر: « اذا كانت مي مجنونة فنحن جميعا مجانين! ».

ووجمت مي عندما واجهت الجمهور المحتشد، فوجمنا معها بضع ثوان، ثم ضغطت على الطاولة التي جلست أمامها بكلتا يديها، واستهلت الحديث بتدفّق كأعذب ما يكون تدفق الشلال من الصخور الشامخة. وأحسب ان تلكؤها كان أمراً طبيعياً في مثل موقفها لشدة ما تأثرت لدى رؤية رئيس المحكمة وأعضائها والمحامين، وخصومها، وأنصارها جالسين في الصفوف الأمامية، يرقبون حديثها وحركاتها...)[1].

أما الأستاذ الكبير الدكتور قسطنطين زريق الذي تابع مراحل القضية، وكان عضواً في جمعية العروة الوثقى، فقد وصف أمسية المحاضرة قائلاً: (ذهبنا الى الجامعة الأميركية قبل موعد المحاضرة بنصف ساعة فوجدناها تغص بالقضاة والمحامين والوزراء والنواب والطلاب والصحفيين الذين توافدوا من كل صوب. فقوبلت ميّ، حين اعتلت المنبر بتصفيق طويل كان

---

(١) من حديث الأستاذ كنعان الخطيب الينا الذي أجريناه معه في بيروت بتاريخ ٢٧ ـ ٥ ـ ١٩٧٧.

له دويّ الرعد، وهي واقفة تنظر الى ما حولها نظرات يشوبها الحزن والذهول معاً. ولما هدأت موجة التصفيق تعلّقت قلوبنا بشفتيها لأنها وجمت خلال بضع ثوانٍ حسبناها ساعات، قبل أن تشرع بالكلام! لقد خشينا ان يحول التأثر بينها وبين الانطلاقة، ولكنها تمالكت أعصابها، حمداً لله، وتدفّقت في إلقاء محاضرتها العظيمة التي استغرقت ساعةً كاملة، حسبناها دقيقة واحدة)(١).

استهلت ميّ محاضرتها في تعريف الأدب، وتوقفت عند مسؤولية الأديب، ثم عرّجت على اليقظة الأدبية الحديثة، وموقف الأديب منها، وأثره البالغ فيها. وبعد ان قامت بجولةٍ على الآداب الأوروبية، وأعطت أمثلة عنها قالت:

(نحن في حاجةٍ الى أقلامٍ تخاطبنا باللغة العربية ببيانٍ جميل يصوّر شخصية الأديب، ويشرح حالة الأمم، وينشر أمامنا صفحة الأزمنة الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل)(٢).

وعن رسالة الأديب قالت: (رسالة الأديب تعلمنا ان للعالم العربي، على تعدّد أقطاره، وحدةً واحدة تشغل مكاناً فسيحاً في القارتين الأسيوية والافريقية، ولكن للأديب فناً يُنيلنا فيه الثقافة والفائدة، بينا نحن نرتع في جوٍّ ممغنطٍ أخاذ هو في الواقع جوّ الحياة. رسالة الأديب تعلمنا ان نفاخر بلغتنا العربية، الممتازة على سائر اللغات بأنها وُلدت قبل لغاتٍ قديمة اندثرت منذ قرون، وما زالت تفيض حياةً مجاريةً حتى أحدث اللغات بالقوة، والمرونة، والجزالة والرشاقة. كل أمةٍ تسعى الآن الى نشر لغتها بين الأمم الأخرى، باذلةً في سبيل ذلك المال والدعايات والجهود، أما نحن، فانتشار لغتنا شيء واقع، وميّزتها هذه تربط بين الأقوام العربية برباط قوي، جاعلةً الفرد الواحد منا ملايين! رسالة الأديب تعلمنا كيف نخلق حضارةً أدبية اذ بها، لا بغيرها،

---

(١) من حديث أجريناه مع استاذنا الكبير الدكتور قسطنطين زريق في ٤ ـ ٥ ـ ١٩٧٠.
(٢) كلمات وإشارات ـ الجزء الثاني ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٦٢.

تقاس مواهبنا، ويُسبر غور طبيعتنا، وهي التي تثبت وجودنا، وتنطق بلساننا، مترجمةً مبلغ الانسانية فينا)[1].

وانتقلت المحاضرة من فكرةٍ الى فكرة في تطوافها على جوانب موضوعها بما وُهِبت من فنٍّ في السرد والإلقاء، وقدرةٍ على البحث والاستقصاء، وكان أكثر ما ركّزت عليه أهمية الحفاظ على الشخصية العربية، واللغة العربية، لاعتقادها الجازم بان الأدب كاللغة من حيث أنه حليف التقهقر عند الشعوب، كما أنه ترجمان تقدمها ونهضتها. ولقد أجادت في حثّ همم الأدباء الى العطاء الجيّد، وفي تحليل أهمية الدور البناء الذي ينبغي الا يغرب عن بالهم حيث قالت:

(. . . أي شيء لا تعلّمنا رسالة الأديب؟ انها قوة تستفزّ قوتنا، وكرامة تردّنا عن الحقارة، وبسالة تدفعنا الى البسالة، وعذوبة تؤاسي أحزاننا، وأغرودة تطرب أشجاننا، وهي عالم مستقلّ، متماسك، يسوقنا الى تكوين عالمنا المستقلّ المتآلف. اننا نحتاج الى الأديب يأخذ منا ويعطينا، فيرسل صوته أريباً، رصيناً، مسيطراً، أخاذاً. ونحتاج الى رسالة الأديب قويمة، غنيةً، عنيدةً، ملهمةً، لتتوقف قوميتنا في مكانها المشروع في معرض القوميات بميدان العمران العظيم!)[2].

(ولم تفرغ ميّ من محاضرتها الساحرة الا بعد أن ضيّعت عقول كثيرين. . . أسامعة يا ميّ؟ فقد قالوا: والله جنّنتِنا! قالوها وان كنت لم تسمعي. ألم تسمعي تصفيقهم في النهاية؟ بلى. ورأيت على وجهك الفرق ما بين هذا التصفيق والتصفيق الأول. رأيتُك هذه المرّة تتهللين، وأنت مأخوذة بنشوة الظفر، ورأيتك تحتضنين طاقات الزهر المرفوعة اليكِ بيدٍ ما يزال عليها عطر أخواتها السابقات ندياً، كما لو كانت السنتان دقيقتين. . . ورأيتكِ تنحدرين الى الجمهور المحتشد على الأبواب ليحييكِ: مئات جاؤوا كافرين،

(١) كلمات وإشارات ـ الجزء الثاني ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٢) كلمات وإشارات ـ ميّ زيادة ـ الجزء الثاني ـ ص: ١٦٦.

ومئات بين الشك واليقين، وقليل قليل من المؤمنين! ها هم كلهم صفٌ واحد يهتفون معجبين، ويصفقون مسرورين. لقد عدتِ الى الناس، وعاد الناس اليكِ يا ميّ! فليس الا فرحة اللقاء!)[1].

هذا ما كتبه الأديب الكبير توفيق يوسف عواد عن ميّ ومحاضرتها العظيمة، فقد طلعت الصحف البيروتية في صبيحة الثالث والعشرين من شهر آذار وهي تزيّن صفحاتها الأولى بوصف المحاضرة المنتصرة على الظلم، وبنشر فقراتٍ من محاضرتها، وكانت جمعية «العروة الوثقى» قد طبعتها في كراسٍ خاص، وشرعت في توزيعه. ومن أطرف ما حدث عقب فراغ ميّ من إلقاء محاضرتها، وهي تصافح عشرات المعجبين، وتشكرهم على تهانيهم، نكتة رائعة وثبت على لسانها ساعة تقدم اليها الدكتور جميل جبر قائلاً:

ـ «ليتني يا سيدتي كنت مجنوناً!».

فأجابته على الفور، باللهجة المصرية الجميلة ـ اذ أدركت انه شاب صغير:

ـ «لِسَّهْ بدْرِي . .»[2].

كان الأديب الأستاذ خليل تقي الدين بين الذين خرجوا من القاعة متأثرين بما شاهدوا، ومأخوذين بما سمعوا، اذ سمع من البيان أبلغه، ومن الحديث أرصنه، وشاهد النبوغ متجلياً في اطلالة ميّ بثوبها البسيط الأسود، وشعرها الأبيض، ووقفتها الوقور، وغمامة الحزن والنور التي كانت تجلّل هامتها وعينيها. لقد خُيّل اليه عندما قالت، وهي تعدّد وجوه رسالة الأديب: «وللأديب رسالة أخرى هي مواساة الحزانى» ان هموم الدنيا تنهال على

---

(١) نشرت هذه المقالة التي كتبها الأديب توفيق يوسف عواد في جريدة النهار صبيحة يوم المحاضرة، ونقلتها عنها «المكشوف» في عدد الرابع من نيسان عام ١٩٣٨ ثم نشرها الأستاذ العواد في كتابه: فرسان الكلام: ص: ٣٢.

(٢) لحظات مع ميّ ـ الدكتور جميل جبر ـ مجلة اذاعة لبنان ـ عدد تشرين الثاني ١٩٧٤ ـ ص: ١٣.

كاهلها، ومآسي الحياة ومهازلها تترقرق في دمعةٍ كبيرة لمحها تتراقص في مآقيها، ولكن كبرياء الأديبة النابغة منعها من الانحدار![1].

وقد نشر الشيخ خليل تقي الدين مقالاً في المكشوف من وحي محاضرتها، عنوانه: «العبقرية تدافع عن نفسها» كان مما جاء فيه قوله:

(لم أكتب بعد شيئاً عن ميّ لأنني كنت أنتظر هذه الساعة لأنفجر! كنت أتابع مطمئناً قضيتها التي دخلت في تاريخين اثنين: تاريخ الأدب العربي، وتاريخ الأخلاق البشرية، وأنا مؤمن بأن النتيجة تكون في جانب النبوغ، لا في جانب الجهل، حتى أرسلت ميّ من على منبر الجامعة صيحتها الداوية، فانقلب ايماني يقيناً، واعجابي تعلقاً وديناً. إن ميّ لم يدافع عنها أحد كما دافعت عنها عبقريتها نفسها، وإنه لدفاع كتبت فيه ميّ صفحة مشرقة في تاريخ الأدب، تضيف إلى أياديها عليه يداً جديدة لا تنسى)[2].

وتلقى الأستاذ أمين الريحاني رسالة من الأديب فيليكس فارس، يوم المحاضرة تدل على اهتمام الرجلين بميّ، وتقديرهما العميق لها، وقد جاء فيها ما يلي: (ان ميّ كانت، ولا ريب، في حالة تستدعي الاعتناء بها، فكان من سوء حظها، انها وقعت من محبة أقاربها، على صخور وأشواك. قرأت انها ستلقي اليوم محاضرةً في الكلية الأميركية فعساها تظهر أمام الناس كما عرفوها. اذا اجتمعت بها بلغها محبتي واجلالي، وأنا اعتقد، ولعلها هي أيضاً تعتقد، ان الزمان لم يُبقِ لها من أقاربها الا أنت وأنا)[3].

وبديهي ان يكون الريحاني قد أسرع في تطمين فيليكس فارس، وزفّ إليه بشرى فوز ميّ، وهو الذي تبنى قضيتها، وتحمّل في سبيلها هموماً ومتاعب كانت تقع على نفسه الحرّة برداً وسلاماً، ولقد بكى الريحاني الكبير وهو

---

(١) من حديث أجريناه مع الشيخ خليل تقي الدين عن ميّ في بيروت عام ١٩٧٣.

(٢) المكشوف ـ افتتاحية العدد ١٤١ ـ تاريخ ٤ ـ ٤ ـ ١٩٣٨.

(٣) الريحاني ومعاصروه ـ ص: ٣٤٠.

يستمع الى صديقته العظيمة، تأثراً لوقفتها الأدبية، واعجاباً بإرادتها الحديدية، وفرحاً بعودتها الى ميدان العطاء والابداع.

تجاوزت أصداء تلك المحاضرة حدود لبنان الى سائر حواضر الوطن العربي فنشرتها مجلة «الرسالة» بكاملها، وعلّق عليها الأستاذ أحمد حسن الزيات، وهو من أكثر الأدباء اعجاباً بميّ، وتقديراً لنبوغها، بعبارات من أدبه الرفيع تفيض بلاغة ووفاءً وبشرا. كما نشر الأديب الأستاذ بشر فارس مقالة في «الرسالة» عن ميّ ومأساتها ومحاضرتها، كان أجمل وأرقّ ما فيها قوله: (بورك اليوم الذي فيه حنّت أنامل ميّ الى قلمها!)[1].

وكذلك نشرت جريدة «الزمان» العراقية مقالاً في الموضوع ذاته بقلم الأستاذ «مشكور كبسي» أشار فيه الى ان جريدة «الانقلاب» في بغداد نشرت في عددها الذي صدر في ٧ آب ١٩٣٧ كلمة بعنوان: (لقد جُنت كاتبة الشرق النابغة، فهل حفل بذلك أحد؟).

وفي ١٦ ـ ٥ ـ ١٩٣٨ أصدرت «المكشوف» عدداً خاصاً بميّ نشرت على صفحته الأولى صورتها بريشة الفنان يوسف الحويّك. أسهم في اخراج العدد كبار الكتاب أمثال: أمين الريحاني، وخليل تقي الدين، وتوفيق يوسف عواد، والياس ابو شبكة، وفؤاد افرام البستاني، وأحمد الصافي النجفي، وخليل فرحات، وخليل الخوري، وجان زلاقط، وأحمد مكي، وداود قربان، ولطفي حيدر، وفؤاد حبيش، والدكتور سليم حيدر. أما الأستاذ فؤاد حبيش فلقد ذكر في مقالته أسماء الكتاب الذين كانوا يزورونها في منزلها برأس بيروت فقال: (وجلّ هؤلاء لا ينقطعون عن زيارتها في الشقة الهادئة التي تقيم فيها بين الحدائق والبساتين، بعيداً عن ضجة المدينة وضوضاء العالم، وتعيش الى جانبها رفيقة لها أنيسة، رقيقة الاحساس، هي الآنسة استر واكيم. وما كان أحْوج ميّ الى مثلها يوم أحسّت، وهي بعد في القاهرة، بذلك الفراغ الذي

---

(١) الرسالة ـ العدد ٢٥٢ ـ تاريخ: ٢ ـ ٥ ـ ١٩٣٨ ـ ص: ٧٣٤.

استغلوه، وأمعنوا في استغلاله، فاذا ميّ شريدة، طريدة، لا يجدون لها غير «العصفورية» مأوى، وهي التي كانت، وما برحت توزّع العقل والحكمة على الناس، في الشرق وفي الغرب)[١].

كما ان الأستاذ خليل الخوري الذي لازمها في محنتها مع سائر أفراد أسرته كتب ما يلي:

(كان يختلف الى منزلها هؤلاء الأصدقاء بين الفينة والفينة لمواساتها، والاستمتاع بمجالستها، والاصغاء الى حديثها الذي لا ينضب معينه. فقد ضربت بسهمٍ وافر في كل علم، وانك لتلمس في حديثها الروح الحيّ، والظرف الذي يجعل الموضوع الجاف، كالتاريخ مثلاً، موضوعاً يلذّ سماعه. وان أظهر ما فيها مقدرتها على استهواء كل جليس: فهي تستطيع التحدث الى الساذج فتنزل اليه، ثم تصعد به قليلاً، قليلاً، حتى يرقى عن مستواه!)[٢].

وجاء في مقالة الدكتور سليم حيدر التي كانت بعنوان: «كلمة العبقرية» وصفٌ للمحاضرة، وتعبير عن الاعجاب الصادق بالأديبة الرائعة التي تجلت في تلك الأمسية على حقيقتها، وكأن ما أضناها من العذاب أضحى نسياً منسياً. ثم ختم مقالته بهذه العبارات:

(ان ميّ مجنونة بعبقريتها، عبقرية بجنونها، وانها ستبقى بسمةً خالدة على شفة الشرق!)[٣].

واستوحى الأديب توفيق يوسف عواد موضوع مقالته من حديث ميّ اليه في بيتها حين وقفت معه أمام النافذة، ساعة الغروب، وقالت له، ونظرها سابح في الأفق البعيد «المتورّد خجلاً بتأثير قبلات الشمس المودّعة»:

---

(١) المكشوف ـ العدد ١٤٨ ـ تاريخ ١٦ ـ ٥ ـ ١٩٣٨.

(٢) المكشوف ـ العدد ١٤٨ ـ تاريخ ١٦ ـ ٥ ـ ١٩٣٨.

(٣) المكشوف ـ العدد ١٤٨ ـ تاريخ ١٦ ـ ٥ ـ ١٩٣٨.

ـ «وكانت روحي، وراء ذلك كله، تنظر الى جسدي يتمزّق، وهي صافية، هادئة!» ثم كتب يقول، معلقاً على كلامها:

(... وساد الظلام، وخرج من الظلام أبناؤه، وأنصاره، ودعاته فزعم الليل في خيلائه انه ملك الجوزاء، وهتفت له النجوم في المؤامرة: غلبتَ الشمس، وانتصرتَ على النهار! وثنّى القمر وابتسم ابتسامته الصفراء، ومسح الليل الدماء عن كفِّه وقال: «ان الشمس لن تعود!» ولكن الفجر لاح، بالرغم من ذلك كله، وعادت الشمس. أنتِ أختها يا ميّ!)[1].

ذكرنا أن ميّ ألقت محاضرتها في الثاني والعشرين من شهر آذار، وأول ما يتبادر الى الذهن، في إثر نجاح تلك المحاضرة صدور القرار بإلغاء الحجر عليها ولا سيما ان رئيس محكمة البداءة الأستاذ بشارة الطباع، وعضويها الأستاذين احسان بيضون والشيخ أكرم عازار، والنائب العام الأستاذ راجي الراعي قد لبوا الدعوة واستمعوا اليها. ولكن ما حدث بعد ذلك جاء مغايراً لما كان منتظراً فانقضت أيام، ثم أسابيع قبل ان تصدر المحكمة حكمها في صالح العدالة. لذا لا بدّ لنا من الرجوع الى محاضرة الأستاذ جوزيف باسيلا الوثائقية عن هذه القضية الغريبة حيث قال فيها إن المحكمة عقدت جلسة عامة بالقصر العدلي، صبيحة يوم محاضرة ميّ، وصفها بهذه العبارات:

(تقاطرنا يوم الجلسة الى قصر العدل القديم، زرافاتٍ ووحدانا، أدباء وصحفيين، ومحامين وأطباء وطلابا، وأهل شغب، وزارعي فوضى عن سبق تصوّر وتصميم، فضاقت بنا قاعة المحكمة في ذلك القصر الذي لا تزال أرجاؤه تُرجع أصداء مرافعات اميل اده، وبشارة الخوري، وجان جلخ، واميل لحود، وحبيب أبو شهلا وغيرهم من الوجوه الحبيبة على قلوبنا، نحن اصحاب «الروب» التي لا نزال نفتقدها في كل ليلةٍ ظلماء... ولم تكن القاعة رحبةً لأنها غير معدّة للقضايا التي يتألب عليها المشاهدون من هواة المرافعات

---

(١) المكشوف ـ العدد ١٤٨ ـ تاريخ ١٦ ـ ٥ ـ ١٩٣٨.

البليغة، وعشاق البيان الأخاذ، أو من الذين تستهويهم المواقف الدراماتيكية، والمفاجآت المذهلة.

تولى تمثيل الجهة طالبة الحجر على ميّ زميل لنا لم يعد من هذا العالم[1]، زميل كبير اشتهر بعلوّ كعبه في الفرنسية وبطول باعه في اثارة المعضلات الشكلية، واصراره عليها، وشدها شداً محكماً آناً، وآناً غير محكم، الى أساس الحق المنازع فيه.

حاول هذا الزميل، بادىء ذي بدء، ان يترافع باللغة الفرنسية فلم يمنعه رئيس المحكمة من ذلك، وكيف له ان يمنعه والفرنسية آنذاك لغة البلاد الرسمية... الا ان الوجوم الذي ساد في القاعة لدى سماع هذا الطلب النابي، والصمت البليغ الذي قوبل به، ولا سيما من قبل النيابة العامة التي كان يمثلها الأديب الكبير، راجي الراعي، صاحب «القطرات» دفعاه الى العزوف عن المضيّ في محاولته، فراح يترافع باللغة العربية. لقد اتهم «ميّ» بالجنون، وأسهب في ذكر الأعمال التي تقوم بها، دون ان يقيم الدليل على صحة هذه الأعمال... ثم تغنى ما طاب له التغني بنبل أهلها طالبي الحجر عليها، وأريحيتهم، وتضحيتهم، وأصر على إحضارها الى المحكمة، وهو يهاجم الأقلام التي انبرت للدفاع عنها، وعن عقلها، ويقول فيها ما تورّع مالك عن قوله في الخمرة!

كان حبيب ابو شهلا وبهيج تقي الدين يقاطعانه بعنف حيناً، وبرفقٍ حيناً آخر، مازجين ذلك العنف وهذا الرفق بشيءٍ من السخر الظريف اللاذع. وكان رئيس المحكمة المرحوم بشارة الطباع يثور لهذه المقاطعة، ويهدّد برفع الجلسة، خصوصاً عندما كان يرانا، نحن الحضور، نؤيد وكيلي ميّ ببعض الهرج والمرج، وبعض الفوضى التي أشعناها في القاعة.

وجاء دور وكيليّ ميّ فتخيّر الأستاذ بهيج تقي الدين الناحية الأدبية

---

(١) هو الأستاذ وديع كسيب، محامي الادعاء في قضية ميّ.

والانسانية والأخلاقية من الموضوع، وراح يتحدث، ببلاغته المعهودة، عن ميّ ونشأتها وتربيتها، وعن ثقافتها وأخلاقها، والمكانة الأدبية الرفيعة التي استطاعت ان تقتطعها لنفسها في دنيا العرب حتى غدت، بفنها وعلمها، ساحرة القلوب، وخالبة الألباب، ومرقصة المنابر، وأبرّ ابنة لأجمل جيل، وأفضل ممثلةٍ لخير أدب، وخير نهضة. كانت هذه المرافعة من أولى مرافعاته وقد لفتت الأسماع والأذهان الى مستقبله المثقل بالوعود في دنيا المحاماة، وهي وعود تحققت إذ غدا الأستاذ بهيج تقي الدين واحداً من أكبر المحامين الجزائيين في البلاد العربية.

وعندما جاء دور الأستاذ حبيب أبو شهلا نهض بطلعته الوسيمة، ونحن نصفق لسلفه تصفيقاً حاداً استاء منه رئيس المحكمة، وكاد يطردنا من القاعة لو لم يتدخل الأستاذ أبو شهلا، ويطلب الينا بابتسامته العذبة، المشرقة، ان نكفّ عن التصفيق والهتاف، وعن اظهار عواطفنا!

كان كلامه في مرافعته القيمة في الحجر وعناصره، ومقوماته، ومفاعيله القانونية، وفي الجنون، وطرق اثباته، ونتائجه وملابساته. ثم تحدّث عن سلطان القاضي وعن مسؤولياته في تقدير الجنون، واستشهد بأقوال الأئمة القدامى، وأقوال العلماء الفرنسيين، وغير الفرنسيين في هذا الموضوع الدقيق، وخلص الى طلب ردّ دعوى الحجر، كما فعل زميله الأستاذ تقي الدين في ختام مرافعته. ورُفعت الجلسة ثم عدنا الى القاعة، بعد حوالى نصف ساعة، حيث أقبلت هيئة المحكمة، فأعطى رئيسها الكلام الى ممثل النيابة العامة الأستاذ راجي الراعي.

كانت أسارير الرئيس الطباع على شيء من الانفراج هذه المرّة، وكان رأيه في الدعوى بادياً على وجهه، ووجه القاضيين المحيطين به. فوقف راجي الراعي بقامته المترنّحة، وشعره الأشعث المغبّر، ونظره التائه كأنه يطارد حلماً أفلت منه، ولا سبيل الى استرجاعه، وراح يلقي بصوتٍ عميقٍ دافىءٍ، ونبراتٍ صادقةٍ محمومةٍ، مطالعةً قلما قُدّر له، أو لغيره من ممثلي النيابة العامة،

ان جاء بمثلها. ومن غير راجي الراعي من رجال القانون والأدب يستطيع أن يحسّ مأساة ميّ، وأن ينزل الى أعماق نفسها التي أمضها الألم، وأضناها الشوق الملح الى الحق والعدل، والحرية والجمال، وهي التي ما عاشت يوماً الا من أجل الحق والعدل، والحرية والجمال. اسمعوا أيها السادة صاحب القطرات يقول:

«ان هذه القضية المبسوطة أمامكم هي قضية خطيرة جداً، تختلف عن غيرها من القضايا التي يتناولها اختصاصكم، فهي لا تدور حول سَنَدٍ يُطلب الحكم بقيمته، أو اثبات حجزٍ أو صكّ بيع، بل هي قضية حجرٍ، والحجر هو حجز الدماغ والروح، وموت أدبيّ، ويد هائلة تضغط على الانسان الذي بلغ من العمر عتياً، فتخلع عنه ثوب الأربعين أو الخمسين الذي ألبسته إياه السنون، وتعيده غلاماً قاصراً، وتقيم له وصياً. ويزيد في خطورة هذه القضية من حيث موضوعها ونتائجها ان من يُطلب منكم الحجر عليه فتاة ليست كسائر الفتيات، وثبت بها العبقرية الى قمم الأدب والعلم والفن الخالد، وعلا نجمها في سماء العربية، ورُفع لواءها الخفاق فوق كل قطرٍ من الأقطار الناطقة بالضاد، وتجاوبت بأصداء آياتها أرجاء النيل، وجبال لبنان، وسهول سورية، وصحارى العرب. هذه الفتاة النابغة هي حديث العرب في كل صقع وواد، وهي بنفسها دولة في دولة الأدب، ونور من أنوار الشرق، وقلم من أقلام الخلود، وعجيبة من أعاجيب الوحي والالهام! كانت دارها في وادي النيل كعبة الأدباء، ومحجّ العظماء، تكتب فيقال: كتبت ميّ، وتخطب فترهف لها الاسماع، وتنصت لها القلوب، وتخرج الكتاب فتتلقفه الأيدي، وتسكب من عبقريتها في الأرواح سحراً ومجداً، ووحياً ورحيقاً.

أيها القضاة! بعد أن قرأت هذه القضية، وما فيها من لوائح وتقارير، وبينما أنا أقلّب كتب الشرع، وأبحث في الحجر وأسبابه ونتائجه، وبعد ان كنت حائراً، متردداً، لا أعرف أين، وكيف أضع رأيي وعقيدتي، وفي أية كفةٍ في الميزان ألقي مطالعتي، طلع شهاب في سماء هذه القضية، وطرأ على هذه

الأوراق طارىء قلبها بطناً لظهر، وظهراً لبطن، وطاح بكل شيء في هذا الملفّ، فأعاد الحق الى نصابه، والحقيقة الى عرشها. فقد أرسلت البطاقات تدعو الناس الى استماع محاضرةٍ تلقيها الآنسة ميّ في نادي «العروة الوثقى»، في «وست هول»، من على منبر الجامعة الأميركية. وأخذ الناس يتساءلون أتقوى ميّ على إلقاء محاضرة؟... هي إذن تقرأ وتكتب، فكيف قال عنها الأطباء في تقاريرهم انها لا تكتب ولا تقرأ؟ وهي إذن تجمع في القرطاس حكماً وآيات، فكيف قيل انها لا تجمع الا رماداً؟ وهي إذن ذلك الطائر الغريد فكيف قيل انها فقدت القدرة على التغريد؟ وهي إذن ذات أوتار، فكيف قيل ان قيثارتها تحطّمت؟؟؟ وجاء موعد المحاضرة، البارحة في ٢٢ آذار، فهرعت الى قاعة الجامعة والواجب يستحثني، والضمير يلحّ عليّ بتلمّس الحقيقة في مصدرها وينبوعها . هرعت الى الجامعة وكلي شوق الى جسّ النبض الذي تنبض به هذه القضية، ورؤية الوجه الذي قيل انه وجه مجنون، وسماع الكلمة التي قيل انها كلمة من اختلّ عقله، واضطرب شعوره، وفقد إرادته. ودقت الساعة الثامنة فإذا ميّ تطلّ على المسرح وقد لعبت بها الأهوال، فلعب الشيب برأسها. وقفت على المنبر وأخذت تتدفق بذلك البيان الساحر الذي تعوّد العالم العربي أن يسمعها تنقر على أوتاره بريشةٍ لو رآها «رافائيل» و «روبنس» لادّعيا انها ريشتهما، وان ميّ اغتصبتها! وحدثتنا عن رسالة الأديب الى الحياة العربية طيلة ساعة كاملة حديثاً خلع عليه الاتزان والابتسامة، والعقل والمنطق، والفن والابداع حُللاً فضفاضةً فاخرة. كانت تتلو لنا آياتها بلغةٍ موسيقية رنانة، وعذوبةٍ ترقرقت فيها مياه النيل، وعبقريةٍ ينبطح الجبل أمامها خشوعاً، وينقلب سهلاً، ويعتزّ بها السهل ويشمخ، فينقلب جبلاً! وانقضت الساعة الثامنة، الكاملة بدقائقها وثوانيها، وهي تلقي الدرر والغرر، وترصّع جيد اللغة العربية بجواهر من الزمرّد والياقوت والماس. فلقد ضجّ كل من في القاعة ضجة الإكبار والتعظيم، ووثبت القلوب، واهتزت الجدران للتصفيق الداوي المستمر الذي لم تشأ الأيدي أن تكفّ عنه. وأخذ الناس يتساءلون: أتكون هذه الفتاة

مجنونة، وقد جُنّنا بها، واذا كانت هي المجنونة فهل نحن عقلاء؟

لقد زالت حيرتي، وزال تردّدي بعد تلك المحاضرة الساحرة، واقتنعت اقتناعاً حاسماً، قاطعاً، كوّنته في عيني التي رأت، وأذني التي سمعت، بأن الآنسة ميّ لا يُحجر عليها. اني أتقدّم منكم الآن، أيها القضاة، وأطلب ان تقاسموني هذا الشعور الحيّ، الصادق الذي انتابني ليلة البارحة، فالفتاة التي ألقت تلك المحاضرة لا تحجر حريتها وعبقريتها، بل هي أكبر من أن تمسّها يد الحجر، وأسمى من أن تطالها يد هذا «القصر»! ليتركها أنسباؤها وشأنها، فان أنسباءها الحقيقيين هم أولئك الذين تربطهم بها الرابطة الروحية: أولئك الذين سمعوا محاضرتها فصفقوا لها، وخرجوا منها معجبين، مذهولين!

ان الحجر على هذه النابغة هو حجر على الأدب العربي، وعلى الأمة العربية، وعلى العبقرية العربية، فلا تعدموها بسطرين من قلمكم. هي عاقلة فلا تجعلوها بحكمكم مجنونة. ان على عنقها نيراً، وهي السيدة الفريدة المبجّلة، فاخلعوه عنها، ودعوها تتنشق الهواء الطلق، فوراءها الملايين من الخلق ينتظرونها! اطلقوا سراحها فهي مسجونة، وأريحوها من المجانين وصخبهم وضجيجهم، وردوها الى مؤيديها الذين لا يُعدون، وللعبقرية والأدب!»)(1).

وتتمةً لما جرى في ذلك اليوم لا بدّ من نقل حديث الأديب الأستاذ راجي الراعي، رحمه الله، حيث قال:

(في اليوم الذي ألقيت فيه مطالعتي اقترحت المحكمة ان تزور ميّ في

---

(1) ملحق النهار ـ عدد 11 نيسان 1971 ـ الجزء الثاني من محاضرة الأستاذ جوزيف باسيلا التي ألقاها بدعوة من مجلس المتن الشمالي بعنوان: «جننوا ميّ، وحبسوها، وظلموها». وقد علقت جريدة النهار على محاضرة الأستاذ باسيلا بهذه العبارات: «هذا هو الجزء الثاني من محاضرة جوزيف باسيلا عن ميّ زيادة، الكاتبة التي كادت قضية جنونها المزعوم تتحول من فضيحة الى عارٍ تاريخي لولا وعي أدباء لبنان، ولولا نخوة القضاء عهد ذاك».

بيتها، قبل اصدار حكمها، لجلاء الغموض الوارد في تقارير الأطباء. ذهبنا إليها فاستقبلتنا بهدوئها المعروف، وابتسامتها الحزينة، وألقى عليها رئيس المحكمة، الأستاذ بشارة الطباع وعضواها عدة اسئلة، بحضور وكيليّ الدفاع الأستاذين ابو شهلا وتقي الدين، فأجابت عليها باقتضاب وامتعاض لشدة استيائها من ذلك الاستجواب... كان الرئيس الطباع مقدراً حالتها النفسية كل التقدير، وفي غاية اللباقة والرقة أثناء تلك الزيارة، وقد خرج من بيتها مقتنعاً بعافيتها التامة، ومتأسفاً لاضطراره الى تلك الزيارة التي قام بها تحت ضغط جهة الادعاء! وبدلاً من ان تُصدر المحكمة حكمها بإلغاء الحجر عليها اضطُرت الى تنفيذ طلب سريع تقدم به محامي الادعاء بارسال الطبيبين: كالميت والجنرال مارتان لمعاينتها من جديد، وتقديم تقرير عن حالتها الصحية!! كما انني لم أنجُ من الضغط والتهديد اذ عاب عليّ انسباؤها مطالعتي، وأشفقوا عليّ من عواقبها الوخيمة، فصرخت في وجه الرسول الذي نقل اليّ كلامهم قائلاً: «ان أجمل وسام، وأرفع وسام يستطيعون أن يزيّنوا به صدري هو اقصائي عن القضاء بسبب مطالعتي في قضية ميّ، وان عزلي من وظيفتي لا يهمني ما دام ضميري مرتاحاً، فلن يرتفع صوتي بطلب الحجر الا اذا اطمأن وجداني الى جنونها!» لذا كررت زياراتي لها متعمداً، وكنت في كل مرّة أزورها أزداد إيماناً ببراءتها من التهمة المروّعة الموجهة اليها، وتألماً لذلك التجني عليها!)[1].

ليس من الصعب ان نتصور مبلغ استياء ميّ من اقتراح المحكمة المفاجىء، واضطرارها الى استقبال الأطباء، بعد ان انجلت الغيوم، وظهرت براءتها ظهور الشمس في وضح النهار، فرفضت استقبال الأطباء رفضاً لتلك المهزلة التي أضحت مفضوحة، وتشبّثت برأيها في رفض المعاينة المطلوبة، ولم

---

(١) من حديث الأستاذ راجي الراعي، رحمه الله، الى كاتبة السيرة لدى زيارته في بيته في مدينة «زحلة» بتاريخ ١١ ـ ٤ ـ ١٩٧٥، وبحضور السيدة عبلة الخوري.

تفلح معها حجج أصدقائها ووكيليها في اقناعها بالعدول عن رأيها. قالوا لها انه لا مناص للمحكمة من تنفيذ طلب جهة الادعاء قبل إصدار حكمها، وانه آخر سهم في جعبة خصومها، كما ان الحكم سيكون، بلا ريب في صالحها، فأجابتهم بأن الفحوصات الطبية التي ليس لها مبرّر منطقي قد أعيتها، وانها عراقيل جديدة يضعها انسباؤ ها للحؤول دون نجاتها، ولتهديم أعصابها! فكان أن أتى الدكتور «كالميت» ذات صباح لزيارتها منفرداً فأمرت ممرضتها الآنسة واكيم بأن تطلب إليه مغادرة البيت في الحال! وعندما يئس «المنقذون» من اقناعها بتغيير موقفها لجأوا الى صديقها الكبير أمين الريحاني الذي توجّه الى بيته في الفريكة، عقب جلسة الثالث والعشرين من آذار، مطمئناً الى ان العدالة ستأخذ مجراها، ومترقباً الخبر الطيّب بإلغاء الحجر عليها. لذا ذهب الأستاذ خليل الخوري لزيارته في الفريكة واطلاعه على تطوّر الأحداث، وعناد ميّ في رفض المعاينة الطبية، فكتب إليها الريحاني الرسالة التالية:

(قرأت اليوم في الجرائد خبر تطوّر الدعوى المشؤومة فتأثرت وتألمت، وحزنت: إبطاء، ومماطلة، ثم عودة الى الأطباء! اني أخشى عليك من هذه المماطلات، وهذه العودات، فأرجوكِ أن تسمعي لي ولا تتجهمي، ولا تغضبي! تقبّلي لجنة الأطباء بتلك الروح السامية التي هي روحكِ. رحّبي بهم، وابسمي لهم، وحدثيهم بما يشاؤ ون من الأحاديث. انصبي لهم يا ميّ أشراك عبقريتك!)[1].

كان أمين الريحاني الوحيد من أصدقائها القادر على حملها على اتخاذ موقفٍ لينّ من الأحداث المزعجة، وأبرعهم في مخاطبتها بأسلوبٍ أدبي وانسانيّ يؤثر فيها أعمق الأثر، فعملت بنصيحته، وكظمت غيظها، وتذرّعت بالصبر! استقبلت الأطباء بعد انقضاء ستة أسابيع على إلقاء محاضرتها الشهيرة، وأثبتت لهم أنها في أتمّ عافية. وقبل موعد زيارتهم لها بحوالى أسبوع قام الأمير مختار الجزائري بزيارة الطبيب الجنرال مارتان، الذي كان جاراً له في حيّ المنارة في

---

(١) رسائل امين الريحاني ـ جمعها وبوبها البرت الريحاني ـ ص: ٥٣٤.

رأس بيروت، لا لكي يؤثر عليه بكتابة تقرير صحي في صالحها، إنما لكي يبينّ له ما خفي عنه من مأساتها، وذلك لأنه بات معلوماً بأن الجنرال مارتان كان صديقاً حميماً لابنيّ عمها الدكتور جوزيف والأستاذ لويس زيادة، ومتأثراً بآرائهم عنها، وبما تناهى اليه منهما عن جنونها المزعوم. لقد قصّ عليه الأمير مختار حكايتها بتفاصيلها، وطلب إليه أن يصغي اليها لدى معاينتها بتجرّد، مؤكداً له أهمية التقرير الجديد المطلوب منه، وثقة الناس بحياده، وبأنه انسان نزيه، وعالم شريف، يحكم بوحيٍ من ضميره الحيّ، بعيداً عن أية مؤثرات خارجية.

وهذا هو نصّ التقرير الطبي الذي وضعه الجنرال مارتان، رئيس اللجنة الطبية التي عاينت ميّ في بيتها، ووقّعه منفرداً، كما نُشر في صحف بيروت، منقولاً عن اللغة الفرنسية:

(لقد تبيّنت في حالة الآنسة ميّ تحسناً بارزاً الى حدٍّ يُسمى الشفاء. ان الآنسة ميّ تعيش في منزلها حياة طبيعية، تهتم بالمسائل البيتية كشراء الأغراض، وتدوّن حساباتها تدويناً دقيقاً، فتتناسب نفقاتها مع مدخولها المقنّن كما انها تقوم بأعمال أدبية، وتهيء مؤلفاً عن الفينيقيين في قصائد هوميروس، وتستقبل أصدقاءها، وتشترك بالأحاديث بسرعة خاطر، ولغة أنيقة. مزاجها يقظ ومرح، ولكنها تشكو من قلّة مدخولها الناتج عن دعوى الحجر لأنها لا تستطيع أن تسحب مالها من المصارف.

وتحسّ الآنسة ميّ بألم مبرّح عندما تسمع كلمةً تذكّرها بالحجر عليها الذي لا ترى له مبرراً. وهذه انعكاسات طبيعية بعد الشفاء. ان صحتها الجسدية ممتازة، ونشاطها طبيعي، وهذا ما يجعلني أرى أنها قادرة على حياةٍ اجتماعية مستقرة، وأنها جديرة بإدارة أملاكها وشؤونها بنفسها)[1].

وأخيراً لا بُدَّ من ذكر مساعي أصدقاء ميّ «المنقذين» إبان تلك الحقبة

---

(١) جريدة «النهضة» ـ ١٤ ـ ٥ ـ ١٩٣٨ ـ والمكشوف ـ ١٤ ـ ٥ ـ ١٩٣٨ ـ ص: (٩).

في سبيل تنبيه المسؤولين في لبنان، وسائر بقاع العالم العربي، الى حقيقة ما كان يجري من ضغوط على المحكمة لعرقلة سير الدعوى في مجراها الطبيعي.
كانت تلك المساعي الحميدة تجري على قدمٍ وساق، من مقابلات شخصية أجروها مع شخصيات رسمية في لبنان والأردن وسورية ومصر، الى رسائل وجّهوها إليهم ليقينهم بأنه كفاها ما لاقته من ظلم في وطنها، وعذابٍ في حياتها. كما انه ينبغي ان يذكر موقف الأديبة الرائدة سلمى صائغ المشرف إبان مأساة ميّ اذ كانت تعمل بصمت، وتلتقي مع كبار المسؤولين من قضاة، ووزراء من أجل إيضاح ملابسات الدعوى المقامة عليها أمام القضاء.
وهنالك انسان آخر من ذوي الأريحية تطوّع لمناصرة ميّ، هو النائب الأردني خليل سكر[1]، صهر الأستاذ جبر ضومط الذي كان مقيماً في عمان، وكثير التردد على بيروت. فقد قابل الأمير عبدالله وأطلعه على ما حلّ بالنابغة ميّ منذ بداية مأساتها الى وصولها أمام القضاء، ثم طلب منه التوسط شخصياً لدى رئيس الجمهورية اللبنانية الأستاذ اميل اده لكي يضع حداً للضغوط التي يمارسها أنسباؤها على السلطات القضائية والسياسية. كان سموّ الأمير عبد الله على معرفة وثيقة بأدب ميّ ومكانتها، فتحمّس للموضوع، وكتب رسالة الى الرئيس إده حملها اليه الأستاذ سكر بيده، هذا نصها:

(فخامة الرئيس الجليل للجمهورية اللبنانية،

ما كنت لِأتداخل بأمرِ أحد رعايا لبنان لولا الرجاوات العديدة من كرام العوائل، ورجالات العلم والأدب من لبنان لأكون الملتمس عنهم من فخامتكم لتساعدوا الآنسة الشهيرة ميّ، لخلاصها من المأزق الذي قيل ان

---

(1) خليل سكر - ١٨٨٠ - ١٩٦٦ - وجيه اردني، ابن يوسف باشا سكر، ولد في مدينة السلط وتعلّم في عمان وأصبح نائبا. كان صديقاً للأمير عبدالله بن الحسين أمير شرق الأردن ثم ملكها. تزوج ابنة الأستاذ جبر ضومط، هيلانة ضومط سنة ١٩٢٢ وقضى قسما من حياته في لبنان.

البعض من أقاربها وضعوها فيه. وللأمل في انكم تحلّون كتابنا هذا محلّ القبول، حُرّر مع مزيد الشوق والاحترام لفخامتكم

عبد الله)[1].

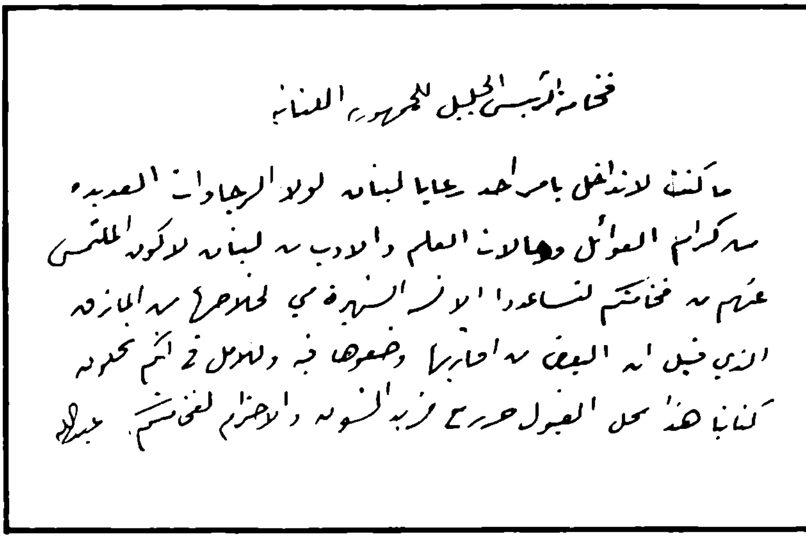

فخامة الرئيس الجليل للجمهورية اللبنانية

ما كنت لأتدخل بأمر أحد رعايا لبنان لولا الرجاوات العديدة
من كرائم العوائل وعقيلات العلم والادب من لبنان لأكون الملتمس
عنهم من فخامتكم لتساعدوا الآنسة مي لخلاصها من المأزق
الذي قيل ان البعض من أقاربها وضعوها فيه وللأمل في انكم تحلون
كتابنا هذا محل القبول حرر مع مزيد الشوق والاحترام لفخامتكم عبد الله

وتلقى الأمير عبد الله على رسالته الجواب التالي:

(حضرة صاحب السموّ الملكي الأمير عبد الله بن الحسين المعظم،

تناولت كتاب سموّكم الذي كان له أفضل أثر في نفسي لما تضمّنه من الشعور السامي، والعطف على سيدةٍ لبنانيةٍ من كبيرات سيدات العلم والأدب، وأحللت هذه الرعاية المحلّ الذي تستحقه. ولما كنت أثق، كل الثقة، بنزاهة القضاء اللبناني، وتدقيقه في إحقاق الحق، فلا شك في انه

(١) تاريخ هذه الرسالة كان في أواخر شهر آذار عام ١٩٣٨ بدليل ان الجواب عليها يشير الى اليوم الثاني من شهر أيار.

سيتخذ يوم الأثنين في ٢ أيار القادم القرار الذي يؤيده العدل، ويحلّه محله في هذه القضية راجياً ان تتفضلوا بقبول أصدق عواطف الولاء والاحترام.

رئيس الجمهورية اللبنانية اميل اده).

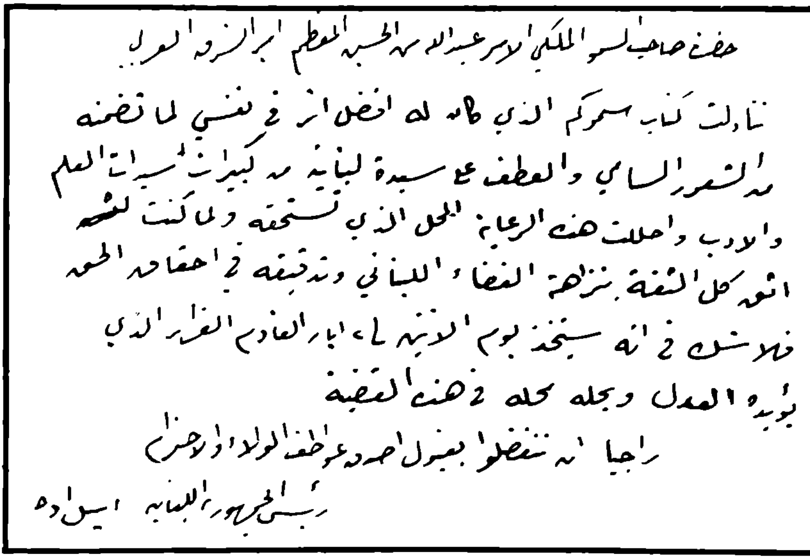
حضرة صاحب السمو الملكي الامير عبدالله بن الحسين المعظم امير الشرق العربي

تناولت كتاب سموكم الذي كان له افضل اثر في نفسي لما تضمنه
من الشعور السامي والعطف على سيدة لبنانية من كبريات سيدات العلم
والادب واحلت هذه الرعاية المحل الذي تستحقه ولما كنت أشعر
أثق كل الثقة بنزاهة القضاء اللبناني وتدقيقه في احقاقه الحق
فلا شك في انه سيتخذ يوم الاثنين ٢ ايار القادم القرار الذي
يؤيده العدل ويحله محله في هذه القضية
راجيا ان تتفضلوا بقبول اصدق عواطف الولاء والاحترام

رئيس الجمهورية اللبنانية اميل اده

وفي التاسع من شهر أيار سنة ١٩٣٨ وجه سموّ الأمير عبد الله بن الحسين رسالة أخرى الى الرئيس اللبناني اميل إده نكتفي بنشر صورة عنها لأنها مطبوعة على الآلة الكاتبة.

كان لا بدّ للحق من أن ينتصر في نهاية المطاف، فقد أخذ العدل مجراه وربحت ميّ المعركة بعد طول عناء! اجتمعت المحكمة في اليوم الأول من شهر حزيران، وردّت دعوى الحجر الملقاة على «أديبة العرب ميّ زيادة» أمام جمهور غفير غصّت به قاعة محكمة البداية في بيروت، كما هو واضح في الصورة المنشورة عنها لاحقاً[١]. فلقد بيّنت المحكمة في قرارها تفاصيل الدعوى، وحيثياتها ثم قررت ما يلي:

(١) يعود الفضل في حصولنا على صورة الحكم في الدعوى رقم ١٦/١٥ التي أقيمت بطلب الحجر على ميّ الى الأستاذ انطون متري الذي تمكّن من تزويدنا بها من وثائق القصر العدلي القديم في بيروت سنة ١٩٧٣.

عبد الله بن الحسين

... [illegible] الاول عام ١٣٥٧

... ٩ / آيار سنة ١٩٣٨

حضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية

اللبنانيّة

الأفخم

عزيزي الفاضل

تلقيت كتاب فخامتكم مغتبطا بوصوله جذلا بما انطوى عليه من نبأ اهتمامكم [illegible] راني محاكم لبنان ولا جرم حريصة على العدل مؤثرة له متمسكة به وانه [illegible] الأديبة المنكودة الحظ ونرجو لها التوفيق .

[illegible] الاعني [illegible] رغبتكم في زيارة شرق الاردن والالمام بوادي موسى واننا [illegible] ذلك اليوم مشوقين اليه متشوفين له ويسرنا ان نجتمع بفخامتكم وان [illegible] هذه البلاد الحافلة بما يروق من الآثار ويشوق فوق ما افضت اليه من [illegible] دائم واستتباب راحة . واليكم اطيب تحياتي واحترامي .

[illegible]

ردّ دعوى المدعي، وتضمينه الرسوم والمصاريف كافةً، بما فيها أتعاب الأطباء التي تقدّرها المحكمة بخمسٍ وثلاثين ليرة لبنانية سورية للدكتور كالميت، وستين ليرة لبنانية سورية للدكتور الجنرال مارتان، قراراً وجاهياً قابلاً للاستئناف أصدر وأُفهم علناً في أول حزيران سنة ١٩٣٨ .

التواقيع: الكاتب، القاضي بيضون، القاضي عازار، الرئيس طباع).

مرضية جداً وطبيعية لدرجة انه يمكنه معها القول بأنه شفيت

وحيث انه طبقاً للحالة المبينة بهذا التقرير اتى عبثاً ازاء ذلك ما ابدى من نقد لاعتبار التقارير الفنية من قبيل المعلومات حيث انها لم تكن قانونية بمعنى الكلمة اذا اضيف الى ذلك اثبات اوضاع الصحة الجيدة للمدعي حيث ان القضاء اجتهاداً مؤكداً على اعتبار المدعى عليه الذي (راجع Carpentier expertise Nos 594 et suiv)

وحيث ان معاينة الجنرال مرتان حصلت بتاريخ لاحق للتقارير التي سبقتها والتي هي حالة المدعى عليه الآن وليس بحالته الماضية

وحيث ان المحكمة ترى وجوب تقدير اتعاب الاطباء الذين استمعت اليهم بخمس وثلاثين ليرة لبنانية سورية للدكتور ميلر والدكتور هارون وخمس واربعين ليرة لبنانية للدكتور لبيب لانه تقدم بعدة فحوص عن المدعى عليه ثم استقبله لما استقدمه هذه التقارير المبرزة وبخمسين ليرة للدكتور الجنرال مرتان لانه اتى بتقرير اضافي بعد معاينة المدعى عليه اخذاً بعين الاعتبار المحكمة جملة الاسباب التي صرفت عليه للاطلاع عليه

لهذه الاسباب وبعد سماع المطالعة

تقرر رد دعوى المدعي وتضمينه الرسوم والمصاريف واضافة لها اتعاب الاطباء التي تقدرها المحكمة بخمس وثلاثين ليرة لبنانية سورية للدكتور ميلر والدكتور هارون وبخمس واربعين ليرة لبنانية سورية للدكتور لبيب وبخمسين ليرة لبنانية سورية للدكتور الجنرال مارتان حكماً وجاهياً قابلاً للاستئناف اصدر وافهم علناً في اول حزيران ٩٢٨

الكاتب — القاضي بيلوس — القاضي عازار — الرئيس صباغ

بأن يتوقف عن النظر بها

وحيث من المعروف أن المبدأ القانوني الواجب التطبيق بالدعوى الحاضرة أنه من الواجب معرفة ما إذا كانت الشرائط التي ينبغي أن تتوفر في الدعوى لتطبيق هذا المبدأ متوفرة فعلاً أم لا

وحيث أنه استقر الاجتهاد والفقه على عدم إمكان تطبيق المبدأ المذكور حينما كانت الدعوى قيد النظر لدى محكمة وطنية ومحكمة أجنبية لأنه لا يجوز للقضاء الوطني أن يتنازل عن ... لصالح القضاء الأجنبي (راجع Carpentier litispendance ... et ...)

- ... الأجنبية أنه غير صالح للنظر بالدعوى الحاضرة عملاً بالمادة ٩٨ من الأصول المدنية

وحيث علاوة عن ذلك ... عدم جواز تطبيق هذا المبدأ في حالة وجود دعوى لدى محكمتين الواحدة منهما أجنبية فإن الاجتهاد استقر على القول أنه من الواجب الإدلاء بالدفع المتعلق بوجود ذات الدعوى لدى محكمة أخرى litispendance قبل البحث بالأساس وذلك in limine litis لأن هذه المسألة ليست من المسائل التي تتعلق بالنظام العام (راجع Carpentier ibidem ...)

وحيث أن الجهة المدعية التي أقامت هذه الدعوى لدى هذه المحكمة لم تتعرض إلى هذه النقطة إلا بعد أن أصبحت هذه الدعوى جاهزة للحكم

وحيث من جهة أخرى لم يتبين من أن الدعوى التي فصل بها القضاء المصري قد تقدمت إليه قبل تقديم الدعوى الحاضرة لدى هذه المحكمة للقول بأنه من الأولى بالحكم لدى المحكمة المصرية الأمر الذي يحتم فصله بالإدلاء بالدفع المذكور

وحيث يستفاد مما تقدم أنه على هذه المحكمة أن تنظر بالدعوى دون أن تتوقف عنها لهذه العلة

ثانياً في الأساس

حيث أنه على المحكمة أن تتوسل بجميع الطرق التي تؤدي إلى معرفة الحقيقة ومنها استجواب المطلوب إلقاء الحجر عليه شخصياً

وحيث أن المحكمة استفادت من استجوابها للمدعى عليها بأن حالة عقلها لا تستوجب إلقاء الحجر عليها لما ظهر لها من سلامة العقل رغم استهدافها الطبيعي من تقدم سنها وكبر ...

وحيث إذا كان من المحتمل كما يستفاد من تقارير الخبراء السابقة أن المدعى عليها كانت في الماضي مصابة بضعف قواها العقلية فإنه لم يتبين من أثر لذلك في

لدى التدقيق والمذاكرة

بعد الاطلاع على الاستحضار المقدم من الأب يوسف زيادة في ١٧ شباط ١٩٤٨ الذي يطلب بموجبه دعوة الآنسة جل ابنة المالك زهير زيادة قسماً للحكم بالحجر عليها لخلل في عقلها مع تعيين الموقف مؤقتاً عن شخص الوصي لأنه حصل منها المدعى عليها إلى دوكلة حتى بأنه يأخذ اداريا التدابير اللازمة من جهة ادخال المدعى عليها في مستشفى من آثار الحجز وبعد استماع مرافعات الطرفين وتنفي المدعى عليها شفاهاً في منزلها

وبعد الاطلاع على تقرير الخبراء المعينين اداريا وهم الأطباء جبران مربا ... وخالد ... واستماع افادتهم الشفهية وانزال الدكتور مارسيه الذي ... تقريراً عن حالة المدعى عليها العقلية وان الخبراء ... المذكور

وبعد الاطلاع على قرار هذه المحكمة الى ... القاضي بفحص المدعى عليها مرة أخرى من الأطباء المذكورين ... على معاينتهم اياها مدة يجوز ... تكون حالة المدعى عليها قد تحسنت

وبعد الاطلاع على تقرير الأطباء المذكورين الموضوع بهذا القرار والذي يفيد عدم امكانهم مقابلة المدعى عليها التي ... وبعد الاطلاع على تقرير الطبيب جبران مارسيه الذي ... في ... الأمر ... المدعى عليها

وبعد الاطلاع على الافادة الصادرة من ... الى ... محلي ... القاهرة ... بتاريخ ١٩ شباط ١٩٤٨ القاضي بالحجر على المدعى عليها لضعف في قواها العقلية وتعيين ... صاحب العزة خليل ثابت بك ... حجرها ... عليها

حيث ان المحكمة ان تبحث اولاً في تأثير الحجر المقرر في الدولة المصرية على الدعوى الحاضرة

حيث انه ... ان القرار القاضي بالحجر ... المجلس الحسبي في القاهرة بتاريخ ١٩ شباط ١٩٤٨ اي اثناء النظر في هذه الدعوى لدى هذه المحكمة

وحيث ان المسألة لا تتعلق ... باختصاص المحكمة لأنه كان يجب ان يكون صدر القرار في ... قبل اقامة هذه الدعوى بل بوجود دعوى اخرى في الموضوع نفسه لدى محكمة اخرى litispendance بل ان ... والأصح ... هذا الباب مسألة مفعول الأحكام التي قد تكون صدرت من محكمة اثناء النظر بالدعوى لدى محكمة اخرى (راجع A. de Lapradelle et J. P. Niboyet, Répertoire de droit international t. IX, litispendance et connexité ch. IV et No 13 et suiv.)

أما فيما يتعلق بالاستئناف فقد صرف النظر عنه ابن عم ميّ المدعي عليها ومن وراءه في إثر فوزها بحريتها الكاملة، بل في أعقاب معركة قضائية، وضجة أدبية، لم يسبق لها مثيل في تاريخ القضاء وتاريخ الأدب في لبنان. ولا شك مطلقاً في أن حكم المحكمة جاء دليلاً على نزاهة القضاء في لبنان، وان القانون هو نصير المظلوم كما قال فيلسوف الفريكة أمين الريحاني عندما أخفقت مساعيه الحثيثة السلمية مع المفترين على صديقته النابغة ميّ.

بعد نشوة الظفر

(الآن، ولمّا أخلص بعد من تلك الاعاجيب الرهيبة، الآن أشك في بعض أوقاتي في ان ذلك حدث يقيناً. أيحدث لي كل ذلك مما شهد أصحابي ومما لم يشهدوا فلا أموت، ولا يبيض مني الا الشعر؟ أيحدث كل ذلك، وأعرف من طبيعة الشر في الانسان اكثر جوانبها ادلهماماً وفظاعةً ومراوغةً، فأبقى على ما أنا واثقة بطبيعة الخير في الانسان، مطمئنة الى عدل الحياة، شغوفة بكل صنوف الجمال، نازعةً الى كل مثلٍ سامٍ، وكأن عمري ونشاطي يتجددان كل صباح مع شروق الشمس؟

ميّ)[1]

هذه هي ميّ في جبروت إرادتها، ونبل شيمها، ونقاوة سريرتها، وجمال روحها بعد المأساة! وهذا ما كتبته الى صديقها أمين الريحاني بعد الظفر، بعد خروجها من النفق المرعب الذي ألقاها فيه أهلوها. لقد بلغت شاطىء الأمان بأعجوبة، وكأن القدر الذي أمعن هو أيضاً في ظلمها أراد ان يرأف بها لأنها كانت جديرةً بالرأفة، مستحقةً الرحمة لصمودها في وجه الأعاصير صمود الجبابرة، ولنجاحها في المحنة التي هي، ككل محنة في حياة الانسان، امتحان لارادته، وإيمانه وصبره على النكبات!

تلقت نبأ فوزها بحريتها وبكرامتها المطعونة يوم صدور حكم المحكمة من الأديب الكبير المعجب بها راجي الراعي، الذي كان ممثل النيابة في

---

(١) الريحاني ومعاصروه ـ ص: ٣٦٤.

قضيتها، فكان أول من وصل الى بيتها من المهنئين في ذلك اليوم فهنأها، وطمأنها الى استحالة اقدام الجهة المدعية على طلب الاستئناف اذ لم يبق أمامها حجة تتذرع بها امام القضاء. ثم انهالت على ميّ رسائل التهنئة، من كل حدب وصوبٍ، من الذين تابعوا مأساتها باهتمام كبير، وكان من أجمل ما تلقت رسالة من النائب السوري، الوطني الكبير، الأستاذ فخري البارودي، هذا نصّها:

(حضرة الكاتبة المبدعة الآنسة ميّ زيادة حفظها الله

تحية العروبة وبعد فإني أهنئك، بل أهنىء أنفسنا، ولا ألوم أحداً على ما نزل بك من اضطهادٍ وظلم، بل ألوم أنفسنا. وما كانت قضيتك قضية ميّ زيادة وحدها، بل قضية الفكر الذي ديست كرامته، والثقافة التي عُبث بحرمتها، والأدب الذي امتهن قدره، والعبقرية التي أرادوا أن يطمسوا نورها!.

لقد كانت قضيتك قضيتنا، ومصيبتك، وها قد انجلت الغمّة، وزالت العتمة، فأهنئك وأهنىء الأدب الذي عدتِ له ولنا، والله يحفظك للمخلص.

رئيس المكتب العربي القومي

دمشق في ٤ - ٦ - ١٩٣٨   محمد فخري البارودي)[١]

وفي اليوم ذاته كتب إليها من دمشق، ومن المكتب العربي القومي الأستاذ المرتيني رسالة عبر فيها عن عتبه على تقاعس المرأة العربية عن نصرتها بهذه العبارات:

(... وشدّ ما يؤلمني أن يكون الرجل وحده هو الذي دافع عن ميّ في مصيبتها، وتظلّ الكاتبات - ان كان ثم كاتبات سواكِ - في راحة بالٍ وهدوء، لا يعنين الا بزينتهن، ولهوهن، ومتعهن.

وفي ظني انكِ، في كل ما كتبت، لم تكتبي الا للرجل فمنه مصابك، ومنه استعبادكِ، ومنه ظفركِ هذا.

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص: ٤٦٣.

ألا فاكتبي الملائح على الصخر، والقبائح على المـاء وتحيةً ممّن رآكِ ساعة، وسيعجب بكِ أبداً.

٤ حزيران ١٩٣٨ م. ن المرتيني)[١]

كان الأستاذ المرتيني محقاً في تعجبه من موقف المرأة العربية السلبيّ إبان محنة ميّ، ولكنه أخطأ في قوله ان ميّ لم تكتب الا للرجل لأنها اهتمت اهتماماً كبيراً في رسالتها الأدبية بيقظة المرأة، وبذلت الجهد، تلو الجهد، لدفعها الى ارتقاء سلم الحرية والكرامة، وكثيراً ما ناصرت الجمعيات النسوية في مصر ولبنان وسائر الأقطار العربية. ولقد ظلّت ميّ تشعر بمرارةٍ في نفسها لتواني الكاتبات والجمعيات عن الدفاع عنها، أو على الأقل عن استنكار ما حلّ بها، فإن صوت النساء اللواتي عاصرنها، وأسهمن في تمجيدهـا إبان عزها، لم يُسمع في محنتها الا همساً، أو ضمن نطاقٍ محدود. ولكنها استثنت أعضاء الجمعيات النسوية السورية والفلسطينية اللواتي ارسلن برقيات احتجاج على اضطهادها وظلمها، إبان النظر في قضيتها، نشرتها الصحف اللبنانية. كانت السيدة سنية عطا الأيوبي رئيسةً لجمعية نقطة الحليب الخيرية بدمشق آنئذٍ، وعضواً في الاتحاد النسائي السوري، ومن السيدات الفاضلات اللواتي عرفنها وقدرنها، وسعين مع أفراد أسرهن لإنقاذها. ولقد اعترفت ميّ بفضلها في رسالة وجهتها إليها من القاهرة، بعد رجوعها إليها، فكتبت لها في الثامن من تموز خطاباً هاماً ختمته بهذه العبارات:

(... أما خطابك الذي فات عليه أكثر من سنة فلم انتظره لأعرف ما أنتِ عليه من «سناء» حسّي وأدبي، لأني أدركت ذلك فيكِ، منذ زيارتك الأولى لي، في مستشفى ربيز. وكانت كل زيارةٍ منك تزيدني معرفةً بكِ، وتكشف لي عن ناحيةٍ فيكِ جميلة. فأشكر لك خطابكِ ولو شكراً متأخراً بالكتابة، ولكنه لم يكن في قلبي متأخراً، وأشكر لك عطفك الحلو الرقيق.

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٦٤.

وأطلب اليكِ ان تنوبي عني بتقديم خالص شكري الى الجمعيات النسائية التي تفضلت بإرسال تلغرافات بإسمها (وأعرف من هي الحافزة!) الى الصحف ببيروت ابان النظر في قضيتي. شكراً لك وللأخوات جميعاً، وان قضيتي كانت مقدمة الفرصة لظهور الجمعيات النسائية، وقد تخاذلت جمعيات بيروت أمامكن، وأمام جمعيات النساء الفلسطينيات، ولا عجب فاني، منذ زمنٍ طويل، أعرف همّة نساء دمشق، وأنت عندهن لي خير رسول.

ميّ)[1].

لقد كتبت ميّ «الملائح على الصخر» وتعذّر عليها أن تكتب «القبائح على الماء»، على حدّ تعبير الأستاذ المرتيني في رسالته إليها، لشدّة ما كانت متألمة من العقوق، علماً بأن الحقد لم يكن في يومٍ من الأيام من الخصال التي فُطرت عليها. وإن من ذاق من أقرب الناس إليه ما ذاقت يصعب عليه أن ينسى الهوان، علماً بأنها حاولت كثيراً أن تنسى، وأن تصفح، ولكن دون جدوى.

أوعز اليها أصدقاؤها في تلك الفترة بزيارة رئيس الجمهورية اللبنانية لشكره على موقفه من قضيتها فزارته في الواحد والعشرين من شهر حزيران، ومكثت لديه وقتاً طويلاً، أعجب خلاله بدماثة خلقها ونبوغها. ولما شكرته على موقف السلطات اللبنانية منها، واهتمامه بقضيتها قال لها الرئيس إميل إدّه: «ان الحكومة اللبنانية والشعب العربي كله حريصون على راحتها وحريتها، وان وطنها فخور بها وبأمثالها الذين رفعوا إسمه عالياً في الشرق وفي الغرب على السواء». نشرت صحف بيروت هذا النبأ فكتب الأستاذ خليل الخوري الى ميّ من مصيفه في «ضهور الشوير» الرسالة التالية عاتباً ومؤنباً:

(سيدتي الآنسة ميّ

يظهر انك زرت أمس فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية، ولم نعلم بهذه الزيارة الا من جريدة النهار، انظري الصفحة الرابعة.

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٥٠٤.

لعلك قد استحسنتِ فكرة الكتابة الى مولانا سموّ الأمير عبد الله بن الحسين بعد انعام الرويّة والتفكير المليّ، فان كانت الأنفة تمنع الانسان من الدفاع عن نفسه، وهذا ما لا يوافقك عليه أحد من الناس، فلا أحد بالأولى يوافقك على الامتناع عن شكر هذا العظيم الذي اندفع في سبيل الذود عنك. فافعلي ما يُنتظر بداهةً فعله من النابغين والخاملين على السواء، واقلعي عما يفعله من لستِ من مرتبتهم، والله يوفقك الى الصواب.

المخلص: خليل الخوري[1].

نستدلّ من عبارات هذه الرسالة، ومن سائر رسائل الأستاذ خليل الخوري الى ميّ انه كان أجرأ «المنقذين» في مصارحتها، وأقساهم لهجةً في تأنيبها على عنادها، ونفرتها من استقبال بعض الأصدقاء، أمثال الأستاذ خليل سكر ومارون غانم[2]. وما كان الأستاذ خليل الخوري ليفعل ذلك الا بدافع حبه لها، وحرصه على مصلحتها في شتى الظروف لذا كانت تتقبل تعنيفه وانتقاداته وتوجهاته، وتأخذ بنصائحه ليقينها بأنه صديق مخلص، ورجل جليل القدر، في عمر أبيها، لا يبغي من تجرّئه عليها وصراحته معها سوى مصلحتها. وما فتىء الأستاذ خليل الخوري يسعى هو وأهل بيته وأشقائه للترويح عن نفسها، والتخفيف من كربها، منذ ان عرفها، وحتى بعد زوال المحنة عنها. كان له عدة أولاد يصحبهم أحياناً لزيارتها نزولاً عند طلبها، فكانت تسامرهم، وتمازحهم، فأحبوها حباً جماً، ولا سيما كبيرهم «سمير» الذي كانت تدعوه «المهندس الصغير». كان سمير عام ١٩٣٨ شاباً بارعاً في فكّ وتركيب جهاز الراديو، وتصليح أي عطل يطرأ على التمديدات الكهربائية في البيت، وكثيراً ما كانت ميّ تستدعيه لتستعين بحذقه وخبرته لدى تعطّل أي شيء في بيتها، فيلبي طلبها مسروراً بخدمتها، وفخوراً بتقديرها له. ولقد كبر سمير الخوري ودرس الهندسة وتفوق في دراستها وأضحى مهندساً مرموقاً!

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ ص: ٤٦٦.

(٢) جميع الرسائل المنوّه بها منشورة في كتابنا: ميّ زيادة وأعلام عصرها.

قضت ميّ في بيتها المؤقت في رأس بيروت خمسة أشهر ونصف: من تاريخ انتقالها إليه في ١٤ - ٢ - ١٩٣٨ الى تاريخ مبارحته الى مصيف «الفريكة» في جبل كسروان، في نهاية شهر تموز من العام ذاته. وكانت تلك الأشهر من أيام عمرها الهانئة، على ما تخللها من هزاتٍ مزعجة، ومضايقات متنوعة: تنام مطمئنة، وتصحو متفائلة، ولا تشعر بفراغٍ أو غمّ. كانت دارها لا تخلو من زيارات أولئك المنقذين النبلاء الذين آلوا على أنفسهم، رجالاً ونساءً، ألا يتركونها وحدها، لا في النهار ولا في الليل، خشية ان تطبق ذكريات ماضيها الحزين على صدرها، وتصيبها بنكسة ما. لقد كانوا رسل الرحمة في مأساتها، والدواء الناجع لتعزيتها وتقويتها، بل الثروة العظيمة التي جنتها، ونعمت بها، في أحلك سنوات عمرها. وهذا ما يدلّ على ان لكل غيمةٍ سوداء بطانةً فضية، كما يقول المثل الانكليزي الذي كانت تستشهد به في أحاديثها مع آل الريحاني والخوري والجزائري وسائر المنقذين.

استطاعت ان تحوّل ذلك المنزل الصغير العتيق الى بيت بهيج في ترتيبه وتزيين أركانه ونوافذه بالنباتات والأزهار بفضل ذوقها الرفيع، وعنايتها الفائقة بها إذ كان اعجابها وشغفها بالأزهار والنباتات ظاهرة بارزة في حياتها، كشغفها بالموسيقى والغناء والفنون الجميلة. أدرك اصدقاؤها تأثير ذلك على نفسها فكانوا لا يأتون يوماً لزيارتها الا حاملين هديةً صغيرة: اسطوانة لعبد الوهاب أو أم كلثوم، أو زنبقة واحدة، أو ضمة ياسمين من حدائقهم، فكانت أسارير وجهها تهلّل فرحاً، فتتلقى الهدية شاكرة وتقول:

ـ إذا كان ماء الزهر منعش للقلب والروح فان ما تحملون اليّ بأيديكم السخية هو رشات منه معطرة تبهج فؤادي المتعب، وتحيي روحي، وتجمّل أيامي في كنفكم!

وهنالك وفود من الشباب والأندية الثقافية والأدبية كانت تسعى لزيارتها لسببين: الأول للتعرف الى نابغة فريدة في عصرها، جذبت الناس إليها، وأثارت فضولهم، والثاني للقيام بواجب الوفاء والتكريم لها. كان أول وفدٍ

وافقت على استقباله وفد الشباب القوميين السوريين فرحبت بهم ترحيباً حاراً، وشكرتهم على أريحيتهم، وذكرت لهم فضل زعيمهم الأستاذ انطون سعادة في مناصرتها ابان المحنة. ولقد نشرت جريدة «النهضة» خبر تلك الزيارة وعلّقت عليه بما يلي:

(كان في مقدمة وفد الأدباء القوميين الأساتذة عبد الله قبرصي، وفؤاد سليمان، وبهجت الخولي، وقد حملوا الى الأديبة الكبيرة باقةً غضةً من أزهار البلاد، وأرفقوها ببطاقةٍ كتبوا عليها العبارات التالية: «هذه باقة من ألوان بلادكِ تحمل اليكِ شعور شباب بيروت القومي واخلاصه». وقد استقبل الوفد الأستاذ أنيس ناصيف، والآنسة بدرية الأيوبي، والآنسة استر واكيم. ولما أُدخل الوفد على الأديبة الكبيرة استقبلته ببسمةٍ هادئة كانت تطوف على شفتيها، وعلى وجهها الشاحب.

وقد شكرت الأديبة الكبيرة للوفد القومي شعوره وإخلاصه، وأعربت عن سرورها بهذه الضمة من الازهار لما للأزهار في نفسها من قيمة معنوية كبيرة. وكانت في صوتها موسيقى عذبة، وفي عينيها فتور حلو، وفي وجهها شحوب عميق عذب)[1].

ولا بد من ذكر أسماء الشخصيات النسوية التي كانت تزورها في ذلك البيت، وتحضر الندوات الأدبية والجلسات الودية التي كانت تُعقد فيه، فالى جانب الآنسة بدرية عطا الأيوبي كانت شقيقاتها السيدتين أمينة حرم الأمير كاظم الجزائري، وسنية حرم المرحوم وجيه الأيوبي، والآنسة بشرى الأيوبي يتردّدن على زيارتها، ويجدن بابها وقلبها مفتوحين لهن. كما كانت الأميرات الجزائريات: أمينة حرم الدكتور أحمد الشريف، وسامية حرم الأمير مختار الجزائري، وشقيقتها زهراء حرم الأمير خالد الجزائري من أقرب السيدات اليها، وآثرهن لديها. وهنالك السيدة هدى صليبي حرم صديق ميّ القديم

---

(١) جريدة «النهضة» ـ عدد ٢٠ و ٢١ فبراير ١٩٣٨.

الأستاذ جبر ضومط، وشقيقتها حرم الوجيه الأردني خليل سكّر، وعائلات كل من الأساتذة أنيس ناصيف وفؤاد حبيش وخليل الخوري، والأديبتين السيدتين نجلاء الكفوري وسلمى صائغ.

كانت ميّ تحمل للأمير البطل عبد القادر الجزائري أسمى مشاعر الاجلال والاعجاب، منذ مطلع حياتها، فساقت اليها الأقدار الرحيمة عدة اشخاص نبلاء من سلالته ابان مأساتها، ووجدت فيهم وفي اللائذين بهم الحنان والحب والعطف، وكل ما حُرمت منه آنذاك، عندما نزلت بها النوازل، وقست عليها القلوب، وجار الأنسباء الحقيقيون. فلقد وجدنا في دفتر تحتفظ به الأميرة نجاة الجزائري بامية، ابنة الأمير مختار والأميرة سامية، بضعة أسطر مدونة بخط ميّ هذا نصها:

(ان اسم عبد القادر الجزائري نتلقنه نحن أبناء سوريا صغاراً، ونترنّم في لفظه ونداعبه كما تداعب شفتا الرضيع الأسماء المحبوبة. لقد كتب عنه المؤرخ الفرنسي: «الكونت دي سيفروي - COMTE DE SEVREUILL - في القرن التاسع عشر يقول: «إن عبد القادر فوق الملوك. كرّمه الله فلم يأتِ بنقيصة واحدة، ولو أن النصارى وضعوا صوره في بيوتهم وفي الكنائس، ومجّدوه وقدّسوه كما يمجدون المسيح ويقدسونه لوجدوا أنفسهم مقصرين أمام هذا الرجل العظيم لأنه كان شريفاً في جهاده، ومحباً للبشرية، وثائراً على الظلم.

مـيّ)[1].

ولا بدّ من القول ان بيت ميّ وقلبها لم يكونا مفتوحين لاستقبال سائر

---

(١) اطلعنا على كلمات ميّ المنشورة أعلاه في كراس تاريخي ثمين تحتفظ به الأميرة نجاة الجزائري بامية، وقد وعدت باعطائنا صورة عن الصفحة التي سجلت فيها ميّ كلمتها بخطها ولكن أحداث بيروت الدامية، واضطرار الأميرة نجاة لمغادرتها فجأة عام ١٩٨٢، حالت بيننا وبين نشر تلك الصورة.

الراغبين في زيارتها، ولا سيما أصدقائها القدامى الذين نسوها ابان المحنة فقد وجدوا باب دارها موصدة في وجههم. ومما يؤكد ذلك قول الصحفي الأديب سامي الكيالي، صاحب مجلة «الحديث» الحلبية في مقالة مطولة نشرها إثر مقابلة ميّ آنذاك بعنوان: «ساعتان عند ميّ» فأورد وجود عوامل متعددة كانت تحول دون مقابلتها، وخشية الوسيط الذي فزع اليه ليؤمّن له تلك المقابلة من ان ترفضه لأنه من حلب، وعلى اتصال بنسيبها الأستاذ لويس زيادة، شقيق الدكتور جوزيف زيادة! غير ان الاستاذ خليل الخوري يسّر له الأمر، وقاده اليها اذ لم يكن الكيالي غريباً عنها، بل على العكس تماماً، كانت تعرفه شخصياً من زياراته القديمة لها في مصر ولبنان، وتنشر في مجلته بعض مقالاتها. ومن وصف الأستاذ الكيالي لذلك اللقاء ندرك ما كانت عليه في تلك الفترة العصيبة من حياتها، من تألق فكري، ونشاط أدبي لم يختلف عما كانت عليه قبل المأساة في شيء:

(... وجلسنا نستمع اليها وهي تتحدث كعادتها بلباقةٍ واتزان، وعبارات ذات جرس موسيقي حزين. وقد تفضلت وذكرت «الحديث» أكثر من مرة، وأشارت الى دراسة خاصة كنت نشرتها عن فلسفة الانقلاب التركي الحديث واذا هي تطري هذه الدراسة التي دفعتها الى ان تعقب عليها بمقالٍ كتبت منه ثلاث صفحات سنة ١٩٣٥، حين كانت في مصر، ثم طغت عليها المشاكل، ومرضت ولم تتمّ المقال. وانتقلنا من الكلام عن «الحديث» الى حلب واذا هي تحتفظ بصورة جميلة عن هذه المدينة الوادعة، قالت: «لقد قرأت منذ مدة قريبة كتاباً بالفرنسية عن سيف الدولة». وسيف الدولة عند ميّ اكثر الأمراء شبهاً بلويس الرابع عشر، فكلاهما قد جمعا حولهما الأدباء والشعراء والفلاسفة والفنانين، وكلاهما أغدقا عليهم بسخاء، وكان قصراهما أشبه بصالونات الأدب.

ولم تقف أحاديث ميّ عند هذا الحد بل فاض جنانها بما هو أروع وأبلغ: بتشبيه هذا الشاعر بذاك، وبالمقارنة بين عصريّ سيف الدولة ولويس

الرابع عشر، وكان حديثها أشبه بمحاضرة ممتعة. ثم انتقلنا من موضوع الى موضوع فكانت ميّ، هي هي، الأديبة الكبيرة، الواسعة المعرفة، الدقيقة الحس، الفياضة الشعور، المشرقة الذهن، ولولا هذا الشحوب البادي في وجهها، وهذا الشيب الذي دبّ الى شعرها، وهذا الجرس الحزين الذي ينساب من ثنايا أحاديثها، لما تغيّرت عليّ صورة ميّ الشاعرة الأديبة الموسيقية وهي في صالونها الأدبي في مصر، تستقبل زوارها من الساسة والعظماء، والأدباء، بابتسامتها الساحرة، وروحها الشاعرة التي تشعّ بالعبقرية المبدعة، وما فيها من أدب وفلسفة وحكمة)[1].

وبعد ان أسهب الأستاذ الكيالي في وصف كل ما دار في تلك الجلسة من أحاديث شيقة تبادلها الحاضرون وبينهم المحامي، والمؤرخ، والأديب والطبيب والفنان، وشهد بلباقة ميّ في إدارة المناقشات، وجدّها حيث يدعو الجد، ودعاباتها الرقيقة حيث تدعو الدعابة، ختم مقالته بهذه العبارات:

(وبعد فيا أصدقاء ميّ الذين تغارون عليها، بالله عليكم لا تحولوا بينها وبين أمثالنا! فلولا هذه الجلسة الممتعة لتركت بيروت وأنا أشدّ الناس إيمانا بجنون ميّ... ولكانت خطوط مقالي غير هذه الخطوط، ولكني أحمد الله اني رأيتها في جنة العباقرة الملهمين، في جنةٍ يشتهيها كل عاقل، وكل انسان.

سامي الكيالي)[2].

وذات يوم صحب الأستاذ خليل الخوري ابنة أخيه عبلة لزيارة ميّ، وقد كانت في مقتبل العمر، تنزل في بيروت ضيفة عليه، للتعرّف الى ميّ التي أضحت شغل آل الخوري الشاغل. ولندع السيدة عبلة الخوري، المذيعة العربية «ذات الصوت الذهبي» تصف لنا تلك الزيارة:

(استقبلتنا الآنسة استر واكيم، ممرضة ميّ ورفيقتها في بهو الدار حيث كانت الكتب منثورة في كل مكان، وبعد دقائق دخلت علينا امرأة باسمة،

---

(١) و (٢) مجلة «الحديث» - ج (١٢) - ١٩٣٨ - ص: ٣٩٦ - ٣٩٧.

ذات هيبة محببة، تحْزم شعرها الأبيض بشريطة كحلية اللون، وترتدي فستاناً كحلياً ذا قبّة بيضاء. رحبت بعمي خليل وامـرأة عمي وبي بحرارة، ثم جلست تسأل عن الكبير والصغير، فسألتني عن دراستي فقلت: «اني ادرس في قرية مرجعيون، وهذه أول مرّة أزور فيها بيروت، وأنا مشتاقة للتعرّف اليك، وسعيدة بهذا اللقاء». فنهضت ميّ وقبلتني من جبهتي وهي تعبر عن سـرورها بفصـاحتي لأنني لفـظت القـاف كـما ينبغي أن تلفظ بـالعـربيـة الصحيحة. . . هذا كل ما أذكره عن ميّ اذ لم أعد أرها بعد ذلك اليوم، ولكنني بقيت مأخوذة بشخصيتها، وبحديثها المتنوع الساحر بوجود الدكتور شارل مالك، والأستاذ بولس الخولي، والدكتور قسطنطين زريق، وعمي فائز وعمي فارس الذي وصل يومئذ من دمشق لتفقدها!)[١].

قلما كانت ميّ تخرج من منزلها إبان تلك الفترة اذ لم تكن لديها الرغبة في التنزه، أو التجول في المدينة. وكذلك لم تكن تشعر بالوحدة فيه أو السأم. وقد كان من السيـدات اللواتي استقبلتهم في بيتها آنـذاك المربيـة السيدة وداد قرطاس المقدسي التي قصدتها لغرضين: أولاً لتهنئتها باسترجاع حريتها بعد الغاء الحجر عليها، وثانياً لدعوتها الى حضور حفلة توزيع الشهادات على خريجات المدرسة الأهلية ببيروت. قبلت ميّ الدعوة دون تردّد لاعجابها بتلك المدرسة النموذجية، ولـرغبتها في تشجيـع طالبـاتها، فـاستقبلنها في مسـاء الخامس والعشرين من شهر حزيران سنة ١٩٣٨ استقبالا حاراً، ورحبن بها بنشيد غنينه أمامها. وكانت كلمة ميّ آية في جمال السبك وجمال المعاني، دعت فيها الفتيات إلى النهل من موارد العلم لتنمية شخصياتهن، وخدمة الأسرة والوطن، كما حثتهن على الوفاء للمعلمين، والثقة بالنفس، والتمسك بمكارم الأخلاق. حضر الحفلة جمهور كبير من الأسر البيروتية، وما زالت بعض المتخرجات عـامئذٍ يـذكرن خـطاب ميّ، والسحر الـذي كان يشيـع من

(١) من حديث عن ميّ أدلت به الصديقة عبلة الخوري الينا في بيروت عام ١٩٦٨.

شخصيتها، على الرغم من آثار الإرهاق والحزن التي كانت مرتسمة على وجهها. ونحن لا نغالي اذ نقول ان العطف الذي أحاطها به النساء والرجال في إبان محنتها كان نابعاً من قلوب مُحبةٍ للعدل والخير، وضمائر ثائرة على الجور والظلم. وفي هذا كتبت الأديبة الجليلة السيدة عنبرة سلام الخالدي تقول:

(... ويحزّ في قلبي أن أصف الألم العميق الذي أحسست به، وأحسّ به كل من عرف ميّ لما حاق بها في آخر أيامها من شدةٍ لا يمكن ان يتحملها انسان له ما لميّ من رقة ورهافةٍ، ومن ماض مليءٍ بالعزّ والرفاهية، وعلوّ المقام)[1].

وينبغي الا نغفل دور شخصيات عربية أخرى في مناصرة ميّ نذكر منها رؤساء للوزارة السورية هم السادة: عطا الأيوبي، وحقي العظم ولطفي الحفار، والوزير الأستاذ فائز الخوري. فلقد أتوا الى بيروت لزيارتها في شهر تموز، وراسلوا السلطات المصرية المختصة لرفع الحجر عليها في القاهرة. ولقد وجه الأستاذ خليل الخوري الى ميّ الرسالة التالية من مصيفه في ضهور الشوير، المؤرخة في ١٠ ـ ٧ ـ ١٩٣٨:

(سيدتي العزيزة مي

تحيةً وسلاماً وبعد فاننا نرجو أن تكوني ممتعةً بأقصى درجات الصحة والاغتباط. وقد عزمت أن أزورك مع دولة حقي بك العظم صباح السبت، فنصل اليكِ حوالى الساعة السابعة صباحاً. فالرجاء ان تكوني مستعدة لاستقبالنا في هذا الموعد المبكر، وان تتكرمي باخبار الصديق الأصفى استاذنا الريحاني ليكون في الزيارة، وأطال الله بقاءك، ودمت)[2].

---

(١) جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين ـ عنبرة سلام الخالدي ـ ص: (١٦٧).

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٦٧.

استقبلت ميّ حقي بك العظم وصديقيها الـريحاني وخليـل الخوري اللذين كثيراً ما كانا ينزلان الى بيروت من مصيفيهما لتفقدها، ويصران عليها بضرورة الانتقال الى الجبل. كما استقبلت الشخصيات الأخرى التي ذكرناها أعلاه فكان كل واحدٍ منهم يخرج من دارها وقد ازداد اعجاباً بشخصيتها الفذة، واستنكاراً لمأساتها، وعزيمة على مواصلة الجهد لوضع حدٍّ لمهزلة الحجر الثاني الذي ألقاه عليها انسباؤها أمام المجلس الحسبي في مصر.

كان الذين دعوها للاصطياف بضيافتهم ثلاثة أشخاص: السيدة هدى صليبي، حرم الأستاذ جبر ضومط التي كانت تصطاف في سوق الغرب، في ذلك البيت الجميل «قصر رغدان» الذي عرفته ميّ في حياةِ صاحبه، وشهدت فيه عام ١٩٢٣ حفلة من أجمل حفلات التكريم التي أقيمت لها في لبنان، والأستاذ خليل الخوري الذي تعوّد الاصطياف في ضهور الشوير منذ عودته من السـودان الى لبنان، والأستاذ أمين الريحاني الذي جعل من قرية «الفريكة» الـتي أنبتته في جبل كسروان معقلاً للعلم والأدب والفلسفة، ومكاناً مرموقاً في حياته، وبعد مماته. ولكن صاحبتنا المنكوبة كانت تعتـذر عن قبول تلك الدعوات بلباقتها المعهودة، وبدافع عزة نفسها خشية ان تثقل على الناس بالاقامة عندهم فترة طويلة، لذا آثرت قضاء الصيف في بيروت، واحتمال الحر القائظ والرطوبة على الاصطياف في الجبال الرائعة القريبة من بيروت... ولكن لباقة أصدقائها المنقذين نجحت في اقناعها بان يستأجـروا لها بيتـاً مناسباً، في المكان الذي تختاره على حسابها هي لأنهم سوف يقدمون لها سلفةً وهم واثقون من انها سوف تسددّها من مالها المحجوز في الوقت الحاضر، ريثما يفك الحجز عنه في مصر بدون شك. وبديهي انهم خشوا ان يضر الحر الشديد بصحتها، وأن يضرها اجترار الماضي الحزين في غيابهم عنها، وما هي الا أيام قليلة انقضت على ذلك الاتفاق بينها وبينهم حتى أعلمها أمين الريحاني بأنه وجد بيتاً صغيراً جميلاً معداً للايجار في جوار بيته بالفريكة، وانه دفع رعبونه، فهيأت ميّ نفسها وثيابها وأوراقها وكتبها بمساعدة ممرضتها وصديقتها

استر واكيم، وعزمنا على السفر الى الفريكة في اليوم الأول من شهر تموز (يوليو) سنة ١٩٣٨. لقد أقدمت على هذه الخطوة مسرورة، منشرحة الصدر، ونشوة الظفر التي عششت في قلبها تنعكس على وجهها ونفسيتها وتطلعاتها الجديدة للآتي من الأيام.

* * *

ميّ في «الفريكة» بجوار أمين الريحاني

(قبل أن نصل الى مغارة أفقا في كسروان نشاهد في الجهة الشمالية من سفح الجبل مثال الغدران في بدء تكوينها. فالمياه تنبجس من بين الصخور والطبقات الكلسية في مكانين قد يصيران، بعد الف سنة، مغارتين تتدفق منهما المياه، كما تتدفق اليوم من المغارة الكبرى. قلت هذا لصديقتي الأديبة ميّ، التي كانت جارتنا بالفريكة في صيف ١٩٣٨ فقالت: «وسأعود أنا الى الأرض بعد الف سنة وأزور ذلك المكان لاتحقق صدق نبوءتك!» فقلت: «موعدنا أفقا بعد ألف سنة!»

أمين الريحاني)[1].

كانت رحلة ميّ من بيروت الى الفريكة مغامرةً لا تخلو من المشقة لقلة عدد السيارات آنئذٍ، ووعورة الطرقات الجبلية. وكانت هي ورفيقتها «الآنسة واكيم» وحدهما في سيارة أجرةٍ توجهتا فيها الى «كسروان» وإذا بالسيارة تتعطّل فوق بلدة انطلياس الساحلية، ويتعذر إصلاحها. ليس هذا الحديث رواية من نسج الخيال، إنما هو مستمدّ مما كتبته ميّ بخط يدها، فقد فكّرت بتأليف مسرحية، هذه هي خطوطها العريضة:

«(**الفصل الأول**: «وقوف السيارة فوق انطلياس» ـ لا وسيلة الى اصلاحها وتسييرها ـ المسافرة تنزل منها وتلتفت الى ناحية بيروت آملة مجيء سيارة ـ لا سيارة سوى «عربية شحن ـ الشمس تغيب ـ وصف بيروت والإعجاب بجمالها ـ هلال رمضان ـ السيارة لا تسير ـ مرور البوسطة الى

(١) قلب لبنان ـ أمين الريحاني ـ ص: ٢٦٤ ـ ٢٦٥ .

«عين عار[1]» و«ضهور الشوير» ـ في عين عار أتوموبيلات كثيرة الى الفريكة ـ ركوب البوسطة ووضع الشنطة ـ المسير.

الفصل الثاني: وقوف البوسطة في عين عار ـ البحث عن أوتومبيل ـ ما فيش أوتومبيل! ـ ملزومين تمشي يا ست، ما منقدر نتأخر ـ يَحُّـو البوليس بيلاقيلك أوتومبيل ـ الست بدّهـا تروح عَلْفَريكة ـ وقف فيها الأوتـومبيل ـ حديث مع البوليس ـ السير الى بيت جورج بيك.

الفصل الثالث: العودة من منزل جورج بك الى الساحة ـ مباحثات أخرى عن أوتومبيل ـ أهل الفريكـة ـ بيت الأشقر ـ الدخول الى الدكان ـ حديث مع الجالسين ـ مباحثات في استخدام الحمار بدلاً عن السيارة ـ حمار مثل الغزال بيقمز قمز، مئة أوتومبيل ما يلحقوه ـ بعد اللتيا والتي استقدام سيارة من «قرنة شهوان[2]» ـ ركوب العربية ومعها شخص آخر، والبوليس قـرب السواق ـ البـوليس يقول ليس من المعقـول ان تذهبي وحـدك الى الفريكة ـ السيارة تغادر عين عار.

الفصل الرابع: وهنا توقفت ميّ عن الكتابة). ومن حسن الحظ اننا عثرنا على هذه المخطوطة التي تجلو طبيعتها المرحة، وتقبّلها العقبات بروح رياضية، وخُلُقٍ رضيّ، عوضاً عن مواجهتها بالعبوس والتجهّم، وتحويلها الى كارثة! ان في هـذه الصفحة أكبـر دليل عـلى صحتها العقليـة والنفسية، وشخصيتها القوية التي تغلّبت على أزماتٍ ومحنٍ طول عامين ونصف العام، خليقةٍ بأن تهدّ أعظم الشخصيات.

---

(١) قرية جبلية جميلة ومشهورة بخضرتها ومياهها العذبة على طريق «بكفيا».

(٢) قرية لبنانية جميلة أقل ارتفاعا عن سطح البحر من عين عار والفريكة.

من بيروت إلى الفريكة

الفصل الأول : وقوف السيارة فوق انطلياس – لا وسيلة
إلى إصلاحها وتسييرها – المسافرة تنزل منها وتلتفت إلى
ناحية بيروت آملة مجيء سيارة – لا سيارة تُرى قريبة
– وصف بيروت والإعجاب بجمالها – شحن – الشمس تغيب
– السيارة لا تسير – مرور البوسطة – هلال رمضان –
إلى عين عار وظهور الشوفير – في عين عار اوتوموبيلات
كثيرة إلى الفريكة – ركوب البوسطة ووضع الشنطة .

الفصل الثاني : وقوف البوسطة في عين عار – البحث المسـيد
عن اوتوموبيل – مافيش اوتوموبيل ! – ولازم نمشي
يا شيخ ... ما منقدر نتأخر – يجي البوليس ببلاش فلنمشِ
اوتوموبيل – الست بدها تروح عالفريكة – وقف منها الاوتوموبيل
– حديث مع البوليس – السير إلى بيت جورج كبه –

الفصل الثالث : – العودة من منزل جورج كبه إلى الـ... –
مباحثات اخرى عن اوتوموبيل – أهل الفبركة – بيت الاسعد –
الدخول إلى الدكان – حديث مع الجالسين – مباحثة في
استخدام الحمار بدلاً عن السيارة – حمار مثل الغزال
بيقفز قفز فيه اوتوموبيل ما بيلحقوه – بعد اللتيا والتي
استخدام سيارة من قرنة شهوان – ركوب الفريكة
وحدها شخص آخر والبوليس قرب السواق . البوليس يقول
ليس من المعقول ان تذهبي وحدك إلى الفريكة – السيارة
تغادر عين عار

الفصل الرابع :

بوسعنا ان نتصوّر انشغال بـال آل الريحاني على الصديقة الغالية التي تأخر وصولها الى الفريكة، ولكن الله سلّم، ووصلت ميّ، في ساعةٍ متأخرة فتلقتها الأذرع بالفرح والحنان، والقلوب بالبهجة والتهليل. كان ينتظرها في بيت الريحاني العريق صديقها الكبير أمين الذي كفّر عن غيابه عنها في أشهر مأساتها الأولى، وشقيقته الفاضلة «الست سعدى» وأخوه الأديب ألبرت[1]، وبعض المصطافين من آل صادر الذين دُعوا على العشاء احتفالاً بقدومها. وكان ينتظرها في الفريكة بيت صغير، على بعد خطوات من بيت آل الريحاني لتقيم بجوارهم فيه، يطلّ على سفوح جبل صنين الشامخ شرقاً، وعلى وادٍ من أبدع وديان لبنان شمالاً، وعلى البحر الأبيض المتوسط غرباً.

أقامت ميّ في ذلك المنتجع أربعة أشهر حققت خلالها حلمها القديم بتذوق جمال وطنها الذي تتعشقه، ورشفت من رحيق الصداقة المثلى التي تؤمن بها. كان رفاقها في تلك الحقبـة الهانئـة أصدقـاء يودونها، وطبيعـة تسحرها، وكتب نفيسة تطالعها، وأوراق بيضاء يجري عليها قلمها ويدوّن صفحات من نور وصفحات من نار... اما الصفحات التي تضهج بالنور فتلك التي خصّت بها أصدقاءها المنقذين، ووصفت فيها مواقفهم الشهمة، ومشاعرهم النبيلة، وأما الصفحات التي تحرق الأعصاب كما تحرق النار الجلود فتلك التي سجلت فيها ذكريات «العصفورية» الموجعة. وقد حدثت أصدقاءها المقربين عن هذين الكتابين اللذين شرعت باعدادهما في الفريكة وجعلت عنوان الأول: «المنقذون» وعنوان الثاني: «ليالي العصفورية» ولكن الأيدي الأثيمة حجبت المخطوطين بعد وفاتها خوفاً من الفضيحة. وعسى أن يهدي الله الجيل المعاصر من انسبائها الذي انتهت إليه هذه الفصول فيعمد الى نشرها، ويبرهن بذلك انه بريء من ذنب الآباء والأجداد!

في الفريكة اندمجت الكاتبة مع الطبيعة الرائعة، وأضحت متحررة،

---

(١) من حديث الأستاذ البرت الريحاني الى كاتبة السيرة في لقاءٍ معه في الفريكة بتاريخ ١٥ ـ ٥ ـ ١٩٧٣.

سعيدة، إذا تنزهت استمتعت بكل لحظة ومشهد، وإذا انفردت بنفسها لتقرأ، أو تكتب أو تتأمل، أو تعدّ طعاماً أحست تسرّب النشاط في عروقها من جديد. وكثيراً ما كانت تتسلى باعداد الطعام مع فتاة قروية أحضرها صديقها الريحاني لمساعدتها، ذلك لأنها جرت على هذه العادة منذ زمنٍ بعيد، ولم تجد غضاضة حين قالت لأحد الصحفيين: (... وأنا فعلاً قد أكون منكبةً على كتب الأدب أو الفلسفة ثم أقوم الى التطريز أو المطبخ)[١].

وفي الفريكة أتيح لميّ ان تشعر بالأمان، فازداد وزنها، وعاد البريق الى عينيها، والابتسام الى شفتيها. لقد كانت في شوقٍ كبير الى الاستمتاع بطبيعة وطنها، دون تقيّد بمواعيد العمل والسفر والحفلات، فقد عبرت عنه فيما مضى في إحدى رسائلها إلى الأستاذ جبر ضومط فقالت:

(يا قمم لبناني ما أسعد الضاربين في ربوعك، المتفيئين ظلالك، الموقعين أحلامهم على تدفق مياهك!)[٢].

فكيف لا تغمر السعادة روحها وقد أضحت أخيراً من الضاربين في ربوعه، المتفيئين ظلاله، الموقعين أحلامهم على تدفق ينابيعه، الذين غبطتهم في شبابها وهي مغتربة عنه، تزوره زيارات خاطفة فتغادره ولهيب الشوق اليه يستعر في قلبها؟ وكان أكثر ما يشوّقها اليه، الى جانب مياهه وهوائه وسكينة أحراجه: معناه الذي تحدثت عنه في رسالة الى جبر ضومط فقالت:

(كم أتوق الى لبنان ومعناه! كم أتوق اليه، ليس في مصايفه المنظمة على أحدث طراز، بل في قراه المتروكة، وأنحائه المهجورة حيث العيشة ما زالت على الفطرة، لا يبالي أهلها بالأزياء الحديثة، والمصطلحات العصرية! أتوق اليه في كهوفه وغاباته وأنهاره وقممه، أتوق الى كل شجرةٍ، وكل جلمودٍ فيه، والى كل معنى من معانيه. أتوق الى الحياة اللبنانية البسيطة، ولا سيما

---

(١) مجلة المدرسة الخديوية ـ العدد ١١ ـ شهر فبراير ١٩٣٢ ـ ص: (١٠١).

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: (٢٢٤).

عندما أراني مرغمةً على تغيير ثوبي مراراً كل يومٍ في هذا «الكازينو»[1] العامر بالحياة الاجتماعية الصرفة، والمعاني السطحية الفارغة الا من طلب اللهو، وقتل الوقت)[2].

في الفريكة اذن قُيّض لميّ ان تنعم بحياة البساطة والدعة بعد الهزات العنيفة التي ضعضعت كيانها، فأخلدت إلى الراحة بجوار صديقها أمين الريحاني، في قريته الوادعة حيث كل من فيها يعتز بهويته الأصيلة. هنالك فقط تحقق حلمها القديم بخلع أثواب المدنية المستوردة، والانعتاق من القيود الاجتماعية. وهذا ما جعل تلك الأشهر الأربعة بين آل الريحاني والقرويين البسطاء من أهنأ أيام عمرها. أما فيلسوف الفريكة وأهله وأبناء عشيرته فقد كانوا سعداء بجوارِها، يسهرون على راحتها، ويحترمون حريتها، فلا يزورونها الا اذا رغبت، ولا يدعونها للقيام بنزهة أو المشاركة في وليمة الا اذا أبدت استعداداً. ولا بد من القول إنهم لحظوا تحولاً في نزعتها الفلسفية عندما استعارت من مكتبتهم كتباً للمطالعة تدور في فلك الأبحاث الدينية والصوفية، وسير المتصوفة وأشعارهم. اقترح عليها أمين الريحاني ذات يوم زيارة مغارة «أفقا» بصحبته، وهي من أقدم الآثار، ومن مقدسات الآلهة عند الفينيقيين لوجود هيكل الزهرة وهيكل أدونيس وهيكل عشتر وهيكل تموز فيها قبل ان ينهبها الرومان، فأُخذت بالمناظر الخلابة، وتمثلت أسطورة «أدونيس» في مخيلتها، واستغرقت في تأمل عميق ثم جرى بينها وبينه حوار فلسفي، وهما في الطريق الى أفقا، دوّنه في كتابه: «قلب لبنان»، في معرض وصفه «جنة جرمانوس» في كسروان، فكتب ما يلي:

(قبل أن نصل الى مغارة أفقا في كسروان نشاهد في الجهة الشمالية

---

(١) فندق من أشهر الفنادق في الاسكندرية كانت ميّ موجودة فيه سنة ١٩٢١ يوم كتبت الرسالة المستشهد بها الى الأستاذ جبر ضومط.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: (١٧٠).

من سفح الجبل مثال الغدران في بـدء تكوينهـا، فالميـاه تنبجس من بين الصخور، والطبقات الكلسية في مكانين، قد يصيران بعد ألف سنة، مغارتين تتدفق منهما المياه كما تتدفق اليوم من المغارة الكبرى.

قلت هذا لصديقتي الأديبة ميّ التي كانت جارتنا بالفريكة في صيف ١٩٣٨ فقالت:

ـ «وسأعود أنا الى الأرض بعد ألف سنة، وأزور ذلك المكان لأتحقق من صدق نبوءتك!».

فقلت:

ـ «موعدنا «أفقا» اذن بعد ألف سنة!».

وقد تشهد ميّ الأعجوبة، وتكون جزء منها اذ تجلس هناك في ظلّ تلك الجوزة، أو في ظل الجوزة التي ستكون هناك، وهذا الكتاب بيدها تقرأ فيه النبوءة.

ألف سنة الى الأمام، فهل تعلمين، أيتها العزيزة، بكل ما انطوى من الزمان، وأحداث الانسان؟ وهل تذكرين؟)[1].

لم ينقطع أصدقاؤها: «المنقذون» عن زيارتها في الفريكة، ولم يكفهم فوزها بدعوى الحجر الذي ألقي عليها في لبنان، بل جنّدوا أنفسهم، ونظموا المساعي على نطاق واسع لفوزها الثاني بإلغاء الحجر الملقى عليها في مصر أيضاً. كان همهم ان تعود صديقتهم المظلومة الى القاهرة بعد انقضاء الصيف لتعيش ما تبقى من حياتها فيها خليةً من الهموم، موفورة الكرامة والصحة، وحرةً في التصرف بمـالها، وأثـاث بيتها، ومكتبتهـا. ولكن الموضـوع كان شائكـاً، وازداد تعقيداً باستمرار تدخل قنصل مصـر في بيروت، وتحيّـزه الفاضح للجهة المدعية. ولكي يصبح فوزها بالحرية والعدالة حقيقياً كان لا

---

(١) قلب لبنان ـ أمين الريحاني ـ ص: ٢٦٥ ـ عن الطبعة الثانية المنقحة.

بدّ من الاتصال بكبار المسؤولين في مصر لتوضيح القضية لهم منذ بدايتها، وفي طليعتهم رئيس المجلس الحسبي حسين بك ادريس الذي عُهد اليه النظر في الدعوى، التي لم يعد لها أيّ مبرّر منطقي. على هذا الأساس شرع آل الخوري والجزائري والريحاني والشريف بمساعيهم الحميدة منذ شهر حزيران، أي قبل سفر ميّ الى الفريكة، وحرّك القضية الزعيم فارس الخوري يوم وجه رسالة مستفيضة الى الأستاذ خليل ثابت، رئيس تحرير جريدة المقطم، الذي عيّنه المجلس الحسبي قيماً على ميّ في مصر، بعد إلقاء الحجر عليها فيها، هذا نصها:

(سيدي الأخ الأجل سعادة الأستاذ خليل بك الأفخم

أقدّم لكم التحية المخلصة والاحترام العميم، وأرجو أن تكونوا متمتعين بصفاء العيش، وطمأنينة النفس. أما بعد فاني أرى من واجبي أن أبسط لديكم ما أعرفه عن الأحداث المؤلمة التي نزلت بنابغة الأدب الآنسة ميّ زيادة لعلكم تجدون الوسيلة الناجعة لكشف غمتها، وتخفيف مصابها. ولا ريب عندي في انكم قبلتم القوامة عليها لتكونوا لها عوناً، وتتمكنوا من انقاذها.

في أواسط شهر فبراير الماضي علمت بوجود ميّ في المستشفى الأميركي في بيروت فذهبت لزيارتها ومكثت معها، انا والاستاذ بولس الخولي، أكثر من ساعة ونحن نصغي لحديثها العذب وبيانها الساحر ثم كررت الزيارة في اليوم التالي، وبعد ذلك مراراً متعددة في المسكن الذي انتقلت اليه في رأس بيروت وكنت أمكث معها كل مرةٍ ساعات تناقش وتسامر، وتحدث في شتى المواضيع، بأسلوب رائق، وعبارات موزونه، وانسجام فاتن، وعلم غزير، وذاكرة مدهشة، لا تُسقط حرفاً، ولا تسقط بحرف، ومنذ الزيارة الأولى لم يبق عندي مجال للريب بسلامة عقلها وصحة تفكيرها، وبُعدها عما نسب اليها من الانحراف العقلي.

أقام أحد أقربائها قضية عليها في بيروت طالباً حجرها بالاستناد الى تقارير طبية تحمل تواريخ قديمة، مكّنهم من الحصول عليها ما كان في نفس ميّ من النفرة من الأطباء، بعد أن قاست على أيديهم أفجع الآلام في العصفورية، بدون أن يكون هنالك مبرّر لهذه القسوة سوى هوس الاضطهاد الذي رسخ في ذهنها بسبب ما شاهدته من ضروب التعذيب حتى كانت تضرب عن الطعام احتجاجاً على تلك القسوة التي عوملت بها. وحالما أعيدت إليها حريتها وانتقلت إلى بيتٍ خاص زالت تلك الأعراض، وعادت الطمأنينة إلى نفسها. وعندما زارها الجنرال مارتان، الطبيب الاختصاصي بالأمراض العقلية، وأطال مشاهدتها ومحادثتها في منزلها، لم يشاهد أثراً لانحراف ما في عقلها وتدبير منزلها، وقدّم الى المحكمة التي انتدبته لهذه الغاية تقريراً صريحاً بهذا الخصوص، وأخيراً صدر حكم المحكمة في بيروت بسلامتها التامة، وعدم الحاجة للحجر أو الوصاية.

زارها قنصل مصر السيد صبري منصور في أواسط فبراير الماضي وحضرت معه شطراً من زيارته التي طالت أكثر من ثلاث ساعات، وصرّح لي بعد هذه الزيارة انه معجب بعلمها، وصحة تفكيرها، وسلامة عقلها من كل شائبة. وأدهشني بعد ذلك ما بلغني من أنه كتب الى المجلس الحسبي في مصر يطلب تقرير الحجر عليها بالاستناد الى تقرير طبي قديم، وهو يعرف جيداً ان ميّاً ليست بحاجةٍ لهذا الحجر، وانما عمل ذلك اجابة لطلب صديقه الحميم الطبيب يوسف زيادة الذي هو بحاجةٍ لتبرير تصرفاته السابقة.

جميع أصدقائكم من أدباء بيروت وعلمائها وأساتذة الجامعة الأميركية الذين زاروا هذه النابغة بعد الافراج عنها، أو سمعوا المحاضرة الساحرة التي ألقتها في «قاعة وست» بالجامعة قانعون بسلامة عقلها، وصفاء ذهنها. وإذا كان طرأ عليها شيء من الشذوذ سابقاً، مما لا ينجو منه النوابغ العبقريون، فانها اليوم بريئة منه براءةً تامة. وبما انني اعتقد انكم ترغبون بمساعدتها، وتودون ان تستفيدوا لتحقيق هذه المساعدة من الصفة التي لكم بالقوامة

عليها، أرى الوسيلة الحسنة في تقدمكم الى المجلس الحسبي بطلب رفع الحجر عنها بالاستناد الى شفائها المثبت بـالتقريـر الطبي الحديث، وبحكم المحكمة في بيروت. وجدير بهذا المجلس ان يلبي طلب الوصيّ المشفوع بهذه الوثائق، ويقرّر رفع الحجر بدون حاجةٍ لمعاملة أخرى، ولكم من المكانة الموثوق بها ما يضمن إجابة هذا الطلب. وها أني أبعث إليكم ضمن هذا الغـلاف نسخـة عن حكم المحكمـة معتـذراً إليكم عن هــذا التصـدي لازعاجكم، ومعتمداً على ما لي عندكم من حقوق الرفاقة والصداقة، ورأي سيدي الأخ موفق إلى الصواب)(١).

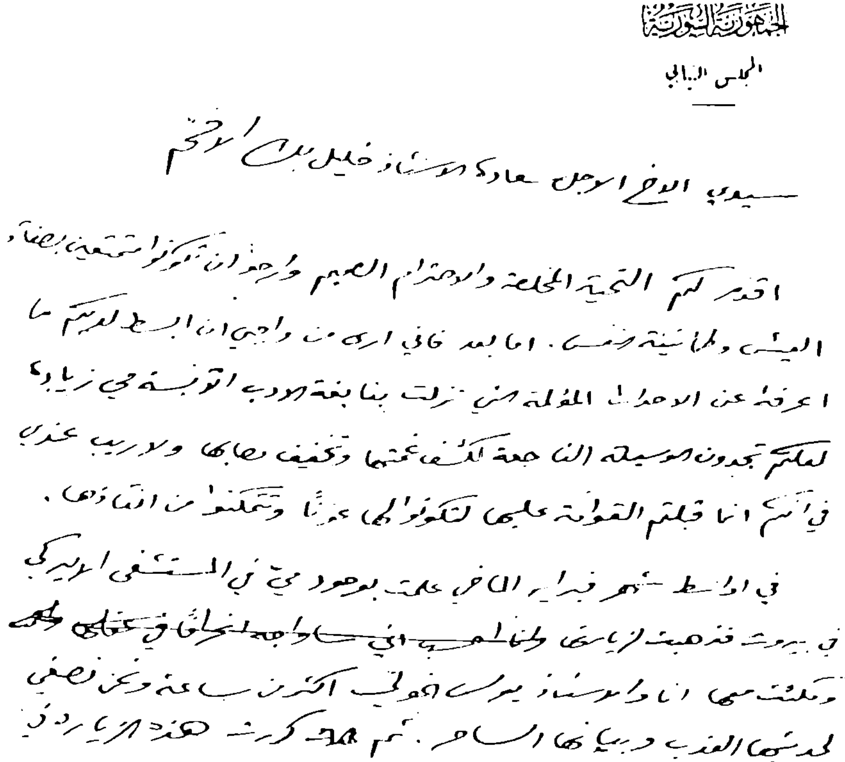
الجمهورية السورية

المجلس النيابي

سيدي الاخ الاجل سعادة الاستاذ خليل بك ثابت المحترم

اقدم لكم التحية الخالصة والاحترام العظيم وارجو ان تكونوا متمتعين بصفاء

العيش وطمأنينة النفس. اما بعد فاني ارى من واجبي ان ابسط لديكم ما

اعرفه عن الاحداث المؤلمة التي نزلت بنابغة الادب [illegible] مي زيادة

لعلكم تجدون الوسيلة الناجعة لكشف غمتها وتخفيف مصابها ولا ريب عندي

في انكم اذا [illegible] عليها لتكونوا لها عوناً [illegible]

في اواسط شهر شباط الماضي علمت بوجود مي في المستشفى الاميركي

في بيروت فذهبت لزيارتها [illegible]

وتكلمت معها انا والاستاذ [illegible]

[illegible]

(١) يلحظ القارىء ان هذه الرسالة لا تحمل تاريخاً، ولكن مما لا يرقى اليه الشك هو انها كتبت في اوائل شهر حزيران سنة ١٩٣٨، وذلك استنادا الى تاريخ جواب الأستاذ خليل ثابت عليها، المنشور لاحقاً: (١٦ ـ ٦ ـ ١٩٣٨).

اليوم الثاني وبعد ذلك زرت [illegible] في مسكن الذي اشغلت
[illegible] وكنت [illegible] فيها كل [illegible]
تناقش فيها [illegible] في شتى المواضيع باسلوب رائع
وعبارات موزونة وانسجام فائق وعلم غزير وذاكرة مدهشة
لا تسقط حرفاً ولا [illegible] . [illegible]
[illegible]
من الذين [illegible] .

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] عن الطعام [illegible]
[illegible]
[illegible] الى نفسها .
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
الى [illegible] .
[illegible]
[illegible]

الجمهورية السورية

المجلس النيابي

بعد هذه الزيارة انه معجب بعلمها وصحة تفكيرها وسرعة عملها
مناقشاتها . وأدهشني بعد ذلك ما بلغني من أنه كتب الى
المجلس الطبي في مصر يطلب تقرير الحجر الصحي بالفرنسية وإلى تقرير طبي
قديم [illegible] وهو يعرف جيداً انه ما ليس في حاجة لهذا الحجر وانا الحكيم
[illegible] صديقه الحكيم الطبيب يوسف زيادة [illegible] الى حالته السابقة.
[illegible] جميع اصدقائهم من ادباء بيروت ودعاتها [illegible]
الى مقعد البرلمان الذين زاروا هذه النابغة بعد خروجها [illegible]
الى فرداس [illegible] في قاعة وست هول بالجامعة
الاميركية [illegible] بمؤتمرها ودماثة خلقها . وإذا كان هناك علم
شيء من الشذوذ فبقي ما لا يخرجه [illegible] العبقرية
فانها اليوم بريئة منه براءة تامة

الجمهورية السورية

المجلس النيابي

وبما أني اعتقد أنكم [illegible] ترغبون بكل عدالة وتودون
أن لا تتعدوا الا لتحقيق هذه العدالة من الصفة التي لكم بالقوامة
عليها أرى أن الوسيلة الحسنة [illegible] في تقدمكم الى المجلس الحسبي
بطلب رفع الحجر عنها بالاستناد الى شهادتها الاخت بلا قوى
الطبي الحديث وبحكم المحكمة في بيروت. وجدير بهذا المجلس أنه
يلبي
[illegible] طلب الوصي المشفوع بهذه الشهادة ويقرر رفع
الحجر بدون حاجة لمعاملة أخرى. [illegible] ولكن من الثابت
الموثوق بها ما يضمن اجابة هذا الطلب، وهي أني ابعث
اليكم ضمن هذا الظرف نسخة عن حكم المحكمة وعندئذ اليكم
عن هذا التقدير لأريحكم، وعندئذ عن ما لي عندكم من
صفو الرفاقة والصداقة وأرى بين يدي الوضع فوقه
الاحترام

وهذا ردّ الأستاذ خليل ثابت على رسالة الزعيم فارس الخوري، رئيس المجلس النيابي السوري يومئذٍ، نكتفي بنشر صورة عنه لأنه مطبوع على الآلة الكاتبة، مما يجعله مقروءاً بكل يسر.

إدارة المقتطف والمقطم

AL MUKTATAF & AL MOKATTAM

SARRUF, NIMR & MAKARIUS, PROPRIETORS.

Telegrams: MOKATTAM CAIRO. — تلغرافيا « المقطم بمصر »

Telephone: 46256 & 46255 — تليفون ٤٦٢٥٦ و ٤٦٢٥٥

مصر في ١٦ يونيو سنة ١٩٣٨ — Cairo ... 193

اخي فارس العزيز

ودعنا من الالقاب والرتب فما زلت اذكرك كأخ عزيز كريم وصديق حميم ولو طال الفراق وعدت سنوه

تلقيت كتابك العزيز واستوعبت ما جاء به وهو مطابق لما اتاني من شقيقك الفاضل خليل بك في بيروت ومدام جبر شقيقة ومعلمة قرينة استاذنا المرحوم وهما من اصدقاء مي والعاطفين عليها

واني لم اقبل الوصاية على مي الا مكرها فلم آلف هذا العمل وعندي من اعمالي واشغالي وهمومي ما يستغرق وقتي ويستنفد قوتي ولكن رئيس المجلس الحسبي ابى قبول اعتذاري وانذر والح واهاب بالمروءة والعطف وسائر هذه المؤثرات فلم اجد بداً من القبول

والمسألة كلها تدور الان على محاور قضائية وقانونية فالمجلس الحسبي هنا يأبى ان يعترف لمحاكم لبنان باختصاصها في نظر الاحوال الشخصية لاحد من رعايا ملك مصر فهو يعد حكم محاكم لبنان في هذه الاحوال في حكم العدم ومحاكم لبنان تتمسك طبعا باحكامها

وعندي ان المخرج الوحيد من هذا المأزق الان هو ما كتبته الى السيدة هدى شعراوي ان يخاطب اصدقاء مي في بيروت حضرة قنصل مصر فيها، ويقنعوه بانها اهل لتولي شؤونها ويدلوه على تقرير الدكتور الجنرال مارتان فيكتب الى الخارجية هنا، وهي تكتب الى الحقانية وهذه تخاطب المجلس الحسبي

وقد علمت ان حضرة رئيس المجلس الحسبي ذاهب قريبا الى لبنان لقضاء اجازته في مصايفه وسأقترح عليه ان يزور مي بنفسه ليتحقق من صحة ما جاء في تقرير الجنرال مارتان

اِدَارَةُ المُقْتَطَف وَالمُقَطَّم

AL MUKTATAF & AL MOKATTAM

SARRUF, NIMR & MAKARIUS, PROPRIETORS.

Telegrams MOKATTAM Cairo. — تلغرافيا «المقطم مصر»
Telephone 46256 & 46255 — تلفون ٤٦٢٥٦ و ٤٦٢٥٥

Cairo 193 — مصر في ١٩٣ سنة

— ٢ —

وقد طلبت من المجلس ان يعفيني من القوامة فاني فاذا كان عندك مشروع حل قانوني او اداري ، وانت الحكيم المحنك فارجو ان توافيني به لاستعين بحكمتك على معالجة هذه القضية التي تهمني جدا من حيث ان مي عزيزة علي وعلى اهل بيتي، وقد كانت المرحومة قرينتي تحبها كثيرا فاقتضى همي ان تستريح هذه الآنسة بعد الذي قاسته من عناء مرض وعذاب نفسي في المستشفيات وسواها .

وفهمت مما كتبته السيدة هدى انها ستاخذ مي معها للاصطياف في سوق الغرب فعسى ذلك ان يعيد لها نشوة وصحة وعافية حتى اذا عادت في الخريف الى مصر كما طالبت تكون حالتها بحيث لا يبقى ادنى شك في نفس احد في سلامتها من كل ما عزي اليها

هذا هو الموقف ايها الاخ الحبيب وقد اصبحت انا هذا في قضية ليس لي فيها شان ولا صلة سوى تلبية داعي واجب دعيت اليه في امر سيدة عرفتها وعرفت مواهبها وهي من اصدقائي واصدقاء اهل بيتي

عسى ان اراك في هذا الصيف اذا قدر لي ان اذهب الى لبنان مصطافا في شهر ايلول وان تكون على خير ما نتمناه لك مع اهل بيتك يا ابا سهيل

اخوك

كريم ثابت

كانت شكوى الرئيس فارس الخوري من مراوغة قنصل مصر في لبنان في محلّها إذ كانت تلك المراوغة معروفة في الأوساط الموالية لميّ في بيروت، وملموسة في عدة مناسبات إبان مأساتها. ويكفي ان نطّلع على مضمون رسالة الأستاذ خليل الخوري الى الأمير مختار الجزائري لندرك أثر تلك المراوغة، وما تبعها من مناورات، في عرقلة مساعي أهل النخوة المنقذين من أجل رفع الحجر عن ميّ في مصر!:

(سيدي الأخ المكرم الأمير مختار

أبعث اليك بتحياتنا أجمعين، وبعد فان الأوراق لا تزال لديّ. جاء كتاب من خليل ثابت الى الخولي، وآخر من فؤاد صروف الى الدكتور زريق، ويقول خليل بك انه سيرسل نقوداً الى الآنسة ميّ قريباً جداً، وكلاهما يحيلنا الى جناب القنصل. واني أرسل اليك نسخة من مكتوب أرسله الأستاذ الريحاني الى صديقه وزير الأوقاف لتطلع عليه، ولعلك، كما يقول الأستاذ، تكتب أنت، بل يجب ان تكتب شكوى من تصرّف القنصل الى شخص عظيم في مصر تعرفه، أو لا تعرفه، لأن تأييدك الشكوى له قيمة، لما لك من المقام، ولو عند من لا يعرفك شخصياً.

نحن سوف نذهب الى ضهور الشوير غداً، وميّ ستطلع الى الفريكة يوم الخميس بعد غدٍ. وأرجو أن نبقى متصلين، وسأحفظ الحكم والتقرير حتى نقرر ماذا نفعل.

احتراماتنا الى الأميرة، وتحياتنا لنجلك وكريماتك، وكذلك الأمير خالد وذويه وأطال الله بقاءك.

المخلص خليل الخوري

رأس بيروت

٢٨ ـ ٦ ـ ١٩٣٨

اذا تكرمتم بالكتابة اكتبوا لنا الى ضهور الشوير.

سيدي الاخ المكرم الامير مختار .

ابعث اليك بتحياتنا الجميع . وبعد فان الاوراق لا تزال لدي .
جاء كتاب من خليل ثابت الى الخولي واخر من فؤاد صروف
الى الدكتور زريق ~~والقاهرات~~ ويقول خليل بك انه
سوف يرسل نقوداً الى الانسة في قريبا جدا وسلامها يحفظها
الى جناب الفضل . واني ارسل اليك نسخة من ملتوب
ارسله الاستاذ الريحاني الى صديقه وزير الاوقاف لتطلع
عليه ولعلك كما يقول الاستاذ تكتب انت بل يجب ان تكتب
شكوى من تصرف الفضل الى شخص عظيم في مصر يعرفه
او يعرفه سيدي كما يبدو لي ان الشكوى له قيمة لما لك من المقام
والى غير من لا يعرفك شخصيا .
نحن سوف نذهب الى صهور الشوير غدا ولن نستطيع الى
الفريكة يوم الجمعة بعد غد . وارجو ان نبقى متصلين
وسلطة [illegible] والتقرير حتى نقرر ماذا نفعل .
احترامنا الى الاميرة وتحياتنا لجلالتك ذكرياتك وتحياتنا الى [illegible]
[illegible] واحفظ الله تبارك

المخلص

راس بيروت — [illegible]

٢٨ - ٦ - ٤٨

اذا تسلمتم الكتب [illegible] ابعثوا لنا الى [illegible]

أما المذكّرة التي بعث بها أمين الريحاني في ٢٧ - ٦ - ١٩٣٨ الى وزير الأوقاف في مصر العالم الشيخ مصطفى عبد الرازق، فهي مطبوعة على الآلة الكاتبة، ومؤلفة من ست صفحات، بسط فيها قصة ميّ المفجعة بتفاصيلها، وأطلعه على ملابسات قضيتها بصراحة. ان مجرد الاطلاع على هذه المذكرة يوضح أموراً مستهجنة، وفداحة الخطب الذي نزل بميّ، والمؤامرة التي حيكت ضدها. ولقد وجهها الأستاذ الريحاني إلى وزير الأوقاف المصرية لا لكونه وزيراً في الحكومة المصرية فحسب، بل لأنه من الشخصيات العلمية التي عرفت ميّ في إبان مجدها وحضرت جلسات ندوتها الشهيرة، وحملت لها التقدير والإعجاب. إن أهم ما ورد في المذكرة كشف النقاب عن تواطؤ قنصل مصر في بيروت، السيد صبري منصور، بهذه العبارات الجريئة:

(... وممن زاروها وهي في هذه الحالة المفرحة لأصحابها، غير المفرحة، على ما يظهر، لأهلها وأصحابهم، سعادة قنصل مصر صبري بك منصور. زارها زيارتين كنت أنا حاضراً بعض الحديث في الزيارة الأولى، وكان فارس بك الخوري حاضراً في الثانية. وفي الزيارتين أفصح القنصل عما عراه من السرور والغمّ معاً: فقد سُرّ جداً كما قال، بصحة ميّ الجيدة، وحزن لما لا تزال فيه من اضطهاد وحرمان. وقد وعدها بالمساعدة، ليس فقط لأنها أديبة كبيرة، بل لأنها، على الأخص، من الرعية المصرية. وأذكر انها ذكرت له مسألة المال، وأنها لفي حاجة الى شيء من المال المحبوس لها في بنك مصر، فقال القنصل: اذا شرّفت القنصلية أُمكِّنك من مخاطبة بنك مصر تلفونياً.

وفي هذه الأثناء، أي بين زيارتيه في منتصف فبراير والمحاضرة التي ألقتها في الجامعة في ٢٢ مارس، وهو يُظهر انه متأسف لما لا تزال ميّ فيه من المحنة، ويُجهر بأنه مقتنع كل الاقتناع انها سليمة العقل، صافية الذهن، وانه سيساعدها لتستعيد حقوقها وحريتها، في هذه الأثناء وفي هذا التلبيس الذي شهده غيري وغير ميّ وفارس بك الخوري والأمير مختار الجزائري، كتب سعادته الى وزارة الخارجية يقول ان حالة ميّ تتطلب الحجر عليها!!

/ ٢٢ يونيو ١٩٣٨

سيدى العزيز الفاضل صاحب المعالي الشيخ مصطفى بك عبد الرازق
وزير الاوقاف حفظه اللـه

احييكم تحية قلبية مقرونة بالشوق اليكم والدعاء لكم بالخير والعافية .
واني لارجو ان يكون باقيا في قلبكم شيء مما في قلبي من الذكرى الطيبة لاجتماعاتنا في القاهرة منذ ست عشرة سنة . من عجيب الصدف ان يصلني ، وانا افكر في الكتابة اليكم ، كتاب من صديقنا برسوم روفائيل ، وفيه يذكر اجتماعنا في بيته ومعنا الصديق الفاضل الدكتور منصور فهمي . مثل هذه الذكريات كنوز روحية ثمينة . واني لاحرص على ما عندى منها ، واتعهده بالحب دائما .

اما كتابي الان فهو من امل تحدوه تلك الذكرى ، ومعها صورة لشخصية من الشخصيات الديموقراطية الانسانية العالية ، هي شخصية مصطفى عبد الرازق . فقد جئت ، يا سيدى ، استعطفكم في محنه ، واستنجدكم في قضية ، هي محنة صديقتنا العزيزة الانسة مي زياده . وان قضيتها كقضية كل اديب ذى مثل اعلى في الحياة .

لا شك انكم سمعتم بها . وقد يكون وصلكم بعض اخبارها مشوشة ومكذوبة . فاسمحوا لي ان اطلعكم على ما اعلمه ، وهو مما خبرته بشخصي ، وعرفته من راس الحوادث ، منذ بدأنا نسعى انا وبعض الاخوان لانقاذ الانسة مي مما كانت فيه ، اى منذ ستة اشهر . فقد نجحنا في نقلها من المستشفى الى منزل خاص بها ، لاعتقادنا منا انها كانت مقسورة ، وان استعادة حريتها من اهم عوامل الصحة والعافية لها .
وقد مرّ عليها الان ، وهي في منزلها الخاص ، اربعة اشهر ، فتدبر هي شؤونها بمساعدة رفيقة مقيمة معها ، تتمتع بتمام الصحة والعافية ، جسديا وعقليا ومعنويا .

وقد عادت كذلك الى مزاولة اعمالها الادبية ، فالقت محاضرة في الجامعة الاميركية في ٢٢ مارس والقت مساء اول امس محاضرة اخرى في المدرسة الاهلية في هذه المدينة .

كل من عرف الانسة مي في المستشفى ، ثم في بيتها الخاص ، وفيه فارس بك الخوري رئيس المجلس النيابي السوري ، وخليل بك اخوه ، القاضي سابقا في السودان ، والامير مختار الجزائري ، والدكتور شريف عسيران ، وبطرس بك الاعوري وكريماته ، واساتذة الجامعة الاميركية ، فضلا عن قضاة المحكمة والدكتور الجنرال مارتان ، كلهم يعرفون ما اعرفه انا ، ويشهدون شهادة حق لا ينكرها غير الظالمين وذوي الاغراض الشخصية الاثيمة ، شهادة امام الله والناس ان هذه الانسة مظلومة مضطهدة محرومة حقوقها ، وانها بريئة اليوم — اقول : اليوم ، ولا انكر ، ولا يهمني ما كانت عليه في الماضي ، ان كان في مصر او في المستشفى هنا — انها بريئة اليوم من كل ما تتهم به من مرض أو خلل او ضعف عقلي .

ومن زاروها ، وهي في هذه الحالة المفرحة لاصحابها ، غير المفرحة ، على ما يظهر ، لاهلها واصحابهم ، ممن زاروها في منزلها الخاص ، سعادة قنصل مصر صبري بك منصور . زارها زيارتين كنت انا حاضرا بعض الحديث في الزيارة الاولى . وكان فارس بك الخوري حاضرا في الثانية . وفي الزيارتين افصح القنصل عما عراه من السرور والغم معا : لقد سرّ جدا ، كما قال ، بصحة مي الجيدة ، وحزن لما لا تزال فيه من اضطهاد وحرمان ، وقد وعدها بالمساعدة ، ليس فقط لانها اديبة كبيرة ، بل لانها على الاخص من الرعية المصرية واذكر انها ذكرت له مسالة المال ، وانها لفي حاجة الى شيء من المال المحجوز لها في بنك مصر ، فقال القنصل : اذا شرّفت القنصلية امكنك من مخاطبة بنك مصر تلفونيا .

وفي هذه الاثناء ، اي بين زيارتيه في منتصف فبراير والمحاضرة التي القتها في الجامعة في ٢٢ مارس ، وهو يظهر انه متاسف لما لا تزال مي فيه من المحنة ، ويجهر بانه بعد زيارته لها ، مقتنع كل الاقتناع انها سليمة العقل ، صافية الذهن ، وانه سيساعدها لتستعيد حريتها وحقوقها ، في هذه الاثناء ، وفي هذا التلبيس ، الذي شهده غيري وغير مي وفارس بك الخوري والامير مختار الجزائري ، كتب سعادته الى الوزارة الخارجية ، يقول ان حالة مي تتطلب الحجر عليها !

ولماذا هذا الانقلاب ؟ لماذا هذا التلون والتناقض في موقفه وسلوكه ؟ لانه ، يا سيدي ، صديق للدكتور يوسف زياده ، نسيب الانسة مي والعدو الاكبر في الدعوى التي اتهمت عليها هنا بعد خروجها من المستشفى ، اي دعوى الحجر .

اني فيما اكتبه الان اليكم انقل من مذكراتي في تلك الايام . وقد كنت اقنعت الدكتور زياده ، بعد كثير المفاوضات ، بنقل الانسة مي من المستشفى لوازق ، ثم الخلف وتفيقر .

زرت قنصل مصر لاول مرة في ٢٦ دسمبر سنة ١٩٣٧ مستطلعا رغبته بعد ما علمت من القضية . فقال لي ان لا حجر على مي لا دينيا ولا مدنيا ، وانها حرة ان تنقل من المستشفى اذا شاءت ، وان الدكتور زياده وكيلها يصرف عليها من مالها — الخ . مما اصبح معروفا . وقد وعد القنصل ان يساعد فيما نراه واجبا لخيرها وخلاصها . فنشرت الجرائد الخبر في اليوم التالي ، واشتهر قنصل مصر شاء ام ابى .

اما قصتي والدكتور زياده فهي طويلة ، لا ازعجكم بها . انما اذكر منها الان ان الدكتور يوم وافق على نقل الانسة مي ربط الموافقة بشرط هو ان نطلع القنصل على الامر . فسلمت بذلك ، وانا لا ادرى ما يكنه الرجل . ذهبنا الى القنصلية معا وذلك بعد زيارتي الاولى بثلاثة ايام فصعد هو توا الى بيت القنصل حيث كان في تلك الساعة ، وتركني انا في الدار السفلى في غرفة الانتظار . اختلى الدكتور بالقنصل ربع ساعة ، ثم نزل الاثنان معا فبادرني سعادة صبري بك بالكلام قائلا : ان نقل الانسة من المستشفى غير ممكن . لان الوزارة الخارجية كتبت اليه تسأله ان يبحث عن حالها ، وانه عملا بارادة اهلها في مصر لا يؤذن لها بالانتقال من المستشفى اليوم جئنا ننقلها ، بالرغم من ذلك ، طلب سعادته من احد الاطباء في المستشفى ان لا يأذن بالانتقال . فجاء الطبيب يقول : لا خروج من المستشفى : بامر قنصل مصر . الخلاصة اننا استعنا بالحكومة المحلية ، ونقلنا الانسة مي ، وجاء القنصل بعد ذلك يزورها ، كما اسلفت القول ، وينصح مما يعراه من الاسف ، والغم ، ويعد بالمساعدة . كل هذا التذبذب والتلون ، وكل هذه الحلاوة الظاهرة والعداء الخفي اكراما لصديقه الدكتور زياده ؟! لقد انكرت ذلك ، كما انكره غيري ، في بادئ الامر . ولكننا ، ويا للأسف ، تحققناه بعدئذ كل التحقيق . فالدكتور زياده ، الذي احسن (كما يقال الى نسيبته في بادئ محنتها ، واخطأ في ارسالها الى مستشفى العصفورية ، وقد يكون تصرف بمالها تصرفا لا يستطيع ان يقدم حسابا به ، اصبح في شبه فخ يحاول الخروج منه فيلجأ الى كل وسيلة ممكنة . ومن ذلك استنجاده بالآباء اليسوعيين ، وببعض الوزراء والموظفين والصحفيين وبصديقه الحميم قنصل مصر .

الفريكـــه
لبنان

فيا سيدى ، ان موقف القنصل هذا لموقف مريب ، شائن ٠ ان واجب القنصل ، على ما افهم من الواجبات القنصلية ، انما هو اولا وطنه ولابناء وطنه ، والانسة مي منهم ٠ فالقنصل الذى يسلك سلوك من ذكرت ، مثلونا مجاملا ومعاديا لمظلومة يدمي مساعدتها القنصل الذى يقصر بواجباته القنصلية ويقدم على اعمال لا تشرفه كممثل لبلاده ، فيصدر اوامر لا مبرر لها ثم يتراجع امام القوة الحماية المنفذة وينكر ما كان منه فيصبح اضحوكة بين الناس — ان هذا القنصل ليستوجب الفحص والاستجواب في الاقل من حكومته ٠ وانه ليحزن يا سيدى ان يكون هذا القنصل قنصل القطر الشقيق القطر الحامل اليوم اليايم مشعال الثقافة العربية في الشرق والغرب ٠

كنت امس في حفلة اقامها قنصل ايران على شرف رئيس الوزارة الايرانية بمناسبة عودته من مصر الى طهران ٠ وكان سعادة صبرى منصور حاضرا ، فدار الحديث بين بعض الحضور على قضية الانسة مي ، وكان المتحدثون يذكرون موقف القنصل بشيء كثير من الامتعاض والاستنكار ٠ ابمثل ذلك يحافظ القنصل على شرف الدولة التي يمثلها ؟ الانه صديق لفلان يفضله على القيام بواجبه القنصلي وبواجب الضمير والحق والانسانية ؟ لا استوقفكم كثيرا عند هذه الناحية من سلوكه وأنتم للانسانية والحق والادب والضمير ركن من الاركان وملجأ من الملاجيء الكبرى ٠

اعود الى العمل الادارى ٠ فقد كتب القنصل الى الوزارة الخارجية يطلب كما قلت الحجر على الانسة مي وارسل الى الوزارة تقرير الاطباء الاول وفيه شيء على مي واشياء لها ٠ اهم هذه انها في حالة لا تبرر ارسالها الى المستشفى ٠ وانها حرة ان تقيم حيث شاءت اذا كان لها رفيقة مخلصة تعاونها ٠ وهذا ما كان ٠ ولكن الخصوم تسلحوا بما في التقرير من اراء طبية مضطربة ومن تكهنات بخصوص الانتحار ٠

فطلبت الوزارة الخارجية من النيابة العامة بناء على ذلك توقيع الحجر على الانسة مي امام مجلس حسبي مصر فقرر المجلس الحجر في ١٦ ابريل وعين سعادة خليل بك ثابت قيما ٠ ان في ما يشمله هذا القرار نقطا الفت نظركم اليها : —

١ — لم ترفع على مي قضية في مصر بالمعنى المفهوم من كلمة قضية اى انها لم تبلغ فتعطى الفرصة للدفاع عن نفسها ولا درس المجلس الحسبي المسالة ولا عاين مي احد

الفريكـــــــه
لبنان

من اعضاء المجلس او من قبله .

٢ ـ دعوى الحجر اقيمت في محكمة بيروت قبل ان يقدم طلب الحجر الى المجلس الحسبي .

٣ ـ ان المحكمة المقيم في دائرتها المدعى عليه هي صاحبة الاختصاص بموجب القانون الدولي الخاص في قضايا الحجر لان الحكم الصالح في مثل هذه الدعـوى يتوقف على دراسة شخص المدعى عليه وهذه الدراسة لا تتيسر الا للمحكمة المقيم المدعى عليه بدائرتها .

فالحكم الصادر من محكمة لبنان المبني خصوصا على التقرير الطبي الاخير المؤرخ في ٤ مايو اى بعد التقرير الاول باربعة اشهر هو هو المعول عليه . اني مرسل اليك نسخة من التقرير واخرى من الحكم اما الاصل الذى اقرته الحكومة اللبنانية وصـــدق عليه قنصل مصر ، للمعاملات الدولية ، فهو بيد الانسة مي .

وبما ان قرار المجلس الحسبي قرار موقت قابل الاعتراض والمادة الحكم فيهما هي عرضة لان يتقدم الى المجلس من يطلب تغييرها كلما تغيرت حال من صدر ضده القرار جئت اطلعكم على حقيقة الحال وحقيقة التغيير فيهما واسالكم ان تعاونونا لدى المراجع الايجابية في رفع هذا الحجر وختم هذه المأساة . كان من الممكن ان تقيم الانسة مي وكيلا لها في مصر يقوم بهذا العمل ولكنها تعبت من المحاكم وتكاليفها ولا مال لديها .

ويجب ايضا ان اخبركم ان الاستاذ فارس باك الخوري كتب الى الاستاذ خليل ثابت وقدم اليه نسختين من الحكم والشهادة الطبية الاخيرة وساله بناء على فحواهما ان يتقدم هو الى المجلس الحسبي بطلب رفع الحجر فاجابه قائلا ان المجلس الحسبي لا يعتبر حكما صادرا في لبنان . وهذا عجيب فالمجلس قرر الحجر بناء على شهادة طبية صادرة في لبنان فكيف يبرر موقفه المتناقض اذا صح قول خليل بك ان المجلس يرفض ان يعتبر الشهادة الطبية الثانية الصادرة في لبنان . المعقول انه كما قرر الحجر بناء على بعض ما جاء في الشهادة الاولى يستطيع ان يرفع الحجر بناء على الشهادة الثانيـة .

الفريكـــــة
لبنان

سيدى الاستاذ ، اني اضع القضية بين يديكم ، وارجو منكم ان تساعدوا الانسة مي لتجتاز المرحلة الاخيرة من محنتها وقد انتقلت قانونيا الى مصر كما ساعدناها في اجتياز المراحل السابقة وهي في لبنان .

فاذا كان ما يقوله الاستاذ ثابت في كتابه الى الاستاذ خوري صحيحا فالمسالة التي تقررت اداريا وسياسيا تحل كذلك سياسيا واداريا . والذى باشرها هنا اى القنصل يستطيع ان يكفر عن سيئاته بان يختمها الخنمة الصالحة الشريفة العادلة اوما كان من الواجب عليه ان يرسل الى الوزارة نسخة الحكم ونسخة الشهادة الطبية الاخيرة كما فعل فيما تقدم من عمله فتتمكن العدالة من العدى في سبيلها [illegible] ما تغير من حال المدعى عليها وما تطور في قضيتها ؟ قد يكون فعل ذلك [illegible] انه لم يفعل لما اعلمه من تحيزه لصاحبه الدكتور زياده ولا ارتجي خيرا من [illegible] للانسة مي .

فالقضية والشهادة الطبية وحكم المحكمة هي بين يديكم واني استرعي لها نظركم الحالي بل استنهض لها همتكم الشماء بل التجأ من اجلها الى ما تمتاز به الشخصية التي اذكرها دائما بالاحترام والاجلال ، تلك الشخصية الشريفة العالية في ديموقراطيتها وانسانيتها وادبها ـ شخصية مصطفى عبد الرازق . فهل يخيب لديها طالب حق ، او شاك من مظلمة ؟

اني اترقب جوابكم دمتم راتعين معافين .

المخلص
أمين الريحاني

حاشية : كنت قد كتبت في الموضوع ، منذ اربعة اشهر ، الى معالي الاستاذ لطفي باشا السيد فاذا رايتم ان تطلعوه على كتابي هذا [illegible] نسختي الحكم والتقرير الطبي فالراى لكم .

ولماذا هذا الانقلاب؟ لماذا هذا التلوّن والتناقض في موقفه وسلوكه؟ لأنه يا سيدي صديق للدكتور يوسف زيادة، نسيب الآنسة ميّ، والمحرك الأكبر في الدعوى التي أقيمت عليها هنا بعد خروجها من المستشفى، أي دعوى الحجر).

لا ريب في ان الشيخ مصطفى عبد الرازق قد اهتمّ بقضية ميّ المحزنة، وسعى لإنقاذها، ولكن تأثير قنصل مصر ومَنْ وراءه كان أقوى من تأثيره، وذلك بدليل ما جاء في رسالة الأستاذ خليل الخوري الى الأمير مختار الجزائري التالية:

(سيدي الأمير

اليوم وصل اليّ مكتوب من خليل بك ثابت أنقل اليك بعض فقراته: «ولا أزال أرجو ان تعملوا بما أشرت به، وهو مقابلة القنصل لاقناعه بصحة وحسن حال الآنسة ميّ العزيزة لأنه تبينّ أن توسطي في هذه المسألة في المجلس الحسبي لا يقدّم ولا يؤخّر. لذلك أرجو أن تحصروا همّكم من الوجهة القانونية باقناع حضرة قنصل مصر».

مؤرخ في ١ - ٧ - ١٩٣٨

وجاء منه أيضاً مكتوب الى الأستاذ بولس الخولي وأرسل اليّ نسخة منه أنقل اليك بعض فقراته:

«اني تمكنت من اقناع المجلس الحسبي بأن يصدر قراراً بتعيين مرتب شهري لمصروفات الآنسة ميّ قدره خمسة عشر جنيهاً، ومبلغ غير هذا قدره خمسون جنيهاً يرسل اليها لتسديد ما يكون عليها من ديون، وشراء ما يلزم من ثياب وغيرها. وسيتأخر ارسال المبلغ الى منتصف الاسبوع القادم أو آخره. وسيرسل بنك مصر المبلغين اليك الى بيروت اذا كنت تقبل ان تنوب عني بهذه المهمة».

ولذلك أرجوك أن تستشير فارساً وأبا شهلا عمّا يريان في مسألة اقناع

القنصل، وكيفية الوصول الى اقناعه، وعمل شيء في هذا السبيل، متى استقر الرأي على ذلك.

والظاهر من مكاتيب خليل بك ثابت ان المجلس الحسبي لا يلغي قراره الا اذا طلب القنصل ذلك، وهذا ما كنت فكرت فيه وقلته لك يوم جاءني مكتوب الشيخ فما رأيك؟ خابر عطا بك واعمل شيئاً، وأفدني، ودمت معافى

ضهور الشوير ٥ ـ ٧ ـ ١٩٣٨ المخلص خليل الخوري)

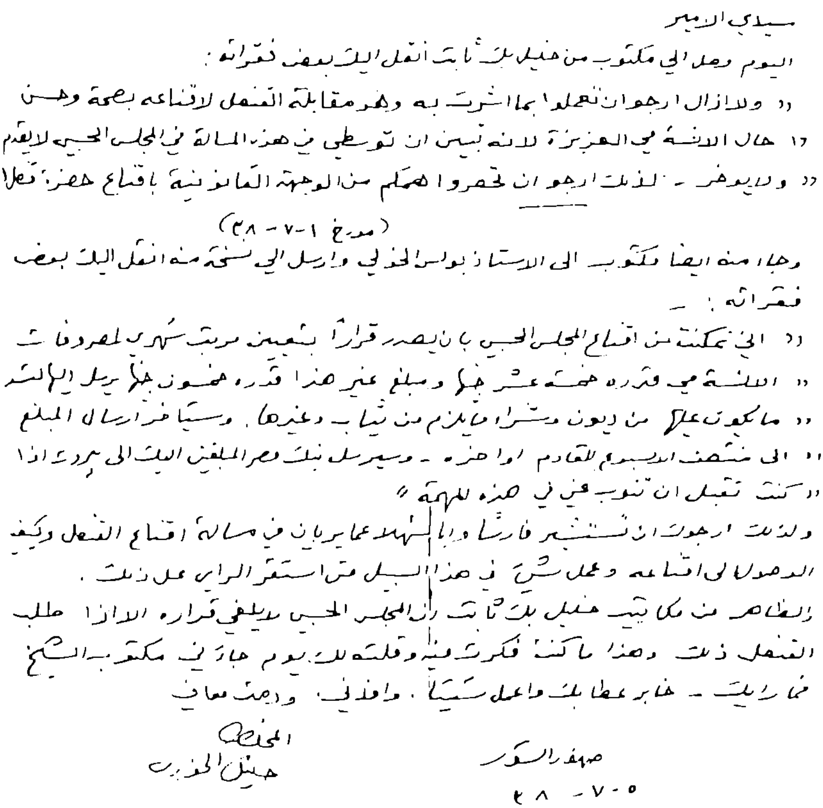
سيدي الامير
اليوم وصل الي مكتوب من خليل بك ثابت انقل اليك بعض فقراته:
«ولا ازال ارجو ان تعملوا بما اشرت به وهو مقابلة القنصل لاقناعه بصحة وحسن
حال الانسة مي العزيزة لانه تبين ان توسطي في هذه المسألة في المجلس الحسبي لا يقدم
ولا يؤخر. لذلك ارجو ان تحصروا همكم من الوجهة القانونية باقناع حضرة القنصل»
(مؤرخ ١-٧-٣٨)
وجاء منه ايضا مكتوب الى الاستاذ بولس الخولي وارسل الي نسخة منه انقل اليك بعض
فقراته: -
«اني تمكنت من اقناع المجلس الحسبي بان يصدر قرارا بتعيين مرتب شهري لمصروفات
الانسة مي قدره خمسة عشر جنيها ومبلغ غير هذا قدره خمسون جنيها يرسل الى الانسة
ما يكون عليها من ديون وشراء ما يلزم من ثياب وغيرها. وسيتأخر ارسال المبلغ
الى منتصف الاسبوع القادم او اخره - وسيرسل بنك مصر المبلغين اليك الى بيروت اذا
كنت تقبل ان تنوب عني في هذه المهمة»
ولذلك ارجوك ان تستشير فارسا و[illegible] في مسألة اقناع القنصل وكيفية
الوصول الى اقناعه وعمل شيء في هذا السبيل متى استقر الرأي على ذلك.
والظاهر من مكاتيب خليل بك ثابت ان المجلس الحسبي لا يلغي قراره الا اذا طلب
القنصل ذلك وهذا ما كنت فكرت فيه وقلته لك يوم جاءني مكتوب الشيخ
فما رأيك - خابر عطا بك واعمل شيئا. وافدني. ودمت معافى
المخلص
خليل الخوري
ضهور الشوير
٥-٧-٣٨

لقد تراكمت الديون على ميّ في تلك الأونة بالفعل وشعرت بضائقة مالية ولكن «االمنقذين»، وفي طليعتهم الأمير مختار الجزائري تولوا دفع نفقاتها، ورجوها بأن تقبل منهم أن يسلّفوها المال الضروري لمعيشتها الى ان تنفرج الأزمة. كان الأمير مختار قد دفع إيجار البيت الذي أقامت فيه ببيروت، وتولى الانفاق عليها مدة اقامتها فيه، كما استأجر لها أمين الريحاني البيت الذي اصطافت فيه بالفريكة، وتمكنت هي من الانفاق على نفسها فيه اذ وفى الاستاذ خليل ثابت بوعده، وحوّل الى الأستاذ بولس الخولي مبلغ خمسين جنيهاً في شهر تموز، ثم مرتباً شهرياً قدره خمسة عشر جنيهاً، وهذا نصّ الرسالة التى بعث بها خليل الخوري الى الأمير مختار الجزائري، يزفّ اليه فيها البشرى بتحويل المبلغ، ويستشيره في كيفية التصرّف فيه:

(سيدي الأخ الأمير مختار

أخذت مكتوباً من خليل ثابت بك يقول فيه انه ارسل يوم ٨ تموز الجاري الى الأستاذ بولس الخولي المصطاف في بحمدون حوالة على بنك مصر بمبلغ خمسين جنيهاً مصرياً للآنسة ميّ، وانه سيرسل كل شهر، ابتداءً من آخر هذا الشهر ١٥ جنيها لها. ويقول أيضاً انه مهتم بقضيتها اهتماماً عظيماً، وقد عدت وقلت له ان بيت القصيد هو الحجر، وانه يجب عليه ان يعمل شيئاً لالغائه.

أرجو أن تفيدني عن رأيك في كيفية التصرف بمبلغ الخمسين جنيهاً. أنت تعلم ان الآنسة ميّ قد ترفض أخذ هذا المبلغ - هل توافق على دفع بعض الديون التي عليها من هذا المبلغ دون ان تقول لها؟ وأية ديون تظن يجب دفعها الآن؟ على كل حال أرى ان تأخذ الآن من هذا المبلغ ستين ليرة سورية لدفعها أجرة البيت في الفريكة لأني علمت من ميّ انها لا تستطيع دفع هذه الأجرة اذ لم يبق لديها سوى ثمانين ليرة سورية ستصرفها على حاجاتها اليومية في هذا الصيف. ولعلك لا تؤخر زيارتك اليها كثيراً، أنت والأميرة سامية، نحن زرناها منذ بضعة أيام، وسأذهب لزيارتها صباح السبت.

اذا اجتمعنا بها معاً قريباً نفعل حسناً، ولعلك تأتي في أوائل الأسبوع القادم فنذهب معاً. سلامنا واحترامنا لجميع الأعزاء

ضهور الشوير - ١٢ - ٧ - ١٩٣٨   المخلص خليل الخوري)

سيدي الاخ الامير مختار

وصلت مكتوبا من خليل ثابت بك يقول فيه انه ارسل يوم ٨ تموز الجاري الى الاستاذ يوسف الخولي المصطاف في الجدود حوالة على بنك مصر بمبلغ خمسين جنيها مصريا للانسة مي. وانه سيرسل كل شهر ابتداء من اخر هذا الشهر ١٥ جنيها لها ويقول ايضا انه مهتم بتقصير اقامتها هناك وقد عدت وكتبت اليه ان بيت القصيد هو الحجر وانه يجب عليه ان يعمل شيئا لالغاء الحجر - لم تكتب الي شيئا عما قد رأيت عليه في الموضوع

ارجو ان تفيدني عن رأيك في كيفية التصرف بمبلغ الخمسين جنيها - انت تعلم ان الانسة مي قد ترفض اخذ هذا المبلغ - هل توافق على دفع بعض الديون التي عليها من هذا المبلغ دون ان نقول لها. واية ديون تظن يجب دفعها الان. على كل حال ارى ان نأخذ الان من هذا المبلغ ستين ليرة سورية لدفع اجرة البيت الى الوكيل بعد ان علمت من مي انها لا تستطيع دفع هذه الاجرة اذ لم يبق لديها سوى ثماني ليرات سورية ستصرفها على حاجاتها اليومية في هذا الصيف.

ولعلك لا تؤخر زيارتك اليها تشتركا انت والاميرة سوية. نحن زرناها منذ بضعة ايام وسنذهب لزيارتها صباح السبت.

اذا اجتمعنا بها معا قريبا نفعل حسنا ولعلك تأتي في اوائل الاسبوع القادم فنذهب معا. سلامنا واحترامنا لجميع الاعزاء الملاك

المخلص الخوري

ضهور الشوير
١٢ - ٧ - ٣٨

وكان بين الأوراق التي وجدناها مرفقة بهذه الرسائل قائمة بالنفقات المطلوبة من ميّ، موقعة من الأستاذ «نقولا أبو شهلا» وصادرة عن مكتب المحامي «حبيب ابو شهلا» هذه صورة عنها:

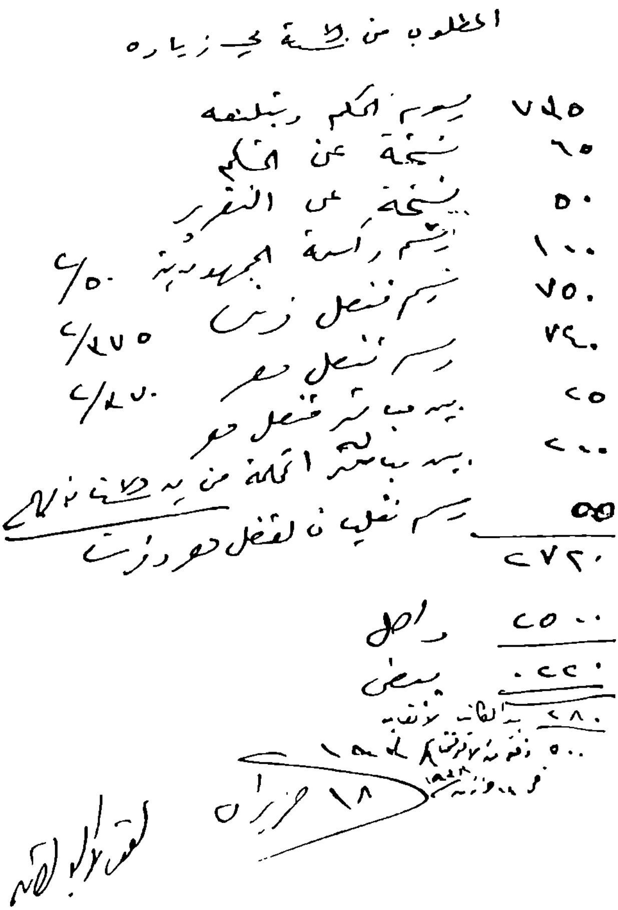

المطلوب من [illegible] مي زياده

٧٢٥ رسم الحكم وتبليغه

٦٥ نسخة عن الحكم

٥٠ نسخة عن التقرير

١٠٠ [illegible]

٧٥٠ [illegible]

٧٤٠ [illegible]

٢٥ [illegible]

٢٠٠ [illegible]

٥٥ [illegible]

٢٧٢٠

٢٥٠٠ واصل

٢٢٠ يبقى

١٨ حزيران

بينما كانت مساعي «المنقذين» مستمرة في ذلك الصيف كانت زياراتهم للفريكة مستمرةً، لا تكاد تنقطع، اذ أضحت ميّ وقضيتها شغلهم الشاغل، والهمّ الذي تضافرت جهودهم على إزالته عن كواهلهم وكاهلها. كان لا بد لهم من دعم الملفّ الذي شرعوا بإعداده لارساله الى المجلس الحسبي في القاهرة بتقارير طبية جديدة، ولكنهم اتفقوا على كتمان الأمر عن ميّ مراعاة لشعورها. أما التقارير الطبية التي كلّفوا بإعدادها الدكتور الجنرال مارتان (الذي أضحى من المعجبين بميّ، والمؤمنين بكامل صحتها) والدكتور خليل جبور والدكتور أحمد الشريف، فلم يجد أولئك الأطباء حرجاً من كتابتها دون إجراء أية فحوصات على ميّ. ففي شهر آب علم الأستاذ خليل الخوري بأن حسين بك ادريس، رئيس المجلس الحسبي في القاهرة قد أمّ لبنان للاصطياف فيه مع عائلته، فكتب الى الدكتور أحمد الشريف الرسالة التالية:

(سيدي الأعز الدكتور

السلام عليكم ورحمة الله وبعد فاني قد فهمت من الأخ الريحاني انكم سترافقون حضرة الجنرال مارتان في زيارته للآنسة ميّ في يوم عيد الأزهار في بكفيا، انتم والأمير مختار، فأرجوكم ان تتكرموا بإفادتي عن ميعاد هذه الزيارة حتى أنزل من هنا، أنا والدكتور خليل جبور، أو أن يعمل كل منكما تقريراً مفصلاً، ولذلك يلزم ان تكونوا مع الجنرال. ولك الشكر.

حسين بك الآن في أوتيل «الوردة البيضاء» في حمانا، وقد كتب اليّ مؤيداً وعده السابق، حال عودته الى مصر، ولعلك تزوره أنت والأمير مختار في هذه الأيام

أخوك خليل الخوري)

ضهور الشوير ١٠ ـ ٨ ـ ١٩٣٨

سيدي الأخ الأعز الدكتور

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد فإني قد
فهمت من الأخ الحاج أنكم ستقابلون حضرة الجنرال
مارشال في زيارته الثلاثية في يوم عيد الاستقلال
في بلدكما أنت والأستاذ شكار. فأرجوكم أن تتكرموا
بإفادتي عن ميعاد هذه الزيارة حتى أنزل من هنا
أنا والدكتور حنفي جمعة فإن حسين بك إدريس
رئيس المجلس الحسبي قد طلب أن يحضر مع الجنرال المذكور
أنت والدكتور جمعة لأن يحمل كل منكما تقريرا مفصلا
ولابد من أن تكونوا مع الجنرال.
وبعد الشكر. حسين بك إدريس في أوتيل الوردة البيضاء
في حيفا وقد كتب إلى مؤيدا وعده إلى بعد حال عودته
إلى مصر ولعلك تزوره أنت والأستاذ شكار في هذه
الأيام.

أخوه
حنفي المذرات

مهندس رشدي

١٠ - ٨ - ٢٨

وفي اليوم التالي وجه الأستاذ خليل الخوري الى ميّ الرسالة التالية:

(سيدتي العزيزة الآنسة ميّ

زارنا اليوم صديق الطرفين الدكتور شارل مالك وأخبرني انه ينوي زيارتك غداً مع الأستاذ فؤاد صروف فرجوته أن يؤجل هذه الزيارة ريثما أتصل بك، وآخذ وعداً منك بقبول زيارتهما لأني، على ما أذكر، فهمت منكِ انك تنفرين من استقبال اخوانك المقيمين في مصر، وان أكن غير متأكد ان هذه النظرة تشمل فؤاداً. فاذا كنتِ وضعتِ قاعدة بعدم استقبال هذه الفئة فرجائي أنا ومالك ان تجعلي استثناءً، ولو واحداً، فالرجل فؤاد صروف ليس له صلة لا بالمقطم، ولا بالاهرام، انما هو رجل علم، فهل لكِ ان تلبي رجاءنا وتستقبليه فانه يطلب رؤيتك، ويتمنى مقابلتك، ويضمر لـكِ كل اخلاص وولاء، فأرجو الا تخيّبي رجاءنا.

فاذا قبلتِ أرجو افادة الريحاني حتى يبلّغنا الخبر فننزل اليكِ في هذين اليومين مع صروف. جميعنا بخير نهديكِ تحياتنا.

والرجاء السرعة بافادته لأن الرجل مغادر «الضهور» بعد بضعة أيام ولك الشكر

المخلص خليل الخوري)

١١ - ٨ - ١٩٣٨

سيدتي العزيزة الآنسة مي

زارنا اليوم صديق الطرفين الدكتور شارل مالك واخبرني انه ينوي زيارتك غدا مع الاستاذ فؤاد صروف فرجوته ان يؤجل هذه الزيارة ريثما اتصل بك واخذ منك مجالا وعدا بقبول زيارتهما لدي على ما اذكر فهمت منك انك تنفرين من استقبال اخوانك المقيمين في مصر وان الذين غيرهما [illegible] ان هذه النفرة تشمل فؤادا فاذا كنت وضعت قاعدة بعدم استقبال هذه الفئة فرجائي انا ومالك ان تجعلي استثناء ولو واحدا والرجل فؤاد صروف ليس له صلة لا بالمقطم ولا بالاهرام انما هو رجل علم وفضل [illegible] ان تلبي رجاءنا دون [illegible] فانه يطلب رؤيتك ويتمنى [illegible] بلقائك وبحضرتك [illegible]

[illegible]

فاذا قبلت [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

قبلت ميّ استقبال الدكتور فؤاد صروف بعد الحاح أمين الريحاني عليها، وتمكنه من اقناعها بأن الدكتور فؤاد صديق وفيّ لها، طالما سأله بالمراسلة عن سير قضيتها، وان ظروف عمله في القاهرة حالت بينه وبين السفر الى لبنان في العامين الماضيين، فهو ممثل «المقتطف» الوحيد، وابن شقيق يعقوب صروف البارّ به وبأصدقائه! كما ان الأستاذ الريحاني رجاها بألا تعاتبه، والا تجافيه لدى اللقاء اكراماً له وللمقتطف، فاستقبلته ببشاشةٍ، هو والدكتور شارل مالك والأستاذ خليل الخوري، وأدهشتهم بأحاديثها الشيقة، وجولاتها الفكرية الممتعة، ودعاباتها الظريفة، حتى أن الدكتور فؤاد صروف خرج من الفريكة وقد ازداد اعجاباً بنبوغها، وتأثراً بما حلّ بها، وصرّح قائلاً بأنه لم يتغير فيها شيء غير شعرها الذي أضحى شعلة بيضاء تتوّج جبهتها العريضة[1].

وهكذا اقتنعت ميّ بأن «المقتطف» وكل من يلوذ بها ظلوا على عهد الصداقة والوفاء في محنتها، ولكنها لم تصفح عن تقصير «المقطم» و «الأهرام» معها لأنها كانت تعتبرهما أسرتيها، فاذا بهما تصدقان قصة جنونها، وتنسيان أجمل رابطة توثقت بينها وبينهما عبر القلم والودّ خلال سنين متعددة. لقد ساءها كثيراً ان يقبل خليل ثابت تكليف المجلس الحسبي بالوصاية عليها لأن في مجرد قبول هذه المهمة اعترافاً باختلال عقلها! وساءها أكثر ان تقبل جريدة «الأهرام» التي تملك شقتها في القاهرة، تسليمها لأنسبائها، يوم كانت محتجزة في مصحات لبنان، لأن للبيوت حرمتها، وللصداقة واجباتها، ولأنه كان في وسع أصحاب «الأهرام» ان يغضوا النظر عن المطالبة بأجرها الى ان تنكشف الغمة عنها، وترجع الى القاهرة فتتسلّم بيتها بنفسها، وتسدّد ديونها!!!

حاول أمين الريحاني مرةً ان يقنع صديقته المتألمة بالصفح عن المسيئين اليها فاضطربت وثارت قائلة بأن جراحات القلب لا تندمل، ومراراته لا

(١) من حديث الدكتور فؤاد صرّوف الينا في ١٧ ـ ٨ ـ ١٩٧٢.

تتحوّل الى عسل، فأحجم عن فتح هذا الموضوع معها احتراماً لرأيها، وحرصاً على راحتها. لقد قدّرت له مراعاته لمشاعرها، وكثيراً ما أضحت تنطلق معه، ومع أفراد اسرته على سجيّتها، صافية النفس، فتدعوهم لقضاء السهرة في بيتها للتسامر على الشرفة، أو للعب الورق معهم. كما كانت اطلالات الزعيم فارس الخوري على الفريكة مفرحة لميّ وآل الريحاني، اذ كان يأتي لقضاء يوم معهم بين حينٍ وآخر، على الرغم من ارتباطاته السياسية بدمشق. وها هو يصف أثر تلك الأيام في نفسه، في رسالة بعث بها الى أمين الريحاني في شهر آب سنة ١٩٣٨ :

(... الأثر الذي تركته في نفسي تلك الاجتماعات الوجيزة معكم في منحى وادي الفريكة بالاسبوع الفائت بالغ من المعزة مبلغاً جليلاً جعله في مصف آنس الذكريات اللذيذة، المعدودة عندي من حسنات الدهر. فمجالس الصفاء كانت مزدانة بأدبك وعلمك الغزير، ومزدهرة بحضور نابغة الأدب والذكاء الآنسة ميّ التي اجتمعت قلوبنا على محبتها وتقديرها، والاعجاب بمواهبها السامية.

لا بدّ ان يكون أخي خليل قد زاركم قبل وصول هذا الكتاب اليكم، وأطلعكم على ما دار بيننا وبين حسين ادريس بك في شتورا. واننا نتوقع زيارة الجنرال مارتان، طبيب الجيش الفرنسي، فاذا كانت الآنسة ميّ توافق فانني مستعد أن أجيئها في اوائل الشهر القادم بالطبيب الرسمي في الجمهورية السورية لأخذ تقرير منه أيضاً. كما انني سأكتب أنا وعطا بك الأيوبي تأييداً للطلب بإلغاء الحجر، ونرسل كتابنا الى رئاسة المجلس الحسبي في القاهرة بحيث يكون لديها في منتصف الشهر القادم)[١].

نصح الأستاذ الريحاني صديقه الأستاذ فارس الخوري بالا يفتح حديث الأطباء وتقاريرهم أمام ميّ، وشكره على جهوده الحثيثة، واتفق الرجلان مع

---

(١) الريحاني ومعاصروه ـ ص: ٣٥٥.

آل الجزائري والأيوبي والشريف على متابعة الاجراءات بسرية تامة. لذا أعدّ الأطباء اللبنانيون تقاريرهم وسلموها للزعيم فارس الخوري، وقاموا بزيارة رئيس المجلس الحسبي في شتورا لاطلاعه على مأساة صديقتهم. كما قام بزيارته الأستاذ أمين الريحاني ودعاه لقضاء يوم في «الفريكة» مع زوجته للتعرف الى ميّ شخصياً، قبل رجوعه الى مصر. كان حسين بك ادريس يعرفها أديبةً كبيرةً عبر مقالاتها في المقتطف والهلال والأهرام، ويضعها في منزلة صفوة كتاب العصر، فلبى دعوة الريحاني التي حضرها لفيف من الوجهاء والأدباء مع زوجاتهم، وكان اليوم الذي قضاه في الفريكة من أمتع أيامه في ذلك الصيف في لبنان، اذ وصف تأثيره بنفسه في رسالة شكر وجهها الى الريحاني، بعد رجوعه الى مصر، هذه بعض فقراتها:

(عزيزي المفضال الأستاذ الريحاني بك

أحمد الله الذي هداني الى الفريكة على نور ميّ فتعرّفت الى فيلسوف لبنان الكبير، ونعمت بساعات سعيدة بين جماعة من أعيان العلم والأدب. واذا كان القدر قد شاء ان اكون عاملاً في رفع آخر حُجُب المحنة التي امتُحنت بها ميّ فاني بذلك جدّ سعيد. ان ميّ حبيبة الى قلوبنا نحن المصريين جميعاً، ولئن كانت قبل هذا الصيف، بالنسبة لزوجي ولي مجرد فكرةٍ سامية، فانها اليوم في قلوبنا انسانة كاملة، مليئة بالحياة، ريانة بالعلم والأدب، نتتبع أخبارها بشوق، وندعو الله لها في كل آونة، راجين أن يعوّض الخير كله عن المحنة التي اجتازتها بشجاعةٍ فائقة، وان يسبغ عليها ثوب السعادة ضافياً.

٣٠ اكتوبر ١٩٣٨)[١].

واقترح حسين بك ادريس على أمين الريحاني وخليل الخوري أن ترسل ميّ إليه طلباً رسمياً بالغاء الحجر عليها، فأوكل الريحاني الأمر الى خليل

---

(١) الريحاني ومعاصروه ـ جمع وتحقيق ألبرت الريحاني ـ ص: ٣٥٥.

الخوري ليقنعها بذلك لأنها كانت لا تردّ له طلباً، وهذا هو نصّ رسالة خليل الخوري الى ميّ المؤرخة في ١٩٣٨/٨/٢٩ :

(لقد اتفق معنا حسين بك على عمل بعض إجراءات صورية لأجل إلغاء الحجر، وهذه الاجراءات قد انتهت كلها. وليست هي إلا من قبيل الأوضاع التي يستلزمها النظام القضائي. ولم يطلبها حسين بك الا لأجل استيفاء المراسم لأنه شخصياً مقتنع كل الاقتناع بأن بقاء الحجر بمثابة الجرم، وهو يريد إلغاءه لذا يرجوك أن تقدمي طلباً رسمياً بإلغائه يكون نصّه كما يلي، أو يقرب منه، فان لم توافقي على الصيغة التالية يمكنك تعديلها بعض التعديل:

«حضرة صاحب العزة رئيس المجلس الحسبي المحترم

أتشرف بتقديم طلبي هذا راجية من المجلس الحسبي الموقر الغاء قرار الحجر الصادر ضدي في ١٩ ابريل ١٩٣٨، فاني أقول، والحمد لله، انني لست بحاجة الى هذا الحجر، وانني قادرة كل المقدرة على ادارة أموالي وسائر شؤوني بدون احتياج الى وصيٍّ أو قيّمٍ، ولذلك التمس من عزتكم ان تنظروا في طلبي هذا ولكم الشكر أفندم!!».

وهذا الطلب ليس سوى شيء بسيط، ولا يتضمن شيئاً مما يؤخذ عليكِ، أو يتنافى مع الشمم والاباء الذي نجلّه فيك كلنا. ولكن ماذا نفعل في هذا المجتمع، وهذه النظم التي نشكو منها جميعاً، ويشكو منها حسين بك أيضاً، ولكننا لا نستطيع الا مسايرتها.

ولعلك لا تلومين أصدقاءك فان مرادهم عودة هنائك وسعادتك، ومن المؤسف ان الوسائل لذلك قد لا تقرّينها أنتِ، ولكن ليس لدينا سواها، ولا حيلة لنا. والمهم ان تكوني راضيةً عنا، فرضاؤك هو بيت القصيد.

المخلص: خليل الخوري)[1]

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٧١ ـ ٤٧٢.

نلحظ من فحوى هذه الرسالة أن الأستاذ خليل الخوري كان بارعاً في مخاطبة ميّ ذات «الشمم والأنفة» بما يحملها على الاستجابة لطلبه ولا سيما عندما أكد لها أنه وأصدقاؤها، حريصون كل الحرص على رضاها وهنائها، وعندما ذيّل رسالته بالعبارات التالية:

(ليست هذه الصيغة سوى اصطلاحات، ولا تدل على أنك تقبلين مدلولها، إنما هي من قبيل ما تُذيّل به الرسائل الرسمية من عبارات الاحترام والولاء مثل: خادمكم المطيع، وغير ذلك، فلا تهتمي كثيراً بمدلول الألفاظ)(١).

ولا ريب في أن ميّ، رحمها الله، قد تبّسمت عند قراءة الملحوظة الأخيرة، ولكنها اقتنعت بوجهة نظره، واستجابت لطلبه، وذلك بدليل ما جاء في رسالة لاحقة بعث بها إليها خليل الخوري في ١٤ ـ ١١ ـ ١٩٣٨ من بيروت إلى الفريكة، أخبرها فيها عن اصلاحاتٍ يجريها في بيته لاستقبالها فيه بعد نزولها من الفريكة، ثم قال لها:

(يظهر أنه لم يأت جواب من المجلس الحسبي، واقترح عليكِ أن ترسلي استعجالاً خاصاً إلى حسين بك نفسه تخبرينه أنك أرسلت الطلب، وترجينه فيه أن يعجّل في إنهاء الاجراءات، ودمت سالمة)(٢).

أما الملفّ الذي أعده أمين الريحاني وآل الخوري عن قضية ميّ في لبنان لالتماس إلغاء الحجر عليها في مصر فقد أرسلوه إلى المجلس الحسبي بالبريد المضمون في شهر أيلول سنة ١٩٣٨، وكان يتضمن مذكراتٍ، ومشاهدات موقعة من بعض الشخصيات المعروفة، وتقارير طبية قديمة، وحديثة، ننشر صوراً عنها لأهميتها:

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ٤٧١ ـ ٤٧٢.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ٤٧٣.

نسخة

حضرة صاحب العزة رئيس المجلس الحسبي المحترم

القاهرة

نحن الموقعين بامضاآتنا ادناه نثبت في هذا ونشهد اننا اتصلنا بحضرة الآنسة مي زيادة منذ خروجها من المستشفى الاميركي في بيروت في اوائل فبراير سنة ١٩٢٨ وما زلنا نزورها تقريبا كل يوم في منزلها وقد رايناها في اجتماعتنا المتكررة بها كاملة العقل ممتعة بالصحة التامة ولم نلحظ قط ما يشعر بنقص ان في قواها العقلية بل على نقيض ذلك رايناها دائما متزنة في احاديثها واطوارها رشيدة في تصرفاتها تدير شؤونها الشخصية والمنزلية باقصى الدقة والتدبير مرحة مليئة بالآمال ولا تتالم في الواقع الا من فقدان حريتها من طريق الحجر .

واننا نعتقد اعتقادا لا يخرجه الشك بما رايناه بعد الاختبار الطويل اليقين انها تملك المقدرة والاهلية بادارة شؤونها الشخصية والمالية وانها الآن غير جديرة بالحجر بل بالعكس نرى بقاء الحجر مضرا بها اذ من الضرر أن يحول دون استئنافها نشاطها القديم ودون عودتها الى مزاولة اعمالها الادبية القيمة فاذا اعيدت اليها حريتها التي هي بها خليقة عادت الى حياتها المثمرة في العلم والادب .

، ٢ اغسطس سنة ١٩٢٨

الامضـــــــــــــــــــــــــاآت

خليل الخوري
قاضي محكمة الخرطوم
الجزئيه سابقا

امين الريحاني

الامير مختار عبد العزيز

قسطنطين زريق
استاذ التاريخ العربي في
جامعة بيروت الاميركية

نسخة

سيدى الاخ الكريم حسين بك اطال الله بقائه

تحيه واحتراما ، وبعد فاني لن انسى الساعات الحلوه التي اتيح لي قضاؤها معك واني احمد الله الذى الهمك القدوم الى هذه الديار فتعرفت بنفسك بعبرما نزل بصديقتك الجديدة الانسة مي من الويل والدمار ولم تكن هذه النابغة الالمعية في محنتها جديرة الا بالعطف والمواساة اللذين لقيت بديلا عنهما كل عنف وتنكيل فتفاقم خطبها ولولا ان الله سبحانه وتعالى تداركها برحمته لقضت ضحية الجشع الاشعبي وحرم الادب العربي والخيالة شخصية فذة بين النساء بل بين الرجال .

واني اخبرك ايها الاخ النبيل ان الاوراق التي اتفقنا عليها قد اعدت الآن وارسلت اليوم الى رئاسة المجلس الحسبي ضمن مظروف مسجل وهذه الاوراق هي :
١- التقرير الطبي الذى لم يرسل الى المجلس والموقع عليه من الدكتور الجنرال مارتن والمؤرخ ٤ مايو سنة ١٩٢٨ والجنرال هو الذى كان رئيس اللجنة التي فحصت الانسة مي في اول الامر والتقرير مصدق عليه من الجهات الرسمية - ٢- نسخة من حكم محكمة بيروت الصادر في اول يونيو ١٩٣٨ لصالح الانسة مي -٣- التقرير الجديد الذى عمله الدكتور الجنرال مارتن بعد معاينه الانسة مي في ٢٨ اغسطس سنة ١٩٣٨ مصدقا عليه من قنصلي فرنسا ومصر -٤- تقرير من حضرة البكباشي الدكتور خليل جبور الذى ظل يزورها ويدرس حالتها منذ سبعة اشهر ونيف -٥- تقرير من حضرة الدكتور احمد شريف الجزائرى الذى ظل متصلا بالانسة مي منذ شهر ديسمبر سنة ١٩٣٧ الى الآن مؤرخ في ٨ سبتمبر ١٩٣٨ - ٦- شهادة موقع عليها من الامير خالد الجزائرى والامير مختار الجزائرى من حفداء الامير الاكبر عبد القادر الجزائرى والكاتب الكبير الاستاذ

امين الريحاني والدكتور قسطنطين زريق استاذ التاريخ العربي في الجامعة الاميركية في بيروت وكاتب هذه السطور وجميع هؤلاء كانوا متصلين بالانسة مي اتصالا دائما . ـ ٧ـ شهادة من اصدقائها حقي بك العظم ومحمد عطا بك الايوبي وفارس بك الخوري الذين زاروها مرارا ووقفوا على حقيقة ماساتها .

ورجاؤنا ايها الاخ الوفي ان تتكرم بتقصير الاجراآت القضائية فيلغى الحجر قريبا حتى يتيسر للانسة مي السفر الى مصر في خلال الشهر القادم لصعوبة البقاء عليها طويلا في جبال لبنان بعد انقضاء هذا الشهر فلا تضطر الى الانتقال الى بيروت في خلال اكتوبر وهو الوقت الذى يهبط فيه المصطافون الى الساحل او يرحلون الى اوطانهم الاخرى فرارا من البرد فاذا تاخرت ازالة الحجر الجاها الحال الى استئجار بيت في بيروت .

ثم اني ارجوك ايها الاخ ان تعمل ما يلزم لاجل ارسال قرار الغاء الحجر الي هنا في ضهور الشوير حيث ابقى الى العاشر من اكتوبر فاسلمها اياه في التريكه ثم نعمل لها تركيب السفر فاذا تاخر اصدار القرار الى ما بعد ذلك التاريخ فالرجاء ان يرسل الي بعنواني في راس بيروت شارع السادات ويكون ارساله ضمن مظروف مسجل . ولا شك انكم ستبلغون حضرة قنصل الدولة المصرية قرار الغاء الحجر حتى يعلم ذلك ويسهل عندئذ اصدار جواز سفر لها .

وختاما ارجو ان تكون وصلت الى القاهرة بخير وانت ممتع مع الك الكرام باحسن الصحة والهناء

الامضاء

المخلص ـ خليل الخورى

ضهور الشوير ١٢ / ٩ / ١٩٣٨

ويلحظ القارىء أن الذين وقعوا رسالة الالتماس بإلغاء الحجر عن ميّ هم الأساتذة: أمين الريحاني وخليل الخوري، وقسطنطين زريق، والأميرين مختار وخالد الجزائري. كما يلحظ أن الأستاذ فارس الخوري، رئيس المجلس النيابي السوري أرسل إلى مقام المجلس الحسبي شهـادة بسلامـة عقلها، والتماساً بازالة الحجر عنها بتاريخ ٧ ـ ٩ ـ ١٩٣٨، وأن رئيسا وزارة سابقين من سورية اشتركا بتوقيعها معه هما: عطا بك الأيوبي، وحقي بك العظم. هذا إلى جانب شهادة الدكتور خليل جبور التي هي بمثابة تقرير طبي يؤكد سلامة ميّ من كل شائبة صحياً وعقلياً[1].

لمقام رئاسة المجلس الحسبي العلية بمصر

نقدم لكم شعائر الاحترام لما بعد فاننا نستميحكم عذرا لنبدى لكم ما نعلمه ونشهد به عن الكاتبة الاديبة الآنسة مي زيادة منذ خروجها من المستشفى في شهر فبراير الماضي والى الآن فقد تكررت اجتماعاتنا بها والتحدث معها في مواضيع كثيرة كانت في جميعها متزنة الكلام سديدة التفكير قوية الحافظة سريعة الخاطر كاملة العقل ولم نلحظ منها البتة انحرافا او شذوذا ينم عن أى نقصان بالادراك او تنكب عن الحالة السوية بل على العكس من ذلك وجدناها دائما صاحبة العبقرية العالية والعلم الغزير والاطلاع الواسع والافكار المترابطة كما انها تدير منزلها الخاص منذ بضعة اشهر في بيروت ثم في مصطافها بقرية الفريكه (لبنان) بالحنكة والاقتصاد والتدبير الحسن وتتمتع بصحة جيدة وطمأنينة راضية لا تشكو شيئا سوى بقاء الحجر الموضوع عليها وهي غير جديرة به ولا ريب ان مجلسكم الموقر بعد تحققه من زوال السبب يتفضل بازالة هذا الحجر عنها واعادة حرية هذه الآنسة اليها وتفضلوا بقبول الاحترام .

دمشق في ٧ سبتمبر ١٩٣٨

فارس الخوري

رئيس الوزارة السابق بسوريا

---

(١) لقد تكرّم الأستاذ سمير الخوري، نجل المرحوم الأستاذ خليل الخوري باعطائنا الوثائق المنشورة أعلاه، ورسائل والده المنشورة في هذا الفصل، وسائر العـرائض المتعلّقة بقضية ميّ التي وجدناها ضمن أوراقه المصنفة.

نسخة

ضهور الشويفي ٢١ اغستوس سنة ١٩٣٨

اشهد انا الموقع اسمي ادناه باني عرفت حضرة الانسة مي زيادة منذ شهر
فبراير سنة ١٩٣٨ اى منذ خرجت من المستشفي الاميركي الى منزلها في راس بيروت المجاور
لمنزلي وقد زرتها خلال تلك المهلة مرارا كما اني لا ازال ازورها الان في مصيفها في الفريكه
وكنت في زياراتي لها اعنى بدرسها وفحصها واراقب حركاتها وتصرفاتها فرايتها مالكة جميع
قواها العقلية ولم الحظ في تصرفاتها واحاديثها شيئا من الشذوذ بل وجدتها تحسن
الادارة المنزلية وتدبر شؤونها بنفسها وتجمع حولها نخبة من المفكرين والاساتذة وتجول
باحاديثها مع الجميع كل بحسب مفهوميته وعقليته .

ومدة زياراتي لها لم اجدها مرة من المرار يائسة قانطة لا بل بالعكس فهي
تنظر الى المستقبل نظرات كلها آمال كما وانها تنتظر بفارغ الصبر استعادة حريتها
لتستانف جهادها الادبي ومما يثبت هذه العقيدة انها كانت في بيروت ولا تزال الآن
بالفريكه منصرفة الى البحث والمطالعة وتدوين النقاط المهمة في موضوعات دراستها .

هذا واني لا اشك في مقدرتها على ادارة شؤونها الشخصية والماليه
كما اني لا اراها بحاجة الى وصي يتولى امورها .

الامضاء = الدكتور خليل جبور
بكباشي قوة دفاع السودان
والجيش المصرى

ومن رسالة أخرى وجهها الأستاذ خليل الخوري إلى رئيس المجلس الحسبي بتاريخ ١٣ ـ ٩ ـ ١٩٣٨، مطبوعة على الآلة الكاتبة، ومنشورة لاحقاً نتبين أن الملف المشار إليه تضمّن نسخة عن حكم محكمة بداية بيروت الذي صدر في ١ ـ ٦ ـ ١٩٣٨، بردّ دعوى الحجر عليها، وتقارير طبية وضعها الجنرال مارتان، كان آخرها مصدقاً من قنصليّ فرنسا ومصر، بتاريخ ٢٨ ـ ٨ ـ ١٩٣٨، وتقارير أخرى موقعة من الطبيبين خليل جبور وأحمد الشريف.

كما نتبيّن أن الأستاذ خليل الخوري رجا رئيس المجلس الحسبي، في هذه الرسالة، أن يعمل على اختصار الاجراءات القضائية حتى لا تضطر الأديبة الكبيرة إلى البقاء في الجبل في فصل الخريف، أو إلى استئجار بيتٍ في بيروت هرباً من البرد في الفريكة!

نسخة

سيدى الاخ الكريم حسين بك المال اللسه بقائه

تحيه واحتراما ، وبعد فاني لن انسى الساعات الحلوه التي اتيح لي قضاؤها معك واني احمد الله الذى الهمك القدوم الى هذه الديار فتعرفت بنفسك بعضما نزل بصديقتنا الجديدة الانسة مي من الويل والدمار ولم تكن هذه النابغة الالمعية في محنتها جديرة الا بالعطف والمواساة اللذين لقيت بديلا عنهما كل عنف وتنكيل فتفاقم خطبها ولولا ان الله سبحانه وتعالى تداركها برحمته لقضت ضحية الجشع الاشعمي وحرم الادب العربي والفضيلة شخصية فذة بين النساء بل بين الرجال .

واني اخبرك ايها الاخ النبيل ان الاوراق التي اتفقنا عليها قد اعدت الآن وارسلت اليوم الى رئاسة المجلس الحسبي ضمن ظروف مسجل وهذه الاوراق هي :
١- التقرير الطبي الذى لم يرسل الى المجلس والموقع عليه من الدكتور الجنرال مارتن والمؤرخ ٤ مايو سنة ١٩٢٨ والجنرال هو الذى كان رئيس اللجنة التي فحصت الانسة مي في اول الامر والتقرير مصدق عليه من الجهات الرسمية — ٢- نسخة من حكم محكمة بيروت الصادر في اول يونيو ١٩٢٨ لصالح الانسة مي —٣- التقرير الجديد الذى عمله الدكتور الجنرال مارتن بعد معاينه الانسة مي في ٢٨ اغستوس سنة ١٩٢٨ مصدقا عليه من قنصلى فرنسا ومصر —٤- تقرير من حضرة البكباشي الكتور خليل جبور الذى ظل يزورها ويدرس حالتها منذ سبعة اشهر ونيف —٥- تقرير من حضرة الدكتور احمد شريف الجزائرى الذى ظل متصلا بالانسة مي منذ شهر ديسمبر سنة ١٩٢٧ الى الآن مؤرخ في ٨ سبتمبر ١٩٢٨ — ٦- شهادة موقع عليها من الامير خالد الجزائرى والامير مختار الجزائرى من حفداء الامير الاكبر عبد القادر الجزائرى والكاتب الكبير الاستاذ

امين الريحاني والدكتور قسطنطين زريق استاذ التاريخ العربي في الجامعة الاميركية في بيروت وكاتب هذه السطور وجميع هؤلاء كانوا متصلين بالانسة مي اتصالا دائما . ـ ٧ـ شهادة من اصدقائها حقي بك العظم ومحمد عطا بك الايوبي ونارسيس بك الخوري الذين زاروها مرارا ووقفوا على حقيقة ماساتها .

ورجاؤنا ايها الاخ الاوفي ان تتكرم بتقصير الاجراآت القضائية فيلغى الحجر قريبا حتى يتيسر للانسة مي السفر الى مصر في خلال الشهر القادم لصعوبة البقاء عليها طويلا في جبال لبنان بعد انقضاء هذا الشهر فلا تضطر الى الانتقال الى بيروت في خلال اكتوبر وهو الوقت الذى يهبط فيه المصطافون الى الساحل او يرحلون الى اوطانهم الاخرى فرارا من البرد فاذا تاخرت ازالة الحجر الجاها الحال الى استئجار بيت في بيروت .

ثم اني ارجوك ايها الاخ ان تعمل ما يلزم لاجل ارسال قرار الغاء الحجر الي هنا في ضهور الشوير حيث ابقى الى العاشر من اكتوبر فاسلمها اياه في الفريكه ثم نعمل لها تركيب السفر فاذا تاخر اصدار القرار الى ما بعد ذلك التاريخ فالرجاء ان يرسل الي بعنواني في راس بيروت شارع السادات ويكون ارساله ضمن مظروف مسجل . ولا شك انكم ستبلغون حضرة قنصل الدولة المصرية قرار الغاء الحجر حتى يعلم ذلك ويسهل عندئذ اصدار جواز سفر لها .

وختاما ارجو ان تكون وصلت الى القاهرة بخير وانت متمتع مع الك الكرام باحسن الصحة والهناء

الامضاء

المخلص - خليل الخوري

ضهور الشوير ١٢ / ٩ / ١٩٣٨

إننا نستشفّ مما ورد في هذه الرسائل ترقّب أصدقاء ميّ الأشاوس صدور حكم المجلس الحسبي بإلغاء الحجر عليها في شهر تشرين الأول، على أبعد تحديد، ومن ثمّ تبليغ قنصل مصر في بيروت بذلك لكي يصدر لها جواز سفر جديدٍ لانتهاء صلاحية جوازها المصري الذي دخلت به إلى لبنان في سنة ١٩٣٦. ولكن الأسابيع والأشهر توالت دون أن يصدر الحكم ببراءتها بسبب عراقيل وضعتها الجهة المدعية في القاهرة، مثلما فعلت في بيروت سابقاً. هذا ما اضطرّ ميّ للبقاء في الجبل حتى نهاية تشرين الثاني، فبقي أمين الريحاني بجوارها، وظلّ الأصدقاء والمعجبون يتوافدون على الفريكة لتفقّدها.

زارها في تلك الآونة منقذها الأول مارون غانم، وأتى الأديب الأستاذ مارون عبود للتعرف إليها، إذ كان كبير الإعجاب بأدبها. لم يكن مارون عبود مطلعاً على حزنها الكبير على جبران خليل جبران ولكنه وقف عليه في أثناء تلك الزيارة عندما دعاها باسم أدباء لبنان لإلقاء كلمة في حفلة كانوا يعدونها لتكريمه. ويقول مارون عبود إنه ألحّ عليها للإسهام في ذلك الاحتفال الكبير، ثم ندم على إلحاحه عليها أشدّ الندم، فلندعه يروي الحادثة بقلمه المبدع: («يا حبذاه!» هكذا أجابتني ميّ إذ دعوتها إلى الكلام باسم أدباء لبنان في حفلة جبران التذكارية. تلك أول مرةٍ رأيت فيها وجه ميّ الذي أطراه الناس نعتاً. رأيتها فخلتني أمام كنيسةٍ مهجورة، في عتمتها روعةٌ وجلالٌ، وفي شقوق جدرانها رائحة الفن والدهر. رأيت في محياها ظلّ الشباب مسفوحاً على الهرم. قعدت على «طراحةٍ» كعادتنا اللبنانية، وجلست هي على كرسيّ بالقرب مني فاعتراني اضطراب القاعد قرب جدارٍ متداعٍ، أدركت فوراً أنني أمام امرأة لبنانية لم تمح مصر، ولا مدنية الغرب، خطاً واحداً من خطوطها الجميلة.

«يا حبذا!» تلك عبارتنا الأقليمية عند الحسرة الممزوجة بالألم. فهي بنت قريةٍ من قرانا المتواضعة، وهي ما برحت تحتفظ بلحنٍ عذبٍ تحدّث به لبنانياً عتيقاً لا يتمطّق، ولا يلوك لسانه، قابلته ماري زيادة بالمثل، وهي بنت الجبل مثله، لا تعرف مضغ الكلام، ولا صبغ الأحاجيب كبدويات المتنبي.

كم كنت غليظ القلب في إلحاحي عليها، فوا عجباه، ثم واعجباً لي! كيف لم أفهم أن هذه «الهاء» هي هاء السكت والنوبة؟ كيف لم أدرك ما احتوت عليه: «يا حبذاه» من تفجّع يعتلج في صدر المسكينة، فرحت أزيد الطين بلّة ولا أحسّ! كانت في تلك الساعة:

كعصفورةٍ في كفّ طفلٍ يهينها
تقاسي عذابَ الموت، والطفلُ يلعب

قد، والله، كنت أقلّ من طفل، واني لأذكر ذلك وضميري يؤنبني. فمغفرة يا روح بنتنا الصغيرة)[1].

وأضاف مارون عبود يقول في وصف تلك الجلسة انه تبادل فيها نكات مع الريحاني، والشيخ فؤاد حبيش، كانت ميّ تبتسم لها ابتسامات حزينة، فتمثلت له في وجهها صورة «البنت المقهورة».

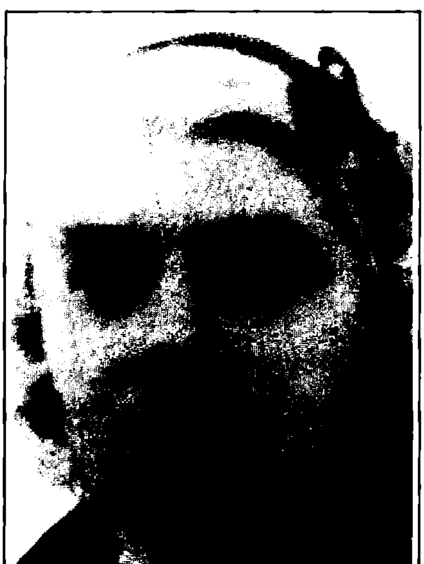

ميّ زيادة

(١) جدد وقدماء ـ مارون عبود ـ ص: ١٤٣.

ان في صمود تلك البنت المقهورة في وجه المصائب التي حلّت بها ما يذكّر بصمود «الصفصاف» في وجه العواصف، ويدعو الى الاعجاب بقوة شخصيتها، وقوة ارادتها، ولين عريكتها. حافظت في أسوأ الحالات، على صفاء الفكر، وروح الدعابة، وعزّة النفس، واحتفظت لنفسها بالخوالج المحزنة، فأخفتها عن أقرب الناس بدافع كبريائها من جهة، وحرصها على إسعادهم من جهة ثانية، وكانت تعتذر عن ضعفها، اذا ما بدر منها شيء من الضعف، وتمحو دمعتها بالابتسام، اذا ما فاض الدمع في عينيها! ولا يمكن لأحد أن يشعر بما تكبدت من آلام، وما تطلّب جلَدُها من مقدرةٍ خارقة الا اذا ابتلى بمثل محنتها، وكابَرَ، وارتدى ثوب البشاشة والعافية أمام الناس وهو مفجوع وعليل!

كان من اللواتي تردّدن على زيارتها في بيروت، ومن ثم في الفريكة السيدة يمنى حرم الشيخ فؤاد حبيش، وقد أدلت الى «صوت المرأة» بالحديث التالي:

(... وزرتها في الفريكة، وكانت ظلال الكآبة تخيّم على حياتها، ولمحت من خلال حديثها ان فكرها يدور دائماً حول نقطة ثابتة واحدة: IDEE FIXE ـ تتركّز في نفسها. كان الريحاني يحاول كثيراً، بما له عليها من سلطان، ان يحوّل مجرى أفكارها، ولكنها كانت عنيدةً، وأذكر أنه كان يعاملها معاملة لطيفة فيها الكثير من الحنان.

وذات مرة حاولت أن أحدثها عن جبران فجمدت قسمات وجهها، وراحت تحدّق في الفضاء ولم تجب. ولا أذكر أنها حدثتنا عنه مرةً واحدة، ولكنها حدثتنا عن كتابها: «ليالي العصفورية»، وقرأت لنا كثيراً من أشعارها باللغة الفرنسية)[1].

---

(١) مجلة صوت المرأة ـ العدد الخاص بالذكرى الثامنة لوفاة ميّ ـ كانون الأول ١٩٤٩ ـ ص: (٣٠).

أما فيما يتعلّق بدوران فكرها حول «نقطة ثابتة» أو بالأصح «الفكرة الثابتة» باضطهاد أهلها لها، فلم تشف ميّ منها أبداً، ولا سيما بعد ان ثبت للملأ انهم اضطهدوها، واي اضطهاد! ومع ذلك قلما كانت تشكو أمْرَها أمام اصدقائها لأنها كانت، كما أشرنا آنفاً، تضغط على نفسها في أكثر الأحيان، وتظهر أمامهم بمظهر المرأة المجاملة بدافع لباقتها، وشعورها نحوهم النابض بالعرفان بالجميل. واما عزوفها عن التحدث عن جبران مع أيٍّ كان فليس بمستغرب إطلاقاً لأن حبها له أمرٌ مقدس في حياتها، وذكراه الحية في قلبها ملكها وحدها، وهذا ما جعلها ضنينة بالتحدث عنها حتى آخر أيام حياتها. جميع الذين أحاطوا بها في مأساتها كانوا يعرفون ذلك، ويحترمون صمتها ومشاعرها، حتى ان ممرضتها الآنسة استر واكيم، التي لازمتها إبان تلك المأساة في بيروت وفي الفريكة، لم تكن تجرؤ على ذكر جبران أمامها، وهي التي قالت للأستاذ خليل الخوري وحرمه وابنة أخيه السيدة عبلة ان رسائل جبران التي حملتها ميّ معها من مصر الى لبنان كانت الكنز الذي تحتفظ به، وتلجأ الى قراءته كلما استعر في قلبها الحنين للحبيب الغارب.

في آخر ذلك الصيف أتى الى لبنان الدكتور منصور فهمي مدير دار الكتب المصرية آنذاك، وصديق ميّ القديم الذي كان من أوفى أصدقائها المصريين لها، فقصد الفريكة لزيارة الريحاني وزيارتها خاصةً، ولكنها أبت ان تستقبله رغم اصرار الريحاني عليها، ورجائه بأن تقبل استقباله... كانت ميّ عاتبةً، كما أشرنا من قبل، على سائر أصدقائها الكتاب المصريين، ما عدا اثنين او ثلاثة منهم أتوا الى لبنان ابان مأساتها وتفقّدوها، وكانت تعرف ان الدكتور منصور فهمي من أكثرهم غيرةً عليها، وعلى صحتها وراحتها، فقد برهن عن عاطفته المخلصة إبان مرضها والعزلة التي فرضتها على نفسها سنة ١٩٣٥، حين زارها عنوةً وشاهدها في حالٍ من الإعياء مروّعة، ولكنها أبت ان تراه في بيت الريحاني ثم ندمت على رفض زيارته لها، وكفّرت عن هذه الإساءة عندما رجعت الى مصر من لبنان، كما سنرى في الفصل اللاحق!

وأغلب الظن انها خجلت من مواجهته في الفريكة لتذكّرها الوضع المأساوي الذي رآها فيه آخر مرة في بيتها بالقاهرة، ولأن أنفتها من جهة، ورقة شعورها من جهةٍ ثانية من الأسباب التي جعلتها ترفض رؤيته. وجدير بالذكر ان الدكتور منصور فهمي ألقى محاضرات قيمة عنها في معهد الدراسات العربية بالقاهرة، بعد وفاتها، ثم نشرها في كتاب صدر سنة ١٩٥٥ بعنوان: «محاضرات عن مي» من أميز ما كُتب عنها.

اضطرت ميّ للبقاء في منتجع الفريكة حتى نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) فاشتدّ البرد في الجبل، وأخّر أمين الريحاني سفره الى الولايات المتحدة الأميركية بانتظار قرار المجلس الحسبي في مصر بإلغاء الحجر عليها. فلا الحكم المرتقب صدر، ولا الغمة عن صديقته الغالية انحسرت، مما أوقعه وأوقعها في حيرةٍ كبيرة. فكرت ميّ باستئجار شقةٍ مؤقتة في بيروت، ريثما يفك قيدها الثاني، ولكن اصدقاءها المنقذين رجوها باستبعاد هذه الفكرة ليقينهم بأن مدة الانتظار لن تطول، وألحوا عليها بالنزول ضيفة عليهم في بيروت حتى مطلع السنة الجديدة. تسابق الى دعوتها خليل الخوري والأمير مختار وخالد الجزائري فرضتهم جميعاً وأقامت شهراً في بيت الأستاذ خليل الخوري الذي لم ينفك عن ملاحقة سير قضيتها في مصر بوصفه قاضياً سابقاً، وأباً روحياً لها، وأسبوعاً في بيت الأمير مختار الجزائري والأميرة سامية حرمه، وأسبوعاً، أو اكثر بقليل، في بيت الأمير خالد الجزائري والأميرة زهراء حرمه. وقد اعتبر هؤلاء الأصدقاء يوم نزولها من الفريكة الى بيروت، في أوائل شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٣٨، عيداً سعيداً للاستمتاع بصحبتها، والاستئناس بأحاديثها الشيقة. أما فيلسوف الفريكة فقد ودّعها هو وأهل بيته وداعاً مؤثراً، وغادر لبنان الى عمله في الغرب وهو مطمئن على صحتها وسلامتها، واقتراب الافراج عنها في مصر.

مع المنقذين في بيروت ثم في مصر

(أريد أن أكتب الى الذين لم ينكروني في محنتي، مع انهم لم يكونوا يعرفونني من قبل، الى الذين كانوا لي وطناً وأهلاً يوم لم يكن لي أهل ولا وطن!

ميّ)[1]

بدت ميّ أمام الناس أنيسةً ومؤنسة في خلال الأسابيع الستة الأخيرة التي قضتها في بيروت ضيفةً معززةً مكرمةً على أطيب الأصدقاء، ولكنها كانت في قرارة نفسها، تتوجّس خيفةً من المستقبل الذي ينتظرها، بعد الرجوع الى مصر، حيث المشكلات المتصلة بمسكنها وأمتعتها وحساباتها، وحيث الوحدة والاستيحاش من جديد... لذا كثيراً ما كانت تركن الى غرفتها، عند شعورها بالانقباض حتى لا يشعر أصدقاؤها بشيءٍ مما كان ينتابها، قمين بأن يشغل بالهم، وينكّد حياتهم!

كاد بيت الأستاذ خليل الخوري يعجّ بالضيوف أثناء وجودها فيه، يأتون جماعاتٍ وفراداً للاستماع بأحاديثها الدسمة التي تجذب الكبار والصغار معاً.

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٥٠١ ـ من رسالة ميّ الى السيدة سنية الأيوبي التي بعثت بها اليها من القاهرة في ٨ ـ ٧ ـ ١٩٣٩ تشكر أريحيتها وأريحية والدها وأهليها الذين هبوا لانقاذها ابان محنتها.

فأولاده وأولاد أشقائه، وشقيقته سعيدة حرم حبيب داود، وابنتها إيلين وحفيدها مكرم، وآل الشريف والجزائري وأولادهم أيضاً تعلقوا بميّ إلى درجة كبيرة إذ كانت تلاطف كل واحدٍ منهم، وتهتمّ بكل واحد منهم اهتماماً صادقاً يجعله يشعر أنه المفضل، والأذكى والأجمل! كانت لطيفة المعشر، رقيقة الحاشية، خفيفة الظل، فعقدت صداقات متينة مع أولاد الجيل الصاعد نستدلّ عليها من رسائلها التي أعربت فيها لهم عن شكرها، وحبها، بعد عودتها إلى مصر. فقد كتبت إلى الأستاذ خليل الخوري تقول:

(كنت أريد ان يكون خطابي الأول مليئاً بالشكر اليك، والى عزيزتي مدام خوري، والى فارس بك وقرينته، والى فايز بك والى السيدة سعيدة وأسرتها، والى سائر أصدقائي وأحبابي.

أرجو منك، يا صديقي العزيز، ان تتلو هذه الرسالة على كل من الأصدقاء فهي لكم جميعاً. هوذا شكري وشوقي وحبي. بل هوذا قلبي أفتحه لكم جميعاً يجد كل منكم فيه مكانه واسمه، مع سجلّ فضله. أذكروني ميّتكم)[١].

وذكرت أولاد الأمير مختار الجزائري في رسالة الشكر الطويلة التي بعثت بها اليه من القاهرة في أوائل عام ١٩٣٩ على هذا النحو:

(سلامي الى الأمير سعد «النونو» والى الأميرات الصغيرات المحبوبات. أودّ ان يكتبن اليّ جميعاً فيحدثنني عن حياتهن المدرسية، وعن كل ما يهمهن من الشؤون)[٢].

وتجلّت خفّة روحها في فقرة من رسالتها الى النائب الأردني خليل سكر، صهر الأستاذ جبر ضومط حيث كتبت تقول:

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٨٠.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها. سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٨٧.

(سلامي الى مدام ضومط (وسأكتب اليها قريباً) والى أنجالها. الى الصديق خليل بك ومدام خوري وأنجالهما. الى ام فؤاد (شقيقة خليل بك) والدكتور جبور ومدام جبور. ولو أنا مضيت في ذكر جميع الأصدقاء من جيرانكم الأقربين لأصبحت رسالتي هذه شبيهة برسائل الجنود عند جميع الشعوب، الذين يكتبون صفحات عديدة تبدأ وتنتهي بجملةٍ واحدة: «مني السلام على...») [1].

وبعثت برسالة شكر وامتنان الى الأميرة زهراء، حرم الأمير خالد الجزائري ذكرت فيها فضلهما السابغ عليها، ونبلهما، وكرم ضيافتهما إبان اقامتها في بيتهما ببيروت، ثم جاءت على ذكر ابنة الأمير خالد من زواجه الأول، الأميرة خديجة فقالت:

(وكيف حال الأميرة خديجة، ولماذا لا تكتب اليّ فتتمرّن على الكتابة؟ أرجو أن تكون، وسائر اخوتها الصغار، على أحسن حال) [2].

ولّما كان لمي رصيد أدبي كبير في محافل لبنان العلمية فقد دعتها جمعية «العروة الوثقى» مجدداً لعقد ندوة أدبية في قاعة «وست» بالجامعة الأميركية، فراقت لها الفكرة، وعكفت على إعداد موضوعها في شهر كانون الأول، وهي ضيفة على آل الخوري في منزلهم برأس بيروت. لاقت تلك الأمسية التي انعقدت في ٢٠ ـ ١٢ ـ ١٩٣٨ [3] إقبالاً منقطع النظير لما لميّ من منزلة سامية في نفوس الأساتذة والطلاب والصحفيين والأدباء. كان الواقفون في «وست هول» أكثر عدداً من الجالسين، وكان أعضاء «العروة الوثقى» يستقبلون الناس بلباقتهم المعروفة، ويتوقعون ندوةً تاريخية، مع أن ميّ أخفت عنهم الموضوع الذي اختارته لها. وفي الساعة المقررة ظهرت على المنبر بصحبة

---

(١) (٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٩٤.

(٣) لقد سبق ان تحدثنا عن هذه المحاضرة، وأوردنا فقرات منها في فصل: «الخطيبة والمحاضرة» من فصول هذه السيرة السابقة.

رئيس الجمعية، الأستاذ دجاني، فقوبلت بموجات متلاحقة من التصفيق الذي لم يتوقف إلا بإشارات منها تعبّر عن الشكر والتأثر والإيعاز بالهدوء . . .

كانت كلمة الأستاذ دجاني لائقة بالمحتفى بها، ومقتضبة، فشكرته بعبارات رقيقة، واسترسلت في الكلام، على عادتها، تخاطب الحاضرين بصوتها العذب، وأسلوبها الجذاب، وكأنها تتحدث إليهم في اجتماع صغير، ضمن بهو بيتها. وذكرت أعضاء «العروة الوثقى» الشباب الذين أحاطوها في مأساتها بالحدب والتقدير، بما يستحقون من اطراء لمواهبهم، وتضامنهم، وتقديسهم للفكر والأدب، ولم يفتها ان تشير الى ان الوطن العربي ينتظر منهم، ومن أمثالهم وعوداً خيّرة. وانتقلت بعد ذلك الى جمهور الشباب من طلاب الجامعة الحاضرين تحدثهم عن الفكر المبدع، ومسؤولية كل واحدٍ منهم في مجتمعه وأمته أمام التاريخ. كانت تنتقل من فكرة الى فكرة، ومن موضوع الى موضوع ضمن الاطار التاريخي والاجتماعي الذي دارت حوله محاضرتها، فاستأثرت، خلال ساعة وربع الساعة، بقلوب المستمعين دون استثناء، الذين ودّوا لو لم تتوقف عن الكلام. وبديهي أنه لم يعد هنالك مجال للحوار مع الطلاب والردّ على أسئلتهم لأنهم استمعوا إلى محاضرة جامعة قيمة تضمنت ما يدور في خواطرهم من أسئلة، والأجوبة عليها وهذا ما جعلهم يهتفون بصوت واحد، في ختامها:

«لِتَعِشْ ميّ طويلاً! عاشت ميّ أديبة العرب!»[1].

كانت تلك المحاضرة آخر ما ألقته ميّ على منبرٍ في بيروت، [2] ثم قضت ما تبقى من إقامتها فيها محفوفة بالاعزاز، وسعيدة بين هؤلاء الأشاوس الذين أنسوها الكثير مما عانت. ولعلّ أكبر دليل على سعادتها، في تلك

---

(١) «مجلة الكلية ـ AL KULLIYAT الصادرة عن «كلية بيروت الأميركية، باللغة الانكليزية بتاريخ ٥ ـ ١ ـ ١٩٣٩ ـ ج (٦) ـ رقم (٥).

(٢) من الملاحظ ان الذين كتبوا عن ميّ أغفلوا ذكر هذه المحاضرة الأخيرة لميّ في لبنان.

الآونة، هو استجابتها لبنات الأمير مختار حين أسمعنها عزفهن على البيانو، ورجونها ان تعـزف شيئاً عليه، فنهضت ميّ، ولم تنقض دقائق على ملامسة أناملها للآلة العزيزة عليها، حتى رجعت الالفة، ودرجت الأنامل تستنبط أعذب الألحان! وما زالت الأميرة نجاة الجزائـري، كبراهن، تـذكر تلك الساعة، وتحفظ لها ذكرى لا تنسى، فقد حدثتنا فقالت:

(كنت يومئذٍ في الرابعة عشرة من العمر حين عشقت ميّ العظيمة، ضيفة أهلي في بيتنا القديم برأس بيروت. عشقت فيها رقتها، وهيبتها في شعرها الأبيض، وقسمات وجهها الشاحب، ولطفها الجم، وبريق عينيها عندما كانت تجمعنا حولها في المساء، بعد فراغنا من الدراسة، لتقص علينا أحلى الحكايات، وتستمع الى أحاديثنا وآمالنا وقصصنا في المدرسة. ولن أنسى ما حييت يوم استجابت الى رجائي حين طلبت منها ان تعزف لنا شيئاً مما كانت تعزفه على البيانو. نهضت بهدوء وجلست على المقعد تتأمل الآلة، وكأنها متهيبةً أن تمسّها، ثم جرّبت بعض النوطات، وبعـد فترةٍ قصيـرة امتلأت الغرفة تردّد أصداء الحانٍ رائعة، أكثرها حزين... لقد صفقنا لها كثيراً، وتمنيناً الا تقف عن العزف، فاسترجعت بعض ما نسيته، وقالت لأمي وخالتي إن تذكّرها لهاتيك الألحان القديـمة قد أدهشهـا لأنها انقطعت عن مداعبة البيانو منذ سنواتٍ طويلة. ثم قبلتني، وقبلت اخوتي وقالت لنا: «أنتم الأعجوبة يا أحبائي، وبفضلكم تصالحت مع البيانو الليلة! واياكم ان تتوقفوا عن دراسة الموسيقى فإن فيها أكبر سعادة للروح، وأكبر عزاءٍ للقلب، وأعظم بهجة لكم في حياتكم ولمن يلوذ بكم»)[١].

عندما أدركت ميّ ان قضية الدعوى المقامة عليها في مصر تستوجب وجودها فيها شخصياً، عزمت على الرحيل من لبنان، وأخبرت أصدقاءهـا الذين حصلوا على جواز سفرٍ جديد لهـا من القنصلية المصـرية. سـألت

---

(١) من حديث الأميرة نجاة بامية الينا الذي أجريناه معها في بيروت بتاريخ ٣٠ - ٤ - ١٩٧٥.

عن السفن التي تقلّ المسافرين من بيروت الى الإسكندرية لأن السفر بالبحر كان أفضل وسائل التنقل عندها، فحجزت حجرةً لها على سفينة فرنسية تغادر مرفأ بيروت في ظهيرة يوم الحادي عشر من شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٩٣٩.

ينبغي أن نشير الى انها كانت تتابع كتابة مذكراتها التي شرعت بتدوينها في الفريكة، وانها كانت تطالع كثيراً مما يدلّ على ان الكاتبة الكبيرة استمدت من مأساتها خبرة عظيمة، ومادة جديدة للتأليف، فكثيـراً ما اشـارت الى الأعمال التي تعدّها للنشر، سواء في أحاديثها الى أصدقائها المقربين، أو الى الغائبين منهم في رسائلها، فقد كتبت الى السيدة سنية الأيوبي، بعد رجوعها الى مصر، صفحاتٍ رائعة أتت فيها على ذكر ما حلّ بها هنالك، وقبله في لبنان ثم قالت لها: (. . . سأحدثك بكل هذا اذا نحن اجتمعنا يوماً، أو يوم أصدر مذكراتي)[١].

ولم يفتها تسديد دينٍ عليها لأهل النخوة في وطنها الحبيب قبل مغادرته اذ ألقت كلمةً مؤثرة في «راديو الشرق» أي في الاذاعة اللبنانية ببيروت، في مطلع عام ١٩٣٩، شكرت فيها القضـاة والحكومـة والصحفيين والأدبـاء والشعب اللبناني الذي آزرها في محنتها، وذرفت في نهايتها «دموعاً زكيةً». هذا ما وقفنا عليه من رسالة صديقها الوفي مارون غانم التي بعث بها اليها، بعد رجوعها الى القاهرة، حيث قال في مستهلها:

(عزيزتي ميّ

آسف جداً لتاخري في الجواب على دموعك الزكية التي ذرفتِها من محطة اذاعة بيروت).

خشي آل الجزائري كثيراً ان تصاب ميّ بنكسةٍ صحية في القاهرة، بعد

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٨١.

الرجوع إليها بمفردها، ولا سيما أن ما كان ينتظرها من عناءٍ فيها ومفاجآت كفيل بأن يرهقها، فقرروا فيما بينهم مصاحبتها لمعونتها في مواجهة المشكلات المعلقة في القاهرة، ولكنهم لم يعلموها بشيء من هذا القبيل. ثم دعوا عددا كبيراً من أصدقائها، الجدد والقدامى، لحفلة عشاء كبيرة في منزل الأمير مختار الجزائري، أقاموها تكريماً لها قبل سفرها بيومين. الوداع حزين، بلا ريب، ولكن ميّ بدت يومئذٍ باسمةً، قوية الأعصاب. وعلى أتم استعداد للسفر وحدها، وتولي شؤونها بنفسها... كانت تؤكد ذلك لكل فردٍ منهم، وتعد بالعودة الى لبنان للاصطياف في ربوعه حالما تفوز بحريتها في مصر، وتنظَم حياتها من جديد. حضر تلك الحفلة آل الأيوبي والخوري والشريف وسكّر وحبيش وسائر من يلوذ بآل الجزائري الذين عمدوا الى جعلها سهرةً مبهجةً يتخللها سمرٌ وموسيقى، ورقص وغناء. ثم أعلموها، في الكلمة التي ألقاها باسمهم الأمير مختار ان زوجه الأميرة سامية وشقيقتها الأميرة زهراء قد حجزتا حجرةً لهما على الباخرة التي ستقلّها الى مصر لمصاحبتها، والبقاء معها في القاهرة بعض الوقت ريثما تدبّر أمورها فيها. فوقفت ميّ تشكر هؤلاء الأحبة الذين غمروها بعطفهم وكرمهم، وقد انهالت الدموع من عينيها، دموع الفرح التي تغني عن الكلمات.

وفي ظهيرة اليوم الحادي عشر من الشهر اشترك في وداعها ووداع صديقتيها على رصيف مرفأ بيروت عدد كبير من المعجبين بأدبها ونبوغها، صحفيين وأدباء وأساتذة وطلاب ومنقذين، ولسان ميّ يلهج بآيات الشكر والمحبة، وقلبها يعتصر حنيناً على فراقهم وفراق لبنان. فقد روت الأميرة سامية ان ميّ بكت بصمت وهي تنظر الى جبال وطنها وشواطئه تبتعد عن بصرها شيئاً فشيئاً، وتنحسر في ضباب ذلك اليوم الممطر، بعد إبحار

---

(١) من حديث الأميرة نجاة الجزائري، ابنة الأميرة سامية الينا الذي اجريناه معها في بيروت بتاريخ ٣٠ ـ ٤ ـ ١٩٧٥.

الباخرة. ومنذ ذلك اليوم غابت ميّ عن وطنها الغياب الأخير، وغابت مناظره عن عينيها ولكنه لم يغب عن قلبها لحظة واحدة.

رست الباخرة في ميناء الاسكندرية في الثاني عشر من كانون الثاني سنة **١٩٣٩** حيث كان الأديب فيليكس فارس وزوجه في استقبالها اذ أعلمه الأمير مختار بوصولها مع زوجه وشقيقتها زوج أخيه، كما هو ظاهر في الصورة التذكارية المنشورة أدناه.

ميّ زيادة بعد وصولها إلى الإسكندرية

من اليمين إلى الشمال: الأميرة زهراء حرم الأمير خالد الجزائري، الأستاذ فيليكس فارس، ميّ زيادة، حرم الأستاذ فيليكس فارس، الأميرة سامية حرم الأمير مختار الجزائري.

يكفي ان ننظر الى ميّ العائدة من مأساة «العصفورية» لنتأكد من الحزن المحفور على قسمات وجهها، المتجلي في وقفتها وهيئتها كلها، وفي الشريطة السوداء التي ربطت بها شعرها الذي اشتعل الشيب فيه، دفعةً واحدة، في إثر ما لاقت من أهوال...

كان يوم رجوعها الى مصر بداية للمرحلة الأخيرة من مراحل حياتها التي اتسمت بالحزن وبالنبوغ معاً، واستنفدت ما تبقى من شعلتها الذكية. ولا ريب في ان وجود فيليكس فارس وزوجه في استقبالها، والأحاديث الودية التي دارت بينهما وبينها مما خفّفت الكثير من حزنها، وعزّاها في محنتها التي لما تنته بعد... فقد ودّعاها وودعا صديقتيها الأميرتين سامية وزهراء في مساء اليوم ذاته في محطة القطار بالاسكندرية حيث توجهن الى القاهرة للنزول في احدى فنادقها ريثما تنجلي الأمور، أي ريثما يُلغى الحجر عليها في مصر، وتلمّ شعثها، وتجد لها بيتاً يأويها إذ لم يبق لها بيت في القاهـرة بعد أن شتّت أهلوها أمتعتها ومكتبتها في أمكنةٍ مجهولة، وسلموا مسكنها القديم في شارع علوي رقم (١) الى مالكيه! ذلك البيت الذي ضمتها غرفه الواسعة مع أبويها، خلال سنوات طويلة، وهي محفوفة بالمجد، ترنو اليها أنظار صفوة العلماء والكتاب. ذلك البيت الذي مات فيه أبوها سنة ١٩٢٩، وماتت فيه أمها سنة ١٩٣٢، وعاشت فيه بعدهما وحيدةً، كسيرة القلب، ممزّقة الروح، تصارع القدر ببسالة الى ان هزمها القدر وطحنتها الأوصاب!

شرعت ميّ بالبحث عن شقةٍ مفروشةٍ، برفقة صديقتيها، منذ صبيحة اليوم التالي لأن بقاءها في الفندق مدة طويلة مرهق لميزانيتها المحدودة، بل المقنّنة التي عيّنها لها المجلس الحسبي في القاهرة، وكلّف الأستاذ خليل ثابت بدفع نفقات معيشتها بوصفه قيّماً على أموالها، وهي ما يعادل خمسة عشر جنيهاً شهرياً. كان لابدّ لها من الرضوخ للأمر الواقع، فرضخت وهي مؤمنة بالظفر بحقوقها، كيف لا وقد تولى أمرها أكبر الشخصيات السورية واللبنانية، وتفهّم الجور الذي أحاق بها رئيس المجلس الحسبي في مصر،

حسين بك ادريس نفسه؟ وصبرت صبراً جميلاً وهي التي تمرّست على الصبر، وعلمتها المحن ان الصبر مفتاح الفرج، فساقت لها مساندة صديقتين، قلّ مثيل وفائهما وتضحيتهما، حوّلتا مرارة واقعها المؤلم الى أيامٍ وليالٍ نكهتها حلوة المذاق، وذكراها عذبة الأريج!

نشرت جريدة الأهرام خبر رجوعها الى مصر في عددها الصادر بتاريخ **١٣ - ١ - ١٩٣٩**، وفي باب «اجتماعيات» بهذه العبارات:

(عودة الآنسة ميّ

الاسكندرية في ١٢ - يناير **١٩٣٩** - لمراسل الأهرام الخاص

وصلت الى الاسكندرية اليوم حضرة الكاتبة الأديبة الكبيرة الآنسة ميّ زيادة عائدة من لبنان بين ركاب السفينة الفرنسية، بعد غيبةٍ طويلة. وقد استقبلها لفيف من الوجهاء والأدباء في الميناء، وسافرت الى القاهرة على قطار الساعة السابعة، فنهنئها بسلامة العودة).

أما بقية الصحف المصرية فقد تجاهلت عودتها، وكأنها لم تكن، فيما خلا، النجم الساطع في صحافة مصر، تستقطب مقالاتها اهتمام القراء، وتنير أفكارها العقول، وتغذي الأرواح... كان طبيعياً ان تقرأ ميّ صحف القاهرة يومياً، بعد رجوعها الى وطنها الثاني الذي منحته زهرة عمرها، وثمار عطائها الفكري، فقرأت الخبر المنشور عنها في الأهرام، وأطرقت قليلاً تفكّر وتفكر، وتستعرض الماضي، وتجابه الحاضر، ثم هزّت برأسها، دونما تعليق، مؤثرة الاحتفاظ بأساها لنفسها! - «الله الله يا دنيا! أهكذا ترحّب بي الصحافة المصرية، والأهرام خاصةً؟ الأهرام التي قضيتُ زهرة عمري في خدمتها، والصحافة التي أسهمت في ازدهارها؟ ويقول المخبر، مخبرها، ان لفيفاً من الوجهاء والأدباء استقبلني في الميناء؟ أين صروف، وثابت، والجميّل، ومطران، وزيدان؟ أين طه حسين والعقاد وعبد الرازق و... و...؟ لله ما آلم العقوق!» وطفرت من عينيها دمعة لحظتها الأميرتان الجزائريتان، وتغاضتا

عن التعليق عليها. كان همهما الهاءها عن الماضي المجيد، وعن اجترار ذكرياته المؤلمة، فنجحتا بتحويل تفكيرها عنه بفضل ذكائهما ولباقتهما وصدق محبتهما لها. ومنذ صبيحة وصولهما الى القاهرة شرعتا معها بالبحث عن شقة مفروشة لسكناها فيها مؤقتاً، الى ان تنفرج الغمة بإلغاء الحجر الملقى عليها ظلماً وبهتاناً. وانضم اليهن الصديق الكبير فيليكس فارس مع زوجه اللذين أتيا الى القاهرة في اليوم التالي للمؤانسة والمساعدة، فوُفقوا باستئجار شقةٍ صغيرة مناسبة تقع في شارع ابو السباع، رقم ١٦، انتقلت اليها ميّ مع صديقتيها في ١٨ ـ ١ ـ ١٩٣٩، أي بعد وصولهن الى القاهرة بخمسة أيام فقط. وقبل ان يتمّ ذلك ظهرت بوادر الانفراج عليهن بقدوم حسين بك ادريس الى الفندق بصحبة زوجه للترحيب واطلاع ميّ على آخر تطورات قضيتها، وعلى أهمية وجودها في مصر بالذات لإنهائها بأسرع وقت.

أقامت الأميرتان سامية وزهراء الجزائري معها في بيتها حوالى اسبوعين ثم عادتا الى لبنان وهما مطمئنتان كل الاطمئنان على صحتها، وراحة بالها بفضل أريحية رئيس المجلس الحسبي حسين بك ادريس والسيدة حرمه اللذين أصبحا ملازمين لها، ومهمتين بها اهتمام الأخ بأخيه، والأب ببنيه. وقبل عودتهما الى بيروت رافقتها الصديقتان الجزائريتان في زيارتين هامتين كانت الأولى للشيخ المراغي في مقره بالأزهر، والثانية للدكتور منصور فهمي في مكتبه بدار الكتب المصرية. لم تزر ميّ في القاهرة أحداً غيرهما، انما زارتهما تعبيراً عن شكرها لتفقدهما لها إبان محنتها في لبنان. وقد حدّث الأستاذ تخليل الخوري أمين الريحاني عن هاتين الزيارتين في رسالة بعث بها اليه من بيروت للولايات المتحدة الأميركية فقال:

(... وفي آخر مكتوب جاءني من حسين بك ادريس قبل صدور الحكم لصالحها أخبرني انها، مذ سافرت الى مصر، لم تقابل أحداً من أصدقائها القدماء، ولم تر سوى الشيخ المراغي الذي زارته في الأزهر،

وقدمت له شكرها لما بدا منه من العطف عليها، والدكتور منصور فهمي الذي زاركم في الفريكة ولم يتمكن من مقابلتها)[١].

فازت ميّ أخيراً بإلغاء الحجر عليها في مصر بعد رجوع صديقتيها الى لبنان بأقل من شهر، وصدر الحكم عن المجلس الحسبي في صالحها بتاريخ ١٩ ـ ٢ ـ ١٩٣٩، وذلك بعد اجراءات مكثفة وسريعة ينبغي ان تُروى. لقد أسهم بتحقيق العدالة المحامي الكبير الأستاذ مصطفى مرعي[٢] الذي لم تكن ميّ تعرفه من قبل، بتدبير حكيم من رئيس المجلس الحسبي اذ كان لا بدّ من وجود محام قدير يثير الدعوى أمام المجلس، ويدافع عن ميّ دفاعاً مدعوماً بالحجج القانونية والمنطقية. اما كيف تمّ ذلك، وكيف قبلت هي بتوكيل محامٍ عنها فاننا نقف على الحقيقة المثيرة من حديث الأستاذ مصطفى مرعي المستفيض حيث قال:

(زارني في مكتبي حسين بك ادريس، رئيس المجلس الحسبي في القاهرة، في منتصف شهر كانون الثاني وقال لي بالحرف الواحد:

ـ «جئت إليك لغرضٍ مهم، أريدك أن تعمل ما بوسعك لانقاذي من توبيخ الضمير، وانقاذ الأديبة ميّ من مأزق كبير وقعت فيه. فقد جاءني أنسباؤها في شهر نيسان من السنة الماضية، وتقدموا بطلب إلى مجلسنا بإلقاء الحجر عليها لكونها مختلّة عقلياً. اطلعوني على تقارير أطباء مستشفى الأمراض العقلية في لبنان حيث كانت تتعالج فيه فوقّعت قرار الحجر عليها لقناعتي بجنونها... وفي أواخر الصيف الماضي قضيت شهراً في لبنان للاصطياف التقيت خلاله بشخصيات سورية ولبنانية مرموقة، وعلمت منها أن دعوى

---

(١) الريحاني ومعاصروه ـ ص: ٣٥٧.

(٢) الأستاذ مصطفى مرعي من مواليد سنة ١٩٠٢، ومن أشهر رجال القانون بمصر تتلمذ على شيخ المحامين الأول الأستاذ ابراهيم الهلباوي، ثم تدرّب في مكتب الدكتور مرسي محمود كما عيّن قاضياً قبل أن يتولى مركزاً وزارياً في سنة ١٩٤٨ حيث كان وزير دولة.

الحجر على ميّ في لبنان أولاً، ثم في مصر ثانياً، افتراءُ وظلم وتآمر، وان محكمة البداية التي نظرت في القضية ببيروت أصدرت حكماً بإلغاء الحجر عليها في مطلع يونيو الماضي لاقتناعها بسلامة قواها العقلية! أذهلني ما سمعت وأثارني فقبلت دعوة الأستاذ أمين الريحاني لقضاء يوم في منزله بالفريكة، والتعرف إلى ميّ شخصياً إذ كانت تصطاف فيها بجواره. وكان أن قضيت يوماً من أمتع أيام حياتي مع ميّ، وفيلسوف الفريكة، وأصدقائها الأصفياء، وأيقنت بأنها بريئة من التهمة البشعة التي ألصقت بها. إنها يا أخي مصطفى امرأة نادرة في أدبها، ونبوغها، تستحق التبجيل والإعزاز، كما أن الدفاع عن حريتها وسمعتها واجب على كل حرّ، وأنت أفضل من يتولى هذا الدفاع في مصر. ولكن الأمر ليس عادياً لأن ميّ ترفض توكيل محامٍ لرفضها القاطع بأن يوضع عقلها في الميزان مجدداً، بعد أن ربحت الدعوى المماثلة في لبنان، لذا أرى أن نذهب لزيارتها، أنت وزوجك[١] وزوجي[٢] وأنا فأقدمك إليها بوصفك أديباً من أصدقائنا المعجبين بأدبها، والراغبين في معرفتها عن كثب، ومن ثم نهتدي إلى وسيلة ناجعة لخدمتها».

هذا ما حدثني به الأستاذ حسين بك إدريس في مكتبي فقبلتُ القيام بالمهمة دون تردّد حباً بالعدالة، وإيماناً بواجب نصرة كل مظلوم. وفي اليوم التالي قمنا بزيارة ميّ مع حسين بك وحرمه فقابلتنا ببشاشة، وحرصنا ألا نتطرق لموضوع الدعوى، فوجهنا الحديث إلى شؤون الصحافة والأدب. ثم خرجنا من تلك الزيارة وقد ملكت ميّ نفوسنا إعجاباً بعلمها وحديثها العذب، ولطفها الجم، وشعرنا بأنها ارتاحت إلينا إذ دعتنا لتكرار الزيارة مع

---

(١) زوجة الأستاذ مصطفى مرعي هي السيدة نور المرسي، ابنة الدكتور محمود مرسي الذي تدرّب الأستاذ مرعي في مكتبه بالاسكندرية، وكان الدكتور مرسي عضواً في مجلس الشيوخ المصري.

(٢) زوجة حسين بك ادريس هي ابنة أخ علي ماهر باشا، احد رؤساء الوزارة المصرية السابقين.

آل ادريس عندما نشاء. فأخذنا نتردّد على زيارتها نستعرض التطوّر السياسي والاجتماعي في بلادنا حيناً، ونروي الذكريات والطرف حيناً آخر، وكأننا نعرفها منذ أمدٍ بعيد. وما زلت أذكر جيداً يوم دعانا حسين بك للعشاء معها في منشية البكري كيف كانت متألقة الفكر، باشة الوجه، تتحدث بطلاقة، وتروي الطرائف بظرفٍ وأي ظرف ثم أبدت أسفها لتوقف «المحروسة»، جريدة والدها، عن الصدور، فانتهزت الفرصة وقلت لها، بوصفي أديباً غيوراً على الصحافة النزيهة الحرة:

- «ولِـمَ يا سيدتي لا تعمدي إلى أصدارها من جديد فهي ملك لك، وكانت تصدر باسمك؟».

فأطرقت هنيهة ثم قالت لي، وبريق عينيها يدلّ على أن الفكرة راقت لها:

- «وكيف يمكن ذلك»؟.

فلجأت إلى حيلةٍ لخدمتها، وأنا واثق من أنها تجهل أنني محام، وقلت لها:

- «الأمر في غاية السهولة يا سيدتي: إن لي صديقاً من كبار المحامين توكلينه إذا شئت للعمل على إعادة إصدار المحروسة، وإذا كنت لا ترغبي بالتعرف إليه، بوسعك توكيلي أنا شخصياً، وأعدك بتـوكيله عنك لمتـابعة القضية وإنجازها، وأتولى ملاحقتها دون ازعاجك»[(١)].

ثم تابع الأستاذ مصطفى مرعي حديثه فقال:

(ومن حسن الحظ، ورضا الله عليّ وعلى ميّ، أنها قبلت اقتراحي في الحال، لذا أحضرت كاتب المحكمة إلى بيتها في اليوم التالي، وأخذت منها

---

(١) من حديث الأستاذ الكبير مصطفى مرعي الينا الذي أجريناه معه ومع السيدة نور حرمه على مرحلتين: الأولى في أوتيل بريستول ببيروت في شهر نيسان (ابريل) سنة ١٩٧٤، والثانية في منزلها بالقاهرة في ٢٤ ـ ٤ ـ ١٩٧٩.

الوكالة المطلوبة التي كانت المفتاح المفقود الذي خولني حق إقامة دعوى استئناف للطعن بقرار الحجر عليها، الصادر عن المجلس الحسبي في القاهرة بتاريخ ١٩ - ٤ - ١٩٣٨. كان المجلس المذكور مختصاً بقضايا الوصاية والولاية والحجر، ومؤلفاً من قاضٍ شرعي، وعضوٍ من الأعيان، وقاضٍ أهلي هو حسين بك ادريس، الذي يرأس المجلس، فعكفت على دراسة قضيتها، وذهبت إلى المحكمة في اليوم التاسع عشر من شهر فبراير، الذي حُدّد للنظر في الدعوى، حاملاً معي حكم محكمة بداية بيروت بإلغاء الحجر على ميّ، وتقارير طبية لاحقة، وشهادات من شخصيات لبنانية وسورية مرموقة كان حسين بك قد تلقاها، كل هذا وميّ لا تدري بأنني محامٍ، ولا تعلم شيئاً عما أفعل... رافعتُ يومئذٍ مدّة عشرين دقيقة قائلاً للقضاة: «إن هذه القضية غير عادية لأن صاحبتها عالمة وأديبة مشهورة وسيدة عظيمة في كامل قواها العقلية، فالشهود على ما أقول يُعدون بالمئات، والوثائق التي أقدمها إليكم لا يرقى الشك إلى صحتها، لذا أناشدكم باسم الحق والعدل أن تردوا الكرامة إلى أميرة من أميرات المنابر، وأديبة نابغة من أديبات الشرق وقعت في حبائل خصوم لها، بإلغاء الحجر المستنكر الواقع على حريتها». كان ممثلو الجهة المدعية حاضرين فاحتجوا على مرافعتي، واعترضوا مجدداً على التقارير الطبية المرسلة إلى المجلس الحسبي من لبنان، ولكن المحكمة عقدت جلسة سريعة، ثم عادت إلى القاعة وأصدرت حكماً بردّ دعوى الحجر، ورفعه عن ميّ، فرُدّ اعتبارها في أعين الناس جميعاً، ورُدَّ لها حق التصرّف بأموالها وممتلكاتها.

توجهتُ تواً إلى بيت ميّ حيث كانت زوجي نور تنتظرني عندها، وبلّغتها الخبر السار، والدمع في عينيّ، فبكت هي الأخرى وقالت لي:

ـ لقد غلبتني والله يا أستاذ، ونجحت بانتحال شخصية الأديب، ويا حبذا لو كان كل غلبٍ في حياتي مشابهاً لهذا الغلب المنقذ!.

ومنذ ذلك اليوم توطدت عرى الصداقة بيننا وبينها، فأخذ حبنا لها

وحبها لنا يزدادان يوماً بعد يوم. ولكن الاجراءات القانونية التي يتطلبها تصديق الحكم استغرقت ثلاثة أسابيع تقريباً عمدت ميّ بعدها إلى استرداد المبلغ الذي كانت قد أودعته في بنك مصر، وهو يبلغ ثمانية عشر ألف جنيه، فوجدته ناقصاً إذ سحب منه أنسباؤها الذين أخذوا منها وكالة عامة سنة ١٩٣٦ ما يقرب من أربعة آلاف جنيه... وأما أثاث بيتها ومكتبتها وسائر أغراضها التي أودعها أهلوها في الكنيسة المارونية فقد صُعقت بعد تسلّمها لكثرة ما افتقدت من كتبها وسجادها وتحفها وثيابها الخ...)[١].

زفّ حسين بك ادريس البشرى بإلغاء الحجر على ميّ لأصدقائها المنقذين فأرسل إليهم برقيات عاجلة إلى بيروت، ولما كان أمين الريحاني غائباً عنها في الولايات المتحدة الأميركية بعث إليه خليل الخوري بالرسالة التالية:

(سيدي الأستاذ الريحاني

أرجو أن تكون بخير متمتعاً بأحسن صحة، موفقاً فيما أنت فيه. أمس ١٩ فبراير كان موعد النظر في قضية صديقتنا الآنسة ميّ أمام المجلس الحسبي، وفي ليل أمس تلقيت تلغرافاً من حسين بك أدريس بأن المجلس الأعلى المذكور أيّد الحكم الابتدائي الذي صدر في لبنان، وبذلك زال الحجر عنها نهائياً، وعادت حريتها كلها إليها، وأُقفلت أبواب القضاء كله في وجوه خصومها. وقد خرجنا بهذه البشرى جميعاً، ونشرنا الخبر بين الأصدقاء، وأذعناه للجرائد، وسارعت الآن إلى الكتابة إليك لأهنئك بهذه النتيجة المفرحة)[٢].

وفي مقطع آخر من تلك الرسالة كتب خليل الخوري ما يلي، ظاناً أنها مَثُلت أمام المحكمة، إذ لم يكن على علمٍ بالدور العظيم الذي قام به مصطفى مرعي في تجنيبها الحضور إلى المحكمة شخصياً:

---

(١) هذه تتمة حديث معالي الأستاذ مصطفى مرعي الشخصي الى كاتبة السيرة.

(٢) الريحاني ومعاصروه ـ ص: ٣٥٦ ـ ٣٥٧.

(لقد تكبّد حسين بك مشقة جسيمة واستعان بنا حتى يتمكن من حمل الآنسة ميّ على المثول أمام القضاء، وأغلب ظني أنها حضرت أمامهم أمس إذ لولا ذلك لما صدر الحكم في نفس اليوم..

وعلمت أنه لم يبق من أثاثها سوى بضعة أشياء محطّمة، وأن المبلغ الذي استُلب من مالها هو (٣٤٠٠) جنيه مصري، فانظر وتأمل، وسأكتب إليك إذ ظهر شيء جديد)[١].

وتلقى خليل الخوري من أمين الريحاني الرسالة التالية المؤرخة في ١٥/٣/١٩٣٩:

(أخي العزيز الأستاذ خليل حفظه الله

كلمة صغيرة قبيل عودتي الى نيويورك لأشكركم شكراً جماً على كتابكم الكريم الذي وصل صباح اليوم، وفيه الخبر السعيد المنتظر، خبر فوز صديقتنا ميّ الفوز النهائي المبين، فالحمد لله ثم لكم، ولكلّ من جاهد في سبيل حريتها وسعادتها.

لقد انتهت رحلتي الخطابية في ولاية كاليفورنيا وأروغون وواشنطون - وستنتهي في نيويورك ونواحيها في أوائل الشهر القادم، فأعود بعد ذلك الى الوطن ان شاء الله. اني لفي شوق شديد اليكم والى الأهل والخلان أجمعين فعسى ان أشاهدكم وانتم في أجمل حال - أسلّم عليكم وعلى أهلكم الأعزاء وعلى الأصدقاء الأفاضل الجزائريين والجزائريات، ودمتم معافين موفقين، أخوكم

أمين الريحاني)[٢].

---

(١) الريحاني ومعاصروه - ص: ٣٥٦ - ٣٥٧.

(٢) تكرّم بمنحنا هذه الرسالة المخطوطة الأستاذ سمير خليل الخوري اذ كانت محفوظة عنده مع أوراقه ووثائق أخرى متصلة بقضية ميّ، ضمن مخلفات أبيه الأستاذ خليل رحمه الله.

OLYMPIC HOTEL
SEATTLE

في ١٥ ادار ١٩٢٩

اخي العزيز الاستاذ خليل حفظه الله

أشكرك شكراً جماً قبل عودتي الى نيويورك على الكلمة السعيدة وفيه الخبر

كلمة صغيرة الذي حمل صباح اليوم النهائي المستر

على لسانكم الكريم صديقنا من الفوز النهائي بسعادتكم

المنتظر خبر فوز صديقنا في سبيل مرشحكم

... لكم ولكل من ساعده في وصول الشعور

فالحمد لله ... الخطابية ... في نيويورك

لقد انتهت ... واشتغلوا الشهر القادم فأعود بعد

ان ... الى لكم شوق شديد

... من الحضر ... ان شاء الله فعسى ان

... الى الوطن ان ... وصحبة ... عليكم ... يحملني

ذلك الى العمل واصلاً ... اسلم ... ايها ...

... الى الاعمال حال ... الجزائرية

... اشتر ... الاشياء الوثائق ...

... على ... معاً ...

... الاعزاء ... معاً ...

... الريحاني

وفي التاسع عشر من شهر شباط بعث الأستاذ خليل الخوري برسالة ودّية الى ميّ هنأها فيها بزوال الحجر عليها باسمه واسم زوجه وأولاده ليلى وسمير ونبيل، وبالنيابة عن جميع اصدقائها في لبنان، ولا سيما آل الجزائري، وقدم اليها نصائحه الثمينة فقال:

(. . . واننا نرجو بعد هذا اليوم المبارك ان تتمكني من استئناف حياتك الماضية الباهرة، وتعودي الى سيرتك الأولى التي أصابتها هذه الفترة المشؤومة بفعل الأشرار ـ وان تشكري الله لأنه لم ينسكِ في محنتك، ولأن الحق غلب الباطل في آخر الأمر ـ ورجاؤنا جميعاً ان تغفري لكل من أساء اليكِ في محنتك عمداً أو سهواً، وان لا تضمري شيئاً من الضغن أو الغلّ لأحد من الناس بل تستخرجي مما اختبرتِ دروساً وعبراً لشيءٍ قد ترينه نافعاً مفيداً للناس ـ وهذا ما ننتظره منك أيتها العزيزة، فاطوي هذه الصفحة الماضية فيما قد يؤلم نفسك ويزعجها، فقد كفاك ما أصبتِ من ألم وانزعاج. ولا تحزني لمالٍ ضاع، أو لحطامٍ زال، واعلمي ان قدرك غيرُ منوطٍ بما كنتِ تملكين من هذه الأشياء، بل بما تحليتِ به من نعم خصك الله بها)[1].

بعد صدور الحكم الأخير الذي حرّر الأديبة المنكوبة أجرت محكمة الاستئناف التي نظرت في القضية (والتي كان رئيسها محمد باشا يوسف)[2] جرداً لممتلكاتها المنقولة وغير المنقولة، واطلعتها عليه، فعلمت بأن ايجارات الأماكن التي وُضعت فيها أمتعتها وكتبها في مستودع البطركية المارونية بمصر الجديدة، وفي شقةٍ بشبرا كان يقيم فيها ابن عمها أغناطيوس زيادة كانت، وما زالت، تُدفع من مالها المودع في البنك، وعلمت كذلك بأن العديد من أمتعتها قد فُقد، إذ تحدثت عنها في رسالتها الى الأستاذ خليل الخوري في ٢٨ ـ ٢ ـ ١٩٣٩ فقالت: (لم يجدوا ملعقة ولا شوكة، ولا فوطة ولا مفرشاً،

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٧٤ ـ ٤٧٥.
(٢) من حديث الأستاذ مصطفى مرعي الذي أشرنا اليه آنفاً.

ولا حلّة ولا طبقاً. والمدوّن في قائمة الجرد هو الكرسي والطاولة والكنبة وما شاكلها. فهل تلك أمتعتي؟ ولو كانت تلك هي، أفتكون في حالةٍ لائقة للاستعمال؟ هذا ما لن أقف عليه الا بعد الحصول على صورة الحكم... أنعود الى حكاية ابريق الزيت؟)[1].

ثم أجابت على نصيحته لها بنسيان الماضي بقولها:

(تقول «طوينا صفحة الماضي» أجل طويناها. ولكن بقي عليّ ان أنهض من هذه الكارثة المنوّعة التي ضعضعت في حياتي كل شيء. بقي عليّ أن ألمّ شعثي، وأن الخص موقفي، وأن أنظم ميزانيّتي، وأن أعمل على استقرار معيشتي وهدوء بالي لأتمكن من التفرّغ للكتابة. وذلك يستغرق من الوقت والتفكير والتدبير شيئاً غير قليل. والأمور تجري بمعرفة حسين بك، هذا الشهم النبيل حقاً، ومعرفة المحامي وهو من خيرة المصريين. وستتنظم الأمور شيئاً فشيئاً عندما استقر في بيتي. الزلزال يتمّ في لحظة، أما رفع الأنقاض، واشادة العمران من الأخربة فشيء آخر...)[2].

ونهضت ميّ من الكارثة التي حلّت بها بفضل عزيمتها القوية وشجاعتها العظيمة، وان كان ذلك النهوض على حساب صحتها واعصابها، كان همها الكبير محصوراً في شيئين: الأول تسديد ديونها للمحامين الذين تولوا الدفاع عنها في المحاكم، في لبنان ومصر، ولأصدقائها المنقذين الذين أنفقوا من أموالهم لتأمين سكنها في بيروت وفي الفريكة، والثاني تسجيل عرفانها بجميلهم، وامتنانها لأفضالهم عليها وهي في نظرها، فوق ان تعدّ، وان تحصى، وذلك في كتابها عنهم الذي شرعت باعداد فصوله.

---

(١) من رسالة ميّ الى خليل الخوري المؤرخة في ٢٨ ـ ٢ ـ ١٩٣٩ والمنشورة بأكملها في كتابنا: ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ ص: ٤٧٩.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٧٩.

اما عن تلهفها على وفاء ديونها فقد كتبت تقول للأستاذ خليل الخوري، في مستهل رسالتها اليه المؤرخة في ٢٨ ـ ٢ ـ ١٩٣٩:

(صديقي العزيز الأستاذ خليل بك

على خطابك المستعجل جداً جداً أرد بخطاب مثله لأقول اني لم اكتب الى أحد، وتعمّدت تأجيل هذا الواجب الى حين، لأني منذ الخطاب الأول، أريد أن أؤدي ديوني: أعني الديون المالية المعيّنة. ولا وسيلة لتأدية الديون بغير الشيكات، ولا أحصل على دفتر الشيكات الا اذا أنا طلبته من البنك، وصديقتك ميّ ـ على ما عرفتموها جميعاً ـ لا تطلب الا «مرفوعة الرأس، موفورة الكرامة»، على نحو تعبير اخواننا المصريين في غضبتهم السياسية. والرأس المرفوع والكرامة الموفورة لا يتيسّران أمام الناس الا بتقديم صورةٍ من حكم الاستئناف للمجلس الحسبي الأعلى، فالحكم الذي نطق به الرئيس في جلسة ١٩ الجاري لم تظهر حيثياته بعد مكتوبةً على الورق ولا يمكن نسخ صورة منه الا بعد ان يُختم ويودع السجل لدى الباشكاتب. فاذا كانت الأعمال في دواوين الحكومة، وأخصها المحاكم، تسير ببطءٍ فما هو ذنبي يا ترى؟ يعلم الله كم يزعجني هذا البطء الذي يشلّ حركتي، ويزيد في ارتباكي، وفيه من الخسارة المالية ما انا في غنى عنه، ولكن ما حيلتي؟

أجل: الحصول على دفتر شيكات ميسور بإيعاز الى البنك من رئيس مجلس حسبي مصر، وبهذه الوسيلة تسلمت كميةً من النقود، بُعيد وصولي الى القاهرة، غير اني لن أصف لك الطعنة الأليمة التي شعرت بها عندما رأيت أمامي أوراقاً طُبع عليها: «بأمر مجلس حسبي مصر ادفعوا الى ـ . . .» وكان حسين بك الى جانبي، فما كاد يلحظ شيئاً من امتعاضي حتى نادى بموظفي البنك فسارع هؤلاء الى تبديل الأوراق!)[1].

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٧٨.

وأما حرصها على تقديم الشكر العميق لجميع الذين رعوها بعطفهم وكرمهم، وجاهدوا في سبيل حقها بالحرية فقد كانت تعرب عنه في جميع رسائلها اليهم، وكان مما قالته للأستاذ خليل الخوري في ختام تلك الرسالة:

(... أمهلوني قليلاً أنتم أسرتي وعشيرتي، واصفحوا عن قصوري، واقبلوا شكري الحار الرحيب لاهتمامكم بي عن بعدٍ كما عن قرب، ولتكونوا دائماً أهل الفضل العميم تكتبون اليّ كثيراً، وتعلمون اني أحـنّ اليكم صباح مساء، وساعة أتلقى رسالة من أحدكم فتلك ساعة الفـرح)[1].

وبعد ان وقّعتها أضافت عليها الحاشية التالية:

(لم أر نسخة من المكشوف منذ أن غادرت بيروت. يا شيخ، يا فؤاد، يا حبشي، وَلَوْ!)

تبلّغ الشيـخ فؤاد حبيش عتبها الجميـل عليه فبعث اليهـا بأعـداد المكشوف الأخيرة دفعةً واحدةً، ثم ذهب الى مصر لزيارتها، فكتب عن تلك الزيارة يقول:

(... وفي سنة ١٩٣٩ رأيتها في مصر، وكانت مقيمة في شقة أرضية متواضعة، ولكنها أنيقة، مؤلفة من غرفتين، تطبخ لنفسها، وتقوم بخدمة نفسها. وكانت طبيعية جداً.

دعتني الى الغداء عندها فأكلت من طعامها الذي طبخته بيدها، وبقيت عندها ساعات، وكانت تقول لي: «حدثني عن لبنان، عن الـريحاني...» وتحدثنا طويلاً. وكان ذلك آخر لقاءٍ لي معهـا)[2].

وصفت ميّ ذلك البيت الصغير الذي زارها فيه الشيخ فؤاد حبيش في رسـالتها الى الأستـاذ خليل الخـوري المؤرخة في ٢٨ - ٢ - ١٩٣٩ بهـذه العبارات:

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص: ٤٨٠.

(٢) صوت المرأة - العدد الثاني عشر - السنة الخامسة - كانون الأول ١٩٤٩ - ص: ٣٠.

(انتهت قضايا الحجر لمصلحتي ولكن حالتي الساعة، اذ أنا أخط هذه السطور لم تتغيّر تغيّراً محسوساً فيما يتعلق بأشغالي. مكتبتي ما زالت عند الناس رهينةً، وحوائجي مبعثرة، ولست أدري ما أنال منها، وبيتي يقطنه الناس[1]، وأنا أدفع إيجاره، في حين أنا أقطن هـذا البيت المفروش، الذي لضيقه ولضعف النور فيه أسميه كهفاً، وأدفع إيجاره بالطبع)[2].

ولما ضاق صدرها في ذلك البيت المظلم أخذت تبحث عن شقة أخرى لاستئجارها، بانتظار فوزها بصورة من الحكم، ولم يكن الأمر يسيراً بدليل انها قالت لصديقها خليل الخوري في احدى رسائلها اليه:

(وقد ابتسمت بشيءٍ من الكآبة عند قولك في خطابك: «كفاك انزواءً ومقاطعةً!» ابتسمت لأني كنت جدّ متعبة من دورةٍ طويلة مضنية في الشوارع لأبحث عن منزل. انـي منذ عشرة أيام، أبحث قبل الظهر وبعد الظهر، وما اكثر المنازل في هذه الأزمة المالية الخانقة، ولكن ما أقلّ ما يوافقني منها! ولا يحسن ان أكون الا في هذه الدائرة من المدينة)[3].

وأخيراً وُفقت باستئجار شقة كبيرة، منوّرة، في الطابق الثالث من ذات العمارة التي سكنت فيها، منذ رجوعها الى القاهرة، غير انها لم تنتقل اليها الا في شهر مايس، استناداً الى ما ورد في رسالة مطولة وجهتها الى الأمير مختار الجزائري، في ١٦ مارس ١٩٣٩:

(. . . وقد فزت بصورةٍ من الحكم في هذين اليـومين والحمـدلله! فالآن، الآن فقط افكر في تصفية أحوالي. ما زلت في هذا البيت الذي عرفته الأميرة سامية، والمرجّح اني سأبقى فيه الشهر القادم ايضاً لبطء الاجراءات

---

(١) تقصد ميّ البيت الذي نقل أنسباؤها اليه أثاث بيتها من عمارة الأهرام أثناء غيابها، وقطنه ابن عمها اغناطيوس، وكان واقعاً في منطقة «شبرا» بالقاهرة.

(٢) (٣) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٧٨ ـ ٤٧٩.

القانونية في الحصول على أثاثاتي ومكتبتي، مع اني ما زلت أدفع إيجار الأمكنة التي تحتويها)[1].

وشرعت في تسديد ما عليها من ديون منذ أن حصلت على صورة عن الحكم في الرابع عشر من شهر آذار، كان أول ما فعلته هو ارسال شك بمبلغ خمسمائة جنيه مصري [2] باسم الأستاذ مصطفى مرعي، ضمنته الرسالة التالية:

(القاهرة في ١٧ مارس ١٩٣٩

سيدي الأستاذ العزيز

للعطف الكريم الذي أبديتموه نحوي في هذه المرحلة العسيرة من حياتي، للعناية النافذة التي هي أقرب الى حميّة الصديق النبيل منها الى اهتمام المحامي، للكلمة اللوذعية التي ردّت اليّ الحرّية السليبة ـ كيف أجد ألفاظاً مليئةً حياةً تعرب عما أشعر به من عواطف الشكر والوفاء؟

اقبلوا تبيان شكري، وان كان التبيان ضئيلاً. وامتنوا عليّ بتقبّل هذه الورقة الصغيرة التي أودعها خطابي بكل خجل.

مع تحية الاكرام

ميّ)[3]

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٨٥.

(٢) علمنا بمبلغ الشك المذكور من معالي الأستاذ مصطفى مرعي بالذات.

(٣) لقد سبق ونشرنا هذه الرسالة في كتابنا: «ميّ زيادة وأعلام عصرها» ـ ص: ٤٨٨، بعد ان تفضل الأستاذ مرعي باعطائنا صورة عنها.

القاهرة في ١٧ مارس سنة ١٩٣٦

سيدي الأستاذ،

للعطف الكريم الذي أبديتموه نحوي في هذه المرحلة القصيرة من حياتي، للعناية الرقيقة التي هي أقرب إلى غيرة الصديق إلى اهتمام المحامي، للكلمة الوديعة التي ردت إليَّ الحرية السليبة — كيف أجدُ ألفاظاً مليئة حياةً فتعربُ عمّا أشعرُ به من عواطف الشكر والوفاء؟

اقبلوا شيئاً من شكري وإن كان الشيء قليلاً.

وامتنوا عليَّ بتقبل هذه الورقة الصغيرة التي أودعها خطابي بكل خجل.

مع تحية الإكرام،

« يحيى »

ولكن الأستاذ مرعي أعاد اليها الشك وأقسم لها بأنه نـال أضعاف أضعاف ما يستحق على اتعابه، ان كانت هنالك أتعاب، بالتعرف اليها، وكسب ثقتها وصداقتها! فلقد زارها مع زوجه في اليوم الـذي تسلم فيه رسالتها، ورجاها بأن تطوي الموضوع نهائياً. وتقول السيدة نور حرمه بتأثر كبير: (وبعد بضعة أيام أتت ميّ لزيارتنا في منزلنا الواقع في الرقم ١٨ من شارع النيل وهي تحمل الينا هديتين ما زلنا نحفظهما: سلسلة ذهبية الي مع قلادة للصدر من المرجان الايطالي، وعلبة من الخشب المطعم بالفضة لزوجي كانت قد ملأتها بقطعٍ من حلوى الكستناء من محلات «غروبي»)[١].

حاول أصدقاء ميّ القدامى الاتصال بها وزيارتها دون جدوى، فقد قاطعتهم دون استثناء لأنهم نسوها في محنتها، بل تخلوا عنها وهي في أشدّ الحاجة لرعايتهم، ومنهم العقاد، وجميّل، ومطران، ولطفي السيد، وطه حسين الذي قال في حديثه للأستاذ محمد عبد الغني حسن، بعد وفاتها:

ـ (وتسافر ميّ وتعود وقد قطعت صلاتها بأكثر الناس، وكنت منهم، واذا هي تؤثر ان تلقاني في كتبي، وفيها أنشر من فصول. . .)[٢].

كانت تقول لأصدقائها الجدد آل ادريس وآل مرعي الذين عـوّضوا عليها بمحبتهم، وتفانيهم من أجل نجاتها، وأنسهم، ما افتقدته من أولئك الأدباء العاقين:

ـ (لا استطيع والله ان أصفح عن تخليهم عني في أيامي السوداء، كما أنني لا أقرّ السيد المسيح على قوله: «إذا ضربك أحد على خدّك الأيمن فأدر له خدك الأيسر!»)[٣].

---

(١) من حديث السيدة نور حرم الأستاذ مصطفى مرعي الينا في بيتها بالقاهرة في ٢٤ ـ ٤ ـ ١٩٧٩ وقد أطلعتنا على هديتي ميّ اليها والى زوجها، وهما ما زالا يقيمان في العنوان ذاته.

(٢) ميّ أديبة الشرق والعروبة ـ محمد عبد الغني حسن ـ ص: ٤٣.

(٣) من حديث السيدة نور حرم الأستاذ مرعي الينا المشار اليه آنفاً.

حصرت اهتمامها بلمّ شعثها، كما كانت تقول، وبمراسلة أصدقائها الذين آزروها في محنتها بلبنان، لتعرب عن شكرها العميق لهم، فكتبت الى كل واحد منهم رسائل رائعة، واستهلت رسالتها الى الأمير مختار الجزائري المؤرخة في ١٦ ـ ٣ ـ ١٩٣٩ بقولها:

(أهديتني هذا القرطاس في مثل هذه الأيام من العام الماضي، بُعيد انتقالي، بفضل شهامتكم، الى بيتي في رأس بيروت، حتى القرطاس الذي أحاول ان أعرب عليه شيئاً من عظيم شكري لهو من بعض كرمك، وكرم الأميرة سامية. ما أوفر فضلكما عليّ، يا صديقي النبيلين، وما أغنى تنوّعه! ان ذلك الفضل عالم قائم بذاته، وفي قلبي عالم يموج بالشكر والمحبة والوفاء، ولكن الألفاظ تعصاني اذ أحاول الوصف والبيان. ولقد تتوّج هذا الفضل يوم أعطيتني، يا أمير مختار، حرمك الفتانة تصحبني حتى بيتي المتواضع في مصر، فتشرفني بحلولها فيه، وتشرفني باثبات عنايتها بي هناك وهنا على السواء. هذه منحة المنح أحفظها في سويداء قلبي)[1].

وبعد أن وصفت له ما أضحت تعانيه في مصر منذ عودتها اليها، وزوّدته بأخبارها الشخصية، حدثته عن عناية حسين بك ادريس الفائقة بها بقولها:

(... ولله درّ حسين بك وقرينته، كيف أحدثك عن طيبتهما وانسانيتهما؟ كثيراً ما نذكركم عندما نجتمع فأحدثهما عنكم حديثاً يسرهما ويطربني)[2].

ثم بلغت غايتها من الرسالة بوفاء دينها المادي فقالت:

(بخجل شديد أطوي خطابي على ورقةٍ صغيرة أرجو ان تمتنّ عليّ بقبولها. أأفي هذا الدين النقدي، والدين الأدبي لا يُحدّ ولا يحصر؟ ألا بورك

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٨٣.
(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٨٥.

فيكما، يا سليليّ البطل العظيم، وبورك في الدم الشريف الذي يجري في عروق الأسرة الجزائرية المبجّلة!)[1].

وتقول الأميرة نجاة، كريمة الأمير مختار الجزائري، ان والدها كان قد استأجر الشقة التي اقامت فيها ميّ في بيروت وأنفق من ماله لتأمين راحتها، وهو بذلك سعيد، وإنه قَبِلَ الشك الذي أرسلته اليه حتى لا يجرح كبرياءها! ولما كانت حريصة على دفع ما يترتب عليها لوكيليها الأستاذين حبيب ابو شهلا وبهيج تقي الدين اللذين تطوعا للدفاع عنها، سألت الأمير مختار بقولها:

(... أرجو منك ان تعيّن لي المبلغ الذي ينبغي أن أرسله الى المحامين الفاضلين، وان ترشدني الى طريقة ارساله فتزيدني منّةً فوق منن)[2].

وظهرت خفة روحها حين كتبت تقول في الرسالة ذاتها، منوّهةً بتسلّم محاميها الظريف الأستاذ أبو شهلا منصباً وزارياً:

(قل للأستاذ أبي شهلا اني أهنىء الداخلية والخارجية به شرط أن يُعنى بالملاحظات التي أبديتها له شفاهاً. وقد رأيت معاليه في الصورة، قرب الشاهبور لدى مروره ببيروت، فراقني منظره في «رادنجوته» المُحكم. سأكتب اليه قريباً، فليتفضل معاليه بالترحيب بخطابي سلفاً!)[3].

فاتح الأمير مختار الأستاذين أبي شهلا وتقي الدين برغبتها في تحويل مبلغ من المال اليهما لقاء أتعابهما فطلبا اليه ان يبلّغها «انها فضّلت هي عليهما بإتاحة الفرصة لهما بالدفاع عن قضيتها التاريخية، وانها سيدة «فوق البشر» يعتزان بصداقتها، ويعتبران انهما مدينان لها...»)[4].

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص ٤٨٥.

(٢) و (٣) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٨٦.

(٤) من حديث الأستاذ الشيخ بهيج تقي الدين لنا الشخصي الذي أجريناه معه في بيروت في ٧ ـ ٦ ـ ١٩٧٥.

ولم تنس ميّ أفضال الأمير خالد، شقيق الأمير مختار الجزائري، وزوجه الأميرة زهراء، فكتبت اليهما رسالة في ١٧ ـ ٣ ـ ١٩٣٩ تقول:

(مصر بعيدة عن بيروت بيد أن ذكراكم من القرب اليّ بحيث هي تحيا معي كما تحيا فيّ. وكم من مرةٍ أغمض عينيّ ناسيةً اني هنا لأتخيل اني ما زلت مقيمةً في بيتكم الرفيع العماد، بيت المجد الطريف والتالد، أنعم بتلك الضيافة الرحيبة، الجامعة لشتى صنوف العطف واللطف والكرم، فوق كل ما نعمت به قبلاً منذ ان كنت بالمستشفى الذي كان للأسرة الجزائرية وأنسبائها اليد الطولى في نقلي الى بيتي ـ كل ما نعمت به من مظاهر النخوة والاغاثة والأريحية مما يكفي في تعريفه ان يُنعت بالجزائريّ لصدوره عن أحفاد بطل الشرق العظيم وحفيداته.

وأبيتم الا ان تمنحوني فوق ذلك أسنى الآلاء ساعة سمحتم لزهرتكم[1] الحسناء ان تصحبني مع الأميرة سامية الى مصر، فتشرّف الأميرتان النبيلتان هذا البيت الصغير الذي أصبح بوجودهما قصراً، ولا منيف القصور، وتقبلان ببساطة خليقةٍ ببنات الملوك عيشة الضيق بين هذه الجدران الضيقة. كان لهذا الكرم الباذخ منكم ومنهما عندي معناه الرفيع، وقد دوّنته في قلبي الذي أصبح سجلاً لحديث أفضالكم، وغرّ مناقبكم)[2].

وبمثل هذا البيان الرفيع داعبت الأمير خالد بقولها:

(وهل لي ان أسأل عن الراديو؟ أما زال يتعمّد الارتباك أحياناً ليتشرّف بلمس يد الأمير خالد «الميكانيست» البارع يصلح أسلاكه، وينظم أدواته؟) [3].

وعلى الرغم من مشاغلها وقلقها كانت تفيض ظرفاً وانساً مع أولئك

---

(١) أي الأميرة زهراء.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٩٠.

(٣) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٩١.

الذين غمروها بحنانهم وعطفهم، اما الآخرون فقد حاولت ان تنساهم، وامتنعت عن ذكر أسمائهم في أحاديثها مع آل ادريس وآل مرعي، وفي رسائلها لآل الخوري والجزائري. غير ان الأستاذ اميل زيدان طرق بابها ذات يوم على غير موعد فوجمت عندما واجهته، ومنعها ذوقها من صدّه، فدخل الى البهو وجلس، وهذا ما قاله في وصف تلك الزيارة:

(اني من الذين يحملون لميّ تقديراً كبيراً وودّاً قديماً صافياً، ومن الذين تناهت اليهم اشاعة جنونها، فتألمت كثيراً وحالت اعمالي في الهلال دون السفر إلى لبنان لتفقدها. ثم بلغني نبأ إبلائها ومحاضرتها الرائعة عن رسالة الأديب فكتبت اليها مهنئاً ولم أتلق جواباً. ومنذ رجوعها الأخير الى القاهرة لم انفك عن مخابرتها تلفونياً، وطلب زيارتها فلم يكن نصيبي الا الصمت والرفض، ولكني زرتها عنوةً دون سابق موعد، مدفوعاً بالتلهف على استرضائها، فادخلتني ولما شرعت بالكلام معتذراً، ومهنئاً قاطعتني وهي محتدّة، واتهمتني بالعقوق قائلة ان مجرد تصديق اشاعةٍ مغرضة باختلال عقلها هو العقوق بأبشع صوره، ناهيك عن التنكر الذي ظهر مني ومن أمثالي للصداقة والزمالة و... و... لقد أفحمتني والله في ذلك اليوم، وأخجلتني، وآلمني ضميري، وخرجت من بيتها حزيناً، آسفاً، أسأل الله المغفرة، وأسأله لها راحة البال وصفاء القلب)[١].

وتكرم الأستاذ اميل زيدان وأعطانا مجموعة رسائله اليها التي كانت ميّ قد اعادتها له سنة ١٩٣٥، ورسائلها اليه التي حققناها ونشرناها في كتابنا: «ميّ زيادة وأعلام عصرها».

كانت ميّ تشكو من ألم حاد في أسنانها فتتناول حبوباً مسكّنة وترفض مراجعة الأطباء. حاول الأستاذ مصطفى مرعي والسيدة نور زوجه ان يقنعاها

---

(١) من حديث الأستاذ اميل زيدان الينا الذي أجريناه في بيته بالمعادي في القاهرة بتاريخ ٣٠ - ١ - ١٩٧٥.

بضرورة اصلاح المعطوب منها، وارشداها الى طبيبهما الخاص، فقالت لهما بصراحة:

- «أشكر اهتمامكما كل الشكر ولكنني أفضل احتمال آلامي على اضطراري لقلع أسناني كلها، فلقد كانوا في العصفورية يفتحون فمي بآلات من حديد لكي يُدخلوا الطعام الى معدتي! ولا أخفي عنكم انني أخاف من القلع، وأعلم علم اليقين بأنه ضروري وحتمي سيأمر به أي طبيب أراجعه...».

وكانت تمزح وتقول لهما: «سيبونا من حديث الطب والأطباء، وثقوا بأني لو علمت بأن الأستاذ مرعي قاضٍ ومحامٍ لأوصدت الباب دونه، ولو توسط فرعون لكي استقبله!...» وقد روت السيدة نور مرعي ما يلي: (كانت ميّ تؤثر ان نقضي السهرة في بيتها من حين الى آخر اذ كانت عاكفة على تتمة كتابين تؤلفهما: «ليالي العصفورية» و«المنقذون». وفي تلك السهرات كان يتجلى ولعها بالموسيقى والشعر والغناء، فتنتخب اسطوانات سلامة موسى والسيّد درويش، وفتحية أحمد، وعبد الوهاب، وام كلثوم، لنسمعها معها، وتبدي أسفها لفقدان آلتيّ البيانو والعود اللتين تعوّدت ان تعزف عليهما منذ مطلع صباها. كما كان يروقها ان تغني بصوتها الرخيم أنشودتها المفضلة:

يـاظـلامَ الـسجـنِ خيِّم ... انـنـا نهوى الـظَّلامـا
لـيسَ بـعـدَ الـليـلِ الا ... فَـجْـرُ مَجْـدٍ يـتـسـامى!
أيهـا الحـراسُ رِفـقـاً ... واسمعـوا منـا الكـلامـا
مـتِّـعـونـا بهـواءٍ ... منـعـه كـان حـرامـا[1]

(١) ان هذه القصيدة التي أضحت نشيداً وطنياً ابان الانتداب الفرنسي على سورية من تأليف الصحافي الكبير الأستاذ نجيب الريس، رحمه الله، نظمها في السجن عام ١٩٢٢، وأثبتها في كتابه «النضال» الذي نشره في دمشق عام ١٩٣٤ «مطبعة القبس» ص: ٢١٢ - ٢١٣. وقد اختلف الكتاب على اسم ناظمها، نسبها بعضهم خطأً الى الشاعر فؤاد باشا الخطيب، كما لحنها فريق من الشباب الوطني الذين اعتقلوا معه، ثم لحنها الاستاذ عبد الوهاب عام ١٩٣٣.

ولقد حفظنا ذلك النشيد القومي، وكنا ننشده معها في بعض الأحيان.

وفيما يتعلق بآلاتها الموسيقية فقد استعادت آلة البيانو فقط بعد ان تسلّمت ما تبقى من أمتعتها لأن ما تبعثر وفُقد، وسُرق ونُهب من أثاث بيتها، ومن مكتبتها، وأمتعتها الشخصية، كان أكثر بكثير مما تسلمته بعد انتهاء معاملات تثبيت إلغاء الحجر، والجرد والتسليم... حاولنا كثيراً الترفيه عنها، في تلك الفترة، فكانت تمتثل لنصحنا، ولكنها ظلت متحسرةً على ما فقدت حتى النهاية! ان أصح ما يمكنني ان أصفها به، رحمها الله، هو انها كانت تحمل روحاً جبارة وخلاّقة أضحت مسجونة في جسمٍ واهن!)[1].

بعدما انتقلت ميّ إلى الطابق الثالث من العمارة الواقعة في شارع ابو السباع رقم ١٦ في نهاية شهر مايس **١٩٣٩** وجهت الرسالة التالية الى أحد اصدقائها المنقذين في لبنان، الوجيه الأردني خليل سكّر، تعتذر عن تقصيرها في شكره وأسرته على افضالها عليها:

(حضرة الوجيه المفضال خليل بك سكر

اليوم ٩ يونيه (حزيران) هو أول يومٍ أستطيع فيه أن أجلس الى مكتب أجد عليه أدوات الكتابة من قلمٍ وحبرٍ وقرطاس، في بيتٍ يمكنني أن أسميه بيتي بعد النفي والتشرّد، طيلة ثلاثة أعوام ونصف عام.

ولكم الكثير من الفضل في ارجاعي الى حياة الحرية والاستقلال الشخصي التي يحياها الناس أجمعون. فاقبلوا شكري الصادق العميق لما قمتم به من نبيل المسعى في سبيل إنقاذي وإنصافي في إبان إقامتي ببيروت. ومن ثم أرجو المعذرة لابطائي في تقديم واجب الشكر. فالإبطاء كان نتيجة الظروف التي أحاطت بي بعد عودتي إلى القاهرة، ونتيجة المتاعب التي فرضتها عليّ تلك الظروف مما لقيت في القيام به، أو بالخروج منه، المشقة والعناء.

---

(١) من حديث السيدة نور مرعي الينا في أوتيل بريستول ببيروت عام ١٩٧٤.

تذكرون كم كانت المفاجآت عديدة إبان سير قضيتي في بيروت، أما هنا فقد كانت المفاجآت أكثر عدداً، وأدق طبيعة، وأعسر معالجة حتى انتهيت إلى ما أنا فيه الآن بفضل رحمة الله، وبفضل ذوي الأريحية ـ وأنتم في الطليعة.

فلئن مثّلتم في هذه المأساة، أو بالحري لاخراجي منها، شخصكم الكريم بدافع من انسانيتكم الحية، وشمائلكم الغراء، فقد كنتم في نظري تنوبون كذلك عن اخواننا الأردنيين في ما أبديتم من نخوةٍ وشهامة، وفي إحياء تلك المكارم العربية التي لا تفوقها في سموّها أية حضارةٍ، في أي دورٍ من أدوار التاريخ)[1].

وهنا تجدر الاشارة الى ان الوجيه خليل سكر كان يعتز كثيراً بصداقة ميّ، ويشكر الظروف الطيبة التي أتاحت له فرصة القيام بواجب الدفاع عنها، ويردّد في أحاديثه، حتى آخر حياته، قوله:

(لقد تأثرت كثيراً عندما قمت بزيارة ميّ في بيروت سنة ١٩٣٧ بصحبة زوجي، ابنة صديقها الكبير جبر ضومط، ووجدتني أمام سيدة نادرة في نبوغها وانسانيتها، وقلت لصديقي خليل الخوري يومذاك: لم أر في حياتي علماً وأدباً متمثّلين في شخصيةٍ مثل علمها وأدبها، ولا ذكاءً مثل ذكائها، ولا رقة مثل رقتها، ولا رصانة مثل رصانتها. فكيف يجوز ان تُنعت بالجنون من لها هذه الرؤيا الواضحة، وهذه القدرة على التحدث في الموضوعات الثقافية والاجتماعية والقومية؟ ان ما أصابها من عنتٍ وظلم فاضحين يفوق حدّ التصوّر، فوالله لن يهنأ لي عيش الا اذا قرّت عيني بانقاذها)[2].

ثم قام الأستاذ خليل سكر بدور مشكور في انقاذها تحدثنا عنه آنفاً، وأضحى من الملازمين لها ابان اقامتها في بيروت يقضي بعض السهرات

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٩٣ ـ ٤٩٤.

(٢) من حديث الأستاذ خليل سكر الينا الذي أجريناه في بيته برأس بيروت في ١٩ ـ ٥ ـ ١٩٧٥، قبل وفاته بخمسة أعوام، رحمه الله.

عندها مع آل الخوري ويرفّهون عنها أحياناً بلعب الورق (البيناكل)، لذا أضافت تقول له في رسالتها اليه:

(كيف انتم والبيناكل؟ أما زال خليل بك الخوري يحنق و«يُشمّع الخيط» كلما رآكم تلعبون «برتية ورق» بنت حلال؟ أما انا، صاحبة الماضي المجيد في لعبة «البيناكل»، وكل مجدي يقوم في اني غلبتكم في كل «برتيّة» لعبناها سوياً ـ انا نسيت من ذلك الفن كل شيء لأني في القاهرة عدت الى ما كنت عليه قبل ثلاث سنوات، لا ألعب أصلاً اذ ليس لي من الوقت ما يمكنني من التفكير في اللعب. غير اني أتمنى ان تجمعنا الأيام مرةً أخرى لأعود فأغلبكم، ولو حرّق خليل بك الخوري الأرم!)[1].

كانت ميّ تعرب لأصدقائها في لبنان عن تمنّيها الرجوع اليه لزيارتهم والاستمتاع بصحبتهم، ولكن أمنيتها هذه لم تتحقق لاستغراقها في تنظيم حياتها البيتية، ومن ثم في متابعة نشاطها الأدبي، كما سنرى فيما بعد. كتب اليها المنقذ الأول مارون غانم معرباً عن خوفه من وطأة حرّ القاهرة على صحـــتها[2]، فكانت رسالتها اليه نابعة من أعماق قلبها الفائض بالوفاء له وبالعرفان بجميله اليها حين أخرجها من أتون العصفورية لذا قالت له:

(. . . فكرت فيك كثيراً في ٢٢ مارس الماضي، تاريخ خروجي من العصفورية على يدك قبل عامين. وحدثت عن همتك من زارني في ذلك اليوم من الأصدقاء، عارضةً لهم بعض التذكارات التي أهديتنيها، ومنها المشط الأبيض، بعد مشط العصفورية المكسور. . . وفكرت فيك كل الأسابيع التي سبقت ٢٢ مارس، وفي الأسابيع التي كنت خلالها تجاهد لتنقذني. كم أنا شاكرة لك يا أخي هذا العطف العظيم، وهذه الهمة النادرة!

ان عملك الذي أتممت بانقاذي لهو حقاً جميل كالوحي، بديع كالبطولة،

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٩٤.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٨٢. والأرم: أطراف الأصابع.

إنسانيّ من لباب الانسانية، قويّ كاليقين الذي يخذل قوة الدسيسة والمراوغة، والخبث والاحتيال. لا بدّ ان يد الله كانت معك فان عملاً واحداً من هذا النوع يكفي ليملأ عمراً تاماً يُفيض الفضل. وأنت صاحب هذا الفضل، وأنا موضوعه، ولولاك، ولولا فضلك المستوحى من فضل الله، ما كنت اليوم في مصر، ولا كنت من قبل في بيروت، ولا استطاع أهل النخوة والاريحية ان يتموا عملية الانقاذ التي شرعت بها. ألا أدْعُ صديقك الروح، وسَلْهُ ان يلهمني ألفاظاً تمكنني من الاعراب عما أشعر به من وافر الشكر، وصدق الوفاء لك ولقرينتك العزيزة، ولوالدتك المحترمة، ولشقيقتيك اللطيفتين، ولشقيقك الظريف جداً. اني ممتنة لأسرتك امتناني لشخصك لأن كل فردٍ من أفراد بيتك الكريم ساعدني عن بُعدٍ بعطفه، بصلواته، وبتأييدك في دفاعك الحميد عن حريتي، ومسعاك الأريحيّ لانقاذي. ارجو ان تكون رسولي اليهم جميعاً فتقدم عواطف الشكر والمحبة مع سلامي وأشواقي وأجمل تمنياتي.

تؤلمني جداً الحالة في سورية، وقد كنت في غمٍّ لا يوصف عندما قرأت في الأسبوع الماضي خبر نفي فارس بك الخوري، أما الآن فأشكر الله لعلمي ان الخبر غير صحيح: ثرثرة صحف مهيّجة، ليس غير! أما تكفينا مصيبتنا بفلسطين!؟)[1].

ان انشغال فكر ميّ على الزعماء العرب الأحرار ابان الاحتلال الغربي لبلادنا في مختلف ألوانه، وتألمها لألوان الانتداب والاضطهاد التي كانت تحيق بأرجاء الوطن العربي سنة ١٩٣٩ كان نابعاً من وعيها القوميّ الكبير، ومشاعرها الوطنية وادراكها لأخطار وذيول تلك النكبات على الأمة العربية التواقة الى الحرية والتقدم والاستقلال! وما أجمل رسائل أعلام عصرها اليها، ولا سيما رسالة الزعيم فارس الخوري التي بعث بها في السابع من شهر تموز

---

(١) «الحسناء» ـ عدد ٥ ـ ٧ ـ ١٩٧٤، ص: ١٦ و ١٧ ـ وقد نشر هذه الرسالة الرائعة الدكتور جميل جبر في عدد تلك المجلة المشار اليه في سياق مقالة له قيمة كانت بعنوان: «ميّ زيادة».

سنة ١٩٣٩، واستهلّها بهذه العبارات البليغة، بلاغة بيانه، الظريفة ظرف شخصيته:

(سيدتي أميرة البيان الآنسة ميّ أطال الله حياتها، ومتّعنا بنفحاتها الشاذية. بعد ان كتبت في توجيه هذا الخطاب «حياتها الغالية» قلت لا بد من عبارة أخرى ينسجم بها الوقف، وترددت بين أن أقول «ومتعنا بنفثاتها الكاوية» أو «بصيحاتها الداوية» أو «بطلعتها الزاهية» أو «بفضائلها السامية» أو بغير ذلك من السجعات الكثيرة التي تنطبق على احدى نواحي سجاياكِ الجمّة التي تفسح للواصف مجالاً رحباً للوصف كيفما انقلب. وأخيراً اخترت النفخات الشاذية بما لها من قوة الاشعاع والانتشار رغم بُعد الدار، وشطّ المزار، فأنت كما قال المتنبي:

كالبحر يقذف للقريب جواهرا
جوداً ويبعث للبعيد سحائبا
كالبدر في كَبِدِ السماءِ وضَوْؤُهُ
يغشى البلادَ مشارقاً ومغاربا

فدومي يا سيدتي ما خصّتكِ الطبيعة به من البسطة في العقل والفضل، وأروي غليل المعجبين بأدبك الرائع، ونبوغ علمكِ الفياض)[١].

ومن تتمة رسالة الزعيم فارس الخوري اليها يتبين لنا انها وجهت اليه رسالة شكر على موقفه المشرف ابان محنتها اذ قال لها، منوهاً بسكناها في شارع ابو السباع:

(اما الآن وقد علمت من خطابك ان الظبي الأغن يكنس في عرين «السباع» فما كدت آتي على تلاوة هذه الرسالة الطلية حتى بدأت بتسطير هذا الجواب، وأنا خجلٌ مما طوّقتِ به عنقي من قلائد الثناء الفضفاضة على

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٩٥.

طوقي، وتقدير الهنة الهيّنة التي سبقت مني نحوك فوق قدرها، بينما أنا آسف لأني لم أقم لديك في أيام المحنة بأكثر مما قمت به من العمل القليل، والسعي الضئيل (فَربَّ فيض مجحود وغيضٍ محمود) وإني مغتبط بأن لي عندك محلاً تذكرينه بالمودة، وتشرفينه بالصداقة والاخلاص.

لا أدري بما صنع الله بصديقنا الأستاذ الريحاني، جار وادي الفريكة، واشتهي استعادة تلك الذكرى يوم كنت جارة ذلك الوادي أيضاً، وأنسنا بهاتيك المجالس العذبة نصغي الى بيانك الساحر، وانت كما قال الشاعر:

مِنَ الخفراتِ البيض وَدَّ جليسُها
اذا ما انقضت أحدوثةٌ لو تُعيدها[1]

وهكذا نرى ان ميّ التي تجاوزت سنوات محنتها في حمى المنقذين اللبنانيين والسوريين والأردنيين، قد استعادت مركزها الأدبي المرموق، وان ذكراهم ورسائلهم اليها أضحت سلواها ومورد سعادتها بعد رجوعها الى مصر، وبقائها وحدها في بيتها بالقاهرة. ولا يُنكر فضل بعض أصدقائها المصريين الجدد في مؤازرتها وإحاطتها بالمودة والتقدير، ولكن لا بد من القول ان الفارق كبير بين أولئك الذين تفرغوا لاسعافها ومؤانستها وتبنّيها مادياً ومعنوياً في لبنان، وبين هؤلاء الأكارم الذين أحبوها باخلاص، بلا شك، ورفعوا عنها الحيف في مصر، ثمّ أخذوا يسألون عنها ويزورونها، من حين الى آخر، لأنه كان لكلٍ منهم مشاغله وارتباطاته في حياة القاهرة الصاخبة.

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٩٥ ـ ٤٩٦.

التألق والغروب

(كانت ميّ كرمةً نابتةً في أرض شوكٍ كثير فالتفّ عليها الشوك وخنفها خنقاً. وما كانت أيام ميّ الأخيرة غير اختناق بطيء.
أنطون سعادة)[1].

حاولت ميّ التكيّف مع واقعها في مصر بكل ما أوتيت من عزم وذكاء، فلم تجد لا الراحة النفسية، ولا الاطمئنان الى الحياة، وليس هذا بمستغرب بعـدما حلّ بها من محنٍ مادية ومعنوية استنفدت قواها، فكانت أيامها الأخيرة عراكاً مروّعاً مع اليأس، ان لم تكن اختناقاً بطيئاً على حدّ قول الأستاذ أنطون سعادة. فلا البيت الذي ضمّتها جدرانه من جديدٍ في القاهرة كان بيتها الحقيقي الذي قضت عمرها في ترتيبه وتنظيم مكتبته، والخلود الى العمل والراحة فيه، ولا أيامها فيه حملت اليها ما يدعو الى التفاؤ ل والغبطة. بل على العكس تماماً فجعتها الأيام بموت أعزّ صديقين من منقذيها: فيليكس فارس وأمين الريحاني. كان فيليكس فارس يأتي من الاسكندرية الى القاهرة لتفقّدها كل أسبوع، فاختطفته المنية على حين غرة في شهر تموز (يوليو) سنة

---

(١) الآثار الكاملة لأنطون سعادة ـ الفصل الذي يحمل عنوان: «أدب» ـ ص: ١٨١ ـ ١٩١.

١٩٣٩ وحزنت عليه حزناً بالغاً تحدثت عنه الى أمين الريحاني في رسالة بعثت بها اليه في ١١ - ٧ - ١٩٣٩ فقالت:

(واهاً ما أشدّ تفجّعي على صديقنا العزيز فيليكس، وما أضعف يدي دون الكتابة عنه! اني لا أقوى على كتابة خطاب تعزية الى أسرته لأني أنا فقدته كما فقده أهله. أقول لك صدقاً اني مرضت منذ علمت بوفاته. وكنت قد صمّمت على السفر الى الاسكندرية لأعزي أسرته، وأودّع جثمانه فخانتني القوة، ولو ذهبت لمرضت بحيث أضطر الى ملازمة السرير أسابيع هناك، وأنا، دون سائر الناس، لا يجوز لي أن أمرض... العوض بسلامتك يا أخي أمين. عِش طويلاً في عافيةٍ وهناء، ودم لي ولأسرتك ولبلادك المعتزة بك)[1].

وجهت ميّ هذه الرسالة الى الاسكندرية لكي يتسلمها صديقها الأكبر لدى وصوله اليها من الولايات المتحدة الأميركية، وتوقّفه فيها وهو في طريق رجوعه الى لبنان. لقد أعلمها أخوه الأستاذ البرت الريحاني بموعد رسوّ الباخرة التي تقلّ أخاه، وتمنّت ان تكون في استقباله ولكن... ولكن ضيق الوقت من جهة، وتأخر صحتها واضطرارها لمراقبة العمال في بيتها من جهة ثانية حالا دون تحقيق تلك الأمنية العزيزة عليها، وهذا ما شرحته للصديق الأكبر الأمين بالعبارات التالية:

(لوصولك الى اول مرفأ شرقي، بعد هذا الغياب في أميركا، أرحّب بك باسمي وباسم الأدباء الذين يحبونك، وباسم هذا الشرق الفخور بريحانيّة العبقري. ولشد ما فرحت بهذا الخبر لأن وجودك في البلاد موسم فرحٍ لي، أنا التي أنتظر عودتك هذه منذ شهورٍ ستة، منذ قدومي الى مصر. كنت قد كتبت الى عزيزنا ألبرت أسأله عن موعد مرورك بالمياه المصرية لأكون في

---

(١) الريحاني ومعاصروه - ص: ٣٦٠ - ٣٦١.

استقبالك بالمرفأ، فجاء الردّ متأخراً جداً اذ نحن الآن في الساعة الثالثة. ومهما أسرعت في الاستعداد للسفر فلن أدركه، وشؤوني موزّعة، والعمال في البيت يشتغلون فلا أستطيع صرفهم فجأة. وأما قطار الساعة الثامنة فيوصلني الى الاسكندرية حوالى منتصف الليل فأدور في تلك الساعة وحدي أبحث عن مكانٍ في فندق... بقي قطار الساعة الحادية عشرة الذي يقضي الليل بطوله في الطريق، فاذا سافرت به ضمنت لنفسي ليلة أرقٍ فرأيتني غداً على غير ما يُرضيك، سيما وان صحتي على غير ما يرام في هذا الاسبوع حيث الجهد الطويل المضني الذي أنفقته، وأنفقه الآن على تنظيم هذا البيت، والحرّ الذي لا يطاق، قد أرهقاني وأضعفاني بحيث أضطر الى المكوث في السرير ساعات كل يومٍ طلباً للراحة!

وهكذا أنت تمرّ على بعد ثلاث ساعات من المكان الذي أنا فيه مقيمة، وأنا حرّة، ومع ذلك ليس في مقدوري ان أسارع الى ملاقاتك كما كنت أبغي، تحقيقاً للأمنية التي عللت بها نفسي شهوراً طويلة. وهكذا الانسان يقدّر، والظروف تصرّف!

ومن حسن الحظ أنك لا تشبه صديقنا العزيز خليل بك الخوري من حيث إيمانك بالروح، ولا تبحث مثله عن نكتةٍ في كل موضوع ذي اتصال بالروح. بل انت تفهم الحياة الروحية وتحياها، وأنت أستاذي فيها، وتعلم بالطبع، أنه حين تندحر الحياة الحسّية فالحياة الروحية ظافرة. فتفهم إذن أن روحي تستقبلك في المرفأ المصري، على رصيف المياه المصرية، تحت سماء الشرق الذي تحبه كثيراً. بل منذ الساعة، قبل ان تُقبل على الأرض المصرية، وأنت في عرض البحر، تسير اليك روحي خيالاً أثيرياً يطوف بك على سطح الباخرة، ويناجيك بأعذب ما يتناجى به صديقان، ويسدي اليك الشكر خالصاً لما أنعم به الآن من الحرية البشرية المألوفة، فان لك في هذا النجاح قسطاً باهراً، وافراً.

واذا بدت في الجو سحابة عند الغروب فهي تـرمز الى أسفي لأني سأحرم غداً فرصةً نادرة)[1].

وفي آخر الرسالة بثّت له همومها فقالت:

(. . . وأنت ذو الفكر الثاقب لا بد ان تقدّر ان المشاكل التي أجدها أمامي في مصر مما لا يخطر على بال، وان الذي يؤلم الروح، لمن كانت مثلي، ليست هي المشاكل المادية المحسوسة، والمشاكل القانونية التي هي عبارة عن تيه الأتاويه، انما هي المشاكل الأدبية المعنوية الروحيـة بعينها التي كـانت تعذبني، أيما تعذيب، خلال تلك الأعوام الثلاثة بلبنان، وقد اصطبغت هنا في مصر بألوانٍ أخرى. . . هذا تفهمه أنت، صاحب الروح الحيّة الذاخرة.

الوقت مرّ وأنا أكتب، ولكن عليّ أن ألجم القلم اذ لا بدّ من وضع كتابي بالبريد المستعجل في أسرع وقت ليكون عندك بالباخرة صباح غد. وسأكتب اليك فيما بعد باسهاب كما أشتهي، وأرجو ان تكون كريماً برسائلك وأخبارك، والا تنسى هذه الصديقة البعيدة التي تحنّ الى لبنان، والى أحبابها في لبنان اذ هي تتقلّ في هذا الجوّ القائظ)[2].

توالت الرسائل بين ميّ وأصدقائها في لبنان الذي كان حنينها اليهم واليه يزداد يوماً في اثر يوم، فوجدت في الكتابة اليهم تعزية كبيرة وسلوى لا تعادلها سلوى. وبعد موت فيليكس فارس أضحت تخاف عليهم من الردى أكثر من خوفها على نفسها، وحُقَّ لها ان ترهب موت أحدهم اذ لم يعد لها نصراء غيرهم. واذا شئنا ان نطّلع على حقيقة وضعها في القاهرة، ونوع مشاغلها فما علينا الا ان نقرأ ما كتبته في ذلك الصيف الى السيدة سنية الأيوبيّ حيث قالت:

(. . . وغداً سأعود الى العمل في البيت، ولا سيما في تنظيم المكتبة

---

(١) و (٢) الريحاني ومعاصروه ـ ص: ٣٥٨ ـ ٣٦٢.

التي لم يبق لي منها الا نحو (١٥٠٠) مجلد من (٧٠٠٠) سبعة آلاف. لست أقول لك كم أنا أتألم لكثرة ونفاسة ما فقدت، وعندما أرى كل ما نهبوه مني أفهم لماذا رموني بالجنون، ولماذا فعلوا كل ما فعلوه. وعندما أعرف أسماء الذين اشتركوا في السرقة (وهم أكثر من واحد) أفهم لماذا اشترك أُناس كثيرون في نشر الاشاعات!)[1].

ولا ريب في أن أكثر ما آلمها خسارة مكتبتها النفيسة، فالمكتبة التي يجمعها الكاتب، ويقضي مع كل جزءٍ من أجزائها أعذب أوقات عمره تصبح قطعة من نفسه، اذا فقدها فقد بعضاً منها. ومع ذلك موّهت على نفسها تمويهاً، واقتنعت بما رُدَّ اليها فأخذت ترتّب وتنسجم مع أشيائها شيئاً فشيئاً. وقد تحدث في هذا الموضوع ابن عمها نجيب اغناطيوس زيادة المقيم في مصر حالياً فقال:

(عندما كانت ميّ تقيم في بيروت وتتنقل من مستشفى الى مستشفى نقل أهلي مكتبتها وأثاث بيتها. كنت يومئذٍ مولعاً بالقراءة، ومعجباً بابنة عم أبي، من غير ان اعرفها شخصياً، فعلمت ان عدداً كبيراً من مجلدات مكتبتها قد بيع الى صاحب مكتبة كبيرة في القاهرة يدعى «محمد أبو العلا»، ولكني حصلت على بعض نسخٍ من مؤلفاتها كالصحائف مثلاً وابتسامات ودموع، واحتفظت بحوالى عشرة كتب أدبية مهداة اليها بخط مؤلفيها...)[2].

ثم طفرت دمعة من عينيّ هذا الرجل الشهم، وأضاف يقول:

أولو الفضلِ في أوطانهم غرباءُ تشذُّ وتنأى عنهُمُ القرباء

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٥٠٣.

(٢) من حديث السيد نجيب اغناطيوس زيادة الينا في بيته بالقاهرة بتاريخ ٢١ ـ ٤ ـ ١٩٧٩، وقد تفضل وتنازل عما احتفظ به من مكتبة ميّ وقدمه لنا مشكوراً، وسوف نقدمه الى لبنان عندما يقيم لها متحفاً فيه ان شاء الله.

نعود الى ميّ لنرى كيف كانت تقضي وقتها، وتُعرب عن همومها ومشاعرها الى أعز أصدقائها، فقد كتبت الى الأميرة زهراء الجزائري في بيروت في منتصف شهر آب (أغسطس) رسالة جميلة باحت اليها فيها بشوقها الكبير الى تلك الأيام السابقة حيث نعمت بصحبتها، وصحبة الأسرة الجزائرية، فقالت لها:

(وأشكر لك خصوصاً دعوتي لأقضي أياماً في ذلك البيت العامر المشيّد الأركان، ليت أشغالي المكتظة هنا تسمح لي بالذهاب الى لبنان أقضي، ولو أسبوعاً واحداً، لأراكم وأروي غليل الشوق الى الاجتماع بكم. ولكني هنا، مهما ترامت بيننا الأبعاد، أحسب نفسي دائماً معكم وبينكم ـ ومع ذلك أشتاق اليكم!)[1].

وكان لا بدّ لها من ان تبوح بحزنها على فيليكس فارس فكتبت تقول:

(... وقد قدّرت أنكم ستأسفون لوفاة ذلك الصديق العزيز الأستاذ فيليكس فارس الذي كان شديد الوفاء للأسرة الجزائرية، شديد الحب والاحترام لشخصك ولشخص الأميرة سامية بنوعٍ خاص، رحمه الله وأعاضنا الله عن فقده بطول عمركم. واني مرضت لفرط حزني عليه)[2].

ومن ثمّ أعلمتها بآخر ما استردّت من أمتعتها فقالت:

(الآن عندي عود ـ ليس عودي الأصلي الجميل ـ فذاك سُرق كما سُرق الشيء الكثير غيره. ولكنه ذو أوتار على كل حال ـ فليت الأيام تجمعنا مرةً أخرى هنا في مصر لنجدّد تلك السهرات التي لا تُنسى بين رنين العود، ورقص الملاح، وطرب الأمراء. واذا كان الأمير خالد ما زال على شغفٍ باصلاح الراديو فان الراديو عندي كثيراً ما يحرن... ويطلب يداً ماهرة تصلحه، شرط ان تكون يد الأمير خالد...)[3].

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٥٠٥.

(٢) و (٣) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٥٠٦ ـ و ٥٠٧.

وفي التاريخ ذاته وجهت خطاباً لأمين الريحاني جواباً على رسائله فقالت:

(. . . حسبي أن أقول في وصف خطابيك عندي اني لم أحسبهما خطابين، بلْ استئنافاً متقطعاً لحديث سابق، وقد زادا في شوقي اليكم، وفي حنيني الى لبنان. أصحيح اني قضيت ثلاثة أعوام في لبنان المحبوب، وأني عانيت فيه ما عانيت، وممن عانيت، وحيث عانيت، وأني أنقذني بعدئذٍ المنقذون؟؟ وأني حللت في رأس بيروت شهوراً، واصطفت في الفريكة شهوراً، متقلبةً في شتيت الغمرات حتى لكأني منها في بحرٍ متلاطم؟)(١).

وبعد ان أبدت استغرابها من بقائها على قيد الحياة، ومن عودتها الى تذوّق صنوف الجمال، ونزوعها الى كل مثلٍ سامٍ في الوجود أضافت تقول:

(أرأيت في حياتك انساناً غيري في مثل هذه الغباوة؟ ومع ذلك فهناك امور تغيرت عندي، أو انني تغيّرت في أمور: لست أطيق الآن ان يؤلمني أو يزعجني أحد، ولست أنيل الناس ثقتي، شأني من قبل، وهذا دليل على ان في داخل نفسي شيئاً من الشيب أيضاً. . . ماعلينا!)(٢).

وبعد أن ختمت رسالتها بالاعراب عن محبتها وامتنانها لما شهدت منه، ومن أسرته من همةٍ وأريحيّة في انقاذها ومواساتها، قالت له:

(ولكن شكري لكم جميعاً هو الجوّ الذي يحيط بي، وهو الروح التي تملي عليَّ كل كلمة أخطها، وهو النسيج الذي تُنسجُ منه أيامي ولياليّ. انه رحيب شامل لنجدتكم لي.

دُمْ كما أنت يا أخا الهمم، واسلم على ما أتمناه لك ولجميع الذين تحبهم من خيرٍ وهناء.

ميّ)(٣)

بخجلٍ شديد أطوي خطابي على ورقتين بعشرين ليرة سورية، وقد

---

(١) الريحاني ومعاصروه ـ ص: ٣٦٤.

(٢) و (٣) الريحاني ومعاصروه ـ ٣٦٥ ـ ٣٦٧.

أخبرني صديقنا خليل بك أنك دفعت هذا المبلغ عند استئجار بيت الفريكة معذرة وشكراً.

مي)[1]

إن مضمون هذه الرسالة الطويلة سجّل لحياة ميّ في القاهرة بعد رجوعها إليها، وسجّل لحنينها إلى وطنها لبنان، وسجّل لرواسب محنتها التي ظلت تحفر في قلبها جروحاً تندمل حيناً وتنزّ وتؤلم أكثر الأحيان. وقد تجلى ذلك الحنين الموجع في قولها للريحاني، في أحد مقاطع هذه الرسالة:

(وهل في وسعي، وأنا في مصر، أن لا أتجرد الساعة ـ مرغمةً ـ من الشعور بوجودي هنا لأحسّ أني في قريتكم الخالدة مقيمة، أجلس على «سطيحة» عمو أبو سلمون، وظهري إلى صنين، والبحر وجهتي، أشهد عنده وداع الشمس لهذه الناحية من الأرض، على وقع رنين الأجراس؟ وإني الآن فعلاً هناك أعيش تلك الثواني على مهل، وفي كل ثانيةٍ من المتعة الفنية وحرية الحركة ما يملأ عاماً بطوله ـ في تقديري أنا التي تجرّعت مرارة السجن وعرفت شقاء الضغط والأسر. أجل أشعر أني الآن فعلاً هناك أرقب تمثال «سيدة لبنان» المنتصبة على هاتيك الذروة السادرة في حضن الأفق، وقد انقلب شعلة اشعاع، وأنعم بالمتع المنوعة في انتظار السهرة... السهرة حيث تقبل أنت، والست سعدى، والمصطافون من الصادريين، ومعكم هيئة أركان حربكم: العفريت، عفريت ورق لعبة البيناكل وتوابعه «أم أنتم أركان حربه؟» يتقدمكم مصباحكم «اللوكس» معلناً عن قدومكم الميمون، وأنتم بعدُ داخل الدار قبل أن تخطوا في الخارج خطوةً واحدة، كأنما ذلك المصباح التاريخي رمز لفكر الريحاني، ما أن اتجه ذلك الفكر إلى ناحية ما إلا شقّ في الفضاء أخدوداً رحيباً من النور المنبىء بوقود مركزه المتحرّك... ثم نلعب «برتية» أو اثنين فتسجّل في سجلّك الفريد «الفوز المبين لميّ سيدة البنكلين...» وتندحر الست سعدى وفنونها في «الزعبرة»!)[2].

---

(١) الريحاني ومعاصروه ـ ص: ٣٦٥ ـ ٣٦٧.

(٢) الريحاني ومعاصروه ـ ص: ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

وفـي ذلك الصيف استقبلت ميّ صحافيين مصريين أثبتا لها أنهما كانا يتلقفان أخبارها إبان محنتها هما الأديب الصحفي الأستاذ أسعد حسني رئيس تحرير مجلة «العـالم العربي» التي أنشئت بعـد وفاة ميّ، والصحفي طـاهر الطناحي. كان أسعد حسني قد عرفها في سنة ١٩٣٢ فروى أنه ذهب لزيارتها بعد رجوعها من لبنان قال:

(طرقت باب بيتها فلما فتحته ورأتني قالت:

- «إني يا سيدي لا أقابل أي إنسان لم يذكرني في محنتي!».

قلت:

- «ومن يدريك يا سيدتي أني لم أذكرك؟ خذي هذه المجموعة من الصحف تجدي فيها كل ما كتبته عنك خلال غيبتك عن مصر».

وضحكت ميّ وهي تمدّ يدها لأخذ الصحف ثم قالت لي مازحةً:

- «إذن أدخل... فقد جئت ومعك جواز المرور!».

ولما جلست إليها أدهشني هذا التبدل الذي طرأ عليها، فقد كـان شعرها، كما عرفته، أسود، فإذا به أبيض كأنه قطعة من الثلج! وعندما لاحظت أني أطيل النظر إليها قالت باسمةً، وهي تشير إلى شعرها:

- «ألا يعجبك هذا! ألست تراني الآن كالبارونات؟»)[1].

أما المجلات التي قدمها لمي يومئذٍ فهي مجلة «الثقافة» ومجلة «المجلة الجديدة» اللتين نشر فيهما دراستين عن أدبها في أثناء غيابها عن مصر، كما أنه أرسل إليها تحية بسلامة عودتها إليها في أحد أعداد «المجلة الجديدة»، ورجاها (أن تنسى الليل الحالك الذي مرّ بها إبان محنتها، وأن تستغلّ الصبـح المبين الذي تسفر عنه حياتها الجديدة فتعود إلى سيرتها الأولى، وتحلّق في سـماء

---

(١) «العالم العربي» - العدد ٦٠ - السنة الخامسة - تاريخ ١ - ٧ - ١٩٥٢، من مقـالة الأستاذ اسعد حسني التي عنوانها «ميّ زيادة كما عرفتها - ذكريات وخواطرا -» وقد نشرها يومئذٍ بدون توقيع.

الأدب والفن، والتغريد على أفنان المعرفة والاجتماع لأن الناس متعطشون لمباهج ثقافتها الواسعة، ونغمات روحها الشاعرة)[1]. ثم أرسل إليها خطاباً رقيقاً. قرأت ميّ مقالات الأديب أسعد حسني عنها، بعد انتهاء زيارته لها، فكتبت إليه الرسالة التالية:

(حضرة الصديق الأديب الفاضل

على تحيتكم الطيبة الخالصة أرد بتحيةٍ مثلها شاكرةً لكم خطابكم الكريم وما تضمّنه من صادق العطف، وجميل العاطفة. وشاكرة لكم ـ وبأي تأثر ـ تلك الدموع التي تقولون إنكم ذرفتموها حزناً منكم على ما شاءت الأقدار أن أختبره من حوادث ووقائع، وقاكم الله كل سوء، أيها الصديق! وأتمنى ألا تسيل تلك الدموع البارة إلاّ على آلام الغير لأن في مثلها شبه تكفير عما يقترفه بعض الناس من آثام ينظّموها، ببراعةٍ شيطانية، أعمالاً مشروعة في ظلّ القانون...

ولا يدهشنا ما يصنعه نفر من الأطباء أحياناً لأن علم الطب لا يبدّل من خُلُق الإنسان، بل علم الطب، وكل علم آخر، يتكيّف ويتلوّن بخلق صاحبه، منتحلاً صيغة النفس التي سُبك فيها... ولست أشك في أنكم ـ لو اتصل بكم، ولو طرف من خبري على وجهه الصحيح، أيام كنت غارقة في المحنة إلى ما فوق رأسي، لكان حدا بكم اخلاصكم، ودفعتكم إنسانيتكم إلى النجدة، ولكنتم من المغيثين. حسبي مثل هذه الفكرة أتعزّى بها وأتأسى عما كان من نسيان أصدقائي لي، أو عما كان يؤلمني مما كنت أحسبه إهمالاً من أصدقائي بمصر، بل حسبي مثل هذا الخطاب النبيل الكريم، ومثل هذه التحية الطيبة الجميلة لأنسى الكثير من حوادث مريرة، لا نبل فيها ولا كرم!

ولنشكرنّ الباري على المحن بعد انقضائها! إنها توسّع منا النفس، وتجلو الفكر، وتسمو بالمدارك إلى أفق رحراح النور، نُغضي عنده عما أبصرناه

---

(١) ذكرى فقيدة الأدب النابغة ميّ ـ ص: ٩٨.

في بعضهم من مشاهد خلقية كئيبة مظلمة... وتفضلوا بقبول أسمى عواطف الامتنان والإكرام.

ميّ)[١]

ومنذ ذلك اليوم أضحى الأستاذ أسعد حسني، ذلك الرجل الشهم، والأديب الخلوق من المقربين اليها في آخر سني حياتها بالقاهرة، كما كانت له مواقف شريفة في الدفاع عن كرامتها بعد موتها اذ نشر أبحاثاً رصينة عن أدبها، وردّ بجرأة على افتراءات بعض الصحفيين على سمعتها.

أما طاهر الطناحي فقد نشر في «الأهرام» قصيدةً من شعره رحّب فيها بعودتها، ووفاها حقها، هذا نصّها:

أديبة الشرق هزّت مصر راحتها
بحسن لقياكِ ترحيباً وتحنانا

عودي إلى مصر مثل الشمس ساطعة
تزجي ضياءك آياتٍ وعرفانا

عودي الى النيل مثل الغيث مخصبةً
يجدد النيل عهداً منك مزدانا

عودي الى بلدٍ أشجى بلابله
سكوت بلبلك الصداح أزمانا

كم حزنا لبعدٍ طال موعده
وكم حسدنا على الأيام لبنانا

وكم شكونا فلم يسمع شكايتنا
دهرٌ يبدّل بالأفراح أشجانا

كنا وكانت ليالي الفن عامرةً
فجدّدي من ليالي الفن ما كانا

---

(١) ذكرى فقيدة الأدب النابغة ميّ - ص: ٩٨ - ٩٩.

وأسـمـعـيـنـا حـديـثـاً كـلـه أدبٌ
يـروي فـؤاداً الى الإبـداع ظـمـآنـا
وأطـلعـي مـن سـماء الـعـبـقـريـة مـا
غـابـت محـاسـنـه عـن مـصـرنـا آنـا
لا أحمـد الله نـوراً مـنـكِ مـؤتـلقـاً
قـد صـاغـه الله إعجازاً وتـبـيـانـا[1].

ولا ريب في أنه كان معجباً بها، ومتأثراً لمصابها فاستقبلته وأخذ يتردد على زيارتها. وقد روى انه تباحث معها ذات يوم عن شقاء الحياة وسعادتها فأجابت، اذ سألها «ما هي السعادة»:

- «هي كما قال ابن الفارض: [الطويل]

صـفـاءٌ ولا مـاء، ولـطـف ولا هـوى
ونـورٌ ولا نـار، وروحٌ ولا جـسـمُ
ويـطرب مـن لم يُـدرهـا عـنـد ذكـرهـا
كـمـشـتـاق نُـعْـمَ كـلما ذُكـرت نُـعْـمُ
عـلى نـفـسـه فـليبـكِ مـن ضـاع عـمـرُهُ
ولـيس لـه فـيـهـا نـصـيـبٌ ولا سـهـم[2].

ولا بد من الاشارة الى ان هذا الصحفي كتب الكثير عن ميّ بعد موتها: مقالات وكتباً منها: «أطياف من حياة ميّ» ، و «الحان الغروب»، و«الساعات الأخيرة»، وأورد فيها أخباراً من نسج الخيال، لا أساس لها من الصحة، فيها الكثير من التجني والاستخفاف بالمسؤولية الأدبية، علماً بأن فيها صفحات مشرقة عن مقامها ونبوغها وندوتها الاسبوعية.

وفي خريف عام ١٩٣٩ شعرت ميّ بالاستقرار في بيتها، وتأقلمت مع

---

(١) الحان الغروب ـ طاهر الطناحي ص: ٩٩ ـ ١٠٠.
(٢) الحان الغروب ـ طاهر الطناحي ـ ص: ٩٤.

وحدتها من غير ان تعتزل الناس، كما فعلت في السابق بعد موت ابويها. ويتضح لنا ان كلاً من أسعد حسني وطاهر الطناحي قد استشاراها في إقامة حفلة تكريم لها بمناسبة رجوعها الى القاهرة ذلك أنها كتبت الى السيدة سنية الأيوبي تقول:

(أقبل الصحافيان المدهشان يناقشانني في أمر اقامة حفلة تكريم رحراحة بالخطب والقصائد والترحيب، الى آخر ما هنالك من المجاملات التي يبرّز بها بعض الأدباء. فشكرتُ واعتذرت عن القبول، ورجوتهما بصرف النظر عن هذه الحفلة، وذاك التكريم. فأنا كنت في حاجةٍ الى أي واحدٍ منهم خلال الأعوام الثلاثة الماضية فلم يظهر أحد. اما الآن وقد عادت اليّ الحرية فكل ما أطلبه هو الراحة والاطمئنان، والعمل بعيداً عن الضوضاء)[1].

وهكذا نرى انها كانت صادقة مع نفسها، مؤثرةً، تجنّب اللقاءات مع أصدقائها القدامى الذين نسوها في محنتها، والذين كانوا سَيُدْعَوْنَ الى حفلة تكريمها، فكثيراً ما حاولوا خطب ودّها من جديد ولكنهم لم يجدوا منها سوى الاعتذار والرفض. لقد اكتفت بمخالطة عدد قليل جداً من الناس، في طليعتهم آل ادريس، وآل مرعي، فروت السيدة نور، حرم المحامي الكبير الأستاذ مصطفى مرعي زيارة قامت بها ميّ الى كلية الحقوق في جامعة القاهرة وقالت:

(لقد صحبناها في الخريف لزيارة كلية الحقوق، وكان زوجي قد أعلم الأساتذة فيها بذلك، ففوجئت ميّ عند دخول إحدى القاعات بالطالب محمود عبد الرحيم يلقي كلمة ترحيب بها رائعة باسمه واسم زملائه الذين كان منهم فتاتان هما: عطية الشافعي، وعطية الخربوطلي. فارتجلت كلمة طيبة ردّت بها التحية بمثلها كانت آية من آيات بيانها الساحر، وأسلوبها العذب. وأذكر جيداً أنها كانت ترغب في ارتياد دور السينما لمشاهدة الافلام الغربية الجيدة. وقد

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٥٠١.

دعوتها ذات مساء، إلى السينما لرؤية الفيلم المشهور «ذهب مع الريح»، وكانت ترافقنا يومذاك السيدة تحية ابنة حفني باشا الطرزي، كما كان اللوج الذي جلسنا فيه كان منحرفاً عن الشاشة، في طرف القاعة مما شوّه صور الممثلين، وجعلها مستطيلة، مضحكة في نظرنا، فقضينا السهرة نهذّر بصوتٍ منخفض دون أن نفهم من الرواية شيئاً...)[1].

واتفق ان تعرفت ميّ بأديبات ناشئات قمن بزيارتها، فانعقدت بينها وبينهن صداقة متينة، نذكر منهن الأديبة مينرفا عبيد، رئيسة تحرير مجلة «الطالبة» والأديبة الآنسة جميلة العلايلي وأديبة الأقصر، وأوليفيا عبيد التي كانت توقع مقالاتها في مجلة «الطالبة» باسم «الزهرة» المستعار. فقد نشرت مقالة عن ميّ، بعد وفاتها، علمنا منها انها شاهدت فيلماً أجنبياً عنوانه «الريشات الأربع البيضاء» في شتاء عام ١٩٤٠ بدعوة من ميّ، وبصحبة رئيسة تحرير المجلة الأديبة مينرفا عبيد، بعد ان تناولتا العشاء معها[2]. ثم ذكرت أن ميّ لبّت دعوة المجلة للاشراف على مسابقة للقصة القصيرة، فعقدت بضع جلسات مع لجنة التحكيم التي اشتركت فيها رئيسة تحرير المجلة، والأديبة نعيمة الأيوبي، والكاتبة أديبة الأقصر، وهي أيضاً (أي كاتبة المقالة نفسها) وأضافت تقول: (وما هي الا لحظات حتى تقدّمتنا ميّ بما عُهد فيها من عمق التفكير، ودقة الحس، ووفرة الذكاء، وخصوبة العقل، وحيوية النشاط، الى النظر في ردود المتسابقات. وكانت، بما يتماوج على قسمات وجهها الوسيم، المعبّر، ترفعنا الى عالم النور. كما كان رأيها السديد، وملحوظاتها تذكي لنا سراج الفكر، وتضيء ظلام الأمر. وان افكاري لتستقر الآن على ذكريات تلك الاجتماعات المقدّسة التي كانت تنتظمنا في دارها الهادئة، بعد ذلك.)[3].

وعلى ذكر مجلة الطالبة ينبغي ان نشير الى ان آخر مقالةٍ كتبتها ميّ

---

(١) من حديث السيدة نور مرعي الينا في القاهرة بتاريخ ٢٤ ـ ٤ ـ ١٩٧٩.

(٢) و (٣) مجلة «الطالبة» ـ القاهرة ـ ج (٤) العدد السابع ـ نوفمبر ١٩٤١ ص: ٢ ـ ٧.

كانت استجابةً لطلب صاحبة مجلة الطالبة وبعنوان «تحية الأعياد» وانها نشرت في عدد شهر نوفمبر سنة ١٩٤١، بعد موت ميّ بأسبوعين!

نعود لشتاء عام **١٩٣٩ ـ ١٩٤٠** الذي أبدت فيه ميّ نشاطاً أدبياً يبشّر بعودة الأديبة النابغة الى جمهور القراء، وجمهور المستمعين لمحاضراتها، ويبشّر كذلك بردّة الروح اليها المتجلية في إلفتها مع نفرٍ من الصديقات والأصدقاء، فنرى انها قبلت دعوة الجامعة الأميركية في القاهرة للاسهام في برنامج موسمها الثقافي وأعدّت محاضرة بعنوان «حاجتنا الى ثقافة اجتماعية» ألقتها في **١٥ ـ ١٢ ـ ١٩٣٩** أمام جمهور غفير، وكانت حديث الناس في القاهرة. فقد كتب اليها مدير قسم الخدمة العامة في **١٠ ـ ١ ـ ١٩٤٠** يشكرها باسمه واسم هيئة التدريس في الجامعة شكراً عميقاً، ثم قال:

(اننا نقدّر لك مساعدتك تقديراً كبيراً، ونأمل بأن يكون هذا المجهود المشترك، بالنيابة عنا جميعاً، ذا فائدة حقيقية للشعب المصري. لقد سبق وشكرتك شفهياً، ولكنني أودّ أن تعلمي كم نحن مدينون للطفك. لقد نجحت المحاضرة نجاحاً عظيماً. مع أخلص تحياتي

المدير وندل كليلاند)[١].

كان الأستاذ مصطفى مرعي والسيدة حرمه من الذين استمعوا الى تلك المحاضرة القيمة [٢] فشهدا الشيخ مصطفى عبد الرازق، العالم الجليل، الذي كان من أصدقاء ميّ القدامى وروّاد ندوتها، يمسح دموعه عندما أطلت على المنبر بثوبها الأسود، وشعرها الرماديّ، ووجهها الناحل لأنه لم يرها منذ عزلتها التي عقبت وفاة والديها. كما أكّدا أنها لم تكن تلبس من الثياب، في

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٥٠٨.

(٢) سبق ان تحدثنا عن هذه المحاضرة في فصل «الخطيبة والمحاضرة» السابق، وأوردنا مقاطع منها. كما اننا نشرناها في الجزء الثاني من كتاب ميّ «كلمات وإشارات» الذي أعددناه تنفيذا لوصيتها وجمعنا فيه ما لم يكن قد جمع من خطبها ومقالاتها ومحاضراتها ـ ص: ١٧٤ ـ ١٨٤.

المرحلة الأخيرة من عمرها، الا السوداء. وقد نشرت «الهلال» المحاضرة في عدد يناير لسنة ١٩٤٠ مع مقدمة لائقة، ولما كانت الحرب العالمية الثانية تُقلق العالم أجمع ختمت ميّ محاضرتها بقولها:

(أيها السادة والسيدات

ان العالم لفي اضطراب لم يعرف له التاريخ من قبل مثيلاً. أخطار عديدة تهدّد الجميع، ولكن الشخصية القوية يرهفها الخطر، ويحفز مواهبها فلا تطيل التلمس والمحاولة بل تهتدي بسرعة الى أنجع الوسائل لإنجاز أعمالها. وكلما صادفت نجاحاً زادت ثقة بنفسها، واستسلمت لنبيل الانفعالات، فاقبلت عليها نفحات الالهام من روح الله، من أغوار الوراثات، من مستودعات الأماني والاختبارات، من مستودعات الحضارة الحقة والانسانية الحقة.

لقد أثبتت مصر وجودها مرةً في المسافة والزمن فكانت مهد الحضارة. وها هي الآن حيال تطور عظيم يشمل جميع النواحي. ان مصر الحديثة فتية بعمر نهضتها، فتية بآمالها، فتية برجالها ونسائها، فتية بجهودها، فتية بشبانها، فتية بمليكها! وقد أضافت الى خميرة مجدها القديم خميرة حديثة مقدسة كوّنتها دماء الشهداء. ففي مصر من الحيوية المتجمعة ما يكفي لتثبت وجودها مرةً أخرى بحضارةٍ جديدة، وازدهار جديد.

ميّ)[1].

وأقبل الربيع على العالم والحرب مستعر أوارها فأوحت اليها الأحداث الدامية مقالة بعنوان «تحية الربيع» نشرتها في مجلة الهلال، وهذا بعض ما جاء فيها:

(بعودتك يا ربيع الوفاء تعود الذكريات العذاب: ذكرى عهد سالف،

---

(١) كلمات وإشارات - الجزء الثاني - ميّ زيادة - جمع وتحقيق وتقديم سلمى الحفار الكزبري - ص: ١٨٣ - ١٨٤.

ذكرى صباح منصرم، ذكرى أمل قديم، ذكرى هناءٍ مقيم! ثم نفكّر حيالك في الليل المقبل، في الغمّ المدلهمّ، في الموت المهاجم، في العمر الفاني! وأمام عيوننا الملتهبة يمرّ تكاثف الدخان واللهيب كأنما هو يذيع أحكام القدر!

أربيع العذوبة، أيجوز في عرفك ان تكون ربيع الحنظل؟

ربيع الأزهار والتجديد والتوليد، أترضى لنفسك أن تكون ربيع اليتم والثكل والتشريد؟

يا ربيع الحياة، أتستطيع أن تكون ربيع الردى؟

مطارق الحديد تطرق في المصانع، آلات وأدوات خلقتها العبقرية للقضاء على العبقرية. الثروات الحسية والأدبية التي كونتها جهود الانسان واختباراته على مرّ الأحقاب حُشدت لتُستخدم في الفتك والتدمير. ماذا يقولون: معمعة الحرب، وقصف المدافع، وتفجّر القنابل وانهيار المدائن، وتفطّر الجبال، كل ذلك ذاهب بما يقولون!

كذِّبنا يا ربيع الجنون، وأثبت لنا أنك ربيع السلم! وان لم تكذبنا أيها الربيع، واذا تحتّم المضيّ في الحرب ليشتري الانسان بالدم الغالي نعمة الحرية وغبطة الحياة، فيا ربيع الخلان والعشاق المتيمين، ما أنت هذه المرة الا ربيع الجبابرة والعمالقة والأبطال!»[1].

تألّقت عبقرية ميّ من جديد بعد نجاتها من الخطر الذي داهمها فيما مضى «كأحداق الغيلان تحت شائك الأدغال» حسب تعبيرها في مخاطبة ربيع الحرب، وبرهنت لنفسها وللعالم أن الخطر «يرهف الشخصية القوية ويحفز مواهبها فتهتدي بسرعة الى أنجع الوسائل لإنجاز أعمالها»، حسبما جاء في ختام محاضرتها التي تحدثنا عنها. كانت أديبة عظيمة، ذات رسالة عظيمة، فواظبت على تأديتها بشجاعة، ناسيةً آلامها الشخصية، مندمجةً بفكرها

---

(١) كلمات وإشارات ـ الجزء الثاني ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٨٥ ـ ١٨٧.

وروحها مع آلام البشرية. وفي هذه الحقبة بالذات أخذت رسائل القراء وقصائد الشعراء المعجبين تنهال على بريدها، فكان من أطرف ما تلقته من رسائل وقصائد من اناسٍ مغمورين من أبناء الشعب المصري، فيها من التقدير لأدبها وخدماتها أجمله وأرقه، وهذا نموذج عنها ننشره للدلالة على شعبيتها، وحبّ الجماهير لها، وهو مما حظينا بالعثور عليه في القاهرة ١٩٧٦:

الى الآنسة مي تهنئة بسلامة العوده

يا كوكباً قد غاب عنّا نورهُ — واليوم أقبل بالضياء لمشرقه

مذ غبتِ غاب الشعر وادي المنى — وطغى على الآداب خلق الموبقه

يا "مي" قد دمي الفراق قلوبنا — والدهر لا يأسو جراح المشفقه

عودي الى مصر [illegible] ساقها — منار الفصاحة في جليل المنطق

عودي فقد سعدت بعودك نفوسٌ — باتت متوقه الى السحاب المغدقه

قد شاء [illegible] زادهُ — نور المهابة وازدياد الرونق

عودي الى [illegible] ورددي — عذب البيان بسحرك المتدفق

يا زينة [illegible] يا فخر الهدى — عودٌ حميدٌ للبيان المشرق

أنت [illegible] وأبهج منطق — شعراً ونثراً [illegible] المشرق

فمتى تكون [illegible] — [illegible] الحياة و[illegible]

عزيزتي الكاتبة الناثرة النابغة الآنسة مي

أهدي شخصك الكريم أسمى آيات الود والتعظيم وأهنئك بسلامة العودة لوطنك الثاني ويعلم الله كم كنت أتلهف لأخبارك حينما كنت [illegible] ومنذ ثلاثة أشهر علمت برجوعك بسلامة الله فكتبت لك خطاب تهنئة وأرسلته لجريدة الأهرام ولعل مانع [illegible] عن عودتك [illegible] صحيحاً الذي انتظمت اليوم بمجلة المصور الغراء بما [illegible] في العصر الشديد فما أسعدني جداً لما نال زهرة الشرق الأديبة النابغة التي رفعت رأس جنسنا اللطيف عالياً فلله الحمد لرجوعك وتمتعنا بسحر بيانك الذي احتجب عنا زهاء ثلاثة أعوام هذا ولازلت أردد قولي في الصفحة أبيات التي أرسلتها لك تعزية في وفاة المغفور لها السيدة والدتك وهي

يا ربة المجد الفريد وحيدة ... بالعلم والآداب قد حلاك
أني اليوم إلى لقائك [illegible] ... لم تكتحل عيناي من مرآك

وختاماً تقبلي تهنئة المخلصة منيرة توفيق حرم محمد ماهر رشدي مأمور مركز [illegible]
وأملي أن يصلني ما يطمئني عنك ؟ منيرة

٧ - يونيو ١٩٢٩

كما انها تلقت آنذاك رسالةً من أديبة لبنانية ناشئة تعيش في اميركا اللاتينية بالأوروغواي، وكتاباً مطبوعاً طباعةً أنيقةً باللغة الاسبانية عنـوانه: «أصوات من الشرق VOCES DE ORIENTE» يتضمن مختارات من أدبها، وأخرى من أدب جبران، نقلتها الى الاسبانية صاحبة الرسالة الآنسة «ليلى نفاع»[1]، وأوردت فيه نبذةً عن حياة ميّ، ونبذة عن حياة جبران! ولا ريب في أن الكاتب الذي نذر حياته للأدب والتوعية والخدمة العامة عن طريق الفكـر يجد في مثـل هذا التعبـير الصادق عن مشـاعر قـراء لا يعرفهم، وتقديرهم، سعادةً حقيقيةً، وتكريماً فوق كل تكريم! ولا بدّ من أن تكون ميّ قد أجابت على رسالة السيدة منيرة توفيق، حرم محمد ماهر رشدي مأمور

---

(١) هي ابنة المغترب اللبناني المعروف رزق الله نفاع الذي كان رئيساً للجنة الدفاع عن فلسطين في «الأورغـواي».

المنوفية، وشكرتها بحرارة على ما تضمنته من نثر وشعر ينضح بنبرة الاخلاص، ذلك ان ميّ كانت تهتم بالناس البسطاء، وتكتب اليهم بالدرجة الأولى، أما رسالتها الى الآنسة ليلى نفاع فقد جاء فيها ما يلي:

(. . . وانما ابطأت بالكتابة اليكِ لأني في المدة السالفة انشغلت عن كل مراسلة في أمور ومشاكل هي من الصعوبة والأهمية بحيث لا تخطر على بال. وهل يخطر على بال أحد ان الحياة ممكنة بدون حرية شخصية؟ والحرية الشخصية هي التي هاجمني فيها، وجرّدني منها أولئك الأقارب الذين رموني بالجنون بعد وفاة أبي وأمي، ونشروا عني الاشاعات المتنوعة، في الشرق وفي الغرب، طمعاً في المال وفي المتاع الفاني. أما الآن وقد رفضت المحاكم في لبنان ومصر جميع الدعاوى التي طلب فيها أولئك الأقارب الحجر عليّ، الآن وقد عدت الى مصر والى الحياة الحرة فاني ابادر الى إسداء خالص الشكر والتهنئة إليكِ، وكان من حسن الحظ ان معرفتي الاسبانية مكنتني من مطالعة مجموعتك كلها، والمقابلة بين الترجمة والأصل.

ولما كان بعض الأصدقاء في مختلف الأنحاء يرسلون اليّ الآن ما يصل الى أيديهم مما كتبته الصحف عن «جنوني» وعن «شفائي» خلال الأعوام الثلاثة السالفة فهل لك ان تتكرمي في شيء مما كتبته صحفنا العربية في ربوعكم، أو بمخاطبة اخواننا الصحفيين من أصدقائك في أميركا الجنوبية ان يتفضلوا فيرسلوا اليّ النسخ التي ذكروني فيها من صحفهم، بثمنها اذا شاؤ وا.

وكنت أحبّ ان اقدم لك بسرور بعض كتبي، كما تودين، لولا ان الذين نهبوا بيتي قد نهبوا مكتبتي كذلك، على ان ما يفوتني الآن لن يفوتني في المستقبل ان شاء الله)[١].

---

(١) جريدة «السلام» المهجرية - بوينس آيرس - الأرجنتين - العدد الصادر بتاريخ ٢ - ١١ - ١٩٤١.

وقد جاء ذكر كتاب ليلى نفاع: «أصوات من الشرق»، والرسائل المتبادلة بينها وبين ميّ في كتاب وضعه عن ميّ المستشرق المعروف الأستاذ «أوزفالدو ماتشادو ـ OSVALDO MACHADO» باللغة الاسبانية ونشره في عاصمة الأرجنتين سنة ١٩٤٣ وهو بعنوان: «ذكرى ميّ وتقييم آثارها ـ RECUERDO Y VALORAÇION DE MAY» كما انه القى في جامعة بوينس آيرس، حيث كان يدرّس فيها الأدب العربي، محاضرات عن «النابغة ميّ» عرض فيها نماذج من كتاباتها باللغتين العربية والفرنسية.

كان آخر من زارها في مصر من أصدقائها اللبنانيين الذين أغاثوها في محنتها الدكتور كنعان الخطيب، أحد أعضاء جمعية «العروة الوثقى» في بيروت. وقد حدثنا عن تلك الزيارة فقال:

ـ (أمّيت مصر في شتاء عام ١٩٤٠ وكان أول ما فعلت الاتصال بميّ للإطمئنان عنها، والتحدث إليها، فاستقبلتني بفرحٍ في شقتها الصغيرة الواقعة في شارع أبي السباع، وجلست معها ساعتين. ثم دعتني إلى العشاء خارج البيت فذهبنا إلى مطعم «الحاتي» المشهور بتقديم اللحوم كالكباب والشواء، فلحظت أنها كانت تمضغ بصعوبة، ولكني لم أنبث بكلمة، غير أنها بادرتني قائلة، وكأنها تعتذر عن بطئها في تناول الطعام:

ـ «إني أرثي لحالك يا صديقي لأنك خارج الليلة مع امرأة متهدّمة!...».

فأجبتها على الفور:

ـ «ولكني أؤمن بقول الفلاسفة: أرخص ما في المرأة جسدها وزينتها، وأثمن ما فيها روحها وحديثها، فأنا الليلة سعيد جداً بمرافقة أسمى روح، وأعظم محدثة، وأنبل امرأة في القرن العشرين!»

فضحكت، رحمها الله، وأخبرتني بما تعانيه في مضغ اللحوم خاصةً، وبرفضها مراجعة طبيب أسنان لأنه سيشير حتماً بقلع أسنانها وأضراسها، وهذا ما تخشاه كثيراً، لا أكثر ولا أقل! ثم أضافت تقول:

- «لا عليك يا صديقي فأنا أحمد الله كثيراً لأني خرجت من العصفورية، بعد أن أقمت فيها ما ينوف على عشرة شهور، بعقلٍ سليم دون أن يختلّ فيّ سوى الأسنان!..»

وأذكر اننا أنهينا السهرة في أحد دور السينما. وفي اليوم التالي دعتني لتناول الشاي في بيتها فعرّفتني بصديقيها النبيلين الأستاذ مصطفى مرعي والسيدة نور زوجه فتسامرنا طويلاً، ثم أنشدنا معاً قصيدة وطنية كنا نتغنى بها لدى ذكر معاناة بلادنا من الاضطهاد والاحتلال الأجنبي:

يا ظلام السجن خيّم   اننا نهوى الظلاما

وعندما أتينا على إنشاد البيت الذي يقول فيه الشاعر:

يا رنين القيد زدني   نغمةً تحيي فؤادي

قاطعتنا ميّ وقالت:

- «لو قال الشاعر: يا صليل القيد لكان أفضل!»

وقبل أن أعود الى لبنان قمت بزيارة أستاذي الدكتور طه حسين فدُهش عندما أعلمته بأني زرت ميّ، وتعشيت معها خارج بيتها، وصاحبتها الى السينما، لأنها رفضت ان تستقبله بعد رجوعها من لبنان، فظن انها ما زالت مريضة!. لذا نهض وطلبها على الهاتف وقال لها:

- «زيّك يا ميّ؟ ان صديقنا المشترك كنعان الخطيب عندي، وكم سرّني ان أعلم منه انك بخير. متى تستقبلينني؟».

- «لا! لا تكلّف نفسك يا أستاذ... عندما كنت سجينةً في مستشفيات بيروت لم تفكّر بالسؤال عني وعن صحتي، لا أنت ولا مصطفى عبد الرازق، ولا انطون الجميل ولا خليل مطران. شكراً».

وأقفلت ميّ خط التلفون. فبدا على الدكتور طه التأثر وقال لي:

- «هي الحكاية حساسة يا كنعان... قالوا لنا انها في مصحّ العصفورية، وأكدوا انها جُنّت، فماذا كان في وسعنا ان نفعل؟».

وقلت لنفسي: ربما كان هؤلاء الأصدقاء على حق لبعدهم عن ملابسات القضية، وربما كانوا مخطئين، مقصّرين، ولكن ما لا شك فيه ان ميّ كانت محقّة في عتبها الشديد عليهم، وتألّمها للنكران...)[1].

ولم تبارح ميّ القاهرة في صيف تلك السنة، ولا في صيف السنة التالية مع أن أصدقاءها آل مرعي عرضوا عليها ان ترافقهم في رحلتهم الصيفية الى أوروبا. أما في صيف عام ١٩٤٠ فقد كان لها عذر لحزنها الشديد على صديقها الأكبر أمين الريحاني، فقد فُجعت بموته المفاجىء، وزهدت الحياة بعده، وكأنّ الحياة كانت تترصّد أيامها الأخيرة فتسلبها أحباءها الأوفياء الواحد تلو الآخر. وهذا نصّ برقية التعزية التي أرسلتها الى أسرة الريحاني في الفريكة:

(يا آل الريحاني الكرام: أفي وسعكم أن تعزّوني في فقيدي وفقيدكم وفقيد الشرق العظيم؟

ميّ)[2].

أقعدها الحزن في فراشها عدّة أسابيع فازداد نحولها، وأصيبت بفقرٍ في الدم. على هذه الحالة وجدها آل مرعي بعد رجوعهم من أوروبا فأنّبوها على إهمال نفسها واعتنوا بها إلى أن استرجعت عافيتها ونشاطها. ويقول الأستاذ مصطفى مرعي إن تشاؤمها في تلك السنة كان على أشدّه، ولكنها كانت تستقبله مع زوجه السيدة نور، ومع حسين بك إدريس وزوجه، وتخرج معهم أحياناً إما للتنزه، وإما للعشاء في أحد المطاعم، فتتحدث كثيراً عن أمين الريحاني، وخسارة العرب فيه، وتتابع أنباء الحرب العالمية باهتمام بالغ. وقبل حلول سنة ١٩٤١ بحوالى أسبوعين تلقّت دعوة من المستشرق الدكتور «شارلز آدمز»، صاحب كتاب «الإسلام الجديد» للاشتراك في إحياء الموسم الثقافي في

---

(١) من حديث الدكتور كنعان الخطيب الينا الذي أجريناه معه في بيروت بتاريخ ٢٧ ـ ٥ ـ ١٩٧٧، في منزل نسيبته الدكتورة صبيحة فارس.

(٢) رسائل ميّ ـ جميل جبر ـ ص: ٩٤.

الجامعة الأميركية بالقاهرة، وإلقاء محاضرة في قاعتها الشرقية. وقد عملت بنصيحة أصدقائها فجنّدت ما تبقى لها من عزيمة على العمل، وأعدت محاضرةً تنبىء عن قلقها وتشاؤمها كانت بعنوان «عِشْ في خطر!» كانت تلك المحاضرة آخر محاضرة لها في حياتها، فألقتها في ٢٠ ـ ١ ـ ١٩٤١ أمام جمهورٍ غفير مؤلّف من الكتاب والأساتذة، والعلماء والطلاب والطالبات. ويقول الأديب البحاثة الأستاذ وديع فلسطين إن الاستماع إليها قد فاته لأنه كان منهمكاً في الاستعداد للامتحان في الجامعة الأميركية، وإن الجامعة كانت تدعو، كل عام، شخصياتٍ كبيرة للمحاضرة فيها أمثال: حافظ عفيفي، ومحمد صلاح الدين، ومحمد علي علوبه، والدكتور طه حسين، وشفيق غربال، وهدى شعراوي والدكتور فؤاد صروف، والعقاد والمازني وفكري أباظة وغيرهم. وإذا كنا قد أطلعنا على فحوى هذه المحاضرة الهامة فبفضل مقالةٍ نشرها الأستاذ وديع فلسطين عن ميّ وآثارها جاء فيها ما يلي:

(... ولم تكن هناك مرات مقبلة استمع فيها إلى ميّ لأن محاضرة «عش في خطر» كانت آخر ما ألقته من محاضرات عامة. وقد أجملنا الخبر يومذاك في جريدة «القافلة» التي كنت أحد محرّريها في الجامعة، فقلنا في عدد ٢٣ ـ ١ ـ ١٩٤١: «الدنيا كلها خطر، وتاريخها حافل بالأخطار، لذا يجب على المرء ألا يخشى الخطر، كما قالت الآنسة ميّ في محاضرتها: «عش في خطر»، التي ألقتها يوم الاثنين ٢٠ يناير الساعة الخامسة والنصف بالقاعة الشرقية. وقد حضرها عدد غفير من الناس أُعجبوا بسحر الآنسة ميّ في تسلّطها على مسامعهم، وتملّك شعورهم بطريقتها المدهشة في الإلقاء. كانت تضرب الأمثال من صميم الحياة على مقاومة الخطر الذي أصبح، في حضارتنا الراهنة، شيئاً عادياً قائلةً: إننا لا نتصوّر ما عاناه الإنسان الأول من البسالة في الركوب على الحمار لأول مرة، ولكنه الآن يركب القطار والسيارة، والباخرة فالطائرة دون أن يفكّر في أيّ خطر»)[1].

---

(١) مجلة الأديب ـ حديث مستطرد عن ميّ ـ عدد سبتمبر ١٩٧٤ ـ ص: ١١ ـ ١٢.

أما نص المحاضرة فعبثاً حاولنا العثور عليه، كما ذكرنا في فصل «الخطيبة والمحاضرة» من هذه السيرة، غير أن الأستاذ مصطفى مرعي وزوجه اللذين كانا في طليعة المستمعين يومذاك قالا إن وقعها على الجمهور كان كبيراً، وإن ميّ عرّجت فيها على ذكر أهوال الحرب القائمة في الغرب، وانعكاساتها على العالم أجمع، ولا سيما على منطقتنا بالذات، فكانت تحلّل الواقع بعمق، وتتكهّن بالمستقبل وأخطاره بما وُهبت من رؤ يا ثاقبة، وما جَنَتْ من ثقافةٍ عالية، وتنتقل من فكرةٍ إلى فكرة ببراعتها المشهورة، وأسلوبها الجذاب، وإلقائها الساحر. وهذا ما دفع الشبان الحاضرين إلى التصفيق الحاد عندما أنهت محاضرتها، وإلى الهتاف باسمها عدة مرات.

لقد رأينا كيف تابعت ميّ رسالتها الأدبية بعد «المأساة» بشجاعةٍ عزّ مثيلها، ووقفنا على تألّقها الفكري في محاضراتها وخطبها ببيروت قبل الرجوع إلى مصر سنة ١٩٣٩، وفي القاهرة منذ عودتها إليها حتى مطلع سنة ١٩٤١، فكيف يمكننا أن نسكت على كلمةٍ عنها نشرها في جريدة الأهرام أنيس منصور، بتاريخ ٢٨ ـ ١٠ ـ ١٩٨٠، تحت عنوان «مواقف» هذا نصّها الحرفيّ:

(. . . وهربت من مصر إلى لبنان، ولم تفلح في أن تهرب من نفسها، وجاءت أمراض كثيرة تشغلها عن قلبها، وجاءت أمراض أخرى تشغلها عن عقلها. . .

وكانت راحتها الكبرى في مستشفى الأمراض العقلية. . . حيث يتعانق الليل والنهار معاً. . . فكان صمتها نهائياً!!)[1].

إن هذا الكلام لأعجب من العجب، ولا ندري حقاً كيف يسمح صحفي مشهور مثل أنيس منصور لنفسه بأن يطلق حكمه المبرم المستنكر في

---

(١) الأهرام ـ عدد ٢٨ ـ ١٠ ـ ١٩٨٠.

حق أديبة فريدة في عصرها، أسهمت في ازدهار الصحافة المصرية، بمثل هذا التسرّع، وهذه الخفّة!؟.

وإذا عدنا إلى الفترة الأخيرة من حياة ميّ نرى أنها أضحت من المدمنين على التدخين، وذلك بشهادة أصدقائها المقربين، وأنها كانت تقطع السيجارة نصفين، وتضعهما مع عوديّ ثقاب في علبةٍ واحدة. هذا ما روته لنا السيدة نور مرعي، حرم الأستاذ مصطفى مرعي، ثم قالت:

(وسألناها، زوجي وأنا، لماذا كانت تفعل ذلك، فأجابت، رحمها الله، وهي تضحك: «لأن قوام الطبيعة هو الازدواجية فلا يصحّ أن تبقى لفافة التبغ منفصلة عن رفيقها عود الثقاب...» قالت ميّ هذا الكلام على سبيل المزاح، ولكنها، في الواقع، كانت تقسم السيجارة لكي لا يطول التنفيخ فيها، على سبيل الإقلال من التدخين. وذات يوم قمت بنزهةٍ معها في إحدى الحدائق فتجرأت وسألتها عن سبب عزوفها عن الزواج فأجابت بقولها: «لأني ارتبطت معنوياً بجبران، الرجل الوحيد الذي أحببته دون أن أراه... وعندما مات جبران قبل تسع سنوات كما تعلمين، اعتبرت نفسي أرملته يا نور!».

كان الأستاذ إبراهيم المصري من الذين زاروا ميّ في آخر حياتها، وقد أورد الأستاذ وديع فلسطين في إحدى مقالاته عن ميّ روايةً على لسانه تؤيد رواية السيدة نور مرعي عن إفراط ميّ بالتدخين، والعادة التي جرت عليها في جمع السجاير وأعواد الثقاب معاً:

(وقد سألت جاري وصديقي الأستاذ الكبير إبراهيم المصري حول هذه الواقعة فأجابني بأن ميّ كانت تقطع السيجارة نصفين، وتضعهما في علبةٍ واحدة، وترمز بذلك، عن سليقة أو عن غير قصد، إلى أن طبيعة الحياة الازدواج، وليس يصحّ أن تبقى السيجارة وحيدة بلا أنيس)[1].

---

(١) الأديب ـ حديث مستطرد عن ميّ بقلم الأستاذ وديع فلسطين ـ عدد سبتمبر ١٩٧٤ ـ ص: ١٣.

وأغلب الظن أنها كانت تفعل ذلك عن سليقةٍ تحكّمت بها في آخر حياتها لحرقتها على وحدتها بعد موت جبران، إذ ظلّت نار حبها له العقيم تكوي ضلوعها.

وجاء صيف سنة ١٩٤١ وحرّه القائظ، وميّ قابعة في بيتها، ورافضة الخروج من القاهرة إلى أي مكان للاصطياف، وتبديل الهواء رفقاً بصحتها، وكأنها كانت تُمعن في الإضرار بها يأساً من الحياة! فقد أخفق آل مرعي بإقناعها في شدّ الرحال معهم إلى أوروبا، ولندع السيدة نور تروي لنا قصة غروب ميّ الحزينة:

(ودّعنا ميّ في نهاية شهر أغسطس متأسفين لفشلنا في تحميسها على السفر معنا، ومشغولي الفكر عندها. واذكر أننا اتصلنا بها بالتلفون صبيحة رجوعنا إلى القاهرة في نهاية شهر سبتمبر فقالت إنها متوعكة الصحة، تشكو من نوبات ألم حادة في أسنانها وفكّيها، وتعتذر عن لقائنا وهي متوعكة الصحة. كما وعدت بمكالمتنا حالما تشعر بعودة العافية. وانقضى أسبوعان من شهر أكتوبر ونحن غارقين في أمورنا المعيشية إلى أن كان يوم الرابع عشر منه، وخابرنا بواب العمارة التي تقطن فيها ليقول لنا إنها لم تخرج من البيت منذ بضعة أيام، ولم تفتح نافذة، ولم تتسلّم الصحف المتراكمة أمام باب شقتها! فهرعنا إليها وطرقنا الباب بقوة، ولما يئسنا من الجواب اقتحمناه ووجدناها مغمى عليها في فراشها! ومن حسن الحظ أن طبيباً نمساوياً كان يسكن في العمارة ذاتها يدعى الدكتور «ريخمان ـ REICHMAN» فطلبناه لمعاينتها. ولم تنقضِ بضع دقائق حتى وصل من عيادته. فحصها بدقةٍ، ثم أشار بنقلها فوراً إلى أحد المستشفيات لإسعافها ومعالجتها نظراً لهبوط ضغط الدم عندها، وضعف نبضات قلبها، وأعطاها حقنةً منعشةً صحت على أثرها قليلاً، ثم غابت عن الوعي من جديد. كان بيتها مهملاً تعلوه الغبار، وكانت توجد إلى جانب سريرها أنواع من المسكّنات مما يدل على أنها قبعت في الفراش بضعة أيام دون تناول أي طعام، اللّهم ما عدا المسكنات للتخفيف من حدّة آلامها!

وفي يقيننا أنها لم تحاول الانتحار لأنها لم تفرط في تناول المسكّنات الموجودة بالقرب منها، إنما كانت فريسة أوجاعٍ مبرّحة، ويأسٍ مروّع!.

نقلناها إلى مستشفى المعادي بسيارتنا بعد أن جمعنا من خزانتها ما تحتاج إليه من ثياب، فأُجريت لها الإسعافات بإشراف أطباءٍ مهرة. بقينا معها حتى المساء وبتنا نزورها كل يومٍ مرتين من غير أن يطرأ على صحتها أي تحسن: فلا الحقن المغذّية والمقوّية نفعتها، ولا مناشدتنا لها بالتجاوب مع الأطباء وتناول الطعام لاقت لديها أذناً صاغية! كانت راغبةً في الموت مصرّةً عليه، وقد همست في إحدى أوقات صحوها تقول: «دعوني أموت، أرجوكم دعوني أرتاح!». وأرشدتنا إلى مكانٍ في بيتها كانت تخبىء فيه مفتاح درجٍ من دروج خزانتها تضع فيه مبلغاً من المال، وقطعاً من المصاغ.

وفي ظهر اليوم التاسع عشر من شهر أكتوبر، اي بعد انتقالها الى المستشفى بخمسة أيام، ارتسمت على وجهها الناحل ابتسامة ملائكية لحظة لفظت آخر الأنفاس!

اتصلنا في الحال بسائر الصحف المحلية نعلمها بوفاتها، واتصلنا بالأستاذ أنطون الجميّل، رئيس تحرير الأهرام، وصديق ميّ القديم نرجوه الاتصال بإبنيّ عمها المقيمين في القاهرة، واستدعائهما الى بيتها في الغد لكي نسلّمهما مفتاح درج الخزانة، وحوائجها التي حملناها الى المستشفى، وساعة يدها! وفي صبيحة اليوم التالي عدنا الى شقتها في الساعة التي حدّدناها لأهلها فأتى ابنا عمها بصحبة الأستاذ الجميّل. لم نكن نعرفهما من قبل، ولا أحسب انهما دخلا الى تلك الشقة اذ أخذا يطوفان فيها من غير ان يقولا شيئاً، ثم فتحا درج الخزانة امامنا بعد ان سلّمت مفتاحه لأحدهما، ووجدا فيه مبلغ ثمانمائة جنيه، وخاتمين من الماس. وتركناهما في الشقة بعد أن سلمناهما مفتاحها الذي غيرناه بعد اصلاح الباب يوم الحادثة، والدموع العصيّة تحرق حناجرنا.

وما زلنا نذكر، زوجي وأنا انه كانت توجد على المنضدة بالقرب من

سريرها ثلاثة كتب هي: رواية «غرازيـلا» للشاعر لامارتين باللغة الفرنسية، ورواية أوسكار وايلد: «صورة دوريان غـراي» بالانكليـزية، ونسخـة من كتابها: «باحثة البادية» ومجلد من مجلة المقتطف. ولا شك في ان مخطوطتيّ كتابيها اللذين حدثتنا عنهما: «ليالي العصفورية» و «المنقذون» كانتا موجودتين في مكتبتها)[1].

وهكذا قُيض لميّ ان تموت وحيدةً في غربتهـا عن لبنان، وهي في الخامسة والخمسين من العمر، وقد عجّلت بموتها مأساة نبوغها فانـطفأت شعلتها قبل الأوان، واشتهت الموت أملاً بالظفر بالراحة، بعـد ان ذاقت صنوف العذاب. أولم تقل لصديقها البار الأديب أسعد حسني، بعد رجوعها الأخير من لبنان: (في بعض ساعات الألم تشعـر بأن للزمن كهفاً تحفره الضـواري، وأنت وحدك فيـه سجـين، والنـاس من حـولـك يـرقصـون ويمرحون)؟ أولا يحقُّ لها، بعد كل ما قـاست، ان تشعر بشـوق كبير للموت، وقد ضاعت الأماني في حياتها؟ فيوم سألها مندوب الهلال سنة ١٩٣١ عن أعظم أمنية في حياتها أجابته: (. . . واذا أبيتم الا ان أبوح لكم بأمنية فهي ان تظل الأماني متجددة فيّ، ما زلت حيةً، وان أموت يوم أصبح غير قادرة على التمني!)

ومما يسترعي الانتباه في تفكير ميّ منذ أن كانت شابة هو مقطع من مقالة لها كان عنوانها: «من كوّة الحياة» يجلو لنا حيرتها أمام لغز الحياة، وشعورها بالغربة بين الأحياء، ويأسها من مجاراتهم في فرحهم ولهوهم حيث قالت: (ثم أوحي إليّ بأن هناك وجوداً غير ملموس يُدعى السعادة، وشعرت باحتياجٍ محرق إلى التعرف إليها، والتمتع بها، ففهمت أنه ليس أقسى على النفوس في انفرادها وسكوتهـا وعجزهـا من تلقّي ذلك الـوحي العنيف، والشعور بذلك الاحتياج العميق. . .)[2].

(١) هذا حديث السيدة نور مرعي الذي أفاضت به الينا بحضور زوجها الأستاذ مصطفى مرعي في دارهما بالقاهرة بتاريخ ٢٤ ـ ٤ ـ ١٩٧٩.
(٢) ظلمات وأشعة ـ ميّ زيادة ـ ص: ٧.

تُرى هل كان خوف ميّ من الناس في الحياة، ومن غدر الحياة، حدساً نابعاً من شفافية نفسها، وشعوراً مبهماً مسبقاً بما حلّ بها من تربّص الناس والقدر بها؟ وهل ماتت ميّ حقاً وهزمها الأعداء الألداء ؟ ان اختفاءها الصامت في أيامها الأخيرة، حتى عن أقرب أصدقائها، كان آخر انتصار حقّقته لصون صورتها الحقيقية في أذهانهم، فقد عبّرت بعزلتها ابان اشتداد المرض عليها، واستبداد اليأس بها، عن رغبةٍ قويةٍ في ان يحفظوا لها صورة جميلة لائقة، تتّفق مع عزة نفسها، وحرصها على صيانة كرامتها. وميّ، كسائر حملة المشاعل في تاريخ الانسانية ستبقى حيةً على مرّ العصور، وفكرة مضيئة تستنير بها الأجيال عبر ما قدمت من آثار، وما أنجزت من خدمات للفكر والأدب والنهضة العربية الحديثة. كانت حياتها إرغاماً في إرغام، فكما انها لم يتح لها ان تختار ولادتها وأهليها، كذلك حُرمت من اختيار طريقة موتها، لأنها كانت تشتهي الموت في أحضان الأمواج! ذلك انها كتبت تقول للدكتور يعقوب صروف، وهي في أوج الشباب:

(ما دام الموت محتماً فحبذا الموت في أحضان الأمواج، وحبذا الراحة الأبدية في القرار الخالد حيث لا تزعج الأمواتَ أصواتُ الأحياء القساة، ولا يوجع ترابَهم وقعُ أقدامهم!!)[1].

وسواء ضمّت الأمواج رفات ميّ أو احتضنتها الرمال فاننا لا نغالي اذ نقول ان حياتها كانت رجاءً في سراب، وإنها لم تجد الراحة الا بعد ان التفّت برداءٍ من تراب!

---

(١) الريحاني ومعاصروه ـ من رسالة ميّ الى امين الريحاني المؤرخة في ٢٩ ـ ٢ ـ ١٩١٩ ـ ص: ١٦٥.

تكريم الأدباء لميّ بعد موتها

(لا شك عندي ان كل كاتب يتمنى ان يكون له من يذكره على هذه الصورة بعد موته، وأتمنى ان ينالني ما نال باحثة البادية من حسن الحظ لأن المخلصين قليلون بعد موت الكاتب، والعداء له، وتعمّد تصغير شخصيته، والنيل من مقامه يبرز الى الوجود بعد سكوته في قلب الثرى)[١].

هذا ما كتبته ميّ في إحدى رسائلها إلى الدكتور يعقوب صروف، وقد تحققت أمنيتها بعد موتها مباشرةً لأن المخلصين لأدبها وشخصيتها هبّوا لتكريمها، وكانت لهم معها مواقف نبيلة.

أول من نشر خبر موتها في مساء اليوم التاسع عشر من تشرين الأول جريدة المقطم، ثم تلتها الصحف الكبرى في مصر تنعي الأديبة النابغة في اليوم التالي. وقد قرأ الناس في المقطم الخبر المحزن تحت عنوان «مصاب العروبة في ميّ» على هذا النحو:

(نُعيت الينا، والمقطم معدّ للطبع، المأسوف عليها الآنسة ميّ، الكاتبة النابغة، والأديبة الشهيرة في مصر وسائر أقطار الشرق. وافاها القدر المحتوم عند ظهر اليوم في المستشفى بالمعادي، فشقّ نعيها على جميع عارفي فضلها،

---

(١) رسائل ميّ ـ الدكتور جميل جبر ـ ص: (٤٠).

ومقامها الرفيع في الأدب، وقد كانت في الصف الأول من رافعات لوائه في الشرق العربي.

وسيحتفل بالصلاة عليها في الكنيسة المارونية في شبرا في الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر غدٍ الاثنين، ثم يسير مشهد الجنازة الى مصر القديمة فتُدفن بما يليق بها من التكريم. وسننشر غداً تقديراً لها ولجهادها الأدبي، ومقامها بين أدباء الشرق والغرب، آسفين على وفاتها بعدما اعتلّت صحتها اعتلالاً طويلاً حال دون الانتفاع بمواهبها النادرة. تغمّد الله هذه الفقيدة برحمته ورضوانه، وعزّى أهلها وجميع الذين استفادوا بعلمها وأدبها في حياتها»[1].

تولت الزعيمة السيدة هدى شعراوي تنظيم موكب دفنها فنقل جثمان ميّ بعد ظهر اليوم التالي من مستشفى المعادي الى الكنيسة المارونية في حيّ «شبرا» للصلاة عليه، ثم الى مدافن الطائفة المارونية الواقعة في مدينة القاهرة القديمة، في الرقم (١٠) من شارع حسن أنور، بالقرب من مسجد عمرو بن العاص، وقد سار وراء نعشها السيدة شعراوي، رئيسة الاتحاد النسائي المصري، وأنطون الجميّل رئيس تحرير الأهرام، وخليل مطران، وأحمد لطفي السيّد والأستاذ مصطفى مرعي وزوجه، ومندوب عن المقطم، ولوحظ غياب عدد كبير من أصدقائها وزملائها الكتاب ولكن تشييعها كان، مع ذلك، مهيباً ومؤثراً للغاية، إذ كان أولئك الأوفياء لها يكفكفون دموعهم، ويرتدون الثياب السوداء، وقد أجهشوا بالبكاء عليها لحظة ووري جثمانها في القبر الذي أُعدّ بسرعة لاحتضانها. ثم انصرفوا وهم يعزون بعضهم بعضاً بفقد أديبةٍ عظيمةٍ أحبوها واحترموها، وصديقة غالية فُجعوا بمأساتها وبموتها. وقد نُقش على قبرها المتواضع ما يلي:

«هنا ترقد نابغة الشرق، زعيمة أديبات العرب

---

(١) المقطم ـ عدد مساء يوم الأحد في ١٩ ـ ١٠ ـ ١٩٤١ ـ الصفحة الثانية.

المثل الأعلى للأدب والاجتماع، المرحومة ميّ زيادة

دُفنت في ٢٠ اكتوبر ١٩٤١. صلوا لأجلها».

وما زال هذا النقش واضحاً على قبر ميّ، كما يبدو في الصورة التي ننشرها عنه، اذ ما زالت ترقد هناك، في أرض الكنانة التي أحبتها وكرمتها، بعيداً عن وطنها الأصلي لبنان الذي هامت بحبه، وحملته في ضلوعها... أجل ما زالت ميّ زيادة ترقد في قبرٍ متصدّعٍ مهجور، لا من يزوره، ولا من يضع زهرة عليه، ولكن الطبيعة كانت، وما زالت، أكرم من أهليها وأبناء وطنها اذ أنبتت على جوانبه أغصاناً نـديةً، دائمـة الاخضرار، تحنـو عليه وتباركه! وهذا ما يبدو واضحاً في الصورة الثانية للقبر التي التقطناها، لدى زيارتنا له في ربيع عام ١٩٧٩.

وكما تولّت السيدة هدى شعراوي تنظيم تشييع ميّ، كذلك تولت اقامة حفلة تأبين كبرى لها في مقرّ الاتحاد النسائي المصري تليق بمكانتها، فنشرت الدعوة التي تقرّرت في جميع الصحف المصرية التي صدرت في ٢٣ - ١٠ - ١٩٤١، وجعلتها نعياً محزناً للفقيدة الكبيرة، وقد كان مما جاء فيها:

(لقد فقدت العروبة بفقدان ميّ نابغةً من نوابغها الأفذاد، وفقد الشرق

ركناً من اركان نهضته الفكرية، وفقد الأدب ينبوعاً عذباً من ينابيعه الفياضة، وفقدت مصر علماً من أعلام نهضتها النسائية، في الوقت الذي كنا فيه نرتجي ان تعود ميّ الى نشاطها لتكمل الرسالة التي بدأتها في خدمة الأدب والاجتماع.

فالى نساء العرب، بل الى العروبة كلها نقدّم تعازينا عن هذه الخسارة الفادحة التي مُنينا بها، كما نعزي أفراد أسرتها الكريمة، ونعزي انفسنا عن فقد تلك الدرّة الثمينة، ونرجو الا تشغلنا جميعاً الأحوال العصيبة الحاضرة عن القيام بواجب التكريم للراحلة الكبيرة. وسوف تحيي جمعية الاتحاد النسائي المصري بدارها في الرقم ٢٢ من شارع القصر العيني يوم الأربعين لوفاة «مي» حفلة تأبين لها. وبالنيابة عن الجمعية أتشرف بدعوة كل من يريد الاشتراك في هذا الاحتفال العام، وأرجو من حضرات الراغبين والراغبات في الاشتراك، من الأدباء والصحافيين ومقدّري فضل الفقيدة، وأصدقائها وصديقاتها الكرام باخطارنا باشتراكهم قبل الموعد باسبوع على الأقل لدرج أسمائهم في جدول الخطباء.

والله نسأل ان يعوّضنا عن فقيدتنا الكريمة خيراً، وان يغدق عليها شآبيب الرحمة والرضوان.

هدى شعراوي)[١].

وقد تألفت لجنة التأبين من الشخصيات التالية: السيدة هدى شعراوي، والشيخ مصطفى عبد الرازق وزير الأوقاف العمومية، وأحمد لطفي السيد، والدكتور طه حسين مدير الثقافة العامة بوزارة المعارف، والدكتور منصور فهمي المدير العام لدار الكتب المصرية، وانطون الجميّل، عضو مجلس

---

(١) ذكرى فقيدة الأدب النابغة ميّ ـ مجموعة الخطب والقصائد التي ألقيت في حفلة تأبينها بدار الاتحاد النسائي المصري مساء الخميس في ٤ ـ ١٢ ـ ١٩٤١ ـ ص: (١٠) وقد كان عنوان هذه الكلمة: (مُصاب العروبة في ميّ).

الوقوف دقيقة من الزمن حداداً على الفقيدة العظيمة، فوقف الحاضرون جميعاً، وقد ران على القاعة جلال الحزن. ثم ألقت رئيسة الاتحاد كلمةً جامعة استعرضت فيها مواقف مشرفة لميّ في نضالها الأدبي والقومي، وذكرياتها معها، وعدّدت مناقبها، وعبّرت عن أسفها لفوات فرصة تكريمها في دار الاتحاد بعد إبلالها من مرضها، ورجوعها الى مصر! وقبل ان تعطي الكلام للدكتور محمد حسين هيكل أعلنت ان الاتحاد النسائي سيصدر كتاباً لإحياء ذكرى الراحلة يضمّ سائر الخطب والقصائد التي ستلقى في حفل تكريمها، والذي تفضل بإرسالها كتاب وشعراء لم يتسع الوقت لالقائها، وقالت في ختام كلمتها:

(. . . ظلت كذلك «ميّ» تنتقل بين صفوف المفكرين في مختلف المجالات، وتتطوّع في مواساة الانسانية، وخدمة المجتمع في وداعةٍ وإنكار للذات، ثم آثرت بعد ذلك الانفراد فسارت في طريقها، وقيثارتها في يدها، تحفز الهمم بأناشيدها الشجية، وتمسح دموع الثكالى، وتكفكف عبرات المحزونين، وتحنو على الطفل اليتيم. وكنت أتتبع مراحل نشاطها، معتزة بها، فخورة بأعمالها وجهودها ولكن ـ ويا للأسف ـ وقع ما كنت أخشاه من تأثير تلك القوى التي كانت تتنازع جسمها المضنى، وحساسيتها الرقيقة. فقد تأثرت بفقد والديها أي تأثير، واستسلمت لأحزانها، واستعذبت آلامها، ولم تسمح لأحد باقتحام عزلتها، أو اقصائها عن حظيرة همومها. وكما كانت ميّ فذةً في عبقريتها، كذلك كانت فذةً في أحزانها! ولما طغت عليها الأحزان، وتناوبتها العلل، ذبلت وتساقطت أوراق تلك الزهرة اليانعة: [الخفيف]

وإذا كانت النفوس كباراً
تعبت في مرادها الأجسام)[1]

ووقف الدكتور محمد حسين هيكل، وزير المعارف في مصر آنذاك،

---

(١) ذكرى فقيدة الأدب النابغة ميّ ـ (كتاب الإتحاد النسائي عن حفلة تأبينها) ص: (٢٠).

Twitter: @ketab_n

ليتحدث عن التفكير السياسي عند ميّ، تاركاً لغيره الحديث عن أدبها، وعنى بذلك رأيها في المركز السياسي للمرأة في المجتمع، فأبـدى رأيها الذي سمعه منها فقال:

(سمعت مياً تتحدث في هذا الموضوع، غير مرة، وكان حديثها موضع دهشتي أول ما سمعتها، فلما شرحت رأيها، وأفاضت في تصويره رأيت هذا الرأي يستند الى منطقٍ لا يقل قوة عن منطق الذين يرون نقيض ما ترى. فقد كانت تخالف الذين يدعون الى مساواة الرجل والمرأة في الحقوق وترى ان هذه المساواة عدوان على المرأة وعلى الرجل جميعاً. ودُهشت حين رأيتها تنفر من الحديث في حق الانتخاب للمرأة، وتذهب في نفورها الى حدٍ بعيد. فلما سمعت تعليلها لرأيها طفقت أفكر، ثم انتهيت من تفكيري الى انها قد تكون على حق، وقد يكون مخالفوها في الرأي على حقٍ كذلك. فهي تقول ان أكبر فخر للرجل، وأعظم عنوان لمجده كمال رجوليته. وأكبر فخر للمرأة، وأعظم عنوان لمجدها انما هو كمال أنوثتها. وكما ان الرجولية قوة ونضال، وحرص على الظفر، فالأنوثة عطف وحنان ومحبة، محبة للكون، ولكل جميل، ولكل كامل فيه، وحنان على المخلوق الصغير الناشىء، زهرةً كان هذا المخلوق أو نباتاً، أو حيواناً أو طفلاً، وعطف على بؤس البائس، وضعف الضعيف، وأنّة المريض، وشكاية العاني، وكل ذي ضراء)[1].

وفي مقطع آخر من كلمته أبدى الدكتور محمد حسين هيكل باشا رأيها في ان شذوذ النساء اللواتي اندفعن في ميادين النضال هو خروج على سنن الكون، وان طبيعة المرأة والرجل تقتضي تضامنهما في مودةٍ ورحمة، وتنكر تنافسهما في نضالٍ وقتال، لأن تنافسهما يدفعهما الى التماس كل ما هو ماديّ، أي الى ميدان ان صحّ للرجل ان يدخله، فجدير بالمرأة ان تجعـل دأبها التخفيف من حدّته. ثم أضاف يقول:

---

(١) ذكرى فقيدة الأدب النابغة ميّ (كتاب الإتحاد النسائي المصري عن حفلة تأبينها) ص: ٢١ ـ ٢٢.

Twitter: @ketab_n

النضير، وأدبها الناشىء المتسامي الى الكمال، وودّعت ميّ هذه الحياة محاطة بهالة من آثارٍ وذكريات هي أكبر روعة من كل ذكاء، ومن كل شباب.

ومنذ أشهرٍ معدودة كنت أشهد حفلة في قاعة الجامعة الأميركية وانتهى الاحتفال، وأخذ الناس يتبادرون الى الانصراف متزاحمين بالمناكب، واذا سيدة في سمتٍ ووقار تأبى الزحام فتستأني. هذه «ميّ»، ولم أكن رأيتها منذ سنين وقد اشتعل رأسها شيباً، وبدت تجاعيد وهن وألم في وجهها السمح يكاد ابتسامها يخفيها، ويكاد يخفيها الشعاع المنبعث من نظراتها. وفارقت مياً بعد ما حييتها وتحدثت اليها حديثاً قصيراً، ثم أتاني نعيها غير بعيد.

كانت ميّ أديبة جيل. وكانت صديقة كريمة ـ سلام على ميّ!)[1].

وبعد ان ألقى الشيخ الجليل مصطفى عبد الرازق كلمته جاء دور الأديبة الآنسة عائشة عبد الرحمن (ابنة الشاطىء) فكانت كلمتها في ميّ لوحة رائعة لحياتها ومجدها وحرمانها لا يمكن لرجلٍ ان يرسم مثلها لميّ اذ لا يستطيع ان يسبر أغوار عاطفة المرأة، وقلب المرأة ومشاعر المرأة الا المرأة! وهذه مقتطفات من كلمة بنت الشاطىء:

(أيها السادة: تسمعون الليلة أبلغ المراثي في «ميّ» الكاتبة العبقرية، والأديبة النابغة، وأنا ما عرفت «ميّ» هذه التي يعرفها الناس ويتحدثون عنها، لكني عرفت «ميّ» الانسانة الشهيدة! فليحدثكم سواي عن نبوغها، وفجيعة الأدب فيها، أما أنا، أنا الفتاة الانسانة، فأحدثكم عن «ميّ» الفتاة الانسانة التي عاشت وأحبت، وتعذبت وكابدت ثم قضت واستراحت.

غيري يسكب الدمع لموت «ميّ»، وأنا أسكب الدمع على حياة «ميّ» وما حياتها الا قصة استشهاد طويل!

ان أكثركم قد رآها في هالةٍ من أضواء الشهرة، يتوّجها اكليل من

---

(١) ذكرى فقيدة الأدب النابغة ميّ ـ (كتاب الإتحاد النسائي المصري عن حفلة تأبينها) ـ ص: ٢٣ ـ ٢٤.

المجد، وتضجّ حولها صيحات الهتاف، فهل منكم من غالب الأضواء فرأى في أهاب الكاتبة الشهيرة الانسانة التي تتألّم، وتتوجّع، وتتلوّى والناس من حولها يهتفون لها؟؟

لقد ضاعت انسانية ميّ وتجوهلت، وفنيت في غمار الشهرة وهي حيّة، فهل نضيّعها وهي ميتة؟ كلا! انني أكشف اليوم عن جراحها، وأنضي عنها ثوب الكاتبة لتشهدوا الانسانة المتألمة، الشاكية، الضالّة، المحبة والمحرومة!)[1].

واستشهدت ببعض اقوال ميّ مختارة من مقالاتها الوجدانية وفيها أمثلة على توق ميّ الى السعادة، والامومة، والى تعلّقها بأهداب الأمل، والمثل الأعلى دون جدوى...

وختمت بنت الشاطىء كلمتها التي استدرّت الدموع من الجمع كله بقولها:

(أيها الناس: لقد استشهدت ميّ الانسانة منذ عهدٍ طويل وان ظننتم انها لم تتوجّع الا في محنتها الأخيرة...

ماتت ميّ الفتاة منذ أعوام طوال حين كنتم تظنونها ممتلئة بالحياة... ماتت ميّ الأنثى حين كانت الخطيبة النابغة تتيه بها أعواد المنابر! ولكنكم لم تحسوا موتها فلم تبكوا عليها، وأحسّته هي، فراح بعضها يبكي على بعضها.

أيها الناس! اذا مررتم بعد اليوم بقبر ميّ وقال قائلكم هذا قبر الكاتبة العبقرية، والأديبة النابغة فليرتفع صوت يقول: «وهو قبر فتاةٍ انسانة عاشت، وأحبت، وتعذبت، واشتهت، وكابدت، وجاهدت، ثم... قضت فاستراحت!

وسلام الله عليك يا «ميّ»)[2].

---

(١) و(٢) ذكرى فقيدة الأدب النابغة ميّ - (كتاب الإتحاد النسائي المصري عن حفلة تأبينها) - ص: ٢٧ - ٢٨.

وقد كان من غريب الاتفاق ان يختتم الدكتور منصور فهمي كلمته في ذلك الاحتفال بالعبارات ذاتها التي استعارتها بنت الشاطىء من قلم «ميّ»:

(... وكأني أتلمح من الأفق على صفحات قبر «ميّ» القريب حيث ترقد ناعمةً على هذه التربة المصرية الناعمة، كأني أتلمح هذه الكلمات التي شاءت الأقدار ان تخطها ميّ بيراعها مذ كانت مع الأحياء: (هذا قبر فتاةٍ لم يرِ الناس منها غير اللطف والبسمات، وفي قلبها الآلام والغصات... لقد عاشت وأحبت، وتعذبت وجاهدت ثم قضت)[1].

وكان الدكتور منصور فهمي، المدير العام لدار الكتب المصرية قد استهل كلمته في يوم ميّ مستشهداً بما كتبته هي يوم كانت في سنّ الشباب فقالت:

(عندما أعود الى منشأ الكائنات ومرجعها، وأرقد بين جلال المدافن في قبري الضيّق حيث تنقلب صورتي البشرية تراباً فهباءً، وينحلّ ما ارتبط بجسمي الصغير فلا تمثل الميم منه والياء سوى حرفين من حروف الأبجدية فحسب، يومذاك سيكون التماسك والحياة نصيب ذكراي)[2].

ثم طاف في كلمته الطويلة حول شمول أدب ميّ وثقافتها، ووطنيتها، وغيرتها على اللغة العربية، وندوتها، وخطبها المشهورة، ونبل مشاعرها، وأشواق الأمومة الكامنة فيها، التي تجلّت في صفحات رائعة من نثرها.

وكانت كلمة الدكتور طه حسين في تأبين ميّ من نفحات أدبه السامي، تجلى فيها اعجابه بميّ الأديبة التي كانت تمثل في نفسه: (بداوة البادية، وحضارة الحاضرة، وثقافة العرب القدماء، وثقافة المحدثين والأوروبيين، وكل ما يتمنى المثقف ان يصل اليه)[3] ثم سجّل للفقيدة أثرها الكبير في الأدب،

(١) ذكرى فقيدة الأدب النابغة ميّ ـ كتاب الإتحاد النسائي المصري عن حفلة تأبينها ـ ص: (٤٠) أما عبارات ميّ فقد وردت في «ظلمات وأشعة» ـ ص: ٦٩.

(٢) ظلمات وأشعة ـ ميّ زيادة ـ ص: ٤٨.

(٣) ذكرى فقيدة الأدب النابغة ميّ ـ (كتاب الإتحاد النسائي المصري عن حفلة تأبينها) ص: ٢٢.

وأثر ندوتها الاسبوعية في تنشيطه، واهتمامها بفلسفة أبي العلاء وتشاؤمه وعزلته وقارن بينها وبين شاعر المعرة فقال:

(وكلكم يعرف ان بؤس أبي العلاء انما نشأ مما ألقي اليه من العلم، ومما ألمّ به من الحوادث في شخصه، ومما ألمّ به من الحوادث في أهله. وكلكم يعرف ان آخر عهد ابي العلاء بالحياة الاجتماعية العادية التي كان يلقى فيها الناس ويتحدث اليهم ويشاركهم في حياتهم انما هو ذلك الوقت الذي توفيت فيه أمه، فمنذ ذلك الحين قطع الصلة بينه وبين هذه الحياة.

وكذلك كانت حياة ميّ، فمنذ عرفت أبا العلاء تتبعت حياته ولكنها شاركت الناس في حياتهم باسمةً، مظهرةً للرضا، مضمرةً لعبوسٍ شديد، وسخطٍ متصل. ثم توفي أبوها فازداد حزنها وتشاؤمها، ثم توفيت أمها فانقطعت الصلة بينها وبين الناس، واذا هي العزلة المرّة التي لا يتخطاها الانسان الا بالجهد الشديد، والالحاح المستمر.

وأسمع نعي ميّ فلا أزيد على ان أعيد في نفسي هذه الأبيات التي كنت أنشدها كلما لقيتها:

أَلِمّا بميّ قبل ان تطرحَ النوى
بنا مطرحاً، أو قبلَ ان يُزيلها،
فان لا يكن الا تعلُّلُ ساعة
قليلاً، فإني نافعٌ لي قليلُها

ولكن هذه الساعة ستتصل منذ الآن فما أعرف أننا نلقى أحداً فنطيل اللقاء، وما أعرف شيئاً أوفى في العشرة، وأحرص في المصاحبة من الموتى اذا كانوا أعزاء على نفوسنا، وكانوا ينزلون في قلوبنا. و «ميّ» في قلوبنا، ولست في حاجة لأن أنشدها هذه الأبيات، ولكني سأذكرها كلما ذُكرت:

خليليَّ عُدّا حاجتي من هواكما
ومن ذا يواسي النفس الا خليلها،

ألـمّـا بـمـيّ قـبـل ان تـطرحَ الـنـوى
بـنـا مـطرحـاً، أو قـبـلَ ان يُـزيـلهـا ،
فـان لـم يـكـن الا تـعـلُّلُ سـاعـة
قـليـلاً، فـإنـي نـافـعُ لـي قـليـلُهـا!)[1]

وكانت قصيدة صديق ميّ القديم، الكاتب الكبير عباس محمود العقاد في رثائها تعبيراً عن حزنه الكبير عليها. وهي قصيدة طويلة تناقلتها الصحف والمجلات كان عنوانها «آهٍ من هذا التراب» ألقاها باكياً، وهذه بعض مقاطعها:

(أيـن فـي الـمـحـفـل «مـيّ» يـا صـحـاب
عـوّدتـنـا هـا هـنـا فـصـل الـخـطاب
عـرشـهـا الـمـنـبـر مـرفـوع الـجـنـاب
مـسـتـجـيـب حـيـن يـدعـى، مـسـتـجـاب
أين في المحفل «ميّ» يا صحاب

شِـيَـمٌ غُـرٌّ رضـيـاتٌ عـذاب
وحـجـى يـنـفـذ بـالـرأي الـصـواب
وذكـاءٌ ألـمـعـي كـالـشـهـاب
وجـمـال قـدسـيّ لا يـعـاب
كل هذا في التراب؟ آه من هذا التراب!)[2]

أما قصيدة شاعر القطرين، صديق ميّ القديم في رثائها فهي على غرار قصيدة العقاد طويلة. لقد تغنى فيها بصفات الأديبة الراحلة، وتحسّر على ما

(١) ذكرى فقيدة الأدب النابغة ميّ ـ (كتاب الإتحاد النسائي المصري عن حفلة تأبينها) ص: ٣٣ و ٣٤.
(٢) ذكرى فقيدة الأدب النابغة ميّ ـ (كتاب الإتحاد النسائي المصري عن حفلة تأبينها) ص: ٢٩.

قاست في أواخر حياتها، معرباً عن حزنه العميق عليها، وعلى عهدها الذهبيّ في عالم الأدب، وهذا بعض ما جاء فيها: [الخفيف]

قد تولى رفاقنا وبقينا ... يعلم الله بعدهم ما لقينا
هل من الصعاب في كؤوسك سُؤْرٌ ... قد سقينا يا دهر حتى روينا
أوداع يتلو وداعاً وتأبين ... على الأثر معقب تأبينا
أيها الشاعر الذي كان حينا ... يتغنى وكان ينحب حينا
حطّم العود ان كرّ الليالي ... لم يغادر في العود إلا الأنينا!
أين ذاك الصوت الذي يملـ ... ـك الأسماع في كل موقفٍ تقفينا
فُجع الشرق في خطيبته الفصحى ... وما كان خطبها يهونا
أبلغ الناطقات بالضاد عِيّت ... بعد أن أدّت البلاغ المبينا
أيُّهذا الثرى ظفرت بحسنٍ ... كان بالطهر والعفاف مصونا
لهف نفسي على حجى عبقريٍ ... كان ذخراً فصار كنزاً دفينا!(١)

وبعد أن فرع خليل مطران من إلقاء قصيدته ألقى قصيدة من شعر الأستاذ أحمد محرّم نيابةً عنه وهي قصيدة مؤثرة ننقل منها هذه الأبيات: [الكامل]

(يا ميّ ان طال السكوت، فانها ... أوطان صمتٍ دائمٍ ونعاسِ
صوني بيانك عند ربك واهجعي ... ما ثمَّ من قلمٍ، ولا قرطاسِ
لك من ذخائرك الغوالي ها هنا ... كنز يزيد على كنوز الماسِ
ما العبقرية غير عرشٍ خالدٍ ... سامٍ، على هام الكواكب راسِ)(٢)

---

(١) ذكرى فقيدة الأدب النابغة ميّ - (كتاب الاتحاد النسائي المصري عن حفلة تأبينها) ص: ٤٤ - ٤٥.

(٢) ذكرى فقيدة الأدب النابغة ميّ - (كتاب الاتحاد النسائي المصري عن حفلة تأبينها) ص: ٤٨.

وكان من خطباء تلك الحفلة الأستاذ مجد الدين حفني ناصف شقيق ملك حفني ناصف (باحثة البادية) فتحدث عن الصداقة التي نشأت بين ميّ وأخته ملك، وعن فضل ميّ في كتابة سيرة حياتها بذلك الأسلوب العلمي التحليلي الرائع، وفضلها عليه هو حيث قال:

(... ولكني استوقفكم هنا لاعترف لكم ان كتاب ميّ زاد في تقديري للباحثة، واني تعلمت منها الوفاء لشقيقتي. ان هذا الكتاب حقيق بكلمة فيكتور هوغو الخالدة اذ يقول في تأملاته: «فليعلم الجميع ان الكلمة كائن حيّ!»)[1].

من اللواتي القين كلمات مؤثرة في حفلة تأبين ميّ يومئذٍ الدكتورة نعيمة الأيوبي، والمحامية عزيزة عباس عصفور، كانت الدكتورة نعيمة قد تعرفت الى ميّ شخصياً بُعَيْدَ رجوعها من لبنان الى القاهرة سنة **١٩٣٩** واشتركت معها في أعمال لجنة تحكيم ثلاثية مكونة من: ميّ، والدكتورة نعيمة والأديبة أوليفيا عويضة المعروفة باسمها المستعار «الزهرة»، للنظر في مسابقة أدبية طرحتها مجلة «الطالبة» (التي كانت تصدرها المربية الفاضلة الأديبة مينرفا عبيد) لمنح جائزة لأحسن أمنية تُقدّم لها بمناسبة سنة **١٩٤٠** الجديدة. استعرضت الدكتورة الأيوبي ذكرياتها مع الفقيدة النابغة ثم ختمت كلمتها وهي تخاطب صورة ميّ فقالت:

(لقد كنتِ تؤمنين يا ميّ بتقابل الأرواح في عالم الخلود، فلتهنأ روحك الطاهرة بأحبابها، أما الجرح الذي تركته في نفوسنا فلن يندمل، وأما الفراغ الذي تركته بيننا فلن يُملأ. فمحالٌ أن تُخلق «ميّ» مرتين!)[2]. وكانت «رسالة ميّ الخالدة» هو ما ركزت عليه المحامية عزيزة عباس عصفور في

---

(١) ذكرى فقيدة الأدب النابغة ميّ - (كتاب الاتحاد النسائي المصري عن حفلة تأبينها) - ص: ٥١.

(٢) ذكرى فقيدة الأدب النابغة ميّ - (كتاب الاتحاد النسائي المصري عن حفلة تأبينها) - ص: ٤٣.

كلمتها، مستشهدةً بأقوال ميّ (التي كانت حياتها حياة القلب المؤمن الثائر، والتي شعرت بأن للمرأة رسالة لا تقل عن رسالة الرجل أهمية وخطراً)[1].

وكان لا بدّ من أن ينهض ممثل لأسرة زيادة فيلقي كلمة الشكر المتوجبة لزعيمة النهضة النسائية، رئيسة الاتحاد السيدة هدى شعراوي، ولأعضاء لجنة التأبين وللخطباء والخطيبات والشعراء الذين أقاموا لميّ مهرجاناً تجلّت فيه روحها متلألئة بهالة من نور، فنهض الأستاذ انطون الجميّل وألقى كلمة شكر بليغة بالنيابة عن أفراد أسرة الفقيدة! وانطون الجميّل من أقدم أصدقاء ميّ وآثرهم على قلبها، ومع انها ماتت عاتبة عليه لتقصيره في تفقّدها ابان محنتها في لبنان، فقد كان يعتبر نفسه أقرب اليها من الكثير من انسبائها. وبعد أن وجّه الشكر لمستحقيه قال:

(ولكن علام الشكر؟ علام الشكر والفقيدة الكبيرة هي فقيدتكم، وفقيدة الأدب والنبوغ. فميّ لم تكن لأهلها وعشيرتها، وميّ لم تكن لسوريا ولبنان وطنها الأول، ولا لمصر وطنها الثاني، بل كانت لهذا الشرق أجمع، ولكل من أحبّ الفكر السامي، والأدب الرائع، والعاطفة النبيلة. فالجميع في الحزن عليها سواء. فلها الرحمة ولحضراتكم طول البقاء)[2].

وقد اختتمت الحفلة بقطعة موسيقية عزفها أمير الكمان الأستاذ سامي الشوا كانت «ميّ» تطرب لسماعها. وفي مطلع سنة ١٩٤٢ صدر كتاب الاتحاد النسائي المصري: «ذكرى فقيدة الأدب النابغة ميّ» جامعاً الخطب والقصائد التي ألقيت في حفلة تأبينها، ومراثي وقصائد أدباء وشعراء لم يَتَسَنَّ لهم القاؤها فيها، وأقوال الصحف المصرية عقب موتها وحفلة تأبينها. تصدّرت الكتاب صورة مكبّرة لميّ، وكلمة الاهداء الموجهة اليها بخط الزعيمة هدى شعراوي وهذا نصها:

---

(١) ذكرى فقيدة الأدب النابغة ميّ - (كتاب الاتحاد النسائي المصري عن حفلة تأبينها) - ص: ٥٢.

(٢) ذكرى فقيدة الأدب النابغة ميّ - (كتاب الاتحاد النسائي المصري عن حفلة تأبينها) - ص: ٥٣.

(ميّ: هذه مجموعة نادرة من أزاهير الأدب العربي الذي أحببتِهِ، وترعرعت بين رياضة تلك التي سقيتها بسلسالك العذب تارةً، وأخرى بدماء قلبك، فنما وأينع فيها عرسك الرائع.

هذه الورود يا ميّ نثرها عظماؤنا وشعراؤنا وأدباؤنا تحية لروحك، وتمجيداً لذكرك، فجمعتها ونسّقت منها هذا الاكليل الباهر ليبقى رمز تقديرهم لفضلك، ووفائهم لعهدك،

الهدية لروحك الخالدة يناير ١٩٤٢ هدى شعراوي)[١].

أما الذين ارسلوا الى لجنة التأبين مراثيهم، ونشرها الاتحاد النسائي في الكتاب المشار اليه فهم الأساتذة: الدكتور أمير بقطر، ومحمود يوسف، ومحمد الخالد توفيق (ابن الوليد) والأديبة السيدة ايمي خير، والآنسة عزيزة فوزي، والآنسة زينب الحكيم، والشعراء: أحمد عربي أبو شريفة ويحيى بشير، ومحمد البرعي المهندس، وعمر جبالي كيشار (خريج كلية الآداب) ومنيرة توفيق حرم محمد ماهر رشدي مأمور مركز تلا. وتضمن الكتاب أقوال الصحف التي صدرت قبل تاريخ نشره ومقالات قيمة عن ميّ بأقلام الأساتذة: أسعد حسني[٢]، وسلامة موسى[٣]، ومحمود عزت عزمة[٤]، وادجار جلاد[٥]، وقصيدة للشاعر عادل غضبان نشرها في المقطم في ٥ ـ ١٢ ـ ١٩٤١ بعنوان «عودة الطائر»، وأبيات للأستاذ نجيب الهواويني نشرها في العدد ذاته من المقطم. كما نشرت السيدة هدى شعراوي في الكتاب الذي أصدرته كلمة بقلم «صاحب السعادة قليني فهمي باشا» بعنوان: «ذكرى فقيدة الأدب ميّ وأشارت إلى أنها منقولة عن كتاب عنوانه: «ذكريات واقتراحات»، والصورة المرفقة للشخصيات التي حضرت الحفلة.

---

(١) ذكرى فقيدة الأدب النابغة ميّ ـ ص: (٢).

(٢) المجلة الجديدة ـ العدد ٣٨٦ ـ في ٢٦ ـ ١٠ ـ ١٩٤١ ـ «ذكريات عن ميّ».

(٣) المجلة الجديدة ـ العدد ٣٨٨ ـ الصادر في ٩ ـ ١١ ـ ١٩٤١ والمقالة بعنوان: ميّ الأديبة الحرّة.

(٤) مجلة الصباح ـ عدد ٧ ـ ١١ ـ ١٩٤١ ـ فجيعة الشرق في أديبته الآنسة ميّ.

(٥) جورنال ديجيبت ـ Journal D'ECYPTE ـ عدد ٢٩ ـ ١٠ ـ ١٩٤١، والمقالة بعنوان: «ذكريات عن ميّ» وباللغة الفرنسية.

جانب من الاجتماع ويرى فيه بعض أصحاب المعالي الوزراء والعظماء
في حفلة تأبين ميّ بدار الاتحاد النسائي
المصري مساء ٤ - ١٢ - ١٩٤١

هكذا كان تكريم ميّ في مصر بعد موتها، ولا بد من الاشارة الى ان الحكومة المصرية أطلقت إسمها على أحد شوارع الاسكندرية باقتراحٍ من محافظة المدينة سنة ١٩٥٩، وهو يقع في منطقة بلوران في حيّ الرمل[1].

وهنالك أيضاً قصيدة عصماء عنوانها: «قصة ميّ» نشرها الشاعر محمد مصطفى الماحي في مجلة الهلال بعد موتها وهي مؤلفة من أربعةٍ وستين بيتاً من عيون الشعر روى فيها قصة حياتها بأمجادها وشقائها، ورثاها رثاءً بليغاً. استهل الشاعر الماحي قصيدته منشداً:

(شفى الموتُ ما أعيا الطبيب المداويا
وروّح عن قلبٍ تمناه شافيا
فيا لكَ قلباً هامَ بالمجدِ والعلا
طوال الليالي، باتَ في الرمسِ ثاويا
ويا لليالي كم بها من عجيبةٍ
أثرن بها وجداً، وأيقظن غافيا)

وعبّر عن وفائه ووفاء مصر لها قائلاً:

(ويا ميّ هذي غاية الحمى فانعمي
بمجدٍ تسامى ليس يا ميّ فانيا
وذكرى تُري الأجيال أنّى تعاقبت
مثالاً من العلياءِ فاق الدراريا
حننتِ الى مصر واحببتِ أهلها،
وشدت بمصر وطناً لك ثانيا،
فهذا وفاءٌ من بني مصر خالصٌ،
وهذا ثرى مصر يضمّكِ حانيا

(١) مجلة الأديب ـ عدد شهر ديسمبر ١٩٧٤ ـ من مقالة عن ميّ بقلم الأستاذ نقولا يوسف ـ ص: ٤٧.

نــعــاكِ لــنــا الــنــاعــي فــروّع أنــفــســنــا
وهــزّ قــلــوبــنــا، واســتــثــار مــآقــيــا،
ســمــعــنــا بــه صــوتــاً من الــنــيــل صــائــحــاً
يــجــاوب صــوتــاً في ذرى الأرز بــاكــيــا
نــعــى عــلــماً في المشــرقــيــن وكــوكــبــاً
ســرىٰ في ظــلامِ الــعــيــشِ هــاديــا
نــعــى آيــةً فــي الــطــهــر عــزّ مــنــالــهــا،
فــمــا اصــطــحــبــت الا الــحــجــى والــمــعــالــيــا
فــهــل وســعــت تــلــك الــفــضــائــل حــفــرةٌ
وقــد ضــاقــت الــدنــيــا بــهن مــغــانــيــا؟)[١].

أما الأستاذ أحمد حسن الزيات الذي كان يكن لميّ أصدق مشاعر التقدير والإعزاز، والذي عرفها شخصياً في الثلاثينات، بعد رجوعه الى مصر من العراق، وكان فخوراً بتحريرها في مجلته: «الرسالة»، فقد نشر افتتاحية فيها بعد انقضاء أربعين يوماً على وفاتها بعنوان: «بعض الكلام عن ميّ» قال في مطلعها:

(ولدت ميّ وعاشت، ثم ماتت كما يولد النهر من قطر السماء فتربّيه الطبيعة في الينابيع الهادئة الفسيحة، ثم تبعثه برسالة الحياة الى حوضه فيشق بالجهد والصبر طريقه الموحش في صخور الجبل، وقفار الأرض، وأصول الغاب، ثم يلقي على شاطىء الوادي ما حُمِّل من فضل الله فيحيي الموات، وتتجمّع الخيرات، وتنشأ الحضارات، وتتألّف الملاحم، ويتكلم التاريخ. ثم يأخذ النهر مجراه بين الحقول الناضرة، والمدن العامرة شادياً بالمال والجمال

(١) ديوان محمد مصطفى الماحي ـ الطبعة الثانية ـ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٧.

والحب حتى يذهب في عُباب البحر، كما تذهب الروح الطيبة في فضاء اللا نهاية! ولن تجد لميّ في حياتها وموتها أقرب من هذا التشبيه، فقد كانت في خلال ما غشي الشرق من الهموم والظلام، قبساً من الحياة)[١].

وحذا الاتحاد النسائي العربي في لبنان حذو الاتحاد النسائي المصري فأعلن عن إقامة حفلةٍ كبرى لتكريم ميّ وجاء في جريدة «بيروت» ما يلي تحت عنوان: «ذكرى ميّ»:

(يقيم الاتحاد النسائي العربي في الساعة الرابعة والنصف بعد ظهر اليوم حفلةً تذكاريةً لفقيدة الأدب العربي الكاتبة الخالدة «ميّ» في منتدى «وست هول» بالجامعة الأميركية. تفتتح الحفلة السيدة نجلاء صعب، رئيسة الاتحاد، ثم تتلى كلمة رئيس الوزراء، فكلمة فارس بك الخوري. ويتكلم بعد ذلك الأستاذ راجي الراعي والسيدة جوليا طعمة دمشقية، والأستاذ ميشال أبو شهلا، والشاعر عمر أبو ريشة، والسيدات إيفلين بسترس «باللغة الفرنسية»، وكريستين رزق، وروز شحفة)[٢].

حضر الحفلة يومذاك حشد كبير من محبي الأدب والمعجبين بالفقيدة الكبيرة، فتكلمت السيدة نجلاء صعب عن علوّ مكانة ميّ في الأدب العربي، وعن تألم أصدقائها للنكبة التي نزلت بالأدب بعد فقدها. ثم تحدث رئيس الوزراء أحمد بك الداعوق عن شخصية ميّ الأديبة فأعطى عنها صورة حيّة تنمّ عن اطلاعه الواسع على رسالتها الأدبية وأسلوبها الجميل، وقال: (إننا نُقبل اليوم لتكريم ذكرى كاتبة عربية لبنانية أنبتتها تربة هذا الوطن العزيز فاستطاعت بدأبها المتواصل، وسعيها الحثيث ان تتبوأ مكانة رفيعة في دنيا العلم والأدب. وان هذا الوطن الذي أحبّ ميّ في حياتها، وأحبته هي

---

(١) وحي الرسالة ـ أحمد حسن الزيات. الجزء الثاني من الطبعة السادسة ـ ص: ٣١٢.
(٢) جريدة بيروت ـ العدد (٣٣٥٢) ـ تاريخ ١٩ ـ ١ ـ ١٩٤٢.

في ماضيه وحاضره ومستقبله فخور بها، وحريص على نسبتها اليه في سجلّ المفاخر!)[1].

ثم تتابع الخطباء على المنبر يحيون ذكرى ميّ نثراً وشعراً. ويمجّدون نبوغها وخلقها الرفيع، وإيمانها وصمودها في وجه المحن والمكاره. أما الشاعر عمر أبو ريشة فقد خاطبها في قصيدته «عودة الروح» باسمها المستعار «إيزيس» الذي وقعت به ديوان شعرها باللغة الفرنسية: «أزهار حلم». واستهلّها منشداً بإلقائه الأخاذ:

أَتَطُلّينَ من كُوى الأحقاب
بين وَهجِ اللِّقاء وزَهْوِ الأيابِ
أيُّ شوقٍ «ايزيس» فَضَّ غُبارَ
الغيبِ عن نَجْمِكِ القصيِّ الخابي
وأعادَ الطيوفَ تخفقُ فيما
أَطْبَقَتْهُ الأحقابُ من أهْدابِ
تَتَهادينَ والوجودُ التفاتٌ
من حنانٍ وبسمةٌ من طِلابِ
وعلى جانبيكِ من زُمَرِ الكهانِ
نجوى الأحبابِ للأحبابِ
أيُّ شوقٍ «إيزيس» ردّ الى الصحـ
راءِ ما يَتَّمَتْهُ من أعشابِ
وأعادَ النخيلَ خلف ضلوع الـ
ـنيلِ في مائجٍ من الأطياب

---

(١) المكشوف ـ عدد ٢٦ ـ ١ ـ ١٩٤٢.

ان لــلروح عــودةً مــن خــفــيٍّ الــغَــيْــ
ــب مــهــمــا تــنــعّــمَــتْ بــاغــتــرابِ)[1]

وكانت كلمة الأديبة جوليا طعمة عن ميّ: «الصديقة الوفية»، أما الأديبة روز شحفة فقد تحدثت عن آثار ميّ الأديبة، وأثرها في توعيـة النشء، وإسهامهـا في النهضة الحديثة، وختمت خطبتها قائلةً:

(سيُخلّد اسمها، وسيوضع رسمها في المكتبة الوطنية الى جانب كتبها بين رسوم العلماء والنوابغ، وسيكون لوجودها معنى يستحثّ الفكر النسائي قائلاً: «الى الأمام أيتها النساء، الى الأمام!» وسيطلق إسمها على أحد شوارعنا فتلفظ كل الطبقات اسم بنت لبنان، وتتوق للتعرّف الى جهـادها وأدبهـا ونبلها. وستُدرّس كتبها في المدارس والجامعات لتتغلغل روحها السامية في نفوس الناشئة، هذه الروح التي تطبع كتاباتها برسمها قبل أن تُذيّل بإسمها. فروح ميّ في السطور تقرّب، بجمالها ونفثاتها العلوية، كل بعيدٍ الى الأفهام. نامي يا ميّ فأنتِ خالدة، وسلام الله عليك!)[2].

وقد لقي اقتراح الأديبة روز شحفة ترحيباً من الحكومة اللبنانية فكلّفت فناناً روسياً كان يقيم في بيروت برسم لوحةٍ لميّ علقتها سيدات الجامعة اللبنانية في المكتبة الوطنية سنة ١٩٤٢ إلى جانب صورة وردة اليازجي باحتفال بسيط. ولكن حرب لبنان الطاحنة التي دمّرت أحياءً بكاملها من مدينة بيروت القديمة جهة باب ادريس والبرج ومبنى البرلمان والسراي، دمّرت كذلك مبنى دار الكتب الوطنية في سنة ١٩٧٦، مما أتلف كنوزها. وهذه صورة عن لوحة ميّ المذكورة وجدناها منشورة في مجلة «الحسناء» نتقلها للذكرى.

---

(١) حدثنا شاعرنا الكبير عمر أبو ريشة فقال ان قصيدته برثائها مؤلفة من سبعة وخمسين بيتاً، وتفضل بإعطائنا الأبيات المنشورة أعلاه لافتقادها كلها بين أوراقه.

(٢) من وحي الأمومة ـ روز شحفة ـ ص: ١٠٣.

ميّ زيادة

ولا بدّ من الاشارة الى ان صديقة ميّ في أيام محنتها بلبنان، الأديبة جهان غزاوي عوني ألقت كلمة في رثائها من إذاعة بيروت، وان الحكومة اللبنانية أطلقت اسم ميّ على أحد شوارع المدينة. ومن غريب الاتفاق أن يكون شارع ميّ زيادة متقاطعاً مع شارع جبران خليل جبران في منطقة القنطاري!..

كتب الأدباء والباحثون مقالاتٍ عديدة عنها في لبنان وسورية وبلاد المهجر نذكر منهم الأستاذ رامز سركيس الذي نشر مقالة لائقة بها في جريدة السلام المهجرية هذا بعض ما جاء فيها:

(تتجسد في أدب ميّ تقنية يعقوب صروف المبدعة، ودقة خليل مطران

في الوصف، وجزالة سليم سركيس، وأناقة أنطون الجميّل، وبيان أمين تقي الدين، ورقة وليّ الدين يكن في التعبير)[1].

اما الاستاذ جورج غريّب فقد ذكر في كتابه: «دراسات أدبية» وقع نبأ موتها على «الأب ارنست سارلوت» (الذي كان له أثر كبير في توجيه دراستها، كما ذكرنا في فصل سابق) وكتب يقول:

(وصلني نبأ ميّ وأنا في صومعة لامارتين غارق بين الأوراق والأقلام أستوحي عمق الزمان فشاع في كياني ألم مرير، وأسرعت الى الرئيس «الأب سارلوت» أوقفه على الخبر لعلمي بما يقوم بينه وبين النابغة ميّ من علاقات. وما ان وصلت باب المكتبة حتى ترددت في الدخول كأني أردت ان لا أكون أول من يحمل اليه مثل هذا الخبر. ولكني كنت في حاجةٍ الى مرأى الألم يلوح على وجهٍ من وجوه عارفي ميّ، فدخلت حاملاً بين شفتيّ كلمتين أفرغتهما وسكت: ماتت «ميّ» فلم يجب الأب سارلوت بل أخذ يتأمل كتاباً بين يديه، ويقلب صفحاته بحركةٍ عصبية. وبعد هنيهة استجمع فيها ذاكرته وحدّق اليّ وقال: «لقد استراحت ماري... ألا تظن؟!» وعاد الى سكوته وانقباضه)[2].

واذا كان الوفاء لميّ قد غاضَ في حياتها، في العديد من الأوساط الثقافية في البلاد العربية فقد انبعث بعد موتها، وأقامت مدينة السويداء في جبل الدروز حفلة كبرى لاحياء ذكراها في ٣٠ ـ ١١ ـ سنة ١٩٤١. كان من خطباء تلك الحفلة الأستاذ سعيد أبو الحسن فتحدث عن «ميّ بين المرأة والفلسفة والحب والحزن والموت» حديث الأديب المتعمق بدراسة أدبها ثم قال:

---

(١) جريدة السلام ـ بونيس آيرس ـ الأرجنتين ـ عدد ٢٦ ـ ٣ ـ ١٩٤٢، وقد لخّص المقالة المستشرق الأستاذ أوزفالدو ماتشادو، في الكتاب الذي نشره باللغة الإسبانية في الأرجنتين سنة ١٩٤٣ بعنوان: ذكرى ميّ وتقديرها.

(٢) دراسات أدبية ـ جورج غريب ـ ص: ١٢١ ـ ١٢٢.

(هذه أيها الإخوان بعض مظاهر الفكر والعاطفة عند فقيدة الأمة العربية، بل فقيدة الشرق الغالية. بقي ان نشير الى اللغة التي عبّرت فيها عن هذا الفكر الثاقب،وهذه العاطفة الجامحة. فاللغة هي التي تدلّ على ما تسميه ميّ: «ذاتية الكاتب» لأن الصعوبة في الكتابة ليست في التفكير، ولا في الاحساس، إنما هي في الاهتداء الى الألفاظ الملائمة، والأسلوب الفني المبتكر للتعبير عن هذه الأفكار، وهذا الاحساس.

لقد أحبت ميّ اللغة العربية حباً لا مزيد عليه، ومن أحب شيئاً فقد اتّحد به كما تعلمون)[1].

وبعد ان شرح خصائص بيانها الساحر في سبكه، وانتقاء ألفاظه، أتى على ذكر شاعريتها فقال:

(فميّ شاعرة في كل ما كتبت: شاعرة لا بالأوزان والقوافي. بل بالروح. هي شاعرة حتى في أبحاثها الاجتماعية، شاعرة في نقدها ودرسها العميق لباحثة البادية، شاعرة في تغنيها بالربيع، شاعرة في اختيارها أصدقاءها، شاعرة كجبران وولي الدين يكن، نابغة مثلهما. رحمها الله ورحمهما، وعوّض الله على هذه الأمة بنوابغ مثلهم لقيادتها، ورفع اسمها عالياً بين الأمم)[2].

تجلى وفاء المرأة اللبنانية لميّ في مجلة: «صوت المرأة» التي أصدرت عدداً ممتازاً في الذكرى الثامنة لوفاتها حرّر فيه كتاب وكاتبات عرفوا ميّ أمثال الأساتذة فؤاد حبيش، وأنيس ناصيف، وفؤاد سليمان، والآنسة عائدة صعب[3]، وقد تصدّرت العدد صورة ميّ بريشة الفنان يوسف الحويّك، وكانت كلمة الإهداء بقلم الأديبة إدفيك شيبوب، سكرتيرة تحرير المجلة. وهذا نصها:

---

(١) و (٢) عن جريدة المكشوف ـ العدد ٣٢٦ ـ تاريخ ٢٢ ـ ١٢ ـ ١٩٤١.

(٣) كانت أطروحة الآنسة عائدة صعب عن «ميّ الأديبة» فنشرت المجلة مقتطفات منها.

ميّ زيادة بريشة يوسف الحويك

(من حق ميّ على الأدب ان لا تذهب هباء... فان هذه الشعلة التي طلعت على العالم العربي تحمل ذلك الضياء، من حقها على الناس ان لا توضع تحت المكيال.

ومن حق ميّ على المرأة العربية ان تقوم المرأة العربية نفسها بحمل هذه الشعلة لتنير طريق المرأة في سيرها الطويل، فقد كانت ميّ أمثولةً ممتازة رائعة لما يمكن ان تحققه المرأة من الخير، وما يمكن ان يتحقق في نفس المرأة من الجمال والحق والخير.

كانت ميّ نموذجاً حياً لارادة المرأة وعبقريتها، ومن واجب المرأة ان تمجد هذه الارادة وهذه العبقرية. من أجل هذا تقدّم «صوت المرأة» عددها الخاص بميّ، بمناسبة الذكرى الثامنة لوفاتها)[1].

كان عنوان مقالة الأديب الشاعر فؤاد سليمان «المأساة»، وهي قطعة أدبية من أجود ما كتب، تحدث فيها عن مأساة ميّ عن طريق حوارٍ تخيّله بينها وبين الفراغ فكتب ما يلي:

(قال الفراغ الذي بقي لها: «أعظم من كل ما أنشدتِ يا ميّ نشيد على سرير طفلٍ لم تُنْشِديه، كم تَشَهَّيْتِ ان تُنْشِديه!

أعظم من كلّ ما فعلتِ يا ميّ: حياتك! لقد ضاعت حياتك، وها أنت وأنا وحدنا »)[2].

ثم صوّر مشاعرها في مختلف أدوار حياتها متغلغلاً في أعماق قلبها، شاعراً بأشواقها المكبوتة، وأحزانها المنهكة للروح والجسم، واصفاً حبها العظيم لجبران فقال:

(ذاك الذي وراء البحر. ذاك الذي يعيش في الألوان والأنغام، في

---

(١) صوت المرأة ـ العدد الثاني عشر ـ السنة الخامسة ـ كانون الأول ١٩٤٩.

(٢) صوت المرأة ـ العدد الثاني عشر ـ السنة الخامسة ـ كانون الأول ١٩٤٩ ـ ص: ١٠ و ١١.

المحبة والحنان، ألا يمكن ان يكون لها أماً وأباً، وأخاً وابناً؟ لم لا؟ ذاك يفهمها، وفي فهمه لها حلاوة لم تعرفها في غيره من الرجال. . . في قلبه عطر لم تعرفه في أجواء الرجال. . . شذاه يملأ غرفتها وكتابها وقلمها. جبهته العالية تنحني على أوراقها في الليل. أهدابه السوداء الطويلة تنعس على كتابها، وتلامس في بعض الليالي، أهداب عينها!!)[1].

وختم مقالته بهذه العبارات:

(. . . وفي أروع المآسي، في أقسى ما تحزّ به سكين في لحم! في كل ما في الانسان من وجعٍ ووحشةٍ، وظلمةٍ، في كل ما فيه من شراسةٍ وعبقريةٍ، ولهيبٍ ورمادٍ، كتبت هذه المرأة العظيمة مأساة حياتها!)[2].

وعلى ذكر ميّ وجبران كتب الأديب الكبير مارون عبود يقول:

(وان زالت ميّ من دنيا الحب والهوى فهي باقية في دنيا الأدب بقرب حبيبها جبران. وقد تكون صارت اليه أقرب اذا اعتقدنا كما يعتقد أصحابنا تلاميذ جبران. . .)[3].

أما الأديب الأستاذ راجي الراعي، صاحب المطالعة العظيمة التي دافع فيها عن سلامة قوى ميّ العقلية، وعن عبقريتها أمام محكمة بداية بيروت سنة ١٩٣٨، إبان النظر في دعوى الحجر الذي ألقي عليها ظلماً وبهتاناً، فقد كتب مقالة بمناسبة الذكرى السابعة لوفاتها عنوانها: «عبقرية ميّ» مجّد فيها دورها في النهضة الأدبية وختمها بقوله:

(لا! لا تقل انها ماتت! ان ميّ لا تموت، انها لم تمت!)[4].

كان هؤلاء الأدباء الكبار على حقٍ في حكمهم على خلود أدب ميّ لأنه

---

(١) و(٢) صوت المرأة ـ عدد كانون الأول ١٩٤٩ ـ ص: ١٠ و ١١.

(٣) جدد وقدماء ـ مارون عبود ـ ص: ١٦٠.

(٤) جريدة العمل ـ العدد ٨١٠ ـ تاريخ ٧ كانون الثاني ١٩٤٧.

أدب رصين تجاوز حدود الذاتية الضيقة، والاقليمية المحدودة، في شموله، وانسانيته وعمقه، وتناول قضايا الفكر والفن والمجتمع واللغة بروح المعاصرة. وفي هذا كتب الأستاذ محمود الشرقاوي يقول:

(عواطف ميّ الوطنية كانت تتوزّع بين لبنان ومصر، ولكن فكرها وقلبها كانا يشملان العالم كله، والوطن العربي كله الذي كانت تسميه الشرق)[1].

وأما الأدلّة على خلود أدبها فانها تتجلى بهذا الفيض من الدراسات والمؤلفات التي ما زالت تصدر في البلاد العربية، على ما فيها من غثٍّ وسمين. كما تتجلى في إقبال القراء على كتبها التي ما زالت تُنشر في طبعات متتالية، بعد انقضاء ما يقرب من نصف قرنٍ على وفاتها، فإن الحكم على نتاج الكُتّاب، وتقييم مؤلفاتهم التقييم الصحيح، وإعطاءه الحجم الذي يستحقه لا يظهر على حقيقته إلا بعد زوالهم.

لقد أفضنا بالحديث عما لاقت ميّ من مظاهر التكريم والوفاء بعد وفاتها، ولا بد من الحديث عما لاقت من الجحود والتجني كذلك. وان الباحث ليذهل عند إحصاء ما نُشر عن شخصيتها، وعن آثارها بسطحيةٍ واستخفافٍ، في كتبٍ صدرت، ومقالاتٍ نُشرت وحتى في مسلسلٍ تلفزيوني تافهٍ عُرض في العواصم العربية تحت عنوان «العملاق». إن النيل من العظماء، والطعن بهم أمرٌ مألوف في كل زمانٍ ومكان، ولكن التغاضي عنه جرم لا يغتفر. وكأن ميّ، رحمها الله، كانت تتوقّع التشهير بسمعتها، والتجني عليها عندما كتبت تقول في رسالتها الى الدكتور يعقوب صروف المقطع الذي صدّرنا به هذا الفصل:

(لا شكّ عندي في ان كل كاتب يتمنى ان يكون له من يذكره على هذه

---

(١) ابراهيم ناجي الشاعر والإنسان ـ محمود الشرقاوي ـ ص: ٢١١.

الصورة بعد موته، وأتمنى ان ينالني ما نال باحثة البادية من حسن الحظ لأن المخلصين قليلون بعد موت الكاتب، والعداء له، والغيرة منه، وتعمّد تصغير شخصيته، والنيل من مقامه يبرز الى الوجود بعد سكوته في قلب الثرى)[1].

كما ينبغي الا ننسى قولها: (وكم من نابهٍ قضى تاركاً آثاره فاكتفينا بالثناء عليه ثناء النائحات على كل ميت فظلمناه في مماته، بعد ان كان مظلوماً في حياته)[2].

ان العتب الكبير موجّه الى الكتاب المعروفين الذين عاصروها وقدروا فضلها، ثم تجنوا عليها بعد موتها، ومنهم سلامة موسى وطاهر الطناحي. فقد نشر سلامة موسى كتابه: (تربية سلامة موسى) في القاهرة سنة ١٩٤٧ ومجّد أدب ميّ وذكاءها، ولكنه ثبّت جنونها عندما أتى على ذكر أحزانها ومحنتها في لبنان من غير ان يكلّف نفسه عناء التدقيق بما أصابها. فقد روى في كتابه انه زارها في بيتها مع صديقه أسعد حسني، بعد رجوعها من لبنان، حيث قضت «سنوات» في مستشفى الأمراض العقلية، وحسبها عندما رآها في السبعين من العمر، وكأنه يرى شخصاً لا يعرفه، فكتب يقول:

(فغمزني أسعد وهمس: الآنسة ميّ! الآنسة ميّ! فسلّمت وتضاحكت ولكنها هي أدركت كل شيء، واستولى عليّ اكتئاب وخجل وجمود، وارتسمت في ذهني صورة لعذاب النفس الذي لقيته هذه المسكينة في مرضها. ولكن سرعان ما زال عني الاكتئاب والخجل والجمود اذ شملني أسف. فان ميّ قعدت الينا، وشرعت تقصّ علينا ما قاسته في المستشفى، وكيف ألبسوها «الجاكتة» التي تمنع العربدة عند المجانين، وكيف أضربت عن الطعام، ثم، وهنا الأسف والحزن، كانت وهي تروي لنا ما وقع لها، وكيف ان أدباء مصر

---

(١) رسائل ميّ - الدكتور جميل جبر - ص: ٤٠.

(٢) عائشة التيمورية - ميّ زيادة - ص: ٣٥.

نسوها وتركوها ولم يسألوا عنها، كانت تضحك مرةً، وتبكي أخرى. وتكرّر هذا منها كثيراً، وأدركت انها لا تزال في حاجةٍ الى المستشفى)[1].

ألا ليت سلامة موسى كان في عـداد الذين نسـوا ميّ ولم يتفقدوا أحوالها، ولم يكن في عداد الذين صدّقوا التهمـة التي وصمتها بـالجنون، وسجلوا حكمهم عليها بزعزعة العقل لمجرد أنها فتحت قلبها وباحت له، هو الذي كانت تعدّه صديقاً قديماً، وإنسانـاً أديباً، وزميلاً محترماً، بما قاسته في لبنان! ولو لم يستخفّ في أمرها لما كتب أنها (ماتت بعد سنوات قضتها في مستشفى الأمراض العقلية في لبنان)، ولَذَكَرَ في كتابـه نشاطهـا الأدبي في السنوات الثلاث الأخيرة من عمرها في القاهرة ومنه محاضرتيها الأخيرتين في الجامعة الأميركية: «حاجتنا إلى ثقافةٍ اجتماعية»، و«عِش في خطر».

وأما طاهر الطناحي فان أمره مع ميّ في كتابيه: «أطياف من حياة ميّ» و «ألحان الغروب» أمر عجيب، فان القارىء لهذين الكتابين يقع في الحيرة، ويعجز عن تفهّم قصده لأنه يُطنب تـارةً في ذكرهـا فيمدح ويمجّـد، ثم يدسّ أخباراً عنها من نسج خياله، ويزوّق جمله بأقوالٍ لها منشورة في كتبها ومحاضراتها، فيختلط الأمر على القارىء أمام عملين مكتوبين بأسلوب صحفيّ مشوّق، لا هما من نوع الدراسة الجدية لحياة كاتبة وأدبها، ولا هما من نوع الرواية أو الأقصوصة، أو الحكاية التي تجمع بين الواقع والخيال. . .

وأما التحقيقات الصحفية، والمقالات المرتجلة التي تتحفنا بها صحف القاهرة ومجلاتها، وصحف لبنان والكويت بتوقيع كتاب مشهورين نذكر منهم الأستاذ أنيس منصور[2]، وكتـاب مغمورين، فانها من نوع تحبير الصفحات لإثارة القراء بدون أي احترام للأمانة التاريخية، أو للكتاب الذين يتحدثون عنهـم، أو حتى القراء الذين يكتبون لهم! وفي هذا أكبر دليل على ما وصلنا

---

(١) تربية سلامة موسى ـ سلامة موسى.

(٢) مجلة «أكتوبر» القاهرية ـ اعداد مايو ويونيو ويوليو ١٩٨٠ ـ حلقات عن صالون العقاد بقلم أنيس منصور.

اليه في صحافتنا وأدبنا ومجتمعاتنا من تقهقر وانحطاط. ناهيك عن ان خطر هذه الكتابات المشوّهة لصور مشاهيرنا، ولتاريخنا جسيم بلا ريب يضلّل الناشئة، ويزيّف الحقائق، ولكن خطر مسلسل تلفزيوني دخل البيوت في عدة عواصم عربية منذ سنة ١٩٨٠، وشاهده مئات الألوف من الناس كمسلسل «العملاق» أدهى وأشد! لقد هزّ هذا المسلسل المزيّف لصورة الكاتب الكبير عباس محمود العقاد، وصورة عبد القادر المازني، وصورة ميّ، ضمائر المشاهدين المطلعين على التاريخ، فكان منهم من اشمئزّ وحزن وسكت، ومنهم من ثار وكتب ناقداً ومهاجماً. والمسلسل من إعداد عامر العقاد، ابن أخ عباس محمود العقاد، وصاحب كتاب: «غراميات العقاد» الذي تناول فيه غراميات عمه، أما المخرج فهو الأستاذ يحيى العلمي، وقد كلّف الممثلة المعروفة باسم «شهيرة» بدور ميّ فبدت ميّ على الشاشة امرأة عصبية المزاج، مغرمة بالعقاد، تذهب للاجتماع به سراً في الحانات، ترتدي ثياباً تكشف عن مفاتنها، وتفرط في التبرّج، وفي تزيين شعرها الأشقر الطويل!.. لقد نشرت كل من «الأهرام» و«روز اليوسف» و«الجمهورية» في القاهرة و«الأنوار» في بيروت و«تشرين» في دمشق نقداً لاذعاً لهذا المسلسل الذي يدلّ على غياب المسؤولية، وغياب المراقبة، والاستهانة بالتراث. وكان مما كتبه الأستاذ ابراهيم الورداني قوله:

(اذا شئت ان تحاكم خفة التناول في هذا المسلسل، وتحصي الأخطاء التاريخية، تجد في كل حلقةٍ من حلقاته تهمة، وتلفيقاً، وجريمة... أما الأخ عامر العقاد، المسترزق من هذا العمل، فلو تنبأ العقاد بما سوف يفعله به بعد ان يموت لأقدم على ارتكاب أول جريمة قتل في حياته!..)[1].

وأخيراً نعود الى تكريم ميّ بعد وفاتها في لبنان لنذكر بادرة طيبة صدرت عن «جمعية انعاش القرى» فيه، يوم احتفلت بالذكرى العاشرة لوفاتها

---

(١) جريدة الجمهورية ـ عدد ١٧ ـ ١ ـ ١٩٨١ ـ ص: ٦.

سنة ١٩٥١ في مسقط رأسها بكسروان، وأنشأت مركزاً في قرية «غزير» باسم ميّ، دشنته رئيسة الجمعية آنذاك السيدة منيرة ضومط شحادة بحضور أعضاء الجمعية السيدات: أنيسة النجار ونديمة رفاعي، ونيللي أيوب، وعلياء سعيدي، وعايدة أبي مرشد،ورويدة عربيد، ورأفت سليمان عرب.

وينبغي كذلك ان نشير الى ان بعض الصحف اللبنانية ما زالت تحيي ذكرى ميّ، عاماً في اثر عام، على الرغم من الحرب الطاحنة التي تجري في لبنان، فنقرأ فيها مقالاتٍ لأدباء معروفين عن الأديبة الراحلة التي أنارت للأجيال سبل الحرية والكرامة، والعزّة والرشاد، وكلمات مؤثرة، بقلم كتابٍ أوفياء جلّهم لم يعرفها شخصياً...

لقد غابت ميّ بعد ان قضت زهرة عمرها مع زفرة المظلوم والمحروم والمنكوب، وغصة اليتيم، وغربة الانسان فغدت في آخر حياتها هي المظلومة، والمحرومة، والمنكوبة، واليتيمة والغريبة. نقول الغريبة لأنها لم تجد في وطنها الحبيب بيتاً أو حتى كوخاً تلجأ اليه بعد موت أبويها، طالما حلمت به، ولأنها لم تجد، في لبنانها الحبيب بعد موتها، قبراً يضمّ رفاتها! فمن حقّها على لبنان الذي حملته في ضلوعها، وتغنت بجباله ومائه وهوائه ان يعمد الى نقل رفاتها إليه، أسوةً بما فعل برفات جبران، ومن حقّها على لبنان أن يقيم لها متحفاً يضمّ آثارها الأدبية والشخصية، وأن ينشىء مدارس وجوائز باسمها، فقد عطرت وادي النيل بنفحات أرزه، وأريج صنوبره، وأعطت له وللأدب العربي ذوب قلبها، وعصارة فكرها، ولكنها لم تلق بعدُ منه رسمياً ما تستحق من برٍّ وتكريمٍ ووفاء.

صفحات مطوية من أدب ميّ

١ ـ مؤسس الاسكندرية ـ حديث اذاعي.

٢ ـ خطبة في منتدى احدى الجمعيات الخيرية.

٣ ـ صلاة يوم الأحد.

٤ ـ رابعة العدوية.

٥ ـ موعد مع الأقدار.

٦ ـ نيتشه الألماني.

موسم الاسكندرية[1]

البحر يترامى في زرقة رحيبة تلامس زرقة السماء عند استدارة الأفق البعيد، والهواء في جوّ البحر رحيب النفحات يُفعم القلب حبوراً وانتعاشاً بِرَوْحه القديم الجديد. حوريات البحر، وعرائس الماء ترقص طرباً في تعاقب الموج وترجرج العباب، وشباب مصر ـ ومصر أرض الشباب ـ يمرح طرباً على الشاطىء الوديع الخلّاب.

سلاماً أيها البحر، ما أجملك بعيداً عن الأرض المكتظة بالأحزان والكلوم! سلاماً أيتها الحياة، ما أهناكِ متملّصة من كابوس الانقباض والغموم! وأنت أيها الصيف موسم الراحة والاستمتاع إنك أصلح ما تكون موسماً لتجديد ما يُستحب من ذكريات الثغور!

---

(١) ألقت ميّ هذا الحديث في إذاعة القاهرة في شهر حزيران عام ١٩٣٥ وأخبرت بذلك ابن عمها: فؤاد زيادة (سيادة المطران أغناطيوس زيادة) في رسالتها إليه المؤرخة في ١٩٣٥/٦/٧، المنشورة في كتاب «ميّ زيادة مع أعلام عصرها» ١٩١٢ ـ ١٩٤٠ ـ «وثائق جديدة» جمع وتقديم وتحقيق سلمى الحفار الكزبري مؤسسة نوفل بيروت ١٩٨٢ ـ ص: ٣١٥.

وفي طليعة الثغور المصرية، أيها السادة والسيدات، نجد الاسكندرية عاصمة القطر الصيفية، التي هي بمباهجها ومفاتنها من أجمل الثغور، كما هي بموقعها الجغرافي من أهم القواعد البحرية.

وهناك غير الصيف، مصادفة تعرض ذكر الفتى الجميل المقدام الذي توحد اسمه واسم هذا الثغر المصري. لست أشير فقط الى الجهود المحمودة التي تبذل منذ أعوام للاهتداء الى ضريح الاسكندر. بل أعني تاريخ وفاة الاسكندر.

توفي اسكندر في الثامن والعشرين من الشهر المعروف عند المكدونيين باسم «ذيسيوس» وهذا التاريخ في نظر فريق من المؤرخين يوافق الثامن والعشرين، أو الثلاثين من شهر يونيه هذا الذي نحن فيه، بينا فريق آخر يراه موافقاً للثامن والعشرين، أو الثلاثين من شهر مايو. ويرجع هذا الاختلاف الى اضطراب توقيت الزمن عند الأقدمين، اذا ما قوبل بما نجري عليه الآن من حساب وتوقيت. أما شرح هذا الاختلاف ففيه من التطويل والملال والقحط ما يرضي شهوة الاختصاصيين في المناقشة والمناظرة. ولو لم يختلف الناس إلا على تاريخ الشهور والقرون لكنا في هذه الدنيا في نعيم مقيم.

وأطلق العرب على الاسكندر اسم «ذي القرنين» فكيف لا تكون قرون الاسكندر موضوع اختلاف شديد؟ فقال قوم ان المكدوني كان غزير الشعر، مجعّده. وقد ثبت عقرب من شعره على كل من جانبيّ رأسه في صورته المنقوشة على قطع المصكوكات والدنانير. ورأي غيرهم هذا الوصف منطبقاً على طاقة الريش في قمة خوذته وقد تهدّل يُمنةً ويسرة فجمد على المصكوكات كالقرنين. وارتأى آخرون غير ذلك. اما الاقتناع الوحيد الذي يظفر به المرء من كل هذه الآراء فهو ان ذا القرنين لم يكن ذا قرنين.

وسواء أكان ذا القرنين، أم اسكندر المكدوني الثالث، أم اسكندر الكبير، أم المكدوني الأعظم، أم القائد الأعلى لجيوش اليونان ـ وهو أشرف لقب زفّه اليه الاغريق رسمياً في مؤتمر كورنتوس الشهير ـ فهو العبقري المغوار

المقدام، وهو واحد من الرجال الثلاثة او الأربعة في التاريخ الذين صمدت صورتهم حيال تعاقب الدهور وحفزت مغامراتهم أذهان الشعوب بالآلهة. أولئك الذين امتزج تاريخهم بالخرافة ونالوا، زمناً بعد زمن، من التشنيع والتحقير بمقدار ما نالوا من التعظيم والتبجيل. وإنما من أزهار هذا النور وذاك الظلام يصاغ اكليل المجد المقيم.

قضى اسكندر نحبه في عنفوان الشباب لأنه ولد سنة ٣٥٦ قبل الميلاد، وتولى الملك في سن العشرين، وتوفي في بابل في الثالثة والثلاثين ولما يحقق الا بعضاً من مشروعاته العديدة. اثنا عشرة عاماً لا غير كانت كافيةً ليستولي على جميع بلاد اليونان، ثم يجوز الهللسيون (المعروف اليوم بمضيق الدردنيل) فيغير على مملكة الفرس ويبسط سلطانه على ما وجد في طريقه من القارتين الأفريقية والأسيوية حتى مملكة البنجاب بالهند.

وذلك منذ ثلاثة وعشرين قرناً. يوم كانت وسائل الانتقال بـطيئةً، عسيرة، ويوم لم يكن العلم بمخترعاته للحرب ظهيراً ـ كما أصبح في عصورنا الحديثة.

وهو لم يكن فاتحاً وحسب، بل كان رجل تنظيم وتدبير، ومنشطاً للفنون والآداب والألعاب الرياضية. والمدن التي شادها في طريق حملته تفوق بعددها عدد المدن التي دمرها المحاربون الأسيويون جميعاً. واستصحب في حروبه جماعةً من صفوة العلماء، وأسرف في انفاق المال بلا حساب ليمكّنهم من دراسة طبيعة البقاع وحيوانها ونباتها. وأهدى من هذه وتلك مجموعات فاخرة الى استاذه أرسطو، فيسّر له وضع كتابه في التاريخ الطبيعي. وهو كتاب ما زال مستنداً نفيساً لدراسات العصور الحديثة، كما كان أشمل الكتب وأوفاها في هذا الباب عند المتقدمين.

معلوم ان «إيروستراتس» يوم ولادة الاسكندر، أضرم النار في هيكل أفسس المكرّس للآلهة ديانا، وكان من عجائب الدنيا السبع، فرأى العرافون

في ذلك بشيراً بعالم جديد. وتلقى فيليب في ذلك اليوم بشائر ثلاثاً معاً: الأولى ان أحد قواده انتصر في موقعة كبيرة، والثانية ان فيليب فاز بالجائزة في مسابقة المركبات في الألعاب الأولمبية، والثالثة ولادة الاسكندر. وكان العرافون قد أنباؤا فيليب بأن ولده الذي تجيء ولادته ثالثة انتصارات ثلاثة سيكون دائماً منصوراً غير مقهور.

وقد كان في حروبه دائماً منصوراً، كما كان مجدوداً في كل ظرف من ظروف حياته. هوميروس كان ملهمه الأكبر، والالياذة كانت كتاب مطالعته في النهار، وأليفة وسادته في الليل. ومثله الأعلى في الرجولة وقوة الشكيمة هو أشهر أبطال الاغريق آخيل الذي كان اسكندر يفاخر بالتحدّر من نسله عن طريق والدته. والنعمة المثلى في حياته تمّت له في سن الثالثة عشرة اذ تتلمذ لأرسطاطاليس الفيلسوف العظيم، صاحب العقل الكبير والذهن الجامع، وواضع الأسس لعلوم المنطق والسياسة والدولة. وأرسطو بدأ حياته طبيباً، كما كان والده طبيب فيليب الخاص. أما الرسالة التي استدعاه بها فيليب فمتداولة بين الجميع وقد جاء فيها: «أخبرك بأن غلاماً ولد لي. وأشكر الآلهة لأنه ولد وأنت حيّ أكثر من شكري لها على ولادته. أرجو أنه بالتخرج عليك وبتلقي ثقافته منك، سيكون جديراً بي وبملكي.

وكان أرسطو فعّال الأثر في تكوين شخصية اسكندر، وبحسن سياسته، عرف كيف يعالج تلك النفس الفتية الغنية الصاخبة محولاً فيها الانفعال الى الناحية المفيدة المجدية. منه تعلم الفتى الجميل احتقار اللذة، ونبذ المسرّات، وحب المشقة والعناء، والترفّع عن الدنايا، وازدراء المجد الزحّاف والانتصار الحقير، واجلال النبل والعلو الخلقي. ومع توسيع مداركه ومعارفه الى أقصى حدٍّ ممكن، علّمه التصرف بدقة وفطانة. والى جانب نزعته النظرية الكمالية هو أنمى فيه الروح الوضعي العملي الذي يسبر غور ما يحول دون تحقيق الغايات، كما علمه فن مغالبة المصاعب والتغلب عليها.

سُئل الاسكندر مرةً ألا يشترك في المباريات الأولمبية التي كان والده

شغوفاً بها فأجاب بلهجة الاستخفاف: «أشترك لو أنا وجدت لي منافسين من الملوك» ومن ذا الذي يجهل ما وقع له مع الفيلسوف الكلبي «ديوجينس» الذي اشتهر بحمل المصباح في ضوء النهار ليبحث عن رجل، والذي لم يكن يملك من حطام الدنيا الا رداءً وجراباً وبرميلاً يأوي اليه مع كلبه، بعيداً عن أولئك الناس الذين لا رجل بينهم في نظره. زاره الاسكندر وسأله: «ماذا تريد أن أعطيك؟» فأجاب الفيلسوف بأن «تتنحى من أمامى كيلا تحجب عنى الشمس» فقال اسكندر لأعوانه: «لو لم أكن الأسكندر لوددت ان أكون ديوجينس». وهذه الكلمة وحدها ترسم تلك النفس الذكية التي وضعت نشاط الطمع وتزهّد الفلسفة في مرتبةٍ واحدة، لضرورتها معاً في تكوين الحياة التامة.

وليس أدلّ على بسالته الأدبية وشممه من حادثة الدواء اذ تلقى خطاباً غفلاً من التوقيع ينبئه بأن طبيبه اتفق مع عدوه «داريوس» على دس السم له في الدواء. وقدّم الطبيب الدواء فتناوله الاسكندر باليد الواحدة وشربه، بينا يده الأخرى امتدت للطبيب بالخطاب. حادثة تهز النفس. واذا هي أثبتت ان تاريخ ذلك النوع من الخطابات قديم، فقد أثبتت كذلك ان الطبيب كان الشهم الأبي الجدير بثقة الاسكندر.

وما أشرف وأجمل احترام المقدوني لوالدة «داريوس» وزوجته وبناته عندما وقعن بيده أسيرات حرب! فأبقى لهن ما ألفنه من حياة الحرية والرفاهة والعز، ولم ينلهن ما يمس شرفهن أو كرامتهن أو رضاهن لا من الملك ولا من رجاله. وعندما قتل داريوس خشع الاسكندر عند جثمانه خشوع الرجل العظيم حيال الرجل العظيم، وذرف الدمع سخيناً، واحتفى بجنازته في فخامةٍ تليق بقائدٍ وملك بطل.

وأهم ما يستوقفنا في هذا الحديث السريع هو أنه شاد مدينة الاسكندرية سنة ٣٣٢ قبل الميلاد، وقد شاد قبلها وبعدها ما يضاهي السبعين مدينة، عشرون منها سُميت باسمه. الا أن اسكندرية مصر أعظمهن وأبهاهن وأحبهن اليه حتى طمع في جعلها عاصمة مملكته.

استشار المهندسين والخبراء في وضع تصميمها ولما لم يكن لدى هؤلاء المطلوب من الطباشير لتخطيط الأرض، استعملوا لذلك دقيق الحنطة فرسموا منطقة رحيبة مستطيلة بشكل الهلال، وهو شكل الرداء المقدوني الذي يتدثّره الاسكندر. وأخذ الملك يرقب هذا المشهد مستبشراً مسروراً، عندما هوت من الأفق طيور عديدة فحطّت على الطحين والتهمته كله. فاضطرب الاسكندر، إلا ان العرافين طمأنوه مؤكدين ان المدينة الجديدة ستكون عامرةً بالسكان، غنيةً بجميع صنوف الخصب.

وصدقت نبوءة العرافين أكثر من المنتظر، فكان للاسكندرية ان تفتح في العالم تاريخاً جديداً. كانت الحضارة اليونانية من قبل معسكرة في بلاد اليونان وآسيا الصغرى وبعض أنحاء ايطاليا، فخرجت مع الاسكندر الى الشرق تنشر فيه وفي العالم من خلاله، ثروتها العلمية والفنية، وجعلت مقرّها في الاسكندرية لتردّ الى مصر شعاع النور الذي كان قد تلقاه فلاسفة اليونان في هياكل مصر. وأصبحت الاسكندرية الفاتنة ملتقى الشرق والغرب، وفيها أنشأت تُصهر شتى الحضارات لتكوين حضارة التاريخ الحديث.

عندما كان الاسكندر على وشك مغادرة وطنه ليغير على آسيا، وزّع كل مقتنياته على جنوده وأصحابه فسألوه: «وأنت ماذا تستبقي لنفسك؟» فأجاب «الأمل!» وقد احتفظ بذخيرة الأمل حتى صرعته الحياة، لأن الحياة التي تحيي الأمل وتغذيه هي الحياة التي تغدر بالآمال وتفنيها. قضى الاسكندر قبل ان يولد وليّ العهد، فتقاسم المملكة قواده وكانت مصر نصيب بطليموس بن لاجوس أول ملك مصري من سلالة الأغارقة الذي جعل الاسكندرية عاصمة الملك. ومصر التي كانت بأهرامها تحوي احدى عجائب الدنيا صارت بمنارة الاسكندرية تحوي أعجوبتين. ومصر أرض الحضارة السحيقة، والثقافة المجيدة، أصبحت أرض الحضارتين والثقافتين جميعاً. في عقودٍ قلائل أصبحت الاسكندرية أعظم وأغنى مدينة في العالم المعروف، وارثة أثينا التي وصفها استرابون اليوناني بأنها مستودع العالم لوفرة الشعوب المتجمعة فيها من

الشرق والغرب، والتي قال فيها فيلون اليهودي إنها عدة مدن في مدينة واحدة وهي المركز الخطير الشأن للتجارة والحضارة والثقافة والعمران.

وظلت على ذلك ثلاثة قرون تزيّنها الصروح والقصور والمسارح والحدائق وميادين الألعاب، وتباهي بمكتبتها الفريدة الفاخرة، والى جانب المكتبة حديقة للحيوانات ومثلها للنبات، وقاعة للتشريح، ومرصد للفلك. وكان متحفها الرحيب يحوي مخادع نزل فيها الأطباء والعلماء والأدباء على نفقة بطليموس، ومهمتهم إلقاء الدروس والمحاضرات مجاناً على الشبان وطلاب العلم. سوقها مفتاح التجارة في العالم، وعقلها ينمو متغذياً بجميع العلوم والفنون في العالم، وروحها تعج بجميع الأفكار والآراء والنظريات في العالم، وفيها على ساحل البحر تتمخّض الخميرة التي ستهيء الاتجاه الحديث في تاريخ العالم.

لقد شاد الاسكندر مدناً كثيرة، ولكن هذه الاسكندرية الواحدة ضمنت لاسمه البقاء أكثر من سائر فتوحاته. وبفضلها وبأثرها تحقق المغزى من اسمه «الكسندروس» اي المحسن الى الناس.

فيا أيها الراغدون على الشاطى الجميل، هذه مدينتكم في نشأتها؛ وفي الفرح وفي الترح، في مختلف الانفعالات التي تكوّن تاريخ مدينة، ستظلّ اسكندريتكم فتية الروح خالدة المجد. ولكم الفخر في ان تكونوا كما أنتم، أهلاً لإحياء تلك الروح، ولتخليد هذا المجد!

تحيتي اليكم جميعاً، وسلامي للبحر الجميل الذي أحنّ اليه حنيناً وجيعاً.

مؤتمر الإسكندرية (للإذاعة)

البحر يترامى في زرقة رحيبة تلامس زرقة السماء
عند استدارة الأفق البعيد، والهواء في جو البحر رحيب
النفحات ينعم القلب حبوراً وانتعاشاً بروحه القديم
الجديد. حوريات البحر وعرائس الماء ترقص طرباً في تعاقب
الموج وزرجرة العباب، وشباب مصر – ومصر أرض الشباب
– يمرح طرباً على الشطئ الوديع الخلاب

سلاماً، أيها البحر، ما أجملك بعيداً عن الأرض
المكتظة بالأحزان والكلوم! سلاماً، أيتها
الحياة، ما أهنأك متملصة من كابوس الانقباض
والغموم! وأنت، أيها الصيف موسم الراحة والاستمتاع
إنك أصلح ما تكون موسماً لتجديد ما يستحب من
ذكريات الثغور!

وفي طليعة الثغور المصرية، أيها السادة والسيدات،
نجد الاسكندرية عاصمة القطر الصيفية، التي هي بمباهجها
ومفاتنها من أجمل الثغور كما هي بموقعها الجغرافي من
أهم القواعد البحرية

وهناك غير الصيف، مصادفة تعرض ذكر العتق الجميل

المقدام الذي توحّد اسمه واسم هذا الثغر المارق. لست
أشير فقط إلى الجهود المحمودة التي تبذل منذ أعوام للاهتداء
إلى ضريح الإسكندر. بل أعني تاريخ ~~الوفاة~~ وفاة الإسكندر
توفي الإسكندر في الثامن والعشرين من الشهر المعروف
عند المقدونيين باسم "ذيسيوس". وهذا التاريخ
في نظر فريق من المؤرخين يوافق الثامن والعشرين، أو
الثلاثين، من شهر يونيه هذا الذي نحن فيه. بينما فريق
آخر يراه موافقاً للثامن والعشرين، أو الثلاثين، من شهر
مايو. ويرجع هذا الاختلاف إلى اضطراب توقيت الزمن
عند الأقدمين، إذا ما قورن بما تجري عليه الآن من
حساب وتوقيت. أما شرح هذا الاختلاف ففيه من
التطويل والملال والتعقيد ما يرضي شهوة الاختصاصيين
في المناقشة والمناظرة. ولو لم يختلف الناس إلا على
تاريخ الشهور والقرون لكنا من هذه الدنيا في نعيم مقيم
وأطلق العرب على الإسكندر اسم ذي القرنين،
فكيف لا تكون قرون الإسكندر موضوع اختلاف
شديد؟ فقال قوم إن المقدوني كان غزير الشعر،
جعده، وقد نبت عقربٌ من شعره على كل من جانبي
رأسه في صورته المنقوشة على قطع المسكوكات
والدنانير. ورأى غيرهم هذا الوصف منطبقاً على طاقة

٣ الريش في قمة خوذته وقد تهدل يمنة ويسرة مجده على المسكوكات كالقرنين. وارتأى آخرون غير ذلك.

أما الاقتناع الوحيد الذي يظفر به المرء من كل هذه الآراء فهو ان ذا القرنين لم يكن ذا قرنين

وسواء أكان ذا القرنين، أم اسكندر المكدوني الثالث، أم اسكندر الكبير، أم المكدوني الأعظم، أم القائد الأعلى لجيوش اليونان — وهو أشرف لقب زفه اليه الاغريق رسمياً في مؤتمر كورنثوس الشهير — فهو العبقري المغوار المقدام، وهو واحد من الرجال الثلاثة أو الأربعة في التاريخ الذين حمدت صورتهم أجيال تعاقب الدهور، وحفزت مغامراتهم أذهان الشعوب، وشت رسمهم مثلاً، كأسماء أبطال الأولمب خير المتطلعين بالألوهية. أو أولئك الذين امتزج تاريخهم بالخرافة ونالوا، زمناً بعد زمن، من التشنيع والتحقير بمقدار ما نالوا من التعظيم والتبجيل. وذاك الظلام وإنما من أزهار هذا النور يضافر إكليل المجد المقيم

قضى الاسكندر نحبه في عنفوان الشباب. لأنه ولد سنة ٣٥٦ قبل الميلاد، وتولى الملك في سن العشرين، وتوفي في بابل في الثالثة والثلاثين ولما يحقق

إلا بعضاً من مشروعاته العديدة . اثنا عشرة عاماً لا غير كانت كافية ليستولي على جميع بلاد اليونان ، ثم يجوز الهلسبون (المعروف اليوم بمضيق الدردنيل) فيقضي على مملكة الفرس ويبسط سلطانه على ما وجد في طريقه من القارتين الأفريقية والآسيوية حتى مملكة البنجاب بالهند .

وذلك منذ ثلاثة وعشرين قرناً ، يوم كانت وسائل الانتقال بطيئة عسيرة ويوم لم يكن العلم بمخترعاته للحرب ظهيراً — كما أصبح في عصورنا الحديثة وهو لم يكن فاتحاً وحسب بل كان رجل تنظيم وتدبير ونصيراً للفنون والآداب والألعاب الرياضية . والمدن التي شادها في طريق حملته تفوق بعددها عدد المدن التي دمرها المحاربون الآسيويون جميعاً . واستصحب في حروبه جماعة من صفوة العلماء وأشرف في إنفاق المال بلا حساب ليمكنهم من دراسة طبيعة البقاع وحيوانها ونباتها . واهدى من هذه وتلك مجموعات فاخرة إلى أستاذه أرسطو فيسر له وضع كتابه في التاريخ الطبيعي . وهو كتاب ما زال مستنداً غنياً لدراسات العلوم الحديثة

بما كان يشمل الكتب وأوفاها في هذا الباب عند المتقدمين

أن ايروستراتس يوم ولادة الاسكندر، أضرم النار في هيكل أفسس المكرس للآلهة ديانا، وكان من عجائب الدنيا السبع. فرأى العرافون في ذلك بشيراً بعالم جديد. وتلقى فيليب في ذلك اليوم بشائر ثلاثاً معاً: الأولى أن أحد قواده انتصر في موقعة كبيرة. والثانية أن فيليب فاز بالجائزة في مسابقة المركبات في الألعاب الأولمبية. والثالثة ولادة الاسكندر. وكان العرافون قد أنبأوا فيليب بأن ولده الذي تجيء ولادته ثالثة انتصارات ثلاثة، سيكون دائماً منصوراً غير مقهور

وقد كان في حروبه دائماً منصوراً، كما كان مجدوداً في كل ظرف من ظروف حياته. هوميروس كان ملهمه الأكبر، والالياذة كانت كتاب مطالعته في النهار وأليفة وسادته في الليل. ومثله الأعلى في الرجولة وقوة الشكيمة هو أشهر أبطال الاغريق، آخيل، الذي كان الاسكندر يفاخر بالتحدر من نسله عن طريق والدته. والنعمة المثلى في حياته تمت له في سن الثالثة عشرة إذ تتلمذ لارسطاطاليس الفيلسوف العظيم، صاحب العقل الكبير والذهن الجامع، وواضع الأسس لعلوم المنطق والسياسة والدولة. وارسطو بدأ حياته طبيباً، كما كان والده طبيب فيليب الخاص. أما

آثرت له التي استدعاه بها فيليب فمتداولة بين الجميع، وقد جاء فيها: «أخبرك بأن غلاماً ولد لي. وأشكر الآلهة لأنه ولد وأنت حي أكثر من شكري إياها على ولادته. أرجو انه بالتخرج عليك وبتلقي ثقافته منك، سيكون جديراً بي وبملكي».

وكان أرسطو فعالاً الأثر في تكوين شخصية الاسكندر، وبحسن سياسته عرف كيف يعالج تلك النفس الفتية الغنية الطافحة محولاً فيها الانفعال الى الناحية المفيدة المجدية. منه تعلم الفتى الجميل احتقار اللذة، ونبذ المسرات، وحب المشقة والعناء، والترفع عن الدنايا وازدراد المجد الزائف والانتصار الحقير، واجلال النبل والعلو الخلقي. ومع توسيع مداركه ومعارفه إلى أقصى حد ممكن، علمه التصرف بدقة وفطانة. والى جانب نزعته النظرية الكمالية هو أنمى فيه الروح الوضعي العملي الذي ييسر عبور ما يحول دون تحقيق الغايات، كما علمه فن مغالبة المصاعب والتغلب عليها.

سئل الاسكندر مرة الاشتراك في المباريات الأولمبية التي كان والده شغوفاً بها. فأجاب بلهجة الاستخفاف: «اشترك لو انا وجدت لي منافسين من الملوك!». ومن ذا الذي يجهل ما وقع له مع الفيلسوف الكلبي،

ديوجينيس، الذي اشتهر بحمل المصباح في ضوء النهار — ليبحث عن رجل، والذي لم يكن يملك من حطام الدنيا إلا رداءً وجراباً وبرميلاً يأوي إليه مع كلبه، بعيداً عن أولئك الناس الذين لا رجل بينهم في نظره. زاره الاسكندر وسأل له «ماذا تريد ان أعطيك؟». فأجاب الفيلسوف بأن تتنحى من أمامي كيلا تحجب عني الشمس. فقال الاسكندر لأعوانه: «لو لم أكن الاسكندر لوددت ان أكون ديوجينيس». وهذه الكلمة وحدها ترسم تلك النفس الذكية التي وضعت نبذ الطمع وزهد الفلسفة في رتبة واحدة، لتزدوجهما معاً في تكوين الحياة التامة.

وليس أدل على بسالة الأدبية وشممه من حادثة الدواء، إذ تلقى خطاباً غفلاً من التوقيع ينبئه بأن طبيبه اتفق مع عدوه داريوس على دس السم له في الدواء. وقدم الطبيب الدواء فتناوله الاسكندر باليد الواحدة وشربه، بينما يده الأخرى امتدت للطبيب بالخطاب. حادثة تهز النفس. واذا هي أثبتت ان تاريخ ذلك النوع من الخطابات قديم، فقد أثبتت كذلك ان الطبيب كان الشهم الأبي الجدير بثقة الاسكندر.

وما أشرف وأجمل احترام المكدوني لوالدة داريوس

وزوجته وبناته عندما وقعن بيده أسيرات حرب !
فأبقى لهن ما ألفنه من حياة الحرية والرفاهية والعزة ،
ولم ينلهن ما يمس شرفهن أو كرامتهن أو رضاهن لا من
الملك ولا من رجاله . وعندما قتل داريوس خشع
الاسكندر عند جثمانه خشوع الرجل العظيم حيال الرجل
العظيم ، وذرف الدمع سخيناً واحتفى بجنازته في فخامة
تليق بقائد وملك بطل

واهم ما يستوقفنا في هذا الحديث السريع
هو انه بنى مدينة الاسكندرية سنة ٣٣٢ قبل
الميلاد ، وقد بنى قبلها وبعدها ما يضاهي السبعين
مدينة ، عشرون منها سميت باسمه . إلا ان اسكندرية
مصر أعظمهن وأبهاهن وأحبهن إليه حتى طمع في جعلها
عاصمة مملكته

استشار المهندسين والخبراء في وضع تصميمها ،
ولما لم يكن لدى هؤلاء المطلوب من الطباشير لتخطيط
الأرض ، استعملوا لذلك دقيق الحنطة فرسموا
منطقة رحيبة مستطيلة بشكل الهلال ، وهو
شكل الرداء المكدوني الذي يتدثره الاسكندر .

وأخذ الملك يرقب

٩
هذا المشهد سيتشر أسروراً، عندما حدث من
الأفق طيور عديدة فحطت على الطين والتهته كله. فاضطرب
الاسكندر، إلا أن العرافين طمأنوه مؤكدين أن المدينة
الجديدة ستكون عامرة بالسكان غنية بجميع صنوف الخصب
وصدقت نبوءة العرافين أكثر من المنتظر، فكان للاسكندرية
أن تفتح في العالم تاريخاً جديداً. كانت الحضارة اليونانية
من قبل معسكرة في بلاد اليونان وآسيا الصغرى
وبعض أنحاء إيطاليا. فخرجت مع الاسكندر إلى الشرق
تنشر فيه وفي العالم من خلاله، ثروتها العلمية والفنية
وجعلت مقرها في الاسكندرية لترد إلى مصر شعاع
النور الذي كان قد تلقاه فلاسفة اليونان في هياكل
مصر. وأصبحت الاسكندرية الفاتنة ملتقى الشرق والغرب
أنشئت تصهر شتى الحضارات لتكوين حضارة
التاريخ الحديث
عندما كان الاسكندر على وشك مغادرة وطنه
ليغير على آسيا، وزع كل مقتنياته على جنوده
وأصحابه. فسأله، وأنت ماذا تستبقي لنفسك؟
فأجاب، الأمل!". وقد احتفظ بذخيرة الأمل حتى صرعته
الحياة. لأن الحياة التي تحيي الأمل وتغذيه هي الحياة التي
تغدر بالآمال وتفنيها. قضى الاسكندر قبل أن يولد ولية

١٠ - فتقاسم المملكة قواده وكانت مصر نصيب
قائده بطليموس بن لاجوس، أول ملك مصري من سلالة
الأغارقة، الذي جعل الإسكندرية عاصمة الملك. ومصر
التي كانت أهرامها تحوي إحدى عجائب الدنيا، جاءت
بمنارة الإسكندرية تحوي العجيبتين. ومصر أرض الحضارة
السحيقة والثقافة الجديدة، أصبحت أرض الحضارتين
والثقافتين جميعاً في عقود قلائل أصبحت الإسكندرية أعظم
وأغنى مدينة في العالم المعروف، وارثة أثينا التي وصفها
استرابون اليوناني بأنها مستودع العالم لوفرة الشعوب
المتجمعة فيها من الشرق والغرب، والتي قال فيها فيلون
اليهودي إنها عدة مدن في مدينة واحدة وهي المركز
الخطير الآن للتجارة والحضارة والثقافة والعمران
وظلت على ذلك ثلاثة قرون تزينها الصروح
والقصور والمسارح والحدائق وميادين الألعاب، وتباهي
بمكتبتها الفريدة الفاخرة وإلى جانب المكتبة حديقة للحيوانات
ومشتلا للنبات، وقاعة للتشريح ومرصد للفلك. وكان
متحفها الرحيب يحوي مخادع نزل فيها الأطباء والعلماء
والأدباء على نفقة بطليموس، ومهمتهم إلقاء الدروس
والمحاضرات مجاناً على الشبان وطلاب العلم. شرقوا

مفتاح التجارة في العالم، وعقلاً ينمو متغذياً بجميع
العلوم والفنون في العالم، وروحاً تنبض بجميع الافكار
والآراء والنظريات في العالم، وفيها على شاطئ البحر
تتمخض الخميرة التي ستهيئ الاتجاه الحديث في تاريخ العالم

لقد شاد الاسكندر مدناً كثيرة، ولكن هذه
الاسكندرية الواحدة ضمنت لاسمه البقاء اكثر من
سائر فتوحاته. وبفضلها وبآثارها تحقق المغزى
من اسمه - الكسندروس - أي المحسن الى الناس

فيا أيها الراغدون على الشاطئ الجميل، هذه
مدينتكم في نشأتها؟ وفي الفرح وفي الترح، في
مختلف الانفعالات التي تكوّن تاريخ مدينة، ستظل
اسكندريتكم فتية الروح خالدة المجد. ولكم الفخر في
ان تكونوا كما انتم، أهلاً لاحياء تلك
الروح ولتخليد هذا المجد!

تحيتي اليكم جميعاً، وسلامي للبحر الجميل
الذي أحن اليه حنيناً وجيعاً

أيها السادة والسيدات[١]

أشكر لهذه الجمعية الكريمة فضلها في تكوين هذا الجوّ الهادىء بعيداً عن عواصف المجتمع لتوجيه نشاط الأفراد الى رفع مستوى المجتمع. وأشكر لها المخصرة السحرية التي تفضلت فسلمتني إياها حيناً لتلمّس ينبوع السعادة.

كل موضوع من الموضعات يستطيع ان يستقل بنفسه وبالعناصر المكوّنة لطبيعته. اما موضوع السعادة فيحتضن جميع صنوف النشاط البشري جسدياً كان ام عقلياً أم روحياً. الجغرافيا المائية تعلمنا ان جميع الأنهار تسعى الى البحر. وللسعادة جغرافيتها السائلة [إن صحّ الوصف] أنهاراً من المداد تسعى هي كذلك الى البحر: بحر السعادة. ونحن أشدّ تطلعاً الى السعادة في اليوم العصيب لأن معناها أبداً مستقر بين جوانحنا ونفوسنا نصبو إليها دواماً في حرارة وإيمان. والكبير فينا كالصغير، العالم كالجاهل يتوق الى استطلاع أنبائها كأنما نحن بالتحدث عنها نتعلم الكلام بلغة تلك المحبوبة البعيدة الفاتنة، وتؤيّد اقتناعنا بأنها الارث الطبيعي المشترك بيننا، وان لكل منا الحق في التماسها ما دام الباري سبحانه قد أودع قلوبنا الرغبة فيها. ان كلّ رغبة عريقة تحتدم في قلوبنا لهي الدليل القاطع على ان حقيقتها المحسوسة لا بد موجودة، وان بلوغها أمر مشروع ميسور.

نحن نخوض معركة الحياة يحدو بنا الأمل، ونعالج الشؤون بنشاط ودقة واستقامة في طلب الرزق الحلال، والأخذ بوسائل الثقافة، والبحث عن الأصدقاء والمحبين، والسعي الى تحسين المكانة الاجتماعية، والتماس كل ما ينيلنا اطمئناناً وهناءً. وكلما فزنا بشيءٍ من أولئك طلبنا المزيد في حين تصدمنا دائماً العقبات والمصاعب، وتحزّ في نفوسنا الآلام والأحزان. وكلّما زدنا

---

(١) خطبة ألقتها ميّ استجابة لدعوة إحدى الجمعيات الخيرية في مصر ابان الحرب العالمية الثانية إستناداً إلى قول ميّ فيها: (... وتنقلب مشكلة ليست دون مشكلة الحرب والسلم تعقداً في هذه الأيام) ـ ص: ٦ من المخطوطة للخطبة.

إخلاصاً زادت في سبيلنا المقاومة العلنية والخفية حتى في أكثر الاحتياجات إلحاحاً، وأتم الأمور مشروعية، فنضطر الى مصارحة أنفسنا بأننا غير سعداء. هذا شأن الرجل والمرأة على السواء. ونستأنف البحث عن السعادة في الجد واللهو جميعاً: أين تراها تكون؟ أهي في هذه الأثواب الفاخرة وتلك الحلى الثمينة التي تذهب بلبّنا لحظة نحن النساء الضعيفات، ولا سلطان لها على الرجال فيما يزعم الرجال؟ ان الثوب الجميل يرضينا حيناً ما، والحلية الغالية نألفها بالحصول عليها ولا يطول حتى نملّها. أهي في التهافت البادي على محال اللهو والتسلية؟ ان كمية من اللهو والتسلية لضرورية لصحة العقل والجسد وهما يفضيان علينا أنساً ونشاطاً، بيد ان اللهو والتسلية ينقلبان تضخماً وتورماً للمتهالك الذي يحسبهما غاية. ولو لم يكن أولئك المتهالكون تعساء، ضيّقي الأفق ما حاولوا الفرار من أنفسهم ونسيان غمومهم في لذات الساعة العابرة - لذات لن تتركهم إلا أكثر تعاسةً، وفي أرواحهم رضوض أليمة، وفي أفواههم طعم الفناء.

أهي في الانصراف الى عالم الفكر، عالم الدرس والبحث والانتاج العلمي والفني؟ ان ذلك العالم ليكنّ أرقى المسرات وأنبلها وأطهرها غير ان الحياة المحسوسة لا تفتأ تسوق علينا اكدارها. وأرسطو الفيلسوف نفسه أثبت ان اكدار الحياة الحسية والاجتماعية تحول بين الحكيم وبين السعادة.

أهي في المجد العالميّ والمكانة الرفيعة والمال الذي يُبذل ما يُبذل في سبيل اقتنائه؟ قيل مرةً لأحد الاخوان «روتشلد» أصحاب الثروات المتكدسة تكدس أكياس الرمل على الأرصفة: أنت بثروتك الباهظة وسلطانك المنتشر مع مصالحك في مختلف الأقطار، لا بد أنك رجل سعيد حقاً. فأجاب ملك المال: سعيد، سعيد؟ ها! فلنتحدث في موضوع آخر. أجل المال الذي هو شرط جوهري للسعادة، المال تلك القوة التي تملك تسخير جميع القوى، هناك شيء واحد لا يستطيع المال ابتياعه، وهو السعادة.

كلنا متفقون على وجوب توفّر الشروط المالية والصحية والثقافية

والاجتماعية، ونسعى إليها ما استطعنا لنيل السعادة، ومع ذلك فمن الناس من هو هانىء بكل أولئك ولكنه في الواقع غير سعيد. السعادة حالة نفسية خصوصاً وهي تختلف باختلاف الأفراد. فما قد يحوي لباب السعادة في نظر الواحد منا قد يبدو تافهاً في نظر الآخر، ومعناها يتغيّر في حياة الفرد الواحد حيناً بعد حين، ويتطوّر بتطوّر فكره ويتسع باتساع مداركه. وكلما ارتفعت النفس وتهذّبت تهذبت وارتفعت فيها المطامح والغايات، وَرَحُبت أمامها الآفاق، وتوغلت في ضمير الوجود فصارت أقرب الى حقيقة السعادة، والى حقيقة الألم كذلك. فاذا أضفنا ان الانسان اجتماعي بالفطرة، وان كل فرد عضو من أعضاء المجتمع الواحد، تحتّم ان تكون السعادة فردية واجتماعية معاً. بمعنى ان سعادة الفرد الواحد لا تقدم على تعاسة الفرد الآخر، بل، على النقيض، يجب ان تكون سعادة السعيد معواناً للتعساء على نيل قسطهم من السعادة. وهنا، عند هذا التناقض، السعادة التي هي مطلب الجميع ومشاع للجميع، تمسي مأساةً ولا مأساة «هملت»، وتنقلب مشكلة ليست دون مشكلة الحرب والسلم تعقداً في هذه الأيام. ولكن هنا عند هذا التناقض كذلك تتبدى صورة التآلف والتعاون والانسجام إذ تنجلي تلك المعاني الشريفة السامية التي لا شرف ولا سموّ بدونها، معاني الحرية والضمير والحق والواجب.

أتعلمون، أيها السادة والسيدات، لماذا يكون تخيّل السعادة أحياناً وهماً مستحيلاً؟ ولماذا كلما فاز أحدنا بنعمة من النعم ضَؤُلت في تقديره قيمة تلك النعمة، وتسرّبت مسرّاتها من يده تسرّب الماء من القبضة المطبقة؟ ذلك لأن نظراتنا الى السعادة فاسدة في الأساس عندما نحسب السعادة منتهى الغايات، في حين ما هي الا وسيلة، وسيلة جد مشوّقة تمغنط جميع قوى الروح والجسد، ولكنها وسيلة ليس غير، شأنها شأن المال والثقافة والحب والعمل واللذة والألم والعداوة والصداقة.

وسيلة لأي شيء؟ لأثمن الكنوز وأغلاها، وهو تكوين الشخصية.

غاية الانسان والانسانية من الحياة ليست السعادة، بل تهذيب الملكات، وتكوين الشخصية. نحن نستطيع ان نحيط كائناً بشرياً بكافة وسائل الرخاء والرفاهية فنرفعه قليلاً فوق دركة الحيوان، ولكننا لا ننجح في جعله انساناً الا اذا لقّحناه بالمبادىء التي تشرّف الانسانية، وتمكنه من تبينّ روحه، أي نور الله فيه، فسيّرناه في سبيل التهذيب المتتابع، أي سبيل تكوين الشخصية، سبيل الكمال الذي نعرف أين يبتدىء ولكن نهايته عند الله.

هذه هي الغاية التي تستحق عنايتنا، وفي سبيل بلوغها كل فرح وكل ترح، كل ضيق وكل فرج، كل مجهود وكل تضحية، كل انتصار وكل اندحار ينقلب عنصراً سحرياً من عناصر السعادة. ان الندى المنتشر على الأزهار في الصباح لا يهبط من علٍ، بل ينطلق من صميم كيان الأنبتة والأغراس. وتلك السعادة الجميلة النبيلة ليست بعيدة عنا ناديها فتلبي، بل هي قائمة في أعماق نفوسنا تنادينا وتتوسّل الينا ان ننتبه الى وجودها، وعلينا نحن ان نكون ملبين.

لا سعادة الا بتكوين الشخصية، ولا سبيل الى سبر غور الشخصية الّا بالأثر الصالح الذي تحدثه الأعمال في حياة الآخرين. وعندما نقوم بالواجب نحو أعضاء الأسرة الصغيرة من والدٍ ووالدة، وأخٍ وأخت، وزوجٍ وولد نكون قد تعرّفنا ناحية واحدة من شخصيتنا، ولا نتعرّف الناحية الأخرى إلّا بتأدية الواجب نحو الأسرة الكبرى، أسرة المجتمع الذي نحن بعض أفراده، وأسرة الوطن الذي نحن بعض أبنائه.

وفي هذا المجتمع المصري العزيز كثير من الظلم والحرمان والتعاسة المتطلبة المعونة المباشرة. ومصر، هذا البلد العامر العظيم المجيد لا يستطيع ان يكون عامراً حقاً، عظيماً، مجيداً، وهو مزدحم بالأخربة الانسانية الذليلة.

المثل العامي البسيط يقول: «نم يا جاري بخير نام بخيرٍ زيّك» والشبيبة المصرية الحاضرة أصبحت لحسن الحظ فوق مستوى العامة فادركت حكمة الناموس الذهبي القائل:

«عامل الآخرين بمثل ما تودّ أن تعامل به». وهي الراقية، المثقفة، الطموح إلى المعالي، المتحدثة، وبحقٍّ تتحدث، عن الحق والحرية، والتقدم، تعـلم أنها لا تستطيع أن تنهض وتسير بقدمٍ واحد فتمدّ يدها للبائسين من أبناء هذه الأمة لتسير وإياهم بعزمٍ وإقدام في طريق الحق والحرية والمجد.

رفـع مستـوى المعيشـة للكبـار فـرض، وتحسـين شؤونهم الصحيـة والاقتصادية واجب، اما الصغار فهم الذين يمكن خلقهم خلقاً جـديداً، وتنشئتهم جيلاً مسعداً سعيداً. والملايين من اطفال مصر محرومون من كل شيء، يسخرون من المعاني التي نحبها ونقدسها ولا يتخيلون أن هناك شيئاً اسمه انسانية ووطن، وحق وواجب، وحرية، ولا يعرفون من هذا العالم سوى الشرور والآلام مع ان لأصغر واحد منهم من الحق مثل ما لأعظم أفراد المجتمع. وقد يكون عند بعضهم من الذكاء والمواهب والاستعداد الصالح ما لا نستطيع تخيّله، لأن الله سبحانه يضع أحياناً سرّه في أصغر خلائقه.

ألا بوركت هذه الجماعات الناشطة للأخذ بيد الضعفاء وتبيُّن ارادة الله في البؤساء والمحرومين! ألا بوركت همة الناشئة المتسابقة الى القيام بأعمال الخدمة الاجتماعية! بورك في نخوتكم وحماستكم، أيها الشبان والشابات، فأنتم أنتم الحجة الناطقة بتكوّن الشخصية المصرية! أنتم باسعاد اخوانكم في الوطنية والانسانية تتلقون ردّ الفعل من السعـادة الفائضـة على حيـاتكم! والعمل الاجتماعي الذي تتبارى في اتقانه قوى الفتيان والفتيات لهو دائماً عمل ناجح بمشيئة الله!

أجل ان الجمعيات الناشطة للخدمة الاجتماعية، على تعدّدها، قليلة بالنسبة للعمل المطلوب. ولكن الخميرة الصالحة صغيرة دواماً. والنور مهما كان صغيراً يشرق على بقعةٍ واسعة.

أنت صاحب المواهب الممتازة والشخصية الغنية ها هي ذي الأرض الخصبة تعالجها فتكون جهودك ذات جدوى. يا طالب المجد، ها هي ذي منطقة المجد الصحيح! يا ملتمس السعادة، ها هي ذي المهمة التي تسعد فيها نفسك، وتنصف غيرك، وتخدم وطنك وترضي الله!

أيها السادة والسيدات،

أشكر لهذه الجمعية الكريمة فضلها في تكوين هذا الجو الهادئ بعيداً عن عواصف المجتمع لتوجيه نشاط الأفراد إلى رفع مستوى المجتمع. وأشكر لها المحاضرة السحرية التي تفضلت فسلمتني اياها حينا لتلمس ينبوع السعادة

كل موضوع من الموضوعات يستطيع ان يستقل بنفسه وبالعناصر المكونة لطبيعته. أما موضوع السعادة فيحتضن جميع صنوف النشاط البشري جسدياً كان أم عقلياً أم روحياً. الجغرافيا المائية تعلمنا ان جميع الانهار تسعى الى البحر. وللسعادة جغرافيتها الشاملة ان صح الوصف انهاراً من المداد تسعى هي كذلك إلى البحر: بحر السعادة. ونحن أشد تطلعاً الى السعادة في اليوم العصيب، لأن معناها أبداً مستقر بين جوانحنا

ونفوسنا تصبو إليه دواما في حرارة وايمان . والكبير فينا كالصغير، العالم كالجاهل، يتوق إلى استطلاع انبائه.

كأنما نحن بالتحدث عنه نتعلم الكلام بلغة تلك المحبوبة البعيدة الفاتنة، ونؤيد اقتناعنا بأنه الارث الصبيدي المشترك بيننا وان لكل منا الحق في التماسه ما دام الباري سبحانه قد أودع قلوبنا الرغبة فيه . إن كل رغبة عريقة تحتدم في قلوبنا لهي الدليل القاطع على ان حقيقتها المحسوسة لابد موجودة وان بلوغها أمر مشروع ميسور

نحن نخوض معركة الحياة يحدو بنا الأمل، ونعالج الشؤون بنشاط ودقة واستقامة في طلب الرزق الحلال والأخذ بحظ من الثقافة والبحث عن الأصدقاء والمحبين والسعي إلى تحسين المكانة الاجتماعية والتماس كل ما ينيلنا اطمئنانا وهناءة . وكلما فزنا بشيء من أولئك طلبنا المزيد في حين تصدمنا دائما العقبات والمصاعب وتحز في نفوسنا

٣

الآلام والاحزان . وكلما زدنا إخلاصا زادت في سبيلنا المقاومة العلنية والخفية حتى في اكثر الاحتياجات إلحاحاً وأتمها الأمور مشروعية . فنضطر الى مصارحة أنفسنا بأننا غير سعداء . هذا شأن الرجل والمرأة على السواء . وفتشنا في البحث عن السعادة في الجد واللهو جميعاً : أين تراها تكون ؟ أهي في هذه الأثواب الفاخرة وتلك الحلى الثمينة التي تذهب بلبّنا لحظة نحن النساء الضعيفات ، ولا سلطان لها على الرجال فيما يزعم الرجال ؟ ان الثوب الجميل يرضينا حينا ما والحلية الغالية نألفها بالحصول عليها ولا يطول حتى نملّها . أهي في الترف البادي على محال اللهو والتسلية ؟ ان كمية من اللهو والتسلية ضرورية لصحة العقل والجسد ومهما يكن من أمر فإنها تعيد علينا أنساً ونشاطاً ؛ بيد أن اللهو والتسلية ينقلبان تضخماً وتبرماً للمتهالك الذي يحسبها غاية . ولو لم يكن أولئك المتهالكون تعساء ، ضيقي الأفق ، لما حاولوا الفرار من أنفسهم ونسيان همومهم في لذات

٤
انَّ عنه العابرة - لذات لن تترك إلا أكثر تعاسة
وفي أرواحهم رضوض أليمة وفي أفواههم طعم الفناء
أهي في الانصراف إلى عالم الفكر عالم الدرس والبحث
والانتاج العلمي والفني؟ إن ذلك العالم ليمكن أرقى
المسرات وأنبلها وأطهرها، غير ان الحياة المحددة لا
تفتأ تسوق علينا أكدارها. وارسطو الفيلسوف نفسه
أثبت ان أكدار الحياة الحسية والاجتماعية تحول بين الحكيم
وبين السعادة
أهي في المجد العالمي والمكانة الرفيعة والمال الذي يبذل
ما يبذل في سبيل اقتنائه؟ قيل مرة لأحد الاخوان
روتشلد أصحاب الثروات المتعددة تكدس أكياس
الرمل على الأرصفة: أنت بثروتك الباهظة وسلطانك
المنتشر مصالحك في مختلف الأقطار - لا بد انك رجل
رجل سعيد حقاً. فأجاب ملك المال: سعيد. سعيد؟
ها! فلنتحدث في موضوع آخر! أجل المال الذي هو شرط
جوهري للسعادة، المال تلك القوة التي تملك تسخير

جميع القوى، هناك شيء واحد لا يستطيع المال
ابتياعه، وهو السعادة
كلنا نتفقون على وجوب توفر الشروط المالية
والصحية والثقافية والاجتماعية ونسعى اليها ما استطعنا
لنيل السعادة. ومع ذلك فمن الناس من هو هانئ
بكل أولئك ولكنه في الواقع غير سعيد. السعادة
حالة نفسية خصوصًا وهي تختلف باختلاف الأفراد. فما
قد يحسبه لباب السعادة في نظر الواحد منا قد يبدو
تافهًا في نظر الآخر. ومعناها يتغير في حياة الفرد الواحد
حينًا بعد حين، ويتطور بتطور فكره، ويتسع باتساع
مداركه. وكلما ارتفعت النفس وتهذبت تهذبت وارتفعت
فيها المطامح والغايات، ورحبت أمامها الآفاق، وتوغلت في
ضمير الوجود فصارت أقرب إلى حقيقة السعادة وإلى
حقيقة الألم كذلك. فاذا أضفنا ان الانسان اجتماعي
بالفطرة وان كل فرد عضو من أعضاء مجتمع واحد، تحتم ان

تكون السعادة فردية واجتماعية معاً . بمعنى ان سعادة الفرد الواحد لاتقوم على تعاسة الفرد الآخر . بل ، على النقيض ، يجب ان تكون سعادة السعيد معواناً للشقاء على نيل قسطهم من السعادة . وهنا ، عند هذا التناقض ، السعادة التي هي مطلب الجميع وحق للجميع ، تمسي مأساة ولا مأساة هملت ، وتنقلب مشكلة ليست دون مشكلة الحرب والسلم تعقداً في هذه الايام . ولكن هنا ، عند هذا التناقض كذلك ، تتبدى صورة التآلف والتعاون والانسجام إذ تتجلى تلك المعاني الشريفة السامية التي لاشرف ولاسمو بدونها ، معاني الحرية والضمير والحق والواجب

أتعلمون ، أيها السادة والسيدات ، لماذا نخيل السعادة أحياناً وهماً مستحيلاً ؟ ولماذا كلما فاز أحدنا بنعمة من النعم فشلت في تقديره قيمة تلك النعمة وتسربت سراعاً من يده تسرب الماء من القبضة المطبقة ؟ ذلك لأن نظرتنا الى السعادة فاسدة في الاساس عندما نحسب السعادة منتهى الغايات ، في حين ما هي إلا وسيلة .

وسيلة جد شيقة تعنيها جميع قوى الروح والجسد،

ولكنها وسيلة ليس غير، شأنها شأن المال والثقافة

والحب والعمل واللذة والألم والعداوة والصداقة

وسيلة لأي شيء؟ لأثمن الكنوز وأغلاها،

وهو تكوين الشخصية. غاية الانسان والانسانية

من الحياة ليست السعادة، بل هي تهذيب الملكات

وتكوين الشخصية. نحن نستطيع ان نحيا كائنا

بشريا بكافة وسائل الرخاء والرفاهية نترفع قليلا فوق

درجة الحيوان. ولكننا لا ننجح في جعله انسانا إلا إذا

لقناه بالمبادئ التي تشرف الانسانية وتمكنه من تبين

روحه أي نور الله فيه، فسيرناه في سبيل التهذيب المتتابع،

أي سبيل تكوين الشخصية سبيل الكمال الذي نعرف

أين يبتدئ ولكن لا يتم عند الله

هذه هي الغاية التي تستحق عنايتنا، وفي سبيل

بلوغها كل فرح وكل ترح، كل ضيق وكل فرج، كل مجاهدة وكل تضحية

كل انتصار وكل اندحار ينقلب عنصرا سحريا من عناصر

السعادة. ان الندى المنتشر على الأزهار هي

٨

الصباح لا يهبط من علٍ، بل ينطلق من صميم كيان الأنبتة والأعراش. وتلك السعادة الجميلة النبيلة ليست بعيدة عنا ننادي؟ فتلبّي، بل هي قائمة في أعماق نفوسنا تناديننا وتتوسل إلينا ان ننتبه إلى وجودها وعلينا نحن ان نكون ملبّين

لا سعادة إلاّ بتكوين الشخصية، ولا سبيل إلى سبر غور الشخصية إلاّ بالأثر الصالح الذي تحدثه الأعمال في حياة الآخرين. وعندما نقوم بالواجب نحو أعضاء الأسرة الصغيرة من والدٍ ووالدة وأخ واخت وزوج وولد نكون قد تعرفنا ناحية واحدة من شخصيتنا، ولا نتعرف الناحية الأخرى إلاّ بتأدية الواجب نحو الأسرة الكبرى، أسرة المجتمع الذي نحن بعض افراده واسرة الوطن الذي نحن بعض ابنائه

وفي هذا المجتمع المصري العزيز كثير من الظلم والحرمان والتعاسة المتطلبة المعونة المباشرة. ومصر، هذا البلد العامر العظيم المجيد لا يستطيع ان يكون عامراً حقاً عظيماً مجيداً وهو مزدحم بالأخربة الانسانية الذليلة.

و المثل العامي البسيط يقول: «نم يا جاري بخير تنام بخير زيك». والشبيبة المصرية الحاضرة اصبحت لحسن الحظ فوق مستوى العامة فأدركت حكمة الناموس الذهبي القائل: «عامل الآخرين بمثل ما تود ان نعامل به». وهي الراقية المثقفة، الطموح إلى المعالي، المتحدثة وبحق تتحدث عن الحق والحرية والتقدم تعلم انها لا تستطيع أن تنهض وتسير بقدم واحدة وتمد يدها للبائسين من أبناء هذه الأمة لتسير واياهم بعزم واقدام في طريق الحق والحرية والمجد

رفع مستوى المعيشة للكبار فرض، وتحسين شؤونهم الصحية والاقتصادية واجب. أما الصغار فهم الذين يمكن خلقهم خلقاً جديداً وتنشئتهم جيلاً سعيداً سعيداً.
والملايين من اطفال مصر محرومون من كل شيء، يسخرون من المعاني التي نحبها ونقدسها ولا يتخيلون ان هناك شيئاً اسمه انسانية ووطن وحق وواجب وحرية ولا

١٠ يعرفون من هذا العالم سوى الشرور والآلام . مع ان
لأصغر واحد منهم من الحق مثل ما لأعظم أفراد المجتمع .
وقد يكون عند بعضهم من الذكاء والمواهب والاستعداد الهائل
ما لا نستطيع تخيله ، لأن الله سبحانه يضع أحيانا
سره في أصغر خلائقه

ألا بوركت هذه الجماعات الناشطة للأخذ بيد الضعفاء
وتبيين ارادة الله في البؤساء والمحرومين ! ألا بوركت همة
الناشئة المتوثبة إلى القيام بأعمال الخدمة الاجتماعية !
بوركت في نخوتكم وحماستكم أيها الشبان والشابات ،
فأنتم انتم الحجة الناطقة بتكون الشخصية المصرية ! انتم بإسعاد
اخوانكم في الوطنية والانسانية تتلقون رد الفعل من السعادة
الفائضة على حياتكم ! والعمل الاجتماعي الذي تتبارى
في اتقانه قوى الفتيان والفتيات لهو دائماً عمل ناجح
بمشيئة الله !

أجل إن الجمعيات الناشطة للخدمة الاجتماعية ،
على تعددها ، قليلة بالنسبة للعمل المطلوب .

١١

ولكن الحيدة الصالحة صغيرة دوماً . ولعنوز مهما كان صغيراً يشرق على بقعة واسعة

أنت صاحب المواهب الممتازة والشخصية الغنية

ها هي ذي الارض الخصبة تعالج؟ فتكون جهودك ذات جدوى . يا طالب المجد ، ها هي ذي منطقة المجد الصحيح !

يا ملتمس السعادة ، ها هي ذي المهمة التي تسعد فيها نفسك وتنصف غيرك ، وتخدم وطنك وترضي الله !

من ذكريات الصيف: صلاة يوم الأحد (1)

يوم الأحد

الصباح كله متشرّب بلآلىء النور الفتيّ، رؤى المشهد الفيّاح توسعه انفساحاً، ورنين الأجراس الشادية يفعمه ابتهاجاً. سناءٌ لا يـوصف يشمل الكائنات، وصفاءٌ رقيق ينيل قديم الجبال وقديم المروج هيئة جديدة ناضرة في جمود يُخيَّل ناطقاً ليقول أن لا شيء في الوجود متغير. غير أن عقرب الساعة الذي يضيف أجزاءً من الوقت إلى سير الزمان يتكلم هو كذلك مذكراً بأن كل ما في الوجود عرضة للزوال والتبدّل.

اليوم يوم الصلاة

فلننعم بساعات الصباح مليئةً هيّا بنا إلى كنيسة أبعد من «الدوومو» هيّا

---

(1) كتبت ميّ هذه الصلاة الرائعة في مدينة «بيروجيا» بإيطاليا في صيف عام ١٩٣٣ حيث قضت فترة للترويح عن نفسها وهي في غمرة الأحزان، وتابعت الإستماع إلى سلسلة محاضرات في جامعتها المشهورة. راجع مراسلات ميّ زيادة وأعلام عصرها ١٩١٢ - ١٩٤٠ - «وثائق جديدة» ص: ٤١٤ - ٤١٥.

بنا إلى كاتدرائية «سان بيترو» القائمة عند مدخل الرياض على كتف الأكمّة المقابلة. ما أهنأكِ يا لذة الهرولة على عديد الدرجات القديمة في عرض السبيل حيث مرّت قبلنا شتى الأجيال المجهولة؟ فنطوي بعدئذٍ شوارع هُيِّئت مسرحاً لحياة يومية يحياها بالدقيقة وبالثانية أقوام لسنا نعرفهم، ونلمح إبان المسير وجوهاً وملامح وهيئات وابتسامات لن نراها بعد اليوم. ومن ذا الذي يدري؟ فقد يدّخر لنا القدر مفاجأة رضية فنسمع في «سان بيترو» عزيف الأرغن بألحانه الضخمة الرائعة.

ولكن لا! لا عزيف في «سان بيترو» ولا صلاة. الباب الكبير مغلق، ومن خلال الحديد المتشابك يمتد النظر إلى الهيكل السادر تحت القبة الباذخة. وفضاء الكنيسة لا تملأه إلا الصور الصامدة، والشخوص الجامدة، والصلبان ذات الأوضاع المضجعة تتخللها جميعاً ظلال كأنما هي أشباح ما تبقى هنا من ابتهالات المبتهلين وأشواقهم وأحزانهم. فيُخيّل إليَّ أن سلام الكنيسة مضطرب يناصبني العداء لأنه يأبى أن يكون لي ملجأً أنا التي جئته من بعيد. أدارَ العبادة، أو تخيّبين آمالَ المستجير في حماكِ؟.

عليّ أن أعود أدراجي باحثة عن كنيسة غير هذه. أكثر الكنائس تواضعاً من حيث هندستها هي الآن أوفرهن اتفاقاً مع حاجتي إلى الخشوع والاتصال بالباري. غير أن الكنيستين الصغيرتين اللتين أمرّ بهما قد صمتت فيهما أصوات الضراعة، وإن تُركت أبوابها مفتوحة على مصارعها. فأقضي في هذه الكنيسة وتلك لحظات كلها وحدة وسكوت وتأمل.

اشتدّت حرارة الشمس شيئاً فشيئاً وغدا السير على القدمين مزعجاً في قيظ الظهيرة. فيا ساعات الصباح الهنيّ أين اختفت نسائمك؟ أين بهجة ترنيمك يا نواقيس الضحى؟ عليّ الآن أن أتسلق في تضجر وعناء عديد الدرجات العصيّة صعوداً إلى الأزقة الضيقة المتعرجة لأتمكن من الوصول إلى «الدوومو» قبل فوات الأوان!

الآن كنيسة أخرى تعترضني في طريقي... هذه كنيسة «سان ايركولانو» التي لم أزرها قبل اليوم مع أن الكثيرين قد نوّهوا بها أمامي مؤكدين أنها حَرِيَّةٌ بالزيارة حتى ممن أقام في «بروجيا» أياماً قلائل.

أخطو عتبة الكنيسة وأنا شبه واثقة من أني لن أجد فيها احتفال صباح الآحاد. فإذا بالصلاة لم يَحن بعدُ حينها. وإذا بالمصلين يقبلون أفراداً وجماعات. فأجلس في مكاني، ومن غير ما حراك أكتفي بنقل نظري على الجدران البديعة، والنقوش المنمّقة، والتماثيل المتقنة، وأرقب هيئات الوافدين من القوم وحركاتهم وسكناتهم. فإذا بامرأتين في أثواب الحداد إحداهن طاعنة في السن، حزينة الوجه، والأخرى حديثة السن، موفورة الفتنة، تقفان عند كرسيّين منفردتين كأنما أوضعتا خصيصتين لهما في وسط الكنيسة. والمرأتان تستوقفان النظر أكثر من أي أحدٍ غيرهما بانفراد مكانهما في وسط الجمع، وبوقوفهما وراء النصب التذكاري القائم في ردهة المعبد حائلاً بينهما وبين الهيكل الأكبر في صدر الكنيسة؛ هو النصب المشاد باكتتاب من أهل البلدة تخليداً لذكرى الجنود الذين قُتلوا في الحرب الأخيرة وإبان الثورة الوطنية.

هذا النصب هو أوفر الأنصاب تأثيراً وتفجعاً بين كل ما رأيت من نوعه لمثل هذه الذكرى: هناك صخرة عارية خشنة، شأنها شأن الحياة في نظر الذي عذّبته الحياة. وعلى الصخرة جنديّ صريع ارتكز على يديه في وضع مفجع يتعذّر وصفه. يشعر الرائي بأن هذا الجندي بذل كل ما لديه من القوة وأنه أتى على كل ما عنده من المناعة. لم يبق في الأرض شيء يستطيع أن ينيله الشفاء، ولم يبق في الأرض شخص يملك أن يردّ إليه الحياة، فليس أمامه إلا الرحيل فيرحل عن هذه الأرض التي يحبها، يرحل مرغماً، يرحل في تفطّرٍ ولوعةٍ وأسى، لكنه مع ذلك، خلال اللحظات الأخيرة من عمره، ورغم ما يمضّه من الآلام الحسيّة والأدبية، يستجمع قواه مستبسلاً ويلقي بكلمةٍ منه بديعة، كلمة الوداع إلى الشباب، وكلمة الاجتماع بالشباب، كلمة الوداع

إلى العالم، وكلمة فيها تهذيب العالم. وبإشارة تكنّ من الأريحية بمقدار ما تعلنه من اليأس يرفع ذراعه عالية تحمل خوذته من حيث تنطلق تلك الكلمة في شكل لهيب لا ينطفىء.

أهو لهيب الشجاعة، لهيب الحميّة، لهيب الحماسة، لهيب المفاداة، لهيب التضحية القصوى؟ أهو لهيب الروح الحيّ في المثل الأعلى الذي يموت أشياعه ومعتنقوه، ولكنه هو لا يموت؟ أهو لهيب التأسي على الدنيا المتباعدة، مع الرجاء بأن عالماً أتمّ بهجةً وهناءً ينتظر الراحل عندما يختفي حياله في هذا العالم كل رجاء؟.

ليس من يستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة. وقد يكون أن هذه المعاني جميعاً تتلخص في إشارات اللهيب ومنها تتغذى. إن عُرْيَ هذه الصخرة ـ وسقوط هذا البطل، وهذ اللهيب الذي لا ينطفىء ـ أولئك مجتمعةً ترسل إلى كل نفسٍ نداءً ورسالةً تختلف باختلاف الأشخاص والاحتياجات والشجون.

قلَّ ما اشتركت في صلاة ذلك الأحد، وقلَّ أن اتصلت روحي بروح المصلين حولي. ولكني، بعاطفة متعددة متناثرة، شعرت بأني على اتصال وثيق بروح الجنديّ الصريع.

«ميّ»

* * *

من ذكريات الصيف

صلاة يوم الأحد

يوم الأحد.

الصباح كلّه مترشّح بلألاء النور لفتيّ ، رؤى الفيّاح توسعة انفساحاً ورنينة الأجراس الشاديه يفعمه ابتهاجاً . سناء لا يوصف يشمل الكائنات ، وصفو تقيمه ينيل قديم الجبال وقديم المروج لهياة جديدة ناضرة في جمود يخيّل ناطقاً ليقول أنه لا شيء في الوجود متغير غير أن عقرب الساعة الذي يضيف أجزاء من الوقت إلى سير الزمان يتكلم هو كذلك منذراً بأن كل ما في الوجود عرضة للزوال والتبدّل .

اليوم يوم الصلاة .

فلننعم بساعات الصباح مليئة . هيّا بنا إلى كنيسة أبعد من « الدومو » . هيّا بنا إلى كاتدرائية « سان بيترو » القائمة عند مدخل الرياض على كتف الأكمة المقابلة . ما أهنألك يا لذة الهرولة على عديد الدرجات القديمة في عرض السبيل حيث مرّت قبلنا شتى الأجيال المجهولة . ثم فنطوي بعدئذ شوارع كُسيت مسرحاً لحياة يومية يحياها بالدقيقة وبالثانية أقوام لسنا نعرفهم ، ونلمح إبّان السير وجوهاً وملامح ولفتات وابتسامات لن نراها بعد اليوم . ومن ذلك

الذي يدري؟ فقد يدّخر لنا القدر مفاجأة رضيّة لم؟
فنسمع في "سان بيترو" عزيف الأرغن بألحانه
الضخمة الرائعة.

ولكن لا! لا عزيف في "سان بيترو" ولا صلاة:
الباب الكبير مغلق، ومن خلال الحديد المتشابك يمتدّ
النظر إلى الهيكل السادر تحت القبة الباذخة. وفضاء
الكنيسة لا تملأه إلا الصور الصامتة، والشخوص
الجامدة، والصلبان ذات الأوضاع المفجعة، تتخللها
جميعا ظلال كأنما هي أشباح ما تبقّى هنا من ابتهالات
المبتهلين وأشواقهم وأحزانهم. فيخيّل إليّ أن سلام
الكنيسة مضطرب بمناصبتي العداء لأنه يأبى أن يكون
لي ملجأً أنا التي جئته من بعيد. أدار العبادة،
أو تخيّبين آمال المستجير في حماك؟

عليّ أن أعود أدراجي باحثة عن كنيسة غير
هذه. أكثر الكنائس تواضعاً من حيث هندستها هي
الآن أوفر لهفة اتفاقاً مع حاجتي إلى الخشوع والاتصال
بالباري. غير أن الكنيسة الصغيرة التي أمرّ بها
قد صمتت فيها أصوات الضراعة، وإن تركت أبوابها
مفتوحة على مصاريعها. فأقضي في هذه الكنيسة وتلك
لحظات كلها وحدة وسكون وتأمّل.

اشتدّت حرارة الشمس شيئاً فشيئاً وغدا السير
على القدمين مزعجاً في قيظ الظهيرة. في ساعات الصباح

لبهجتي، أم اختفت نسائمك؟ أم بهجة ترنيمك لي يا نواقيس الضحى؟ عليّ الآن أن أتسلّق في تضجّر وعناء عديد الدرجات العصيّة صعودا إلى الأزقة الضيّقة المتعرّجة لأتمكّن من الوصول إلى «الدوومو» قبل فوات الأوان!

إلاّ أنّ كنيسة أخرى تعترضني في طريقي...

هذه كنيسة «سان إركولانو» التي لم أزرها قبل اليوم. مع أن الكثيرين قد نوّهوا بها أمامي مؤكدين أنها جديرة بالزيارة حتى ممن أقام في «بروجيا» أياما قلائل.

أخطو عتبة الكنيسة وأنا شبه واثق من أني لن أجد فيها احتفال صباح الآحاد. فإذا بالصلاة لم تبدأ بعد حينئذ. وإذا بالمصلّين يقبلون أفرادا وجماعات، فأجلس في مكاني، ومن غير ما حراك أكتفي بنقل نظري على الجدران البديعة، والنقوش المنمّقة، والتماثيل المتقنة، وأرقب هيآت الوافدين من القوم وحركاتهم وسكناتهم.

فإذا بامرأتين في أثواب الحداد إحداهما طاعنة في السن حزينة الوجه، والأخرى حديثة السن موفورة الفتنة، تقفان عند كرسيين منفردتين كأنما أوضعتا خصيصتين لهما في وسط الكنيسة. والمرأتان تستوقفان النظر أكثر من أيّ أحدٍ غيرهما بانفرادهما وكأنهما في ...

الجمعية وهو تقوم فوقها وراء النصب التذكاري القائم في ردهة
المعبد حائلاً بينها وبين المدخل إلى الإلهي في صحن الكنيسة
هو النصب المشاد بالاكتتاب من أهل البلدة تخليداً
لذكرى الجنود الذين قتلوا في الحرب الأخيرة وإبان الثورة الوطنية.

هذا النصب هو أوفر الأنصاب تأثيراً وتفجعاً بين
كل ما رأيت من نوعه لمثل هذه الذكرى: هناك صخرة عارية
خشنة، شأنها شأن الحياة في نظر الذي عذبته الحياة.
وعلى الصخرة جندي صريع ارتكز على يديه في وضع مفجع يتعذر
وصفه. يشعر الرائي بأن هذا الجندي بذل كل ما لديه
من القوة وأنه أتى على كل ما عنده من المناعة. لم يبق
في الأرض شيء يستطيع أن ينيله الشفاء ولم يبق في
الأرض شخص يملك أن يرد إليه الحياة، فليس
أمامه إلا الرحيل. فيرحل عن هذه الأرض التي يحب،
يرحل مرغماً، يرحل في تفطر ولوعة وأسى: لكنه مع
ذلك، خلال اللحظات الأخيرة من عمره، ورغم ما يمضه
من الآلام الحسية والأدبية، هو يستجمع قواه مستبسلاً
ويلقي بكلمة منه بديعة، كلمة الوداع إلى الشباب وكلمة الاجتماع
بالشباب، كلمة الوداع إلى العالم وكلمة فيها تهذيب العالم.
وبإشارة تلقية من الأريحية بمقدار ما تعلمنه من البأس
يرفع ذراعه عالية تحمل خوذته من حيث تنطلق
تلك الكلمة في شكل رهيب لا ينطفئ.

أهو لهيب الشجاعة، لهيب الحمية، لهيب الحماسة، لهيب المفاداة، لهيب التضحية القصوى؟ أهو لهيب الروح الحي في المثل الأعلى الذي يموت أشياعه ومعتنقوه، ولكنه هو لا يموت؟ أهو لهيب التأسي على الدنيا المتباعدة، مع الرجاء بأن عالماً أتم بهجة وهناءة ينتظر الراحل عندما يختفي حياله في هذا العالم كل رجاء؟

ليس من يستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة.

وقد يكون أن هذه المعاني جميعاً تتلخص في أشارات اللهيب ومنها تتغذى. إن نجوى هذه الصخرة - وسقوط هذا البطل، وهذا اللهيب الذي لا ينطفئ -، أولئك مجتمعة ترسل إلى كل نفس نداءً ورسالة تختلف باختلاف الأشخاص والاحتياجات والشعور.

قلّ ما اشتركت في صلاة ذلك الأحد، وقلّ أنه اتصلت روحي بروح المصلين حولي. ولكني، بعاطفة متعددة متناثرة، شعرت بأني على اتصال وثيق بروح الجندي الصريع.

« مي »

رابعة العدوية[1]

وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٥٦ طبع بولاق

أم الخير رابعة بنت اسماعيل العدوية البصرية مولاة آل عتيك الصالحة المشهورة. كانت من أعيان عصرها وأخبارها في الصلاح والعبادة مشهورة. كانت تقول: ما ظهر من أعمالي فلا أعدّه شيئاً. ومن وصاياها: اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم.

وأورد لها الشيخ شهاب الدين السهرورديّ في كتاب «عوارف العوارف»: [الكامل]

إني جعلتك في الفؤاد محدثي ... وأبحت جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانس ... وحبيب قلبي في الفؤاد جليسي

---

(١) تؤكد هذه الصفحات إهتمام ميّ بالشاعرة المتصوفة رابعة العدوية وما سَمِعْتُهُ من العالمة الجليلة السيدة فاطمة اليشرطي، رحمها الله، حيث قالت لي في حديث أجريته معها في ١٩٧٢/٤/٢٥: (فكرت ميّ بترجمة كتاب عن رابعة العدوية ألفته بالإنكليزية المستشرقة: «مارغريت سميث» وبحثت فيه عن التصوّف الإسلامي ولكنها لم تتمكن من إنجاز هذا العمل).

وكانت وفاتها في سنة خمس وثلاثين ومائة، ذكره ابن الجوزي في شذور العقود، وقال غيره سنة خمس وثمانين ومائة، وقبرها يزار وهو بظاهر القدس من شرقيه على رأس جبل يسمّى الطور. وقالت لِأمَتِها لما حضرتها الوفاة: يا عبدة لا تعلمي بموتي أحداً وكفنيني في جبّتي هذه، وهي جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون. فلما حضرتها الوفاة كفنتها فيها كما أمرت.

وذكر ابن الجوزي في كتاب صفوة الصفوة المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٧ تأريخ عن رابعة العدوية هذه حكايات منها: إن رياح القيسّ وصالح بن عبد الجليل وكلاب تذاكروا الدنيا فأقبلوا يذمونها فقالت رابعة: إني لأرى الدنيا بيرابيعها في قلوبكم، قالوا ومن أين توهمت علينا ذلك؟ قالت إنكم نظرتم إلى أقرب الأشياء من قلوبكم فتكلمتم فيه.

ومنها أن سفيان الثوري قال مرة بين يديها: واحزناه، فقالت: لا تكذب قل: وا قلة حزناه! لو كنت محزوناً ما هنأ لك العيش.

رابعة العدوية

الطبقات الكبرى للمناوي المحفوظ
منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية

القيسية ثم البصرية رأس العابدات ورئيسة الناسكات القانتات. كانت في عصر الحسن البصري، وهي إحدى النساء اللاتي تقدمن ومهرن في الفضل والصلاح كأم أيوب الأنصاري وأم الدرداء، ومعاوية العدوية، وهي من بينهن المشهورة بعظيم النسك ومزيد العبادة وكمال النزاهة والزهادة.

وكانت تصلي الليل كله فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها قليلاً حتى يسفر الفجر، ثم تثب وهي فزعة وتقول: يا نفس كم تنامين، وإلى كم تقومين، يوشك أن تنامي نومة لا قومة لها إلا لصرخة يوم النشور.

وسئلت: متى يكون العبد راضياً؟ فقالت: إذا سرّته المصيبة كما سرته النعمة. وكانت شديدة الخوف جداً فإذا سمعت ذكر النار أغمي عليها. وكانت تقول: لو كانت الدنيا لرجل ما كان بها غنياً، قيل: كيف؟ قالت: لأنها تفنى. قالوا مكثت أربعين سنة لا ترفع رأسها إلى السماء حياءً من الله، وقالت: استغفارنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق فيه. وذمّ بعضهم الدنيا عندها فقالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحبّ شيئاً أكثر من ذكره، ذكركم

لها دليل على بطالة قلوبكم إذ لو كنتم غرقى في غيرها ما ذكرتموها». وأتاها رجل بأربعين ديناراً فقال: استعيني بها على بعض حوائجك فبكت ثم رفعت رأسها إلى السماء ثم قالت: هو يعلم أني أستحي منه أن أسأله الدنيا وهو يملكها فكيف آخذها ممن لا يملكها؟ وكانت إذا قال لها إنسان: ادع لي ترتعد وتقول: من أنا؟ أطع ربك وادعه فإنه يجيب المضطر. وقيل لها: هل عملت عملاً ترين أن يقبل منك؟ قالت: إن كان فَخَوْفي أن يُردّ عليّ.

وقالت لسفيان الثوري: إنما أنت أيام معدودة فإذا ذهب يوم ذهب بعضك ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل وأنت تعلم فاعمل.

وكتب محمد بن سليمان الهاشمي، وكانت غلّة ملكه كل يوم ثمانين ألف درهم، إلى كبراء البصرة في امرأة يتزوجها فأجمعوا على رابعة فكتب إليها: أما بعد، فإن الله ملّكني كل يوم ثمانين ألف درهم وأنا أصيّرها إليك ومثلها ومثلها فأجيبيني إلى ما سألت؟ فكتبت إليه: أما بعد فإن الزهد في الدنيا راحة البدن، والرغبة فيها تورث الهمّ والحزن فهي زادك وقدم لمعادك وكن وصيّ نفسك ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تركتك، وصم الدهر، واجعل فطرك الموت، وأما أنا فلو خوّلني الله أمثال ما خوّلك وأضعافه ما سرّني أن أشتغل عن الله طرفة عين والسلام.

* * *

١

اسم الشيخ [illegible]

مولده [illegible]

من أحيا من عصرنا وأصبارنا في الصلاح

والعبادة [illegible] كانت تقول ما قطعته

من أعمالي [illegible] شيئا [illegible]

الكتوا هنا [illegible] سيأتي

داود [illegible] السهروردي

في كتاب عوارف المعارف

إني جعلتك في الفؤاد محدثي

وأبحت جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانس

وحبيب قلبي في الفؤاد جليسي

وكانت وفاتها سنة خمس وثلاثين ومائة

ذكر ابن الجوزي في شذور العقود وقال

غيره سنة خمس وثمانين ومائة [illegible]

[illegible] وقبرها بظاهر القدس من شرقيه

على رأس جبل يسمى الطور وذلك للاشتراك

لما حضر [illegible] [illegible] تفاصيل

بموتي أحداً وتغشيني في جميعهن لذة
ولهن جنة من شعر كانت تقوم بها
إذا هدأت العيون [illegible] فانا [illegible]
الوفاة تصطرع دعاك كما أرى .

وذكر ابن الجوزي في كتاب صفة الصفوة
المخطوط [illegible] [illegible]
تحت رقم ١٥٧ [illegible] عن رابعة العدوية

هذه حكايات منها

أبو سليمان القيسي وصالح بن عبد الجليل
وكلاب تتذاكر الدنيا فأقبلوا يذمون رابعة
[illegible] الدنيا [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible]

[illegible]
ومنها [illegible] [illegible] [illegible]
واحزناه فقالت [illegible] قل وا قلة حزناه
لو كنت محزوناً ما [illegible] العيش

الطبقات الكبرى للمناوي المخطوطة [illegible]
[illegible]

٣ رابعة العدوية

القيسية، ثم البصرية، رأس العابدات
ورئيسة الناسكات القانتات
كانت في عصر الحسن البصري، وهي
إحدى النساء اللاتي تقدمن وسبقن
في الفضل والصلاح كأم أيوب الأنصارية
وأم الدرداء، ومعاذة العدوية
وهي من بينهن المشهورة بعظيم الشأن
وشديد العبادة وكمال النزاهة
والزهادة.
وكانت تصلي الليل كله فإذا طلع الفجر
هجعت في مصلاها قليلا حتى يسفر
الفجر ثم تثب وهي فزعة وتقول
يا نفس كم تنامين، وإلى كم تقومين
يوشك أن تنامي نومة لا تقومين إلا
لصرخة يوم النشور

وسئلت متى يكون العبد راضيا
فقالت إذا سرته المصيبة كما سرته
النعمة ، وكانت شديدة الخوف جدا
فإذا سمعت ذكر النار أغشي عليها
وكانت تقول لو كانت الدنيا لرجل
ما كان بها غنيا قيل لسيفي قالت لا أبرح
تصلي ، قالوا مكثت أربعين سنة
لم ترفع رأسها إلى السماء حياء من
الله وقالت استغفارنا يحتاج
إلى استغفار لعدم الصدق فيه
وذم بعضهم الدنيا عندها فقالت
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
من أحب شيئا أكثر من ذكره
ذكركم لها دليل على بطالة قلوبكم
إذ لو كنتم غرقى في غيرها ما ذكرتموها
وأتاها رجل بأربعين دينارا فقالت
ستعيني بها على بعض حوائجك

قبلت ثم رفعت رأسها إلى السماء
ثم قالت: لو يعلم أني أستحي منه
أن أسأله الدنيا وهو يملكها
فكيف آخذها ممن لا يملكها
وكانت إذا قال لها إنسان: ادعي لي
ترتعد وتقول: من أنا؟ أطع
ربك وادعه فإنه يجيب المضطر
وقيل لها: هل عملت عملاً ترين
أنه يقبل منك؟ قالت: إن كان
فخوفي أن يرد علي.
وقالت لسفيان الثوري: إنما أنت
أيام معدودة، فإذا ذهب
يوم ذهب بعضك ويوشك إذا
ذهب البعض أن يذهب الكل
وأنت تعلم فاعمل.

وكتب محمد بن سليمان الهاشمي وكانت
غلته في كل يوم ثمانين الف درهم
الى كبراء البصرة في امرأة يتزوجها
فاجمعوا على رابعة فكتب اليها: اما
بعد، فان الله ملكني كل يوم ثمانين
الف درهم وانا اصيرها اليك ومثلها
ومثلها فاجيبيني الى ما سألت فكتبت
اليه: اما بعد، فان الزهد في
الدنيا راحة البدن والرغبة فيها
تورث الهم والحزن فهيئ زادك
وقدم لمعادك وكن وصي نفسك
ولا تجعل الرجال اوصياءك
فيقتسموا تركاتك وصم الدهر
واجعل فطرك الموت واما انا
فلو خولني الله امثال ما خولك
واضعافه ما سرني اني اشتغل عنه
الله طرفة عين والسلام

موعد مع الأقدار[1]

ليلَ نهار

في مدى الزمن الذي ولّى

فَأَتْرَعَ شبابي بالأمنيات الغالية،

ومدى الزمن الذي يلي،

وما أدري من أمره،

إلى هذا المدى،

سأذكر أبداً، والغصة في حلقي لا تريم

أنكَ كنتَ لي أكثر من محب، وأكثر من حبيب.

---

(١) أغلب الظن أن ميّ كتبت هذه القطعة الوجدانية يوم كانت تتعالج في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت في أوائل عام ١٩٣٨ ذلك لأنني وجدتها بين أوراق الأديبة اللبنانية السيدة جهان غزاوي عوني، منقولة بخطها، وقد جاورتها في ذلك المستشفى يومئذٍ وارتاحت ميّ إليها فأطلعتها على أسرارها وأوراقها الشخصية ولكن المنية لم تمهل جهان لتصدر كتاباً عن ميّ.

سأذكر أنكَ لبَّيْتَ... حينما دعوتك من سحيق الأبعاد ولا كتلبية الناس،
وأنك وَلَّيْتَ، أو كِدْتَ... عندما سألتُكَ بشفتيّ لا بقلبي،
ولا كما يولّي «الخاسرون»
في وقتٍ كنتُ فيه جدّ ضنينة أن تبدو مني
بادرة تثنيكَ عن عزمك الوفي
لأنك كنتَ نهب كآبةٍ، مرةٍ، عامرة
خشيتُ منها عليك،
وفزعتُ منها إليك ـ ومن نفسي
لئلا أخيّب هذه النفس فيك،
هذه النفس التي ربّيتها على مثل حبك النبيل
مذ كنت فتاةً لعوباً
إلى أن علقتك... حقيقةً مضيئة،
إلى أن افتقدتك... حينما طلبتك،
فما وجدتك بين شتيت المحبين،
وهيهات أن ينتزعك مني منتزع
لأنك في الصميم من كياني، ومن حقيقتي
لا من أوهامي، وخيالات نفسي.
أنتَ، أنت!! من وضعك في طريقي
القاحلة، الربداء؟
أيهذا الحبيب إليَّ، أبديًّا، أزلياً،
من وضعك على هذا النحو المتين؟.
ومع ذلك لم أجلس إليك بكلمة

فشقيت عمري كله في التنقيب الطويل عنك
من درب، إلى درب، إلى درب
علني ألتقيك،
فأطمئن إلى لقياك
أهي الأقدار، كما يقول القدريون؟
أهي المناسبات؟
أهو الاختبار كما يدّعي الوجوديون؟
أهو التجانس الفكري؟
أهي أنا حقاً؟
أهو أنت؟؟؟
أنت أيها الصامد للأحداث صمود جبار
عتيّ، ذي حكمة... قاسية،
ألا قل لي ـ إن استطعت ـ مَنْ وضَعَك في طريقي،
على هذا النحو الراسخ
حتى أشقيتني في التفتيش الطويل عنك
علّي التقيك ـ أو ألتقي من يماثلك
جمال خلق... وقوة حب،
فما أعود، وقد أنهكني التطواف
ـ على حلاوته ـ
ألا كما يعود بالطفل الغرير
حلم من أحلامه الوضيئة إلى اليقظة المفاجئة،
فيخبط بيديه عالياً، ضارباً بهما الهواء
لتسعفاه على استرجاع حلمه...

ولكنه لا يعود بطائل، ولا تعود كذلك يداه
لأنه مشدود بقوة، وأية قوة،
إلى اليقظة المرّة،
وإلى الوفاء لحقيقة هذه اليقظة، على مرارتها،
أراد أو لم يرد...

أيهذا الغائب إلى غير ما رجعة
الضارب في بحر صاخب من الأمواج
أمواج الحياة
قف ... سألتك بالعزيز من أمانيك
لأتملّاك...
فإن في عيني جوعاً إلى مثل هذه الملامح
إلى مثل هذا الجبين الشامخ بتؤدة
العابس، بغير جهامة...
وهذه الكبرياء، العتية، في شيء غزير
من لطافة الحب، وأنسه،
وهاتان الشفتان المسرودتان،
المعبرتان المتدفقتان بأسمى معاني
الجمال النبيل، والحب العفّ...
تدفُّقَ السِحْر الطاغي على مخيلةٍ
حَذَّرتها الأحداث
أجل! إن في عينيّ لجوعاً
وإن في أذنيّ لوقراً مما سمعت وأسمع
فدعني أتملاك... وحدك

لأني سئمت ضجيج العالم
فثبت إليك من هذا الضجيج
كما يتوب المذنب إلى ربه مستغفراً
لذنب لم يفعله هو، ولكنه يحسّه في دمه
وفي كل انتفاضة من انتفاضات قلبه.
دعني أَعِشْ في هذه الدقائق القصار...
حياتي كلها
فلعلني لن أراكَ أبداً لأفيء إلى
هدوء ظللك
ولعلك لن تراني لتستعيد بلقياي
أحلامك الغرّ...

أيها المسافر الذي أوشكت سفينته
على الإبحار
ألا قِف قليلاً، ولا تتعجلّن المسير
فما يزال في زاوية الأيام،
أيامنا الحلوة القاسية
المقتنصة اقتناصاً... من شباك الزمن
بضع دقائق
خمرية اللون، لاهثة الأنفاس،
تضوع بالعبير المِسْكيّ،.
دقائق أفتديها بعمري كله
لأعيش على ذكراها
ولو هنيهات...

أحسبها أطول من حياة الأزمنة،
فتُسامرُ أحلامَ شبابي الفينان،
وتبتكر لي أغنيةً حلوة الايقاع
لا تشيخ على الدهر
لأنها مستمدةٌ من حبٍّ... ليس كالحب،
ومن قلبٍ ليس كالقلوب،
وإنما هي أشبه بقيثارة
فيها حنينٌ طاغٍ،
وفيها لهبٌ طاهر،
وفيها صوت من بعيد، بعيد، آتٍ،
صوتٌ حالمٌ أخّاذ...
تتماوجُ فيه نداءات الأقدار
ووقدة العاطفة البتول
وملامح العبقرية...
وها هي ذي حياتي الجرداء المغبّرة
تعود إليّ بخطى سريعة، متلهفة للقائي
تعود إليّ ... أَشْوَقُ ما تكون لتضمني إليها
وتدفنني وهي تغني لي
بين وريقات خريفها العاصف الطويل
دون أن تعوج بي،
فهي لم تعطني من ربيعها المعطّر
إلا لحظات معدودات من عمري كله
ذهبت سراعاً، عجالاً،

ما كان أشوقني إلا أن أهمس خلالها
بأذنك أيها الحبيب النائي
كلمة حب واحدة
كلمة مجنّحة،
حزينة،
تكون لي ولك من بعد
تعزيةً كبرى
ذلك لأنك لا تريد ـ على حدّ تعبيرك ـ
أن تعطي الناس
غذاءَ الملائكة البررة،
بينما نجترّ نحن العلقم والحنظل
ونغصّ بالدموع،
فهل من موعد محبّب ... عزيز...

لنا مَعَكِ
أيتها المقادير
لأستغفرك ـ إن فعلت ـ
من كفري بك كفراناً طويلاً
أفيق منه على إيمانٍ لا يتطرقه شك،
شك يهفو إلى الاستقرار
فتعود إليه قيمُهُ ومُثُله،
ولأهمس بكلمتي المجنحة الحزينة:
أيها الحبيب، البعيد القريب،

فأرى البسمات الوضاء
تعلو الشفتين المعبّرتين
وتبدّد عن الجبين الشامخ عبوسَهُ
وتُرسل إلى القلب الخافق الوفيّ
طمأنينةً حالمةً ممراحا.

ميّ

* * *

نيتشه الألماني
رسول العمل والقوة والقسوة

اليوم ٢٤ أغسطس تُختم الثلاثين عاماً على وفاة فريدريك نيتشة[١] الفيلسوف الألماني في مسقط رأسه «روكن» من أعمال ألمانيا «منشىء» «فلسفة القوة» الذي تسرّبت مبادئه وأقواله حتى في عقول مناهضيه ومعارضيه، وأخذت بأقواله ونظرياته حتى الأحزاب والجماعات القائلة بأن «الرحمة فوق القوة»، أخذت بها على غير إرادة منها ولربما على غير معرفة.

إن «إرادة القوة» نقطة جوهرية أساسية في فلسفة نيتشه ولكن من الخطأ أن يقال إن هذا المبدأ تتحوّل إليه وتدور حوله جميع آراء نيتشه. ليس من السهل تعريف هذه الفلسفة حتى ولا للذين توغلوا في درسها لأن نيتشه لم يترك في كتاباته ما اصطلحوا على تسميته «مذهباً» تاماً. إن هذا الشيء المتماسك الذي يسمونه مذهباً هو ما في كل فلسفة من عناصر العقم والهرم

---

(١) فريدريك نيتشة - ١٨٤٤ - ١٩٠٠ - FRIEDRICHE NIETZSCHE ومن هنا نستنتج أن مقالة ميّ عنه كتبت عام ١٩٣٠.

والسلبية، هذا البناء الخياليّ الذي كثيراً ما يكون احتكاماً ظالماً، غير منطقي، وغير معقول، ويجب أن ينظر إليه في غالب الأحيان كوهم أو كفجيعة تمثيلية أو كقصيدة شعرية.

أما نيتشه فلم يعط لتأملاته صيغة «مذهبية» إنه كان مبدعاً في كل سانحة من سوانحه، فيكيّفها وفقاً لملاحظاته وبداهته دون الاهتمام بتقييدها بقيود المذهب.

كان «داروين» يرى أن غريزة الاجتماعية ملازمة لطبيعة الإنسان فلا يمكن تخيّل فردٍ من الأفراد إلا وهو مرتبط من كل ناحية بسلاسل تربطه بالمخلوقات والجماعات

* * *

نيتشه الألماني

رسول العمل والقوة والقسوة

اليوم ٢٤ أغسطس تختم الثلاثين عاماً على وفاة فريدريك نيتشه الفيلسوف الألماني في مسقط رأسه بروكن من أعمال ألمانيا منشئ "فلسفة القوة" الذي تسربت مبادئه وأقواله حتى في عقول مناهضيه ومعارضيه وأخذت بأقواله ونظرياته حتى الأحزاب والجماعات القائلة بأن "الرحمة فوق القوة"، أخذت بها على غير إرادة منا وربما على غير معرفة

إن إرادة القدرة « نقطة جوهرية اساسية في فلسفة نيتشه ولكن من الخطأ ان يقال ان هذا المبدأ تتحول إليه وتدور حوله جميع آراء نيتشه. ليس من السهل تعريف هذه الفلسفة حتى ولا للذين توغلوا في درسها لأن نيتشه لم يترك في كتاباته ما اصطلحوا على تسميته « مذهباً » تاماً. ان هذا الشيء التماسك الذي يسمونه مذهباً هو هو ما في كل فلسفة من عناصر العقم والارم والسلبية، هذا البناء الخيالي الذي كثيراً ما يكون احتكاماً ظالماً غير منطقي وغير معقول ويجب ان ينظر إليه في غالب الأحيان كوهم أو كمجموعة تمثيلية أو كقصيدة شعرية.

أما نيتشه فلم يعط لتأملاته صيغة « مذهبية » إنه كان مبدعاً في كل شيء من كل نحو، فيكتفي وفقاً لملاحظاته وبداهته دون الاهتمام بتقييدها بقيود المذهب.

كان داروين يرى ان غريزة الاجتماعية ملازمة لطبيعة الانسان فلا يمكن تخيل فرد من الأفراد إلا وهو مرتبط من كل ناحية بسلاسل تربطه بالمخلوقات والجماعات.

المصادر والمراجع

١ ـ أزهار حلم ـ **Fleurs de Rêve** ايزيس كوبيا ـ Isis Copia ديوان شعر لميّ بالفرنسية ـ القاهرة ١٩١١ ، وهو باكورة إنتاجها الأدبي.

٢ ـ ابتسامات ودموع ـ **Deusche Liebe** ترجمة ميّ زيادة عن اللغة الألمانية، والكاتب: «فريدريك ماكس مولر» ـ القاهرة ـ ١٩١٢ .

٣ ـ رجوع الموجة ـ **Le Retour du Flot** ترجمة ميّ زيادة عن اللغة الفرنسية لرواية : «برادا» ـ القاهرة ١٩١٦ .

٤ ـ باحثة البادية ـ ميّ زيادة ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ١٩٧٥ .

٥ ـ سوانح فتاة ـ ميّ زيادة ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ١٩٧٥ .

٦ ـ غاية الحياة ـ ميّ زيادة ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ١٩٧٥ .

٧ ـ كلمات واشارات ـ ميّ زيادة ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ١٩٧٥ .

٨ ـ ظلمات وأشعة ـ ميّ زيادة ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ١٩٧٥ .

٩ ـ المساواة ـ ميّ زيادة ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ١٩٧٥ .

١٠ ـ بين الجزر والمدّ ـ ميّ زيادة ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ١٩٧٥ .

١١ ـ **الصحائف** ـ ميّ زيادة ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ١٩٧٥ .
١٢ ـ **عائشة تيمور** ـ ميّ زيادة ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ١٩٧٥ .
١٣ ـ **وردة اليازجي** ـ ميّ زيادة ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ١٩٧٥ .
١٤ ـ **رسالة الأديب إلى المجتمع** ـ ميّ زيادة ـ العروة الوثقى ـ بيروت ١٩٣٨ .
١٥ ـ **كلمات وإشارات** ـ الجزء الثاني ـ ميّ زيادة ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ١٩٨٣ .
١٦ ـ **تاريخ الأزمنة** ١٠٩٥ ـ ١٦٩٩ ـ البطريرك مار اسطفان الدويهي ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٥١ .
١٧ ـ **منارة الأقداس** ـ البطريرك مار اسطفان الدويهي ـ بيروت ١٨٩٥ المطبعة الكاثوليكية.
١٨ ـ **بلادنا فلسطين** ـ مصطفى الدباغ ـ دار الطليعة ـ بيروت ١٩٧٤ .
١٩ ـ **رحلات إلى سورية والأرض المقدسة** ـ جون لويس بيركهارت ـ منشورات جون موري ـ لندن ١٨٢٢ .
٢٠ ـ **سبعون** ـ ميخائيل نعيمه ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ١٩٧٧ .
الغربال ـ ميخائيل نعيمه ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ١٩٧١ ـ المجموعة الكاملة ـ ج (٣).
٢١ ـ **العواصف** ـ جبران خليل جبران ـ مؤسسة نوفل ـ الأعمال الكاملة ـ ج (٣).
٢٢ ـ **ديوان عائشة التيمورية**، حلية الطراز ـ دار الكاتب العربي ـ القاهرة ١٩٥٢ .
٢٣ ـ **رسالة المنبر إلى الشرق العربي** ـ فيليكس فارس ـ مطبعة المستقبل الاسكندرية ـ ١٩٣٦ .
٢٤ ـ **ميّ زيادة** ـ عبد اللطيف شرارة ـ منشورات صادر ـ بيروت ١٩٦٥ .
٢٥ ـ **ميّ أديبة الشرق والعروبة** ـ محمد عبد الغني حسن ـ عالم الكتب ـ القاهرة ١٩٦٣ .

حياة ميّ ـ محمد عبد الغني حسن ـ مطابع المقطم والمقتطف ـ القاهرة ـ ١٩٤٢.

٢٦ ـ ميّ في حياتها وأدبها ـ وداد سكاكيني ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٩.

٢٧ ـ ميّ زيادة التوهّج والأفول ـ روز غريّب ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ١٩٧٨.

٢٨ ـ محاضراتٍ عن ميّ ـ الدكتور منصور فهمي ـ معهد الدراسات العربية العليا، القاهرة ـ ١٩٥٥.

٢٩ ـ باقات من حدائق ميّ ـ فاروق سعد ـ منشورات زهير البعلبكي ـ بيروت ١٩٧٣.

٣٠ ـ فن المراسلة عند ميّ ـ أمل داعوق سعد ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٢.

٣١ ـ مذكرات ميّ زيادة ـ جميل جبر ـ دار الريحاني ـ بيروت ١٩٥١.

٣٢ ـ رسائل ميّ ـ جميل جبر ـ منشورات مكتبة بيروت ١٩٥١.

٣٣ ـ ميّ في حياتها المضطربة ـ جميل جبر ـ دار بيروت ١٩٥٣.

٣٤ ـ ميّ في حياتها وأدبها ـ جميل جبر ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٦١.

٣٥ ـ ميّ في سوريا ولبنان ـ منشورات المرأة الجديدة ـ بيروت ١٩٢٤.

٣٦ ـ الذين أحبوا ميّ ـ كامل الشناوي ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٢.

٣٧ ـ قصتي مع ميّ ـ أمين الريحاني ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٨٠.

٣٨ ـ الريحاني ومعاصروه ـ جمع وتحقيق ألبرت الريحاني ـ دار الريحاني ـ بيروت ١٩٦٥.

٣٩ ـ رسائل الريحاني ـ جمع وتحقيق ألبرت الريحاني ـ دار الريحاني ـ بيروت ١٩٥٩.

٤٠ ـ قلب لبنان ـ أمين الريحاني ـ دار الريحاني ـ بيروت ١٩٦٥.

٤١ ـ أحمد لطفي السيد: أستاذ الجيل ـ الدكتور حسين فوزي النجار ـ

سلسلة أعلام العرب ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ ١٩٧٢.

٤٢ ـ **أطياف من مصر ـ Silhouettes D'Egypte** راوول فارغون ـ Raoul Fargon القاهرة ـ ١٩٣١.

٤٣ ـ **ذكرى ميّ وتقديرها ـ** المستشرق الدكتور «أوزفالدو ماتشادو» ـ منشورات السلام ـ بوينس آيرس ـ الأرجنتين ـ ١٩٤٣ «Osvaldo Machado».

٤٤ ـ **أصوات من الشرق ـ «Voces de Oriente»** ـ ليلى نفاع ـ مونتفيديتو ـ الأورغواي ـ ١٩٣٨.

٤٥ ـ **أطياف من حياة ميّ ـ** طاهر الطناحي ـ كتاب الهلال ـ القاهرة ١٩٧٤.

٤٦ ـ **الساعات الأخيرة ـ** طاهر الطناحي ـ دار الهلال ـ القاهرة ١٩٦٢.

٤٧ ـ **ألحان الغروب ـ** طاهر الطناحي ـ دار الهلال ـ القاهرة ١٩٦٤.

٤٨ ـ **مذكرات طه حسين ـ** دار الآداب ـ بيروت ـ ١٩٦٧.

٤٩ ـ **مع أبي العلاء في سجنه ـ** طه حسين ـ القاهرة ـ ١٩٣٩.

٥٠ـ **على الطريق ـ** فؤاد صروف ـ مطبعة قلفاط ـ بيروت ١٩٥٤.

٥١ ـ **جدد وقدماء ـ** مارون عبود ـ دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٣ ـ الطبعة الثانية.

٥٢ ـ **مجددون ومجترون ـ** مارون عبود ـ دار الثقافة ـ بيروت.

٥٣ ـ **«الفصول»** ـ عباس محمود العقاد ـ دار الكتاب العربي ـ الطبعة الثالثة ـ بيروت ١٩٧١.

٥٤ ـ **«أنا»** ـ عباس محمود العقاد ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٦٩.

٥٥ ـ **رجال عرفتهم ـ**عباس محمود العقاد ـ كتاب الهلال ـ القاهرة ١٩٦٣.

٥٦ ـ **ديوان أعاصير مغرب ـ** عباس محمود العقاد ـ مطبعة الاستقامة ـ القاهرة ١٩٤٢.

٥٧ ـ **دواوين العقاد ـ** منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ بيروت ـ ١٩٧٣.

٥٨ ـ **أعلام وأصحاب أقلام** ـ أنور الجندي ـ دار النهضة ـ القاهرة ١٩٥٢ .
٥٩ ـ **أضواء على الأدب العربي المعاصر** ـ أنور الجندي ـ دار الكاتب العربي ـ القاهرة ١٩٦٨ .
٦٠ ـ **التجديد في النثر العربي** ـ أنور الجندي ـ مكتبة الأنجلو المصريـة ـ ١٩٦١ .
٦١ ـ **عصر ورجال** ـ فتحي رضوان ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ١٩٦٧ .
٦٢ ـ **عمالقة الصحافة** ـ حافظ محمود ـ كتاب الهلال ـ القاهرة ـ ١٩٧٤ .
٦٣ ـ **فرسان الكلام** ـ توفيق يوسف عواد ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٦٧ .
٦٤ ـ **أديبات لبنانيات** ـ املي فارس ابراهيم ـ دار الريحاني ـ بيروت ١٩٧٠ .
٦٥ ـ **تربية سلامة موسى** ـ سلامة موسى ـ دار الكاتب المصري ١٩٤٧ .
٦٦ ـ **ابراهيم ناجي الشاعر والإنسان** ـ محمود الشرقاوي ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٧٣ .
٦٧ ـ **جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين** ـ عنبرة سلام الخالدي ـ دار النهار للنشر ـ بيروت ١٩٧٨ .
٦٨ ـ **أدباء معاصرون** ـ حبيب الزحلاوي ـ مكتبة العرب ـ القاهرة ١٩٣٥ .
٦٩ ـ **وثائق من كواليس الأدباء** ـ توفيق الحكيم ـ دار الأخبار القاهرة ـ ١٩٧٧ .
٧٠ ـ **البدائع** ـ زكي مبارك ـ القاهرة .
٧١ ـ **نضال** ـ نجيب الريّس ـ مطبعة القبس ـ دمشق ـ ١٩٣٤ .
٧٢ ـ **غراميات العقاد** ـ عامر العقاد ـ دار حراء ـ القاهرة ١٩٧٥ .
٧٣ ـ **الحديقة** ـ مجموعة أدب بارع وحكمة بليغة ـ جمع محب الدين الخطيب ـ الجزء الأول ـ المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٩٣١ .
٧٤ ـ **سارة** ـ عباس محمود العقاد ـ دار الكاتب العربي ـ بيروت ١٩٦٧ .
٧٥ ـ **وحي الرسالة** ـ أحمد حسن الزيات ـ مطبعة الرسالة ـ الجزء الثاني من الطبعة السادسة ـ القاهرة ـ ١٩٦٣ .

٧٦ ـ **الشذرات** ـ الأمير مصطفى الشهابي ـ دار الكتاب الجديد ـ بيروت ١٩٦٦.
٧٧ ـ **دراسات أدبية** ـ جورج غريب ـ دار الثقافة ـ بيروت **١٩٧٣**.
٧٨ ـ **صور وذكريات** ـ سلمى صائغ ـ دار الطباعة والنشر العربية ـ سان باولو ـ البرازيل ـ ١٩٤٦.
٧٩ ـ **من وحي الأمومة** ـ روز عطاالله شحفة ـ مطابع الريحاني ـ بيروت ١٩٥٠.
٨٠ ـ **المستشرقون** ـ نجيب عقيقي ـ مطبعة الاتحاد ـ بيروت **١٩٣٧**.
٨١ ـ **حياة الرافعي** ـ محمد سعيد العريان ـ مطبعة الرسالة ـ القاهرة **١٩٣٩**.
٨٢ ـ **الرافعي وميّ** ـ عبد السلام حافظ هاشم ـ المؤسسة المصرية للتأليف والنشر ـ القاهرة ١٩٦٤.
٨٣ ـ **مصطفى صادق الرافعي**: حياته وأدبه ـ حسنين حسن مخلوف ـ كتاب الهلال ـ القاهرة ١٩٧٦.
٨٤ ـ **دراسة في أدب الرافعي** ـ الدكتور نعمات فؤاد ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة **١٩٦٣** ـ الطبعة الثانية.
٨٥ ـ **رسائل الأحزان** ـ مصطفى صادق الرافعي ـ القاهرة **١٩٢٤**.
٨٦ ـ **السحاب الأحمر** ـ مصطفى صادق الرافعي ـ القاهرة **١٩٢٥**.
٨٧ ـ **أوراق الورد** ـ مصطفى صادق الرافعي ـ القاهرة **١٩٣١**. المطبعة السلفية.
٨٨ ـ **الكتاب الذهبي ليوبيل المقتطف الخمسيني** ـ مطبعة المقتطف والمقطم ـ القاهرة ـ ١٩٢٦.
٨٩ ـ **الآثار الكاملة لأنطون سعادة** ـ منشورات الحزب القومي الاجتماعي ـ بيروت ١٩٧٥.
٩٠ ـ **قاموس الأعلام** ـ خير الدين الزِّرِكلي.
٩١ ـ **الشعلة الزرقاء** ـ رسائل جبران خليل جبران إلى ميّ زيادة ـ تحقيق وتقديم سلمى الحفار الكزبري وسهيل بديع بشروئي ـ وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ دمشق ـ **١٩٧٩** ـ الطبعة الأولى.

٩٢ ـ **ميّ زيادة وأعلام عصرها** ـ سلمى الحفار الكزبري ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ١٩٨٢.

٩٣ ـ **ذكرى فقيدة الأدب النابغة ميّ** ـ مجموعة الخطب والقصائد التي ألقيت في حفلة تأبينها بالقاهرة ـ منشورات الاتحاد النسائي المصري ـ ١٩٤١.

٩٤ ـ **رسائل جبران التائهة** ـ رياض حنين ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ١٩٨٣.

٩٥ ـ **أحاديث عن ميّ زيادة وأسرار غير متداولة من حياتها** ـ حسين عمر حمادة ـ دار قتيبة ـ دمشق ـ ١٩٨٣.

٩٦ ـ **ديوان بدوي الجبل** ـ مطبعة العرفان ـ صيدا ١٩٢٥.

٩٧ ـ **ديوان نقولا فياض** ـ رفيف الأقحوان ـ المطبعة الكاثوليكية. بيروت ـ ١٩٥٠.

٩٨ ـ **ديوان شبلي الملاط** ـ دار الطباعة والنشر اللبنانية ـ بيروت ١٩٣٨.

٩٩ ـ **ديوان شبلي الملاط وتامر الملاط** ـ بيروت.

١٠٠ ـ **ديوان خليل مطران** ـ الجزء الثاني ـ دار الهلال ـ القاهرة ١٩٤٨.

١٠١ ـ **ديوان محمد الماحي** ـ دار الفكر العربي ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٥٧.

١٠٢ ـ **ديوان حليم دموس**: المثاني والمثالث ـ مطبعة العرفان ـ صيدا ـ ١٩٢٦.

١٠٣ ـ **ديوان «أشجان الليل** ـ عباس محمود العقاد ـ

والصحف والمجلات التالية: «المحروسة»، والأهرام والمقطم، والعمل، والنهار، والمرأة الجديدة، وصوت المرأة، ودنيا المرأة، والأديب، والحوادث (الحلبية)، والزهور، والورد الصافي، والفجر، والرسالة والمقتطف، ومجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، والمجلة الخديوية، والمستقبل، والصياد والعالم العربي، والكرمل، والعالم العربي (المصرية) ومينرفا، والحسناء، والفكر العربي، والنهضة، والدوحة، والمكشوف، والجمهور، والعروس، وآخر ساعة، والهدف اللبنانية ، ومجلة الطالبة (المصرية)،

ومجلة الشرق الحديث الايطالية ـ Oriente Moderno ـ ولـوجورنـال ديجيبت ـ Le Journal D'Egypte، و«إيماج ـ Images» المصرية ـ ومجلة القلم (السودانية)، ومجلة حواء (المصرية) وجريدة «لوبروجرى، Le Progrés» المصـرية ـ و«لاروفـو دو ليبان ـ La Revue du Liban»، و«جريدة الأوريـان ـ L'orient» ومجلة: الإذاعة اللبنـانية ـ والمجلة العربية (الرياض) ومجلة «قافلة الزيت» و«الثقافة»، ومجلة: «النهضة النسائية».

الأعـلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظـ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

الفهرست

للمؤلفة

١ ـ **يوميات هالة** ـ ١٩٥٠ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت.
٢ ـ **حرمان** ـ قصص ـ ١٩٥٢ ـ دار المعارف بمصر.
٣ ـ **زوايا** ـ قصص ـ ١٩٥٥ ـ دار المعارف بمصر.
٤ ـ **الوردة المنفردة** ـ شعر بالفرنسية ـ بوينس آيرس الأرجنتين ـ ١٩٥٨.
٥ ـ **نساء متفوقات** ـ ١٩٦١ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت.
٧ ـ **نفحات الأمس** ـ ديوان شعر بالفرنسية ـ باريس ١٩٦٦.
٨ ـ **الغريبة** ـ قصص ـ ١٩٦٦ ـ مكتبة أطلس ـ دمشق.
٩ ـ **عنبر ورماد** ـ سيرة ذاتية ـ ١٩٧٠ ـ دار بيروت للنشر.
١٠ ـ **في ظلال الأندلس** ـ محاضرات ـ ١٩٧١ ـ مطابع ألف باء ـ دمشق.
١١ ـ **البرتقال المرّ** ـ رواية ـ ١٩٧٥ ـ دار النهار للنشر ـ بيروت.
١٢ ـ **الشعلة الزرقاء** ـ رسائل جبران خليل جبران إلى ميّ زيادة المخطوطة وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ ١٩٧٩ ـ دمشق ـ الطبعة الأولى.
١٣ ـ **جورج صاند: حبّ ونبوغ** ـ ١٩٧٩ ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت.
١٤ ـ **ميّ زيادة وأعلام عصرها** ـ ١٩٨٢ ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت.
١٥ ـ **الشعلة الزرقاء** ـ ١٩٨٣ ـ مؤسسة نوفل بيروت ـ الطبعة الثانية.
١٦ ـ **حزن الأشجار** ـ قصص ـ ١٩٨٦ مؤسسة نوفل ـ بيروت.
١٧ ـ **ميّ زيادة أو مأساة النبوغ، جزآن** ـ ١٩٨٧ ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت.

ميّ زياده

أو

مأساة النبوغ

النبوغ والمأساة كلمتان تختصران حياة ميّ زياده في شروقها وغروبها.

قدرٌ رحيمٌ وقاسٍ رفع هذه الأديبة الرائدة إلى قمّة المجد ثم أرداها إلى هاوية الشقاء.

كاتبة فذّة أعطت للأدب والنهضة العربية الحديثة عمرها كله، ولم تحصل على شيء، إلا على أرفع مكانةٍ في تأريخ الأدب العربي.

نابغة شقيت بنبوغها كما لم يشق به أحدٌ غيرها عبر العصور: أحاط بها عظماء عصرها، وعلّقوا على هامتها إكليل المجد، وجفاها أهلوها، ثم جاراهم كثير من أصدقائها بعد أن أدبر سعدها مما يدعو إلى القول إن من المفارقات العجيبة في بلادنا أن يُحارب النبوغ، ويُهان صاحبه، ولا سيما إذا تجلّى في امرأة...

مؤسسة نوفل